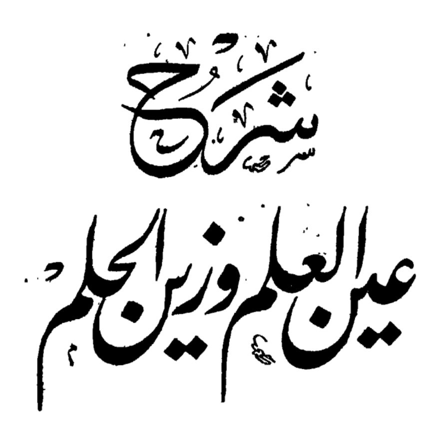




للامام العلامة والحبر النابغة الفهامة الشيخ نور الدين
منلا على بن سلطان محمد الهروى المعروف بالقارى
صاحب المؤلفات الكثيرة المتوفى سنة ١٠١٤ هـ

الجزء الثانى

صححه وقابل أصوله وعلق عليه للمرة الأولى سنة ١٣٥٣ هـ

ادارة الطباعة المنيرية
لصاحبها ومديرها محمد منير عبده اغا الدمشقى
طبع على نفقة مكتبة احياء العلوم العربية

بدرب الاتراك بمصر رقم ١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْبَابُ الْعَاشِرُ ﴾

﴿ فِى الأَنَاةِ وَالْعَجَلَةِ وَالْحِلْمِ وَالْعَفْوِ وَالنَّصِيحَةِ وَالْحِقْدِ ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الأَنَاةُ مَعْنًى بَاعِثٌ عَلَى الاحْتِيَاطِ فِى الأُمُورِ، وَالتَّأَنِّى اتِّبَاعُهَا بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ وَالتَّوَقُّفُ قَبْلَهُ، وَضِدُّهَا الْعَجَلَةُ وَهِىَ بَاعِثٌ عَلَى الاقْدَامِ بِأَوَّلِ خَاطِرٍ، وَالاسْتِعْجَالُ اتِّبَاعُهُ، وَوَرَدَ «الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ» الاَّ فِى تَزْوِيجِ الْبِكْرِ وَقَضَاءِ الدَّيْنِ وَتَجْهِيزِ الْمَيِّتِ وَقِرَى الضَّيْفِ *

الاناة بفتحات اسم لضد العجلة، والحلم التحمل، والعفو التجاوز، والنصيحة ارادة الخير للمنصوح له، والحقد بالكسر العداوة بالقلب وينتج نحو الحسد والغضب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الذى يستعان به على كل خلق كريم ويستعاذ به من كل طبع ذميم ﴿ الاناة معنى ﴾ اى خلق باطنى ﴿ باعث على الاحتياط فى الامور ﴾ أى المتعلقة بالحكم الخارجى وهو ارادة اتمام الامور على وجهها بحيث لا يفوت شىء من حقها ﴿ والتأنى ﴾ مصدر من باب التفعل وتاؤه للطلب أو التكلف ﴿ اتباعها ﴾ اى تتبع تلك الامور ﴿ بعد الدخول ﴾ اى دخول الانسان ﴿ فيه ﴾ أى فى حال الدخول قبل الدخول، وضده التعسف فى الحصول ﴿ والتوقف قبله ﴾ اى ويقال له التوقف ﴿ وضدها ﴾ اى الاناة ﴿ العجلة وهى ﴾ أى العجلة معنى ﴿ باعث على الاقدام ﴾ أى اقدام الانسان على الامور ﴿ بأول خاطر ﴾ من غير تأمل وتفكر ﴿ والاستعجال اتباعه ﴾ اى تتبع ذلك الباعث من غير تأخر ﴿ وورد العجلة من الشيطان ﴾ أبو يعلى من حديث أنس بلفظ «التأنى من الله والعجلة من الشيطان» والترمذى وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ «الاناة من الله» ﴿ الا فى تزويج البكر ﴾ أى خصوصا اذا بلغت ووجدت لها كفوا ﴿ وقضاء الدين ﴾ ولو كان مؤجلا ﴿ وتجهيز الميت ﴾ اذا كان ميسرا ﴿ وقرى الضيف ﴾

وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ وَآفَاتُهَا الحِرْمَانُ فَمَنِ اسْتَعْجَلَ نَيْلَ مَنْزِلَةٍ أَوْ إِجَابَةَ دَعْوَةٍ قَبْلَ الوَقْتِ بِتَرْكِ مَلَالَةٍ أَوْ مُكَافَأَةَ ظَالِمٍ يَبْطُلْ بِالدُّعَاءِ عَلَيْهِ وَاقْتِحَامُ الشُّبْهَةِ فَأَصْلُ الوَرَعِ النَّظَرُ البَالِغُ فِي كُلِّ شَـــيْءٍ

اذ حسنه ان يكون معجلا لقوله تعالى : (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) ففيه الدلالة على المبادرة بالعبارة والاشارة ﴿ والتوبة من الذنب ﴾ إذ يجب ان تكون فى الحال فان اكثر عذاب أهل النار من تسويفهم فى القال ويستثنى أيضا الصلاة اذا دخل وقتها فان فى التأخير آفات ﴿ وآفاتها ﴾ اى العجلة اشياء منها ﴿ الحرمان ﴾ من المطلوب ﴿ فمن استعجل نيل منزلة ﴾ من مال أو جاه او لذة أو مقام أو حال أو مرتبة ﴿ أو اجابة دعوة قبل الوقت ﴾ أى المقدر لها فان الامور مرهونة بأوقاتها ﴿ بترك ملالة ﴾ اى بترك المستعجل طلب تلك المنزلة والدعوة من جهة الملالة فيكون سبب الحرمان عن وصول تلك الحالة لامحالة، او يغلو ويبالغ فى الجهد واتعاب النفس فينقطع عن الطريق فهو بين افراط وتفريط وكلاهما نتيجة الاستعجال ، وقد ورد برواية البزار والحاكم والبيهقى وغيرهم « ان ديننا هذا متين فاوغل فيه برفق فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى » والمنبت الذى انقطع به فى سفره وعطبت راحلته ، والفعل انبت مطاوع بته من البت وهو القطع. وفى المثل السائر ان لم تستعجل تصل : ولبعضهم يقول، قد يدرك المتأنى بعض حاجته، وقد يكون مع المستعجل الزلل فيفتر ويسأم ويترك الدعاء فيحرم حاجته قال تعالى: (لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيؤوس قنوط) ﴿ أو مكافأة ظالم ﴾ اما منصوب عطفا على نيل منزلة أو مجرور عطفا على منزلة ﴿ يبطل ﴾ اجره لعدم صبره ﴿ بالدعاء عليه ﴾ أى على الظالم وذلك بان يظلمه انسان فيغيظه ويدعو عليه وربما يتجاوز عن الحد فيقع فى المعصية والهلاك ، قال تعالى : (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا) ﴿ واقتحام الشبهة ﴾ أى ومن آفات العجلة دخول الشبهات المورثة للسيئات ﴿ فاصل الورع ﴾ أى أساسه الذى عليه مدار الشرع ﴿ النظر البالغ فى كل شىء ﴾ أى من الاصل والفرع الذى هو بصدده من اكل وشرب وكلام وغيره ، فاذا كان الرجل مستعجلا فى أموره غير متأن ولا متثبت عند صدورها فيميل الى كل طعام وكلام فيقع فى شبهة أو حرام . وكذا فى سائر المرام فيفوته الورع الذى عليه مدار أحكام الاسلام ، وقد ورد أخبار وآثار فى فضل الرفق الذى عليه مدار حسن الخلق فى معاشرة الخلق . ففي صحيح مسلم

وَالافْرَاطُ فى الغَضَبِ وَهو مَذْمُومٌ فَوَرَدَ الغَضَبُ يُفْسِدُ الايمَانَ كمَا يُفْسِدُ الصَّبِرُ الْعَسَلَ وَهُوَ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ لِطَلَبِ الانْتِقَامِ وَالمَحْمُودُ الاعْتِدَالُ

من حديث عائشة « ان الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه مالا يعطى على العنف » وفى الصحيحين من حديثها « ياعائشة ان الله يحب الرفق فى الامر كله » ولمسلم من حديث جرير « من يحرم الرفق يحرم الخير » أى كله كما فى رواية أبى داود . وللطبرانى فى الاوسط من حديث ابن مسعود والبيهقى فى الشعب كلاهما من حديث عائشة « الرفق يمن والخرق (١) شؤم » ولابن المبارك فى الزهد من حديث أبى جعفر مرسلا « إذا أردت امرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان سوى ذلك فانته » وعن الحسن « المؤمن وقاف (٢) متان وليس كحاطب ليل » ثم العنف وان كان محمودا فى بعض الاحوال ولكن الاحتياج الى الرفق أقوى فى اكثر الافعال والاقوال ، ومن هنا قال سفيان لاصحابه : أتدرون ماالرفق ؟ قالوا قل يا أبا محمد ، قال : أن تضع الامور فى مواضعها : الشدة فى موضعها ، واللين فى موضعه ، والسيف فى موضعه ، والسمط فى موضعه . وفيه تنبيه نبيه على انه ينبغى مزج الغلظة باللين والعنف بالرفق كما قيل :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا * أى باهله * مضر كوضع السيف فى موضع الندى

أى العطاء : وعن أبى عون الانصارى ماتكلم الناس بكلمة صعبة الا والى جانبها كلمة الين منها تجرى مجراها ﴿ والافراط ﴾ أى ومن آفات العجلة الاكثار والمبالغة ﴿ فى الغضب وهو ﴾ أى الغضب أو افراطه ﴿ مذموم ﴾ أى شرعا وعرفا ﴿ فورد ﴾ أى برواية الطبرانى والبيهقى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ﴿ الغضب يفسد الايمان ﴾ أى كماله أو يطفىء نوره أو يمنع ظهوره ﴿ كما يفسد الصبر العسل ﴾ وهو بفتح الصاد وكسر الباء عصارة شجرة مرة ، وعن أبى هريرة « أن رجلا قال : يارسول الله مرنى بعمل واقلل قال : لاتغضب ثم أعاد عليه فقال لاتغضب » رواه البخارى . *

ومن هنا قيل لابن المبارك : أجمل لنا الخلق الحسن فى كلمة ، قال : ترك الغضب . وعن عكرمة فى قوله تعالى : (وسيدا وحصورا) قال : السيد الذى لايغلبه الغضب . وقد قيل الغضب غول العقل ﴿ وهو ﴾ أى الغضب ﴿ غليان دم القلب لطلب الانتقام والمحمود ﴾ من الغضب ﴿ الاعتدال ﴾ كسائر الاخلاق والاحوال . فللبيهقى فى الشعب مرسلا « خير

(١) الخرق بضم الخاء الجهل والحمق (٢) الوقاف الذى لا يستعجل فى الامور

وَهُوَ الضَّبْطُ تَحْتَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ فَالتَّفْرِيطُ مَذْمُومٌ كَالإِفْرَاطِ فَوَرَدَ (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ - وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللّٰهِ) وَقَلْعُهُ فِى زَوَالِ مَا اسْتُغْنِىَ عَنْهُ مُمْكِنٌ لَامَا احْتِيجَ إِلَيْهِ كَطَعَامٍ يَسُدُّ جُوعَهُ وَثَوْبٍ يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ وَبَيْتٍ يُوَارِيهِ وَكِتَابٍ يُطَالِعُهُ لِصُعُوبَةِ تَفْرِيغِ الْقَلْبِ عَنْ حُبِّهَا

الأمور أوسطها» ﴿وهو﴾ أى الاعتدال ﴿الضبط تحت الشرع والعقل﴾ بان لا يكون فيه تفريط ولا افراط ، فيغلب حيث وجبت الحمية الشرعية ، وينطفىء حيث يحسن الحلم فى القضية الفرعية ﴿فالتفريط﴾ أى بفقد الغضب اوضعفه ﴿مذموم﴾ وهو الذى يقال فيه : انه لاحمية له ، ولذا قال الشافعى : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان ﴿كالافراط﴾ أى كما ان الافراط بالتجاوز عن الحد مذموم قال تعالى : (اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة من الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنعم الله عليهم من السكينة ﴿فورد﴾ فى مدح الاعتدال قوله تعالى ﴿اشداء على الكفار﴾ تمامه (رحماء بينهم) وكذا قوله (أذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين) وقد قال تعالى لنبيه عليه السلام (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ﴿ولا تأخذكم بهما﴾ أى بالزانى والزانية فى حدهما ﴿رأفة فى دين الله﴾ أى شدة رحمة وهو دليل الذم التفريط ، وقال عليه السلام « خيار امتى احداؤها » يعنى فى الدين ، رواه الطبرانى والبيهقى عن على ﴿وقلعه﴾ اى قطع الغضب ورفعه ﴿فى زوال ما استغنى عنه﴾ كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب ﴿ممكن﴾ إذ ليست هذه الاشياء ضروريات لاحد من الخلق فيمكن رفعها بالرياضة والمجاهدة العلمية والعملية ﴿لا﴾ أى لا يمكن قلعه فى زوال ﴿ما احتيج اليه﴾ اى ولا يستغنى عنه بحال ﴿كطعام يسد جوعه﴾ من قوت يومه وليلته ﴿وثوب يستر عورته﴾ ويصحح صلاته ﴿وبيت يواريه﴾ أى يستر حالته ويدفع برودته وحرارته ﴿وكتاب يطالعه﴾ وفى معناه كل آلة بها يكتسب صاحبها ، والاخير من ضروريات بعض افراد الناس ﴿لصعوبة تفريغ القلب عن حبها﴾ أى عن حب هذه الأشياء بحكم الطبيعة ، فانه لا يمكن قلعها بالرياضة ولا كلف أحد بها فى أبواب الشريعة ، وقد اشار اليه

الّا لِمَنْ غَلَبَ عَلَيْه التَّوْحِيدُ فَيَرَى الخَلْقَ مُسَخَّرِينَ لِلْحَقِّ كَالْقَلَمِ لِلْكَاتِب، وَفِيه يَتَصَوَّرُ الكَسْرُ بِأَنْ لَا يَظْهَرَ الأَثَرُ

صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله « من أصبح منكم آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يوم فكأنما حيزت له الدنيا » أى جمعت له لذاتها . الترمذى وابن ماجه من حديث عبدالله ابن محصن . وقال الترمذى : حسن غريب : ورواه الطبرانى فى تاريخه والكل بدون زيادة بحذافيرها ﴿ الا لمن غلب عليه التوحيد ﴾ فلا يغضب على تفويت هذه الاشياء لما عنده من المقام السديد وحال الفناء ﴿ فيرى الخلق مسخرين للحق ﴾ القاهر الغالب ﴿ كالقلم للكاتب ﴾ لكن غلبة التوحيد الى هذا الحد فى مقام التفريد انما يكون كالبرق الخاطف يقع فى أحوال نادرة مع الرب ثم يرجع القلب الى الوسائط رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه ، ولو تصور ذلك على الدوام لاحد من الانام لتصور لرسوله عليه السلام فانه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه ، ويقول « انما أنا بشر اغضب كما يغضب البشر » كما فى الصحيحين ، وفى رواية « فايما مسلم سببته أو لعنته أوضربته فاجعلها منى صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة » ﴿ وفيه ﴾ أى فيما احتيج اليه ﴿ يتصور الكسر ﴾ أى كسر النفس ﴿ بان لا يظهر الاثر ﴾ أى اثر الغضب فى البشرة لا قلع الغضب بالمرة لانه غير مقدور للبشر .
وعن على كرم الله وجهه « كان عليه السلام لا يغضب للدنيا فاذا اغضبه الحق لم يقربه احد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له » رواه الترمذى فى الشمائل . وفى صحيح مسلم عن عروة « ان عائشة حدثته ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم خرج من عندها ليلا قالت فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال مالك ياعائشة اغرت ؟ فقلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك ، فقال ﷺ : لقد جاءك شيطانك ، قالت يارسول الله اومعى شيطان . قال نعم ، قلت ومع كل انسان . قال نعم ، قلت ومعك يارسول الله ؟ قال نعم ولكن ربى اعاننى عليه حتى اسلم فلا يأمرنى الا بخير » وفى الاحياء اراد شيطان الغضب . والمعنى انه لا يحملنى على الشر ، وقال عبدالله بن عمرو بن العاص « يارسول الله اكتب عنك كل ما قلت فى الغضب والرضا . قال اكتب فو الذى بعثنى بالحق ما يخرج منه الا حق » واشار الى لسانه » فلم يقل انى لا أغضب ، ولكن قال ان الغضب لا يخرجنى عن الحق ولا اعمل بموجب الغضب . والحديث رواه أبوداود باسناد صحيح وهو متضمن لما فى قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى) وقوله سبحانه : (قل انما انا بشر

وَالسَّبَبُ الكِبْرُ وَالعُجْبُ وَالمِزَاحُ وَالاسْتِهْزَاءُ وَالايذَاءُ وَالحِرْصُ فِي الفُضُولِ وَعِلَاجُ كُلٍّ فِي مَوْضِعِهِ

مثلكم يوحى الى) أى التميز بينى وبينكم بوقوع الوحى الى دونكم *

هذا وقد يفقد أصل الغضب فيما هو ضرورى اذا كان القلب مشغولا بضرورى اهم منه ، فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فان استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بما عداها ولو كانت من الضروريات ، ومن هنا لما شتم سلمان قال : ان خفت موازينى فانا شر مما تقول ، وان ثقلت موازينى فلا يضرنى ما تقول . فقد كان همه مصروفا الى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم ولم يصر سببا لغضبه ، وكذلك شتم الربيع بن خيثم فقال: ياهذا سمع الله كلامك ، وان دون الجنة عقبة ان قطعتها لم يضرنى ما تقول ، وان لم اقطعها فانا شر مما تقول ، وقيل للبسطامى : لحيتك أفضل أم ذنب الكلب ؟ فقال : ان مت مؤمنا فلحيتى والا فذنب الكلب فكان همه حسن الخاتمة ، وشتم رجل أبا بكر الصديق فقال : ماستر الله عنك اكثر ، فكأنه كان مشغولا بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتقى الله حق تقاته ويعرف الله حق معرفته ، فلم يغظ به نسبة غيره اياه الى نقصان فى امره ، اذ كان ينظر الى نفسه بعين النقصان وذلك لكمال قدره . وقالت امرأة لمالك بن دينار : يامرائى ، فقال ماعرفنى غيرك ، فكأنه كان مشغولا بان ينفى عن نفسه آفة الرياء ليصل الى حالة الاخلاص ومقام البقاء بعد الفناء ، وسب رجل الشعبى فقال : ان كنت صادقا فغفر الله لى وان كنت كاذبا فغفر الله لك ﴿والسبب﴾ أى باعث الغضب ستة أشياء ﴿الكبر والعجب والمزاح والاستهزاء والايذاء﴾ أى بالتعيير والمراء ﴿والحرص﴾ أى شدة الميل ﴿فى الفضول﴾ اى زيادة المال والجاه ، وهى باجمعها اخلاق ردية واحوال دنية مذمومة فى امور شرعية واحكام فرعية . ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الاسباب ، فلا بد من ازالتها باضدادها المعروفة فى الباب ﴿وعلاج كل﴾ اى من الكبر ونحوه ﴿فى موضعه﴾ اى يأتى مفصلا ، واما مجملا فهو بان يميت الكبر بالتواضع ، ويميت العجب بمعرفة النفس اذا كان بالعلم والعمل ، واما اذا كان بالنسب المجرد فبمعرفة ان بنى آدم جنس واحد ، وان الشرف بالفضائل . والفخر والعجب من اكبر الرذائل ، ويميت المزاح بالاشتغال بالمهمات الدينية والامور الاخروية ، ويزيل الهزل بالجد ، ويميت الباطل بالحق لقوله تعالى : (انه لقول فصل وما هو بالهزل) ويزيل التعيير بالاشتغال بعيوب نفسه فورد

وَبالاجْمَال التَّوَضُّوُ وَالتَّعبدُ وَالْقعودُ وَالاتِّكَاءُ وَالاضْطجَاعُ *

«طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، ومن عير اخاه بذنب لم يمت حتى يبتلى به» ويزيل الحرص على مزايا العيش بالقناعة والاشتغال بالعبادة على قدر الاستطاعة فالدنيا ساعة فاجعلها طاعة ، مع ما فى القناعة من الاستغناء والترفع عن ذل الحاجة . ثم المواظبة على مباشرة اضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة سديدة ، فاذا انمحت عن النفس فقد زكت وطهرت عن هذه الرذائل واتصفت بمحامد الفضائل ومكارم الشمائل *

والحاصل ان الغضب انما هو لضعف النفس ، فالمريض اسرع غضبا من الصحيح والمرأة أسرع غضبا من الرجل ؛ والصبي أسرع غضبا من الكبير ، والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل أسرع غضبا من صاحب الفضائل ، فالرذل يغضب لشهوته عند فوت لقمته ، ولبخله عند فوت حبته . وصاحب الفضل يملك نفسه عند غضبه وحدته ، ففى الصحيحين عن أبى هريرة « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » وهو الذى ذكرناه: علاجه بتفصيل الاحوال ﴿ وبالاجمال ﴾ علاجه اثناعشر ﴿ التوضؤ ﴾ والاغتسال أتم . ففى الحديث « إذا غضب احدكم فليتوضأ بالماء فان الغضب من النار » أبو داود من حديث عطية السعدى : وفى رواية أخرى « ان الغضب من الشيطان ، وان الشيطان خلق من النار وانما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحدكم فليتوضأ » وروى «أن عمر غضب يوما فدعا بماء فاستنشق وقال : ان الغضب من الشيطان » وهذا يذهب الغضب فى الجملة ﴿ والتعبد ﴾ أى بالصلاة ونحوها ، وفى نسخة التغسل وهو الظاهر فيكون فى الأصل تصحيف وتحريف اذلم يرد فيه حديث شريف بخلاف الاغتسال فقد أخرج ابن عساكر من حديث معاوية «الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار والماء يطفيء النار فاذا غضب أحدكم فليغتسل» ومن جملة العلاج السكوت فعن ابن عباس مرفوعا «اذا غضبت فاسكت» رواه أحمد وابن ابى الدنيا والطبرانى والبيهقى فى شعب الايمان ﴿ والقعود ﴾ اى الجلوس اذا كان قائما ﴿ والاتكاء ﴾ اذا كان جالسا ﴿ والاضطجاع ﴾ اذا كان متكئا فللترمذى من حديث أبى سعيد «ان الغضب جمرة فى القلب الم تروا الى انتفاخ أوداجه وحمرة عينه فاذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فان كان قائما فليجلس وان كان جالسا فلينم» (أى فليضطجع) فان لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل

وَ إِلْصَاقُ الْخَدِّ بِالْأَرْضِ فَالْكُلُّ مَرْوِيٌّ مَأْمُورٌ بِهِ مُعَلَّلاً بِأَنَّهُ جَمْرَةٌ

فان النار لايطفيها الا الماء» ، ولابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة كان عليه السلام «اذا غضب وهو قائم جلس واذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه» ولأحمد باسناد جيد «وكان أبو ذر قائما فجلس ثم اضطجع» فقيل له : لم جلست ثم اضطجعت؟ فقال: ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لنا : اذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فان ذهب عنه الغضب والا فليضطجع» والمرفوع عند أبي داود بسند فيه انقطاع . والاضطجاع غاية السكون ، فان سبب الغضب الحرارة ، وسبب الحرارة الحركة ، والظاهر عنوان الباطن ، ويستعان بكل منهما على الآخر كما حقق فى طهارة الظاهر والباطن ، وقد ورد «ان أبا ذر قال لرجل يا ابن الحمراء -فى خصومة بينهما-وفى رواية- يا ابن الخضراء فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : يا أبا ذر بلغنى انك اليوم عيرت رجلا بأمه قال نعم ، فانطلق أبو ذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : «يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بافضل من أحمر فيها ولا أسود الا أن تفضله بعمل ، ثم قال: اذا غضبت فان كنت قائما فاقعد ، وان كنت قاعدا فاتكئ ، وان كنت متكئا فاضطجع» رواه ابن أبي الدنيا باسناد صحيح . وفى الصحيحين من حديثه قال « كان بينى وبين رجل من اخوانى كلام وكانت امه أعجمية فعيرته بأمه فشكانى الى النبى ﷺ فقال: يا أبا ذر انك امرؤ فيك جاهلية» ولأحمد أنه عليه السلام قال له : «انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود الا أن تفضله بتقوى» ورجاله ثقات ﴿وإلصاق الخد بالأرض﴾ فعن أبي سعيد الخدرى مرفوعا «الا ان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ألا ترون الى حمرة عينيه وانتفاخ اوداجه فمن وجد من ذلك شيئا فليلصق خده بالأرض» الترمذى وحسنه . وكأن هذا اشارة الى تمكين اعز الاعضاء من أذل الأشياء لتستشعر به النفس المذلة وتزيل عنها الزهو والعزة ، وايماء الى ان من أوله وآخره التراب لايصلح له الغضب فى باب من الابواب ، والى قول بعض اولى الالباب: ماللتراب ورب الارباب والله أعلم بالصواب ، وقال عروة بن محمد لما استعملت على اليمن قال لى أبى : أوليت؟ قلت نعم، قال : فاذا غضبت فانظر الى السماء فوقك والى الارض تحتك ثم عظم خالقهما ﴿فالكل مروى﴾ اى فعله كما قدمنا ﴿مأمور به﴾ كما بينا . والمعنى انه جمع فيه بين العمل والقول ﴿معللا﴾ وفى نسخة معلل ﴿بانه﴾ اى الغضب ﴿جمرة﴾ أى حرارة غريزية أو

فِى الْقَلْبِ بِدَلِيلِ حُمْرَةِ الْعَيْنِ وَانْتِفَاخِ الْأَوْدَاجِ وَالاسْتِعَادَةُ وَالاسْتِعَاذَةُ وَالاسْتِعَانَةُ بِاللهِ تَعَالَى وَالعِلْمُ بِثَوَابِ الحِلْمِ وَالتَّحَلُّمُ فَوَرَدَ (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) أي المتحلمين و «مَنْ كَفَّ لله غَيْظَهُ كَفَّ اللهُ عنه عَذَابَهُ» إنَّ المُسْلِمَ لَيُدْرِكُ بِالحِلْمِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ

حادثة عرضية تتوقد ﴿فى القلب بدليل حمرة العين﴾ أى حينئذ ﴿وانتفاخ الاوداج﴾ اى عروق الرقبة. وقد سبقت به الرواية وتحققت فيه الدراية ﴿والاستعادة﴾ اى ومن جملة العلاج العودة الى الحالة الاولى بعد التغير عنها الى الحالة الثانية ﴿والاستعاذة﴾ أى التعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ ، وهو متفق عليه من حديث سليمان بن صرد « قال : كنت جالسا مع النبى ﷺ ورجلان يستبان فاحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال عليه السلام. لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد » الحديث . ولابن عدى من حديث أبى هريرة « اذا غضب الرجل فقال : أعوذ بالله سكن غضبه » ولابن السنى فى اليوم والليلة . من حديث عائشة « كان عليه السلام اذا غضبت عائشة أخذ بانفها وقال يا عويش قولى : اللهم رب النبى محمد اغفر لى ذنبى واذهب غيظ قلبى واجرنى من مضلات الفتن » ﴿والاستعانة بالله تعالى﴾ أى بحوله وقوته فى دفع غضبه وشدة حدته ﴿والعلم بثواب الحلم والتحلم﴾ عطف على العلم لا الحلم أى ومن العلاج التكلف فى الحلم فانه محمود أيضا وللطبرانى « انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » ﴿فورد﴾ فى التنزيل (والكاظمين الغيظ) أى المتحلمين وذلك فى معرض مدح المتقين من المؤمنين ، وتمامه (والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) وللطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث أنس ﴿من كف الله غيظه كف الله عنه عذابه﴾ ولابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر « من ملك غضبه وقاه الله عذابه » ولابن أبى الدنيا من حديث على « أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند المقدرة » ﴿ان المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم﴾ أى بالنهار ﴿القائم﴾ أى بالليل رواه الطبرانى فى الأوسط . ولابن السنى من حديث أبى هريرة « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم » وفى الصحيحين « يا أشج ان فيك خلقين يحبهما الله الحلم والاناة » وللطبرانى من حديث فاطمة « ان الله يحب الحيى الحليم » ولابن ماجه باسناد جيد من حديث ابن عمر « ماجرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله » زاد ابن أبى الدنيا من حديث ابن عباس « وما كظمها عبد الا ملأ الله قلبه ايمانا » وقال أيوب : حلم ساعة يدفع شرا كثيرا .

وَشِدَّةِ غَضَبِهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ وَفَضِيحَةِ الآخِرَةِ وَتَشْبِيهِ الحَلِيمِ بِالأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ وَالْغَضُوبِ بِالسَّبُعِ الضَّارِي وَقُبْحِ هَيْئَتِهِ

واجتمع سفيان الثورى وفضيل بن عياض فتذاكرا واجتمعا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الطمع ، وقال رجل لعمر: والله ماتقضى بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف فى وجهه، فقال له رجل: ياأمير المؤمنين ألم تسمع ان الله قال: (خذالعفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وهذا من الجاهلين، فقال عمر صدقت ، وكأنما كانت نارا فاطفئت ﴿وشدة غضبه تعالى وقدرته وفضيحة الآخرة﴾ أى والعلم بها فانها تكون سببا لاطفاء نار الغضب وتسكينها عن اللهب ، فيخوف نفسه بعقاب الله بان يقول: قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الانسان، فلو امضيت غضبى عليه لم آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة أحوج ماأكون الى العفو والمرحمة ، وقد قال تعالى فى بعض الكتب المتقدمة : ياابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلاأمحقك فيمن أمحق «وبعث رسول الله ﷺ وصيفا الى حاجة فابطأ عليه، فلما جاءه قال: لولا القصاص لأوجعتك ضربا» أى خوف القصاص فى القيامة أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف . ولأحمد من حديث عبد الله بن عمر. «وسأل رجل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مايبعدنى من غضب الله قال لاتغضب» ﴿وتشبيه الحليم بالأنبياء﴾ فورد « كادالحليم انيكون نبيا » وقدمدح الله سبحانه خليله بانه حليم ، وكذا بشره بغلام حليم ﴿والاولياء﴾ أى باتباع الانبياء من الاصفياء فقد ورد « العلماء ورثة الأنبياء» وضد ذلك من حال الاكراد والاتراك والجهلة والاغبياء ﴿والغضوب﴾ أى وتشبيه كثير الغضب ﴿بالسبع الضارى﴾ أى الصائل العادى من الأسد ونحوه ، فهو من اخلاق البهائم والكلب الهائم ﴿وقبح هيئته﴾ أى بتغيير صورته حال غضبه وشدة حدته بان يتفكر ويتذكر صورة غيره حال غضبه وتغير لونه وشدة رعدته فى اطرافه واكتافه ، وخروج افعاله عن ترتيبه ونظامه من اضطراب الحركة فى اعضائه وكلامه ، حتى يظهر الزبد على الاشداق وتحمر الاحداق وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة فى المظاهر. ولو رأى الغضبان نفسه فى حال غضبه وقبح صورته لسكن غضبه من قبح هيئته واستحالة خلقته ، وقبح باطنه اعظم من ظاهره ، وهذا التغير فى جسده . واما اثره باللسان فانطلاقه بالشتم والفحش وقبح الكلام الذي يستحيى منه

وَالعَجزِ عَنِ الغَلَبَةِ عَلَى مُرَادِهِ تَعَالَى وَانْتِقَامِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِ، وَحُدُوثُ الذُّنُوبِ لِأَخْذِ اللِّسَانِ فِي الفُحْشِ وَالسَّبِّ، وَالجَوَارِحِ فِي الضَّرْبِ وَالجَرْحِ وَالقَتْلِ وَالقَلْبِ فِي الحِقْدِ وَهُوَ ذَمِيمَةٌ فَاحِشَةٌ فَوَرَدَ «المُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقُودٍ»

ذوو العقول ، ويستحي منه قائله ايضا عند فتور غضبه ، وذلك مع تخبط نظمه او اضطراب لفظه. وأما أثره على الاعضاء فالضرب والهجم والتمزيق والجرح والقتل عند التمكين من غير مبالات ، فان هرب منه المغضوب عليه اوفاته بسبب لديه وعجز عن التشفي اليه رجع الغضب على نفسه بتمزيق ثوبه ولطم وجوه ، وقد يضرب بيده على الأرض أوجدره ويعدو عدو الواله والسكران في مشيه ، وربما يسقط صريعا لا يطيق العدو سريعا ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة على الارض ويكسر المائدة ويتعاطى افعال المجانين ؛ فيشتم البهيمة ويخاطبها ويقول لها الى متى الى متى منك ياهذا يا كيت وكيت كأنه يخاطب عاقلا ، حتى ربما رفسته دابة فيرفس ه والدابة ويقابلها بذلك ، وربما قتل نفسه بيده اما بآلة أو بشنق اوبرمى فى بحر ونحوه ﴿ والعجز ﴾ أى والعلم بالعجز ﴿ عن الغلبة على مراده تعالى ﴾ فالله غالب على أمره ، وهو القاهر فوق عباده .فان الغضبان يود جريان الشيء على وفق مراد نفسه دون مراد ربه، ومن وقع فى هذه الورطة وبابه باء بغضب من الله وعذابه ، ونعم ماقيل :

تود النفس ان تلقى مناها ٭ ويأبى الله الا مايريد

فيفعل الله مايشاء ويحكم مايريد فكن مسلما لامره ان كنت من المريد الطالب لمقام المزيد ﴿ وانتقام المغضوب عليه ﴾ أى فيحذر نفسه عاقبة الانتقام من تسلط المغضوب عليه على اظهار معائبه والشماتة بمصائبه ﴿ وحدوث الذنوب ﴾ أى انواع العصيان ﴿ لاخذ اللسان فى الفحش والسب ﴾ للانسان ﴿ والجوارح فى الضرب والجرح والقتل ﴾ كما سبق فى معرض البيان ﴿ والقلب فى الحقد ﴾ فان الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى غيظه رجع الى باطنه واحتقن فيه فصار حقدا ، فحينئذ يلزم قلبه استثقاله ويحسده فى حسن حاله ، ويظهر الشماتة بمسائه . والحزن بمسرته ، والعزم على افشاء سره وهتك ستره والاستهزاء به فى قوله وفعله وجميع أمره ﴿ وهو ﴾ أى الحقد ﴿ ذميمة ﴾ أى خصلة مذمومة ﴿ فاحشة ﴾ أى متجاوزة عن الحد لاشتماله على سيئات متعدية عن العد ﴿ فورد المؤمن ﴾ أى الكامل ﴿ ليس بحقود ﴾ فعول بمعنى فاعل ، أى ليس بذي حقد ، أو ليس

وَالعِلَاجُ قَلْعُ الغَضَبِ وَذِكْرُ مَاوَرَدَ فِي العَفْوِ مِثْلُ (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ - خُذِ العَفْوَ - وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) وَهُوَ اسْقَاطُ حَقٍّ وَجَبَ أَمَّا قَوْلُ أَبِي ضَمْضَمٍ اللَّهُمَّ تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ فَوَعْدٌ وَعَلَيْهِ الْوَفَاءُ

بمبالغ فى الحقد ، والحديث فى الاحياء ، وقال مخرجه لم اقف له على اصل ﴿ والعلاج ﴾ اى علاج الحقد ﴿ قلع الغضب ﴾ أى الذى سبب الحقد الباعث على الحسد ونحوه ﴿ وذكر ماورد ﴾ أى من الفضائل فى الكتاب والسنة ﴿ فى العفو مثل والعافين عن الناس ﴾ وتمامه (والله يحب المحسنين) وللطبرانى فى مكارم الاخلاق من حديث أنس « اذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فيدخل الجنة قيل من ذا الذى أجره على الله؟ قال العافون عن الناس » وهو مستفاد من قوله : (فمن عفى واصلح فاجره على الله) ولاحمد والحاكم وصححه « ان الله عفو يحب العفو » فالمتخلق باخلاق الله له شأن عظيم عند مولاه ﴿ خذ العفو ﴾ تمامه : (وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين) وورد فى تفسير العفو « ان تعطى من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عن من ظلمك » ﴿ وان تعفوا اقرب للتقوى ﴾ تمامه : (ولا تنسوا الفضل بينكم) ﴿ وهو ﴾ أى العفو ﴿ اسقاط حق وجب ﴾ أى ثبت للعبد على غيره ﴿ اماقول أبى ضمضم ﴾ وهو رجل من بنى اسرائيل ﴿ اللهم تصدقت بعرضى على عبادك فوعد ﴾ أى لاعفو لانه اثبات ماله للغير لا اثبات حق واجب له على الغير ﴿ وعليه الوفاء ﴾ أى بوعده وعهده . وتوضيحه انه لما قال العفو اسقاط حق وجب، ورد عليه ان قول أبى ضمضم تصدقت يدل على ان العفو قد يكون باسقاط الحق قبل الوجوب ، فاجاب بانه وعد بانه لا يخاصمه به يوم القيامة لاعفو كما قدمناه ، وفى الاحياء « قال رجل من المسلمين : اللهم ليس عندى صدقة اتصدق بها ، فايما رجل أصاب من عرضى شيئا فهو صدقة عليه ، فاوحى الله الى النبى عليه السلام انى قد غفرت له » قال مخرجه رواه أبو نعيم فى الصحابة، والبيهقى فى الشعب، وابن عبد البر فى الاستيعاب من حديث أبى هريرة أن رجلا من المسلمين ولم يسمه ، وقال أظنه أبا ضمضم ، وتقدم فى آفات اللسان حديث « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ، قالوا وما أبو ضمضم؟ قال : رجل فيمن كان قبلكم اذا أصبح قال اللهم انى قد تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى » والمعنى أنتم أولى بهذه الخصلة المهمة فانكم خير أمة ، وقيل فى قوله تعالى : (ربانيين) أي علماء حلماء . وعن الحسن فى قوله تعالى : (واذا خاطبهم الجاهلون

وَمَا ارْتَكَبَ الحَقُودُ مِنْ مَكْرُوهٍ كَتَرْكِ الإِعَانَةِ فِي الحَاجَةِ وَالدُّعَاءِ

قالوا سلاما) قال حلماء ان جهل عليهم لم يجهلوا يعنى بل يجيبونهم بقول يسلمون فيه عنهم . وقال عطاء بن أبي رباح: ويمشون على الأرض هونا اى حلماء . وقال ابن أبي حبيب فى قوله : (وكهلا) قال الكهل منتهى الحلم . وقال مجاهد : (واذا مروا باللغو مروا كراما) أى اذا أوذوا صفحوا ، وروى أن ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال عليه السلام : «أصبح ابن مسعود وأمسى كريما» ثم تلا ابراهيم بن ميسرة وهو الراوى قوله تعالى : (واذا مروا باللغو مروا كراما) ابن المبارك فى البر والصلة . ولأحمد من حديث سهل بن سعد «اللهم لايدركنى ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم ، قلوبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب» وعن على كرم الله وجهه «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لا تباهى الناس بعبادة ربك ، فاذا أحسنت حمدت الله واذا أسأت استغفرت الله» وعن الحسن «اطلبوا العلم وزينوه بالحلم» وقال بعضهم : ما أحسن الايمان بزينة العلم ، وما أحسن العلم بزينة العمل ، وما أحسن العمل بزينة الرفق ، وما أضيف شيء الى شيء مثل حلم الى علم ، وعن أنس بن مالك فى قوله تعالى : (فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) الى قوله : (عظيم) هو الرجل يشتمه أخوه فيقول ان كنت كاذبا يغفر الله لك ، وان كنت صادقا فيغفر الله لى ، وعن بعضهم قال شتمت فلانا من أهل البصرة فحلم عنى فاستعبدنى بها زمانا . وسب رجل ابن عباس فلما فرغ قال يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها . فنكس الرجل رأسه واستحيى . وعن على بن الحسين انه سبه رجل فرمى اليه خميصة كانت عليه وأمر له بالف درهم . ومر المسيح ابن مريم عليهما السلام بقوم من اليهود فقالوا له شرا ، فقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا ، فقال كل واحد ينفق مما عنده . ولأحمد من حديث جابر بن سمرة « ان امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه » ولأبى داود من حديث أبى هريرة «شتم رجل أبا بكر وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام عليه السلام فقال انك كنت ساكتا لما شتمنى فلما تكلمت قمت قال لان الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم اكن لاجلس فى مجلس فيه الشيطان » ﴿ وما ارتكب ﴾ أى وذكر ما اكتسب ﴿ الحقود من مكروه كترك الاعانة فى الحاجة ﴾ وقد قال تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) ﴿ والدعاء ﴾ أى وكترك الدعاء له فى الغيبة فان الدعاء

وَالْوَعْظ وَالرِّفْق فورد «إنّ الله يحبُّ الرِّفْقَ» وَمِنْ حَرَام كالشَّماتَة وَالاعْرَاض وَالاهَانَة وَالْغيبَة وَتَرْك صلَة الرَّحم وقَضَاء الحَقِّ، وَالنَّصيحَة وَهي ارادَةُ بَقَاء النِّعْمَة عَلَى الْمُسْلِم ممّا لَهُ فيه صَلَاحٌ عُرِف بِغَلَبَة الظَّنّ أوْ قُيِّدَ بِشَرْطِه، وَضدُّهَا الحَسَدُ وَهُوَ ارادَةُ زَوَالها عنه ممَّا لَهُ فيه صَلَاحٌ فَان انْتَفَى الصَّلَاحُ فغيرة وَانْ أرادَ مثلَهَا لنَفْسه دُونَ الزَّوَال عَنْه فَغِبْطَة وَمُنَافَسَة، وَالحَسَدُ حَرَامٌ

يستجاب فى غيبة المؤمن ويكون للداعى مثله ﴿ والوعظ ﴾ أى النصيحة وترك الفضيحة ، فقد ورد « الا ان الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المؤمنين وعامتهم » ﴿ والرفق ﴾ أى بالنية الصحيحة ﴿ فورد ان الله يحب الرفق ﴾ أى اللطف وهو ضد العنف وقد تقدم مخرجه ﴿ ومن حرام كالشماتة ﴾ وهى الفرح ببلية العدو ﴿ والاعراض ﴾ عند المواجهة بترك السلام والكلام ﴿ والاهانة ﴾ بترك القيام والتوسيع فى المقام ﴿ والغيبة ﴾ أى ذكر ما يكرهه فى الغيبة ﴿ وترك صلة الرحم ﴾ ان كان من ذوى القرابة ﴿ وقضاء الحق ﴾ أى وتركه من حقوق المسلمين من رد السلام وتشميت العاطس وعيادة المريض وامثالها ﴿ والنصيحة ﴾ أى وتركها ﴿ وهى ارادة بقاء النعمة على المسلم مما ﴾ أى من شىء ﴿ له ﴾ أى للمسلم ﴿ فيه ﴾ أى فى ذلك الشىء ﴿ صلاح ﴾ دنيوى أو اخروى ﴿ عرف ﴾ كونه صلاحا ﴿ بغلبة الظن أو قيد بشرطه ﴾ اى او قيد البقاء بشرط الصلاح بان يقول : ان كان له فيها صلاح فابقها ﴿ وضدها ﴾ اى النصيحة ﴿ الحسد وهو ارادة زوالها ﴾ أى النعمة ﴿ عنه ﴾ أى عن المسلم ﴿ مما له فيه صلاح ، فان انتفى الصلاح ﴾ وقد أراد زوالها عنه مطلقا من غير ان يباشر سببا لاجل زوالها ﴿ فغيرة ﴾ وهى مذمومة ﴿ وان أراد مثلها لنفسه دون الزوال عنه فغبطة ومنافسة ﴾ وهى خصلة محمودة ، ومنه قوله تعالى : (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) وحديث الصحيحين عن ابن عمر « لاحسد الا فى اثنين رجل آتاه الله علما فهو يعمل به و يعلمه الناس ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق » ﴿ والحسد ﴾ أى المذموم ﴿ حرام ﴾ لقوله تعالى : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) وعن الفضيل المؤمن يغبط والمنافق يحسد . ولقوله عليه السلام « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أبو داود من حديث أبى هريرة وابن ماجه من حديث أنس . وفى الصحيحين

فَآفَاتُهُ كَرَاهَةُ نِعْمَتِهِ تَعَالَى وَقَضَائِهِ وَرَاحَةِ الْمُسْلِمِ وَفِعْلُ الْمَعَاصِي كَالتَّمَلُّقِ وَالْغِيبَةِ وَالشَّمَاتَةِ فَوَرَدَ (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

«لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا» وللبيهقى فى الشعب «كاد الفقر ان يكون كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر» ﴿فآفاته﴾ ستة ﴿كراهة نعمته تعالى﴾ فللطبرانى من حديث معاذ «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود وللطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس ان لاهل النعم حسادا فاحذروهم ﴿وقضائه﴾ فعن زكريا عليه السلام قال تعالى: (الحاسد عدو لنعمتى، ساخط لقضائى، غير راض بقسمتى التى قسمت بين عبادى. وقد يؤخذ هذا المعنى من قوله تعالى: (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسئلوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليما) وقال تعالى: (لكل اجل كتاب ، وكل شيء عنده بمقدار) وقد شكى نبى من الأنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فاوحى الله اليه: فر من قدامها حتى تنقضى أيامها. ﴿وراحة المسلم﴾ أى وكراهتها وهو من خصال المنافقين كما قال الله تعالى فى حقهم (ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) وقال معاوية. كل الناس أقدر على رضاه الا حاسد نعمة فانه لا يرضيه الا زوالها ولذا قيل:

كل العداوة قد ترجى اماتتها ، إلا عداوة من عاداك من حسد

ومن هنا قال الله تعالى: (قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور) وقال اعرابى: مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد، انه يرى النعمة عليك نقمة عليه، وقال الحسن: ياابن آدم لم تحسد أخاك. فان كان الذى أعطاه الله اياه لكرامته عليه فلم تحسد من اكرمه الله، وان كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره الى النار. ﴿وفعل المعاصى﴾ بالرفع أى من آفاته ﴿كالتملق﴾ فى الحضرة، وانما يتملق الحسود على المحسود لئلا يطلع على ارادته الباطنة، اذ الخائن يخاف من الفضيحة وهو من صفات المنافقين، وقد سبق ان المؤمن ليس يتملق الا فى طلب العلم ﴿والغيبة﴾ أى غيبة المحسود فى الغيبة ﴿والشماتة﴾ وهى الفرح ببلية المحسود فللترمذى من حديث واثلة بن الاسقع «لا تظهر الشماتة لاخيك فيعافيه الله ويبتليك» وفى رواية ابن أبى الدنيا «فيرحمه الله» ﴿فورد﴾ فى التنزيل ﴿ومن شر حاسد اذا حسد﴾ أى اذا اظهر الحسد

وَالتَّعَبُ فِي الدُّنْيَا وَالْعِقَابُ فِي الآخِرَةِ بِلَا نَفْعٍ بَلْ يَنْفَعُ المَحْسُودَ فِي الدُّنْيَا بِمَضَرَّةِ الْعَدُوِّ وَفِي الآخِرَةِ بِطَلَبِ المُكَافَأَةِ وَعَمَى الْقَلْبِ وَالخُذْلَانُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَفِيهِ الأَثَرُ إِلَّا فِي نِعْمَةِ الْكَافِرِ وَالْفَاسِقِ الْمُسْتَعِينِ بِهَا عَلَى الْفِسْقِ وَالْمُبْتَدِعِ وَهُوَ يَكْرَهُ مِنْ حَيْثُ آلَتُهُ دُونَ النِّعْمَةِ بِخِلَافِ الْغَيْرَةِ فَوَرَدَ أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ فَوَاللَّهِ إِنَّ سَعْداً لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنَّا وَالْغِبْطَةِ فَوَرَدَ . وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ «هُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ فِيمَنْ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي مَالَ فُلَانٍ لَكُنْتُ أَعْمَلُ فِيهِ بِمِثْلِ عَمَلِهِ»

والا فلا يخلو الجسد من الحسد ، وعن الحسن انه سئل عن الحسد فقال : غمة فانه لايضرك مالم تبده ﴿ والتعب فى الدنيا ﴾ فان الحسود لا يسود ولعدم خلو الدنيا من ذى نعمة ﴿ والعقاب فى الآخرة بلا نفع ﴾ أى للحاسد ﴿ بل ينفع المحسود فى الدنيا بمضرة العدو ﴾ وهو الحاسد ﴿ وفى الآخرة بطلب المكافاة ﴾ أى المجازاة على عمله الكاسد ﴿ وعمى القلب ﴾ الناشىء من عدم الرضا بقضاء الرب ﴿ والخذلان ﴾ أى عدم النصرة ﴿ فى الدنيا والآخرة ففيه الاثر ﴾ أى المروى عن بعض السلف « ان الحاسد لاينال من المجالس الا مذمة وذلا ، ولا ينال من الملائكة الا لعنة وبغضا ، ولا ينال من الخلق الا جزعا وغما ، ولا ينال عند النزع الا شدة وهولا ، ولا ينال عند الموقف الا فضيحة ونكالا » ﴿ الا فى نعمة الكافر ﴾ مستثنى من قوله والحسد حرام ﴿ والفاسق المستعين بها على الفسق ﴾ والظالم المتقوى بها على الظلم ﴿ والمبتدع ﴾ الذى يشتد بها على البدعة ﴿ وهو يكره من حيث آلته ﴾ اى آلة ما ذكر من الكفر والفسق والظلم والبدعة ﴿ دون النعمة ﴾ أى أصلها ﴿ بخلاف الغيرة ﴾ فانها غير حرام ﴿ فورد أتعجبون من غيرة سعد ﴾ وهو ابن أبى وقاص ﴿ فوالله ان سعدا لغيور وانا أغير منه والله أغير منا ﴾ وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه ﴿ والغبطة ﴾ أى وبخلاف الغبطة فانها ليست بحرام ﴿ فورد ﴾ أى فى التنزيل ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ أى ليرغب الراغبون وليطلب الطالبون المنازل العالية والمحافل الغالية ، وورد فى الحديث ﴿ هما فى الأجر سواء فيمن قال لو ان لى مال فلان لكنت اعمل فيه بمثل عمله ﴾ أى من الخيرات والمبرات ، فلا بن ماجة والترمذى وقال حسن صحيح « مثل هذه الأمة مثل اربعة رجال ، رجل آتاه

فهى تتبع ماغُبِطَ فيه حرمةً وإباحةً ووجوباً وندباً والسبب خبث النفس وهو داء مزمن لأنه جبلى والرغبة فى نعمة الغير كالرياسة وخوف فوات المقاصد كما فى الضرة والعداوة والتعزز بكراهة ترفع الغير عليه والتكبر والتعجب برجحان من ساواه

الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب العلم لو ان لى مال فلان لكنت اعمل فيه بمثل عمله فهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه فى معاصى الله ، ورجل لم يؤته الله مالا فيقول لو ان لى مثل مال فلان لكنت اعمل بمثل عمله فهما فى الوزر سواء ﴿فهى﴾ أى الغبطة ﴿تتبع ماغبط فيه﴾ بصيغة المجهول ﴿حرمة﴾ كالمعاصى ﴿واباحة﴾ كالمباحات من الثياب الفاخرة وسائر النعم الظاهرة ، لكن الغبطة فى المباحات تناقض علو الحالات والمقامات كالزهد والرضا والتوكل والقناعة والتسليم ، وتحجب عن المقامات الرفيعة من غير اثم فى قواعد الشريعة ﴿ووجوبا﴾ كالايمان والصلاة والزكاة وسائر الأعمال ﴿وندبا﴾ كانفاق الأموال فى تحسين الاحوال.

﴿والسبب﴾ أى للحسد سبعة ﴿خبث النفس وهو داء مزمن﴾ أى لازم ﴿لانه جبلى﴾ لا علاج له : فقد يوصف عنده حسن حال رجل من عباد الله فيما انعم به عليه مولاه فيشق ذلك عليه ويحب زوال نعمة الله تعالى عنه وليس بينه وبينه عداوة خفية ولا جنسية جلية ولا شىء بما ذكر من اسباب الحسد ، بل انما هو لخبث فى نفسه ورزالة فى طبعه لا يزول الا بموته كما تقدم فى ذمه ﴿والرغبة فى نعمة الغير كالرياسة﴾ فى مقام الجاه والسياسة فانه يحب ان يكون فريد دهره ووحيد عصره ﴿وخوف فوات المقاصد كما فى الضرة﴾ على توهم المضرة . ومن هذا القبيل الاخوان عند الأب ، والتلاميذ عند العلماء ، والندماء عند الأمراء ، بل ومن ذلك حسد العالم للعالم دون العابد ، وحسد العابد للعابد دون العالم وقس على هذا ﴿والعداوة﴾ الكامنة فى القلب ﴿والتعزز بكراهة ترفع الغير عليه﴾ فى المنازل والمحافل فيما بين أهل الفضائل ، ومنه قوله تعالى (اهؤلاء من الله عليهم من بيننا) ﴿والتكبر﴾ وهو من اردء الرذائل ﴿والتعجب برجحان من ساواه﴾ أى نسبا وحسبا ، ومنه قوله تعالى : (ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم إذا لخاسرون) تعجبوا من ان يكون الرسول بشرا وجوزوا ان يكون الا له حجرا ، ومنه ايضا قوله تعالى : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)

فَمِنْ ثَمَّ كَثُرَ الحَسَدُ بَيْنَ الأَقَارِب لِكَثْرَة تَحَقُّقِهَا دُونَ عُلَمَاءِ الآخِرَة فَوَرَدَ (وَنَزَعْنَامَافِىصُدُورِهِمْمِنْغِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىسُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)وَعِلَاجُ كُلٍّ ضِدُّهُوَذِكْرُهُ الآفَاتِ المَذْكُورَةَ وَمَاوَرَدَ فِيهِ ، وَوُجُوبُ مُوَالَاتِ المُؤْمِنِ وَرِعَايَةُ حُقُوقِه وَعِظَمِ قَدْرِهِوَالفَوَائِدَ كَالتَّعَاوُنِ وَبَرَكَةِالجَمَاعَة ٭

وقوله : (ءأنزل عليه الذكر من بيننا) وقوله : (أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) ﴿ فمن ثم كثر الحسد بين الاقارب) وقل بين الاجانب ﴿ لكثرة تحققها ﴾ أى المساواة فى ذوى القرابات ﴿ دون علماء الآخرة ﴾ فانه لايكثر فيهم بل لايوجد عندهم ، اذ مقصودهم معرفة الله تعالى وهى بحر واسع لاضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عنده وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة بل يزيد الانس بسبب الكثرة ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ ونزعنا ﴾ أى فى الدنيا والأخرى ﴿ مافى صدورهم من غل ﴾ أى حقد وحسد ﴿ اخوانا على سرر متقابلين . وعلاج كل ﴾ أى كل واحد من اسباب الحسد ﴿ ضده ﴾ فعلاج خبث النفس سلامته وطيبه ، وعلاج الرغبة التنفير ، وعلاج الخوف الامن لعدم خلاف المقدور ، وعلاج العداوة المحبة ، والتعزز التذلل ، والتكبر التواضع والتعجب الاطمئنان بالتفكر فى قدرته وقضائه وارادته فى خليقته ﴿ وذكره الآفات المذكورة ﴾ أى من جملة علاج الحسد ﴿ وماورد فيه ﴾ أى وذكره ماورد فى ذم الحسد ﴿ ووجوب ﴾ أى وذكره وجوب ﴿ موالاة المؤمن ورعاية حقوقه وعظم قدره ، والفوائد ﴾ أى وذكره الفوائد الواصلة من المؤمن اليه من ترك الحسد ﴿ كالتعاون ﴾ على البر والتقوى والتساعد على العلم والعمل والفتوى ﴿ وبركة الجماعة ﴾ لاسيما فى الجمعة والجنازة والمشاعر العظام والاجتماع بالعلماء الكرام والمشايخ الفخام ، وقد قال تعالى : (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم) وقال (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء) وقال: (بئس ما شروا به أنفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغيا) أى حسدا . ولله در القائل من ذوى الفضائل :

لامات اعداؤك بل خلدوا ٭ حتى يروا فيك الذى يكمد
لازلت محسودا على نعمة ٭ فانما الكامل من يحسد

ونعم المقال من بعض أهل الحال : حسبى حافيه وحقد حاسده

﴿الباب الحادى عشر فى العزلة والخمول وحب الذم وبغض المدح﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * فِى الْعُزْلَةِ فَوَائِدُ وَهِىَ الفَرَاغُ لِلْعِبَادَةِ فَالخَلْقُ شَاغِلُونَ

العزلة ضد الخلطة ، والخمول ضد الشهرة . فذهب الى اختيار العزلة وتفضيلها على الخلطة سفيان الثورى وابن أدهم وداود الطائى والفضيل بن عياض وبشر الحافى وطائفة . وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة تعاونا على البر والتقوى ، ومال الى هذا سعيد بن المسيب والشعبي وابن عيينة وأبو حنيفة وابن المبارك والشافعي وأحمد ابن حنبل وجماعة ، فعن الفضيل : كفى بالله محبا وبالقرآن مؤنسا وبالموت واعظا ، اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا . وقال الثورى : هذا زمان السكوت ولزوم البيوت وقيل : كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطي الاخوان حقوقهم فترك ذلك كله واحدا واحدا حتى تركها كلها ، وكان يقول : لا يتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر له . وقال الفضيل : انى لأجد للرجل عندى يدا اذا لقينى أن لا يسلم على واذا مرضت أن لا يعودنى ، وقال أبو سليمان الدارانى : بينما الربيع بن خيثم جالس على باب داره اذ جاءه حجر فصكه فى الجبهة فشجه فجعل يمسح الدم ويقول : لقد وعظت يا ربيع فقام ودخل داره فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته ، وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لزما بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتيان المدينة للجمعة ولا لغيرها حتى ماتا بالعقيق . ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له : ألك حاجة ؟ قال نعم ، قال ما هى ؟ قال : ان لا ترانى ولا أراك . وقيل للفضيل : ان ابنك عليا يقول : لوددت انى فى مكان أرى الناس ولا يرونى ، فبكى الفضيل فقال : ويح على أفلا أتمها فقال لا أراهم ولا يرونى . وعن ابن عباس : أفضل المجالس مجلس فى قعر بيتك لا ترى ولا ترى *

(بسم الله الرحمن الرحيم) الذى يأنس به أرباب الخلوة ويستأنس به أصحاب الجلوة ﴿فى العزلة فوائد﴾ تسعة ﴿وهى الفراغ للعبادة فالخلق شاغلون﴾ بل مانعون لاهل الارادة وفق العادة ، فانهم كما قال تعالى : (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) فعن حاتم الأصم : طلبت من هذا الخلق خمسة أشياء فلم أجد منها واحدة

وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْتَزِلُ فِي جَبَلِ حِرَاءٍ وَالْجَمْعُ مُتَعَذِّرٌ إِلَّا لِمَنِ اسْتَغْرَقَ بَاطِنُهُ بِهِ تَعَالَى فَغَابَ عَنْهُمْ قَلْبًا وَشَهِدَهُمْ لِسَانًا وَالْخَلَاصُ عَنِ الْمَعَاصِي كَالرِّيَاءِ وَالْغِيبَةِ

طلبت منهم الطاعة والزهادة فلم يفعلوا، فقلت أعينونى عليها ان لم تفعلوا فلم يفعلوا فقلت ارضوا عنى ان فعلت فلم يفعلوا، فقلت لا تمنعونى عنها اذا فمنعونى فقلت لا تدعونى الى مالا يرضى الله ولا تعادونى عليها ان لم أتابعكم فيها فلم يفعلوا فتركتهم واشتغلت بمخاصمة نفسى فانها أولى منهم بها ﴿وكان عليه السلام يعتزل فى جبل حراء﴾ أى فى أول مرة كما فى الصحيحين من حديث عائشة «كان يخلو بغار حراء يتحنث فيه أى يتعبد الليالى المتتابعة حتى قوى فيه أنوار النبوة وظهر منه أسرار الرسالة» ﴿والجمع﴾ أى بين الفراغ والخلطة ﴿متعذر﴾ فتتعين الخلوة ﴿الا لمن استغرق باطنه به تعالى﴾ بحيث لا تمنعه الوحدة عن الكثرة ولا تحجبه الكثرة عن الوحدة وهو مقام جمع الجمع للصوفية المعبر عنها بالكامن البائن والقريب الغريب والعرشى الفرشى ﴿فغاب عنهم قلبا﴾ اى جنانا ﴿وشهدهم لسانا﴾ أى حضرهم بيانا وبرهانا، وهذا انما يتصور لمن أراد به سبحانه شأنا، فقد نقل عن الجنيد انه قال: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أنى أكلمهم. وقال بعضهم: لا يتمكن أحدهم من الخلوة الا بالتمسك بكتاب الله، والمتمسكون بكتابه استراحوا من الدنيا، وبذكر الله عاشوا وبذكر الله ماتوا وبذكر الله لقوا الله. وقيل لبعضهم: ما أصبرك على العزلة؟ فقال: ما انا وحدى، أنا جليس الله تعالى اذا شئت أن يناجينى قرأت كتابه، واذا شئت أن أناجيه صليت. وقيل: الاستيناس بالناس من علامة الافلاس. وقيل: بينما أويس القرنى جالس اذا أتاه هرم بن حيان فقال له أويس: ما جاء بك؟ فقال جئت لآنس بك، فقال أويس ما كنت أرى أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره. وقال بعض الحكماء: انما يستوحش الانسان من نفسه لخلو ذاته من الفضيلة التى بسبب انسه. وقال الفضيل: اذا أقبل الليل فرحت به وقلت أخلو بربى، واذا أصبحت استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يجيء من يشغلنى عن ربى. وعن بعضهم انى أصبح وأمسى بين نعمة وخطيئة فاشغل نفسى بشكر الله على النعمة وبالاستغفار من الخطيئة ﴿والخلاص عن المعاصى﴾ التى يتعرض لها الانسان غالبا بالخلطة ويسلم منها فى الخلوة ﴿كالرياء﴾ والسمعة اذ كل من خالطهم داراهم ومن داراهم رآهم. ولقد صدق يحيى بن معاذ فى قوله رؤية الناس بساط الرياء ﴿والغيبة﴾ والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومسارقة الطبع من

وَالبِدَعِ مِثْلِ كَيْفَ أَصْبَحْتَ وَعَافَاكَ اللهُ وَمُشَاهَدَتِهَا

الأخلاق الردية والأحوال الدنية ﴿ والبدع ﴾ فى الأقوال المتعارفة ﴿ مثل كيف أصبحت ﴾ فانه ان لم يكن على قصد الاعانة فهو نفاق وليس من أخلاق أهل الديانة ؛ فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون فى قولهم كيف أصبحت و كيف حالك وفى الجواب عنه ، وكان سؤالهم عن أحوال الدين لا لأحوال الدنيا . قال حاتم الأصم لحامد اللفاف : كيف أنت فى نفسك ؟ قال سالم معافى ، فكره حاتم جوابه؛ فقال يا أبا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية فى الجنة ـ أى على بساط النشاط وحال الانبساط ـ وقد ورد «اللهم لا عيش الا عيش الآخرة» وكان اذا قيل لعيسى عليه السلام كيف أصبحت قال: اصبحت لا أملك نفع ما أرجو ، ولا أستطيع دفع ما أحترز ، وأصبحت مرتهنا بعملى والخير كله بيد غيرى . فلا فقير أفقر منى ، وكان الربيع بن خيثم اذا قيل له كيف أصبحت قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين نستوفى أرزاقنا وننتظر آجالنا ، وكان أبو الدرداء اذا قيل له كيف اصبحت قال : اصبحت بخير ان نجوت من النار . وكان سفيان الثورى اذا قيل له كيف اصبحت يقول : اصبحت اشكو ذا الى ذا ، واذم ذا الى ذا ، وافر من ذا الى ذا ، وقيل لاويس القرنى : كيف اصبحت . قال كيف يصبح رجل اذا أمسى لا يدرى انه يصبح واذا أصبح لا يدرى انه يمسى . وقيل لمالك بن دينار كيف اصبحت . قال : اصبحت فى عمر ينقص وذنب يزيد . وقيل لبعض الحكماء كيف اصبحت ؟ قال : اصبحت لا ارضى حياتى لمماتى ولا نفسى لربى . وقيل لحكيم كيف اصبحت . قال : اصبحت آكل رزق ربى واطيع عدوه ابليس . وقيل لمحمد بن واسع كيف اصبحت ؟ قال : ماظنك برجل يرتحل كل يوم الى الآخرة مرحلة . قلت وعن على كل نفس خطوة الى اجلك . وقيل لحامد اللفاف كيف اصبحت ؛ قال : اصبحت اشتهى عافية يوم الى الليل ، فقيل له ألست فى عافية كل الأيام : فقال العافية يوم لا اعصى الله فيه . وقيل لرجل وهو يجود بنفسه ماحالك؟ فقال وما حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ، ويدخل قبرا موحشا بلا مونس ؛ وينطلق الى ملك عدل بلا حجة . وقيل لبعضهم ماحالك؟ قال ماحال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب ﴿ عافاك الله ﴾ أى اذا كان قبل السلام ولم يكن فى الحمام . وعن الحسن انما كانوا يقولون السلام عليك اذا سلمت والله القلوب ، فاما الآن كيف اصبحت عافاك الله ، كيف انت اصلحك الله ، فان اخذنا بقولهم كانت بدعة ولا كرامة ، فان شاءوا غضبوا علينا وان شاءوا الا ، وفى الأحياء . وانما قال ذلك لان البداية بقوله كيف أصبحت بدعة ﴿ ومشاهدتها ﴾

فهو يورث الاستحقار بها .

أى ورؤية المعاصى ﴿ فهو يورث الاستحقار بها ﴾ بل رؤية أرباب الدنيا فانه يورث الاستعظام بها ومن هنا قال تعالى : (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم لاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم) وذلك لان مسارقة الطبع لما يشاهده من أخلاق الناس واعمالهم وسائر احوالهم داء دفين قل ما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين ، فلا يجالس الانسان فاسقا اومبتدعا مدة مع كونه منكرا عليه فى باطنه الا ولو قاس نفسه الى ماقبل مجالسته لادرك فيها تفرقة فى النفرة عن الفساد ، اذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة من العباد هينا على الطبع ويسقط عنه وقعه واستعظامه له فى الشرع ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استصغر الصغائر من نفسه ، ولذا يزدرى الناظر الى الاغنياء نعمة الله عليه فيؤثر مجالستهم فى ان يستصغر ماعنده ويؤثر مجالسة الفقراء فى استعظام ماقدر له من النعماء فكذا النظر الى المطيعين والعصاة فمن يقصر نظره على ملاحظة احوال الصحابة والتابعين فى عبادة المولى والتنزه عن الدنيا فلا يزال ينظر الى نفسه بعين الاستصغار والى عبادته بعين الاستحقار ، ومادام يرى نفسه مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة فى الاستكمال واستتماما للاقتداء ، ومن نظر الى الاحوال الغالبة على أهل الزمان واعراضهم عن الله واقبالهم على الدنيا واعتيادهم للمعاصى استعظم امر نفسه بادنى رغبة فى الخير يصادفها من قلبه وذلك هو الهلاك لنفسه ، ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته ان اكثر الناس اذا رأوا مسلما أفطر فى نهار رمضان استبعدوه استبعادا يكاد يفضى الى اعتقادهم كفره ، وهم يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم مع ان صلاة واحدة يفضى تركها الى الكفر عند قوم ، وحز الرقبة عند قوم ، وترك صوم رمضان كله لايقتضيه . وكذا لو لبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب استبعدته النفوس وقد يشاهد فى مجلس طويل لا يتكلم فيه الا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ، والغيبة اشد من الزنا فكيف لاتكون اشد من لبس الحرير ، ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط عن القلوب وقعها وهون على النفوس امرها ، وقيل لبعضهم : ماحملك على العزلة ؟ قال خشيت ان اسلب دينى ولا اشعر به . فتفطن لهذا القول الأسد ، وفر من الناس فرارك من الأسد ، لانك لاتشاهد منهم الا مايزيد على حرصك فى الدنيا وغفلتك عن العقبى ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك فى الطاعة ، فان وجدت جليسا

وَالجَلِيسِ السُّوءِ لِتَأْثِيرِ الصُّحْبَةِ فَوَرَدَ مَثَلُ الجَلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ القَيْنِ، وَالفِتَنِ فَوَرَدَ. إِلْزَمْ بَيْتَكَ وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الخَاصَّةِ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ العَامَّةِ حِينَ قِيلَ مَاذَا تَأْمُرُنِي فِي زَمَانِ الفِتَنِ

يذكرك بالله صورته وانيسا يفكرك الله سيرته فالتزمه واغتنمه فان الجليس الصالح خير من الوحدة ، وان الوحدة خير من الجليس السوء . لكن الجليس الصالح عزيز الشهود في صحن الوجود كما قال عليه السلام « اخبر تقله والناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة » وكما قيل :

اتمنى على الزمان محالا * ان ترى مقلتاى طلعة حر

فان الحر من لا يستعبده هواه ولا تسترقه دنياه بل تستغرقه خدمة مولاه وهذا معنى قوله ﴿ والجليس السوء ﴾ بفتح السين وضمها أى ومشاهدته أو والخلاص عنه ﴿ لتأثير الصحبة ﴾ أى خيرا أوشرا بحسب الرتبة ﴿ فورد مثل الجليس السوء مثل القين ﴾ أى الحداد تمامه « ان لم يحرق ثوبك اصابك ريحه ، ومثل الجليس الصالح مثل العطار ان لم يعطك من عطره اصابك من ريحه » وفي البخاري من حديث أبي موسى « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد لا يعدمك من صاحب المسك اما تشتريه أو تجد ريحه وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة » ﴿ والفتن ﴾ أى والخلاص من محن أنواع الفتن وقل ما يخلو العباد في البلاد عن تعصبات وخصومات ﴿ فورد ﴾ أى عن عبدالله بن عمرو بن العاص لما ذكر عليه السلام الفتن ووصفها وقال : « إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت اماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه قلت فما تأمرني فقال ﴿ الزم بيتك ﴾ أى لازم سكونه ﴿ واملك عليك لسانك ﴾ أى التزم سكوته ﴿ وخذ ما تعرف ﴾ واعمل به ﴿ ودع ما تنكر ﴾ اى اتركه ﴿ وعليك بامر الخاصة ﴾ أى والزم خاصة نفسك ﴿ ودع عنك امر العامة ﴾ أى من لم يتعلق بك ﴿ حين قيل ﴾ ظرف لورد ﴿ ماذا تأمرني في زمان الفتن ﴾ والحديث رواه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة باسناد حسن . وفي البخاري من حديث أبي سعيد الخدري : « ويوشك ان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » وللخطابي من حديث ابن مسعود . وللبيهقي من حديث أبي هريرة : « وسيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه الا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق الى

وَ إِيذَائِهِمْ بِنَحْوِ الغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ

شاهق ومن جحر الى جحر كالثعلب الذى يروغ ، قيل له ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال اذا لم تنل المعيشة الا بمعاصى الله تعالى فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة ، قالوا وكيف ذلك يارسول الله وقد امرتنا بالتزويج ؟ قال اذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه ، فان لم يكن له أبوان فعلى يدى زوجته وولده ، فان لم يكن فعلى يدى قرابته . قالوا وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال يعيرونه بضيق اليد فيتكلف مالا يطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة » وفى الاحياء هذا الحديث وان كان فى العزوبة فالعزلة مفهومة منها، إذ لا يستغنى المتأهل عن المعيشة والمخالطة ، ثم لا ينال المعيشة الا بالمعصية ولاجله قال سفيان الثورى : والله لقد حلت العزلة . اقول : وفى زماننا وجبت . وعن سفيان بن عيينة : لقيت ابراهيم بن ادهم فى بلاد الشام فقلت له : يا ابراهيم تركت خراسان . قال : ماهنأت بالعيش الا ههنا افر بدينى من شاهق الى شاهق ، فمن رآنى يقول موسوس أو حمال أو ملاح . وعن ابن عمر انه لما بلغه توجه الحسين الى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام ، فقال له أين تريد ؟ فقال العراق ، فاذا معه طوامير وكتب ، فقال هذه كتبهم وبيعتهم ، فقال لاتنظر الى كتبهم ولا تأتهم فابى ، فقال ابن عمر : انى محدثك حديثا « ان جبريل اتى النبى عليه السلام فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا ، وانك بضعة من رسول الله ﷺ والله لا يليها أحد منكم أبدا ، وماصرفها عنكم الا للذى هو خير لكم ، فابى أن يرجع ، فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال : أستودعك الله من قتيل أو اسير » رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار بنحوه واسنادهما حسن . وكان فى الصحابة اكثر من عشرة آلاف فما خف ايام الفتنة اكثر من أربعين رجلا ، ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه فقيل له لزمت القصر وتركت مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ فقال : رأيت مساجدكم لاهية ، واسواقكم لاغية والفاحشة فى فجاجكم عالية ، وفيما هناك عما انتم فيه عافية ﴿ وايذائهم ﴾ أى والخلاص عن ايذاء الجلساء فانهم يؤذونك تارة ﴿ بنحو الغيبة والتميمة ﴾ واخرى بسوء الظن والتهمة والنقول الذميمة ، ومرة بالاطماع الكاذبة التى يعسر الوفاء بها فيشتد الجفاء بسببها : وقد قيل : معاشرة الاشرار تورث الظن بالاخيار . وقيل لعبدالله بن الزبير : الا تأتى المدينة ؟ قال ما بقى فيها الا حاسد نعمة أو فرح بنقمة وقيل : كان الناس دواء يتداوى به فصاروا داء لا دواء له ، وعن أبى الدرداء كان الناس وردا لاشوك فيه فصاروا شوكا لا وردفيه : وقال رجل لابراهيم بن ادهم :

وَطَمَعِهِمْ فَرِعَايَةُ الْحُقُوقِ شَدِيدَةٌ وَفِيهَا ضَيَاعُ الْأَوْقَاتِ وَفَوَاتُ الْمُهِمَّاتِ وَالطَّمَعِ عَنْهُمْ فَالنَّظَرُ إِلَى زَهْرَاتِ الدُّنْيَا يُحَرِّكُ الْحِرْصَ

اوصنى ، فقال : اياك والناس ، وعليك بالناس ولابد من الناس فان الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ؛ ذهب الناس وبقى الخناس والنسناس وما أراهم بالناس ، بل غمسوا فى ماء الناس . وقيل . الزم الدفاتر او المقابر . وقال الحسن : اردت الحج فسمع ثابت البنانى وكان أيضا من أولياء الله فقال للحسن بلغنى انك تريد الحج فاحببت ان نصطحب ، فقال الحسن : ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا ، انى اخاف الله ان نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه . قال فى الأحياء : وهذه اشارة الى فائدة أخرى فى العزلة وهى بقاء الستر على الدين والمروءة [والاخلاق والفقر وسائر العورات] ، ولقد قال الشاعر :

ولا عار ان زالت عن المرء نعمة ٭ ولـكن عاراً أن يزول التجمل

وقال أبو الدرداء : اتقوا الله واحذروا الناس فانهم ما ركبوا ظهر بعير الا ادبروه ، ولا ظهر جواد الا عقروه ، ولا قلب مؤمن الا خربوه ﴿ وطمعهم ﴾ من اضافة المصدر الى الفاعل أى والخلاص من طمع الناس عنك فان رضاء الناس غاية لا تدرك ﴿ فرعاية الحقوق شديدة ﴾ ومن اهون الحقوق وايسرها حضور الجنائز وعيادة المريض وحضور الولائم والاملاكات ﴿ وفيها ﴾ أى فى رعاية الحقوق ﴿ ضياع الأوقات وفوات المهمات ﴾ والتعرض للآفات ، ثم قد يعوق عن بعضها عائق ويستثقل فيها المعاذير ولا يمكن اظهار تلك الأعذار فيقولون قام بحق فلان وقصر فى حقى ، و يصير ذلك سبب عداوة . ومن عم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم . وعن عمرو بن العاص كثرة الاصدقاء كثرة الغرماء ﴿ والطمع عنهم ﴾ وفى نسخة فيهم أى والخلاص من أن يطمع هو فيهم ﴿ فالنظر الى زهرات الدنيا ﴾ أى انواع زينتها واصناف بهجتها ﴿ يحرك الحرص ﴾ وانبعث بقوة الحرص طمعه ثم لا يرى الا الخيبة فى كثرة الاطماع فيتأذى بذلك ، ومهما اعتزل لم يشاهد ، واذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع هنالك ، ولذا قال تعالى : (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) وقال عليه السلام فيما رواه مسلم من حديث أبى هريرة « انظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فانه اجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم » وحكى ان المزنى خرج من باب

وَلِقَاءِ الثَّقِيلِ وَالْأَحْمَقِ فَهُوَ أَشَدُّ الْبَلَايَا، وَآفَاتٌ وَهِيَ فَوَاتُ التَّعَلُّمِ فَهُوَ مُقَدَّمٌ لِافْتِقَارِ الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى إِلَيْهِ وَالتَّعْلِيمِ فَهُوَ أَوْلَى أَيْضًا إِنْ كَانَ فِي عِلْمِ الْآخِرَةِ وَرَاعَى حَقَّهُ تَعَالَى بِالِاحْتِرَازِ عَنِ الذَّمَائِمِ كَالرِّيَاءِ وَحُبِّ الْجَاهِ

جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبد الحكم فى موكبه فبهره مارأى من حسن حاله وهيئته فتلا قوله تعالى : (وجعلنابعضكم لبعض فتنة اتصبرون) ثم قال اصبروارضى يعنى كما قيل :

رضينا قسمة الجبار فينا * لنا علم وللاعداء مال
فان المال يفنى عن قريب * وان العلم يبقى لايزال

﴿ ولقاء الثقيل والاحمق ﴾ أى والخلاص عن ملاقاة الثقلاء والحمقى ومشاهدة اخلاقهم ومقاساة احوالهم ﴿فهواشدالبلايا ﴾ أى المعنوية ، فان رؤية الثقيل هو العمى الاصغر . قيل للاعمش: م عمشت عيناك ؟ قال : من النظر الى الثقلاء ، ويحكى انه دخل عليه أبو حنيفة فقال له : فى الخبر «ان من سلب الله كريمتيه عوضه عنهما ماهو خير منهما» فما الذى عوضك . فقال فى معرض المطايبة : عوضنى الله عنهما انه كفانى رؤية الثقلاء وأنت منهم . وقيل : النظرة الى الأحمق حمى باطن ﴿وآفات﴾ أى فى العزلة ﴿ وهى ﴾ عشرة ﴿فوات التعلم فهو مقدم ﴾ على العزلة ﴿ لافتقار العبادة﴾ العلمية ﴿والتقوى ﴾ العملية ﴿ اليه﴾ ولذاقال النخعى وغيره : تفقه ثم اعتزل . وفى لطائف العارف الجامى قدس الله سره السامى : ان العزلة بغير عين العلم زلة ، كما انها بغير زاى الزهد علة ﴿والتعليم﴾ أى وفواته ﴿ فهواولى﴾ من العزلة ﴿أيضا﴾ أى كالتعلم ﴿ان كان﴾ التعليم ﴿ فى علم الآخرة ﴾ أى علم ينفعه فى العقبى ﴿ وراعى حقه تعالى﴾ بالاخلاص وابتغاء وجه ربه الأعلى ، وكذا ﴿ بالاحتراز عن الذمائم كالرياء وحب الجاه ﴾ من الاستكثار بالاصحاب والاتباع وما يتبعه من حب المال وسائر الاخلاق الذميمة فى الأحوال ، فحكم العالم فى هذا الزمان ان يعتزل ان اراد سلامة دينه ، فانه لايرى مستفيدا يطلب فائدة ليقينه ، بل يستعمله فى معرض المنافسة والمباهاة بعلمه وتبيينه ، ولا يطلبه غالبا الا للتوصل الى التقدم على الامثال ، وتولى الولايات ، واجتلاب الأموال ، واستشعار الاذلال على الجهال ، فان صودف طالب لله ومتقرب بالعلم الى رضا مولاه فالاعتزال عنه وكتمان العلم منه

فَوَرَدَ «إِذَا ظَهَرَتِ الْفِتْنَةُ وَسَكَتَ الْعَالِمُ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ» وَإِلَّا فَالْعُزْلَةُ كَمَا فِي زَمَانِنَا لِذَهَابِ عِلْمِ الْآخِرَةِ وَالْعَمَلِ عَلَيْهِ وَتَعَذُّرِ رِعَايَةِ الْحُقُوقِ

من أكبر الكبائر ﴿ فورد اذا ظهرت الفتنة وسكت العالم فعليه لعنة الله ﴾ لم اجد له اصلا ، وقد قال تعالى : (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) وقد قيل : ما فسدت الرعية الا بفساد الأمراء ، وما فسدت الأمراء الا بفساد العلماء ، ومن هنا قيل : فساد العالم فساد العالم . فنعوذ بالله من الغرور والعمى فانه الداء الدفين الذى ليس له دواء ﴿ والا ﴾ أى وان لم يكن تعليمه وتعلمه فى علم الآخرة ﴿ فالعزلة ﴾ متعينة بل واجبة ﴿ كما فى زماننا لذهاب علم الآخرة ﴾ من التفسير والحديث والفقه المتعلق بالعبادة فى اكثر البلدان ﴿ والعمل عليه ﴾ أى ولذهاب العمل على طبق العلم فى عامة أهل الزمان ، ولا ينبغى ان يغتر الانسان بقول سفيان : تعلمنا العلم لغير الله فابى أن يكون الا لله ، وان الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون الى الله . وانظر الى أواخر أعمار الاكثرين منهم واعتبر بهم ، انهم ماتوا وهم هلكى على طلب الدنيا ومتكالبين عليها أو راغبين عنها وزاهدين فيها ، وليس الخبر كالمعاينة . وأما العلم الذى أشار اليه سفيان فهو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سير الأنبياء والصحابة ، فان فيها التخويف والتحذير ، فان لم يؤثر فى الحال قد يؤثر فى المآل . فاما الكلام وجدل الخصام والفقه المجرد الذى يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات فلا يريد الراغب فيه الا الدنيا لا الله ، بل لا يزال متماديا فى حرصه إلى آخر عمره ونهاية أمره ، ومن هنا قال بشر الحافى : حدثنا باب من أبواب الدنيا ﴿ وتعذر رعاية الحقوق ﴾ أى ولتعذرها أو تعسرها من حقوق الاساتذة والتلامذة ، فعن أبى سليمان الخطابى : دع الراغبين فى صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال ، اخوان العلانية أعداء السر ، اذا لقوك تملقوك ، واذا غبت منهم سلقوك ، من اتاك منهم كان عليك رقيبا ، واذا خرج كان عليك خطيبا ، اهل نفاق ونميمة ، وغل وخديعة ، فلا تغتر باجتماعهم عليك ، فما غرضهم العلم وحسن الحال فى المآل ، بل الجاه وكثرة المال ، وان يتخذوك سلما الى أوطارهم ، وحمارا فى حاجاتهم واوزارهم . ان قصرت فى غرض من اغراضهم كانوا اشد اعدائك ، ثم يعدون ترددهم اليك دلالا عليك ويرونه حقا واجبا لديك ، ويفرضون عليك ان تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم ، فتعادي عدوهم ،

وَمَوْجِ الفِتَنِ، وَالانْتِفَاعِ مِنَ الغَيْرِ بِالكَسْبِ لِلْكِفَايَةِ أَوِالصَّدَقَةِ فَهُوَ أَوْلَى مِنْ عَمَلِ الظَّاهِرِ، وَالتَّأَدُّبِ بِالارْتِيَاضِ فِي البِدَايَةِ وَالتَّأْدِيبِ بِالرِّيَاضَةِ وَهُوَ كَالتَّعْلِيمِ

وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم ، وتنتهض لهم سفيها وقد كنت فقيها، وتكون لهم تابعا خسيسا بعد ان كنت متبوعا رئيسا ﴿ وموج الفتن ﴾ أى ولغلبة الفتن وما يترتب عليه من أنواع المحن ما ظهر منها وما بطن ، فانك ترى المدرس فى رق دائم ، وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد لديه ، فكأنه يهدى تحفة اليه ؛ فيرى حقه واجبا عليه ، فلا يزال يتردد إلى أبواب السلاطين ويقاسى الذل والشدائد مقاساة الذليل المهين حتى يكتب له على بعض وجوه السحت من مال المسلمين من اليتامى والمساكين. ثم لا يزال العامل يسترقه ويستخدمه، ويمتهنه ويستبدله الى ان يسلم اليه ما بعده نعمة مستأنفة من عنده عليه ، ثم يبقى فى مقاساة القسمة على اصحابه ان سوى بينهم مقته المبرزون ونسبوه الى الجنون وقلة التمييز والمعرفة فى الفنون . وان فاوت بينهم سلقه السفهاء بألسنة حداد وثاروا عليه ثوران الاساود والآساد فلا يزال فى مقاساتهم فى الدنيا وفى مظالم ما يأخذه ويفرقه فى العقبى ﴿ والانتفاع ﴾ أى وفواته ﴿ من الغير ﴾ وكذا نفع الغير ﴿ بالكسب للكفاية ﴾ أى لكفاية نفسه عن ابناء جنسه ﴿ او الصدقة ﴾ على غيره بالزيادة على قدر الكفاية بطريق القناعة ﴿ فهو ﴾ أى الكسب وفى نسخة فهى اى الصدقة ﴿ أولى من عمل الظاهر ﴾ كالصلاة والصوم وتلاوة القرآن ، وتوضيحه : ان حالك لا يخلو من أن تكون محتاجا الى القوت أولا ، فان كنت محتاجا اليه فاشتغالك بالكسب أولى بل فرض كما لا يخفى ، وان كنت مستغنيا عنه فلا يخلو اما ان تكون فى خلوتك مشغولا بالأعمال الظاهرة فالكسب للصدقة افضل من العزلة لتعدى المنفعة ، وأما ان تكون مشتغلا بالأعمال الباطنة من الانس بالله والحضور مع الله والتفكر فى صفات الله والتذكر لاحوال الآخرة فى عقباه والشوق الى لقاء ربه والذوق الى مقام رضاه فالعزلة أولى من الكسب لبقاء المنفعة ودوامها وتمامها فى الدنيا والأخرى ﴿ والتادب ﴾ أى فوات كسب الأدب وتحصيله ﴿ بالارتياض ﴾ أى المجاهدة وقبول رياضة النفس والمعاودة ﴿ في البداية والتاديب ﴾ أى وفوات تعليم الأدب ﴿ بالرياضة ﴾ فى النهاية ﴿ وهو كالتعليم ﴾ فى مقام الهداية وفى الاحياء . ويعنى بالتادب الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة فى تحمل اذاهم كسرا للنفس وقهرا للشهوات ، وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة ، وهو أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب

وَالْمُؤَانَسَةَ فَهِيَ مُسْتَحَبَّةٌ لِقَطْعِ الْمَلَالَةِ الْمُنَفِّرَةِ لِلْعِبَادَةِ وَثَوَابِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَنَحْوِهِمَا ، وَحُقُوقِهِمْ كَالْعِيَادَةِ وَالتَّشْيِيعِ

بعد أخلاقه ولم تذعن لحدود الشرع شهواته، وأما التأديب فنعنى به أن يروض غيره وهو حال مشايخ الصوفية معهم ، فانه لايقدر على تهذيب حالتهم الا بمخالطتهم . وللترمذى.وابن ماجه من حديث ابن عمر «المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لايخالط الناس ولايصبر على أذاهم» ﴿والموانسة﴾ أى وفوات الاستيناس والايناس بالناس فى المصاحبة والمجالسة، كالانس بملازمة أرباب التقوى من الأولياء وبمواظبة أصحاب الفتوى من العلماء،وانما سمى الانسان بالانس لما فيه نوع من الانس لاسيما والمؤمنون اخوة وبينهم زيادة ألفة لقوله تعالى : (وألف بين قلوبهم لوأنفقت مافى الارض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) ولقوله عليه السلام : (المؤمن يالف ولاخيرفيمن لايالف ولايؤلف) رواه أحمد عن سهل بن سعد ﴿فهى﴾أى الموانسة ﴿مستحبة لقطع الملالة المنفرةللعبادة﴾ أى كما هو فى العادة ، والرفق فى العبادة من حزم أهل الارادة.فورد «ان الله لايمل حتى تملوا» وقد تقدم : ومن يشاد هذا الدين يغلبه،فان الدين متين والايغال فيه برفق دأب المستبصرين ، ولذا قال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس . وقال مرة : لدخلت بلدا لا أنيس بها وهل يفسد الناس الاالناس . قلت : وكذا لايصلح الناس الا الناس ، ومن هنا قيل : ما زينة الناس الا الناس ، فلا يستغنى المعتزل اذا عن رفيق يستانس بمشاهدته ويستلذ بمحادثته فى اليوم والليلة من ساعته ،.فيجتهد فى طلب من لايفسد فى ساعته تلك شيئا من طاعته ، فقدقال عليه السلام «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» وقد تقدم،وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء فى امور الدين وحكاية المشايخ الصالحين والعلماء المجتهدين ، فهذا النوع من الجلوة فى بعض الاوقات قد يكون أفضل من الخلوة فى تحسين المقامات، فقد ورد «نوم العالم عبادة» ومنه «كلميني ياحميراء» ﴿وثواب اقامة الجمعة والجماعة﴾ أى وفوات اقامتهما وادامتهما ﴿ونحوهما﴾ من حضور الجنازة وصلاة العيدين ومجالس العلم ووقوف عرفة وأمثالها ﴿وحقوقهم﴾ أى وفواتها ﴿كالعيادة﴾ للمرضى ﴿والتشييع﴾ للجنازة ومنها اجابة الدعوة فى نحو الوليمة ، وقد حكي عن جماعة من

وَالتَّوَاضُعِ فَقَدْ يَحْمِلُ التَّكَبُّرَ عَلَيْهَا بِحُبِّ زِيَارَتِهِمْ تَبَرُّكًا

السلف مثل مالك وغيره ترك اجابة الدعوة وعيادة المرضى وحضور الجنازة ، بل كانوا احلاس بيوتهم لا يخرجون الا الى الجمعة أو زيارة القبور ، وبعضهم فارق الأمصار وانحاز الى قلل الجبال ميلا الى القرار . تفرغا للعبادة وحذرا عن الشواغل فى الارادة ﴿ والتواضع ﴾ أى وفواته من آداب المخالطة ولا يقدر عليه فى الوحدة ﴿ فقد يحمل التكبر عليها ﴾ أى على العزلة ﴿ بحب زيارتهم تبركا ﴾ أى على سبيل التبرك والمعنى انه قد يكون الكبر سببا للعزلة . وعلامته انه يحب ان يزار ولا يحب أن يزور ، ولو كان له الاشتغال بذكره والاستغراق فى فكره لبغض زيارة الناس اليه ووقوفهم عليه لشغلهم عن المقصود لديه، ثم اعلم ان التواضع فى المخالطة لا ينقص عن منصب من هو كبير بعلمه أو دينه ، وقد كان على يحمل التمر والملح فى ثوبه ويده ويقول :

لا ينقص الكامل من كماله ٭ ماجر من نفع الى عياله

وكان أبو هريرة . وحذيفة . وأبى . وابن مسعود يحملون حزمة الحطب وجراب الدقيق وغيره على أكتافهم . وكان أبو هريرة يقول وهو وال على المدينة والحطب على رأسه : طرقوا لاميركم ، وكان عليه السلام يشترى الشىء فيحمله الى بيته بنفسه فيقول له صاحبه اعطنى احمله فيقول «صاحب المتاع أحق بحمله» رواه أبو يعلى من حديث أبى هريرة فى حمله سراويله التى اشتراها . ثم اعلم ان من حبس نفسه فى بيته لتحسين اعتقاد الناس فى حقه فهو فى عناء حاضر فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وابقى . فلا تستحب العزلة الا لمستغرق الأوقات بربه ذكرا وفكرا وعلما وعبادة واشتغالا بامره تجردا وزهادة بحيث لو خالط الناس لضاعت أوقاته أو كثرت آفاته أو تشوشت عليه عباداته ، فمن شغل نفسه لطلب رضى الناس فهو مغرور لانه لو عرف حق المعرفة لعلم ان الخلق لا يغنون عنه من الله شيئا ، وان ضره ونفعه بيد الله فلا نافع ولا ضار سواه وان من طلب رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه الحق واسخط عليه الخلق ، بل رضى الناس غاية لا تدرك ولذا قيل :

من راقب الناس مات غما ٭ وفاز بالراحة الجسور

وقيل للحسن : يا أبا سعيد ان قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم الا تتبع سقطات كلامك وتعنتك فى السؤال فتبسم وقال للقائل : هون على نفسك فانى حدثت نفسى بسكنى الجنان ومجاورة الرحمان فطمعت ، وما حدثت نفسى بالسلامة من الناس لانى قد علمت ان خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم ، وقال موسى : يارب احبس عنى ألسنة الناس ،

وَالتَّجَارُبِ فَتَتَعَلَّقُ بِهَا مَصَالِحُ الدَّارَيْنِ لَاسِيَّمَا الرِّيَاضَةُ وَالْأَصْلُ الاسْتِفْتَاءُ مِنَ الْقَلْبِ وَحَقُّهَا نِيَّةُ الاحْتِرَازِ عَنْ شَرِّ النَّفْسِ وَالْغَيْرِ

فقال : ياموسى هذاشيء لم اصنعه لنفسي فكيف افعله لك . واوحى الله سبحانه الى عزير : إن لم تطب نفسا بان اجعلك علكا فى افواه الماضغين لم اكتبك عندى من المتواضعين . وفى الحديث النبوى « اذ كروا الله حتى يقولوا مجنون » وقد قالوا فى حق أعقل الخلق مجنون وساحر ومسحور وكذاب وشاعر ومغرور ﴿ والتجارب ﴾ أى وفوائده فانها تستفاد من الخلطة ولا توجد فى العزلة ، فالقلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة انما تنفجر وتظهر آثارها من القلوب السقيمة اذ حرك بادنى الحركة المستقيمة كما يشير اليه خبر « اخبر تقله » ، وقولهم : حرك ترى ما يجرى ﴿ فتتعلق بها ﴾ أى بالتجارب ﴿ مصالح الدارين ﴾ من المناقب والمراتب ﴿ لاسيما الرياضة ﴾ فى ترك المناصب وعند حصول المصائب ، فمن هنا كانوا يجربون أنفسهم ، فمنهم من كان يحمل قربة ماء او نحوها بين الناس على ظهره أو حزمة حطب على رأسه ويتردد فى الأسواق لتجربة نفسه إذا استشعر كبرا فى باطنه ، فان غوائل النفس ومكائدها قل من يتفطن بها ، فقد حكى عن واحد انه قال : اعدت صلاة ثلاثين سنة مع انى كنت أصليها فى الصف الأول ، ولكنى تخلفت يوما بعذر فما وجدت موضعا فى الصف الأول ، فوقفت فى الصف الثانى فوجدت نفسى تستشعر خجلة من نظر الناس الى وقد سبقت الى الصف الأول فعلمت ان جميع صلاتى كانت مشوبة بالرياء ، فالمخالطة لها فائدة ظاهرة فى استخراج القبائح واظهارها ، ولذا قيل السفر يسفر عن الاخلاق فانها نوع من المخالطة مع الخلق . واذا عرفت هذا فان تحققت الفوائد وانتفت الآفات فاختر العزلة ، والا فالخلطة ، وان تقابلا فخذ بالأرجح فى المسألة ﴿ والأصل الاستفتاء من القلب ﴾ اذا كان مشحونا بذكر الرب ، والأفضل هو الجمع بين الخلوة والجلوة كما يشير اليه قول الشافعى : الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة . والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء فى المحادثة ، فكن بين المنقبض والمنبسط ولذا قيل كن وسطا وامش جانبا . ويومى اليه قوله تعالى : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) ﴿ وحقها ﴾ أى العزلة ﴿ نية الاحتراز ﴾ أى الاحتراس ﴿ عن شر النفس ﴾ وما فيها من الوسواس ﴿ والغير ﴾ أى وغيرها من الجنة والناس ، فينبغى للمعتزل ان ينوى بعزلته كف شر نفسه

وَالتَّقْصِيرِ فِى رِعَايَةِ الْحُقُوقِ وَالتَّجَرُّدِ لِلْعِبَادَةِ وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ فِى طَرِيقِهِ تَعَالَى وَالْحُضُورِ فِى نَحْوِ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْعِيدِ وَالْحَجِّ وَمَجْلِسِ الْعِلْمِ وَيَجُوزُ التَّرْكُ عِنْدَ مُعَارَضَةِ مُنْكَرٍ أَفْحَشَ مِنْهُ وَالْأَحَبُّ حِينَئِذٍ أَنْ يَسْكُنَ مَوْضِعًا يُسْقِطُهَا وَالسُّكُونُ فِى رِبَاطِ السَّالِكِينَ يُفِيدُ سَلَامَةَ الْعُزْلَةِ وَبَرَكَةَ الْجُمُعَةِ وَالتَّعَاوُنَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّأَدُّبَ فَلِسَانُ الْحَالِ أَفْصَحُ وَوَرَدَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ وَالطَّرِيقُ الِاسْتِغْرَاقُ بِالْعِبَادَةِ

عن الابرار ثم طلب السلامة من شر الأشرار ﴿ والتقصير فى رعاية الحقوق ﴾ أى ثم الخلاص عن آفة القصور عن القيام بحق الأنام ﴿ والتجرد للعبادة ﴾ أى ثم العزيمة بكنه الهمة للعبادة والفراغ للطاعة ﴿ وتهذيب الأخلاق ﴾ بان يكون فى خلوته مواظبا على العلم والعمل والذكر والفكر ودفع الأمل وانتظار الأجل ﴿ والسلوك فى طريقه تعالى ﴾ بمنع الناس عن زيارته لئلا يكون مشوشا فى وقته وحالته ، وعدم السؤال عن اخبار الناس وأفعالهم واراجيفهم فى احوالهم ، والقناعة باليسير من المعيشة ، والصبر على مايلقاه من اذى الجيران وغيرهم ، وعدم الاصغاء الى مايقال فى حقه من مدح فيه بالعزلة او قدح فيه بترك الخلطة . وينبغى ان يكون له اهل صالح او جليس معتمد عليه لتستريح نفسه اليه فى اليوم ساعة عن كد المواظبة فى الطاعة . ثم لا يتم له الصبر فى العزلة الا بقطع الطمع عن الدنيا وما الناس منهمكون فيه مما يوافقه او ينافيه ، ولا ينقطع طمعه الا بقصر الأمل وتقريب الأجل ﴿ والحضور فى نحو الجمعة ﴾ فانه فرض ﴿ والجماعة ﴾ فانه واجب أو فرض كفاية أو سنة مؤكدة ﴿ والعيد ﴾ فانه واجب أو سنة من سنن الهدى وشعار اهل التقى ﴿ والحج ﴾ فانه طريق أهل السلوك ﴿ ومجلس العلم ﴾ فانه لا يستغنى عنه الصعلوك ولا الملوك ولا المملوك ﴿ ويجوز الترك ﴾ أى ترك الحضور فى تلك الامور ﴿ عند معارضة منكر أفحش منه ﴾ أى من ترك الحضور ﴿ والاحب حينئذ أن يسكن موضعا ﴾ بعيدا من العمارات ﴿ يسقطها ﴾ أى المذكورات من الجمعة والجماعات ونحوها من المأمورات ﴿ والسكون فى رباط السالكين ﴾ أى خانقاه الصالحين ﴿ يفيد سلامة العزلة ﴾ عن آفات الخلطة ﴿ وبركة الجمعة ﴾ والجماعة ﴿ والتعاون على البر ﴾ والتقوى ﴿ والتأدب ﴾ بآداب أهل الشرع والفتوى ﴿ فلسان الحال أفصح ﴾ من بيان القال ﴿ وورد ﴾ فى التنزيل : ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين والطريق ﴾ أى الموصل للعزلة ﴿ الاستغراق بالعبادة ﴾ ذكرا وفكرا وعلما وعملا وصبرا وشكرا ،

فَالاسْتِينَاسُ بِالنَّاسِ مِنَ الافْلَاسِ ، وَقَطْعُ الطَّمَعِ وَذِكْرُ الآفَاتِ وَايثَارُ الخُمُولِ وَهِيَ فَضِيلَةٌ عَظِيمَةٌ فَورَدَ «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»

صحوا ومحوا وسكرا وفنا وبقاء وقبضا وبسطا ﴿فالاستيناس بالناس من الافلاس﴾ أى من علامة الافلاس عن مقام الايناس ، فاذا رأيت نفسك تتطلع الى سلامهم وكلامهم وملاقاتهم فى مقامهم فاعلم ان ذلك فضول ساعة الفراغ . وفى الحديث «نعمتان مغبون فيهما اكثر الناس : الصحة والفراغ» وقيل :

إن الشباب والفراغ والجدة ٭ مفسدة للمرء أى مفسدة

ومتى عانقت العبادة ولازمتها حق الملازمة ووجدت حلاوة المناجاة مع الحضرة واستأنست بكتاب الله وآياته واخبار رسوله وآثار صفاته استوحشت عن الأغيار ، على انه ليس فى الدار غيره ديار فى نظر الابرار ، وفى بعض الأخبار : ان موسى عليه السلام كان إذا رجع من المناجات يستوحش من كلام الناس و يجعل اصبعيه فى اذنيه كيلا يسمع كلامهم ولا يفهم مرامهم . فعليك بما قال بعضهم : اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا شاهدا كنت فيه أو غائبا . قلب الناس كيف شئت تجدهم عقاربا . ﴿وقطع الطمع﴾ عن الخلق بل عن الحق أيضا بان يعطيك غير ما قسم لك فيهون عليك أمر الخلق والنظر اليهم والطمع فيهم ، فان من لا ترجو نفعه ولا تخاف ضره فوجوده وعدمه سواء عليك ، وقبوله ورده مستو لديك ، وهذا نبذة من توحيد الأفعال حيث قال تعالى خبرا عن مالهم من الأحوال : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حيوة ولا نشورا) ﴿وذكر الآفات﴾ أى آفات المخالطة وفوائد العزلة ﴿وايثار الخمول﴾ فانه الراحة وضده الشهرة ففيها الآفة ﴿وهى﴾ أى صفة الخمول ﴿فضيلة عظيمة﴾ ومنقبة جسيمة وقد قيل فى تعريفه هو اسقاط النفس عن نظر الخلق ﴿فورد رب اشعث﴾ اى متفرق الشعر ﴿أغبر﴾ مغبر الوجه ﴿ذى طمرين﴾ أى كسائين اسودين أو ازارين خلقين ﴿لا يؤبه له﴾ أى لا يعتبر له عند اكثر الخلق ﴿لو اقسم على الله﴾ فى شىء نفيا أو اثباتا ﴿لابره﴾ أى لجعله الحق بارا فى قسمه ذلك بان يجعله مطابقا لما أراده هنالك . والحديث رواه مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ «رب أشعث مدفوع بالابواب لو اقسم على الله لأبره» وللحاكم «رب اشعث أغبر ذى طمرين

وَلَوِ اتَّسَعَ الجَاهُ بِلَا طَلَبٍ فَغَيْرُ مَذْمُومٍ كَمَا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالخُلَفَاءِ وَالْأَئِمَّةِ إِلَّا أَنَّ
فِيهِ فِتْنَةً لِلضُّعَفَاءِ فَوَرَدَ «حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ أَنْ يُشِيرَ
النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ» وَإِنَّمَا المَذْمُومُ حُبُّ الجَاهِ فَوَرَدَ (تِلْكَ الدَّارُ
الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا)

ينبو عنه اعين الناس لو اقسم على الله لأبره » وقال صحيح الاسناد . ولابن أبي الدنيا من طريق
الديلمي من حديث ابن مسعود « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو اقسم على الله لابره » أو قال
اللهم اني اسئلك الجنة لاعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا » وفي الاحياء عن أبي هريرة
مرفوعا «ان أهل الجنة كل اشعث اغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين اذا استاذنوا على
الأمراء لم يؤذن لهم ، واذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، واذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج
أحدهم تتجلجل في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم » وسكت
عليه مخرجه وفي رواية «ان من أمتي من لو اتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه اياه ولو ساله درهما
لم يعطه اياه ولو ساله فلسا لم يعطه اياه ولو سال الله تعالى الجنة لأعطاها اياه » الطبراني
في الأوسط من حديث ثوبان باسناد صحيح ، وزاد في الاحياء «ولو ساله الدنيا لم يعطه اياها
وما منعها اياه لهوانه عليه بل لكرامته لديه » قال مخرجه وروى مرسلا ﴿ ولو اتسع الجاه بلا
طلب فغير مذموم كما للانبياء ﴾ والمرسلين ﴿ والخلفاء ﴾ الراشدين ﴿ والأئمة ﴾ المجتهدين
من العلماء والصلحاء المعتمدين ﴿ الا أن فيه ﴾ أي في اتساع الجاه ﴿ فتنة للضعفاء ﴾ أي
ابتلاء ومحنة لغير الاقوياء حيث لم يتلذذوا بحال الفقراء في خاطرهم ميل الى مقام الاغنياء
وذهلوا عما ورد من أن سليمان يدخل الجنة بعد سائر الأنبياء بخمسمائة عام ، وكذا
ابن عوف من العشرة المبشرة يدخل الجنة بعد الفقراء المهاجرين بخمسمائة عام ،
بل في الأحياء ان عذاب الكافر الفقير أخف من الغني في دار البقاء ﴿ فورد ﴾ من حديث أنس
عند البيهقي ﴿ حسب امرىء من الشر الا من عصمه الله أن يشير الناس اليه بالأصابع
في دينه ﴾ أي بالعلم والعمل أي مخافة عجبه وغروره ﴿ ودنياه ﴾ أي بالمال والجاه أي خشية
كبره وبطره ، وفسر الحسن دينه بالبدعة ودنياه بالفسق ﴿ وانما المذموم حب الجاه ﴾
أي لا وجوده وشهوده ﴿ فورد ﴾ في التنزيل ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون
علوا في الارض ﴾ أي لا يحبون اعتلاء بالجاه والمال ، اذ لا يريدون استعلاء بغير الحق
﴿ ولا فسادا ﴾ بحال الخلق بل يريدون صلاحا لأهل الحق ، لكن كما قيل : آخر ما يخرج

وَأَصْلُهُ انْتِشَارُ الصِّيتِ وَحَقِيقَتُهُ تَمَلُّكُ الْقُلُوبِ الْمُوَصِّلُ إِلَى الْمَقَاصِدِ وَهُوَ أَشْهَى مِنَ الْمَالِ فَتَحْصِيلُ الْغَرَضِ بِهِ أَيْسَرُ مَعَ أَنَّهُ مَأْمُونٌ عَنْ نَحْوِ السَّرِقَةِ وَالْغَصْبِ وَنَامٍ دُونَ التَّعَبِ وَمُطَاعٌ بِالطَّوْعِ فَحَرَامٌ إِنْ كَانَ بِارْتِكَابِ ذَنْبٍ كَالْكَذِبِ

من قلوب الصديقين حب الرياسة ولو كان من حيث المشيخة وباب السياسة، والحاصل ان الله سبحانه علق جعل الدار الآخرة بنفي ارادة العلو المستلزم لحب الجاه دون نفس الجاه فعلم ان المذموم حب الجاه دون نفس الجاه من غير حب له ﴿وأصله﴾ أي الجاه ﴿انتشار الصيت﴾ واشتهار السمت، فالخمول محمود الا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه لقوة يقينه ﴿وحقيقته﴾ أي الجاه ﴿تملك القلوب﴾ المطلوب منها تعظيمها وطاعتها ﴿الموصل الى المقاصد﴾ أي الدنيوية وقد تكون الدنيوية والأخروية، قال ابن أدهم: ماصدق الله من أحب الشهرة، وقال أيوب السختياني ماصدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه. وعن خالد بن معدان أنه كان اذا كبرت حلقته قام مخافة الشهرة. وعن أبي العالية أنه كان اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام وقال بشر: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس، وعن معاذ بن جبل: «ان اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفقدوا واذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة» الطبراني والحاكم وصححه» وقال الفضيل: بلغني ان الله عز وجل يقول في بعض ما يمن به على عبده الم أنعم عليك. الم استرك. الم اخمل ذكرك، وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من ارفع خلقك، واجعلني في نفسي من اوضع خلقك، واجعلني عند الناس من اوسط خلقك. وقال الثوري وجدت قلبي بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب خوف وعبادة ﴿وهو﴾ أي الجاه ﴿اشهى﴾ أي ألذ ﴿من المال﴾ ولذا يبذل المال لتحصيل الجاه ولانه يحصل به المال ولو في المآل ﴿فتحصيل الغرض﴾ من حظ النفس واتباع الهوى ﴿به﴾ أي بالجاه ﴿أيسر﴾ أي أهون من تحصيله بالمال ﴿مع انه﴾ أي الجاه ﴿مأمون عن نحو السرقة والغصب﴾ بخلاف المال ﴿ونام﴾ أي منتشر في العالم ﴿دون التعب﴾ ببذل المال وبيان الحال ﴿ومطاع بالطوع﴾ أي بالرغبة في خدمته لأرباب الكمال وأصحاب الجمال ﴿فحرام﴾ أي الجاه ﴿ان كان بارتكاب ذنب كالكذب﴾ بكونه علويا في النسب أو من نسل

وَالْخِدَاعِ بِإِظْهَارِ أَنَّهُ عَالِمٌ أَوْ وَرِعٌ أَوْ شَرِيفٌ وَهُوَ بِخِلَافِهِ، وَبَيْعُ الْعِبَادَةِ بِجَعْلِهَا وَسِيلَةً لِلدُّنْيَا جِنَايَةٌ وَإِلَّا فَمُبَاحٌ فَوَرَدَ. (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) وَالْأَوْلَى الِاحْتِرَازُ عَنْهُ فَفِيهِ آفَاتٌ وَهِيَ النِّفَاقُ وَاضْطِرَابُ الْقَلْبِ لِشَغْلِهِ بِرِعَايَةِ الْقُلُوبِ وَحِفْظُ الْجَاهِ وَدَفْعُ الْحُسَّادِ إِلَّا قَدْرًا يُعِينُ عَلَى الطَّاعَةِ كَاسْتِمَالَةِ قَلْبِ خَادِمٍ يَتَعَهَّدُ أَوْ رَفِيقٍ يُعَاوِنُ أَوْ سُلْطَانٍ يَدْفَعُ الشَّرَّ

الملوك والعلماء والمشايخ فى الحسب ﴿والخداع باظهار انه عالم أوورع أوشريف وهو بخلافه﴾ من جاهل اوفاسق اووضيع، ومن هنا قيل: فمن ادعى المشيخة فان كان صادقا فهو افضل الخلق وان كان كاذبا فهو شر الخلائق، وقدورد «ماذئبان ضاريان فى زريبة غنم باكثر فسادا من حب الشرف والمال فى دين الرجل المسلم» رواه النسائى. والترمذى وقال حسن صحيح من حديث كعب بن مالك ﴿وبيع العبادة﴾ اى وحرام ان كان يبيعها وهى من امور الدين بشىء من امور الدنيا مالا اوجاها، ﴿بجعلها﴾ اى العبادة النافعة فى العقبى ﴿وسيلة للدنيا﴾ الدنية الفانية ﴿جناية﴾ وعلى نفسه خيانة ﴿والا﴾ اى وان لم يكن حب الجاه بارتكاب ذنب ولا ببيع عبادة ﴿فمباح﴾ وبضم نية نفع مسلم اودفع ظالم يصير مندوبا وقد يكون مطلوبا ﴿فورد﴾ فى سورة يوسف ﴿قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم﴾ اى مخاطبا لملك مصر، فانه طلب منزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما، وكان محتاجا الى طلبه وكان صادقا فى قوله ونافعا لغيره فى امره ﴿والاولى﴾ لغير الاقوياء ﴿الاحترازعنه﴾ اى عن طلب الجاه فانه لا يخلو عن خطر لحظ نفسه ومايهواه ﴿ففيه آفات﴾ اربعة ﴿وهى النفاق﴾ لان صاحب الجاه لايستغنى عن المداهنة فى الاخلاق وهى مخالفة الظاهر الباطن قولا اوفعلا ﴿واضطراب القلب﴾ اى تزلزله عند ظهور العيوب ﴿لشغله برعاية القلوب. وحفظ الجاه﴾ اى تمامه بين العباد ودوامه فى البلاد ﴿ودفع الحساد﴾ اى ضررهم وشرهم المعتاد ﴿الاقدرا﴾ استثناء من الاحتراز اى الاقدرا يسيرا من الجاه ﴿يعين على الطاعة﴾ ويكون سببا للراحة بقدر الاستطاعة ﴿كاستمالة قلب خادم يتعهد﴾ امورا ضروريا للمخدوم ﴿اورفيق يعاون﴾ فى السفر اوالحضر على البر والتقوى ومحافظة امور العقبى ﴿اوسلطان يدفع الشر﴾ والبلوى *

وَالسَّبَبُ طُولُ الأَمَلِ وَخَوْفُ الآفَةِ وَاسْتِدْعَاءُ الطَّبْعِ الكَمَالَ لِتَحَقُّقِ الطَّبْعِ الرُّبُوبِيِّ فِي الانْسَانِ كَالسَّبُعِيِّ وَالشَّيْطَانِيِّ وَالبَهِيمِيِّ فَيُحِبُّ الاسْتِعْلَاءَ بِالاسْتِرْقَاقِ إِنْ أَمْكَنَ كَمَا فِي الأَجْسَادِ الأَرْضِيَّةِ

﴿ والسبب ﴾ اى سبب حب الجاه ثلاثة ﴿ طول الامل ﴾ اى بتبعيد الاجل ﴿ وخوف الآفة ﴾ اى توهم المحنة التى تكون منشأ للمهنة · وتوضيحه ان الشفيق بسوء الظن مولع ، والانسان وان كان مكتفيا فى الحال فانه طويل الآمال فيخطر بباله ان المال الذى فيه كفاية ربما يتلف فيحتاج الى غيره ، واذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه فلا يدفع المرء خوفه الا الامن الحاصل لوجود مال آخر يفزع اليه ان اصاب هذا المال جائحة فهو ابدا لشفقته على نفسه وحبه للجاه يقدر طول الحياة، ويقدر هجوم الحاجات ، ويقدر امكان تطرق الآفات، وهذا خوف لا موقف له عند مقدار مخصوص من المال او الجاه ، ومن هنا ورد « منهومان لا يشبعان : منهوم العلم ومنهوم المال» الطبرانى وغيره « ولو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب» ﴿ واستدعاء الطبع ﴾ اى استشعاره ﴿ الكمال ﴾ الحقيقى أو الوهمى ﴿ لتحقق الطبع ﴾ اى الخلق ﴿ الربوبى فى الانسان ﴾ من الاستعلاء والاستيلاء والتكبر والتجبر واظهار العظمة والكبرياء ، اذ معنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال ، وكل انسان بطبعه محب لان يكون منفردا بالكمال فى الجمال والجلال ، ولذا قال بعض الصوفية : مامن انسان الا وفى باطنه ماصرح به فرعون من قوله انا ربكم الاعلى ، ولكنه ليس يجد مجالا ، وفى الاحياء وهو كما قال فان العبودية قهر على النفس والربوبية محبوبة بالطبع ، ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فى جميع الاحوال ﴿ كالسبعى ﴾ من القتل والجرح والضرب والايذاء ﴿ والشيطانى ﴾ كالمكر والخديعة والاغواء ﴿ والبهيمى ﴾ من الاكل والشرب والوقاع مع النساء ﴿ فيحب ﴾ اى الانسان بالطبع الربوبى ﴿ الاستعلاء بالاسترقاق ﴾ اى استرقاق العبيد على وجه الاكثار واستعباد اجساد الاحرار ﴿ ان امكن ﴾ الاسترقاق ولو بالقهر والغلبة متى يتصرف فيهم بالاستسخار ﴿ كما فى الاجسام الارضية ﴾ من نحو الكلأ والاغراس والاشجار بالقلع والابقاء والابداء والافناء ، وكالدراهم والدنانير والامتعة ، فيحب ان يكون قادرا عليها بفعل

ثُمَّ بِالاسْتِمَالَةِ كَمَا فِى القُلُوبِ ثُمَّ بِالاطِّلَاعِ كَمَا فِى السَّمٰوَاتِ وَعَالَمِ المَلَكُوتِ وَالعِلَاجُ العِلْمُ بِأَنَّهُ كَمَالٌ وَهْمِىٌّ لِزَوَالِهِ بِالمَوْتِ وَلِأَنَّ القُدْرَةَ الحَقِيقِيَّةَ لَهُ تَعَالَى وَفِيهِ التَّشَبُّهُ بِالسِّبَاعِ وَالشَّيَاطِينِ وَالبَهَائِمِ أَمَّا الحَقِيقِىُّ فَمَعْرِفَتُهُ تَعَالَى وَمَحَبَّتُهُ وَمَا يُعِينُ عَلَيْهِ لِبَقَائِهِ بَعْدَ المَوْتِ وَفِيهِ التَّشَبُّهُ بِالأَنْبِيَاءِ وَالمَلَائِكَةِ

فيها مايشاء من الرفع والوضع والعطاء والمنع ، فان ذلك قدرة والقدرة كمال والكمال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبة بالطبع والجبلة الخلقية ، ولذا احب الاموال وان كان لايحتاج اليها فى مأكله ومشربه وملبسه وشهوات نفسه ﴿ ثم بالاستمالة ﴾ اى بطلب ميل الخلق اليه ظاهرا وغلبة اوباطنا ورغبة ﴿ كما فى القلوب ﴾ طوعا وكرها ﴿ ثم بالاطلاع ﴾ اى الاشراف ﴿ كما فى السموات ﴾ وفى نسخة السماويات اى اخبارها واوورها واسرارها ﴿ وعالم الملكوت ﴾ من العرش والكرسى وحولهما من الملائكة وانوارها ، والمراد بالملكوت عالم الباطن بما يخطر من الخطرات والعزائم فى الحركات والسكنات . والحاصل ان مطلوب القلب الكمال ، والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسرور كل انسان ولذته بقدر مايدركه من الكمال ، فهذا هو السبب فى كون العلم والمال والجاه من المحبوبات ، وهو امر وراء كونه محبوبا لاجل التوصل به الى قضاء الشهوات فان هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات واللهوات ، بل يحب الانسان من العلوم مالايصلح للتوصل به الى قضاء الاغراض ، بل ربما يفوت عليه جملة من الاغراض والاعواض ، ولكن الطبع يتقاضى العلم فى جميع العجائب والمشكلات لان فى العلم استيلاء على المعلومات وهو نوع من الكمال الذى هو من الصفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع ولو كان صاحبه فى مقام العبودية .

﴿ والعلاج ﴾ اى علاج رفع حب الجاه خمسة اشياء ﴿ العلم بانه ﴾ اى الجاه الدنيوى ﴿ كمال وهمى ﴾ ليس فى الواقع كمال حقيقى ﴿ لزواله بالموت ﴾ انتهاء ولحدوثه ابتداء ﴿ ولان القدرة الحقيقية له تعالى ﴾ ازلا وابدا ﴿ وفيه ﴾ اى فى الجاه الوهمى الصورى ﴿ التشبه بالسباع والشياطين والبهائم ﴾ كما تقدم ﴿ اما الحقيقى ﴾ اى كماله ﴿ فمعرفته تعالى ومحبته ومايعين عليه ﴾ اى على كماله من العلم والعمل كما حكم به شريعته ، وانما يكون هذا كمالا حقيقيا ﴿ لبقائه بعد الموت ﴾ فالكمال الحقيقى ماينتقل مع صاحبه ولا ينفك عن جانبه ﴿ وفيه ﴾ اى فى هذا الكمال ﴿ التشبه بالانبياء والملائكة ﴾ الموصوفين

وَآفَاتِ الدُّنْيَا وَخَسَاسَتِهَا وَمَا وَرَدَ فِى ذَمِّ الْجَاهِ وَمَدْحِ الْخُمُولِ وَأَحْوَالِ السَّلَفِ فِى إِيثَارِ الْعُقْبَى وَمُبَاشَرَةُ أَمْرٍ يُسْقِطُهُ

بكمال المعرفة والمحبة الدائمة الباقية ، فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان وهم غافلون ، واقبلوا على طلب الكمال بالجاه والمال وهو الكمال الذى لا يسلم من الزوال وان سلم فى الحال فلا بقاء له فى المآل ، واعرضوا عن كمال الحرية والمعرفة المسمى علما لدنيا ، واذا حصل ابديا لا انقطاع له لكونه سرمديا . فهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى (المال والبنون زينة الحيوة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا) فالعلم والقربة هى الباقيات الصالحات التى تبقى كمالا فى النفس ، واما المال والجاه فيفنى فى الحال أو المآل كما مثله الله تعالى بقوله (انما مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض) الآية ﴿ وآفات الدنيا ﴾ اى والعلم بها ﴿ وخساستها ﴾ اى دناءة نفسها من كثرة عنائها وقلة غنائها وخسة شركائها وسرعة فنائها ، فلله در القائل :

اشد الغم عندى فى سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالا

ولآخر من أهل الفضائل :

أضغاث أحلام وظل زائل   ان اللبيب بمثله لا يخدع

﴿ وما ورد ﴾ أى والعلم بما جاء من السنة ﴿ فى ذم الجاه ومدح الخمول ﴾ على ما تقدم ﴿ وأحوال السلف فى ايثار العقبى ﴾ على مناصب الدنيا ومعاونة بعضهم لبعض فى البر والتقوى ، فقد كتب الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز . أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت وقدمات ، فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كائنا . وكتب عمر بن عبد العزيز فى جوابه : أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل فهؤلاء كان التفاتهم الى العاقبة وكان عملهم لها بالتقوى اذ علموا ان العاقبة للمتقين واستحقروا الجاه والمال فى الدنيا . وبصائر أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها الى مشاهد العواقب الآجلة كما قال تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال تعالى : (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) ﴿ ومباشرة أمر ﴾ بالرفع عطفا على العلم أى والعلاج للعمل وهو مباشرة فعل ﴿ يسقطه ﴾ أى جاهه وقدره من قلوب الخلق وأعينهم ، وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويقنع بنظر

كَشُرْبِ المَاءِ فِي قَدَحٍ يُشْبِهُ الخَمْرَ لَوْنًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَتْبُوعًا فَيُبَاشِرُ مَا يُرَى مُبَاحًا كَاظْهَارِ الشَّرَهِ وَالأَقْوَى القَنَاعَةُ وَالاغْتِرَابُ، وَأَمَّا الاعْتِزَالُ فِي الوَطَنِ فَلَا يَخْلُو عَنْهُ لِمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِهِ

الخالق وقبوله ، وهذا طريق الملامتية الطالبين للحالة السلامتية ﴿ كشرب الماء ﴾ الحلال ﴿ فى قدح يشبه الخمر لونا ﴾ أى يشبه لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من الأعين وهذا فى جوازه نظر من حيث الفقه الا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه مهما رأى اصلاح قلوبهم فيه ، ثم يتداركون ما افرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم ، فانه عرف بالزهد واقبل الناس عليه ، فدخل حماما ولبس ثوب غيره وخرج ووقف فى الطريق حتى عرفوه واخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وسموه لص الحمام ﴿ الا أن يكون متبوعا ﴾ أى من المقتدين حيث لا يجوز ان يفعل ما لا يكون بظاهره مشروعا فانه يوهن الدين فى قلوب المسلمين . وأما الذى لا يقتدى به فلا ينبغى له أيضا أن يقدم على محظور لاجل ذلك ﴿ فيباشر ما يرى مباحا ﴾ مما يسقط قدره عند الناس ﴿ كاظهار الشره ﴾ بفتحتين اى الحرص في الطعام ، كما روى ان بعض الملوك قصد بعض الزهاد فلما علم بقربه منه استدعى طعاما وبقلا وأخذ يأكل بشره و يعظم اللقم فلما نظر اليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد : الحمد لله الذى صرفك عنى . وهذا بالنسبة الى المتقدمين، واما فى زماننا فمن عمل بالكتاب والسنة فى امره لم يلق صديقا فى دهره مدة عمره ﴿ والأقوى ﴾ أى فى المعالجة ﴿ القناعة ﴾ بلزوم الطاعة وعدم الطمع من اهل الاستطاعة والاكتفاء بما لابد منه للاحياء كلقمة تسد جوعته وخرقة تستر عورته وبيت يدفع عنه حره وقره ﴿ والاغتراب ﴾ اى طلب الغربة والهجرة الى موضع الخمول وعدم الشهرة ﴿ واما الاعتزال فى الوطن فلا يخلو عنه ﴾ أى عن نوع من الجاه ﴿ لمعرفة الناس به ﴾ فان المعتزل فى البلد التى هو فيها مشهور لا يخلو فى بيته عن حب المنزلة التى يترشح له فى القلوب بسبب عزلته ، فربما يظن أنه ليس محبا لذلك الجاه وهو مغرور بها ، وانما سكنت نفسه لانها قد ظفرت بمقصودها ، ولو تغير الناس عليه عما اعتقدوا فيه وذموه جزعت نفسه وتألمت ثم لا يمكنه أن لا يحب المنزلة فى قلوب الناس ما دام يطمع فيهم ، فاذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع الطمع عنهم أصبح الناس كلهم عنده كالأرازل ، فلا يبالى

ثُمَّ الأَوْلَى كَرَاهِيَةُ المَدْحِ وَحُبُّ الذَّمِّ فورد «وَيْلٌ لِلصَّائِمِ وَيْلٌ لِلْقَائِمِ وَيْلٌ لِصَاحِبِ الصُّوفِ إِلَّا مَنْ تَنَزَّهَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا وَأَبْغَضَ المِدْحَةَ وَاسْتَحَبَّ المَذَمَّةَ» ثُمَّ التَّسْوِيَةُ وَيُعْرَفُ بِتَسْوِيَةِ المَادِحِ وَالذَّامِّ فِي اسْتِثْقَالِ جُلُوسِهِمَا وَالفَرَحِ بِسُرُورِهِمَا وَالغَمِّ بِمُصِيبَتِهِمَا ثُمَّ عَكْسُ الأَوَّلِ دُونَ إِظْهَارِ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ثُمَّ بِإِظْهَارِهِمَا

أكان له منزلة فى قلوبهم كما لايبالى بما فى قلوب الذين هم منه فى أقصى المشرق أو المغرب لانه لايراهم ولايطمع فيهم، ثم لايقطع الطمع عنهم الا بالقناعة فمن قنع شبع واستغنى عن غيره، ومن هنا ورد «لايكمل ايمان أحدكم حتى يكون الخلق عنده كالأباعــــر» .

﴿ثم الأولى﴾ فى باب العلاج ﴿كراهية المدح وحب الذم﴾ فان معالجة الفساد انما تكون بالاضداد ﴿فورد : ويل للصائم ويل للقائم ويل لصاحب الصوف الامن تنزهت نفسه عن الدنيا وابغض المدحة واستحب المذمة﴾ كذا فى الأحياء، وقال مخرجه لم أجده هكذا ، وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس «ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله» ولم يخرجه ولده فى مسنده ﴿ثم التسوية﴾ . أى تسوية المدح والذم بان لاتغمه المذمة ولاتسره المدحة، قال بعض السلف : اذا قيل لك: نعم الرجل أنت فكان أحب اليك أن يقال بئس الرجل أنت فأنت والله بئس الرجل وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورا به ان لم يمتحن نفسه فى حال انسه ﴿ويعرف﴾ استواء المدح ﴿بتسوية المادح والذام فى استثقال جلوسهما﴾ عنده ﴿والفرح بسرورهما والغم بمصيبتهما﴾ وحزنهما ونحوه من المنع والعطاء فى فعلهما والسعى فى قضاء حاجتهما وما ابعد ذلك عن قلوب اكثر العباد من العلماء . والعباد والزهاد . فان وجد فهو الكبريت الأحمر يتحدث به ولايرى، ومنهم من اذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم ولكن لم يؤثر فيه فهذا على خير كثير ، وان كان قد بقى عليه بقية من الاخلاص الذى هو سبب الخلاص من المناص ﴿ثم عكس الأول﴾ الذى ذكر فى المرتبة الأولى وهى أن يحب المدح ويكره الذم فى الضمير ﴿دون اظهار قول وفعل﴾ فى وجههما بضرب أوشتم أوثناء وعطاء ﴿ثم باظهارهما﴾ أى اظهار القول والفعل فى مقابلة المدح والذم فيقابل الذام

وَحُبُّ الْمَدْحِ كَحُبِّ الجَاهِ حُرْمَةً وَإِبَاحَةً وَنَفْعاً وَضَرّاً، وَالسَّبَبُ الشُّعُورُ بِكَمَالِ النَّفْسِ وَالاسْتِيلَاءُ عَلَى المَادِحِ وَاسْتِمَالَةُ قُلُوبِ السَّامِعِينَ، فَيَقْوَى مِنَ المُعْتَبَرِ وَالمُرْتَفِعِ وَفِي المَلَأ أَقْوَى

بالشتم والضرب والمادح بالثناء والعطاء وهو حال أكثر الخلق * ﴿وحب المدح كحب الجاه حرمة﴾ ان كان بارتكاب ذنب ﴿واباحة﴾ ان كان بأمر مباح ﴿ونفعا﴾ أى كان لدفع شر ﴿وضرا﴾ ان كان بجلب نفع محرم كما سبق مفصلا *

﴿والسبب﴾ لحب المدح ثلاثة : ﴿الشعور بكمال النفس﴾ أى استشعار الكمال بسبب قول المادح ، فطريقك فيه أن ترجع الى عقلك الراجح وتقول لنفسك : هذه الصفة التى يمدحك بها أنت متصفة بها أم لا فان كنت متصفة بها فهى اما أن تكون صفة تستحقين بها المدح كالعلم والورع فينبغى أن لا تفرحى بها لأن الخاتمة غير معلومة، وأما صفة لا تستحق المدح كالمال والجاه فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض مما تذروه الرياح ولا ينبغى أن يفرح الانسان بعروض الدنيا، وان فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بل بوجودها فالمدح ليس هو سبب وجودها وشهودها فلا يجب أن تفرح به بل سبب وجودها هو الله سبحانه فهو المستحق للحمد والثناء تبارك وتعالى، ومنه قوله عز وعلا: (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) وان كان الصفة التى مدحت بها وفرحت بسببها أنت خال عنها ففرحك بمدحه غاية الجنون عند أهل الفنون؛ اذ مثال ذلك مثال من يهزؤ به انسان ويقول : سبحان الله ما أكثر العطر الذى فى احشائك، وما أطيب المسك الذى فى أعضائك وأنت تعرف نفسك بكثرة الاقذار والنتن فى أثوابك وأجزائك ﴿والاستيلاء على المادح﴾ فان المدح يدل على تسخير قلب المادح ﴿واستمالة قلوب السامعين﴾ فهذا يرجع الى حب الجاه ، وعلاجه بقطع الطمع وطلب المنزلة عند الله ﴿فيقوى﴾ أى حب المدح اذا حصل ﴿من المعتبر﴾ علما وعملا أكثر وأظهر من غيره ﴿والمرتفع﴾ قدره فى الجاه والمال ، وفى نسخة المترفع أى من أهل التصدر فى المجالس والمحافل وان لم يكن من ذوى الفضائل ﴿وفى الملأ أقوى﴾ من الخلاء وفيه خطر للممدوح ، ولذا قال عليه السلام للمادح «ويحك قطعت ظهره لو سمعك ما أفلح الى يوم القيامة» *

وَالعِلَاجُ عِلَاجُ الجَاه وَعِلْمُهُ أَنَّ الصِّفَةَ المَمْدُوحَ بِهَا إِنْ فُقِدَتْ فَاسْتِهْزَاءٌ وَإِنْ وُجِدَتْ فَالدُّنْيَوِيَّةُ كَمَالٌ وَهْمِيٌّ وَالدِّينِيَّةُ مَوْقُوفَةٌ عَلَى الخَاتِمَةِ، وَالأَوْلَى إِظْهَارُ البُغْضِ لِلْمَادِحِ قَطْعًا لِلْفِتْنَةِ، وَسَبَبُ كَرَاهَةِ الذَّمِّ النَّقَائِصُ المَذْكُورَةُ فِي حُبِّ الجَاه

(والعلاج) اى علاج حب المدح شيئان (علاج الجاه) اى حبه وقد تقدم حكمه (وعلمه) اى الممدوح (ان الصفة الممدوح بها ان فقدت) بان يكون كذبا (فاستهزاء) وهذا كثير فى قصائد الشعراء للاغنياء والامراء، وقد ورد « اذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب » وهو كناية عن الخيبة، او ايماء الى دفع شرهم بباب من الابواب وسبب من الاسباب من اعطاء الدراهم والدنانير، والثياب، فقد ورد « ماوقى به العرض فهو صدقة » (وان وجدت) اى تلك الصفة بان يكون صادقا فى قوله (فالدنيوية) من المال والجاه (كمال وهمى، والدينية) من العلم والعمل (موقوفة على الخاتمة) اى حسنها وهى غير معلومة، فانما الاعمال بالخواتيم كما ورد (والاولى) في علاج حب الجاه (اظهار البغض للمادح قطعا للفتنة) ومن هنا كان الصحابة على وجل عظيم من المدح وفتنته، وما يدخل على القلب من السرور بمدحته، ومايتفرع عليه من محنته، حتى ان بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء فقال: ياأمير المؤمنين انت خير منى وأعلم، فغضب وقال: انى لم آمرك ان تزكينى. وقيل لبعض الصحابة: لن يزال الناس بخير ماابقاك الله فيهم، فغضب وقال: انى لاحسبك عراقيا. وقال بعضهم لما مدح: اللهم ان عبدك تقرب الى بمقتك فاشهدك على مقته. وانما كرهوا المدح خيفة ان يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم باحوالهم عند الله يبغض اليهم مدح الخلائق لان الممدوح على الحقيقة هو المقرب عند الله تعالى، والمذموم على الحقيقة هو المبعد عن الله الملقى فى النار مع الاشرار فى دار البوار. فهذا الممدوح ان كان عند الله من اهل النار فما اعظم جهله اذا فرح بمدح غيره، وان كان من اهل الجنة فلا ينبغى ان يفرح الا بفضل الله وبرحمته وليس امره بيد الخلق، ومهما علم ان الآجال والارزاق بيد الله قل التفاته الى مدح الخلق وذم من سواه، وسقط من قلبه حب مدحه واشتغل بما يهمه من امر دينه وحب ربه (وسبب كراهة الذم النقائص المذكورة) اى الاسباب المسطورة (فى حب الجاه) من الشعور بكمال النفس واستيلاء المدح واستمالة قلوب

وَالعلَاجُ عِلْمُ أَنَّ الصِّفَةَ الْمَذْمُومَ بِهَا إِنْ وُجِدَتْ فَتَبْصِيرُ العُيُوبِ وَفِيهِ الْفَرَحُ وَالشُّغْلُ بِالازَالَةِ وَإِنْ فُقِدَتْ فَكَفَّارَةُ الذُّنُوبِ وَفِيهِ الشُّكْرُ لَهُ تَعَالَى وَالتَّرَحُّمُ عَلَيْهِ حَيْثُ أَهْلَكَ نَفْسَه «وَوَرَدَ، أَللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» دَعَا لِقَوْمٍ كَسَرُوا سِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ *

السامعين ﴿ والعلاج ﴾ لكراهة الذم ﴿ علم ان الصفة المذموم بها ان وجدت ﴾ فيك سواء قصد القائل به النصيحة او التعنت و الفضيحة ﴿ فتبصير العيوب ﴾ وهو مطلوب اهل القلوب ﴿ وفيه الفرح ﴾ بالاطلاع على الصفة الذميمة ﴿ والشغل بالازالة ﴾ اى بازالة الصفة المذمومة عن نفسك ان قدرت عليها وليس للكراهة مجال لديها فعن عمر رضى الله عنه رحم الله من اهدى الى بعيوب نفسى ﴿ وان فقدت ﴾ تلك الصفة بان يكون القائل كاذبا فى المذمة ﴿ فكفارة الذنوب ﴾ اى لبقية مساويك فكانه رماك بعيب انت برىء منه وطهرك عن عيب انت متلوث به ﴿ وفيه الشكر له تعالى ﴾ اذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما انت برىء منه وما ستر الله من عيوبك اكثر فتدبر ﴿ والترحم عليه ﴾ اى على الذام ﴿ حيث اهلك نفسه ﴾ بذمك فالمسكين جنى على دينه حتى سقط من عين ربه واهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الاليم يوم جزائه فلا ينبغى ان يغضب عليه مع غضب الله لديه ويقول اللهم اهلكه ونحوه فيشمت الشيطان بك وبه بل ينبغى لك ان تقول رغما للشيطان وحزبه اللهم اصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه اللهم اهده ﴿ وورد ﴾ فى دلائل النبوة للبيهقى ﴿ اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون دعا ﴾ اى النبي عليه السلام ﴿ لقوم ﴾ من كفار قريش ﴿ كسروا سنه عليه السلام ﴾ اى رباعيته وشجوا رأسه وذلك باحد ، ودعا ابراهيم بن ادهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له فى ذلك فقال اعلم انى مأجور بسببه فلا ارضى ان يكون هو معاقبا بسببى، ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع فان من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم اثر ذلك فى قلبك ، واصل الدين القناعة بما اعطاه الله من المال وبها ينقطع الطمع من الجاه والمال واما مادام الطمع قائما فكان حب المدح والجاه يغلب فى قلب من طمعت فيه دائما *

﴿ اَلْبَابُ الثَّانِى عَشَرَ فِى التَّوَاضُعِ وَذِكْرِ المِنَّةِ ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. وَرَدَ «مَنْ تَوَاضَعَ لِلّٰهِ رَفَعَهُ اللهُ» الشَّرَفُ التَّوَاضُعُ وَضِدُّهُ التَّكَبُّرُ وَهُوَ اتِّبَاعُ الكِبْرِ وَهُوَ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ فَوْقَ غَيْرِهِ فِى صِفَةِ الكَمَالِ فَيَحْصُلُ بِهِ نَفْخَةٌ .

﴿ الباب الثانى عشر فى التواضع وذكر المنة ﴾

اى فى مدحهما وذم ضدهما وهما الكبر والعجب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الذى يتواضع له العرش الكريم ﴿ ورد ﴾ فى الحلية لابى نعيم عن ابى هريرة ﴿ من تواضع لله رفعه الله ﴾ ومفهومه من تكبر على الله وضعه، وللبيهقى فى الشعب عن ابن عباس اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة، وللاصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث انس «ان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة» ولمسلم فى اثناء حديث لابى هريرة «وما تواضع احد لله الا رفعه الله» ولاحمد والبيهقى فى الشعب باسناد صحيح من حديث عبد الله ابن عمر «ومن كان فى قلبه مثقال حبة من كبر اكبه الله فى النار على وجهه» وللترمذى وحسنه من حديث سلمة بن الاكوع «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ما اصابهم» وللترمذى من حديث اسماء بنت عميس «بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الاعلى بئس العبد عبد تكبر واختال ونسى الكبير المتعال بئس العبد عبد سها ولها ونسى المقابر والبلى بئس العبد عبد عتى وبغى ونسى المبدأ والمنتهى» ورواه الحاكم فى مستدركه وصححه ﴿ الشرف التواضع ﴾ فلابن ابى الدنيا الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى، وعن عروة بن الورد التواضع احد مصائد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها الا التواضع، وقال الفضيل التواضع ان تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبى قبلته منه ولو سمعته من اجهل الناس قبلته، وعن ابن المبارك التواضع ان تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه انه ليس عليك بدنياك فضل وان ترفع نفسك على من هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه انه ليس له بدنياه عليك فضل، وقال قتادة من اعطى مالا اوجمالا اوثناء اوعلما ثم لم يتواضع فيه كان عليه يوم القيمة وبالا ﴿ وضده التكبر وهو اتباع الكبر ﴾ واظهاره كما ان التواضع اتباع الضعة واظهار المسكنة بان يرى نفسه دون غيره فى صفة الكمال فمن تكبر على امثاله فهو متكبر فى حاله ومن تأخر عنهم فهو متواضع فى مقام كماله .

﴿ وهو ﴾ أى الكبر ﴿ ان يرى نفسه فوق غيره في صفة الكمال فيحصل به نفخة ﴾ أى

وَوَرَدَ «أَعُوذُبِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبْرِ، وَآثَارُهُ التَّرَفُّعُ فِي الْمَجْلِسِ وَالتَّقَدُّمُ فِي الطُّرُقِ وَالنَّظَرُ بِالْمَآقِي وَعَيْنِ الاسْتِحْقَارِ

انتفاخ الكبر فى نفسه، وعن ابن عباس فى قوله تعالى (ان فى صدورهم الا كبر ماهم بالغيه) فقال عظمة لم تبلغوها، وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود لا «يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»، وعن ثابت بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم تجبر فلان فقال أليس بعده الموت؟ البيهقى فى الشعب هكذا مرسلا، ويروى أنه خرج يونس. وأيوب. والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن: التواضع أن تخرج من منزلك فلا ترى مسلما الا رأيت له عليك فضلا وقال الجنيد التواضع عند أهل التوحيد تكبر، وفى الاحياء لعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها ﴿وورد أعوذ بك من نفخة الكبر﴾ روى أبوداود. وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم مرفوعا أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه فنفخه الكبر ونفثه الشعر أو السحر وهمزه الوسوسة فى السر ﴿وآثاره﴾ أى علامات الكبر ثلاثة عشر ﴿الترفع فى المجلس﴾ على الاقران أى من غير استحقاق له به ﴿والتقدم فى الطرق﴾ على الاخوان مع استحقاقهم به، قال أبو الدرداء لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشى خلفه، وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده اذ كان لا يتميز عنهم فى صورة ظاهرة، ومشى قوم خلف الحسن البصرى فمنعهم وقال: ما يبقى هذا من قلب العبد، وكان عليه السلام فى بعض الأوقات يمشى مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشى فى الغمار اما لتعليم غيره وأما لنفى وسواس الشيطان بالكبر والعجب كما انتزع الثوب الجديد فى الصلاة ولبس الخلق لأحد هذين المعنيين كذا فى الأحياء، والمعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق ونزع الخميصة ولبس الا نبجانية كما تقدم والله أعلم ه وللديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة بسند ضعيف جدا انه خرج يمشى الى البقيع فتبعه أصحابه فوقف وأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال: انى سمعت خفق نعالكم فاشفقت أن يقع فى نفسى شىء من الكبر ﴿والنظر﴾ الى الغير ﴿بالمآقى﴾ أى بطرف العين تكبرا او تجبرا قال تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) ﴿وعين الاستحقار﴾ بان يستنكف عن جلوس غيره بالقرب منه الا أن يجلس بين يديه، فعن ابن وهب: جلست الى عبد العزيز بن أبى رواد فمس فخذى فخذه فنحيت نفسى عنه فأخذ بثوبى فجرنى الى

وَتَعْوِيجُ الْعُنُقِ وَإِطْرَاقُ الرَّأْسِ وَالاتِّكَاءُ، وَقِيَامُ النَّاسِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَاءَ «إِنَّ مَنْ قَعَدَ وَالنَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ قِيَامٌ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»

نفسه وقال: لم تفعلون بى ماتفعلون بالجبابرة؟ انى لاأعرف منكم رجلا شرا منى، وقال أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلا ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت. وقد تقدم مخرجه . ومن ذلك أن يتوقى فى مجالسه المرضى والمعلولين وعنهم يتحاشى، فكان ابن عمر لايحبس عن طعامه مجذوما ولاأبرص ولامبتلى الا أقعدهم على مائدته ، وقد ثبت أكله عليه السلام مع مجذوم وقال له «قل بسم الله ثقة بالله» رواه أبو داود. والترمذى. وابن ماجه من حديث جابر ﴿ وتعويج العنق ﴾ مع تحريك الأطراف ﴿ واطراق الرأس ﴾ فروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر اليه طاوس وهو يختال فى مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال: ليست هذه مشية من فى بطنه خراء ، فقال عمر كالمتعذر: ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها ، وعن الحسن. ان فى كل عضو من الأعضاء لله نعمة والشيطان به لعنة ، ورأى محمد بن واسع ولده يمشى يختال فدعاه فقال: أتدرى من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتى درهم ، وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله ، ولأحمد. والطبرانى. والحاكم. وصححه والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر «من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان» ولعله مقتبس من قوله تعالى: (ان الله لايحب من كان مختالا فخورا) ومن قوله: (ولاتمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا) وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة «لاينظر الله الى من جر ازاره بطرا» وفى لفظ مسلم «خيلاء» ﴿ والاتكاء ﴾ اى الميل الى احد جوانبه بحضور اقاربه واجانبه من غير ضرورة وعارضة فى بابه ، وكذا حكم التربع المشير الى الترفع ﴿ وقيام الناس بين يديه ، فجاء ﴾ اى فى الخبر اوالاثر ﴿ ان من قعد والناس بين يديه قيام ﴾ واقفون بامره ﴿ فهو من اهل النار ﴾ والحديث معروف بلفظ «من احب ان يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار» احمد وابو داود والترمذى عن معاوية ، وفى الشمائل للترمذى عن انس «لم يكن شخص احب اليهم من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته لذلك» وقال الفضيل: من أحب الرياسة لم يفلح ابدا: وقال الشبلى: من رأى لنفسه

وَالْمَشْيُ رَاكِبًا مَعَ الْمُشَاةِ وَتَرْكُ الْخُرُوجِ إِلَّا بِشَخْصٍ عَقِيبَهُ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمْشِي بَيْنَ الْجَمْعِ غَيْرَ مُتَقَدِّمٍ وَعَمَلِ الْبَيْتِ وَحَمْلِ السِّلْعَةِ فَوَرَدَ مَنْ حَمَلَهَا فَقَدْ بَرِىءَ مِنَ الْكِبْرِ

قيمة فليس له من التواضع حصة . والتحقيق ان من رأى انه خير من اخيه واحتقر اخاه وازدراه ونظر اليه بعين الاستصغار أورد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ، ومن انف من ان يخضع لله ويتواضع له بطاعته واتباع رسله فقد تكبر بينه وبين الحق ﴿ والمشى ﴾ اى الخروج ﴿ راكبا مع المشاة ﴾ بين يديه ﴿ وترك الخروج ﴾ من منزله ولو الى المسجد للجمعة والجماعة ﴿ الا بشخص ﴾ او اشخاص ﴿ عقيبه ، وكان عليه السلام يمشى بين الجمع غير متقدم ﴾ كما تقدم ﴿ وعمل البيت ﴾ اى وتركه وهو خلاف التواضع ومخالف لفعله عليه السلام ، فى مسند احمد « عن عائشة انه عليه السلام كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويعمل مايعمل الرجال فى بيوتهم » وللبيهقى فى الشعب من حديث ابى هريرة « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر » وبالجملة فجامع حسن الاخلاق تؤخذ من سيرته عليه السلام واتباعه من اصحابه الكرام ، ولما عوتب عمر فى بذاذة هيئته عند دخول الشام قال انا قوم اعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز من غيره ﴿ وحمل السلعة ﴾ اى وتركه ﴿ فورد من حملها ﴾ اى سلعته ، وفى رواية بضاعته ﴿ فقد برىء من الكبر ﴾ البيهقى عن ابى امامة . ولابى يعلى الموصلى عن ابى هريرة انه عليه السلام حمل سروالا اشتراه لنفسه وابى ان يحمله غيره وقال « صاحب المتاع احق بحمله » وعن على كرم الله وجهه *

لاينقص الكامل من كماله * ماجر من شىء الى عياله

وكان ابو عبيدة بن الجراح - وهو امير - يحمل سطلا له من خشب الى الحمام . وقال ثابت بن مالك : رأيت اباهريرة اقبل من السوق ويحمل حزمة من حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال : اوسع الطريق للامير ياابن مالك . وعن الاصبغ بن ابى بنانة قال : كأنى انظر الى عمر معلقا لحما فى يده اليسرى وفى يده اليمنى الدرة يدور فى الاسواق حتى دخل رحله . وقال بعضهم : رأيت عليا يشترى لحما بدرهم فحمله فى ملحفته ، فقلت له : احمل عنك ياامير المؤمنين ، فقال : لا ابو العيال احق ان يحمل . ويروى ان عبد الله بن سلام حمل حزمة حطب فقيل له : يااباابويوسف قد كان فى غلمانك وبيتك مايكفونك

وَاحْتِمَال الأَذَى فَهُوَ الأَصْلُ المَأْثُورُ وَلِبَاسِ الدُّونِ فَوَرَدَ «مَنْ تَرَكَ زِينَةَ لله وَوَضَعَ ثِيَابًا حَسَنَةً تَوَاضُعًا لله وَابْتِغَاءَ وَجْهِهِ كَانَ عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ عَبْقَرِيَّ الْجَنَّةِ وَنَزَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْجَدِيدَ وَلَبِسَ الْعَتِيقَ لِلتَّعْلِيمِ أَوِ الْبُعْدِ عَنِ الْوَسْوَسَةِ إِلَّا لِلنَّظَافَةِ.

فقال اجل ، ولكني اردت ان اجرب نفسي هل تنكر ذلك مني ، فلم يقنع منها بما اعطيه من العزيمة على ترك الانفة حتى يجربها اهي صادقة ام كاذبة؟ وروى ان عمر بن الخطاب حمل قربة على عنقه فقال له اصحابه : يا امير المؤمنين ما حملك على هذا؟ فقال: ان نفسي اعجبتني فاردت ان اذلها ، وروى ان اباموسى قيل له ان اقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم فلبس عباءة صلى فيها بالناس ﴿ واحتمال الاذى ﴾ اى وتركه ﴿ فهو ﴾ اى احتمال الاذى من السب وغيره ﴿ الاصل ﴾ الذى عليه مدار حسن الخلق والتواضع للحق ﴿ المأثور ﴾ المروى عن السلف والخلف خلافا لاكلة الحشيش والعلف، وقد قدمنا ما نقل عنهم فى ذم الغضب وما يتعلق به من الادب ﴿ ولباس الدون ﴾ اى وترك اللباس الخشن او الخلق او المرقع ﴿ فورد من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة ﴾ اى دفعها مع القدرة عليها ﴿ تواضعا لله وابتغاء وجهه ﴾ اى لا للرياء والسمعة فى حقه ﴿ كان على الله ﴾ اى واجبا بمقتضى وعده ﴿ ان يدخله عبقرى الجنة ﴾ اى ديباجها من سندسها واستبرقها ، ابو سعد المالينى فى مسند الصوفية ، وابو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس « من ترك زينة الدنيا لله » الحديث ، وقد ورد « البذاذة من الايمان » ابو داود . وابن ماجه من حديث ابى امامة بن ثعلبة . وقال هارون : سألت عن معنى البذاذة فقيل هو الدون من اللباس ، وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب خرج الى السوق وبيده الدرة وعليه ازار فيه اربعة عشر رقعة بعضها من ادم اى جلد ، وعوتب علىّ فى ازار له مرقوع فقال : يقتدى بى المؤمن ويخشع له القلب . وقال عيسى عليه السلام : جودة اللباس خيلاء القلب . وقال طاوس : انى لاغسل ثوبىّ هذين فانكر قلبى ما داما نقيين . وقيل لسلمان : الا تلبس ثوبا جيدا فقال انما انا عبد فاذا اعتقت يوما لبست ، اشار به الى العتق فى الآخرة وما اعدالله لعبيده من الثياب الفاخرة ﴿ ونزع عليه السلام الجديد ﴾ اى من الشراك والخميصة ﴿ ولبس العتيق ﴾ منهما ﴿ للتعليم ﴾ اى لتعليم غيره ﴿ او البعد عن الوسوسة ﴾ فى نفسه على ما تقدم ﴿ الا للنظافة ﴾.

فَوَرَدَ نَفْيُ الكِبْرِ في حُسْنِ الثِّيَابِ لِمَعْرِفَةِ حَالِ السَّائِلِ، وَيُعْرَفُ بِتَسْوِيَةِ الخَلَاءِ وَالمَلَاءِ وَالغَضَبِ عَلَى مَنْ لَا يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ وَالاهْتِمَامُ بِإِصَابَةِ الخَصْمِ المُنَاظِرِ وَالانْكَارِ عَلَيْهِ

اى بقصدها فانه حينئذ لابأس بترك الدون من اللباس ولبس الثوب الفاخر كسائر الناس ﴿ فورد نفى الكبر فى حسن الثياب لمعرفة حال السائل ﴾ اى لمعرفته عليه السلام لحال السائل ومقامه من المرام ، فى الطبرانى من حديث ثابت بن قيس بن شماس انه سأل النبي عليه السلام وقال : انى امروء قد حبب الى من الجمال ماترى فهل من الكبر ؟ فقال لا ، ولكن من سفه الحق اى جهله وانكره ، وغمص الناس اى حقرهم. رواه احمد من حديث عقبة بن عامر . وفى رواية مسلم عن ابن مسعود « الكبر من بطر الحق وغمط الناس » وفى رواية الترمذى « من بطر الحق وغمص الناس » وقال حسن صحيح ، وفى رواية ابن بكار عن ابن مسعود قال « جاء رجل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال انه ليعجبنى ان يكون ثوبى غسيلا ورأسى دهينا وشراك نعلى جديدا وذكر اشياء حتى ذكر علاقة سوطه أفمن الكبر هذا ؟ فقال عليه السلام لا هذا من الجمال والله يحب الجمال لكن الكبر من سفه الحق وظلم الناس » ﴿ ويعرف ﴾ أي حال من يلبس للنظافة ، أوكونه مظهرا للغنى شكرا للنعمة ، اوكونه فقيرا يزى نفسه غنيا للعفة ﴿ بتسوية الخلاء والملاء ﴾ عنده فى لباسه للنظافة ونحوها بان يلبس فى الخلاء للصلاة وغيرها كما يلبس فى الملاء عند حضور الجماعة ونحوها ، ثم المحبوب الوسط المطلوب، فللنسائى وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير إسراف ولا مخيلة » ﴿ والغضب ﴾ بالرفع عطف على الترفع ، اى ومن آثار الكبر الغضب ﴿ على من لا يبدأ بالسلام ﴾ اولا يبادر بالقيام ونحوه من انواع الاكرام ﴿ والاهتمام ﴾ بالرفع أى والاغتمام ﴿ باصابة الخصم المناظر ﴾ اى المجادل فى منقوله ﴿ والانكار عليه ﴾ اى وبانكار الخصم عليه فى معقوله وتوضيحه ان يناظر فى مسئلة مع واحد من اقرانه ، فان ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه واخراجه الحق فذلك يدل على ان فيه كبرا دقيقا فليتق الله وليشتغل بعلاجه ، اما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وان الكبر لا يليق الا بالله تعالى ، واما بالعمل

وَآفَاتُه مُنَازَعَتُه تَعَالَى فَوَرَدَ «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُه» وَبُغْضُهُ تَعَالَى فَوَرَدَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَعَمَى الْقَلْبِ فَوَرَدَ (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ - وَيَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)، وَالذُّلُّ

فبأن يكلف نفسه ماثقل عليه من الاعتراف بالحق فيطلق لسانه بالحمد والثناء، ويقر على نفسه بالعجز فى الاداء ويشكره على الاستفادة ويقول: ماأحسن مافطنت له من الافادة وقد كنت غافلا عنه فجزاك الله عنى خيرا على مانبهتنى له فالحكمة ضالة المؤمن فاذا وجدها فينبغى ان يشكر من دله عليها •

﴿ وآفاته ﴾ اى الكبر ستة ﴿ منازعته تعالى ﴾ اى فى مشاركته سبحانه فى بعض صفاته ﴿ فورد ﴾ فى صحيح مسلم وغيره ﴿ الكبرياء ردائى ﴾ اى بمنزلته فى اظهار ملكى وجبروتى ﴿ والعظمة ازارى ﴾ اى بمنزلته فى اسرار ملكوتى والمعنى انهما صفتان مختصتان بى كما ان رداء الانسان وازاره مختصان به ولايشاركه احد فى لبسه ﴿ فمن نازعنى فيهما ﴾ اى واحدا منهما كما فى رواية ﴿ قصمته ﴾ اى اهلكته، وفى رواية عذبته، وفى اخرى ألقيته فى جهنم، وفى اخرى قذفته فى النار ﴿ وبغضه تعالى ﴾ اى له فى الدنيا والاخرى ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ انه لايحب المستكبرين ﴾ ومفهومه انه يحب المتواضعين ﴿ وعمى القلب ﴾ بمعرفة الرب ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ سأصرف عن آياتى ﴾ اى المنصوبة فى الآفاق والانفس من مصنوعاتى. وقيل فى التفسير سادفع فهم القرآن عن قلوبهم ﴿ الذين يتكبرون ﴾ تمامه (فى الارض بغير الحق وان يروا كل آية لايؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) وفى بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن مشاهدة ملكى وملكوتى وعجائب قدرتى وغرائب جبروتى. وقال ابن جريج: سأصرفهم عن ان يتفكروا فيها ويعتبروا بها، ولذا قال عيسى عليه السلام: ان الزرع ينبت فى السهل لافى الوعر، وكذلك الحكمة تنمو فى قلب المتواضع دون المتكبر الاترى ان من تمشخ برأسه الى السقف شجه ومن طأطأ أظله راكنه ﴿ ويطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ بالاضافة ودونها ﴿ جبار ﴾ مبالغ فى الفساد من قهر العباد وكسر البلاد ﴿ والذل ﴾ اى المذلة فى العاقبة والمهانة فى الآخرة. فللترمذى وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده « المتكبرون يوم القيامة فى صور الذر يطؤهم الناس لهوانهم على الله » وعن

وَالبَعْثُ عَلَى الذَّمَائِمِ كَتَغيُّرِ الخَلْقِ وَالجَحْدِ عَنِ الحَقِّ وَالحَجْبُ عَنِ الفَضَائِلِ كَالتَّوَاضُعِ وَالحِلْمِ وَالنَّصِيحَةِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَلَا يَسْتَلْزِمُهُ، فَالعَبْدُ الرَّقِيبُ يَضْرِبُ وَلَدَ المَوْلَى عِنْدَ الاسَاءَةِ وَيَتَوَاضَعُ لَهُ، ثُمَّ التَّخَاسُسُ كَتَأَخُّرِ العَالِمِ عَنِ الخَصَّافِ مَذْمُومٌ أَيْضًا كَعَكْسِهِ

حاتم: اجتنب الموت على ثلاثة: على الكبر والحرص والخيلاء، فان المتكبر لايخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يريه الهوان من ارذل اهله وخدمه، والحريص لايخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يحوجه الى كسرة اوشربة ولايجد مساغا، والمختال لايخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يمرغه ببوله وقذره ﴿ والبعث ﴾ اى التحريض والحث ﴿ على الذمائم ﴾ من صفات البهائم ﴿ كتغير الخلق ﴾ من اثر سوء الخلق كالبشاشة الى العبوسة ﴿ والجحد عن الحق ﴾ اى بانكاره وعدم اقراره، وقد سبق فى الحديث تفسير الكبر المذموم به، ومنه البعد عن اهل الحق فقد قالت قريش لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: كيف نجالس اليك وعندك هؤلاء الفقراء؟ فنزل قوله تعالى: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) رواه مسلم وابن ماجه ﴿ والحجب ﴾ اى ومنعه ﴿ عن الفضائل ﴾ وحجزه عن حسن الشمائل ﴿ كالتواضع ﴾ للحق ﴿ والحلم ﴾ عن الخلق ﴿ والنصيحة ﴾ للعامة من غير الفضيحة ﴿ والأمر بالمعروف ﴾ اى وكذا النهى عن المنكر ﴿ ولا يستلزمه ﴾ اى الامر بالمعروف التكبر ﴿ فالعبد الرقيب ﴾ بأمر الحبيب ﴿ يضرب ولد المولى عند الاساءة ويتواضع له ﴾ مع ذلك بعد تلك الحالة ﴿ ثم التخاسس ﴾ اى طلب الخسة المسمى بالضعة وهو الافراط فى التواضع ﴿ كتأخر العالم عن الخصاف ﴾ ونحوه من الدباغ والعلاف فى المجلس اوالطريق ﴿ مذموم ايضا كعكسه ﴾ وللبغوى. وابن قانع والطبرانى والبزار من حديث انس «طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة وانفق مالاجمعه فى غير معصية ورحم اهل الذل والمسكنة وخالط اهل الفقه والحكمة»، ومن ذلك حديث «من تواضع لغنى لغناه ذهب ثلثا دينه» البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود من قوله «من خضع لغنى ووضع له نفسه اعظاما له وطمعا فيما قبله ذهب ثلثا دينه» وذلك لان آلة العبادة قلب ولسان واركان، وفى تعظيم الغنى لابد من استعمال اللسان والجوارح. وله عن انس بلفظ «من أصبح حزينا على الدنيا اصبح

فَالتَّواضعُ معه بِعدمِ الاسْتِحْقَارِ وَاظْهَارِ البِشْرِ وَالرِّفْقِ وَاجَابَةِ الدَّعْوَةِ وَ السَّعْيِ فِى الْحَاجَةِ لَكِن التَّكَبُّرُ أَخَشُّ، وَالسَّبَبُ العُجْبُ فَقَطْ

ساخطا على ربه ،ومن اصبح يشكو مصيبته فانما يشكو ربه ،ومن دخل على غنى فتضعضع له ذهب ثلثا دينه» واخرج الديلمى من حديث ابى ذر « لعن الله فقيرا تواضع لغنى من اجل ماله من فعل ذلك منهم فقد ذهب ثلثا دينه »وكذا ابو داود ، ولم يصب ابن الجوزى فى ذكره فى الموضوعات كما قاله السيوطى . ومن التخاسس بل اخسه ان يمشى العالم خلف الظالم ، ولذا قيل : بئس الفقير على باب الامير ، ونعم الامير على باب الفقير . وعن يحيى بن معاذ : التكبر على ذى التكبر عليك بماله تواضع . ويقال : التواضع فى الخلق كلهم حسن وفى الاغنياء احسن ، والتكبر فى الخلق كلهم قبيح وفى الفقراء اقبح، وكان بشر الحافى يقول :سلموا على ابناء الدنيا بترك السلام ﴿ فالتواضع معه بعدم الاستحقار ﴾فعن الصديق « لا يحقرن احدكم احدا من المسلمين فان صغير المسلمين عند الله كبير » ولمسلم من حديث ابى هريرة « بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه المسلم » ﴿ واظهار البشر ﴾ وفق مرامه ﴿ والرفق ﴾ بحسب مقامه ﴿ واجابة الدعوة ﴾ فكان عليه السلام يجيب دعوة المملوك ونحوه ﴿ والسعى في الحاجة ﴾لقوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى)وحديث « من كان فى عون اخيه المؤمن كان الله فى عونه » فالعدل ان يعطى كل ذى حق حقه فقد ورد«اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه » ﴿ لكن التكبر اخش ﴾ من التخاسس اذورد عن بعض المشايخ ما يقاربه . وكأنه كان فى مقام المعالجة .

﴿ والسبب ﴾ أى سبب الكبر الحقيقى ﴿ العجب فقط ﴾ أى العجب سبب الكبر والكبر سبب التكبر، فسبب سبب الشىء سبب لذلك الشىء ، وهو مذموم،قال تعالى:(ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم) ذكر ذلك الأخبار فى معرض الأنكار.ولأبى داود والترمذى وحسنه. وابن ماجه «اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك» وللبزار والبيهقى فى الشعب من حديث أنس «لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو أكبر من ذلك العجب العجب» وعن مطرف لان أبيت نائما واصبح نادما أحب الى من أبيت قائما وأصبح معجبا. وكان بشر بن منصور من الذين اذا رأوا ذكر الله فأطال الصلاة يوما ورجل جالس خلفه ينظر ففطن له بشر،فلما انصرف من الصلاة

وَيطلَقُ مَجَازًا لُوُجُودِ آثَارِه عَلَى المُنبَعثِ مِنْ غَيرِه كَالحِقْدِ وَالحَسَدِ وَالرِّيَاءِ وَيَختَصُّ هَذَا بِالمَلَأ، وَالعِلَاجُ ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِيه وَأَحْوَالِ السَّلَفِ وَمُوَاظَبَةُ أَخْلَاقِ المُتَوَاضِعِينَ وَالتَّكَلُّفُ فِيهِ وَقَلعُ العُجْبِ وَهُوَ اسْتِعْظَامُ النَّفْسِ وَخِصَالِهَا الَّتِى هِىَ النِّعَمُ

قال لا يعجبك ما رأيت منى فان ابليس قد عبد مع الملائكة مدة طويلة ثم صار الى ما صار اليه. وقيل لعائشة: متى يكون الرجل مسيئا؟ قالت: اذا ظن أنه محسن، وكأنه مقتبس من قوله تعالى: (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وفى الصحيحين « بينما رجل يتبختر فى برديه قد أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة » *

﴿ ويطلق ﴾ أى الكبر ﴿ مجازا أى بطريق المجاز ﴾ لوجود آثاره أى آثار الكبر من أسراره ﴿ على المنبعث من غيره ﴾ أى على الكبر المنبعث من غير العجب ﴿ كالحقد ﴾ فى الباطن ﴿ والحسد ﴾ أعم ﴿ والرياء ﴾ فى الظاهر ﴿ ويختص هذا ﴾ ى الأخير وهو الكبر المنبعث من غير العجب ﴿ بالملأ ﴾ دون الخلاء والمعنى أن الرياء يختص بالملأ دون الحقد والحسد والعجب فان الذى يتكبر بها يستو فى الخلاء والملأ *

والحاصل أن آثار الكبر اذا ظهرت من الكبر تسمى تكبرا حقيقة واذا ظهرت من غير الكبر كالحقد والحسد والرياء تسمى تكبرا مجازا، ثم أعلم أن العجب انما هو بالأسباب التى بها يتكبر وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأى الخطأ الذى تزين له بجهله، وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين لرأيه *

﴿ والعلاج ﴾ أى علاج الكبر خمسة أشياء ﴿ ذكر ما ورد فيه ﴾ أى فى ذم الكبر من الأخبار ﴿ وأحوال السلف الاخيار وما ﴾ صدر عنهم من الآثار فى ترك الكبر واختيار التواضع ﴿ ومواظبة أخلاق المتواضعين ﴾ من العلماء الأبرار والمشايخ الكبار ﴿ والتكلف فيه ﴾ أى فى رفع العجب بدفع الحجب والتكلف فى تحصيل أخلاق المتواضعين بالتشبه فى أفعالهم والتزين باحوالهم والتصنع باعمالهم فان المجاز قنطرة الحقيقة والرياء قنطرة الاخلاص، ويشير اليه حديث وان لم تبكوا فتباكوا والعلم بالتعلم والحلم بالتحلم، ﴿ وقلع العجب ﴾ أى استئصاله من أصله وقطعه من مادة فرعه وفصله من وصله ولا يحصل أصل قلعه الا بقلع الحقد والرياء والحسد من قلبه ﴿ وهو ﴾ أى العجب ﴿ استعظام النفس ﴾ أى عدها عظيمة برؤية قدرها فوق قدر غيرها ﴿ وخصالها التى هى النعم ﴾ فيها جسيمة وسيمة

مَعَ الرُّكُونِ اَلَيْهَا وَنِسْيَانُ الْاِضَافَةِ اَلَيْهِ تَعَالَى وَالاَمْنُ مِنَ الزَّوَالِ فَمَنْ رَأَى النِّعْمَةَ مِنْهُ تَعَالَى وَفَرِحَ بِهَا مِنْ حَيْثُ اَنَّهَا مِنْهُ وَخَافَ عَلَى الزَّوَالِ لَا يَكُونُ مُعْجَبًا وَهُوَ غَيْرُ الْاِدْلَالِ فَهُوَ عُجْبٌ مَعَ رُؤْيَةِ حَقِّ النَّفْسِ عِنْدَهُ تَعَالَى، فَوَرَدَ «اِنَّ صَلَاةَ الْمُدِلِّ لَا تُرْفَعُ فَوْقَ رَأْسِهِ»، وَيُعْرَفُ بِالتَّعَجُّبِ عَنْ رَدِّ دُعَائِهِ وَاسْتِقَامَةِ حَالِ مُؤْذِيهِ وَغَيْرُ الْكِبْرِ لِكَوْنِهِ أَثَرَهُ وَاسْتِدْعَائِهِ الْمُتَكَبَّرَ عَلَيْهِ وَهُوَ مَذْمُومٌ، وَآفَاتُهُ الْهَلَاكُ فَهُوَ عُدَّ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ

﴿مع الركون اليها﴾ أى الى النفس وما صدر منها وظهر عليها ﴿ونسيان الاضافة﴾ أى نسبة النعم ﴿اليه تعالى﴾ وهو المنعم بجميع النعم على جميع الأمم ﴿والأمن من الزوال﴾ لتوهم انه من أهل الكمال ﴿فمن رأى النعمة منه تعالى﴾ ابتداء ﴿وفرح بها من حيث أنها منه﴾ أى من الله تعالى ويستوجب عليه حمدا وثناء ﴿وخاف على الزوال﴾ أى زوال تلك النعمة انتهاء ﴿لا يكون معجبا﴾ وان كان مستعظما لها ﴿وهو﴾ أى العجب ﴿غير الادلال فهو﴾ أى الادلال ﴿عجب مع رؤية حق النفس عنده تعالى﴾ على ظنة أن لها الكمال ، فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يكون مدلا، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء، والادلال لا يتم إلا مع توقع جزاء ﴿فورد إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه﴾ وهو كناية عن عدم قبولها، والحديث كذا فى الأحياء، وقال مخرجه لم أجد له أصلا، وقال قتادة فى قوله تعالى: (ولا تمنن تستكثر) أى لا تدل بعملك. قيل: ولان تضحك وأنت معترف بذنبك خير من ان تبكى وأنت مدل بعملك أو بعلمك ﴿ويعرف﴾ أى الادلال والمدل ﴿بالتعجب﴾ أى بعجبه ﴿عن رد دعائه﴾ حال استدعائه فى كشف بلائه أو استجلاب عطائه بناء على ظن أنه من أهل ولائه ﴿واستقامة حال مؤذيه﴾ أى ويعرف أيضا بتعجبه عن استقامة أهل ايذائه ﴿وغير الكبر﴾ أى والعجب ليس عين الكبر بل غيره ﴿لكونه﴾ أى الكبر ﴿أثره﴾ أى العجب والأثر غير المؤثر ﴿واستدعائه﴾ أى ولاستدعائه الكبر ﴿المتكبر عليه﴾ بخلاف العجب فانه يتصور بغيره حيث لا يستدعى غير المعجب به ﴿وهو﴾ أى العجب ﴿مذموم﴾ لما تقدم ﴿وآفاته﴾ أى العجب ثمانية ﴿الهلاك فهو﴾ أى العجب ﴿عد من المهلكات﴾ فقد ورد «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع

وَنسيانُ الذنوب وَاستحقارُها وَتركُ التدارك وَتفقدُ آفات العمل عَلى زعم أنه مغفور، وَالأمنُ من مكره تَعالى وَالاستنكاف منَ التعلم وَالاتعاظ وَتزكيَة النفس، وورد (فَلا تزكُوا أنفسكم) وَضده وهو ذكرُ توفيقه تَعالى فَرض انْ حَدث دَاعيَة العُجب في خَاطره وَالأفنفل، وَالسَّبب خبث الطبع وَهو دَاء معضل، وَالجهلُ بالحَقائق وَاعتقادُ كمال النفس

وأعجاب المرء بنفسه» البزار والبيهقي والطبراني في الأوسط عن ابن عمر ﴿ونسيان الذنوب﴾ فانه لو ذكرها لما أعجب مع وجود العيوب . وعن عيسى عليه السلام : «كم من سراج قد أطفأه نسيان الذنوب ، وكم من عمل قد أفسده العجب» ﴿واستحقارها﴾ أى إستصغار الذنوب وهو قد عد من كبارها ﴿وترك التدارك﴾ أى لما فاته من الطاعات والعبادات وحقوق الآدميين والحيوانات ﴿وتفقد آفات العمل﴾ أى وترك تفقدها وتعهدها ﴿على زعم أنه مغفور﴾ أى بناء على توهم أنه غير مأخوذ بنقصها ﴿والامن من مكره تعالى﴾ ولو بالكرامات وخوارق العادات (فانه لا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) ﴿والاستنكاف﴾ أى العار ﴿من التعلم﴾ عن الأبرار وهذا من كمال جهله ﴿والاتعاظ﴾ أى ومن الاتعاظ بغيره وقد ورد «كفى بالموت واعظا والسعيد من وعظ بغيره والشقى من وعظ به غيره» ﴿وتزكية النفس﴾ أى ومن آفات العجب ثناؤها ومدحها ﴿وورد﴾ فى التنزيل ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ تمامه (هو أعلم بمن اتقى) وقال تعالى: (ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقويها قد أفلح من زكيها وقد خاب من دسيها) وقال عليه السلام «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكيها أنت وليها ومولاها» قال ابن جريج: معنى قوله فلا تزكوا أنفسكم إذا عملت خيراً فلا تقل عملت . وقال زيد بن أسلم لا تبروها اى لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب ﴿وضده﴾ مبتدأ أى ضد العجب ﴿وهو ذكر توفيقه تعالى﴾ جملة معترضة مفسرة للمنة التى هى ضد العجب ﴿فرض﴾ أى حتم لازم ﴿ان حدث داعية العجب فى خاطره والافنفل﴾ فى أمر باطنه وظاهره ﴿والسبب﴾ أى سبب العجب ﴿خبث الطبع وهو﴾ أى خبث الطبع ﴿داء﴾ معنوى ﴿معضل﴾ أى مشكل لا دواء له ﴿والجهل بالحقائق واعتقاد كمال النفس﴾ أى بحقائق النفس ودقائقها وهو أنها من أى شيء خلقت ابتداء وما تكون فى عاقبة أمرها انتهاء فانه

وَالعِلَاجُ قَلْعُ السَّبَبِ بِالنَّظَرِ فِى حَقَارَةِ النَّفْسِ فَأَوَّلُهَا النُّطْفَةُ وَآخِرُهَا الجِيفَةُ وَأَنَّهُ

مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل فانه لا يليق به الا التواضع والمسكنة ، واذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء الا بالله وحده، ثم معرفة ربه وعظمته ومجده، فالقول فيه يطول وهو الى علم المكاشفة يؤل . وأما معرفة نفسه فيكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب ربه ففيه علم الأولين والآخرين لمن فتح عين بصيرته ورفع حجاب قلبه فقد قال تعالى (قتل الانسان ما أكفره من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره) وفى الاحياء هنا كلام طويل فيه تنبيه جزيل ﴿ والعلاج ﴾ للعجب ﴿ قلع السبب ﴾ له ﴿ بالنظر ﴾ أى بالتأمل ﴿ فى حقارة النفس ﴾ وخساستها ﴿ فأولها النطفة ﴾ أى المذرة لما قال تعالى : (فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) ﴿ وآخرها الجيفة ﴾ أى القذرة وهو فيما بينهما يحمل العذرة ، وعن الحسن : العجب لابن آدم يغسل الخراء بيده كل يوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات ، وكان الاحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره ، فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الاحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك فى وجهه ، فقال عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين ، وقيل فى قوله تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) هو سبيل الغائط والبول ، وفى قوله تعالى : (كانا يأكلان الطعام) ايماء الى انهما يبولان ويغوطان (انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون) أى يصرفون عن الحق ولا يعرفون انهما لا يستحقان الربوبية مع ما ظهر فيهما من أثر العبودية ، ولابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث بشر بن جحاش « ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع اصبعه عليها وقال يقول الله : إبن آدم اتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللارض منك وئيد - أى رزانة وثقالة - جمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقى قلت اتصدق وانى . اوان الصدقة منك » ويروى ان مطرف بن عبدالله بن الشخير رأى المهلب بن أبى صفرة وهو يتبختر فى جبة خز فقال : ياأبا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله ، فقال له المهلب : أما تعرفنى . فقال بلى اعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وتحمل بين ذينك عذرة ، فمضى المهلب وترك مشيته . وقال مجاهد فى قوله تعالى: (ثم ذهب الى اهله يتمطى) اى يتبختر ثم قال عز وعلا : (ايحسب الانسان ان يترك سدى الم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى). ﴿ وانه ﴾ اى وبالنظر

لَوِ اسْتَأْذَنَ عَلَى أَمِيرِ الْبَلْدَةِ رُبَّمَا لَا يَأْذَنُ لَهُ وَأَحْوَالَهَا الْهَاجِمَةِ كَالْمِحَنِ وَالشَّدَائِدِ

فى انه ﴿ لواستأذن ﴾ للدخول ﴿ على امير البلدة ربمالا يأذن له ﴾ اى لحقارته عنده ، فاى فائدة فى عجبه بنفسه والامير من ارذل الخدام على باب الملك العلام ، وقد اذن الله سبحانه حتى يعبده لدبه ويثنى عليه ويتوجه اليه ويرضى بركعتيه مع معايبهما ووعد به من الثواب الجزيل على ادائهما فى اقل مراتبهما ﴿ واحوالها ﴾ اى وبالنظر فى احوال النفس ﴿ الهاجمة ﴾ اى الآتية بغتة بالورود عليها والوجود لديها ﴿ كالمحن والشدائد ﴾ المتوجهة اليها من الفقر والمرض وسائر المصائب ، فربما يتعجب من تفاوت المراتب اذ رزقه الله عقلا وافقره وافاض على غيره المال مع كونه جاهلا واقدره ، فيقول منعني من قوت يومى وانا الفاضل العاقل ، وافاض على غيرى وهو الجاهل الغافل ، حتى يكاد يرى هذا ظلما كما يشير اليه قوله عليه السلام « كاد الفقر ان يكون كفرا » ولا يدرى المغرور بعلمه المعذور فى جهله بانه لوجمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم اشبه فى ظاهر الحال ، اذيقول الجاهل الفقير : يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتنى منهما فهلا جمعتهما لى اوهلا رزقتنى احدهما ، والى هذا اشار على كرم الله وجهه حيث قيل له : مابال العقلاء فقراء . فقال : ان عقل الرجل محسوب عليه من رزقه والعجب ان العاقل الفقير ربما رأى الجاهل الغنى احسن حالا من نفسه ، ولو قيل له : هل تؤثر جهله وغناه عوضا من عقلك وفقرك لامتنع من ذلك ، ومن هنا قال تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيوة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) الآيات . وقال عز وعلا (كل حزب بمالديهم فرحون) وفى الحديث « اللهم قنعنى بمارزقتنى » ولله در القائل .

رضينا قسمة الجبار فينا * لنا علم وللاعداء مال

فان المال يفنى عن قريب * وان العلم يبقى لايزال

وقال عز وجل (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) أى ممنوعا عن احد من خلقه وقال (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا) فيعلم من يصلح للفقر ومن يصلح للغنى ومن يصلح للجمع بينهما . وقد رأى النبى ﷺ رجلا غنيا جلس لجنبه فقير فانقبض منه وجمع اليه ثيابه فقال عليه السلام « أخشيت ان يعدو عليك فقره » رواه أحمد . وقال أبوذر : « كنت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فدخل المسجد فقال لى ياأباذر ارفع رأسك فرفعت رأسى فاذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال ارفع رأسك فرفعت رأسي فاذا رجل عليه خلقان

وَأَعْمَالَهَا فَأُجْرَةُ أَجِيرٍ يَعْمَلُ طُولَ النَّهَارِ أَوْ يَحْرُسُ طُولَ اللَّيْلِ دِرْهَمَانِ وَإِنَّمَا يُعْطَى الْمَالَ الْخَسِيسَ بِالاسْتِخْدَامِ عَلَى الدَّوَامِ وَالإِلْقَاءِ فِي الأَخْطَارِ، وَكَرَمِهِ تَعَالَى بِالتَّوْفِيقِ وَوَعْدِهِ الثَّوَابَ الْمُخَلَّدَ عَلَى سَاعَةٍ مِنَ الْعَمَلِ الْمَعْيُوبِ وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ مَعَ جَلَالِهِ الَّذِي عَجَزَ الْعَالَمُونَ عَنْ إِدْرَاكِهِ، وَبِمَعْرِفَةِ أَنَّ الْكَمَالَ الدُّنْيَوِيَّ وَهْمِيٌّ كَمَا سَبَقَ وَالدِّينِيَّ يُنَافِيهِ فَالْعِلْمُ النَّافِعُ مَا يَزِيدُ خَوْفًا مِنْهُ تَعَالَى

فقال يا اباذر هذا خير عند الله من قراب الارض مثل هذا، رواه ابن حبان فى صحيحه ﴿ واعمالها ﴾ اى وبالنظر فى اعمال النفس اى من اعمالها واهمالها ﴿ فاجرة اجير يعمل طول النهار اويحرس ﴾ ذلك الاجير ﴿ طول الليل درهمان ﴾ اى لذلك الاجير او لكل منهما، اذ يعلم به ان اعمال العباد انما صارت ذات قيمة لما وقع من الله فى موقع الرضا والقبول والا فاجره اجر الاجير المعمول، وبه يعرف نقصان كمالها فيضعف حينئذ بعض دلالها ﴿ وانما يعطى المال الخسيس بالاستخدام على الدوام ﴾ فى العمل النفيس ﴿ والالقاء فى الاخطار) كالغوص فى الماء وتعليق البناء من جانب الهواء فى جو السماء، وانت تصلى ركعتين فى غمضة العين بقوة مااعطاك الله من النعم الظاهرة والباطنة، وتطمع ماوعدك من الدرجات الذاخرة فى الدار الآخرة فتعجب منهما وتستعظمهما وليس هذا شان العاقل ﴿ وكرمه تعالى ﴾ اى وبالنظر الى كرمه ولطفه ﴿ بالتوفيق ﴾ اى بالاعانة على الطاعة والعبادة ﴿ ووعده ﴾ اى وبوعده سبحانه ﴿ الثواب المخلد ﴾ اى المؤبد مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما ورد فى الخبر ﴿ على ساعة من العمل المعيوب ﴾ فى حد ذاته المخلوط بسائر سيئاته ﴿ والنظر ﴾ أى وكرمه بنظره ﴿ اليه ﴾ واقباله عليه وهو حقير ذليل فى مقداره ﴿ مع جلاله ﴾ اى عظمة الله فى جماله ﴿ الذى عجز العالمون ﴾ من الانبياء والأولياء ﴿ عن ادراكه ﴾ أى ادراك كنه كماله ﴿ وبمعرفة ﴾ عطف على بالنظر أى وبعلم ﴿ ان الكمال الدنيوى ﴾ من النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الانصار من الرجال ﴿ وهمى ﴾ لزواله بالموت فى مآله ﴿ كما سبق ﴾ فى حب الجاه ﴿ والدينى ﴾ من العلم النافع والعمل الصالح ﴿ ينافيه ﴾ اى العجب ﴿ فالعلم النافع ﴾ فى الدنيا والاخرى ﴿ مايزيد خوفا منه تعالى ﴾ كما قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) وورد

وَلَا عِبْرَةَ لِغَيْرِهِ وَلَا عَمَلَ دُونَهُ فَهُوَ شَرْطُهُ هَذَا وَلَا يَصْلُحُ النَّسَبُ لِلتَّعْوِيلِ فَهُوَ تَعَزُّزٌ بِالْغَيْرِ وَوَرَدَ (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ) يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ وَيَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِعْمَلَا لِأَنْفُسِكُمَا فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمَا شَيْئًا حِينَ نَزَلَ قَوْلُهُ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

« انا اعلمكم بالله واخشاكم منه » ومن لم يزدد من العلم زهدا لم يزدد من الله الا بعدا ﴿ ولاعبرة لغيره ﴾ اى لغير العلم النافع فقد تعوذ منه عليه السلام حيث قال « اسألك علما نافعا » « واعوذ بك من علم لا ينفع » واعلم ان العلم هو معرفة العبودية والربوبية، واماماوراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والنحو والشعر وفصل الخطاب وطريق المجادلات، فاذا تجرد الانسان لها حتى امتلأ بها امتلأ بها كبرا وشقاقا بل كفرا ونفاقا، وهذه العلوم تسمى صناعات اولى من ان تسمى علوما ﴿ ولاعمل ﴾ موجود ﴿ دونه ﴾ اى بدون العلم ﴿ فهو ﴾ اى العلم ﴿ شرطه ﴾ اى العمل صحة وكمالا فلا يستقيم لغيره فى جميع عمره ﴿ هذا ﴾ الكلام مضى ، اواحفظ هذا ﴿ ولايصلح النسب ﴾ اى المجرد عن الحسب ﴿ للتعويل ﴾ اى الاعتماد عليه والاستناد اليه ﴿ فهو تعزز بالغير ﴾ اى بغيره سبحانه ، فروى « من تعزز بالعبيد اذله الله » ولابى داود والترمذى وحسنه وابن حبان من حديث ابى هريرة « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقدصاروا فحما فى جهنم او ليكونن اهون على الله من الجعلان الذى تزوف بانافها القذر » وتفاخرت قريش عند سلمان يوما فقال : لكنى خلقت من نطفة قذرة ثم اعود جيفة منتنة ثم ماً لى الى الميزان فان ثقل فانا كريم وان خف فانا لئيم ، وروى ابن المبارك « عن ابى ذر قال قاولت رجلا عند النبى ﷺ فقلت له : ياابن السوداء فقال عليه السلام : ياابا ذر طف الصاع طف الصاع اعيرته بامه، ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل » قال ابو ذر : فاصطحبت وقلت للرجل : قم فطأ على خدى . ولله در القائل :

لئن فخرت بآباء ذوى شرف * لقد صدقت ولكن بئس ماولدوا

﴿ وورد ﴾ فى التنزيل ﴿ فلا أنساب بينهم ﴾ تمامه (يومئذ ولايتساءلون فمن ثقلت موازينه) الآيات ﴿ يافاطمه بنت محمد ويا صفية بنت عبدالمطلب اعملا لانفسكما فانى لااغنى ﴾ اى لاادفع ﴿ عنكما شيئا ﴾ اى من العذاب ﴿ حين ﴾ اى خاطبهما حين ﴿ نزل قوله وانذر عشيرتك الاقربين ﴾ فى الصحيحين من حديث ابى هريرة

وَلَا الْجَمَالُ فَالْاعْتِبَارُ لِلْبَاطِنِ وَهُمَا مَمْلُوءَانِ بِالْأَقْذَارِ وَالرَّذَائِلِ، وَلَا الْمَالُ وَلَا الْقُوَّةُ وَلَا الْأَتْبَاعُ فَوَرَدَ (حَتَّى اذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) الآيَةَ (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) الآيَةَ

وفى مسلم من حديث عائشة لما نزل قوله تعالى (وانذر عشيرتك الاقربين) ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يافاطمة الحديث وفيه «الاان لكما رحما سأبلها ببلالها» وللطبرانى من حديث عمران بن حصين « يامعشر بنى هاشم يأتى الناس بالاعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم، وقال « اترجو سليم شفاعتى ولايرجوها بنو عبد المطلب » الطبرانى فى الاوسط من حديث عبد الله بن جعفر ﴿ ولاالجمال ﴾ اى ولايصلح للتعويل الجمال الظاهر المتغير فى المآل ﴿ فالاعتبار للباطن ﴾ والقلب من الكمال ﴿ وهمامملوآن بالاقذار ﴾ الحسية ﴿ والرذائل ﴾ المعنوية وخاليان عن الفضائل العلمية والفواضل العملية، وللديلمى والقضاعى عن على مرفوعا « آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء » ﴿ ولاالمال ﴾ لانه سريع الزوال ﴿ ولاالقوة ﴾ اذ لاحول ولاقوة الا بالله ، ثم لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه ، وان بقة لو دخلت انفه او نملة دخلت اذنه لقتلته ، وان شوكة لو دخلت رجله لاعجزته ، وان حمى يوم تأخذ من قوة عديدة مالاتنجبر فى مدة مديدة . ثم ان اقوى انسان لايكون اقوى من حيوان ، فاى افتخار بين ارباب العظائم بما سبق به البهائم ، وقد حكى الله عن قوم عاد اذ قالوا من اشد منا قوة (اولم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة) وكما اتكل عوج على قوته واعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فثقب الله تلك القطعة من الجبل حتى صارت فى عنقه كالخرزة ، وقد ورد « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » . والحاصل ان القوة المحمودة هى التى تصرف فى العبادة التى هى وسيلة للسعادة ﴿ ولاالاتباع ﴾ اى الاشياع الملتزمين للاتباع ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ حتى اذا فرحوا ﴾ اى فرح بطر ﴿ بمااوتوا ﴾ اى من كثرة المال وقوة الحال وغلبة الرجال ﴿ اخذناهم بغتة ﴾ فجأة ﴿ الآية ﴾ (فاذاهم مبلسون) اى آيسون متحيرون (وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا ومانحن بمعذبين) ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره ﴾ اى يخاطبه ويناظره ﴿ الآية ﴾ اى (انا اكثر منك مالا واعز نفرا) حتى اجابه صاحبه بقوله (ان ترن انا اقل منك مالا وولدا فعسى ربى ان يؤتين

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ) الآيَة،وَلاَ العَمَلُ فَوَرَدَ: (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) وَلاَ العِلْمُ فَالاِطِّلاَعُ عَلَى الذُّنُوبِ البَاطِنَةِ صَعْبٌ، وَالخَاتِمَةُ مَعَ هَذَا مَسْتُورَةٌ

خيرا من جنتك و يرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا اويصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا) ومن ذلك تكبر قارون وتجبره كما اخبر سبحانه عنه بقوله:(فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل ما اوتى قارون) الآيات ﴿ يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه الآية ﴾اى (وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) ﴿ولاالعمل﴾اى المجرد عن القبول﴿فورد ﴾فى التنزيل ﴿ وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ﴾ (افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) (وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وبدالهم سيئات ماعملوا) وبالجملة من جوزان يكون شقيا عند الله فماله سبيل ان يتكبر على من سواه ،ويشير اليه قوله تعالى:(والذين يؤتون ماأتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون) أى يؤتون الطاعات ويخافون من عدم قبولها،فالكبر دليل الامن والامن مبعد،والتواضع دليل الخوف وهو مسعد﴿ ولا العلم﴾ أى المجرد من العمل الظاهر والباطن ﴿فالاطلاع على الذنوب الباطنة صعب﴾ والخلاص عنها بعد الاطلاع عليها لايمكن الا اذاكان هناك كسب ووهب ، ومن هنا ورد «أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»وقد تقدم.وفى الصحيحين «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق اقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك؟فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه» وقد مثل الله من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال:(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) وقال فى بلعام بن باعورا (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) الى قوله (فمثله كمثل الكلب) قال ابن عباس أوتى بلعام كتابا فاخلد الى شهوات الارض أى سكن حبه اليها فمثله بالكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث،أى سواء آتيته الحكمة أو لم أوته فلا يدع شهوته،ومن هنا كان بعض الصحابة يقول ياليتنى لم تلدنى أمى،ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول: ياليتنى كنت هذه التبنة ويقول الآخر: ياليتنى كنت طيرا كل ذلك خوفا من خطر العاقبة كما أشار اليه المصنف بقوله ﴿والخاتمة مع هذه مستورة﴾ والروايات بأن المدار على الخاتمة مشهورة فينبغى للعالم أن يعلم أن التكبر لا يليق الا بالله

وَالمعصيةُ المُستعقبةُ ندماً خيرٌ من الطاعةِ المستعقبةِ عُجباً لاضمحلالها مع حصول النَّدامة وورد «مَا مِنكُمْ مِن أحدٍ يُنجيه عَمَلُه وَلَا أنا إلّا أنْ يتغمدني الله برحمته»

وحده وانه اذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له ان لك عندى قدرا ما لم تر لنفسك قدراً، واذا نظر الى العاقبة تيسر له ان يتواضع للفسقة والمبتدعة بل للكفرة. فكم من مسلم نظر الى عمر بن الخطاب قبل اسلامه فاستحقره للكفر وقد رزقه الايمان وفاق أكثر أهل الايقان، فاذا حق العبد أن لا يتكبر على أحد بل ان نظر الى جاهل قال: انه قد عصى الله بجهل وأنا عصيت الله بعلم فهو أعذر منى ، وان نظر الى عالم قال قد علم ما لم أعلم ، وان نظر الى كبير قال قد أطاع الله قبلى ، وان نظر الى صغير قال: قد عصيت الله قبله وان نظر إلى مبتدع أو كافر قال ما يدرينى لعله يختم له بالاسلام ويختم لى بما هو عليه الآن من سوء المقام فليس دوام الهداية الى كما لم يكن ابتداؤها الى وكل ذلك بان يعلم أن الكمال فى سعادة الآخرة والقرب من الله فى المرتبة الفاخرة الباقية لا فيما يظهر للناس من الدنيا من الأمور الفانية ﴿والمعصية المستعقبة ندما﴾ أى ندامة وحسرة ﴿خير من الطاعة المستعقبة عجبا﴾ أى غرورا وغفلة ﴿لاضمحلالها﴾ أى لذهاب المعصية ﴿مع حصول الندامة﴾ وبقاء العجب بالطاعة من غير الملامة وهو أكبر من كل سيئة وفى الحكم معصية أورثت ذلا واستصغارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا ﴿وورد ما منكم من أحد ينجيه عمله﴾ أى من غير قبوله بفضله ﴿ولا أنا﴾ أى ولا ينجينى عملى أيضا ﴿الا أن يتغمدنى الله برحمته﴾ متفق عليه من حديث أبى هريرة هذا، وفى الاحياء : قد صلى حذيفة بقوم فلما سلم قال: لتلتمسن اماما غيرى أو لتصلن وحدانا إنى رأيت فى نفسى انه ليس فى القوم أفضل منى فاذا كان مثل حذيفة لا يسلم من هذا فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الأمة فما أعرف على بساط الأرض عالما يستحق أن يسمى عالما ثم انه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه فان وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغى أن يفارق ، بل يكون النظر اليه من العبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه واحواله ، ولو عرفنا ذلك ولو فى أقصى الصين لسعينا اليه رجاء لان تشملنا بركته وتسرى الينا سيرته وسجيته، وهيهات فانى يسمح آخر الزمان بمثلهم فهم أرباب الاقبال وأصحاب الدول ، وقد انقرضوا فى القرن الأول ومن يليهم من أهل العلم والعمل ، بل يعز فى زماننا عالم يختلج فى نفسه الأسف والحزن والحسرة على فوات هذه الخصلة فذلك

﴿ البَابُ الثَّالثَ عَشَــرَ فى الاخْلَاص وَالنِّيَّة وَالصِّدق ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * الاخْلَاصُ تَجْرِيدُ النِّيَّةِ عَنِ الشَّوْبِ فَالْأَعْلَى إِرَادَةُ وَجْهِهِ تَعَالَى، وَيعرَفُ بِالتَّفَكُّرِ

أيضا إما معدوم أوعزيز ، ولولا بشارة رسول الله ﷺ بقوله: «سيأتى على الناس زمان من تمسك بعشر ماانتم عليه نجا» كما رواه الترمذى من حديث ابى هريرة. واحمد عن ابى ذر لكان جديرا بنا أن نقتحم والعياذ بالله ورطة اليأس والقنوط مع مانحن عليه من سوء اعمالنا، ومن لنا بالتمسك بعشر ماكانوا عليه ، وليتنانتمسك بعشر عشره . ونسال الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ، وأن يستر علينا قبائح اعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله *

﴿ الباب الثالث عشر فى الاخلاص والنية والصدق ﴾

اى الصدق فى الاخلاص الذى هو تصحيح النية وتخليصها عن الرياء والسمعة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الذى به يحصل المناص فى الدنيا والخلاص فى العقبى ﴿ الاخلاص تجريد النية ﴾ وهى الارادة المتوسطة بين العلم والعمل ،ويطلق عليها القصد ﴿ عن الشوب ﴾ اى خلطة الرياء والسمعة ، اى عن شائبة مخالطة النفس بها ومن شوائبها ومعايبها ان تدعى ترك الدعوى على التواضع مع ادعائها انها قد بلغت رتبتهم ، اوتتعجب بكمالها حيث تركت هذه الدعوى باستقلالها . وله مراتب عند اهل المناقب ﴿ فالاعلى ﴾ اى اعلى مراتب الاخلاص للمولى ﴿ ارادة وجهه تعالى ﴾ اى قصد رضاه فى الدنيا والاخرى دون جلب الثواب وخوف العقاب كما قال تعالى : (يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) وقال عز وعلا: (ومالا حد عنده من نعمة تجزى الاابتغاء وجه ربه الاعلى)وقال (انما نطعمكم لوجه الله لانريدمنكم جزاء ولاشكورا) وقال(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه احدا) نزلت فيمن يعمل لله ويحب ان يحمد عليه ، الحاكم من حديث طاوس مرسلا « قال رجل انى اقف الموقف ابتغاء وجه الله واحب ان يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية » وللبزار من حديث معاذ « من صام رياء فقد اشرك» وفيه انه عليه السلام تلاهذه الآية . وعن رابعة : وحقك ماعبدتك خوفا من نارك ولاطمعا فى جنتك الاابتغاء وجهك ﴿ ويعرف ﴾ اى الاخلاص الاعلى ﴿ بالتفكر

فى صفاته وأفعاله والمناجاة ثم ارادة نفع الآخرة فهو حظ النفس، وورد فى حقيقته «أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت» خالص الأعمال هو الذى تعمله لله لا تحب أن يحمد عليه أحد

فى صفاته وافعاله ﴾ اى فى مصنوعاته ﴿ والمناجاة ﴾ مع ربه فى جميع اوقاته . وقد قال بعضهم : فى اخلاص ساعة نجاة الابد . ولكن الاخلاص عزيز . قال عزوجل: (الا لله الدين الخالص) وللديلمى من حديث معاذ «اخلص العمل يجزك منه القليل» ولابن عدى من حديث ابى موسى «ما من عبد يخلص لله اربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكم من قلبه على لسانه » وكان معروف الكرخى يضرب نفسه ويقول: يانفس اخلصى تخلصى . وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته . وقال ابو سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لايريد بها الا الله تعالى ، ويشير اليه قوله تعالى (وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما) (ثم ارادة نفع الآخرة) سواء اراد النجاة من النار ، ودرجات الابرار ﴿ فهو حظ النفس ﴾ اى فى الجملة فهو حط عن مرتبة الاحرار ﴿ وورد فى حقيقته ﴾ اى حقيقة الاخلاص اوفى تحققه فى الاشخاص ﴿ان تقول ربى الله ثم تستقيم كما امرت) أى لاتعبد هواك ونفسك ولاتعبد الاربك وتستقيم فى عبادته كما امرت باستقامته، فى الاحياء سئل عليه الاسلام عن الاخلاص فقال: «ان تقول ربى الله ثم تستقيم كما امرت» قال مخرجه: لم اره بهذا اللفظ . وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبدالله الثقفى « قلت يارسول الله حدثنى بامر اعتصم به ، قال : قل ربى الله ثم استقم» وهو عند مسلم بلفظ « قل لى فى الاسلام قولا لااسأل عنه احدا بعدك قال : قل آمنت بالله ثم استقم» والكل مقتبس من قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) الآيتين ومن قوله عز وعلا (فاستقم كما امرت) ﴿ خالص الاعمال ﴾ اى وورد خالص الاعمال اى العمل الخالص ﴿ هو الذى تعمله لله لاتحب ان يحمد عليه احد ﴾ ولم اعرف له اصلا فى المرفوع ، نعم ورد عن عيسى عليه السلام انه قال الحواريون : ماالخالص من الاعمال ؟ قال الذى يعمل العمل لله لايحب ان يحمده عليه احد . وهذا المعنى فى سبب نزول الآية السابقة قد تقدم ، ولايبعد ان تكون الجلة من مبتدأ وخبر

وَفى فَضْله (وَمَاأُمِرُوا الَّالِيَعْبُدُوااللّهَ مُخْلِصِينَ) الاخْلَاصُ سِرِّى اسْتَوْدَعْتهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادى وَأَصْلُهُ النِّيَّةُ وَهِىَ الارَادَةُ البَاعِثَةُ لِلاَعْمَالِ المُنْبَعِثَةِ عَنِ المَعْرِفَة كَشَهْوَة الطَّعَامِ الحَاصِلَة مِنَ المَعْرِفَةِ بِتَحَقُّقِهِ وَدَفْعِهِ الجُوعَ البَاعِثَةِ لِامْتِدَادِ اليَدِ اليهْ

فى تعريف الاخلاص ، وتكون معترضة . وقد قال بعضهم : كنت تصدقت بصدقة بين الناس فاعجبنى نظرهم الى فوجدته لاعلىّ ولالى ، قال سفيان لماسمع هذا: ماأحسن حاله لديه . ان لم يكن عليه فقد احسن اليه . وقال يحيى بن معاذ : الاخلاص تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم . وقال سهل : الاخلاص ان يكون سكون العبد وحركته لله خاصة . قال السوسى : الاخلاص فقد رؤية الاخلاص، لان من يشاهد فى اخلاصه الخلاص فقد احتاج فى اخلاصه الى خلاص . والى المقامين يشير قوله تعالى : (الاعبادك منهم المخلصين) بكسر اللام وفتحها . وقال رويم: الاخلاص فى العمل هو أن لايريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين . وقيل لسهل: اى شيء اشد على النفس؟ فقال : الاخلاص ، اذ ليس لها فيه نصيب . وقال ابو عثمان: الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر الى الحق . وقيل : الاخلاص مااستتر عن الخلائق وصفى عن العلائق. وقال الجنيد : الاخلاص تصفية الاعمال من كدورات الاحوال. وقال الفضيل : ترك العمل لاجل الناس رياء ، والعمل لاجل الناس شرك ، والاخلاص ان يعافيك الله عنهما . وهذا افضل ماقيل فى هذا الباب ﴿ وفى فضله ﴾ اى وورد فى فضل الاخلاص فى التنزيل ﴿ وماامروا الاليعبدوا الله مخلصين ﴾ اى له الدين، فتقييد العبادة بالاخلاص يشير الى فضله الخاص ﴿ الاخلاص ﴾ اى وورد فى الحديث القدسى والكلام الانسى : الاخلاص ﴿ سرى استودعته قلب من احببت من عبادى ﴾ رواه القشيرى فى رسالته من حديث على كرم الله وجهه ﴿ واصله ﴾ اى اصل الاخلاص ﴿ النية ﴾ اى تصحيحها وتحسينها ﴿ وهى ﴾ اى النية ﴿ الارادة الباعثة ﴾ اى الداعية ﴿ للاعمال المنبعثة ﴾ اى تلك النية ﴿ عن المعرفة ﴾ بالاحوال فمعنى الارادة انبعاث القلب الى مايراه موافقا لغرضه المعروف بعوضه امافى الحال واما فى المآل ﴿ كشهوة الطعام الحاصلة من المعرفة بتحققه ﴾ اى الطعام ﴿ ودفعه ﴾ اى وعن المعرفة بدفع الطعام ﴿ الجوع الباعثة ﴾ بالجر صفة بعد صفة للشهوة، اى الداعية ﴿ لامتداد اليد اليه ﴾

فَلَا تَدْخُلُ تَحْتَ الاخْتِيَارِ فَمَنْ وَطِئَ لِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ أَنَّى يَنفعه قَوله الحِسِّيُّ أَوِ النَّفْسِيُّ نَوَيْتُ بِهِ إِقَامَةَ السُّنَّةِ وَتَكْثِيرَ الأُمَّةِ،وَهِيَ أَحَدُ جُزْئَيِ العِبَادَةِ

فان امتداد اليد الى الطعام انما يكون بعد المعرفة بتحقق الطعام و بانه دافع للجوع عن الانام لان الارادة اثر والاثر لايدخل تحت الاختيار ﴿ فلا تدخل ﴾ اى النية ﴿ تحت الاختيار ﴾ بل الداخل تحت الاختيار انما هو المؤثر . وتوضيحه ان كل عمل اختيارى فانه لايتم الا بثلاثة امور : علم وارادة وقدرة ، لانه لايريد الانسان مالا يعلمه فلا بد ان يعلم ، ولا يعمل مالم يرد فلابد من الارادة بعد خلق الانسان بحيث يوافقه بعض الامور ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الامور وينافيه فاحتاج الى جانب الملائم الموافق لقلبه الهائم ﴿ فمن وطيء ﴾ المرأة ﴿ لغلبة الشهوة ﴾ عليه فى تلك الحالة ﴿ أنى ينفعه قوله الحسى ﴾ اى اللسانى ﴿ اوالنفسى ﴾ اى الجنانى ﴿ نويت به ﴾ اى بالوطء ﴿ اقامة السنة وتكثير الامة ﴾ ومن هنا ورد « الشرك اخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء ، فى الظلمة الظلماء ، على الصخرة الصماء» رواه احمد وغيره . ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة الطاعات اذالم يحضرهم تصحيح النيات لعلمهم بان النية روح العمل ، وان العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف ،وهو سبب مقت لاباعث قرب ، حتى أن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصرى، وقال : ليس تحضرنى نية . ومات حماد بن ابى سليمان وكان من اكابر علماء الكوفة وشيخ ابى حنيفة ، فقيل للثورى : الاتشهد جنازته ؟ فقال : لوكان لى نية لفعلت ،وكانوا اذا سئلوا عملا من اعمال البر قالوا : ان رزقنا الله تعالى نية فعلنا ذلك . وحكى ان داود ابن المحبر لما صنف كتاب المعتقد جاءه احمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه احمد صفحا فرده ، فقال له : مالك ؟ قال فيه اسانيد ضعاف،فقال داود: انالم اخرجه على الاسانيد فانظر فيه بعين الخبر ، انما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت . قال احمد فرده على حتى انظر فيه بالعين التى نظرت بها اليه ؛ فاخذه ومكث عنده طويلا ثم قال: جزاك الله خيرا قد انتفعت به. وقال بعضهم :انافى طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فماصحت لى بعد . وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى الى باب داره انصرفت، فقال له ابنه الا تعرض عليه العشاء ؟ فقال: ليس من نيتى﴿ وهى ﴾ أى النية﴿ أحد جزئى العبادة ﴾ اى

فَهِىَ تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تَوَقُّفَهَا عَلَى العَمَلِ،وَوَرَدَ «إنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ مَانَوَى» وَخَيْرُهُمَا لِوُرُودِ «نِيَّةُ المُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِه»

ركنيها وهما النية والعمل ﴿فهى﴾ أى العبادة ﴿تتوقف عليها﴾ أى على النية ﴿توقفها﴾ أى مثل توقف النية ﴿على العمل﴾ لان العبادة بدون النية لا تسمى عبادة فالنية خيرهما ، ويتوقف العمل عليها دون العكس ﴿وورد﴾ أى فى الصحيحين من الروايات ﴿انما الاعمال بالنيات﴾ أى معتبرة بها فى جميع الحالات ﴿ولكل امرىء ما نوى﴾ أى من الخير والشر فى المباحات وتمامه فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ماهاجر اليه» ﴿وخيرهما﴾ أى والنية أفضل جزئى العبادة ﴿لورود «نية المؤمن خير من عمله»﴾ رواه البيهقى فى الشعب عن أنس به مرفوعا. وذلك لان النية عمل السر ولا رياء فيها ، والعمل يخالطه الرياء ولأنها تمتد الى ما لا نهاية له والعمل محصور فى محصوله ، ولأنها بانفرادها تصير عبادة يترتب عليها الثواب ، بخلاف أعمال الجوارح فانها انما تكون عبادة اذا صاحبت النية، لحديث «من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة» متفق عليه ولأنها تبقى، بخلاف العمل ولذا قيل : الخلود فى الجنان والنار جزاء النية ، ولأن مكانها مكان المعرفة أعنى قلب المؤمن ، قال سهل بن عبد الله التسترى قدس الله سره العلى : ماخلق الله تعالى مكانا أعز وأشرف عنده من قلب عبده المومن وما أعطى كرامة للخلق أعز عنده من معرفته ، فجعل الأعز فى الاعز فما نشأ من أعز الأمكنة يكون أعز مما نشأ من غيره ، قال سهل : فنعس عبد أشغل المكان الذى هو اعز الامكنة عنده تعالى بغير معرفته سبحانه ، وفى خبر « انا عند المنكسرة قلوبهم والمندرسة قبورهم وما وسعنى ارضى ولا سمائى ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن » اشعار بذلك . وقيل : نية المؤمن خير من عمله ، وعمل المنافق خير من نيته . وقيل : نية المؤمن خير من عمله بغير نية، ثم قيل للقلب عملان : النية والندامة ، فالنية تجعل المعدوم موجودا ، والندم يجعل العصيان الموجود معدوما. ومما ورد فى نفع النية بدون فى النية بدون العمل حديث انس « ان بالمدينة اقواما ماقطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا انفقنا نفقة ولا اصابتنا مخمصة الاشركونا فى ذلك وهم بالمدينة ، قالوا: وكيف ذلك يارسول الله

وَتوقُّفَ نفعُ العملِ عليها دونَ العكسِ فوردَ في المقاتلَين أنَّ القاتلَ والمقتولَ في النار وبينَ علةَ المقتولِ أنه قصد الرياءِ وفيمن تمنّى أن لو أصابَ مالاً ينفقُ في المعصيةِ أنه شريكُ المنفقِ فيها في الوزرِ وكونُ الشرابِ لعلاجِ المعدةِ أنفعُ من الطلاءِ على الصدرِ

وليسروا معنا . قال : حبسهم العذر فشركونا بحسن النية » البخاري مختصرا وابو داود ﴿ وتوقف ﴾ اى ويتوقف ﴿ نفع العمل ﴾ اى تأثيره طاعة اومعصية ﴿ عليها ﴾ اى النية ﴿ دون العكس ﴾ اذ لايتوقف نفع النية على وجود كل عمل ﴿ فورد فى المقاتلين ﴾ اى فى حقهما ﴿ ان القاتل والمقتول فى النار ، وبين ﴾ اى النبى عليه السلام ﴿ علة المقتول ﴾ اى فى دخوله النار ﴿ انه قصد الرياء ﴾ كذا في النسخ ، والظاهر انه قصد قتل اخيه لادفعه عن نفسه ، اواراد بالقاتل الكافر وبالمقتول المسلم المرائى ، ويؤيد مااخترناه حديث الاحنف عن ابى بكرة «اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال لانه اراد قتل صاحبه » متفق عليه ، ولابن ابى الدنيا من حديث عمر «انما يبعث المقتتلون على النيات» ولمسلم من حديث جابر «يبعث الله كل عبد على مامات عليه » ويؤيده مافى الاصل حديث « اكثر شهداء امتى اصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله اعلم بنيته» احمد من حديث ابن مسعود ﴿ وفيمن ﴾ اى وورد فيمن ﴿ تمنى ان لواصاب مالاينفق فى المعصية ﴾ اى بقدرة ﴿ انه شريك المنفق فيها ﴾ اى فى المعصية حقيقة ﴿ فى الوزر ﴾ اى فهما فى الوزر سواء ، ومفهومه ان لواصاب مالاينفق فى الطاعة انه شريك المنفق فيها ، فهما فى الاجر سواء ، فقد ورد « الناس اربعة : رجل آتاه الله علما ومالا فهو يعمل بعلمه فيقول رجل لوآتانى الله ما آتاه لعملت كما يعمل فهما فى الاجر سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله فى ماله فيقول رجل لوآتانى الله مثل ما آتاه لفعلت كما يفعل فهما فى الوزر سواء » ابن ماجه والترمذى ﴿ وكون الشراب ﴾ اى ولكون شرب المعجون ﴿ لعلاج المعدة انفع من الطلاء على الصدر ﴾ لسرعة تأثير الاول وبطء الثانى فى العمل . ووجه كونه علة لمشابهة الشراب الداخل فى المعدة بالنية الداخلة فى القلب من حيث انهما من الامور الباطنة ، ولمشابهة الطلاء الظاهر على الصدر بالعمل الظاهر على الجوارح من حيث انهما من الامور الظاهرة

بَلْ هِيَ الْأَصْلُ لِكَوْنِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْعَمَلِ تَأَثُّرَ الْقَلْبِ بِالْمَيْلِ إِلَيْهِ تَعَالَى عَنِ الْغَيْرِ فَوَرَدَ. (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) وَوَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَى إِثْمِ الْمُجَامِعِ امْرَأَتَهُ عَلَى قَصْدِ أَنَّهَا غَيْرُهَا بِخِلَافِ الْمُجَامِعِ غَيْرَهَا عَلَى قَصْدِ أَنَّهَا هِيَ وَإِثْمِ الْمُصَلِّي الْمُتَوَضِّيءِ عَلَى ظَنِّ أَنَّهُ مُحْدِثٌ بِخِلَافِ الْمُحْدِثِ عَلَى ظَنِّ أَنَّهُ مُتَوَضِّيءٌ وَهِيَ إِمَّا وَاحِدٌ وَهُوَ الْخَالِصُ كَالْقِيَامِ لِلْإِكْرَامِ وَإِمَّا مُتَعَدِّدٌ كَالتَّصَدُّقِ لِلْفَقِيرِ وَالْقَرَابَةِ فَأَمَّا لَا يَسْتَقِلُّ كُلُّ شَيْءٍ وَيُعْرَفُ بِالْامْتِنَاعِ عِنْدَ انْفِرَادِ أَحَدٍ مِنَ الْمَقَاصِدِ أَوْ يَسْتَقِلُّ مُتَسَاوِيًا

﴿ بل ﴾ هو اضراب عن قوله وخيرهما ﴿ هى ﴾ اى النية ﴿ الاصل ﴾ وماسواها الفرع ﴿ لكون المقصود من العمل تأثر القلب بالميل اليه تعالى عن الغير ﴾ اى عما سوى الرب وذلك التأثر بالميل الى الله تعالى حاصل بالنية دون مجرد العمل فهى الاصل ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وهى انما تكون فى القلب كما قال عليه السلام « والتقوى ههنا واشار الى صدره » وفى الخبر ايضا « ان الله لاينظر الى صوركم واعمالكم ولكن ينظر الى قلوبكم ونياتكم » ﴿ ووقع الاجماع على اثم المجامع امرأته على قصد انها غيرها ﴾ اى غير امرأته ﴿ بخلاف المجامع غيرها ﴾ اى غير امرأته ﴿ على قصد أنها هى ﴾ اى امرأته ، ولاحمد من حديث صهيب « من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوى اداءه فهو زان » ﴿ واثم المصلى ﴾ اى والاجماع على اثم المصلى ﴿ المتوضىء على ظن انه محدث بخلاف المحدث ﴾ اى المصلى ﴿ على ظن انه متوضىء . وهى ﴾ اى النية التى معناها القصد ﴿ اما واحد وهو الخالص ﴾ عن المشاركة ﴿ كالقيام للاكرام ﴾ اى اكرام المسلم حال السلام من غير نظر الى سائر اوصافه الفخام ﴿ واما متعدد كالتصدق للفقير والقرابة ﴾ ونحوهما من استحقاق الصدقة ﴿ فاما ﴾ اى ثم المتعدد اما ﴿ لا يستقل كل شىء ﴾ اى من المقصود بنفسه عند انفراده فى باعث العطاء ﴿ ويعرف ﴾ عدم الاستقلال المذكور ﴿ بالامتناع ﴾ اى بامتناع النية والقصد ﴿ عند انفراد احد من المقاصد ﴾ اى عن الآخر فلا يعطى الغنى القريب بمجرد قرابته ولا الفقير الاجنبى بمجرد فقره ، وعند الاجتماع لايمتنع عن العمل فيعطى الفقير القريب ﴿ او يستقل ﴾ كل من المقصود ﴿ متساويا ﴾ بان

أَوْ مُتَفَاوِتًا كَقُوَّة فَرْحَةِ الْمُصَلِّي عِنْدَ حُضُورِ النَّاسِ مَعَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَرْجُ الثَّوَابَ لَمَا صَلَّى ، وَيَتَعَدَّدُ الْجَزَاءُ بِتَعَدُّدِهَا خَيْرًا كَانَ كَالدُّخُولِ فِى الْمَسْجِدِ لِلزِّيَارَةِ وَانْتِظَارِ الصَّلَاةِ وَالِاعْتِكَافِ وَالِانْزِوَاءِ وَالتَّجَرُّدِ لِلذِّكْرِ وَتَرْكِ الذُّنُوبِ، أَوْ شَرًّا كَالْقُعُودِ لِلتَّحَدُّثِ بِالْبَاطِلِ وَمُلَاحَظَةِ النِّسَاءِ وَالْمُنَاظَرَةِ لِلْمُبَاهَاةِ وَالْمُرَاءَاةِ

يكون كل واحد داعيا الى القصد ﴿ اومتفاوتا ﴾ فى مراتب القصد او مناقب الاستقلال فيكون بعضها مستقلا وبعضها لا يكون مستقلا ﴿ كقوة فرحة المصلى عند حضور الناس ﴾ اى بمجرد باعث الرياء وهو الفرحة فى قول المصنف ﴿ مع انه لو لم يرج الثواب لما صلى ﴾ وتوضيحه ان يكون للانسان ورد فى الصلوات وعادة فى الصدقات، فاتفق ان حضر فى وقتها جماعة من الناس ، فصار الفعل اخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه انه لو كان منفردا لم يفتر عن الصلاة ، وعلم ان عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء بعمله فهو شوب تطرق الى النية وتشوش فى تحسين الطوية ﴿ ويتعدد الجزاء ﴾ اى الثواب ﴿ بتعددها ﴾ اى بمقدار تعدد النية ﴿ خيرا كان ﴾ المتعدد فى النية ﴿ كالدخول فى المسجد ﴾ اى مسجد كان ﴿ للزيارة ﴾ اى لزيارة بيت الله اواخ لله فيه ، فعنه عليه السلام « من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره» ابن حبان من حديث سلمان ، وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة « من غدا الى المسجد اوراح اعد الله له الجنة نزلا كلما غدا اوراح » ﴿ وانتظار الصلاة ﴾ اى لادائها بالجماعة فى وقتها وقد عد من الرباط فى قوله تعالى (ورابطوا) وفى الخبر « انتظار الصلاة صلاة » ﴿ والاعتكاف ﴾ وهو من جملة العبادات الفاضلة فتارة مستحبة نافلة واخرى سنة مؤكدة كاملة ، وان كان بمكة فزيادة الطواف ، وان كان بالمدينة فزيادة الزيارة المندوبة بلا خلاف ﴿ والانزواء ﴾ اى الاعتزال عن الاشتغال بالسوى ﴿ والتجرد للذكر ﴾ من التهليل والتمجيد والتحميد والثناء ﴿ وترك الذنوب ﴾ ولو كان من باب الحياء فان من العصمة ان لا تقدر على الجفاء ﴿ أو شرا ﴾ أى أو كان المتعدد شرا ﴿ كالقعود فيه ﴾ أى فى المسجد ﴿ للتحدث بالباطل ﴾ فان كلام الدنيا فى المسجد يبطل الحسنات فى العقبى ﴿ وملاحظة النساء ﴾ أى ومخالطة المردان يعنى الاشتهاء ﴿ والمناظرة للمباهاة ﴾ أى المفاخرة ﴿ والمراءاة ﴾ اى المجادلة للسمعة والرياء وكذا قصد التنزه فى الليلة القمراء، وسماع ما فيه من الذكر والشعر المشابه بمجلس السمراء

وَيجعل خيرَهَا المُباح عبادَةً كالتَّطيب يوم الجُمْعَة لاقامَة السُّنَّة وتعظيم المَسجد وَاليَوْم ودَفْع الأذَى بالنَّتَن وَالاسْرار بالعَرْف وَسدّ باب الغيبَة وَربَّمَا تفضلهُ من محْضهَا فالتَّرفُّه بنومَة أوْ دعَابَة مُباحَة لردّ نشاط الصَّلاة أفْضلُ منْهَا فى المَلال وَشرَّهَا معْصيَة كالتَّطيُّب للتَّفاخُر باظهار الثَّرْوة والتَّزيُّن للرّيَاء

﴿ و يجعل خيرها ﴾ أى خير النية ﴿ المباح عبادة كالتطيب ﴾ الذى فى أصله مباح بوقوعه ﴿ يوم الجمعة لاقامة السنة وتعظيم المسجد ﴾ فقد قال تعالى : (وطهر بيتى) قيل فى معناه بخره ﴿ واليوم ﴾ أى وتعظيمه فانه أفضل أيام الأسبوع بلا خلاف ، وقيل أفضل الايام مطلقا ، وهو عيد المؤمنين وحج المساكين ﴿ ودفع الأذى بالنتن ﴾ أى الريح الخبيثة عن نفسه وغيره لاسيما الملائكة الحاضرون فى وقته ﴿ والاسرار بالعرف ﴾ بفتح العين ، أى وبتفريح من بجنبه بالريح الطيبة ﴿ وسدباب الغيبة ﴾ بالريح الكريهة ﴿ وربما تفضله ﴾ أى النية المباح ﴿ من محضها ﴾ أى فيصير المباح بالنية أفضل من العبادة المحضة ﴿ فالترفه ﴾ أى التنعم والأسراء ﴿ بنومة ﴾ قليلة نحو قيلولة ﴿ أودعابة ﴾ أى من اخ ومطايبة ﴿ مباحة لرد نشاط الصلاة أفضل منها ﴾ أى من الصلاة ﴿ فى الملال ﴾ أى فى حال الكسالة ، فعن أبى الدرداء « انى لاستجم نفسى باللهو ليكون ذلك عونا على الحق » ويؤيده قول أبى مدين ، لاتنكر الباطل فى طوره ، فانه بعض ظهوراته ، وقد قال على رضى الله عنه : روحوا القلوب ساعة فساعة فانها اذا اكرهت عميت : ومن هنا حرم الصوم فى بعض الأوقات ، وكذا الصلوات فى الأزمنة المكروهات ﴿ وشرها ﴾ اى تجعل شر النية المباح ﴿ معصية كالتطيب ﴾ المباح فى أصله ﴿ للتفاخر باظهار الثروة ﴾ أى الغنى والنعمة على وجه الكثرة فانه يصير به معصية ، ففى الخبر « من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة » أبو الوليد الصفار مرسلا ﴿ والتزين ﴾ أى وكالتزين المباح فى أصله ﴿ للرياء ﴾ فانه معصية كما انه للعبادة طاعة لقوله تعالى : (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وللطبرانى باسناد جيد من حديث ابن مسعود « من هاجر يبتغى شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر ام قيس » وللنسائى من حديث عبادة بن الصامت « من غزا وهو لاينوى الاعقالا فله مانوى » ولابى داود باسناد جيد من

وَلَا تُؤَثِّرُ فِي الحَرَامِ فَلَا يُبَاحُ شُرْبُ الخَمْرِ لِمُوَافَقَةِ الاخْوَانِ

حديث يعلى ابن أمية انه استأجر أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال عليه السلام: « وماأجد له فى غزوته هذه فى الدنيا والآخرة الا دنانيره التى سمى » وقال بعض السلف رب عمل صغير تعظمه النية . ورب عمل كبير تصغره النية ، وقال داود الطائى : من كان اكثر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما الى نية صالحة ، وكذا الجاهل بعكس ذلك . وقال أبو هريرة « مكتوب فى التوراة ماأريد به وجهى فقليله كثير وماأريد به غير وجهى فكثيره قليل » وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم) يبكى ويرددها، ويقول : انك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت استارنا ﴿ ولا تؤثر ﴾ أى النية ﴿ فى الحرام فلا يباح شرب الخمر لموافقة الاخوان ﴾ ولا لموافقة حكام الزمان ، فقد ورد « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وكالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره ، أو يطعم فقيرا من مال ظلم به ، أو يبنى مسجدا أو مدرسة أو رباطا ونحوه بمال حرام وقصد الخير به ، ومن هنا قال سهل : ماعصى الله بمعصية اعظم من الجهل ، قيل يا ابا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال نعم ، الجهل بالجهل ، ويسمى هذا الجهل المركب . وكذا أفضل ماأطيع الله به العلم ، ورأس العلم العلم بالعلم ، فان من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما اكب عليه الناس من العلوم المزخرفة التى هى من وسائلهم الى الدنيا ، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العلم ، والمقصود ان من قصد الخير بمعصيته عن جهل فهو غير معذور قال تعالى : (فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) وقال عليه السلام « لا يعذر الجاهل على الجهل ، ولا يحل للجاهل ان يسكت على جهله ولا للعالم ان يسكت على علمه » كما رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث جابر . ثم لا يجوز امداد المتعلم بنوع علم يتمكن به من الوصول الى شهواته والحصول فى مقام رياساته ، فلم يزل علماء السلف يتفقدون أحوال من يتردد اليهم فاذا رأوا منه تقصيرا فى نفل من النوافل انكروه وتركوا اكرامه ، واذا رأوا منه فجورا هجروه ونفوه عن مجالستهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لعلمهم ان من يعلم مسألة ولم يعمل بها فليس يطلب الا آلة الشر ، وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العليم بالسنة ، وماتعوذوا من الفاجر الجاهل . وقد هجر احمد بعض أصحابه الملازم له سنين بان طين حائط داره لما أخذه من الطريق قدر سمك الطين *

والحاصل ان الشيطان لا يسلم منه أحد الا من دق فى نظره وسعد بعصمة الله وقدره

وَكَمَالُهُ الصِّدْقُ فَوَرَدَ (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا). «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا» وَأَدْنَى رُتَبِهِ فِي الْقَوْلِ فِي كُلِّ حَالٍ

وحفظ من خطره ، والا فالعدو ملازم للمشمرين لعبادة الله لا يغفل عنهم لمحة حتى يحملهم على الرياء في سكون أو حركة حتى في كحل العين وقص الشارب ونحوهما مما هو صورة العبادة ، ولذا قال تعالى : (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال عز وعلا حكاية عنه انه قال (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) أي من أمور الدنيا والآخرة (وعن أيمانهم وعن شمائلهم) أي من طريق الحسنات والسيئات (ولا تجد أكثرهم شاكرين) ولذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة الف سنة من جاهل ، وفي الخبر « لفقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد » ﴿ وكماله ﴾ أي كمال الاخلاص وجماله ﴿ الصدق ﴾ في نيته وقوله وعمله ، فمن جمع له هذا يكون صديقا مبالغة الصادق ، والا فهو صادق اضافي عند ذوي الحقائق والدقائق ، ويدل عليه حديث « ان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا » متفق عليه ﴿ فورد ﴾ في التنزيل ﴿ واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صديقا ﴾ أي قبل النبوة ﴿ نبيا ﴾ أي مخبرا عن الله حال الرسالة . ثم الصدق لا ينافي المعاريض الصادرة عند المعبر عنها بثلاث كذبات لصورتها لان العبرة بمعانيها لا بمبانيها ، وكان رسول الله ﷺ إذا توجه في سفر ورى بغيره كما في الصحيحين من حديث كعب بن مالك ، وذلك كيلا ينتهي الخبر إلى عدوه . وقد ورد في الصحيحين أيضا من حديث أم كلثوم « ليس بكاذب من أصلح بين اثنين وقال خيرا او نمى خيرا » ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب : فالصدق ههنا يتحول من القول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق الطوية . فمهما صدقت نيته وتجردت للخير ارادته كان صادقا وصديقا كيف ما كان لفظه توفيقا ﴿ ان الرجل ﴾ أي وورد في الحديث ﴿ ان الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وأدنى رتبه ﴾ أي أقل مراتب الصدق الصدق ﴿ في القول ﴾ مع الخبر ﴿ في كل حال ﴾ من الأمن والخوف والنفع والضر والغضب والرضاء

وَالكَمَال بِتَرْكِ المَعَارِيضِ حَذَرًا عَنْ تَفْهِيمِ غَيْرِ الحَقِّ وَكَسْبِ القَلْبِ صُورَةً كَاذِبَةً وَرِعَايَتِه مَعَهُ تَعَالَى فَمَنْ قَالَ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ سِوَاهُ، وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ وَهُوَ يَعْبُدُ الدُّنْيَا فَهُوَ كَاذِبٌ

﴿ والكمال ﴾ أى وكمال الصدق فى القول ﴿ بترك المعاريض حذرا عن تفهيم غير الحق وكسب القلب صورة كاذبة ﴾ الا ان الضرورات تبيح المحظورات ، وقد ورد « ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » وقد حكى عن بعضهم انه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره ، فقال لزوجته خطى باصبعك دائرة وضعى الأصبع فى الدائرة وقولى ليس هو هنا ﴿ ورعايته ﴾ أى ومراعاة العبد الصدق ﴿ معه ﴾ أى مع الحق ﴿ تعالى فمن قال وجهت وجهى لله ﴾ أو للذى فطر السموات والأرض حنيفا ﴿ وكان فى قلبه سواه وإياك نعبد ﴾ أى نخصك بالعبادة ﴿ وهو يعبد الدنيا فهو كاذب ﴾ فى دعواه اختصاص عبادة مولاه ، فان قلبه اذا كان منصرفا عن الله مشغولا بامانى الدنيا وشهواتها فهو كاذب فى دعواه . وعن مالك بن دينار لولا ان هذه الآية أى (إياك نعبد وإياك نستعين) امر من الله لما قرأتها لعدم صدقى فيها . وروى : ان العبد اذا قرأ هذه الآية يقول الله تعالى له كذبت لو كنت اياى تعبد لم تطع غيرى ولم تلتفت الى سواى ، ولو كنت بى تستعين لم ترفع حوائجك الى ذليل مثلك . ولم تركن الى مالك وكسبك . وكقوله : انا عبد الله ان لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطالب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ، ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله انا عبد الله لعجز عن تحقيقه ؛ لانه ان كان عبدا لنفسه أو عبدا للدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا فى قوله ، وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام : ياعبيد الدنيا . وقال نبينا ﷺ « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الخميصة » رواه البخارى وإنما العبد الحق لله من اعتق أولا نفسه عن عن غير الله فصار حرا مطلقا . فاذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله فيشغله بالله وبمحبته وتقييد ظاهره وباطنه لطاعته وعبادته فلا يكون له مراد الا الله تعالى ثم يجاوز هذا الى مقام آخر اسنى منه يسمى الحرية وهو ان يعتق أيضا عن ارادته لله من حيث هو هو ، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو تبعيد كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى * فاترك ما أريد لما يريد

وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه وصار حرا عن نفسه

ثُمَّ فِى النِّيَّةِ بِتَمْحِيضِهَا لِلّٰهِ تَعَالَى فَالشَّوْبُ يُفَوِّتُهُ يُقَالُ هَذَا صَادِقُ الحَلَاوَةِ أى مَحْضُهَا، ثُمَّ فِى العَزْمِ وَهُوَ جَزْمٌ قَوِىٌّ عَلَى الخَيْرِ كَالتَّصَدُّقِ وَالعَدْلِ انْ نَالَ مَالاً أَوْ وِلَايَةً ثُمَّ فِى الوَفَاءِ فَالنَّفْسُ قَدْ تَسْمَحُ بِالعَزْمِ وَتَتَوَانَى بِالوَفَاءِ، وَوَرَدَ (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّٰهَ عَلَيْهِ)

وصار مفقودا عن نفسه موجودا لسيده ، ومولاه ان حركه تحرك وان سكنه سكن ، وان ابتلاه رضى ولم يبق فيه متسع لطلب والتماس واغراض واعواض ، بل هو بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل ، وهذا منتهى الصدق فى العبودية وفق ما تقتضيه الربوبية ، وهذا عزيز الوجود فى متن دائرة الشهود فقد قيل :

اتمنى على الزمان محالا ＊ ان ترى مقلتاى طلعة حر

﴿ ثم فى النية ﴾ أى ثم اعلى من الصدق فى القول الصدق فى النية ﴿ بتمحيضها ﴾ أى تخايصها ﴿ لله تعالى فالشوب ﴾ أى الخلط بغيره فى النية ﴿ يفوته ﴾ أى هذا المقام من الأخلاص أو الصدق ﴿ يقال هذا صادق الحلاوة أى محضها ﴾ يعنى خالصها ﴿ ثم فى العزم ﴾ أى ثم الصدق فى العزم اعلى مما ذكر ﴿ وهو جزم قوى على الخير ﴾ أى فعله وجزم على ترك الشر ﴿ كالتصدق والعدل ان نال مالا او ولاية ﴾ وتوضيحه ان الانسان قد يعزم على العمل فيقول فى نفسه ان رزقنى الله مالا لتصدقت بجميعه أو بشطره ، وان اعطانى الله ولاية عدلت فيها ولم اعص الله بظلم وميل عن الحق الى الخلق ، وهو قد يكون صادقا فى عزمه وقد يكون كاذبا فى عزمه ، ومن الأول قول عمر رضى الله عنه : لان اقدم فيضرب عنقى فى غير حد أحب الى ان اتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم الا ان تسول لى نفسى عند القتل شيئا لا اجده الآن لانى لا آمن ان يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها ، اشار بذلك الى شدة الوفاء بالعزم . ومن الثانى قول مجاهد : رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا ان رزقنا الله مالا لنصدقن فرزقهما الله فبخلا به فنزلت (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين) الآية ﴿ ثم فى الوفاء فالنفس قد تسمح ﴾ أى تسخى ﴿ بالعزم ﴾ عند البيان اى ثم الصدق فى الوفاء اقوى مما ذكر ﴿ وتتوانى ﴾ أى تتأخر وتتباعد ﴿ بالوفاء ﴾ عند الامتحان ﴿ وورد ﴾ فى التنزيل ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ وقد وقف رسول الله ﷺ على مصعب ابن عمير وقد سقط على وجهه يوم احد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ ،

ثُمَّ فِي العَمَلِ وَهُوَ تَسْوِيَةُ السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ فَالْمَاشِي عَلَى هُدُوءٍ وَإِنْ خَلَا البَاطِنُ عَنِ الوَقَارِ غَيْرُ صَادِقٍ، وَوَرَدَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُهُ خَيْرًا مِنَ العَلَانِيَةِ

فقال عليه السلام (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) رواه أبو نعيم فى الحلية . وفى البخارى مجملا ان هذه الآية نزلت فى انس بن النضر . وفى الترمذى وقال حسن صحيح « عن انس ان عمه انس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، والله لئن أرانى الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع فشهد احدا من العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال له: يا أبا عمرو الى أين فقال واه لريح الجنة انى لأجدها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت بنت النضر اخته: ما عرفته الا ببنانه ونزلت هذه الآية (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه) أى نذره ﴿ ثم فى العمل ﴾ أى الصدق فى العمل اعلى ﴿ وهو ﴾ اى الصدق فى العمل ﴿ تسوية السر والعلانية ﴾ بان يكون باطنه مثل ظاهره وظاهره مثل باطنه ولذا قال عيسى عليه السلام : اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى واجعل علانيتى صالحة .وقال زيد بن الحارث : اذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف . اى العدل . وان كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، وان كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور والخطل ، وانشدوا :

اذ السر والاعلان فى المؤمن استوى * فقد عز فى الدارين واستوجب الثنا
فان خالف الاعلان سرا فما له * على سعيه فضل سوى الكد والعنا
كما خالص الدينار فى السوق نافق * ومغشوشه المردود لا يقتضى المنا

وقال معاوية بن قرة : من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : الهى عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالامانة وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة ﴿ فالماشى على هدوء ﴾ بضمتين وقد يدغم وفى نسخة على هدء بفتح فسكون ومعناهما على سكون فى الظاهر ﴿ وان خلا الباطن ﴾ أى باطن الماشى ﴿ عن الوقار ﴾ أى السكون والثبوت ﴿ غير صادق ﴾ فيما بينه من الأظهار ﴿ وورد فيه ﴾ أى فى حق الصادق فى العمل ﴿ ان تكون سريرته خيرا من العلانية ﴾ أى علانيته يعنى على نيته، واوحى الله تعالى الى داود عليه السلام : من صدقنى فى سريرته صدقته عند المخلوقين فى علانيته

ثُمَّ فى مَقَامَاتِ الدِّينِ فَفِى الخَوْفِ بِصُفْرَةِ الوَجْهِ وَقَلَقِ البَاطِنِ وَتَرْكِ المَعَاصِى وَاللَّذَّاتِ وَاقَامَةِ الطَّاعَاتِ وَعَلَى هَذَا فى غَيْرِهِ وَالصِّدِّيقُ المُطْلَقُ هُوَ المُتَّصِفُ بِالجَمِيعِ وَضِدُّهُ الرِّيَاءُ

﴿ثم﴾ اى ثم الصدق ﴿فى مقامات الدين﴾ من أحوال أهل اليقين اعلى ﴿ففى الخوف﴾ أى صدقه فيه يتحقق ﴿بصفرة الوجه وقلق الباطن﴾ أى اضطرابه فى الحالات ﴿وترك المعاصى واللذات﴾ أى المناهى والشهوات التى فيها الشبهات ﴿واقامة الطاعات﴾ فى أنواع العبادات ﴿وعلى هذا﴾ القياس ﴿فى غيره﴾ أى غير الخوف من سائر المقامات كالرضا فهو بعدم الخوف بفوت شىء من الجاه والمال والنفس ومن الأولاد والاتباع من الرجال وعدم الشكاية الى المخلوق فى جميع الأحوال ﴿والصديق المطلق هو المتصف بالجميع﴾ أى بجميع أنواع الصدق عند أهل الحق . وقال بشر بن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من الخلق . وقال ابو سليمان : اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله غاية طلبك، وقال رجل لحكيم : ما رأيت صادقا ، فقال : لو كنت صادقا لعرفت الصادقين . ويؤيده قوله تعالى : (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال الثورى فى قوله تعالى : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) قال هم الذين ادعوا محبة الله ولم يكونوا فيها صادقين . وقال محمد بن سعيد المروزى : إذا طلبت الله تعالى بالصدق افادك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شىء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق : احفظ الصدق فيما بينك وبين الحق والرفق فيما بينك وبين الخلق . وقيل لذى النون : هل للعبد الى اصلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا مذبذبين حيارى * نطلب الصدق ما اليه سبيل

فدعاوى الهوى تخف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل

وعن الجنيد فى قوله تعالى : (ليسأل الصادقين عن صدقهم) قال يسأل الصادقين عند انفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا امر على خطر عظيم وحذر جسيم ﴿وضده﴾ أى الاخلاص ﴿الرياء﴾ أى رؤية الخلق، وفى معناه السمعة وان كان فى اصل المادة فرق بينهما فان الرياء مشتق من الرؤية والسمعة من السماع . وفى الصحيحين من حديث جندب بن عبد الله « من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به » وللطبرانى من حديث ابن عمر بلفظ « من سمع الناس سمع الله به مسامع خلقه وحقره وصغره »

وَهُوَ طَلَبُ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ غَيْرِهِ تَعَالَى بِالعِبَادَةِ وَهُوَ حَرَامٌ فَيَخْتَصُّ بِعَمَلِ الظَّاهِرِ أَمَّا نَحْوُ قَصْدِ الْحِمْيَةِ فِي الصَّوْمِ وَالتَّبَرُّدِ فِي الْوُضُوءِ وَالتَّفَرُّجِ وَالتَّوَحُّشِ عَنِ الْأَهْلِ وَالتِّجَارَةِ فِي الْحَجِّ وَالْخَلَاصِ عَنِ الْمُؤْنَةِ وَسُوءِ الْخُلُقِ فِي الْعِتْقِ فَغَيْرُهُ وَيَفُوتُ بِهِ الْإِخْلَاصُ وَيَكُونُ بِالْبَدَنِ

وكذا لاحمد وابن المبارك وابن منيع من حديث ابن عمرو ﴿ وهو ﴾ أى الرياء ﴿ طلب المنزلة ﴾ أى الوجاهة والمرتبة بالرؤية أو السمعة ﴿ عند غيره تعالى بالعبادة ﴾ أى لا بالامور المباحة وفق العادة ﴿ وهو حرام ﴾ لقوله تعالى : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون) وقوله (والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد) قال مجاهد: هم أهل الرياء . ولاحمد والبيهقى فى الشعب من حديث محمود بن لبيد عن رافع بن خديج « ان اخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول الله؟ قال الرياء يقول الله عزوجل يوم القيامة اذا جازى العبيد باعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء » ﴿ فتختص ﴾ الرياء ﴿ بعمل الظاهر ﴾ أى بما تتعلق به الرؤية أو السماع وذلك لامكان نظر الخلق اليه واطلاعهم عليه ، دون عمل الباطن فانه لارياء لديه . قال عكرمة : ان الله يعطى العبد على نيته مالا يعطيه على عمله لأن النية لارياء فيه ﴿ اما نحو قصد الحمية ﴾ أى الاحتماء بترك مايضره عن الأكل ﴿ فى الصوم ﴾ مع قصد التقرب ﴿ والتبرد ﴾ أى وقصد تبرد الأعضاء ﴿ فى الوضوء ﴾ وكذا قصد النظافة فيه وفى الغسل مع التقرب ﴿ والتفرج ﴾ أى وقصد طلب الفرج والخلاص من الهم والغم بالتنزه ﴿ والتوحش ﴾ أى الملالة ﴿ عن الأهل ﴾ أى القرابة أو أهل القرية صداقة أو عداوة ، وكذا قصد صحة المزاج فى السفر ﴿ والتجارة ﴾ أى وقصدها ﴿ فى الحج ﴾ أى ادائه مع التقرب ﴿ والخلاص ﴾ أى قصده ﴿ عن المؤنة ﴾ أى مؤنة نفقة المملوك ﴿ وسوء الخلق ﴾ من المالك أو المملوك من جهة التربية ﴿ فى العتق ﴾ أى عتق عبد او جارية ﴿ فغيره ﴾ أى فغير الرياء لعدم تعلق نظر الخلق اليه ﴿ ويفوت به ﴾ أى بقصد المذكورات ﴿ الاخلاص ﴾ فى تلك العبادات لان فيه شوب نفع نفسه وحظ نفسه والاخلاص تجريد النية عن شوب الارادة النفسية ﴿ ويكون ﴾ الرياء ﴿ بالبدن ﴾ أى من جهة

وَالْهَيْئَةِ وَالزِّيِّ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَغَيْرِهَا كَاظْهَارِ النُّحُولِ وَابْقَاءِ أَثَرِ السُّجُودِ وَلُبْسِ الصُّوفِ وَالْوَعْظِ وَتَطْوِيلِ الصَّلَاةِ وَكَثْرَةِ التَّلَامِيذِ وَمَا طُلِبَ بِغَيْرِ الْعِبَادَةِ كَكَثْرَةِ الْمَالِ وَحِفْظِ الْأَشْعَارِ فَخَارِجٌ لَا يَحْرُمُ اِذَا لَمْ يُؤَدِّ اِلَى رَذِيلَةٍ كَالتَّكَبُّرِ كَمَا سَبَقَ فِي الْجَاهِ

البدن باظهار الخشوع وا كثار الحزن ﴿ والهيئة ﴾ أى السمت الصالح ﴿ والزى ﴾ أى لبس الصلحاء ﴿ والقول ﴾ أى نقل كلام الأولياء ﴿ والعمل ﴾ اى وأعمال الأصفياء ﴿ وغيرها ﴾ كالمال والاتباع والبيوت وأنواع الاستمتاع ﴿ كاظهار النحول ﴾ هذا ومابعده نشر للف المتقدم مرتبا ، والمراد بالنحول ضعف البدن فى مشيه وصوته ونظره ليوهم بذلك شدة الاجتهاد فى العبادة وكثرة الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل ، وكذا بتشعث الشعر ليشعر على استغراقه في الأمر ، ولذا قال عيسى عليه السلام : اذا صام أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفته ويرجل شعره ويكحل عينه ، وكذا روى عن أبى هريرة وكذا قال ابن مسعود : اصبحوا اصياما مدهنين ﴿ وابقاء أثر السجود ﴾ على الجبهة ، واطراق الرأس فى المشية والهدؤ فى الحركة ﴿ ولبس الصوف ﴾ وغلظ الثياب وتشميرها الى قريب الساق ، وقصر الاكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقا من غير ترقيع . ومنه التقنع بالازار فوق العمامة ونحوها ، وقد يلبس الأصواف الرقيقة من الاصناف المنيعة اذا كان يدخل عند الأغنياء أو على الأمراء ، فقيمة ثوبه قيمة الأغنياء ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء ، فيلتمس القبول عند الفريقين فى مقام الرياء ، ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح ﴿ والوعظ ﴾ اى التذكير والنصيحة والنطق بانواع الحكمة وحفظ الأخبار وآثار الأخيار وتحريك الشفتين بمحضر الناس وامثالها ﴿ وتطويل الصلاة ﴾ بطول القيام والركوع والسجود واطراق الرأس وترك الالتفات وتسوية القدمين واليدين ، وكذا فى الصوم والزكاة والحج وسائر العبادات وبقية المعاملات ﴿ وكثرة التلاميذ ﴾ للعلماء وكثرة المريدين للصلحاء وكثرة الزائرين من الأجانب والاقرباء ﴿ وما ﴾ مبتدأ اى والرياء الذى ﴿ طلب بغير العبادة ككثرة المال ﴾ والانصار من الرجال ﴿ وحفظ الاشعار فخارج ﴾ عن حد الرياء كما سبق فى تعريفه فحينئذ ﴿ لايحرم ﴾ طلب تلك المنزلة ﴿ اذالم يؤد الى رذيلة ﴾ أى خصلة مذمومة ﴿ كالتكبر ﴾ على الناس ﴿ كما سبق فى الجاه ﴾ أى فى ذمه وهو قوله

وَكَذَا التَّزَيُّنُ لِاسْتِمَالَةِ قُلُوبِ الْأَخْوَانِ وَالتَّحَامِي عَنْ مَلَالَتِهِمْ وَالْمَرْوِيُّ مِنْ تَزَيُّنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِبَادَةٌ لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِالدَّعْوَةِ فَلَوْ أَسْقَطَ نَفْسَهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ لَمَا حَصَلَ الْمَقْصُودُ، وَآفَاتُهُ التَّلْبِيسُ بِإِرَادَةِ مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ بِالْأَمْرِ الدُّنْيَوِيِّ حَرَامٌ فَبِالدِّينِيِّ أَوْلَى، وَالِاسْتِهْزَاءُ عَلَيْهِ تَعَالَى بِإِيثَارِ رِضَاءِ غَيْرِهِ

هناك نحرام ، أى فالجاه حرام ان كان بارتكاب ذنب كالكذب وههنا أيضا كذلك ﴿وكذا التزين لاستمالة قلوب الاخوان﴾ حال مخالطتهم ﴿والتحامى﴾ أى السلامة ﴿عن ملالتهم﴾ والمعنى ان تحسين الثوب الذى يلبسه الانسان عند الخروج الى الناس مراءة ليس بحرام لانه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا ، وعلى هذا فقس كل تجمل للناس وتزين لهم ﴿والمروى﴾ لابن عدى فى الكامل عن عائشة ﴿من تزينه عليه السلام﴾ أى حين اراد ان يخرج الى أصحابه الكرام ، فكان ينظر فى جب الماء ويسوى عمامته وشعره ، فقالت أو تفعل ذلك يارسول الله ؟ قال نعم « ان الله يحب من العبد ان يتزين لاخوانه اذا خرج اليهم » فهذا كان منه عليه السلام ﴿عبادة لانه﴾ حينئذ ﴿مأمور بالدعوة﴾ أى بدعوة الخلق وترغيبهم فى اتباع الحق واستمالة قلوبهم بالرفق ﴿فلو اسقط نفسه عن قلوبهم﴾ بسقوطها عن أعينهم بترك تزينه لهم ﴿لما حصل المقصود﴾ ولم يرغبوا فى اتباع المطلوب من المعبود وهو اجابة الحق من الخلق فكان يجب عليه ان يظهر لهم محاسن احواله كيلا تزدريه اعينهم فى اقباله ، فان أعين الخلق تمتد الى الظواهر دون السرائر ﴿وآفاته﴾ أى الرياء ﴿التلبيس﴾ أى المكر والتدسيس الحاصل من وسوسة ابليس ﴿بارادة ماليس فيه﴾ متحقق فى الخارج موجود فى الواقع لانه خيل اليهم انه مخلص مطيع لله وانه من أهل الدين وليس كذلك ﴿فهو﴾ أى التلبيس ﴿بالأمر الدنيوى حرام﴾ أيضا ، حتى لو قضى دين جماعة وخيل الى الناس انه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته لأثم بذلك لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالمكر والخديعة بخلاف ما اذا أنفق الرجل ماله على جماعة من الأغنياء لافى معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس انه سخى فهذه مراءة وليس بحرام وكذا امثاله ﴿فبالدينى أولى﴾ أى فالتلبيس بالأمر الدينى أولى ان يكون حراما لانه محض العبادة ﴿والاستهزاء عليه تعالى﴾ أى ومن آفاته الاستخفاف بالنسبة اليه سبحانه وهو ﴿بايثار رضاء غيره﴾ أى اختياره

عَلَى رِضَاهُ وَتَعْظِيمِ نَفْسِهِ فِى الْقُلُوبِ عَلَى تَعْظِيمِهِ تَعَالَى وَالاحْتِرَازِ عَنْ مَقْتِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ

﴿على رضاه﴾ أى على إيثار رضاه سبحانه وتعالى . والمعنى انه مهما قصد بعبادة الله رضاء ماسواه فهو مستهزىء بالله ، ولذا قال قتادة اذا رأى العبد قال الله لملائكته انظروا اليه كيف يستهزىء بى . ومثاله ان يمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة وقوفه ويكون وقوفه لملاحظة جارية من جوارى الملك أو غلام من غلمانه ، فان هذا استهزاء بالملك ، إذ لم يقصد التقرب الى الملك بخدمته ، بل قصد عبدا من عبيده ، فاى استخفاف يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله مراعاة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا ، وهل ذلك الا أنه ظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل اغراضه من الله وانه أولى بالقرب اليه من الله اذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته ، وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى ﴿وتعظيم نفسه﴾ أى وبايثار تعظيمها ﴿فى القلوب على تعظيمه تعالى﴾ أى تعظيم علام الغيوب وتوضيحه ان الرياء لو لم يكن فيه الا أنه يركع ويسجد لغير الله لكان فيه كفاية ، فانه إذا لم يقصد التقرب إلى الله تعالى فقد قصد غير الله ، ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا ، الا ان الرياء هو الكفر الخفى ، لان المرائى عظم فى قلبه الناس ، فاقتضت تلك العظمة ان يركع ويسجد فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ، فمهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقى تعظيم الخلق فى الشهود كان ذلك قريبا من الشرك المعهود ، الا أنه ان قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده ، باظهاره من نفسه صورة التعظيم لله ، فمن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا . وذلك غاية الجهل والنقصان ولا يقدم عليه الا من خدعه الشيطان وأوهم عنده ان العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه واجله ومصالح حاله ومنافع آماله اكثر مما يملكه الله تعالى ، فلذلك عدل بوجهه عن الله تعالى اليهم فاقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم اليه ، ولو وكله الله سبحانه اليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك اقل مكافأة له على صنعه ، فان العباد كلهم عاجزون عن انفسهم لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا فكيف لغيرهم ، وهذا فى الدنيا فكيف فى العقبى يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، بل تقول الانبياء فيه : نفسى نفسى ، فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله بالدرجات الفاخرة كل ما يرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس ، فلا ينبغى ان يشك فى ان المرائى بطاعة الله فى سخط الله من حيث النقل والعقل ، وهذا معنى قوله ﴿والاحتراز﴾ اي وبايثار المرائي الاحتراز ﴿عن مقت غيره﴾ سبحانه ﴿عليه﴾ اى علي الاحتراز

مِنْ مَقْتِهِ وَرَدُّ العَمَلِ فَوَرَدَ «إِنِّي لَا أَقْبَلُ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لِي»، وَاللَّوْمُ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ فَوَرَدَ يُقَالُ عِنْدَ صُعُودِهِمْ بِالْعَمَلِ رُدُّوهُ إِلَى سِجِّينٍ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي، وَفِي الْقِيَامَةِ فَوَرَدَ فِي نِدَائِهِ فِيهَا يَا كَافِرُ يَا فَاجِرُ يَا غَادِرُ يَا خَاسِرُ، وَالْحِرْمَانُ عَنِ الْأَجْرِ فَوَرَدَ يُقَالُ الْتَمِسِ الْأَجْرَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ أَلَمْ يُوَسَّعْ عَلَيْكَ فِي الْمَجَالِسِ أَلَمْ تَكُنْ رَئِيسَ الدُّنْيَا

﴿ من مقته ﴾ تعالى ، فقد سأل رجل سعيد بن المسيب فقال : احدنا يصطنع المعروف ويحب ان يحمد و يؤجر ، قال له : اتحب ان يمقتك الله ؟ قال لا ، قال : اذا عملت لله عملا فاخلصه ﴿ ورد العمل ﴾ اى ومن آفاته عدم القبول ﴿ فورد ﴾ اى فى الحديث القدسى ﴿ انى لا أقبل الا ما كان خالصا لى ﴾ لم اجده بهذا اللفظ ، ولكن ورد معناه وهو ما رواه مالك من حديث ابى هريرة «يقول الله من عمل عملا اشرك فيه غيرى فهو له كله وانا اغنى الاغنياء عن الشرك» ويؤيده قوله تعالى (انما يتقبل الله من المتقين) ﴿ واللوم ﴾ اى ومن آفاته الملامة ﴿ بين الملائكة فورد ﴾ فى الحديث الانسى ﴿ يقال عند صعودهم بالعمل ﴾ المخلوط بالرياء ﴿ ردوه الى سجين ﴾ لقوله تعالى (ان كتاب الفجار لفى سجين) وهو موضع فى اسفل سافلين مكان الشياطين ، وقيل هو كتاب اعمال المشركين ﴿ فانه لم يردنى ﴾ اى بعمله خالصا له الدين. ولابن المبارك فى الزهد، ومن طريقه ابن ابى الدنيا وابى الشيخ فى حديث طويل « ان الله تعالى يقول للملائكة ان هذا لم يردنى بعمله فاجعلوه فى سجين » ﴿ وفى القيامة ﴾ اى ومن آفاته الملامة والندامة يوم القيامة ﴿ فورد فى ندائه ﴾ اى المرائى ﴿ فيها ﴾ اى فى القيامة ﴿ ياكافر ﴾ حقيقة اوحكما بكفران النعمة ﴿ يافاجر ﴾ اى يافاسق بترك الاخلاص فى الطاعة ﴿ ياغادر ﴾ اى ياماكر للخالق اوللحق ايضا على زعمه الباطل ﴿ ياخاسر ﴾ اى الذى خسر الدنيا والآخرة ، والحديث رواه ابن ابى الدنيا : من رواية جبلة اليحصبي عن صحابى لم يسم « ان المرائى ينادى يوم القيامة باربعة اسماء ياكافر يافاجر ياغادر ياخاسر ضل عملك وحبط اجرك اذهب فخذ اجرك ممن عملت له فلا اجر لك عندنا » ﴿ والحرمان عن الاجر ﴾ اى ومن آفاته حرمان ثواب العمل ﴿ فورد يقال ﴾ اى للمرائي يوم القيامة ﴿ التمس الاجر ﴾ اى اطلب الثواب ﴿ ممن كنت

أَلَمْ يُرَخِّصْ بَيْعَكَ أَلَمْ تُكْرَمْ، وَالعَذَابُ فَوَرَدَ أَهْلُ الرِّيَاءِ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ وَالأَفْحَشُ بِاعْتِبَارِ نَفْسِهِ أَنْ لَا يُرِيدَ الثَّوَابَ أَصْلًا وَهُوَ فِي غَايَةِ المَقْتِ ثُمَّ مَا فِيهِ إِرَادَتَانِ وَالرِّيَاءُ غَالِبٌ

تعمل له ﴾ من الخلق كما تقدم ﴿ الم يوسع عليك فى المجالس الم تكن رئيس الدنيا الم يرخص بيعك الم تكرم ﴾ اى بالقيام والسلام وانواع من الاكرام، وقد روى عن على ان الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة الم يكن يرخص عليكم السعر الم تكونوا تبدؤن بالاسلام الم تقض لكم الحوائج، وفى الحديث لا اجر لكم قد استوفيتم اجوركم والمعنى وكان هذه الاشياء قصدك من اظهار الطاعة فقد جزيت بها فى الدنيا فلم يبق لك اجر فى العقبى كما قال تعالى «(من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) ﴿ والعذاب ﴾ اى ومن آفاته عذاب الآخرة ﴿ فورد اهل الرياء يعذبون فى النار ﴾ لم اره بهذا اللفظ، وللترمذى وابن ماجه من حديث ابى هريرة استعيذوا بالله من جب الحزن قيل وماهو؟ قال واد فى جهنم اعد للقراء المرائين ﴿ والافحش ﴾ مبتدأ اى الاغلظ والاشد فى الرياء ﴿ باعتبار نفسه ﴾ اى نفس الرياء واصله، ولهذا الرياء اربع درجات ﴿ ان لا يريد الثواب اصلا ﴾ اى لا يكون مراده الثواب قطعا كالذى يصلى بين الناس ولو انفرد كان لا يصلى بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس فهذا جرد قصده للرياء ﴿ وهو ﴾ اى المرائى ﴿ فى غاية المقت ﴾ من الله وغضبه، وكذا من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولو خلى بنفسه لما اداها وهذا غالبا لا يتصور الا من المنافق فالنفاق يبطل العمل من اصله والرياء يوجب رده، والمن والاذى يحبطان الصدقة اصلا، وعند بعض المشايخ يبطلان اضعافها. واما الندامة فتحبط العمل فى قولهم جميعا، والعجب يذهب اضعافه، والتهاون يخفف العمل فيذهب رزانته ﴿ ثم ما فيه ارادتان ﴾ ارادة الاجر والرياء ﴿ والرياء غالب ﴾ وقصد الاجر ضعيف بحيث لو كان فى الخلوة لكان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصد على العمل، ولو لم يكن قصد الاجر لكان قصد الرياء يحمله على العمل، كمن يريد الصلاة لوجه الله تعالى ارادة ضعيفة لا تنهضه عليها، فاتفق مجىء جماعة عنده فظهر داعية الرياء فى قلبه مع بناء ارادة وجه الله فانهضه عليها، ولو لم يكن الرياء ما كان

وَهُوَ يَقْرُبُهُ ثُمَّ مَااسْتَوَيَا فِيهِ فَالْمَرْجُو أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ وَلَا عَلَيْهِ لَكِنْ اطْلَاقُ الْأَخْذِ فِى الْأَدِلَّةِ يَشْمَلُهُ ثُمَّ مَاتَرَجَّحَ فِيهِ قَصْدُ الثَّوَابِ فَالْمَظْنُونُ فِيهِ النُّقْصَانُ لَا الْبُطْلَانُ أَوِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ بِحَسَبِ الْقَصْدَيْنِ، وَالْأَصْلُ أَنَّ الْقُرْبَ مِنْهُ تَعَالَى بِالْمَيْلِ

ينهضه مجرد ارادة وجه الله ، ولولم يكن ارادة وجه الله لكان ارادة الرياء تنهضه ﴿ وهو يقربه ﴾ اى هذا النوع من الرياء يقرب الاخش وهو الاول الذى ليس فيه ارادة الثواب اصلا ، فهذا يقرب ماقبله فى المقت ، لكن لما فيه من شائبة قصد الثواب لايستقل بحمله على العمل ولا ينفى عنه المقت والاثم ﴿ ثم مااستويا ﴾ اى ثم الاخش باعتبار نفس الرياء مااستوى الارادتان او القصدان ﴿ فيه ﴾ اى فى ذلك العمل بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة، او كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل ، فهذا قد افسد مثل ماصلح ﴿ فالمرجو ﴾ اى المأمول من فضل الله و كرمه ﴿ ان لايكون له ﴾ اى لصاحب الارادتين المستويتين نفع وثواب ﴿ ولاعليه ﴾ ضر وعقاب ، بل يسلم رأسا برأس او يكون له من الثواب مثل ماعليه من العقاب ، ويؤيده ماروى عن معاذ قال : لما تلا رسول الله ﷺ (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا) شق على القوم واشتد عليهم فقال افلا افرجها عنكم ؟ قالوا: بلى يارسول الله ، قال هى مثل الآية التى فى الروم (وما آتيتم من ربوا ليربو فى اموال الناس فلا يربو عند الله) فقال عليه السلام «من عمل رياء لايكتب له ولا عليه » كذا فى الجامع الكبير للسيوطى ﴿ لكن اطلاق الاخذ فى الادلة يشمله ﴾ اى ظواهر الاخبار من ادلة ذم الرياء يشمل هذا النوع فيحصل له الاثم ويدل على انه لايسلم ﴿ ثم ﴾ اى ثم الاخش باعتبار نفس قصد الرياء ﴿ ماترجح فيه قصد الثواب ﴾ بان يكون طلب الاجر غالبا و يكون اطلاع الناس مقويا ومرجحا لنشاطه ، ولولم يكن لما كان يترك العبادة ولو قصد الرياء وحده لما اقدم ﴿ فالمظنون ﴾ اى الذى نظنه والعلم عند الله سبحانه ﴿ فيه ﴾ اى فى هذا النوع ﴿ النقصان ﴾ اى نقصان الثواب ﴿ لا البطلان ﴾ اى لانحكم على العمل ببطلانه بالكلية لان العبرة بالغلبة فى الاحكام الجزئية ﴿ او الثواب ﴾ اى على قدر ماخلص فى نيته ﴿ والعقاب ﴾ على قدر الرياء ﴿ بحسب القصدين ﴾ اى المتقدمين ﴿ والاصل ان القرب منه تعالى بالميل

اليه تعالى والبعد عنه تعالى بالذهول وما ورد أنا أغنى الاغنياء عن الشرك ونحوه فمحمول على الأول وباعتبار ما به رياء بأصل الايمان وهو أغلظ أبواب الرياء وفيه الخلود فى النار ثم بأصل فرائض سواه

اليه تعالى ﴾ اى بسبب الاقبال عليه والحضور لديه ﴿ والبعد عنه تعالى بالذهول ﴾ اى الغفلة عنه لقوله تعالى (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هويه وكان امره فرطا) ﴿ وما ورد ﴾ اى فى حديث ﴿ انا اغنى الاغنياء عن الشرك ﴾ وفى نسخة من الشركاء ﴿ ونحوه ﴾ اى مما يدل على البطلان ﴿ فمحمول على الاول ﴾ اى مما لا يريد الثواب اصلا او على ما تساوى القصد ان اوكان قصد الرياء ارجح فان لفظة الشركة مطلقة للتسوية ﴿ وباعتبار ما به رياء ﴾ اى والاخش من الرياء باعتبار ما يقع به الرياء من العبادات هو الرياء ﴿ باصل الايمان ﴾ وقيل هو بدل من قوله به باعادة الجار . وماقدرناه اولى بالاعتبار ، وذلك بان يظهر كلمتى الشهادة باللسان من غير تصديق بالجنان ، لكنه يرائى احيانا لظاهر الامر فى بعض الاركان ﴿ وهو اغلظ ابواب الرياء ﴾ كما يشير اليه قوله تعالى (يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا مذبذبين بين ذلك) اى متحيرين هنالك (لا الى هؤلاء) المسلمين (ولا الى هؤلاء) المشركين (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) اى مخلصا ودليلا ، فلم يكن مخلصا بل يكون دائما حقيرا ذليلا ﴿ وفيه الخلود فى النار ﴾ فى دار البوار بل كما قال تعالى (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) وذلك لانهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر فحال هؤلاء اشد من حال الكفار المجاهرين ولان ضررهم للمسلمين اكثر من ضرر المشركين . وكان النفاق فى بدء الاسلام يكثر ممن يدخل فى ظاهر الاسلام ويعمل ببعض الاحكام لغرض فاسد اوعوض كاسد ، وذلك مما يقل فى زماننا حيث لا باعث عليه هنالك ، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا الى قول الملاحدة ، اويعتقد طى بساط الشرع والاحكام ميلا الى اهل الاباحة ، او يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه ، فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين فى النار وليس وراء هذا الرياء رياء ﴿ ثم ﴾ اى ثم الاخش بعده الرياء ﴿ باصل فرائض سواه ﴾ اى غيرة الايمان وذلك بان يكون مال لرجل فى يد غيره فيأمره باخراج الزكاة خوفا من المذمة ، والله يعلم من باطنه انه لو كان فى يده لما اخرجها ، اويدخل وقت

وَفِيهِ الْمَقْتُ ثُمَّ بِأَصْلِ السُّنَنِ وَالنَّوَافِلِ وَفِيهِ نِصْفُهُ لِإِيثَارِ رِضَاءِ غَيْرِهِ تَعَالَى عَلَى رِضَاهُ سُبْحَانَهُ دُونَ إِيثَارِ الِاحْتِرَازِ عَنْ مَقْتِ غَيْرِهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ مِنْ مَقْتِهِ تَعَالَى، ثُمَّ بِالْأَوْصَافِ

الصلاة وهو فى جمع فيصلى وعادته ترك الصلاة فى الخلوة ، و كذا يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لما كان يحضرها ، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر ، ، او يصل رحمه اويبر والديه لاعن رغبة ولكن خوفا من المذمة ، اويغزو اويحج كذلك ﴿ وفيه المقت ﴾ اى اشد الغضب من جانب الرب الاانه ليس بكافر عند اهل السنة والجماعة، وذلك لانه مراء فى الاركان ومعه اصل الايمان فيعتقد أن الله لامعبود سواه ، ولو كلف ان يعبد غير الله اويسجد لما عداه لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل الطارى فى الاوقات وينشط عند اطلاع الناس وفق العادات، فتكون منزلته عند الخلق احب اليه من منزلته عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس اعظم من خوفه من عقوبة الله ورغبته فى محمد تهم اشد من رغبته فى مثوبة الله . وهذا غاية الجهل بالرب ومااجدر صاحب هذا بالمقت الذى هو اشد الغضب ﴿ ثم ﴾ اى ثم الافحش بعده الرياء ﴿ باصل السنن ﴾ المؤكدة ﴿ والنوافل ﴾ المستحبة التى لو تركها لايعصى ، ولكنه يكسل عنها فى الخلوة لفتور رغبته فى ثوابها ، ولايثار لذة الكسل على مايرجى من ثواب العمل ثم يبعثه الرياء على فعلها ، وذلك كحضور الجماعة فى الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت ، وكالتهجد بالليل وصيام يوم عاشوراء ونحوه ، فقد يفعل المرائى هذه الجملة خوفا من المذمة أو طلبا للمحمدة ، ويعلم الله تعالى من ضميره انه لوخلى بنفسه لما زاد على اداء فرائضه ، فهذا أيضا عظيم فى نفسه لكن كما قال ﴿ وفيه ﴾ أى فى هذا النوع من الرياء ﴿ نصفه ﴾ أى نصف المقت أو بعضه باختلاف تفاوت أحواله فى الرغبة باعماله وذلك ﴿ لايثار رضاء غيره تعالى على رضاه سبحانه دون ايثار الاحتراز عن مقت غيره سبحانه عليه ﴾ أى على المرائى ﴿ من مقته تعالى ﴾ فان الذى قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق وهذا أيضا قد فعل ذلك واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الخالق ، وأما هذا فلم يفعل ما فعل ذلك لانه لم يخف عقاب الله على ترك النافلة لو تركها ولكنه عوقب على الشطر الاول فلذا عقابه نصف عقابه فتأمل ﴿ ثم بالاوصاف ﴾ أى ثم الافحش بعده الرياء باوصاف العبادات

فَبِالوَاجِبِ كَتَعْدِيلِ الأَرْكَانِ ثُمَّ المُكَمِّلُ كَتَطْوِيلِهَا وَتَحْسِينِ الهَيْئَةِ ثُمَّ الزَّائِدُ كَالْبُكُورِ فِي المَسْجِدِ وَقَصْدِ الصَّفِّ الأَوَّلِ وَ بِاعْتِبَارِ مَالِهِ

لا باصولها من الفرائض المهمات ﴿ فبالواجب كتعديل الاركان ﴾ من الركوع والسجود والقومة بتسكين الجوارح والأعضاء فيها حتى يطمئن ، فانه يرائى بفعل مافى تركه نقصان العبادة كالذى غرضه ان يخفف الركوع والسجود والقومة فان رآه الناس احسن أفعالها ومد القعود بين السجدتين وأمثالها ، فقد قال ابن مسعود : من فعل ذلك فهى استهانة يستهين بها ربه ، يعنى انه ليس يبالى باطلاع الله عليه فى الخلوة كما فى الجلوة فاذا اطلع آدمى عليه احسن الصلاة ، ومن جلس بين يدى انسان متربعا أو متكئا فدخل غلامه فاستوى فى الجلسة وأحسن كان ذلك تقديما للغلام على السيد واستهانة بالسيد لامحالة ، وهذا حال المرائى بتحسين الصلاة فى الملأ دون الخلاء وكذا الذى يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة فاذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من الملامة ، وكذا الصائم يصون صومه عن الغيبة لا لالعبادة الصوم خوفا من المذمة فهذا أيضا من الرياء المحظور لان فيه تقديم الخلق على الخالق لكنه دون الرياء باصول التطوعات كذا فى الأحياء . والظاهر انه دون الرياء باصول العبادات من الفروض ، لان أصول التطوعات دون أصول الواجبات ، وكذا يجوز ترك التطوعات رأسا ولا يجوز ترك الواجبات أصلا . نعم بترك الفرائض تبطل العبادات ، بخلاف ترك الواجبات فانه يوجب الاثم والنقصان فى وصف العبادات ﴿ ثم المكمل ﴾ أى ثم الأفحش بعده الرياء بفعل مالا نقصان فى تركه لكن فعله فى حكم التكملة والتتمة لعبادته فهو ما كان وجوده خيرا من عدمه ﴿ كتطويلها ﴾ أى الصلاة بتطويل الركوع والسجود ومد القيام وإطالة القراءة ﴿ وتحسين الهيئة ﴾ فى رفع اليدين ووضعهما مع اظهار تزيين النية المشعر بتحسين الطوية وحفظ العين عن الالتفات واطراق الرأس فى الحالات ليستدل بذلك على غاية خشوعه ونهاية خضوعه . وكل ذلك مما لو خلى ونفسه لكان لا يقدم عليه بمقتضى طبعه ومراعاة شرعه ﴿ ثم الزائد ﴾ أى بعده الرياء بزيادة خارجة عن نفس النوافل ايضا ﴿ كالبكور فى المسجد ﴾ أى كحضور الجماعة قبل القوم ﴿ وقصد الصف الأول ﴾ وتوجهه الى يمين الامام ومايجرى مجراه من الأحكام . وكل ذلك مما يرائى به الانام ، ويعلم الملك العلام انه لو خلى بنفسه لكان لا يبالى اين وقف ومتى حضر ﴿ وباعتبار ماله ﴾

قَصْدُ الْمَعْصِيَةِ كَتَقَلُّدِ الوَقْفِ لِلْمُدَاهَنَةِ ثُمَّ الْمُبَاحُ كَنِكَاحِ الشَّرِيفَةِ ثُمَّ التَّمْيِيزُ عَنِ الْعَامَّةِ وَقَدْ يَخْفَى كَالْفَرَحِ بِاطِّلَاعِ الْغَيْرِ

أى والاخش باعتبار مايقع الرياءلاجله ماله فيه ﴿قصد المعصية﴾ وقيل انه بدل من ضمير ماله ، والاولى ماقدرناه لحسن ماله ، وذلك بان يكون مقصوده التمكن من معصيته ﴿كتقلد الوقف للمداهنة﴾ أى كالذى يرائى بالعبادات ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل من الطاعات والامتناع عن أكل الشبهات ، وغرضه أن يعرف بتأدية الامانات فيؤتى تولية القضايا أو الاوقاف أو الوصايا أو مال الايتام فيأخذها ، أو يسلم اليه تفرقة الزكاة والصدقات ليستأثر بما يقدر عليه منها فى الحاجات ، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها فى بعض الحالات، وهؤلاء أبغض المرائين الى الله لانهم جعلوا طاعة ربهم سلما الى معصيته واتخذوه آلة ومتجرا وبضاعة لهم فى فسقهم ﴿ثم المباح﴾ أى قصده بالرياء ﴿كنكاح الشريفة﴾ او المرأة الجميلة فيكون غرضه بالرياء نيل حظ من حظوظ الدنيا من مال أو جمال ، فيظهر الحزن بالبكاء ويشتغل بالوعظ فى الصباح والمساء لتبذل له الاموال وترغب فى نكاحه النساء فهذا رياء محظور لانه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الاول فان المطلوب بهذا مباح فى نفسه ﴿ثم التمييز عن العامة﴾ بالمشى والزى وترك اكل اللحم ونحوه كى يعد من الخاصة كالزهاد والعباد فيما بين العباد من أهل البلاد ، فيظهر عبادته لا لقصد نيل حظ دنيوى من مال أو نكاح بل خيفة من ان ينظر اليه بعين النقص و يعتقد انه من جملة العامة ، كالذى يمشى مستعجلا فى طريق فيطلع عليه الناس فيحسن المشى و يترك العجلة كيلا يقال انه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار والسكون ، وكذلك الذى يسبق اليه الضحك أو يبدر منه المزاح فيخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار لا بعين الوقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء واظهار الحزن والبكاء ويقول : ماأعظم غفلة الآدمى عن نفسه ، والله يعلم منه انه لو كان فى خلوة هنالك لما كان يثقل عليه ذلك ﴿وقد يخفى﴾ أى الرياء فانه كما تقدم اخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ﴿كالفرح باطلاع الغير﴾ على طاعته فرب عبد مخلص فى عمله لا يعتقد الرياء بل يكرهه و يرده عن نفسه ويتمم العمل كذلك ، ولكن اذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، وهذا السرور يدل على رياء خفى فيه يترشح

وَالتَّعْرِيضِ لِلْاظْهَارِ وَتَحْسِينِ الْأَدَاءِ فِى الْخَلَاءِ لِئَلَّا يُخَالِفَ فِى الْمَلَاءِ وَلِلتَّزَيُّنِ بِظُهُورِ الْخُشُوعِ فِى الْأَعْضَاءِ وَتَأْثِيرُهُ أَنَّهُ اذَا هَجَمَ بَعْدَ التَّمَامِ بِالْفَرَحِ عَلَى الظُّهُورِ أَوِ الْاظْهَارِ لَا يُبْطِلُ لِعَدَمِ بُطْلَانِ الثَّوَابِ الْمُتَقَدِّمِ بِالْعَمَلِ الطَّارِىءِ وَفِيهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ وَحُمِلَ مَا وَرَدَ مَا صُمْتَ وَلَا أَفْطَرْتَ فِيمَنْ قَالَ صُمْتُ دَائِماً عَلَى كَرَاهَةِ صَوْمِ الدَّهْرِ

السرورمنه ﴿ والتعريض للاظهار ﴾ يعنى ثم اذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهيته فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفى من الرياء فيتقاضى تقاضيا خفيا ان يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض والقاء الكلام غرضا بالاظهار . وقد حكى ان رجلا اضاف الثورى واصحابه ، فقال لاهله: هاتوا الطبق الذى جئت به فى الحجة الاولى ، فنظر سفيان وقال : مسكين قد افسد عليه بهذا حجتيه ﴿ وتحسين الاداء فى الخلاء ﴾ وجعله عادة له ﴿ لئلا يخالف فى الملا ﴾ ظنا منه انه يتخلص بهذا عن الرياء ولم يعرف انه يتكرر منه الرياء فى الخلاء والملا ﴿ وللتزين ﴾ كذا فى النسخ ، والظاهر ان يقول والتزين فى الاعين اى اعين اهل الملاء ﴿ بظهور الخشوع فى الاعضاء ﴾ كاظهار النحول والصفار وخفض الصوت و يبس الشفتين وآثار الدمع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد . والحاصل انه مهما ادركت النفس تفرقة بين أن يطلع على عبادته انسان اوبهيمة ففيه شعبة من الرياء ، وقد روى «لايكمل ايمان احدكم حتى يكون الخلق عنده كالاباعر » ﴿ وتأثيره ﴾ اى الرياء فى العمل بالاحباط والاثبات ﴿ انه اذا هجم ﴾ اى غلب الريا ﴿ بعد التمام ﴾ اى تمام العمل الخالص ﴿ بالفرح ﴾ متعلق بهجم اى بفرحه ﴿ على الظهور ﴾ من غير قصده ﴿ اوالاظهار ﴾ بقوله ﴿ لا يبطل ﴾ ثواب العمل المؤدى بالاخلاص ﴿ لعدم بطلان الثواب المتقدم بالعمل الطارىء ﴾ اى الحادث بعده ﴿ وفيه الثواب ﴾ على عمله الذى مضى ﴿ والعقاب ﴾ على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها ﴿ وحمل ماورد ﴾ اى فى الحديث من نفى العمل تغليظا ﴿ ماصمت ولا افطرت فيمن قال صمت ﴾ اى فى حق من قال صمت ﴿ دائما ﴾ والمحفوظ صمت الدهر يارسول الله ، ثم المعروف فى مسلم من حديث ابى قتادة «قال عمر : يارسول الله كيف بمن يصوم الدهر ؟ قال لاصام ولا افطر » فهذا حمل ﴿ على كراهة صوم الدهر ﴾ اي لاعلي ابطاله بالرياء لاظهار اعماله ولانه يكون في قوله نوع

لِدُخُولِ العِيدَيْنِ وَالتَّشْرِيقِ فِيهِ، وَمَا جَاءَ ذَلِكَ حَظُّكَ مِنْهَا فِيمَنْ قَالَ قَرَأْتُ الْبَارِحَةَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ عَلَى عَدَمِ خُلُوِّ الْقَلْبِ عَنْهُ حَالَةَ الْقِرَاءَةِ بِدَلَالَةِ الاظْهَارِ وَاذَاهَجَمَ فِي الْأَثْنَاءِ مُتَجَرِّدًا وَبَعَثَ عَلَى الْعَمَلِ وَخُتِمَ بِهِ كَمَا لَوْ تَذَكَّرَ ضَالَّةً أَوْ حَدَثَ نَضَارَةٌ فَأَتَمَّ الْعَمَلَ لِحُضُورِ الْغَيْرِ عِنْدَهُ لَوْلَاهُ لَقَطَعَ يَبْطُلُ فِي عَمَلٍ ذِي أَرْكَانٍ يَتَعَلَّقُ صَلَاحُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ

كذب ﴿ لدخول العيدين ﴾ اى عيد الفطر والاضحى ﴿ والتشريق فيه ﴾ اى فى قوله صمت الدهر ، وصوم هذه الايام الخمسة حرام باتفاق الائمة الاربعة . واخرج ابن جرير كما فى الجامع الكبير « عن ام كلثوم قالت قيل لعائشة تصومين الدهر وقد نهى عليه السلام عن صيام الدهر ؟ قالت نعم سمعت رسول الله ﷺ نهى عن صيام الدهر ولكن من أفطر يوم الفطر ويوم النحر فلم يصم الدهر » وقال بعضهم : انما قال عليه السلام زجراله عن اظهاره ﴿ وماجاء ﴾ اى وحمل ماورد عن ابن مسعود ﴿ ذلك ﴾ اى اظهارك ﴿ حظك ﴾ ولفظ الاحياء حظه ﴿ منها ﴾ اى من القراءة ﴿ فيمن قال قرأت البارحة ﴾ اى الليلة المتقدمة ﴿ سورة البقرة على ﴾ اى حمل على ﴿ عدم خلو القلب عنه ﴾ اى عن الرياء ﴿ حالة القراءة ﴾ لانه هجم بعد تمامها ﴿ بدلالة الاظهار ﴾ كيف ماكان ، فيحتمل ان يكون ذلك من رسول الله ﷺ أو من ابن مسعود استدلالا على ان قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده لما ان ظهر منه التحدث به ، اذ يبعد ان يكون مايطرؤ بعد العمل مبطلا لثواب العمل بالكلية . نعم يبطل كمال ثوابه فى القضية ﴿ واذا هجم ﴾ اى غلبه الرياء ﴿ فى الاثناء ﴾ اى اثناء العبادة ﴿ متجردا ﴾ عن الاخلاص فى قصد الثواب ﴿ وبعث على العمل ﴾ اى على اتمامه ﴿ وختم ﴾ العمل ﴿ به ﴾ اى بالرياء المتجرد عن قصد الثواب ﴿ كما لو تذكر ضالة ﴾ فى اثناء الصلاة ﴿ اوحدث نضارة ﴾ اى فرجة ونزهة فى اثنائها ﴿ فاتم العمل لحضور الغير عنده لولاه ﴾ وفى نسخة لولاهو اى ذلك الغير ﴿ لقطع ﴾ ذلك العمل وطلب الضالة او تفرج على النضارة ﴿ يبطل ﴾ جواب اذا هجم ، اى يبطل هذا الرياء ثواب العمل لكن ﴿ فى عمل ذى اركان ﴾ اى اجزاء ﴿ يتعلق صلاح بعضها ببعض كالصلاة والصوم والحج ﴾ والظاهر ان الغز وكذلك لكن قال الطبري : اذا كان الباعث اولا اعلاء

فَوِرْدُ «العَمَلُ كَالوِعَاءِ اذا طَابَ أَوَّلُه طَابَ آخِرُهُ - مَنْ رَاءَى بِعَمَلِه سَاعَةً حَبِطَ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ قَبْلَه» دُونَ غَيْرِه كَالصَّدَقَةِ وَالتِّلَاوَةِ اِذْ كُلُّ جُزْءٍ مُنْفَرِدٌ وَالطَّارِيءُ لَا يُبْطِلُ المَاضِيَ وَاِذَا لَمْ يَتَجَرَّدْ بَلْ غَلَبَ كَغَلَبَةِ الفَرَحِ بِاطِّلَاعِ الغَيْرِ فَالغَالِبُ فِيهِ الفَسَادُ اِنِ انْقَضَى رُكْنٌ

لمة الله لايضره مـاعرض له بعد ذلك على مانقله عنه السيوطى فى حاشية البخارى ﴿ فورد العمل كالوعاء اذا طاب اوله طاب آخره ﴾ هكذا فى الاحياء ، ورواه ابن ماجه من حديث معاوية بلفظ « اذا طاب اسفله طاب أعلاه » وعلى كل تقدير فظاهره لايوافق المدعى الاان يراد مفهوم الحديث كما لايخفى ﴿ من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله ﴾ كذا فى الاحياء قال مخرجه : لم اجده بهذا اللفظ، وللشيخين من حديث جندب « من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به » ﴿ دون غيره ﴾ اى بخلاف عمل ليس بذى اركان يتعلق صلاح بعضها ببعض ﴿ كالصدقة والتلاوة ﴾ وانما لم يبطل هذا النوع من العمل كله بالرياء ﴿ اذ كل جزء ﴾ من كل منهما ﴿ منفرد ﴾ اى من جزء آخر حيث انه مستقل بنفسه لاتعلق له بغيره . نعن بعض الصالحين قال : كنت ليلة وقت السحر فى غرفة لى اقرأ سورة طه فلما ختمتها غفوت غفوة فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة فنشرها بين يدى فاذا فيها سورة طه واذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة الا كلمة واحدة فانى رأيت مكانها محوا ولم ارتحتها شيئا ، فقلت والله لقد قرأت هذه الكلمة ولم ارلها ثوابا ولم ارها اثبتت ، فقال الشخص صدقت قد قرأتها وكتبناها الا اناسمعنا مناديا ينادى من قبل العرش امحوها واسقطوا ثوابها فمحوناها ، قال فبكيت فى منامى بكاء شديدا وقلت : لم فعلتم ذلك ؟ قالوا : مر رجل فرفعت بها صوتك لاجله فذهب ثوابها . وهذا يدل على ان الرياء فى الاوصاف يبطل ثواب العمل رأسا ﴿ والطارى ﴾ اى الحادث من الرياء ﴿ لا يبطل الماضى ﴾ من العمل بل يبطل الباقى، وفيه مخالفة لما روى من ان الشخص اذا ذكر العمل السرى مرة ينقل الى العلانية، واذا ذكره ثانيا ينقل الى الرياء ﴿ واذا لم يتجرد ﴾ الرياء عن الاخلاص بقصد الثواب ﴿ بل غلب ﴾ الرياء عليه ﴿ كغلبة الفرح باطلاع الغير ﴾ اى بمشاهدة غيره اليه ﴿ فالغالب فيه ﴾ اى الظن الغالب فى هذا النوع من العمل ﴿ الفساد ان انقضى ﴾ على حالة الرياء ﴿ ركن ﴾ من اركان ذلك العمل

وَلَمْ يُعَاوِدْهُ الْبَاعِثُ الأَصْلِيُّ لِلصَّلَاةِ لأَنَّا نَسْتَصْحِبُ نِيَّةَ الْبَدَاءَةِ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَطْرَأَ مَا لَوْ قَارَنَ ابْتِدَاءً الْمَنْعَ وَإِنِ احْتَمَلَ الْجَوَازَ لِبَقَاءِ قَصْدِ الثَّوَابِ الْمَوْجُودِ حَالَ الْعَقْدِ

مع غلبه قصد الرياء ﴿ولم يعاوده﴾ أى العامل الر ن أو المصلى ﴿الباعث الأصلى للصلاة﴾ وهو الاخلاص ﴿لانا نستصحب نية البداءة﴾ أى نعطى النية السابقة التى كانت خالصة لقصد المثوبة حكم استصحاب الحال، والمعنى نحكم عليها بالاخلاص الى تمام العمل فى المآل ﴿بشرط ان لا يطرأ﴾ أى لا يحدث بعد النية السابقة فى اثناء العمل من الرياء اللاحقة ﴿ما﴾ أى الرياء ﴿لو قارن ابتداء المنع﴾ الباعث الاصلى الذى هو الاخلاص ﴿وان احتمل﴾ أى ولو احتمل ﴿الجواز﴾ أى صحة العمل ﴿لبقاء قصد الثواب الموجود حال العقد﴾ من التحريمة المقرونة بالنية • وتوضيحه مافى الأحياء . اذا كان واراد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الاستتمام لاجل الثواب . كما لو حضر جماعة فى أثناء صلاته ففرح بحضورهم فاعتقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لاجل نظارهم ، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا ، فهذا رياء قد اثر فى العمل وانتهض باعثا على الحركات ، فان غلب عليه حتى انمحق معه الاحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغمورا فهذا أيضا ينبغى ان يفسد العبادة مهما مضى ركن من اركانها على هذا الوجه لانا نكتفى بالنية السابقة عند الاحرام بشرط ان لا يطرأ ما يغلبها ويغمرها ، ويحتمل ان يقال : لا يحبط العبادة نظرا الى حالة العقد والى بقاء أصل الثواب وان ضعف بهجوم قصد هو اغلب منه والله أعلم بالصواب • وذهب الحارث المحاسبي الى الاحباط فى أمر اهون منه ، قال : اذا لم يرد الا مجرد السرور باطلاع الناس يعنى سرورا هو لحب المنزلة والجاه . قال : وقد اختلف الناس فى هذا فصارت فرقة الى انه محبط لانه قد نقض العزم الأول وركن الى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالاخلاص وانما يتم العمل بخاتمته ، ثم قال : ولا اقطع عليه بالحبط ان لم يزد فى العمل ولا آمن عليه ، وقد كنت اقف فيه لاختلاف الناس فالاغلب على قلبى انه يحبط اذا ختم عمله بالرياء ، ثم قال : فان قيل فقد قال الحسن البصرى انما هما صورتان فان كانت الاولى لله لا تضره الثانية وقد روى «أن رجلا قال يارسول الله أسر عملى لا احب ان يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى قال : لك أجران اجر السر واجر العلانية». رواه البيهقى. والترمذى. وابن حبان من حديث أبى هريرة . ثم تكلم المحاسبى على الاثر والخبر فقال: اما الحسن فانه أراد بقوله اى لا تضره: أي لا يدع العمل ولا تضره الخطرة

وَإِنِ اتَّصَلَ بِالعَقْدِ مُتَجَرِّدًا وَأُتِمَّ عَلَيْهِ يُعِيدُ اتِّفَاقًا وَإِنْ رَجَعَ قَبْلَ التَّمَامِ فَكَذَلِكَ لِفَقْدِ الانْعِقَادِ وَضَعُفَ القَوْلُ بِوُجُوبِ إِعَادَةِ الأَفْعَالِ لِفَسَادِهَا دُونَ التَّحْرِيمَةِ فَهِيَ عَقْدٌ، وَالرِّيَاءُ خَطْرَةٌ لَا تُخْرِجُهَا عَنِ الانْعِقَادِ لِأَنَّ الأَفْعَالَ الفَاسِدَةَ مِنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ زَائِدَةٌ فِيهَا فَتُبْطِلُهَا، وَ بِوُجُوبِ الاسْتِغْفَارِ

وهو يريد الله ، ولم يقل اذا اعتقد الرياء بعد عقد الاخلاص لم يضره : وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله الى ثلاثة أوجه : احدها انه يحتمل انه أراد بظهور عمله بعد الفراغ وليس فى الحديث انه قبل الفراغ ، وثانيها انه أراد انه يسر به لاقتداء الناس به ونحوه من سرور محمود لاسرور بحسب حب المحمدة والمنزلة بدليل انه جعل له به اجرا ، ولا ذاهب من الامة الى ان للسرور بالمحمدة اجرا وغايته انه يعفى عنه فكيف يكون للمخلص اجر وللمرائى أجران ، وثالثها أنه قال : اكثر من يروى هذا الحديث يرويه غير متصل الى أبى هريرة ، بل اكثرهم يوقفه على أبى صالح السمان وفيهم من يرفعه ، فالحكم بالعمومات الواردة أولى ﴿ وان اتصل ﴾ الرياء ﴿ بالعقد ﴾ أى بالتحريمة وابتداء النية ﴿ متجردا ﴾ من قصد الثواب ﴿ واتم ﴾ العمل حتى سلم ﴿ عليه ﴾ أى على الرياء المتجرد عن قصد الثواب ﴿ يعيد ﴾ ذلك العمل ﴿ اتفاقا ﴾ أى وهو آثم اجماعا ﴿ وان رجع ﴾ المصلى عن الرياء الى الاخلاص وندم على ماقصده ﴿ قبل التمام ﴾ أى تمام العمل ﴿ فكذلك ﴾ يعيد ذلك العمل اتفاقا ﴿ لفقد الانعقاد ﴾ على الاخلاص ﴿ وضعف القول ﴾ اى ولضعف قول القائل ﴿ بوجوب اعادة الافعال ﴾ الصادرة عن الرياء ﴿ لفسادها ﴾ أى لبطلان تلك الافعال ﴿ دون التحريمة ﴾ أى من غير وجوب اعادتها ﴿ فهى ﴾ أى التحريمة ﴿ عقد ﴾ ، له ثبوت واستقرار ﴿ والرياء خطرة لاتخرجها ﴾ أى التحريمة ﴿ عن الانعقاد ﴾ والمعنى أن قول المصلى اصلى لله تعالى عقد نيته على الاخلاص لله كالاقرار باللسان عقد ثابت ، والرياء خطرة لا تبطل العقد كما ان إقرار المنافق باللسان لايبطل نفاقه بالجنان بل يثبت حكمه فى الدنيا فكذا هنا ، فقوله فهى عقد الخ دليل وجوب الاعادة : وأما دليل القول الاول المضعف للثانى فقوله ﴿ لان الافعال الفاسدة من الركوع والسجود ﴾ اذا لم تصح فهى ﴿ زائدة فيها ﴾ اى فى الصلاة ﴿ فتبطلها ﴾ أى تلك الافعال الصلاة ﴿ و بوجوب الاستغفار ﴾

قَلبًا وَالاتْمام مُخلصًا لاعْتبار الخَتْم كما لَوْ خَتَم بالرِّياء وَابْتَدأ بالاخلاص وَكَوْن العَمَل لَه تعالى وَالَّا لَكَفر، وَزَوال عارض الرِّياء بالتَّوبة لأنَّه قادح في النِّيَّة وَحَالَة البَدَاءة أوْلى بالرِّعَاية

أى ولضعف القول بوجوب الاستغفار ﴿ قلبا والاتمام ﴾ اى وبوجوب اتمام العمل ﴿ مخلصا ﴾ أى متجردا عن الرياء ﴿ لاعتبار الختم ﴾ تعليل لوجوب الاستغفار والاتمام مخلصا أى لاعتبار خاتمة العمل ﴿ كما لو ختم بالرياء وابتدأ بالاخلاص ﴾ لكان يفسد عمله ﴿ وكون العمل ﴾ أى وبكون العمل أو ولاعتبار كون العمل ﴿ له تعالى ﴾ لا لغيره ﴿ والا ﴾ أى فلو لم يكن العمل خالصا له بان صلى لغيره ﴿ لكفر ﴾ كما كفر من يسجد للصنم ونحوه ﴿ وزوال عارض الرياء ﴾ أى وبزواله أو ولاعتبار زواله ﴿ بالتوبة لانه ﴾ دليل لضعف وجوب الاستغفار، والمعنى لان الرياء ﴿ قادح في النية وحالة البداءة ﴾ أى الأولى ﴿ أولى بالرعاية ﴾ في الاخلاص من الحالة الثانية لان المدار عليها في الأفعال الباقية فقد فات ذلك فيبطل العمل وتجب الاعادة، وتوضيحه ما في الأحياء من أن الرياء الذى يقارن حال العقد بان يبتدىء الصلاة على قصد الرياء فان تم عليه حتى سلم فلا خلاف في انه يعصى ولا يعتد بصلاته، وان ندم عليه في أثناء صلاته واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه : قالت فرقة : لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنفه، وقالت فرقة يلزمه اعادة الافعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لان التحريم عقد والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا، وقالت فرقة: لا يلزمه اعادة شىء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الاخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتدأها بالاخلاص وختمها بالرياء لكان يفسد عمله، وقالوا ان الصلاة والركوع والسجود لا تكون الا لله فان سجد لغير الله كان كافرا، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار الى حالة لا يبالى بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته، قال ومذهب الفريقين الاخيرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه اعادة الركوع والسجود دون الافتتاح، لان الركوع والسجود اذا لم يصحا صارت افعالا زائدة في الصلاة فتبطل الصلاة، وكذا قول من يقول لو ختم بالاخلاص صح نظرا الى الآخر فهو أيضا ضعيف لان الرياء يقدح في النية. وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حال الافتتاح، فالذى يستقيم على قياس الفقه هو ان يقال

وَإِنْ لَمْ يَتَجَرَّدْ فَفِيمَا لَا يَقْبَلُ الْفَسَادَ كَالصَّدَقَةِ يُثَابُ وَيُعَاقَبُ فَوَرَدَ (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) الآيَة، وَفِي غَيْرِهِ كَالصَّلَاةِ لَا يَبْطُلُ النَّفْلُ حَتَّى يَصِحَّ الِاقْتِدَاءُ وَلَا يَسْقُطُ الْفَرْضُ إِنْ لَمْ يَسْتَقِلَّ قَصْدُ الثَّوَابِ وَإِنِ اسْتَقَلَّ

إن كان باعثه مجرد الرياء فى ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الامر لم ينعقد الافتتاح ولم يصح ما بعده ، وذلك فيمن اذا خلا بنفسه لم يصل فهذه الصلاة لا نية فيها اذ النية عبارة عن اجابة باعث الدين وهنا لا باعث ولا اجابة . وأما اذا كان بحيث لولا الناس أيضا لكان يصلى إلا انه ظهر له الرغبة فى المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان وهذا معنى قوله ﴿ وان لم يتجرد ﴾ الرياء من قصد الثواب ﴿ ففيما لا يقبل الفساد ﴾ وهو العمل الذى ليس بذى أركان ﴿ كالصدقة ﴾ والقراءة والصوم والحج ﴿ يثاب ﴾ على قصد الاخلاص حيث اطاع باجابة باعث الثواب ﴿ ويعاقب ﴾ على قصد الرياء حيث عصى باجابة باعث الرياء وعدل عن طريق الصواب ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ أى ير جزاءه فى الدنيا أو الآخرى ﴿ الآية ﴾ أى (ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعليه عقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر ﴿ وفى غيره ﴾ أى وفى غير ما لا يقبل الفساد وهو فيما يقبل الفساد وهو عمل ذو اركان ﴿ كالصلاة ﴾ فانها تقبل الفساد بتطرق خلل الى النية ففرق بين الفرض والنفل حيث قال ﴿ لا يبطل النفل حتى يصح الاقتداء ﴾ والمعنى ان حكمه أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه واطاع من وجه ، اذ اجتمع فى قلبه الباعثان ، ولا يمكن ان يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل، حتى ان من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله ان قصده الرياء باظهار حسن القراءة ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا فى البيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به فان المصير الى هذا بعيد جدا بل يظن بالمسلم انه يقصد الثواب ايضا بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به ﴿ ولا يسقط الفرض ان لم يستقل قصد الثواب ﴾ بان اقترن به قصد آخر هو عاص به فاجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وانما يحصل الانبعاث بمجموعهما، فهذا لا يسقط الواجب عنه ، لان الايجاب لم ينتهض باعثا فى حقه بمجرده واستقلاله ﴿ وان استقل ﴾ اى قصد الثواب بمقتضى ظاهر كلام المصنف ، والاظهر ان استقل كل من القصدين الباعثين حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرض ولو لم يكن باعث

فَوَجهانِ السُّقوطُ بالنِّيَّةِ المُسْتَقِلَّةِ وعَدَمُهُ لأَنَّ الوَاجِبَ هُوَ الخَالِص. وَانْ كَانَ فى المُبَادَرَةِ فَفِيه فَوْتُ الفَضِيلَةِ لقَصْدِ الرِّيَاء أَمَّا المَغْلُوبُ الغَيْرُ المُؤَثِّر مَثَلًا كَمُجَرَّدِ الفَرْحَةِ فَالغَالِبُ فيه الجَوَازُ لعَدَم اعْتِبَارِ غَيْرِ المُؤَثِّرِ وَاحْتُمِلَ أَنَّ الوَاجِبَ هُوَ الخَالِصُ وَالمُخَلَّطُ غَيْرُ مُؤَدٍّ وَمِنْ ثَمَّ تَوَقَّفَ الحَارِثُ المُحَاسِبِيُّ مَائِلًا الَى الفَسَاد وَقِيلَ بِالفَسَادِ بِأَقَلِّ خَطْرَةٍ مُطْلَقًا

الفرض لانشأ صلاة التطوع لاجل الرياء ﴿ فوجهان ﴾ اى ففيه احتمالان احدهما ﴿ السقوط ﴾ اى سقوط الفرض واعتباره للامتثال ﴿ بالنية المستقلة ﴾ واقتران غيره به لايمنع سقوط الفرض عنه ، كما لوصلى فى دار مغصوبة فانه وان كان عاصيا بايقاع الصلاة فى الدار المغصوبة فانه مطيع بامتثال الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه ﴿ وعدمه ﴾ اى وثانيهما نفى سقوط الفرض ﴿ لان الواجب ﴾ فى تأدية الفرض ﴿ هو الخالص ﴾ من الرياء لقوله تعالى: (وماامروا الاليعبدوالله مخلصين له الدين) وقد فات ذلك باتصال الرياء ﴿ وان كان ﴾ باعث الاخلاص مستقلا ثم تعارض الاحتمال فى تعارض البواعث انما هو فى اصل الصلاة وان كان اتصال الرياء ﴿ فى المبادرة ﴾ مثلا دون اصل الصلاة مثل من بادر بالصلاة فى اول الوقت لحضور الجماعة ليقولوا انه مبادر الى الخيرات ومسارع الى الطاعات والمبرات ، ولوخلا لاخر الى وسط الوقت اوآخره ، ولولا الفرض لكان لايبتدىء صلاة لاجل الرياء، فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض عن ذمته ﴿ ففيه فوت الفضيلة ﴾ وهى تصحيح النية فى المبادرة ﴿ والمعصية لقصد الرياء ﴾ فى المبادرة ﴿ اما المغلوب ﴾ من الرياء ﴿ الغير المؤثر ﴾ اى اذا لم يبلغ اثره الى حيث يؤثر فى العمل كالذى لم يحمله على تطويل الصلاة ﴿ مثلا كمجرد الفرحة ﴾ باطلاع الغير ﴿ فالغالب ﴾ من جهة الظن ﴿ فيه ﴾ اى فى ذلك الرياء المغلوب الغير المؤثر ﴿ الجواز ﴾ اى صحة العمل ﴿ لعدم اعتبار غير المؤثر ﴾ دفعا للحرج ﴿ واحتمل ان الواجب ﴾ على العبد ﴿ هو الخالص ﴾ من العمل عن الرياء ﴿ والمخلط ﴾ بالرياء ﴿ غير مؤدى ﴾ حق الاداء ﴿ ومن ثم توقف الحارث المحاسبى مائلا الى الفساد ﴾ اى فساد العمل بالرياء غير المغلوب كما قدمناه ﴿ وقيل بالفساد باقل خطرة ﴾ فيما كان من اركان العمل ﴿ مطلقا ﴾ اى

حِرْصًا فِي تَصْفِيَةِ القَلْبِ وَالمَسْأَلَةُ غَامِضَةٌ وَالْعِلْمُ عِنْدَهُ تَعَالَى، وَالعِلَاجُ قَلْعُ حُبِّ الجَاهِ وَالمَدْحِ وَكَرَاهَةِ الذَّمِّ وَالطَّمَعِ بِمَا سَبَقَ وَاخْفَاءُ العَمَلِ مُتَكَلِّفًا وَذِكْرُ فَوَائِدِ

سواء بلغ اثره الى حيث يؤثر فى العمل ام لا . وقيل مطلقا اى رياء كان اوغيره ﴿ حرصا ﴾ لطلبه الرب ﴿ فى تصفية القلب ﴾ عما عداه سبحانه لاسيما جال العبادة هومذهب الثورى والجنيد ﴿ والمسألة ﴾ أى مسألة الرياء ﴿ غامضة ﴾ اى مشكلة من حيث ان الفقهاء لم يتعرضوا لها فى فن الفقه ، والذين خاضوا فيها وتصرفوا من ارباب التصوف لم يلاحظوا قوانين الفقه من صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب ومرادها ، وطلب الاخلاص على افساد العبادات بادنى الخواطر والارادات ﴿ والعلم عنده تعالى ﴾ فى جميع الحالات والمقامات . ومما يؤيد القول بابطال الرياء فى جميع الطاعات اطلاق قوله تعالى: (ياءيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس) الآية ، ورواية ابى داود من حديث ابى هريرة « ان رجلا قال يارسول الله رجل يبتغى الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من عرض الدنيا ، فقال عليه السلام :لااجرله » وللنسائى من حديث ابى امامة باسناد حسن « ارأيت رجلاغزا يلتمس الاجر والذكر ماله ؟ فقال لاشىء له، فاعادها ثلاث مرات يقول له لاشىء له ثم قال ان الله لايقبل من العمل الاما كان خالصا وابتغى به وجهه » نعم قد يقال الحكم للاغلب والله تعالى اعلم ﴿ والعلاج ﴾ اى دواء داء الرياء اربعة ﴿ قلع حب الجاه والمدح ﴾ اللذين هما سببه ﴿ وكراهة الذم والطمع ﴾ فيما فى ايدى الناس ، اى وقلع كراهتهما والطمع ﴿ بما سبق ﴾ ذكره من الاشياء. ومما يشهد للرياء بهذه الاسباب وانها الباعثة للمرائى ماروى ابو موسى «ان اعرابيا سأل النبى عليه السلام فقال : يارسول الله الرجل يقاتل حمية ، ومعناه انه يأنف ان يقهر أويذم بانه مقهور مغلوب قال : والرجل يقاتل لذى مكانة » وهذا هو طلب لذة الجاه « والرجل يقاتل للذكر ، وهذا هو طلب الحمد باللسان «فقال عليه السلام: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا» متفق عليه . وعنه عليه السلام : « من غزا لايبغى الاعقالا فله مانوى » رواه النسائى وهذا اشارة الى الطمع ﴿ واخفاء العمل متكلفا ﴾ اى مجتهدا مبالغا فيه بان يعود نفسيه إخفاء العبادات كما يخفى السيئات ﴿ وذكر فوائد

الاخْلَاصِ وَآفات الرِّيَاءِ فَمَا أَقْبَحَ مَنْ لَا يَكْتَفِي بِنَظَرِهِ تَعَالَى عَلَى سَاعَةٍ مِنَ العَمَلِ المَعْيُوبِ وَهُوَ تَعَالَى مَعَ جَلَالِه يَكْتَفِي بِنَظَرِه فَوَرَدَ . (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الآيَةَ،وَمَنْ بَاعَ عَمَلَهُ بِخَسِيسٍ فَانٍ وَأَعْرَضَ عَنْ بَيْعِه بِثَوَابِ الدَّارَيْنِ فَوَرَدَ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) وَذِكْرُ مَا وَرَدَ فِيهِ،وَيَحْمَدُ الفَرْحَةَ بِالظُّهُورِ عَلَى حُسْنِ لُطْفِه تَعَالَى

الاخلاص وآفات الرياء ﴾ على ماتقدم ٭

والحاصل ان قوة المعرفة بحسب قوة الايمان ونور الايقان ، وضعف المعرفة بسبب حب الدنيا ، وحسب الغفلة ونسيان العقبى ، وقلة التفكر فيما عند المولى من الدرجات ، وعدم التأمل فى آفات الدنيا وعظم نعيم الاخرى ،واصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع السيئات ، فان حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا الفانية هى التى تغمر القلب وتميله عن الرب ، وتحول بينه وبين التفكر فى العاقبة الباقية ، والاستبصار بنور الكتاب والسنة الثابتة ، وانوار العلوم النافعة واسرار الاعمال الرافعة ﴿ فما اقبح من لا يكتفى بنظره تعالى على ساعة من العمل المعيوب ﴾ عنده ﴿ وهو تعالى مع جلاله ﴾ اى جلالة قدره وعظمة شانه ﴿ يكتفى بنظره ﴾ اى بنظر عبده وتأمله فى خلق سمائه وارضه ونزول امره ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل (الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن ﴿ لتعلموا ان الله على كل شيء قدير) الآية ﴾ اى (وان الله قد احاط بكل شيء علما) ﴿ ومن ﴾ اى وما اقبح من ﴿ باع عمله بخسيس فان واعرض عن بيعه بثواب الدارين ﴾ من نفيس باق ليس له ثان ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ فليطلبهما من عنده فانه لا يوجد واحد منهما عند غيره ﴿ وذكر ماورد فيه ﴾ اى فى الاخلاص من الفضيلة وفى ذم الرياء من الرذيلة،ويكفى فى ذلك قوله سبحانه : (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا) والاخبار فى هذا الباب كثيرة والآثار شهيرة ﴿ ويحمد الفرحة بالظهور ﴾ اي بسبب ظهور الطاعة من غير قصد في اظهارها ﴿ على حسن لطفه تعالى ﴾ اي شكرا

بإخفاء الذنوب وإظهار الطاعات، فورد (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) أو دلالته على أنه تعالى يفعل كذلك فورد «ما ستر الله على عبده في الدنيا إلا وستره عليه في الآخرة» أو أنه يقتدى به فيضاعف الأجر أو أن المطلعين على عمله يثابون بمحبته والثناء عليه ويعرف الأخير بتسوية مدحه ومدح صالح غيره، ومنه ما ورد «لك أجران أجر السر وأجر العلانية» فيمن قال أخفي العمل فإذا ظهر أفرح

﴿ باخفاء الذنوب ﴾ اى ستر السيئات ﴿ واظهار الطاعات فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ من الايمان والقرآن ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ اى لا بغير ما ذكر ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ من حطام الدنيا الفانية . وفى الدعاء. يامن اظهر الجميل وستر القبيح ﴿ اودلالته ﴾ اى او يحمد الفرحة بالظهور على دلالته ﴿ على انه تعالى يفعل كذلك ﴾ من اظهار الحسنات وستر السيئات ﴿ فى الآخرة ﴾ اى آخر الحالات ﴿ فورد ﴾ فى صحيح مسلم من حديث ابى هريرة « ماستر الله على عبده فى الدنيا الاوستره عليه في الآخرة) وفى معناه انشدوا *

لقد احسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى

فيكون الاول فرحا بالقبول فى الحال من غير ملاحظة للاستقبال، والثانى التفات الى حال المآل وحسن المنال ﴿ اوانه ﴾ اى يحمد بالفرحة او بالظهور على ان من ظهر عمله ﴿ يقتدى به فيضاعف الاجر ﴾ بسبب ظهوره ﴿ او ﴾ اى او يحمد بالفرحة على ﴿ ان المطلعين على عمله يثابون بمحبته ﴾ أى بمحبة صاحب العمل ﴿ والثناء عليه ﴾ فى مقام رضاه ففى الخبر وأفضل الأعمال الحب فى الله» ﴿ ويعرف الاخير ﴾ وهو صدق دعوى فرحه باثابة الناس أو فرحه باقتدائهم فى عمله ﴿ بتسوية مدحه ومدح صالح غيره ﴾ فانه حينئذ دل على أن فرحه محمود لا مذموم مردود ﴿ ومنه ﴾ أى ومن الفرح المحمود ﴿ ماورد لك اجران اجر السر وأجر العلانية فيمن قال ﴾ على طريق السؤال ﴿ اخفى العمل ﴾ خوفا من الرياء ﴿ فاذا ظهر افرح ﴾ بظهور الثناء، فللبيهقى فى شعب الايمان «عن ابن مسعود ان رجلا قال اسر العمل لا احب ان يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى» فقال عليه السلام : لك أجران أجر السر وأجر العلانية» ورواه الترمذي وابن حبان

وَالاظْهَارَ للتَّرْغِيب فورد «مَن سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يَوْمِ القِيَامَة» وبه أمر الأنبياء عليهم السلام بشرط أن يكون ممن يقتدى به ويبالغ فى الاحتراز عن الرِّيَاء ويعرف بأنه لو قدر اقتداء النَّاس بغيره وعرفانه باستواء أجر السر والعلانية لما رغب

من رواية أبى هريرة، ولفظه «قال قلت: يارسول الله بينا أنا في بيتى فى مصلاى دخل على رجل فاعجبنى الحال التى رآنى عليها، فقال عليه السلام: رحمك الله ياأبا هريرة لك أجران اجر السر وأجر العلانية» والحديث فى المشكاة ﴿والاظهار﴾ أى ويحمد اظهار العمل ﴿للترغيب﴾ أى لترغيب غيره فيه ﴿فورد﴾ فى صحيح مسلم من حديث جرير بن عبدالله البجلى ﴿من سن سنة حسنة ﴾ أى فعمل بها كما فى رواية «(فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة)» وسبب وروده أن أنصار ياجاء بصرة فتتابع الناس بالعطية لما رواه البيهقى من حديث ابن عمر «عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية افضل لمن أراد الاقتداء» وله من حديث أبى الدرداء «ان عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا» وله من حديث عائشة «يفضل أو يضاعف الذكر الخفى الذى لاتسمعه الحفظة على الذى تسمعه بسبعين ضعفا» «(وبه)» أى وبالاظهار ﴿امر الانبياء عليهم السلام﴾ ويفهم منه انه يحسن الاظهار ﴿بشرط أن يكون﴾ المظهر ﴿ممن يقتدى به﴾ من العلماء والصلحاء لتتم فائدة الاظهار الذى دون الاسرار. قال الحسن: قد علم المسلمون ان السر احرز العملين، ولكن فى الاظهار أيضا قد تكون فائدة فلذا اثنى الله على السر والعلانية فقال تعالى: (ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) قلت وقد قال أيضا (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم) الآية قال على رضى الله عنه: تصدقت بدرهم فى ليل وآخر فى نهار وآخر سرا وآخر علانية عملا بالآية وما فيها علانية ﴿ويبالغ﴾ أى وبشرط أن يبالغ «(فى الاحتراز عن الرياء)» ليصل الى مقام أهل الاختصاص من الاخلاص، فربما يكون فيه رياء فى غاية الخفاء فيدعوه الى الاظهار بعذر الاقتداء فيهلك هنالك وهو لايشعر بذلك. ﴿ويعرف﴾ احترازه أو يعرف المظهر للترغيب دون الرياء «(بانه لو قدر)» أى فرض «(اقتداء الناس بغيره)» من العلماء فى عمله حال ظهوره «(وعرفانه)» اى وقدر معرفة هذا المظهر «(باستواء أجر السر والعلانية)» فضلا عن كون عمل السر أفضل «(لما رغب)»

فِيهِ، وَالذِّكْرُ بَعْدَهُ وَهُوَ لِمَنْ قَوِيَ بَاطِنُهُ وَتَمَّ إِخْلَاصُهُ وَخَطَرُهُ أَصْعَبُ لِخِفَّةِ الْمُؤْنَةِ

وَزِيَادَةِ الْمُبَالَغَةِ وَلَذَّةِ النَّفْسِ وَأَخَفُّ لِأَنَّ اللَّاحِقَ لَا يُبْطِلُ السَّابِقَ وَكِتْمَانُ

الْمَعَاصِي لَا لِأَنْ يُعْتَقَدَ فِيهِ الْعَمَلُ رِيَاءٌ بَلْ لِلتَّحَامِي عَنِ الْهَتْكِ فَفِيهِ خَوْفُهُ فِي الْآخِرَةِ

المظهر ﴿ فيه ﴾ اى فى اظهار عمله ، لان غرضه حصل من عمل غيره ، فمهما وجد الثقل في نفسه اورغب فى اظهار العمل مع وجود اظهاره من الغير فهو كاذب فى دعواه طالب لمقتضى هواه ﴿ والذكر ﴾ اى ويحمد ذكر العمل ﴿ بعده ﴾ اى بعد فراغ العمل ليقتدى به كقول عثمان: ماتغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله ﷺ ، كذا فى الاحياء . ولابى يعلى الموصلى فى معجمه من رواية انس عنه فى اثناء حديث « وان عثمان قال يارسول الله » فذكره بلفظ منذ بايعتك قال هو ذاك ياعثمان، اوتحدثا بنعمة ربه ﴿ وهو ﴾ اى الذكر انما جاز ﴿ لمن قوى باطنه ﴾ فى المعرفة بعدم الالتفات الى سوى الله ﴿ وتم اخلاصه ﴾ عن الرياء ﴿ وخطره ﴾ اى خطر الذكر بعد العمل ﴿ اصعب ﴾ من خطر الظهور ﴿ لخفة المؤنة ﴾ اى الكلفة فى ذكره ببعض الكلمة ﴿ وزيادة المبالغة ﴾ اى ولزيادتها فى ذكر العمل بان يقول مانمت البارحة مع انه لايخلو من نوع من النوم ولو بالنعاس ﴿ ولذة النفس ﴾ فى اظهار الدعاوى ﴿ واخف ﴾ اى اهون على المظهر فى التأثر وان يطرق فى الذكر بعد العمل ﴿ لان اللاحق ﴾ من ذكر العمل ﴿ لايبطل السابق ﴾ من نفس العمل مع الاخلاص ﴿ وكتمان المعاصى ﴾ اى ويحمد كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس على العيوب ﴿ لا ﴾ اى لايحمد ﴿ لان يعتقد فيه ﴾ اى فى الكاتم ﴿ العمل رياء بل ﴾ يحمد لثمانية اشياء ﴿ للتحامى عن الهتك ﴾ اى للمحافظة على هتك ستره وظهور امره من ذنبه خوفا من سقوط وقع المعاصى من النفس وجرءتها عليها، فان النفس متى ألفت ظهور الذنوب زادانها كها واسترسلت فى شهواتها بارتكا بها وما بالت بعدم اجتنابها ﴿ ففيه ﴾ اى فى الهتك فى الدنيا ﴿ خوفه ﴾ اى خوف العبد اوخوف الهتك ﴿ فى الآخرة ﴾ اى فى القيامة بالكرة الآخرة عكس ماتقدم فى قوله

كما احسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى

أَوْ لِأَنَّ السَّتْرَ مَأْمُورٌ بِهِ فَوَرَدَ «مَنِ ارْتَكَبَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ» وَيُعْرَفُ بِكَرَاهَةِ ظُهُورِهَا مِنَ الْغَيْرِ أَوْ لِئَلَّا يَتَأَلَّمَ بِالذَّمِّ فَهُوَ مُبَاحٌ لِكَوْنِهِ جِبِلِّيّاً وَالتَّرْكُ كَمَالٌ أَوْ لِأَنَّ النَّاسَ شُهَدَاؤُهُ فَوَرَدَ «مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرّاً وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ» ثَلَاثاً أَوْ لِأَنَّ الذَّامَّ يَصِيرُ عَاصِياً وَيُعْرَفُ بِتَسْوِيَةِ

﴿ اولان الستر ﴾ اي كتمان المعاصي ﴿ مأموربه ﴾ اى فى باب استحبابه ﴿ فورد ﴾ فى حديث « من ستر الله عليه فى الدنيا ستر الله عليه فى الآخرة » باعتبار مفهومه وكذا ﴿ من ارتكب شيئا من هذه القاذورات ﴾ اى السيئات ﴿ فليستتر بستر الله تعالى عليه ﴾ رواه الحاكم ﴿ ويعرف ﴾ صحة هذا المقام ﴿ بكراهة ظهورها ﴾ اى المعاصي ﴿ من الغير ﴾ ففى الخبر « لايؤمن احدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه » ﴿ اولئلا يتألم بالذم ﴾ اى بذم الناس فان الذم مؤلم للقلب وتألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الانسان بعاص ﴿ فهو ﴾ اى التالم ﴿ مباح لكونه جبليا ﴾ كما ان الضرب يؤلم الجوارح بالطبع فاذا تألم القلب بالذم ربما يصير مانعا من الخشوع والخضوع فى العبادة لفوات عقله بسبب الغضب الناشئ عن تألمه ﴿ والترك ﴾ اى ترك التألم ﴿ كمال ﴾ فان كمال الصدق فى ان تزول عنه رؤية الخلق فيستوى عنده ذامه ومادحه لعلمه ان الضار والنافع هو الله وان العباد كلهم عاجزون مقهورون تحت قدره وقضائه ، فللترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ « قام رجل فقال ان حمدى زين وان ذمى شين فقال كذبت ذاك الله » ولاحمد من حديث الاقرع بن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله ثقات ﴿ أولان الناس شهداؤه ﴾ أى شهداء الله تعالى كما قيل : السنة الخلق أقلام الحق ﴿ فورد ﴾ فى مسند أحمد والصحيحين والنسائى عن أنس ﴿ من اثنيتم ﴾ أيها الصحابة أوايها الأمة ﴿ عليه خيرا وجبت له الجنة ، ومن اثنيتم عليه شرا وجبت له النار انتم شهداء الله فى الأرض ثلاثا ﴾ اى قاله ثلاث مرات وهو المستفاد من قوله سبحانه (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) أى عدولا (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ﴿ أولان الذام يصير عاصيا ﴾ أى بسبب ذمه ولو بالمعاصى أو بتجاوزه عن الحد فى الذم فيذم بما ليس فيه ﴿ ويعرف ﴾ تصحيح هذا المقام أو يعرف هذا الكتمان ﴿ بتسوية

ذَمِّهِ وَذَمِّ غَيْرِهِ أَوْ لِخَوْفِ أَنْ يَقْصِدَ بِسُوءٍ أَوْ لِلْحَيَاءِ فَهُوَ مِنْ كَرَمِ الطَّبْعِ وَوَرَدَ «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ» «الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» أَوْلِأَنْ لَا يَقْتَدِيَ بِهِ الْغَيْرُ وَحُبِّ مَحَبَّتِهِ النَّاسَ لِأَنْ يَعْلَمَ مِنْهُ مَحَبَّتَهُ تَعَالَى فَمَنْ أَحَبَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُ مَحْبُوبًا فِي قُلُوبِهِمْ ثُمَّ الطَّاعَةُ الَّتِي يَلْتَذُّ بِهَا الْعَامَّةُ كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ يَتْرُكُ بِمَحْضَرِ الْغَيْرِ انْ هَجَمَ الرِّيَاءُ فِي الشُّرُوعِ

ذمه وذم غيره ﴾ يعني لما يتألم بذمه كذلك بذم غيره والفرق بين هذا التألم والذى قبله ان هـذا يوجد فى الانسان اذا ظهرت المعصية عن غيره أيضا لما يوجد اذا ظهرت منه ، والذى قبله انما يوجد فى الشخص اذا ظهرت منه المعصية دون غيره ﴿ اولخوف ان يقصد بسوء ﴾ من محتسب وغيره وهذا وراء الم الذم، فان الذم مذموم من حيث يشعر القلب بنقصانه وان كان ممن يؤمن شره ، وهذا يخاف شر من يطلع على ذنبه فيتغير عليه من جهة قلبه ﴿ أو للحياء فهو من كرم الطبع ﴾ ولا يلزم منه الرياء ﴿ وورد الحياء خير كله ﴾ مسلم من حديث عمران بن الحصين ﴿ الحياء شعبة من الايمان ﴾ متفق عليه من حديث أبى هريرة وفى الخبر « الحياء لا يأتى الا بخير » متفق عليه من حديث عمران بن الحصين . ويعرف الكتمان للحياء بعدم الكتمان فيمن لا يستحيي منه كالاجانب بخلاف باقى الاسباب فان صاحبها يحب الكتمان فى الاجانب والاقارب ﴿ أو لان لا يقتدى به الغير ﴾ فى معصيته فينبغى ان يخفى العاصى معصيته من ولده وعبده أيضا ﴿ وحب ﴾ أى ويحمد حب ﴿ محبته الناس ﴾ كان الظاهر ان يقال محبة الناس ليكون اضافة المصدر الى فاعله والمفعول محذوف أى اياه ، لكنه قلب الكلام وقال محبته الناس بالاضافة الى المفعول والناس فاعلها ﴿ لان يعلم منه ﴾ أى من حب الناس له ﴿ محبته تعالى ﴾ رياء ﴿ فمن أحبه تعالى جعله محبوبا فى قلوبهم ﴾ اى قلوب الخلق اجمعهم لقوله تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) ولقوله عليه السلام « اذا أحب الله عبدا دعا جبريل فقال انى أحب فلانا فاحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول : ان الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض » الحديث رواه مسلم عن أبى هريرة. ﴿ ثم الطاعة التى يلتذ بها العامة كالصلاة والصوم ﴾ والصدقة ﴿ يترك بمحضر الغير ان هجم الرياء ﴾ متجردا عن باعث آخر وعن الاخلاص ﴿ فى الشروع ﴾ أى فى ابتداء

حَتَّى اندفعَ الرِّياءُ ويَشرعُ مجاهدًا إنْ هَجَمَ باعثان ويُتمُّ كذلكَ ان هجم بعده ولا يتركُ لأنَّه موافقةُ الشيطان ولأنَّ الاشتهار باخفائها ليعلم اخلاصه رياء والاحترازَ عن النِّسبةِ الى الرِّياء رياءٌ وتركُ النَّخعيِّ التِّلاوة لدخول شخصٍ لمَّا علم أنَّه يحتاجُ اليه بالاشتغال به لكونه أبعدَ من الرِّياء وان زادَ على المُعتاد بحدوث النشاط عند رؤيته متعبدًا فان كان غبطةً لزوال الغفلة والكسل

شروعه فى العمل ﴿ حتى اندفع الرياء ﴾ أى الى ان يندفع الرياء ويطرأ باعث الاخلاص ﴿ ويشرع ﴾ فى العمل ﴿ مجاهدا ﴾ نفسه فى دفع الرياء وتحصيل الاخلاص بالمعالجة والدواء ﴿ ان هجم باعثان ﴾ فى وقت الشروع *﴿ و يتم ﴾ أى مجاهدا ﴿ كذلك ﴾ أى كما أتم فى هجوم باعثين ﴿ ان هجم ﴾ باعث الرياء ﴿ بعده ﴾ أى بعد الشروع ﴿ ولا يترك ﴾ أى رياء الشروع فى العمل مع هجوم الرياء لوجهين ﴿ لانه موافقة الشيطان ﴾ فانه يحب ترك العمل من أصله ، فانه يدعوك أولا الى ترك العمل ، فاذا لم تجبه واشتغلت بالعمل فيدعوك الى الرياء ، فاذا لم تجبه ودفعته بقى يقول لك هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضايع فاى فائدة لك فى العمل الذى لا اخلاص فيه حتى يدلك على ترك العمل بخوفك ، فاذا تركته حصلت غرضه ، بل يجب عليك حينئذ أن تعمل العمل وتطلب الاخلاص من الله تعالى فان الرياء قنطرة الاخلاص ﴿ ولان الاشتهار باخفائها ﴾ أى الطاعة ﴿ ليعلم اخلاصه رياء والاحتراز عن النسبة الى الرياء رياء ﴾ كما قال الفضيل : العمل لغير الله شرك ، وترك العمل لاجل الخلق رياء ، والاخلاص ان يخلصك الله منهما ﴿ وترك النخعى التلاوة لدخول شخص ﴾ لم يكن لمجرد اخفاء الطاعة بل ﴿ لما علم انه يحتاج اليه بالاشتغال به ﴾ فبادر الى ترك التلاوة قبل دخوله ﴿ لكونه ﴾ أى التبادر ﴿ أبعد من الرياء ﴾ فرأى ان عدم اشتغاله بالقراءة أبعد من الرياء ، وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود اليها بعد ذلك والحاصل ان تركه لم يكن لهجوم الباعثين عند الشروع أو هجوم باعث الرياء بعد الشروع ﴿ وان زاد ﴾ أى المصلى مثلا ﴿ على المعتاد ﴾ فى ورده كمية أو كيفية ﴿ بحدوث النشاط ﴾ فى العبادة ﴿ عند رؤيته متعبدا ﴾ اى عند رؤيته لمتعبد آخر فان للصحبة تأثيرا بليغا ولذا شرع الجمعة والجماعة ﴿ فان كان ﴾ ما زاد على المعتاد ﴿ غبطة ﴾ فى العبادة ﴿ لزوال الغفلة والكسل

بِمُشَاهَدَتِهِ فَيَفْعَلُ الزِّيَادَةَ دَافِعًا وَسْوَسَةَ أَنَّهُ رِيَاءٌ بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ نَشَاطًا لِاسْتِمَالَةِ قَلْبِهِ وَيَعْرِفُ بِأَنَّهُ لَوْ رَأَى بِحَيْثُ لَمْ يَرَهُ رَغِبَ فِيهِ أَمَّا مَا تَلْتَذُّ بِهِ الْعَامَّةُ فَالْأَعْلَى الْخِلَافَةُ فَوَرَدَ «لَيَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ سِتِّينَ سَنَةً» وَخَطَرُهَا أَعْظَمُ لِتَحْرِيكِهَا الْبَاطِنَ فِي مَحَبَّةِ الْجَاهِ وَالْإِفْضَاءِ إِلَى ارْتِكَابِ الذَّنْبِ لِنُمُوِّهِ

بمشاهدته ﴾ اى المتعبد ﴿ فيفعل الزيادة ﴾ على العادة وان ظن انه رياء دافعا وسوسة انه رياء ﴿ بخلاف ما اذا كان نشاطا لاستمالة قلبه ﴾ أى قلب المتعبد الآخر فلا يفعل الزيادة لانه رياء محض لا ثواب فيه بل عقاب عليه ﴿ ويعرف ﴾ هذا المقام وهو النشاط لاجل الغبطة ﴿ بانه ﴾ أى بان العابد الذى يزيد على المعتاد غبطة ﴿ لو رأى ﴾ أى المنشط المتعبد ﴿ بحيث لم يره ﴾ المتعبد المنشط ﴿ رغب ﴾ العابد ﴿ فيه ﴾ أى فى العمل الزائد فانه حينئذ يصدق انه مخلص وباعث الزيادة حصول الغبطة ﴿ اما ما تلتذ به العامة ﴾ من الطاعة ﴿ فالاعلى الخلافة ﴾ اى الامامة الكبرى ﴿ فورد ﴾ فى الطبرانى والبيهقى من حديث ابن عباس ﴿ ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين سنة ﴾ وفى رواية عاما، وللاصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث ابى سعيد الخدرى « اقرب الناس منى مجلسا يوم القيمة امام عادل » ﴿ وخطرها ﴾ اى آفة الخلافة ﴿ اعظم لتحريكها ﴾ اى الخلافة ﴿ الباطن فى محبة الجاه ﴾ وهو اعظم بلاء الدنيا فلاحمد، والبزار وابى يعلى والطبرانى من حديث ابى هريرة « مامن والى عشرة الاجاء يوم القيمة يده مغلولة الى عنقه لا يفكها الا اذا غفرله » وفى الصحيحين من حديث معقل بن يسار « مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة الا لم يرح رائحة الجنة » وعن الحسن ان رجلا ولاه النبى عليه السلام فقال خرلى يارسول الله قال اجلس رواه الطبرانى ورواه ايضا من حديث ابن عمر بلفظ « الزم بيتك » وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة « لا تسأل الامارة » وللبخارى من حديث ابى هريرة « انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة يوم القيمة وندامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة » ورواه ابن حبان « فبئست المرضعة وبئست الفاطمة » وفيهما من حديث ابى موسى « انا لا نولى امرنا من سألنا » ﴿ والافضاء ﴾ اى واتصال الخلافة وانجرارها ﴿ الى ارتكاب الذنب لنموه ﴾ اي لزيادة الجاه ، فان كل مانما جاهه وغلب علي النفس حبه صارت الولاية محبوبة

وَمِنْ ثَمَّ احْتَرَزَ عَنْهَا الاتْقِيَاءُ فَيَحْتَرِزُ عَنْهَا الضَّعِيفُ دُونَ القَوِيِّ لِعَدَمِ تَأْثِيرِهَا فِيهِ الَّا اذَا عَلِمَ القَوِيُّ الانْقِلَابَ عِنْدَ التَّقْلِيدِ فَالصَّحِيحُ فِيهِ الاحْتِرَازُ إِذِ النَّفْسُ خَدَّاعَةٌ يُخَافُ عَلَيْهَا عِنْدَ الْجَزْمِ بِالثَّبَاتِ فَعِنْدَ الْخَوْفِ أَوْلَى وَالامْتِنَاعُ أَهْوَنُ مِنَ العَزْمِ، ثُمَّ القَضَاءُ ثُمَّ الوَعْظُ وَالدَّرْسُ وَالفَتْوَى فِى الفَضْلِ وَالخَطَرِ وَاشْتِرَاطِ القُوَّةِ وَمُدَافَعَةُ السَّلَفِ فِيهَا مَشْهُورَةٌ ،

عنده فيحتاج الى حفظها و يوشك ان يتبع هواه فيمتنع من كل مايقدح فى جاهه وان كان حقا ﴿ ومن ثم احترز عنها ﴾ اى عن الخلافة ﴿ الاتقياء ﴾ من اكابر الامة لكن لابد لاحد أن يقوم بامرها ﴿ فيحترز عنها الضعيف ﴾ اى العاجز عن السياسة ﴿ دون القوى ﴾ القادر على الرياسة ﴿ لعدم تأثيرها ﴾ اى تأثير الخلافة أو محبة الجاه ﴿ فيه ﴾ اى فى القوى ﴿ الا اذا علم القوى ﴾ اى خاف « ﴿ الانقلاب ﴾ » عن حالة القوة الى حالة الضعف ﴿ عند التقليد ﴾ اى عند قبول الخلافة لما قدمنا من الخطر والآفة ﴿ فالصحيح ﴾ الاحوط ﴿ فيه ﴾ اى فى هذا الحال من خوف الانقلاب ﴿ الاحتراز، اذ النفس خداعة يخاف عليها عند الجزم ﴾ اى عند عزمها وجزمها ﴿ بالثبات فعند الخوف ﴾ من عدم الثبات ﴿ اولى ﴾ ان يخاف عليها ﴿ والامتناع ﴾ عن المنصب ﴿ أهون من العزل ﴾ كما هو المشاهد فى اهل العدل ويشير اليه ما فى حديث البخارى « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » ﴿ ثم القضاء ﴾ وخطره ايضا ادنى من خطر الخلافة ، ولمسلم من حديث ابى ذر « لاتؤمرن على اثنين ولاتلين مال يتيم » ، ولاصحاب السنن من حديث بريدة « القضاة ثلاثة اثنان فى النار وواحد فى الجنة رجل علم الحق فقضى به فهو فى الجنة ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار ، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار » ولهم من حديث أبى هريرة « من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين » وفى رواية « من ولى القضاء » واسناده صحيح « ﴿ ثم الوعظ ﴾ » للناس ﴿ والدرس ﴾ للطلبة ﴿ والفتوى ﴾ لارباب الحاجة ﴿ فى الفضل ﴾ لانها عبادات متعدية ﴿ والخطر ﴾ لاتساع الجاه فيها وعظم القدر بها فخطر مافيها عظيم بقدرها ﴿ واشتراط القوة ﴾ بان يحول التعليم خالصا لوجه الله الكريم ﴿ ومدافعة السلف ﴾ مبتدأ ﴿ فيها ﴾ اى فى المذكورات ﴿ مشهورة ﴾ قال بعضهم : كان السلف يتدافعون اربعة أشياء : الامامة

وَتعرفُ القوَّةُ بعدمِ كَرَاهة ظُهورِ آخَرَ يتقلّده فَانْ عُدِمَ القَوِىُّ الكَامِلُ يتعين أقْوَى النَّاسِ مُجْتَهدًا فى الاحْترازِ عَنْ آفَاته

(البَابُ الرَّابعَ عَشَرَ فى التَّفويضِ وَقَصْرِ الأَمَلِ وَذِكْرِ المَوْتِ وَالانْتبَاه)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم * الخَطَرُ خَطَرَانِ خَطَرُ الفَسَادِ وَيُحْتَاجُ فيه الَى التَّفْويض

والوديعة ، والوصية ، والفتوى (وتعرف القوة) فى كل منهم (بعدم كراهة ظهور آخر) أحسن منه علما وعملا (يتقلده) أى بالقيام فى أمره (فان عدم القوى) فى مقام التقوى (الكامل) فى العلم بالفتوى (يتعين أقوى الناس مجتهدا) أى حال كونه مبالغا (فى الاحتراز عن آفاته) أى آفات ما ذكر من الخلافة وغيرها فى جميع حالاته ومقاماته وبالجملة ما يتعلق بالخلق من الطاعة وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات ومنبع البليات ، فالاحب للقوى ان يعمل و يدفع الآفة بالعلم ، فان عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه وليستخر ربه وليزن مافيه من الخير بما فيه من الشر ، وليفعل ما يدل عليه نور العلم بالشرع دون الميل اليه بالطبع اذ ما يجده اخف على قلبه واهون اليه يكون فى الا كثر اضر عليه ، لان النفس لاتشير الا بالشر قلما تشير بمحض الخير ، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفى واثبات نظرا الى تعاليها ، بل هى موكولة الى اجتهاد القلب المشحون بذكر الرب لينظر فيه لدينه وتحقيق يقينه ويدع ما يريبه الى ما لا يريبه . ومن جرب آفات مناصب العلم وما يترتب عليها من الحرام والشبه علم انها بالولايات والحكومات اشبه ، وان الحذر منها فى حق الضعيف اسلم . والله سبحانه أعلم .

(الباب الرابع عشر فى التفويض وقصر الامل وذكر الموت والانتباه) أى اليقظة من نوم الغفلة بالتوبة والاستقامة (بسم الله الرحمن الرحيم) وافوض أمرى الى ربى الكريم (الخطر) وهو الاشراف على الهلاك ان لم يكن مقرونا بالحذر وفق القدر (خطران) أى نوعان أحدهما (خطر الفساد) بان لا يستيقن فيه الصلاح (ويحتاج فيه الى التفويض) أى التسليم الى امر الله وما قدره وقضاه فيما أراده من الصلاح والفساد ، فان المراد للعباد ثلاثة ، مراد يعلم يقينا انه شر وفساد كالنار والعذاب والحجاب ، وفى الافعال كالكفر والبدعة والمعصية فلا سبيل لك الى ارادة ذلك . ومراد يعلم قطعا انه خير وصلاح كالجنة والايمان والطاعة والسنة فلك ارادتها بالحكم

وَهُوَ ارَادَةُ حفْظه تَعَالَى للمُفوِّض فيمَا لَاأمْنَ فيه منَ الفَسَاد قيلَ هُوَ مَا يَكُونُ دُونَهُ نَجَاةٌ ويُمكن أنْ يُجَامعهُ ذَنبٌ فَيَخْتَصُّ بالنَّوافِل وَالمُبَاحَات وَقيلَ مَا يُمْكنُ أنْ يَعتَرضَ عَلَيْه مَايَكُونُ الاشْتغَالُ به أوْلَى،فَيَعُمُّ الفَرْضَ

لا موضع للتفويض فيه اذ لاخطر فيه ، ومرادلا يعلم يقينا ان لك فيه صلاحا أم فسادا فهذا موضع التفويض ، فليس لك ان تريدها قطعا الا بالاستثناء أو شرط الخير والصلاح ، فان قيدت ارادتك بالاستثناء فهو تفويض وان أردت دون الاستثناء فهو مذموم ومنهى عنه ، فموضع التفويض إذا كل مراد فيه الخطر وهو أن لا يستيقن صلاحك فيه ﴿ وهو ﴾ أى التفويض ﴿ ارادة حفظه تعالى للموفض فيما ﴾ أى فى عمل ﴿ لا امن فيه من الفساد ﴾ وقال بعض المشايخ : هو ترك اختيار ما فيه مخاطرة الى المختار المدبر العالم بمصالح العباد من الصلاح والفساد ، وعبارة الشيخ السنجرى : هو ترك اختيارك المخاطرة على المختار ليختار لك ما هو خير لك ، ويؤيده كلام الامام الشاذلى : لا تختر فان تختر فاختر ان لا تختار فربك يخلق ما يشاء ويختار ، ومن هنا ما قيل لابى يزيد: ماتريد . قال أريد ان لا أريد. وقال الشيخ أبو عمر: هو ترك الطمع أى من الحق ، والطمع ارادة الشيء المخاطر بالحكم . وعن الشاذلى : اقطع طمعك عن الله ان يعطيك غير ما قسم لك . فهذه عبارات القوم . وما ذكره المصنف هو اختيار الامام الغزالى بعينه وهو ان التفويض ارادة ان يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن الخطر فيه لاجلك ﴿ قيل هو ﴾ أى العمل الذى لا أمن فيه من الفساد ﴿ ما يكون دونه نجاة ﴾ فالايمان ليس لغيره نجاة وكذا الواجبات والمحرمات ﴿ ويمكن أن يجامعه ذنب ﴾ فالاستقامة التى هى حمل النفس على طريق السلامة من اخلاق القرآن والسنة من غير الشك والشبهة لا يجامعها ذنب اذ السنة لا يجامعها بدعة ، لان البدعة الذميمة هى التى تزاحم السنة الكريمة ﴿ فيختص ﴾ التفويض ﴿ بالنوافل والمباحات ﴾ دون الواجبات والمحرمات والمكروهات ﴿ وقيل ﴾ المراد بالعمل الذى لا أمن فيه من الفساد ﴿ ما ﴾ أى عمل ﴿ يمكن ان يعترض عليه ﴾ أى يطرأ و يحدث على شروعه ﴿ ما يكون الاشتغال به أولى فيعم الفرض ﴾ أى ونحوه . وأكثر المشايخ واختيار الامام فى منهاج العابدين : ان الفرض ليس موضع التفويض وبه قال القشيرى حيث قال فى هذه المسألة : ان الذى افترض الله عز وجل على عبده من الصلاة والصيام والحج ونحوها ففيها صلاح العبد لا محالة

إذ مَنْ قَصَدَ أداءَ صَلاةٍ ضَاقَ وَقْتُها وَعِنْدَهُ غَريقٌ أوْ حَريقٌ يُمْكِنُ إنقاذُه فهو أولى. وَلا بُدَّ مِنْهُ لاطْمِئْنانِ القَلْبِ فى الحَالِ وَحُصُولِ الصَّلاحِ فى الاسْتِقْبالِ فَلا يَفعَلُ فى المُفَوِّضِ الفَسادَ فوَرَدَ (وَأفَوِّضُ أمْرِى الى اللهِ ـ الى ـ فَوَقاهُ اللهُ) الآيَة. وَأمّا الأصْلَحُ فَرُبَّما لا يَفعَلُ حَتّى نَامَ عليهِ السَّلامُ مَعَ أصْحابِه

وصحت ارادتها بالحكم البتة انتهى، وقال بعضهم . ان الله عز وجل لا يأمر العبد بشىء الا وفيه صلاح اذا تجرد عن العوارض ، ولا يضيق عليه فعلا فرضا بحيث لا يعدل عن ذلك الا وفيه صلاح له ، وانه ربما يسبب عذرا لاجله يكون العدول عن احد الفرائض اولى من الاشتغال بالآخر ، فيكون العبد فى ذلك معذورا بل مأجورا لكن لا يترك هذا الفرض بل يفعل الفرض الذى هو اولى اولا ﴿ اذ من قصد اداء صلاة ضاق وقتها وعنده غريق او حريق ﴾ اواعمى اوصغير يريد ان يرتمى فى بئر ﴿ يمكن انقاذه ﴾ اى تخليصه بترك اداء الصلاة أو بقطعها وتأخيرها ﴿ فهو اولى ﴾ من ادائها واتمامها لان ذلك هو فرض الوقت الذى يوجب تركه المقت ﴿ ولا بد منه ﴾ اى من التفويض لامرين ﴿ لاطمئنان القلب فى الحال ﴾ فان الامور اذا كانت خطرة مبهمة لا يدرى صلاحها من فسادها فيكون مضطرب القلب متردد النفس فى مرادها لا يدرى يقع فى صلاح او فساد ، فاذا فوضت الامر الى الله وما قدره وقضاه علمت انك لا تقع الا فى خير وصلاح ونفع وفلاح فتكون آمنا من الخطر والآفة والمخافة مطمئن البال فى الحال ، وهذه الطمانينة والامن والراحة فى القلب غنيمة عظيمة فى المنال ، فكان يقول بعض المشايخ فى مجالسه كثيرا : دع التدبير الى من خلقك تسترح ﴿ وحصول الصلاح ﴾ اى الخير والنفع ﴿ فى الاستقبال ﴾ وذلك لان الامور بالعواقب مبهمة ، فكم من شر فى صورة خير ، وكم من نفع فى حماية ضر ، وكم من سم فى طينة شهد ، وانت جاهل بالعواقب واسرار المراتب . واما اذا فوضت الامر اليه وتوكلت عليه وسلمت نفسك لديه وسألته ان يختار لك ما هو صلاحك ﴿ فلا يفعل ﴾ رب العباد ﴿ فى المفوض ﴾ اى فى امر المفوض للمراد ﴿ الفساد ﴾ بل لم يلق الا الخير والرشاد ولا يقع الا الصلاح والسداد ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل حكاية عن مؤمن آل فرعون ﴿ وافوض امرى الى الله الى فوقاه الله الآية ﴾ اى (ان الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات مامكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) فالمرجو المتيقن هو الصلاح ﴿ واما الاصلح ﴾ للعبد ﴿ فربما لا يفعل ﴾ الله فى المفوض ﴿ حتى نام عليه السلام مع اصحابه ﴾ الكرام

عَنْ صَلَاةِ الفَجْرِ وَلَهُ اخْتِيَارُ الأَفْضَلِ كَقَوْلِ المَرِيضِ لِلطَّبِيبِ إِجْعَلْ دَوَائِي مَاءَ السُّكَّرِ لَا مَاءَ الشَّعِيرِ إِذَا كَانَ الصَّلَاحُ فِيهِمَا مَعَ الرِّضَاءِ بِالمَفْضُولِ إِنِ اخْتِيرَ لَهُ بِخِلَافِ الأَصْلَحِ فَهُوَ مَجْهُولٌ وَضِدُّهُ الطَّمَعُ وَهُوَ مَحْمُودٌ

﴿عن صلاة الفجر﴾ حين عرس عليه السلام وقت سحر فى حال سفر ، والحديث فى الصحيحين بطوله ﴿وله﴾ اى وللمفوض ﴿اختيار الافضل﴾ اى فى طلبه من الله بغير استثناء منه وهو لايقدح فى تفويضه الذى هو كمال تسليمه ﴿كقول المريض﴾ المفوض ﴿للطبيب﴾ الذى بمنزلة الحبيب ﴿اجعل دوائى ماء السكر لا ماء الشعير اذا كان الصلاح فيهما﴾ بحسب التدبير ﴿مع الرضاء بالمفضول﴾ وهو ماء الشعير ﴿ان اختير له﴾ اى اختار الطبيب المفضول ﴿له﴾ للمريض بحسب التقدير ، وانما قيد بكونه مع الرضاء لانه لولم يرض به لكان المفضول مكروها وكان الافضل حينئذ هو الفاضل ﴿بخلاف الاصلح فهو مجهول﴾ اى لايعرف احد من العباد جهة الصلاح وجهة الفساد حتى يختار الاصلح فيما اراد . وتوضيحه مافى الاحياء : فان قيل : هل يجب ان يفعل بالمفوض ماهو الافضل فاعلم ان الايجاب مستحيل فى حق الله تعالى ، ولايجب لعباده عليه شيء ، وقد يفعل بالعبد الاصلح دون الافضل لحكمة فى فعله ، الاترى انه قدر للنبي عليه السلام واصحابه ان ناموا طول الليل فى بعض الاسفار حتى فاتتهم صلاة الفجر ، والصلاة أفضل من النوم ، وربما يقدر للعبد الغنى والنعمة فى الدنيا وان كان الفقر افضل باعتبار العقبى ، ويقدر له الاشتغال بالاولاد والازواج وان كان التجرد لعبادة الله افضل فانه بعباده خبير بصير ، فالمقصود للعبد النجاة من الهلاك لا ان الفضل والشرف مع الفساد والاهلاك . فان قيل فلما ذا كان للعبد ان يختار الافضل وليس له ان يختار الاصلح ؟ فاعلم ان الفرق بينهما ان العبد يعرف الافضل من المفضول ولايعرف الصلاح من الفساد ليريده بالحكم ، ثم معنى اختياره الافضل ان يريد من الله ان يجعل صلاحه فيما هو الافضل ويختار له ذلك ويقدره هنالك ، لان للعبد تحكما فى شيء لقوله تعالى (ليس لك من الامر شيء) فهذه جملة من دقائق هذا العلم واسراره وحقائقه وانواره ، ولولا ان الحاجة مست اليه لما تعرضنا بالايراد عليه ، لانه يلاطم بحار علوم المكاشفة ونحن فى ساحل علوم المعاملة ﴿وضده﴾ أي ضد التفويض ﴿الطمع﴾ من الحق بمعنى الرجاء ﴿وهو﴾ اى الطمع ﴿محمود

إِنْ قُيِّدَ بِشَرْطِ الصَّلَاحِ أَوْ بَايَنَ الخَطَرَ فَوَرَدَ . (وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَلِى خَطِيئَتِى - إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا) وَالأَمْذُمُومُ فَهُوَ سُكُونُ القَلْبِ الَى مَنْفَعَةٍ مَشْكُوكَةٍ وَخَطَرُ عَدَمِ الكَوْنِ وَيُحْتَاجُ فِيهِ الَى قَصْرِ الأَمَلِ وَهُوَ أَنْ لَا يُرَادَ أَمْرٌ يُشَكُّ فِى كَوْنِهِ إِلَّا بِالاسْتِثْنَاءِ بِذِكْرِ المَشِيئَةِ أَوِ العِلْمِ قَلْباً فَوَرَدَ « إِذَا

ان قيد بشرط الصلاح ﴾فيما لاامن فيه عن الفساد﴿ او باين ﴾اى ان فارق المطموع ﴿ الخطر ﴾ اى خطر الفساد ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل حكاية عن ابراهيم ﴿ والذى اطمع ان يغفرلى خطيئتى ﴾ يوم الدين ، وعن السحرة ﴿ انا نطمع ان يغفرلنا ربنا خطايانا ﴾ ان كنا اول المؤمنين * وكذا قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: (ومالنا لانؤمن بالله وماجاءنا من الحق ونطمع ان يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) فالطمع الوارد فى هذه الآيات مثال ما باين الخطر ﴿ والاقذموم ﴾ اى وان لم يقيد بشرط الصلاح اولم يباين الخطر فالطمع مذموم، فى الخبر« اياكم والطمع فانه فقر حاضر» وقيل . صلاح الدين الورع وفساده الطمع ﴿ فهو ﴾ اى الطمع المذموم ﴿ سكون القلب الى منفعة مشكوكة ﴾ وقيل هو ارادة الشىء الخاطر بالحكم وهذه الارادة تقابل التفويض لاغير فاعلم ذلك . واماحصن التفويض فهو ذكر خطر الامور وامكان الهلاك والفساد منها ، وحصن حصنه ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب الخطر والامتناع من الوقوع فيها لجهلك وغفلتك وضعفك،فالمواظبة على هذين الذكرين تحملك على تفويض الامور كلها الى الله تعالى والتحفظ عن الحكم فيها والامتناع عن ارادتها الابشرط صلاحها ، وهذا غاية التحقيق والله ولى التوفيق ﴿ وخطر عدم الكون ﴾ بالرفع عطف على قوله فى اول الباب خطر الفساد ، اى الخطر خطران : خطر الفساد وخطر عدم الكون اى عدم وجود الامر ﴿ ويحتاج فيه ﴾اى فى خطر عدم الكون ﴿ الى قصر الامل ﴾ اى وتقريب الاجل وتكثير العمل ﴿ وهو ﴾اى قصر الامل ﴿ ان لايراد امر يشك فى كونه ﴾ اى وجوده ﴿ الا بالاستثناء بذكر المشيئة ﴾ اى بقيد ان شاء الله كما قال تعالى :(ولاتقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الاان يشاء الله) ﴿ اوالعلم ﴾ اى او بذكر علم الله فيقول : ان علم الله انى افعل ذلك الفعل فأفعل ﴿ قلبا ﴾ اى يكفى فى الذكر والعلم خطور القلب وحضور الجنان ، ولايلزم فيها النطق باللسان فى عالم البيان ﴿ فورد ﴾ فى قصر الامل خطابا لابن عمر ﴿ اذا

أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَاذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ» وَالْأَمَلُ هُوَالْارَادَةُ بِالْحُكْمِ وَفِيهِ التَّفَاوُتُ مِنْ أَمَلِ الْبَقَاءِ أَبَدًا وَالَى الْهَرَمِ وَالسَّنَةِ وَالْفَصْلِ وَالشَّهْرِ

أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ﴾ أى بادراكه ﴿ واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ﴾ وتمامه « وخذ من حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ، فانك ياعبد الله لاتدرى مااسمك غدا» وصدر الحديث « كن فى الدنيا كأنك غريب أوعابر سبيل وعد نفسك من أصحاب القبور » رواه ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر ، ولابن أبي الدنيا من حديث على مرفوعا قال «ان أشد ماأخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى وطول الأمل ، فاما اتباع الهوى فانه يعدل عن الحق ، وأما طول الامل فانه يورث الحب للدنيا ، ثم قال الاان الله يعطى الدنيا من يحب ويبغض ، واذا أحب عبدا أعطاه الايمان ، الاان للدنيا أبناء وللدين أبناء فكونوا أبناء الدين ولاتكونوا أبناء الدنيا الاان الدنيا قدارتحلت مولية ، الاأن الآخرة قد اظلت مقبلة ، الاوانكم فى يوم عمل ليس فيه حساب ، الا وانكم توشكون ان تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل » ﴿ والأمل ﴾ أى وضد التفويض الأمل أيضا ﴿ هو الارادة ﴾ أى ارادة أمر يشك فى كونه ﴿ بالحكم ﴾ أى بالقطع لا بالاستثناء وقيد المشيئة ﴿ وفيه ﴾ أى فى الأمل ﴿ التفاوت من أمل البقاء أبدا ﴾ كما للكفار من الدهرية والى الالف كما قال تعالى (ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « قلب الشيخ شاب على حب اثنين طول الحياة وحب المال ، ﴿ والى الهرم ﴾ أى الكبر وهو حال الأكثر ﴿ والسنة ﴾ وهو قريب الى السنة فانه عليه السلام كان يدخر لعياله قوت سنة لكفاية حالهم من ماله ﴿ والفصل ﴾ من الفصول الأربعة ﴿ والشهر ﴾ فلابن أبى الدنيا والطبرانى وأبى نعيم والبيهقى عن ابى سعيد «اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « الاتعجبون من أسامة اشترى الى شهر ، ان اسامة لطويل الأمل ، والذى نفسى بيده ماطرفت عيناى الاظننت ان جفنى لايلتقيان حتى يقبض الله روحى ، ولا رفعت طرفى وظننت أنى واضعه حتى اقبض ، ولالقمت لقمة الا ظننت أنى لااسيغها حتى اغص بها من الموت ثم قال : يابنى آدم ان كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » ولابن

المبارك وابن أبي الدنيا والبزار من حديث ابن عباس « كان يخرج عليه السلام يريق الماء فيتمسح بالتراب فاقول الماء منك قريب ، فيقول مايدريني لعلي لا أبلغه » وكان عليه السلام يقول في دعائه « اللهم اني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » ابن أبي الدنيا من رواية حوشب، وقال مطرف بن عبدالله: لو علمت متى أجلي لخشيت على ذهاب عقلي ، ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ماتهنأوا بالعيش ولا قامت بينهم الاسواق . وقال بعضهم : لولا الحمقى لخربت الدنيا ، وقال الثوري : الزهد في الدنيا بقصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولبس العباء . وقيل للحسن : ألا تغسل قميصك . قال الأمر أعجل من ذلك ، ورأى وهب بن منبه في حجر منقور : ابن آدم انك لو رأيت مابقى من أجلك لزهدت في طول املك ، ولرغبت في زيادة عملك ، ولقصرت عن حرصك وجهلك انما يلقاك غدا ندمك ، لو قد زلت قدمك ، واسلمك أهلك وحشمك ، وفارقك الوالد والقريب ، ورفضك الولد والنسيب ، فلا انت الى دنياك عائد ؛ ولا في حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة ، وعن داود الطائي : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أمله ضعف عمله ، وكل ماهو آت قريب وكل مايشغلك عن ربك فهو مشؤم ، وان اهل الدنيا جميعا من أهل القبور ، انما يندمون على مايخلفون ، ويفرحون بما يقدمون فما ندم عليه أهل القبور فاهل الدنيا عليه يقتتلون ، وفيه يتنافسون وعليه عند ربهم يختصمون ، وروى ان معروف الكرخي أقام الصلاة فقال لاحمد بن أبي توبة تقدم فقال: ان صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف : وانت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى أعوذ بالله من طول الأمل فانه يمنع خير العمل . وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة فانما هي الانفاس لو حسبت انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها الى الله تعالى عزوجل ، رحم الله عبدا نظر لنفسه وبكى بعد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية (انما نعد لهم عدا) يعني الانفاس آخر العد خروج نفسك عن نفسك ، واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهادا شديدا ، فقيل له : لو امسكت ورفقت بنفسك بعض الرفق ، فقال الخيل اذا أرسلت فقاربت رأس مجاريها أخرجت جميع ماعندها ، والذي بقي من عمري أقل من ذلك ، فلم يزل على ذلك حتى مات ، وكان يقول لامرأته : شدي رحلك فليس على جهنم معبر ، وقال ابن عمر « خرج عليه السلام والشمس على اطراف السعف ، وقال ما بقي من الدنيا الامثل مابقي من يومنا هذا الى مامضى منه » ابن أبي الدنيا والترمذي وحسنه . وعن أنس قال عليه السلام « مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله الى آخره فبقي معلقا بخيط

وَالْيَوْمِ وَالسَّاعَةِ وَيَظْهَرُ بِالادِّخَارِ وَالتَّأَهُّبِ، وَآفَاتُهُ تَرْكُ الطَّاعَةِ وَالْكَسَلُ

فى آخره فيوشك ذلك الخيط ان ينقطع » رواه ابن أبى الدنيا . ومر داود الطائى فسأله رجل عن حديث فقال دعنى انما أبادر خروج روحى . وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى : (ولكنكم فتنتم أنفسكم) قال بالشهوات واللذات (وتربصتم) قال بالتوبة (وارتبتم) قال شككتم (حتى جاء امر الله) قال الموت (وغركم بالله الغرور) ﴿ واليوم ﴾ فعن عيسى عليه السلام : لاتهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فستأتى فيه ارزاقكم ، وان لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم . وهو يؤخذ من قوله تعالى (وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا) ﴿ والساعة ﴾ النجومية واللغوية الشاملة للحظة والغمضة . ويؤخذ هذا من قوله تعالى (اذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة) ومن قوله (ولن يؤخر الله نفسا) اى ولو نفسا (اذا جاء اجلها) وفى الاحياء : ومنهم من يكون الموت نصب عينه كأنه واقع به فهو ينتظره . وهذا الانسان هو الذى يصلى صلاة مودع . وفيه ورد مانقل عن معاذ لما سأله عليه السلام عن حقيقة ايمانه فقال « ماخطوت خطوة الاظننت انى لااتبعها اخرى » رواه ابو نعيم فى الحلية . وكما نقل عن الاسود وهو الحبشى انه كان يصلى ليلا ويلتفت يمينا وشمالا ، فقال قائل ماهذا ؟ قال انتظر ملك الموت من أى جهة يأتينى ، يعنى وفى اى صفة يحضرنى ، وهل اكون من اصحاب اليمين او اصحاب الشمال ، فخوف الرجال من هذا الحال لامن انتهاء الآجال. وفى منهاج العابدين قال : اكثر علمائنا ان الامل ارادة الحياة للوقت المتراخى بالحكم ، وقصر الامل ترك الحكم فيه بان تقيده بالاستثناء بمشيئة الله وعلمه فى الذكر ، او بشرط الصلاح فى الارادة ، فاذن ان ذكرت حياتك بانى اعيش بعد نفس ثان او ساعة ثانية اويوم ثان بالحكم والقطع فانت آمل ، وذلك معصية اذ هو حكم على الغيب ، وان قيدته بالمشيئة والعلم من الله فقلت اعيش ان شاء الله وان علم الله انى اعيش بعد خرجت عن حكم الامل ؛ وكذلك ان اردت حياتك للوقت الثانى قطعا فانت آمل ، وان قدرت ارادتك بشرط الصلاح خرجت عن حكم الامل ووصفت بتقصير الامل حيث تركت الحكم فى ذكر البقاء وارادته ، والمراد بالذكر ذكر القلب . ثم المراد منه التوطين على ذلك وتثبيت القلب على ماهنالك ﴿ ويظهر ﴾ هذا التفاوت ﴿ بالادخار ﴾ اى بوضع ذخيرة الارزاق ﴿ والتأهب ﴾ اى التهيؤ لاسباب المعاش فى الارفاق ﴿ وآفاته ﴾ اى آفات الامل ومضراته ستة ﴿ ترك الطاعة ﴾ رأسا ﴿ والكسل ﴾ فى العبادة والملل

وَالتَّسْوِيفُ وَالْحِرْصُ وَنِسْيَانُ الآخِرَةِ وَالقَسْوَةُ فَوَرَدَ (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ - وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) وَالسَّبَبُ حُبُّ الدُّنْيَا وَالْجَهْلُ بِالْحَقَائِقِ وَعِلَاجُ كُلٍّ مَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ وَذِكْرُ فُجَاءَةِ الْمَوْتِ فَذِكْرُهُ يُوجِبُ التَّأَهُّبَ لَهُ وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ فَوَرَدَ «نِعْمَ مَنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً

﴿ والتسويف ﴾ اى تأخير العمل بان يقول سوف اعمل ﴿ والحرص ﴾ على الدنيا ﴿ ونسيان الآخرة ﴾ ومافيها من لقاء المولى ﴿ والقسوة ﴾ اى قساوة القلب ومنه قوله تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة اواشد قسوة) وقوله سبحانه (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) ومن علامة القساوة عدم الرقة وقلة البكاء على الغفلة ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل (الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولايكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل ﴿ فطال عليهم الامد ﴾ اى زمان الاجل ﴿ فقست قلوبهم ﴾ بسبب طول الامل ، وفى آية اخرى (ذرهم ياكلوا ويتمتعوا)﴿ ويلههم الامل ﴾ اى يشغلهم الامل عما خلقوا له من العمل ﴿ فسوف يعلمون ﴾ غاية جهلهم فى طول املهم وقصر عملهم وتوهم تأخير اجلهم ﴿ والسبب ﴾ اى سبب الامل شيئان ﴿ حب الدنيا ﴾ فانه يوجب كراهة مجىء الاجل ﴿ والجهل بالحقائق ﴾ اى حقائق مايرد على الانسان من موت الفجاءة وقتل البغتة، ومن مقدمات الموت كالحمى والصداع ونحوهما فانه لايكون الاغفلة، قال تعالى (وكم من قرية اهلكناها فجاءها باسنا بياتا اوهم قائلون) اى اوهم قائلون اى مستريحون بالقيلولة ﴿ وعلاج كل ﴾ من سببيه ﴿ ماعرف فى موضعه وذكر فجاءة الموت ﴾ اى ومن علاجه تصورها فى الجنان وتقريرها باللسان ﴿ فذكره ﴾ اى الموت مطلقا ﴿ يوجب التاهب له ﴾ اى يقتضى التهيؤ والاستعداد للموت قبل مجيئه ﴿ والتجافى ﴾ اى التباعد ﴿ عن دار الغرور ﴾ وهى الدنيا فانها غدارة مكارة كما قال تعالى (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور) اى الشيطان المانع عن سلوك سبيل العقبى ﴿ فورد ﴾ فى الحديث ﴿ نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة ﴾ والظاهر ان يقول فى كل ساعة : اللهم بارك لى فى الموت وفيما بعد الموت ، ويحتمل ان يذكره فى اليوم عشرين مرة وفي الليلة عشرين مرة اوفى اليوم عشرة وفي الليل عشرة متوالية اومتفرقة، والمقصود

حِينَ قِيلَ هَلْ يُحْشَرُ مَعَ الشُّهَدَاءِ أَحَدٌ ؟

منها الكاثرة ﴿ حين قيل هل يحشر مع الشهداء احد ﴾ والحديث تقدم . وقال المخرج لم اقف له على اسناد ، قلت روى الطبرانى فى الاوسط « عن عائشة قالت قلت يارسول الله ليس الشهداء الا من قتل فى سبيل الله : قال ياعائشة ان شهداء امتى اذن لقليل ، من قال فى يوم خمسا وعشرين مرة : اللهم بارك لى فى الموت وفيما بعد الموت ثم مات على فراشه اعطاه الله اجر شهيد » وفى السنن الاربعة عن ابى هريرة « اكثروا ذكرها ذم اللذات الموت » وفى رواية « اكثروا ذكر الموت يسليك عما سواه » وفى رواية « اكثروا ذكرها ذم اللذات فانه لا يكون فى كثير الا قلله ولا فى قليل الا اجزأه » وفى رواية « فانه لم يذكره احد فى ضيق من العيش الا وسعه عليه ، ولا ذكره فى سعة الا ضيقها عليه » وفى رواية « اكثروا ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا فان ذكرتموه عند الغنى هدمه ، وان ذكرتموه عند الفقر ارضاكم بعيشكم » وللبيهقى فى الشعب من حديث ام حبيبة الجهنية « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما اكلتم منها سمينا » ولابن ابى الدنيا عن عطاء الخراسانى مرسلا انه عليه السلام مر بمجلس قد استعلاه الضحك فقال : « شربوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات ؟ قال الموت » وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال « أكثروا من ذكر هاذم اللذات فوالذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » رواه ابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر ، وفيه ايماء الى قوله تعالى (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) وللطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عمار بن ياسر « كفى بالموت واعظا » وفى رواية « مفرقا » ، قال ابن عمر أتيت النبى ﷺ عاشر عشرة ؛ فقال رجل من الانصار : من اكيس الناس واكرم الناس يارسول الله ؟ قال « اكثرهم ذكرا للموت ، واشدهم استعدادا له أولئك هم الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » ابن أبى الدنيا بسند جيد . وقيل فى تفسير قوله تعالى : (ايهم أحسن عملا) ايهم أكثر ذكرا للموت واشدهم استعدادا قبل الفوت . وقال بعضهم احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير الى دار تتمنى فيها الموت ولا تجده . وقال كعب . من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وقالت صفية : إن امرأة شكت الى عائشة قساوة قلبها فقالت اكثرى من ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها ، فجاءت تشكر عائشة رضى الله عنها ، وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك

وَحَقُّهُ أَنْ يُذْكَرَ رَغْبَةً الَى لِقَائِهِ تَعَالَى وبعثًا لِلْخَوْفِ المُوجِبِ سُرْعَةَ التَّدَارُكِ دُونَ التَّأَسُّفِ عَلَى فَوَاتِ الدُّنْيَا فَهُوَ مُبْعِدٌ عَنْهُ تَعَالَى فَوَرَدَ «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»

ولعل اكفانك قدخرجت من عند القصار ﴿ وحقه ﴾ أى وحق ذكر الموت ﴿ ان يذكر رغبة ﴾ أى ميلا ومحبة ﴿ الى لقائه تعالى ﴾ فى الجنة ﴿ وبعثا ﴾ أى تحريضا وحثا ﴿ للخوف الموجب سرعة التدارك ﴾ أى تلافى مافات منه من الطاعات ﴿ دون التأسف ﴾ أى الحسرة ﴿ على فوات الدنيا ﴾ أى من لذاتها وشهواتها ﴿ فهو ﴾ أى التأسف المذكور ﴿ مبعد عنه تعالى ﴾ لقوله عليه السلام « من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة الف سنة » أخرجه الرازى فى مشيخته عن ابن عمرو ﴿ فورد ﴾ فى الحديث ﴿ من أحب لقاء الله حب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ﴾ رواه الشيخان وغيرهما . وفى رواية زيادة والموت دون لقاء الله . والمراد بلقاء الله المصير الى دار الآخرة وطلب ماعند الله من المراتب الفاخرة ، وليس الغرض به الموت لان كلا يكرهه ، فمن ترك الدنيا وأبغضها أحب لقاء الله ، ومن اختارها وآثرها وركن اليها كره لقاء الله لانه انما يصل اليه بالموت. وقوله والموت دون لقاء الله يبين لك ان الموت غير اللقاء ولكنه معترض دون الغرض المطلوب وهو الوصول الى قرب المحبوب فيجب ان يصبر عليه ويحتمل مشاقه لديه حتى يصل الى الفوز باللقاء كذا فى النهاية . وفى شرح مسلم للنووى : ليس معنى الحديث ان حبهم لقاء الله سبب لحب الله لقاءهم ، ولا ان كراهتهم سبب لكراهته ، بل الغرض بيان وصفهم بانهم يحبون لقاء الله حين احب الله لقاءهم . انتهى ، وتوضيحه ان المحبة صفة الله ، ومحبة العبد ربه تابعة لها ومنعكسة منها ومتفرعة عليها كظهور عكس الماء على الجدار . ويؤيده ماروى انه عليه السلام قال « اذا احب الله عبدا عشقه عليه » وفى تقديم يحبهم على يحبونه فى القرآن اشارة اليه ودلالة عليه ، فمعنى الحديث : من احب لقاء الله فهو سبب للاخبار بان الله يحب لقاءه ، اذاقنا الله حلاوة محبته وافاقنا بمزيد عنايته . كذا فى شرح المشارق فالاول صفة المحبين ، والآخر صفة من يخاف عقاب الله على ذنوبه من المؤمنين اوصفة الكافرين ، والمفهوم من ظاهر ماذكر فى المصابيح ان الآخر صفة الكفرة فقط حيث قال عليه السلام هذا الحديث ، فقالت عائشة : انا لنكره الموت قال عليه السلام « ليس ذلك ولكن المؤمن اذا حضره الموت

وَالْمُرَادُ بِالْمُحِبِّ الْعَارِفُ الْمُشْتَاقُ إِلَيْهِ فَالْمَوْتُ مَوْعِدُهُ وَبِالْكَارِهِ الرَّاغِبُ إِلَى الدُّنْيَا بِخِلَافِ الْخَائِفِ هُجُومَهُ قَبْلَ تَمَامِ التَّوْبَةِ وَإِصْلَاحِ الزَّادِ فَهُوَ إِنَّمَا يَكْرَهُ فَوْتَ اللِّقَاءِ

بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء احب اليه مما امامه فاحب لقاء الله واحب الله لقاءه ، وان الكافر اذا حضره الموت بشر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء اكره اليه مما امامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه » وفى القرآن يشير الى المقامين حيث قال تعالى: (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) الآيات. وقال عز وعلا (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) ﴿ والمراد بالمحب ﴾ اى لقاء الله فى الحديث انما هو ﴿ العارف ﴾ بذات الله وصفاته وبدائع مصنوعاته ﴿ المشتاق اليه ﴾ لزيادة ما لديه ﴿ فالموت موعده ﴾ اذ لا يتصور لقاؤه دونه ، كما فى حديث مسلم « انكم لن تروه حتى تموتوا » وهذا مجمل جوابه تعالى لموسى عليه السلام (لن ترانى) اى فى الدنيا بالعين الفانية وانما ترانى فى العقبى بالعين الباقية ، وهذا مجمل قوله عليه السلام « تحفة المؤمن الموت » ابن ابى الدنيا والطبرانى والحاكم من حديث عبد الله ابن عمر بسند حسن . وعلامة المحب العارف ان لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب بل يستبطىء مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل الى جوار رب العالمين ، لما روى عن حذيفة انه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا افلح من ندم ، اللهم ان كنت تعلم ان الفقر احب الىّ من الغنى ، والسقم احب الى من الصحة ، والموت احب الى من العيش ، فسهل على الموت حتى القاك . فاذا التائب معذور في كراهة الموت . وهذا مشكور فى حب الموت . واعلى منهما رتبة من فوض امره الى الله فصار لا يحب لنفسه موتا ولا حياة ، بل يكون احب الاشياء اليه حبه الى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى مقام التسليم والرضاء وهو غاية المنتهى ، وهو معنى قول المصنف فيما يأتى ﴿ وبالكاره ﴾ اى والمراد بالكاره لقاء الله ﴿ الراغب الى الدنيا ﴾ مالا وجاها ومنالا كما قدمنا ﴿ بخلاف الخائف هجومه ﴾ اى هجوم الموت ومأتاه بغتة ﴿ قبل تمام التوبة ﴾ وتدارك اوقات الغفلة فى الحوبة ﴿ واصلاح الزاد ﴾ ليوم المعاد ﴿ فهو انما يكره فوت اللقاء ﴾ اى لا نفس اللقاء ، وعلامة صدق هذا ان يكون دائم الاستعداد لا شغل له سوى اعداد الزاد للمعاد. قال

وَالأَعْلَى تَرْكُ الاخْتِيَارِ وَالتَّفْوِيضُ، وَيفرِّغَ القَلْبَ عَنْ غَيْرِ المَوْتِ وَيتفكَّرُ دَائِماً تَفَكُّرَ العَازِمِ عَلَى السَّفَرِ

القعقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة ، فلو اتانى ماأحببت تأخير شيء منه . وقال الثورى: رأيت شيخا فى مسجد الكوفة يقول : انا فى هذا المسجد منذ ثلاثين سنة انتظر الموت ، ان نزل بى او اتانى ماامرته بشيء ولانهيته عن شيء ، ولا لى على احد شيء ، ولا لى عند احد شيء ﴿والاعلى﴾ اى اعلى المراتب بالنسبة الى ماذكر من الموت وسائر المناقب ﴿ترك الاختيار﴾ اى فى امر الا فيما اراد الله منه ان يختاره ﴿ والتفويض ﴾ بالرفع اى وتفويض امره وتسليمه الى المدبر المختار بقوله تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار) وفى الاخبار عن سيد الاخيار وسند الابرار «لا يتمنين احدكم الموت فان فعل ذلك لامحالة فليقل اللهم احينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » وانما كره بعض الانبياء والاولياء الموت فان الدنيا مزرعة الآخرة وطول العمر فى العبادة من كمال السعادة ﴿ ويفرغ القلب ﴾ اى وان يفرغ قلبه ﴿عن غير الموت ﴾ اى استعداده قبل الفوت ﴿ ويتفكر دائما تفكر العازم على السفر ﴾ هائما من خوف البحر والبر . واوضح طريق فيه ان يذكر موت اخوانه واقرانه الذين مضوا قبله، ويتذكر مصرعهم تحت التراب، ويتفكر صورهم فى مناصبهم ومقام حضورهم، وكيف تبددت الآن اجزاؤهم فى قبورهم ، وكيف ارملوا نساءهم وايتموا بناتهم وابناءهم ، وضيعوا اموالهم ، ونقضوا احوالهم وخلت منهم مجالسهم واخبارهم ، ومساجدهم وآثارهم ، مع ماكان بهم من طول املهم للعيش والبقاء، ونسيانهم للموت والفناء ، وانخداعهم بمواساة الاسباب ، وزكونهم الى القوة والشباب ، وميلهم الى الغفلة عما يراد بهم من الموت الذريع والهلاك السريع، وانه كيف كان يتردد، والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وعقبانه ، وكيف كان ينطق وقد اكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد اكل التراب اسنانه ، وانه كيف كان يدبر لنفسه مالايحتاج اليه الى عشرين سنة ونحو ذلك من الاحوال والاهوال ، فعند ذلك ينظر الى نفسه انه مثلهم فى عاقبة امره . قال ابو الدرداء : اذا ذكرت الموتى فعد نفسك كاحدهم، وقال ابن مسعود: السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبدالعزيز: الاترون انكم تجهزون غاديا ورائحا

وَالْأَصْلُ فِيهِ الِانْتِبَاهُ وَهُوَ خِلَافُ الْغُرُورِ وَهُوَ سُكُونُ النَّفْسِ إِلَى مَا يُوَافِقُ الْهَوَى وَالشُّبْهَةَ فَوَرَدَ (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) وَأَنْوَاعُهُ كَثِيرَةٌ

الى الله عز وجل ، تضعونه وقد توسد التراب ، وخلف الاحباب ، وقطع الاسباب، وواجه الحساب،ونظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فاعجبه حسنها فبكى ، ثم قال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا. ﴿والأصل فيه﴾ اى فى ذكر الموت﴿الانتباه﴾ أى استيقاظ القلب من نوم الغفلة ٭(وهو)٭ اى الانتباه ﴿ خلاف الغرور﴾ اى ضده ، ولذا قيل : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا﴿وهو﴾أى الغرور﴿سكون النفس﴾ واطمئنانها ،وهى قوة فى الانسان مائلة الى الشر والفساد كما قال تعالى (ان النفس لامارة بالسوء الا مارحم ربى) فمن﴿الغرور ميلها الى ما يوافق الهوى والشبهة﴾ ويخالف الهدى والسنة بان تكون ارادتها موافقة الطبع من غير داعية الشرع. واما اذا اجتمع الهوى والهدى فهو نور على نور ، وسرور على سرور ، ولذا قال تعالى (ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) ﴿ فورد ﴾فى التنزيل﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ فانها غدارة مكارة،غرارة سحارة . فقيل :انها أسحر من هاروت وماروت﴿ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ اى الشيطان المغرور . وفى الترتيب: تنبيه نبيه على ان من احب الدنيا يضله الشيطان ومن تركها لم يقدر عليه بالطغيان ، بل قيل من اراد الدنيا لم يقدر على هدايته جميع الانبياء،ومن ترك الدنيا لم يقدر على اضلاله جميع الشياطين واهل الاغواء. وقال عز وعلا (وغرتكم الامانى حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور) وفى الحديث «حبذا نوم الاكياس ونطرهم كيف يعيبون سهر الحمقى واجتهادهم ، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين افضل من ملء الارض من المغترين » كذا فى الاحياء،وهو من قول ابى الدرداء بنحوه كما رواه ابن أبى الدنيا ؟ وللترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث شداد بن اوس « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها ويتمنى على الله » ﴿ وانواعه﴾اى انواع الغرور﴿ كثيرة ﴾ واكثرها كبيرة لان الغرور عبارة عن بعض انواع الجهل ، اذ الجهل هو ان يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به ، فالغرور هو الجهل الا ان كل جهل ليس بغرور، بل يستدعى الغرور مغرورا فيه مخصوصا ، ومغرورا به وهو الذى يغره ، فمن اعتقد انه على خير أمانى العاجل او فى الآجل عن شهوة فاسدة او شبهة كاسدة فهو مغرور . واكثر الناس يظنون

كَايثَارِ الدُّنْيَا لِكَوْنِهَا نَقْدًا حَاضِرَةً عَلَى الآخِرَةِ لِكَوْنِهَا نَسِيئَةً لأَنَّ النَّسِيئَةَ الكَثِيرَةَ رَاجِحَةٌ وَإِنْ شَكَّ فِيهِ وَالمَرِيضُ يَتْرُكُ اللَّذَّاتِ لِيَصِحَّ فِى المُسْتَقْبَلِ وَالتَّاجِرُ يُخَاطِرُ الأَمْوَالَ لِيَرْبَحَ فِيهِ فَالآخِرَةُ أَوْلَى لِلتَّيَقُّنِ بِهَا وَعَدَمِ نِسْبَةِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا شِدَّةً وَدَوَامًا

بانفسهم الخير الآن غرور بعضهم اظهر ، وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفجار ﴿ كايثار الدنيا ﴾ اى اختيارها فانه من اقبح انواع الغرور . ثم ان اختيارهم الدنيا واغترارهم بها ﴿ لكونها نقدا حاضرة على الآخرة لكونها نسيئة ﴾ اى متأخرة غائبة وذلك جهل وغرور ﴿ لان نسيئة الكثيرة راجحة ﴾ على النقد القليل ﴿ وان شك فيه ﴾ اى فى حصول النسيئة الكثيرة وانما يرجح مع وجود الشك فيه ﴿ والمريض يترك اللذات ﴾ التى هى نقد الحالات ﴿ ليصح ﴾ زمانا طويلا ﴿ فى المستقبل ﴾ من الاوقات ﴿ والتاجر يخاطر الاموال ﴾ اى يوقعها فى الخطر من الاهوال كركوبه فى البحر وسفره فى البر وتحمله شدائد الاحوال ﴿ ليربح فيه ﴾ اى فى زمان الاستقبال ﴿ فالآخرة اولى ﴾ بالاختيار من الدنيا ﴿ للتيقن بها ﴾ اى بالآخرة ﴿ وعدم نسبة الدنيا اليها ﴾ اى الى العقبى ﴿ شدة ودواما ﴾ اى كمية وكيفية ونظاما كما قال تعالى (والآخرة خير وابقى) بل قيل لو كانت الدنيا ذهبا فانيا والآخرة خزفا باقيا لكان العاقل اختار الآخرة ، فكيف والامر بالعكس . ولكن غرته الحيوة الدنيا فان اليقين خير من الشك ، ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك ، فلا يترك اليقين بالشك . وهذا ونحوه اقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس حيث قال (انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) والى هؤلاء الاشارة بقوله تعالى (اولئك الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون) وعلاج هذا الغرور اما بتصديق الايمان وأما بتحقيق البرهان ، اما الاول فهو ان يصدق الله فى قوله (ماعندكم ينفد وماعند الله باق) وقوله (وماعند الله خير وابقى) وقوله (والآخرة خير وابقى) وقوله (وما الحيوة الدنيا الامتاع الغرور) واما الثانى فيعلم مما تقدم . والله اعلم . وفى هذا المقام قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : ان كنت ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا ، وان كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت . وما قال على هذا عن شك منه فى الآخرة ، ولكن كلم الملحد على قدر عقله . فمن شك فى الآخرة يجب عليه بحكم الحزم ان يقول الصبر اياما قلائل - وهي منتهي العمر - قريب بالاضافة الي ما يقال من امر الآخرة ، فان كان ما قيل

فيه كذبا فمايفوتنى الاالتنعم ايام حياتى، وقد كنت فى العدم من الازل الى الآن لااتنعم فاحسب انى بقيت فى العدم ، وان كان ماقيل صدقا فابقى فى النار ابد الآباد ، وهذا لايطاق فيه العباد ولذا قال ابو العلاء المعرى :

قال المنجم والطبيب كلاهما لايحشر الاموات قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر او صح قولى فالخسار عليكما

ومن جملة غرور الكفار قول بعضهم فى انفسهم وبالسنتهم : ان كان لله من معاد فنحن به احق من غيرنا ، ونحن اوفر حظا منه واسعد حالا كما اخبر الله عنه من حال الرجلين المتحاورين اذ قال (وماأظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا) وجملة امرهما كما قيل فى التفسير : ان الكافر منهما بنى قصرا بالف دينار ، واشترى بستانا بالف دينار ، وخدما بالف دينار ، وزوجة بالف دينار . وفى ذلك كله يعظه المؤمن ويقول اشتريت قصرا وبستانا يخرب ويفنى، ألا اشتريت قصرا وبستانا فى الجنة لايفنى ، واشتريت خدما بالف دينار وزوجة بالف دينار الا اشتريت خدما لايموتون وازواجا من الحور العين لايفنون ، وفى كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول: ماهناك شيء وماقيل من ذلك فهو اكاذيب ، وان كان ليكونن لى فى الاخرة خير من هذا ، وكذا وصف الله قول العاص بن وائل اذ يقول (لاوتين مالا وولدا) ورد عليه بقوله (أطلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهدا) وروى « عن الخباب بن الارت انه قال كان لى على العاص بن وائل دين فجئت اتقاضاه فلم يقضنى ، فقلت انى آخذه فى الآخرة ،وقال اذا صرت الى الآخرة فان لى هناك ولدا ومالا فاقضيك منه،فانزل الله تعالى (افرأيت الذى كفر باياتنا وقال لاوتين مالا وولدا) رواه الشيخان. وقال عز وجل (ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وماأظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى) الاية ، وذلك انهم ينظرون تارة الى نعم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعم الاخرة ، وتارة الى تأخر العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الاخرة ويقولون كما اخبر الله عن بعضهم (لولا يعذبنا الله بما نقول) الآية،واخرى ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر فيزدرونهم ويستحقرونهم ويقولون (اهؤلاء من الله عليهم من بيننا) ويقولون (لوكان خيرا ماسبقونا اليه) ولم يعرف هذا المغرور «ان الله يحمى عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما يحمى احدكم مريضه الطعام والشراب وهو يحبه » كما رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان . وكان ارباب البصائر اذا اقبلت عليهم الدنيا حزنوا

وَالاعْتِمَادعَلَى مُجَرَّد الايمَانِ فَوَرَدَ (وَانِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) (وَالعَصْرِ إنَّ الانْسَانَ لَفِى خُسْرٍ)السُّورَةَ،وَعَلَى أَنَّه تَعَالَى كَرِيمٌ

وقالوا ذنب عجلت عقوبته،واذا اقبل الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين.فالمغرورون اذا اقبلت عليهم الدنيا ظنوا انها كرامة عند الله واذا صرفت عنهم ظنوا انها هوان كما اخبر الله تعالى عنهم بقوله (فاما الانسان اذا ماابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربى اكرمن ، واما اذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهانن كلا)بين ان ذلك غرور من كل منهما ، فقد قال الحسن كذبهما جميعا بقوله كلا ، يقول ليس هذا بكر امتى ولاهذا بهوانى ولكن الكريم من اكرمته بطاعتى غنياكان أوفقيرا،والمهان من اهنته بمعصيتى غنيا كان اوفقيرا ﴿ والاعتماد ﴾ بالجر ، اى وكالاعتماد ﴿ على مجرد الايمان ﴾مع ترك العبادات وارتكاب المحظورات فانه من اعظم الغرور فى الحالات ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل﴿ وانى لغفار لمن تاب ﴾عن الشرك والكفران﴿ وآمن ﴾ بالقلب واللسان ﴿ وعمل صالحا ﴾لسائر الاعضاء والاركان من ارتكاب الحسنات واجتناب السيئات﴿ ثم اهتدى ﴾ بالاستقامة فى الحالات الى الممات،فالمغفرة مقيدة بهذه الطاعات. وكقوله تعالى (ان رحمت الله قريب من المحسنين)في العبادات . وقيل للحسن قوم يقولون: نحن نرجو الله ويضيعون العمل فقال : هيهات هيهات ، تلك امانيهم ، من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف شيئا هربه ﴿ والعصر ﴾ اى اقسم بصلاة العصر التى هى الصلاة الوسطى ، اوبعصر المصطفى ، أو بالدهر الذى هومنبع الخير والشر ،ومعدن النفع والضر ﴿ ان الانسان ﴾ اى جميع افراده﴿ لفى خسر ﴾ اى خسارة فيما عندهم من تجارة ﴿ السورة ﴾ اى (الاالذين آمنوا) كالصديق (وعملوا الصالحات) كالفاروق (وتواصوا بالحق) لذى النورين (وتواصوا بالصبر) كالمرتضى ﴿ وعلى ﴾ اى. وكالاعتماد على ﴿ انه تعالى كريم ﴾ مع ترك الطاعات وارتكاب المنهيات وطلب الدنيا والشهوات ، فيغفرلى فى الآخرة بكرمه وفضله ويدخلنى فى الجنان .ومنشأهذا قوله تعالى (ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم) حيث لقنه بان يقول غرنى ربى كرمك. وقد قيل انه تعالى كما انه كريم رحيم متفضل بالثواب شديد العقاب ، فقد قال تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى،ويقولون سيغفرلنا)،وقدقال تعالى(وقالوا لن يدخل الجنة الإمن كان هودا اونصاري تلك امانيهم)

فَوَرَدَ (وَأَنْ لَيْسَ لِلْاِنْسَانِ اِلَّا مَاسَعَى)وَفِيهِ الْعَكْسُ بِتَرْكِ التَّعْوِيلِ فِى الدُّنْيَا مَعَ وُرُودِ. (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) وَالعِلَاجُ العِلْمُ وَالتَّفَكُّرُ *

﴿ فورد ﴾فى التنزيل مايدل على ذم الغرور بارتكاب المحظور ﴿وان ليس للانسان ﴾ نفع فى العقبى ﴿ الاماسعى ﴾ من خير فى الدنيا (وان سعيه سوف يرى) قليلا او كثيرا (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)﴿ وفيه العكس ﴾ أى وفى هذا الاعتماد عكس ماينبغى فى الاعتقاد ﴿ بترك التعويل ﴾ اى الاعتماد على المولى ﴿ فى الدنيا ﴾ اى فى امورها ومهماتها ﴿ مع ورود ومن ﴾وفى نسخة وورد من ﴿ يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وحاصله ان المغرور لم يعتمد على كرمه سبحانه فى امر الدنيا مع ورود وعدها فى باب التوكل من غير قيد مباشرة بسبب من اسباب السعى ، ويعتمد فى باب الآخرة على كرمه مع ان وعدها مقيد بالسعى والعمل ، وتوضيحه انه يجتهد فى امور الدنيا ويعتمد فى امور الآخرة على كرم المولى مع انه كريم فى الدنيا والاخرة ، فماله لم يعتمد على المولى فى الدنيا من غير السعى مع انه سبحانه ما كلفه بكسبه ويترك العمل فى الاخرة مع انه عزوجل كلفه به ولم يرض عنه بتركه؟ ﴿ والعلاج ﴾ أى علاج الغرور ﴿ العلم ﴾ بالكتاب والسنة ومايقربه من الله ومايبعده عنه . وتوضيحه مافى الاحياء من ان الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والاهانة اما بالبصيرة واما بالتقليد ، اما البصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات الى شهوات الدنيا مبعد عن الله ، ووجه كون التباعد عنها مقربا الى الله يدرك بالالهام فى منازل العارفين و الاولياء، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلوم المعاملة. واما معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو ان يؤمن بكتاب الله ويصدق رسوله ، وقد قال تعالى (أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون) وقال(سنستدرجهم من حيث لايعلمون) قيل فى تفسيره : انهم كلما احدثوا ذنبا احدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم. وقال تعالى(فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون) وقال تعالى (انما نملى لهم ليزدادوا اثما) وقال (ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون * انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) الى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والاخبار ﴿ والتفكر ﴾فى احوال الماضين من الامة ، والمراد بالتفكر احضار القلب العارف ،فاذا اجتمعت فيه وازدوجت على ترتيب مخصوص انتج ذلك العلم

﴿ الْبَابُ الْخَامِسَ عَشَرَ فِى نَفْىِ الْخَوَاطِرِ وَالرِّيَاضَةِ ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ¤ الأَهَمُّ إِصْلَاحُ الْقَلْبِ لِنَظَرِهِ تَعَالَى إِلَيْهِ فَوَرَدَ «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ» وَتَعَلَّقَ صَلَاحُ الْجَسَدِ بِصَلَاحِهِ فَوَرَدَ «إِنَّ فِى الْجَسَدِ لَمُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِىَ الْقَلْبُ» وَسَعَادَةَ الْأَبَدِ بِسَلَامَتِهِ

ضروريا . وصورته كمن يعلم مثلا ان الاتقى بالايثار اولى ، ثم يعلم ان الآخرة خير وابقى ، فينتج ان اختيار الآخرة اولى . بلغنا الله المقام الاسنى ¤

﴿ الباب الخامس عشر فى نفى الخواطر والرياضة ﴾

اى نفى الخواطر الدنية وتحصيل رياضة النفس الردية لتهذب بالاخلاق البهية العلية والاحوال السنية السنية ، وتندرج فيه عجائب القلب من غرائب خلق الرب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ استعين به على كل خلق كريم ﴿ الاهم ﴾ فى امر الدين الاتم ﴿ اصلاح القلب ﴾ وحفظه عما يفسده لثمانية عشر وجها ﴿ لنظره تعالى اليه ﴾ واقباله عليه ، لما انه يصلح بدنه وثوبه ليحسن نظر الخلق اليه ﴿ فورد ﴾ فى الحديث كما تقدم ﴿ ان الله لا ينظر ﴾ اى نظر عناية ورعاية ﴿ الى صوركم واموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم ونياتكم ﴾ وفى رواية واعمالكم ، وفى اخرى واحوالكم ، ويشير اليه قوله تعالى (انه عليم بذات الصدور) فاذا كان القلب موضع نظر الرب كما يشير اليه حديث « لا يسعنى ارضى ولا سمائى ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن » فواعجبا ممن يهتم بتنظيف وجهه الذى هو منظر الخلق ولا يهتم بتطهير قلبه الذى هو منظر ربه ﴿ وتعلق صلاح الجسد بصلاحه ﴾ اى لتوقفه ظاهرا على تحققه باطنا ، وكذا تعلق فساد الجسد بفساده ﴿ فورد ﴾ فى الحديث كما تقدم ﴿ ان فى الجسد لمضغة ﴾ اى قطعة لحم مجرفة كأنها ممضوغة ﴿ اذا صلحت ﴾ بضم اللام وتفتح ﴿ صلح الجسد كله ﴾ تمامه « واذا فسدت فسد الجسد كله » ﴿ الا ﴾ للتنبيه ﴿ وهى ﴾ اى تلك المضغة ﴿ القلب ﴾ اى محل تعلقه وسرير ملكه ، فان القلب ملك مطاع ورئيس متبع والاعضاء كلها له تبع ؛ فاذا صلح المتبوع صلح التبع ، واذا استقام الملك استقامت الرعية ، ولذا قيل : الناس على دين ملوكهم ؛ ﴿ وسعادة الابد ﴾ اى وسيادة السرمد ﴿ بسلامته ﴾ اى بسلامة

فورد. (يَوْمَ لاَيَنفَعُ مَالٌ وَلاَبنونَ إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) . وَكَوْنه مَعْدن النَّفائس مِنَ العِلْمِ وَالْمَعرفة وَسَائِرِ الفَضَائِلِ وَقَصْدالعَدُوِّ إليه كَما وَرَدَ بِهِ الخَبَرُ

القلب من نحو الكفر والغل والحقد والحسد ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ يوم لاينفع مال ولابنون الا من اتى الله بقلب سليم ﴾ اى من كل خلق سقيم كالشرك والنفاق والشقاق والاغراض الدنيوية والاعواض الدنية . وقيل هو مالايخطر فيه الاشهود الرب ﴿ وكونه ﴾ اى ولكون القلب ﴿ معدن النفائس ﴾ ومنبع الفواضل المستوهبة ﴿ من العلم والمعرفة ﴾ اى علم الكتاب والسنة ومعرفة الرب التى هى اجل انواع النعمة ﴿ وسائر الفضائل ﴾ المكتسبة من تحسين الاخلاق وتزيين الشمائل *

والحاصل ان القلب خزينة نعم الرب فحق له أن يحفظ ويحرس عن الآفات ، ويكرم ويبجل بضروب الكرامات . ثم اعلم ان شرف الانسان وفضله الذى فضله الله على سائر خلقه باستعداده من بين عباده لمعرفة ربه التى هى فى الدنيا جماله وفخره وفى الآخرة كماله وعدته وذخره ، وانما استعد للمعرفة بقلبه وجنانه لابعضو آخر من اركانه ، فالقلب هو العالم بالله ، وهو العامل لله ، وهو الساعى المتقرب الى الله ، وهو المقرب اليه والمشهود عليه والمكاشف بما عندالله ولديه ، وانما الجوارح اتباع وخدم وآلات كالجرائح يستخدمها القلب فى خدمة الرب استعمال الملك للعبيد ، واستخدام الراعى للرعية ، والصانع للآلة . والقلب هو المقبول عندالله اذا سلم من غيرالله ، وهو المحجوب عن الله اذا صار مستغرقا بغيرالله ، وهو المطالب ، وهو المخاطب ، وهو المعاتب ، وهو المعاقب وهو الذى يسعد بالقرب من الله تعالى فيفلح اذا زكاه ، وهو الذى يخيب ويشقى اذا دنسه ودساه ، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى ، وانما السارى الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره ، وهو العاصى المتمرد على الله سبحانه ، وانما الطارى على الاعضاء من الفواحش آثاره ، وباظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه ، اذ كل اناء يرشح بما فيه وهو الذى اذا عرفه الانسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وهو الذى اذا جهله الانسان فقد جهل نفسه ، واذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو لغيره اجهل . فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه التى هى مظاهر الرب أصل الدين وأساس طرق المجتهدين ﴿ وقصد العدو اليه ﴾ أى ولقصد الشيطان الذى هو اكبر أعدائه دائما الى اغوائه ﴿ كما ورد به ﴾ أى بقصد العدو الى القلب ﴿ الخبر ﴾ وهو

وَكَثْرَةُ شُغْلِهِ فَهُوَ مُعْتَرَكُ الْعَقْلِ وَالْهَوَى وَكَثْرَةُ الْعَوَارِضِ لِوُرُودِ الْخَوَاطِرِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْمَنْعِ، وَسُرْعَةِ الانْقِلَابِ

قوله عليه السلام « ان الشيطان لجاثم » وفى رواية « واضع خطمه على قلب ابن آدم فاذا ذكر الله تعالى خنس اى تأخر وعلاه واذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه » ابن أبى الدنيا وأبو يعلى وابن عدى ﴿ وكثرة شغله ﴾ أى ولكثرة اشتغال القلب واحواله وترتب ماعليها من أقوال الانسان وأفعاله ﴿ فهو ﴾ أى القلب ﴿ معترك العقل والهوى ﴾ اى موضع عراكهما وقتالهما وهلاكهما . فاذا برز خاطر الهوى داعيا الى الشر قابله خاطر العقل ودافعه داعيا إلى الخير فتارة يغلب العقل ويعلو علم الهدى ، وأخرى يغلب الجهل فترتفع راية النفس والهوى فالحرب سجال . وقد قال الملك المتعال (وتلك الايام نداولها بين الناس) وقد قيل :

فيوم علينا ويوم لنا ٭ ويوم نساء ويوم نسر

وفى الحديث « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » ومنه قوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) ﴿ وكثرة العوارض ﴾ أى ولكثرة الامور الطارئة والاحوال السارية ﴿ لورود الخواطر ﴾ الدنية فى القلوب الفواتر الردية من حب الدنيا والرياسات . وحصول اللذات والشهوات واللهوات ﴿ مع العجز عن المنع ﴾ أى مع عجز السالك عن دفع وقوع ماهنالك ، فان الخواطر كالسهام لاتزال تقع فى القلب وكالمطر لاتزال تنزل عليه ليلا ونهارا لاتنقطع ولاانت تقدر على منعها فتمتنع ، وليس بمنزلة العين التى هى بين الجفنين حتى تغمض وتستريح ، اواللسان الذى هو وراء الشفتين حتى تطبق وتصمت ٭

والحاصل ان الخواطر لايقدر احد على منعها ولاعلى التحفظ عنها مع ان النفس مائلة اليها وهى محبوبة لديها ﴿ وسرعة الانقلاب ﴾ اى ولسرعة تقلب القلب فى الطاعة والمعصية للرب ، وسمى بالقلب لتقلبه فى احواله ؛ ولذا كان عليه السلام يكثر فى دعائه «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» رواه الترمذى وحسنه من حديث انس والحاكم من حديث جابر وقال صحيح على شرط مسلم . ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » وفى رواية «قالوا وتخاف يارسول الله؟ قال وما يؤ مننى والقلب بين اصبعين من اصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء» وللنسائى

فَوَرَدَ أَنَّهُ «مِثْلُ الْعُصْفُورِ يَنْقَلِبُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ» وَفِيهِ الْانْشِرَاحُ وَالْانْفِسَاحُ عِنْدَ عَدَمِ النُّقْصَانِ وَالْحِجَابِ

فى الكبرى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث النواس بن سمعان « ما من قلب الا بين اصبعين من اصابع الرحمن ان شاء أقامه وان شاء أزاغه » ﴿ فورد ﴾ من حديث أبى عبيدة بن الجراح كما رواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقى فى الشعب ﴿ انه ﴾ اى القلب ﴿ مثل العصفور ﴾ وهو الطير الصغير المشهور بالتقلب الكثير ﴿ ينقلب فى كل ساعة ﴾ اى الى جهة ، فكذا القلب تارة يميل الى طاعة ويقظة ، وآخرى الى معصية وغفلة . ولاحمد والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث المقداد بن الاسود « مثل القلب فى تقلبه كالقدر اذا استجمعت غليانا » وفى رواية لهما « قلب المؤمن اشد تقلبا من القدر فى غليانها » وللطبرانى والبيهقى من حديث أبى موسى الاشعرى باسناد حسن « مثل القلب كمثل ريشة بارض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن » ﴿ وفيه ﴾ عطف بالمعنى على قوله لنظره لانه فى قوة قولنا ولما فيه اى فى القلب ، ومحله من الصدر ﴿ الانشراح ﴾ أى الانبساط والنشاط الموجب للصلاح والفلاح ﴿ والانفساح ﴾ اى الاتساع والانفتاح ﴿ عند عدم النقصان ﴾ اى نقصان القلب بارتكاب المخالفة ، بل يكونان عند كماله فى اكتساب الموافقة . فللحاكم فى مستدركه من حديث ابن مسعود انه عليه السلام سئل عن قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) ما هذا الشرح فقال : هو التوسعة . ان النور اذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح » والمعنى اتسع القلب لتجلى الرب وحفظ السر الذى شاهده فى القلب ، ولذا قيل : صدور الاحرار قبور الاسرار . ونعم ما قال بعض الابرار ه

من اطلعوه على سر فنم به   لم يأمنوه على الاسرار ما عاشا

﴿ والحجاب ﴾ عن رب الارباب ، وهو أشد العذاب أو الحجاب عن الاكتساب ، فهو بالجر عطف على النقصان ، أى عند عدم حجاب الملاهى ونقاب المناهى . ويجوز رفعه على الانفساح أى وفى القلب حجاب المعاصى والشهوات المتراكمة الواردة على وجه القلب المانعة له عن مشاهدة تجليات الرب ، فان ذلك يمنع من صفاء القلب وجلائه فيمنع ظهور الحق بقدر ظلامه فى اثنائه ، وقد قال أبو سليمان الدارانى : اذا اعتادت النفوس ترك

وَالْمُهْلِكَاتِ وَالانْصِرَافِ الَى العِلْمِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْأَمَانَةِ التى حَمَلَهَا الانْسَانُ

الآثام جالت في الملكوت ورجعت الى صاحبها بطريق الحكمة ، ويؤيده حديث «لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء» رواه أحمد من حديث أبى هريرة ﴿ والمهلكات ﴾ التى هى ضد المنجيات ﴿والانصراف﴾ أى عند الانصاف والاعتراف ﴿الى العلم﴾ أى علم الشريعة والطريقة ليعمل به ليصل الى مراتب الحقيقة ، أو المراد بالعلم هو التوحيد المقرون بوصف التفريد من معرفة ذات الحق وصفاته وقدرته فى مصنوعاته والتوجه اليه وترك كل مايشغل لديه مما يرد عليه . وانما زاد الانصراف الى العلم التوحيدى لحصول الانشراح والانفساح ، ولم يكتف فى ذلك بعدم النقصان والحجاب والمهلكات لان المطيع القاهر لشهواته الماهر فى استقامة حالاته من طاعاته وعباداته وان كان قلبه صافيا عن لهواته وغفلاته فانه لايحصل له الانشراح والانفساح ، بل ينكشف له ماهو متفكر فيه من دقائق آفات الاعمال ان كان تفكره فيها أو من مصالح المعيشة والاحوال ان كان تفكره فيها . وأما الانشراح والانفساح فلا يحصل الا إذا انصرف القلب إلى العلم التوحيدى المتعلق بالذات والصفات بشرط عدم النقصان والحجاب والمهلكات ﴿ وهو ﴾ أى العلم المترتب عليه العمل ﴿المراد بالامانة التى حملها الانسان ﴾ أى قبلها بقابليته لتحمل التكاليف الشرعية . من تصحيح العقائد الدينية الاصلية . وارتكاب الفرائض الفرعية . واجتناب الامور المنهية . وفى الأحياء : فيه اشارة الى ان للقلب خاصة تميز بها عن السموات والارضين والجبال . وتلك الأمانة هى المعرفة والتوحيد : وقلب كل آدمى مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها فى الأصل انتهى . ولا يخفى ان جميع الاجزاء من الارض والسماء له قابلية ذلك بل الواقع كذلك عند العارفين بما هنالك كما حقق فى قوله سبحانه : (وان من شىء الا يسبح بحمده) وغير ذلك من الآيات والأحاديث الثابتات إن الأشياء كلها لها معرفة بصانعها . وكذا أهل السموات والارض والجبال من النساء والرجال . فالأظهر أن يقال ان الملائكة مظاهر الجمال فلا تتأتى منهم المعصية ومايقتضيه من العقوبة . والشياطين مظاهر الجلال فلا يتصور منهم الطاعة وما يترتب عليها من الرحمة ، فاراد الله سبحانه جمعا يكون لهم مرتبة الكمال بان يكون فيهم نصيب وحظ من الجمال والجلال وتقع فيهم قابلية للطاعة والرحمة والمعصية والعقوبة ، ولذا ورد « لولم تذنبوا لجاء الله

وَزِيَادَةُ الْيَقِينِ وَالايمَانُ

بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفرلهم » وفى قوله تعالى (نبىء عبادى انى انا الغفور الرحيم وان عذابى هو العذاب الاليم) ايماء الى ذلك وفى قوله (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول) كذلك . ثم من أفراد هذا الانسان من يكون على الشان مع أنه خلق فيه داعية العصيان جاهد نفسه واطاع ربه وقام بحق الامانة فى ميدان التبيان ، ومنهم من ترك الطاعة وضيع الامانة بالخيانة من غاية الطغيان ، فصار المؤمن الكامل من الانسان اعلى مرتبة من ملائكة الرحمن ، والكافر منهم اخفض منزلة من جنس الشيطان كما يشير اليه قوله تعالى (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) فنعوذ بالله من دار البوار . وبما قررنا فيما حررنا انكشف وجه قوله سبحانه (انا عرضنا الامانة) اى حملها من غير الخيانة (على السموات والارض والجبال) أى ذواتها أو ما فيها من سكانها ومتصرفاتها (فابين ان يحملنها واشفقن منها) لعدم استعدادهن لها ولكونهن ما خلقن لاجلها (وحملها الانسان) مع كونه ضعيف البنيان فكل ميسر لما خلق له (انه كان ظلوما) على نفسه بتحمله (جهولا) لعاقبة امره وتحمله. وهذا حكم عليه باعتبار اغلب افراده ممن لم يميز بين صلاح حاله وفساده فى مآله كما اشار اليه بقوله (ليعذب الله المنافقين) الآية﴿ وزيادة اليقين ﴾ اى وفى القلب مزية الايقان فى امر الدين ﴿ والايمان ﴾ اى وفيه الايمان الذى سبب الامن والامان ، وباعث على الاسلام والاحسان فلهما درجات فيها مناقب ادناها التقليد كما لعوام المؤمنين وأوسطها الخروج عن التقليد بنوع من استدلال التوحيد كما للمتكلمين ، واعلاها ، المشاهدة والمكاشفة كما للعارفين ، ومثاله كمن اخبر صادق بوجود زيد فى الدار فصدقه من غير شهوده ، ثم سمع صوته فاستدل به على وجوده ، ثم رآه وشاهده ؛ فالمشاهدة نتيجة المجاهدة . ثم المشاهدة ايضا على مراتب ، كمن يشاهد السلطان جالسا على سريره من وراء الحائط اوحجاب ستره ، ثم من يشاهده من داخل داره . ثم من قريب فى مزاره ، ثم من هو جالس فى مجلسه ، ثم من هو جالس قريبا منه بحيث يلاحظ صفحة وجهه وجميع ما خفى عن غيره ، وقس على هذا تفاوت درجات المشاهدة فى الامور الالهية السبحانية والعلوم التوحيدية الربانية الصمدانية ، كما يشير اليه قوله تعالى: (ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) ثم اكثر العوام ايمانهم تقليد تبع لآبائهم

وَدَرَجَاتُ العِلْمِ وَالنُّورُ المَسْؤُولُ فِي الدُّعَاءِ المَأْثُورِ وَالطَّبْعُ وَالرَّيْنُ عِنْدَ الاتِّصَافِ بِالرَّذَائِلِ وَتَرَاكُمُ الظَّلَامِ وَالاحْتِجَابِ مِنْهُ تَعَالَى وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ هُوَ ذَلِكَ الانْسَانُ العَارِفُ العَالِمُ المُخَاطَبُ المُطَالَبُ

فانهم اذا بلغوا سن التمييز سمعوا وجود الله وعلمه وارادته وقدرته وبعثة الرسول وصدقه فيما جاء به ، وكما سمعوه قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا اليه، وهذا الايمان سبب النجاة فى الآخرة عند جمهور المتكلمين، واهله من اوائل رتب اصحاب اليمين، وليسوا من المقربين لانه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر نور اليقين . وقلوب اليهود والنصارى ايضا مطمئنة بما سمعوا من آبائهم الا انهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لانه القى اليهم الخطأ، والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن لما القى اليهم كلمة الحق ﴿ ودرجات العلم ﴾ اى وفيه مراتب العلم من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، أو المراد بها علم الشريعة التى هى متعلقة بالاعمال الظواهر ، وعلم الطريقة التى هى مطلوبة فى الاخلاق السرائر ، وعلم الحقيقة التى هى المواهب بعد تحصيل المكاسب من شرائف المناقب ولطائف المراتب ﴿ والنور ﴾ اى وفيه النور ﴿ المسؤل فى الدعاء المأثور ﴾ «اللهم اجعل فى قلبى نورا» رواه مسلم وغيره ﴿ والطبع ﴾ اى وفيه الختم قال تعالى (ونطبع على قلوبهم) و (ختم الله على قلوبهم) ﴿ والرين ﴾ اى وفيه السواد الذى يعلو الفؤاد ﴿ عند الاتصاف بالرذائل ﴾ والخلو عن الفضائل ﴿ وتراكم الظلام ﴾ أى وتكاثف الظلمات الناشى عن الظلم وسائر السيئات ﴿ والاحتجاب منه تعالى ﴾ بعدم توفيق الحسنات وهو مأخوذ من قوله تعالى (كلا بل ران) أى غلب وعلا (على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) أى عن رحمته أو رؤيته، وفى الحديث «ان المؤمن اذا اذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها واذا زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران الذى ذكر الله فى كتابه (كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون) أخرجه البغوى فى تفسيره باسناده ﴿ والتحقيق ﴾ عند أهل التوفيق ﴿ انه ﴾ أى القلب ﴿ هو ذلك الانسان العارف ﴾ أى المدرك للجزئيات ﴿ العالم ﴾ بالكليات ﴿ المخاطب ﴾ بالأمر والنهى ﴿ المطالب ﴾ باكتساب المأمورات واجتناب المنهيات ليترتب عليهما الثواب والعقاب فى دار الجزاء والحساب (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم

يُطلَقُ عليهِ اسمُ القَلْبِ لتعلّقه به بلَا وَاسطَةٍ وَبسَائِرِ الحَوَاسِّ بِوَاسِطَتِه كما يُطلَقُ عَلَى المُضْغَةِ المُكَيَّفَة

خالدون) ﴿يطلق عليه﴾ أى على الانسان ﴿اسم القلب﴾ أى مجازا ﴿لتعلقه﴾ أى الانسان ﴿به﴾ أى بالقلب ﴿بلا واسطة﴾ أى من غير واسطة شىء آخر ﴿وبسائر الحواس﴾ أى ولتعلقه بباقيها ﴿بواسطته﴾ أى القلب ﴿كما يطلق﴾ أى القلب ﴿على المضغة المكيفة﴾ وهى قطعة لحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص فى باطنه تجويف ؛ وفى ذلك التجويف دم أسود وهو منبع الروح ومعدنه كذا فى الاحياء تبعا للحكماء، وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت الهائم، وأما قول سهل التسترى : القلب هو العرش، والصدر هو الكرسى فمراده تشبيه القلب بالعرش والصدر بالكرسى، وعن كعب الأحبار قال دخلت على عائشة فقلت : الانسان عيناه هاد ، وأذناه قمع أى واع ، ولسانه ترجمان ، ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك فاذا طاب الملك طاب جنوده، فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول . وقال على رضى الله عنه فى تمثيل القلوب : ان لله تعالى فى أرضه آنية وهى القلوب فأحبها اليه أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسره فقال : أصلبها فى الدين وأصفاها فى اليقين وأرقها على الاخوان يعنى المرافقين ، وهو اشارة الى قوله تعالى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقوله تعالى (مثل نوره كمشكوة فيها مصباح) قال أبى بن كعب مثل نور المؤمن وقلبه، وقوله (أو كظلمات فى بحر لجى) مثل قلب المنافق الفاسق، وقال زيد بن أسلم فى قوله تعالى : (فى لوح محفوظ) هو قلب المؤمن وفى الحديث «اذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه» الديلمى من حديث أم سلمة باسناد جيد، ولاحمد والطبرانى فى الصغير من حديث ابى سعيد « القلوب اربعة : قلب اجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب منكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب اغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد ، فاى المادتين غلبت عليه حكم له بها» وفى رواية ذهبت به. وفى الحديث القدسى والكلام الانسى « لم يسعنى ارضى وسمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع » كذا فى الاحياء . وقال مخرجه لم اره اصلا ، وتعقبه بعض الحفاظ بانه رواه عبد الله بن

احمد فى الزهد عن وهب بن منبه بلفظ « ان الله فتح السموات لحز قيل حتى نظر الى العرش فقال حز قيل : سبحانك ما اعظم شأنك يارب . فقال الله : ان السموات والارض ضعفن عن ان يسعني ووسعنى قلب عبدى المؤمن الوادع اللين » انتهى ولا يخفى ان هذا من الآثار فلا ينافى ما نفاه المخرج من الاخبار . وفى الخبر « قيل من خير الناس فقال كل مؤمن محموم القلب ، فقيل وما محموم القلب ؟ فقال هو التقى النقى الذى لا غش فيه ولا بغى ولا غدر ولا حسد ، رواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو باسناد صحيح وفى الاحياء عن عمر رضى الله عنه : رأى قلبى ربى اذا كان قد رفع الحجاب بالتقوى ومن ارتفع الحجاب بينه وبين قلبه تجلى صورة الملك والملكوت فى قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والارض اما جملتها فاكبر سعة من السموات والارض ، لان السموات والارض عبارة عن عالم الملك والشهادة ، وهو وان كان واسع الاطراف متباعد الاكناف فهو متناه على الجملة ، واما عالم الملكوت وهو الاسرار الغائبة عن مشاهدة الابصار المخصوص بادراك البصائر فلا نهاية له ، نعم الذى يلوح للقلب فيه مقدار متناه ولكنه فى نفسه وبالاضافة الى علم الله تعالى لا نهاية له . وجملة عالم الملك والملكوت اذا اخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات اذ ليس فى الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته وعبيده من افعاله فما يتجلى من ذلك للقلب هو الجنة بعينها عند قوم ، وهو سبب استحقاق الجنة عند اهل الحق ، ويكون سعة ملكه فى الجنة بحسب سعة معرفته ، وبمقدار ما يتجلى له من الله تعالى وصفاته وافعاله من مصنوعاته ؛ وانما مراد الطاعات واعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه وقد افلح من زكاه ، ومراده بتزكيته حصول نور الايمان فيه اعنى اشراق نور المعرفة ، وفى الاحياء ان القلب لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق عجيب وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان ، وهى المدركة العالمة العارفة من الانسان ، وهو المخاطب والمطالب والمعاتب والمعاقب ، ولها علاقة مع القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول اكثر الخلق فى ادراك وجه علاقته . وان تعلقها به يضاهى تعلق الاعراض بالاجسام والاوصاف بالموصوفات انتهى * ومن هنا قيل معنى قوله : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، تعجيز . وفيه تنبيه على ان ليس لاحد من الانسان ان يعرف حقيقة نفسه مع انه بها باذال انسه هذا وفى اطلاق القلب على الانسان لم يظهر وجه فى ميدان التبيان ، بل المغايرة بينهما ظاهرة عند الاعيان لقوله تعالى : (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) الآية ، فالصحيح ان القلب آلة لمعرفة الرب كما يشير

وَاسْمُ النَّفْسِ فَقَسَّمَهَا التَّنْزِيلُ الَى مُطْمَئِنَّةٍ

اليه قوله تعالى (افلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها) والفرق بين القلب والنفس والعقل ان القلب يفرق بين الحق والباطل ثم يتقلب فى قبول احدهما ويتردد فى خاطرهما ، ويترتب عليهما صلاح الجسد وفساده ، والنفس غالبا مائلة الى الشهوات واللذات كما يشير اليه قوله سبحانه (وفيها ماتشتهيه الانفس) من المأكولات والمشروبات والمشمومات والمسموعات وسائر الملذوذات ثم النفس المذمومة هى التى لاتفرق بين المباحات والمحظورات ، ومنه قوله سبحانه (واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) - (وأما من طغى وآثر الحيوة الدنيا فان الجحيم هى المأوى) والعقل الجزئى مشترك بين الحيوان والصبيان وسائر الانسان ، والعقل الكلى وهو المميز بين الخير والشر فى العاقبة دنيويا او اخرويا ، وقيل بين خير الخيرين وشر الشرين ، فهذا عقل المطبوع وهو لاينفع بدون عقل المشروع ، ولذا ترى الحكماء حجبوا بعقولهم الناقصة وان ادعوا كمالها عن متابعة الانبياء زعما منهم ان الرسل ارسلوا للعامة وانهم من الخاصة فصاروا اجهل من كل جاهل ، فان المقلد قبل ايمانه وفاز بتقليده فى درجات جنانه ، والحكيم بعقله تنزل فى دركات نيرانه ﴿ واسم النفس ﴾ اى ويطلق على الانسان اسم النفس لقوله تعالى (خلقكم من نفس واحدة) فالنفس جسم كثيف ، والروح جسم لطيف له سريان شريف فى سائر الاعضاء لطيف كلطافة سريان الهواء فى البدن ، وقوله (كل نفس ذائقة الموت) و(علمت نفس ماقدمت واخرت) و(علمت نفس مااحضرت) وكالزبد فى اللبن ، والدهن فى الجوز واللوز ، وماء الورد فى الورد . والقلب داخل النفس وهو ألطف وأضوء من النفس والسر نور رحمانى آلة للنفس فانها تعجز عن العمل بدونه ولا تفيد فائدة مالم يكن السر عنده والحاصل ان النفس هنا عبارة عن الهيكل الانسانى المركب من الجسد الجسمانى والروح الربانى اذ المراد من نفس واحدة آدم عليه السلام ﴿ فقسمها ﴾ اى النفس ﴿ التنزيل ﴾ اى القرآن بعد اطلاقه النفس على آدم ونحوه ومايتعلق به من الأجزاء ﴿ الى مطمئنة ﴾ حيث قال تعالى (ياايتها النفس المطمئنة) أى بذكر الله سبحانه وهى النفس المؤمنة ولذا قال (ارجعى الى ربك راضية مرضية) الآية وهو يحتمل أن يراد بها الهيكل المركب الانسانى فالمراد بقوله (فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) اى مع عبادى الصالحين

وَلَوَّامَة .وَأمَّارَة كَمَا تُطْلَقُ عَلَى مَا يَجْمَعُ الرَّذَائِلَ فَسَمَّاهَاالشَّارِعُ أعْدَى الأَعْدَاءِ وَاسْمُ الرُّوحِ فَوَرَدَ(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبِّى)

كقوله تعالى حكاية عن الانبياء والمرسلين (توفنا مسلمين) (والحقنا بالصالحين) وأدخلنا الجنة آمنين ويشير اليه قوله سبحانه (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب) ويحتمل أن يراد بها الروح المجرد عن الجسد فالمراد بقوله (فادخلى فى عبادى) اى فى اجسادهم وعلى كل تقدير اريد بالنفس الجنس ﴿ ولوامة ﴾ حيث قال (ولاأقسم بالنفس اللوامة) أى كثيرة الملامة لنفسها لاسيما يوم القيامة ان كانت عملت خيرا قالت هلا زدت ، وان عملت شرا قالت ليتنى لم أفعل ، وهو قول الفراء ، فهى شاملة للنفس البرة والفاجرة . وقيل تلوم على الخير والشر والنفع والضر، وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة . وقال الحسن: هى النفس المؤمنة ، فان المؤمن والله ماتراه الا يلوم نفسه ما اردت بكلامى؟ ما اردت باكلى؟ وان الفاجر يمضى عليه الدهر لايحاسب نفسه ولا يعاتبها . وقال مقاتل هى النفس الكافرة فان الكافر يلوم نفسه فى العقبى على مافرط فى أمر الله فى الدنيا ، وهو يحتمل الاحتمالين السابقين ﴿ وامارة ﴾ حيث قال تعالى (ان النفس لامارة بالسوء الامارحم ربى) اى الامدة رحمة ربى بى، او الامن رحم ربى به، ولا يخفى انه لايصح اطلاق النفس بهذا الوصف على الانسان المعروف . وفى بعض النسخ هنا زيادة ـ وملهمة ـ وهى نسخة مهملة اذ لم يعرف فى آية منزلة ﴿ كما تطلق ﴾ اى النفس ﴿ على مايجمع الرذائل ﴾ من سوء الشمائل ﴿ فسماها الشارع اعدى الاعداء ﴾ كما اخرجه البيهقى عن ابن عباس بسند ضعيف «اعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك» وهذا الاستعمال هو الغالب على الصوفية ، فهم يريدون بالنفس الجامع للصفات المذمومة من الانسان ، فيقولون لابد من مجاهدة النفس وكسرها ﴿ واسم الروح ﴾ اى ويطلق عليه اسم الروح ايضا بانفراده ، وفيه البحث الذى تقدم والله اعلم ، فان الارواح ضد الاشباح والانسان عبارة عن المركب منهما، واستدلاله بقوله ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ قل الروح من امر ربى ﴾ ليس فيه دلالة على انه يطلق الروح ويراد به الانسان ، فان كل موجود ذى كمية ومقدار فهو من عالم الخلق ، وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فهو من عالم الامر ، كذا قيل. والصواب ان كل ماخلق الله بالتدريج فهو من عالم الخلق ، وكل ماخلقه بمجرد الامر وهو بتعلق الارادة ، او بلفظ كن على

كَمَا يُطْلِقُهُ الأَطِبَّاءُ عَلَى الجِسْمِ المُكَيِّفِ، وَاسْمُ العَقْلِ فَوَرَدَ «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ العَقْلَ وَقَالَ لَهُ أَقْبِلْ» الحَدِيثَ

اختلاف فيه فهو من عالم الامر كما قال تعالى (اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون) وقال عز وجل (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام) الى ان قال (الاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) (كما يطلقه) اى الروح (الاطباء) من الحكماء (على الجسم المكيف) والصواب التوقف فى سر الروح وامره اذلم يتكلم فيه رسول الله ﷺ على ماقاله ابن مسعود كما فى الصحيحين ، ومالم يتكلم فيه فليس لغيره ان يتكلم فيه ، وقد قال تعالى (وما اوتيتم من العلم) اى به وبغيره (الا قليلا) لان علم جميع الخلق بالاضافة الى علم الحق كقطرة من البحر . والمراد به العلم بانه ما بوجوده الحياة و بفقده الممات ، والاقرب فى تعريفه ماقيل من انه جسم لطيف روحانى ربانى منبعه تجويف قلب جسمانى ، وينتشر بواسطة العروق الضوارب الى اجزاء البدن ، ثم جريانه فى البدن وفيضان انوار الحياة والحس والسمع والبصر والشم منه على اعضائه يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت فانه لاينتهى الى جزء من البيت الا ويستنير به، فالحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان ، والروح مثاله السراج ، وسريان الروح وحركاتها فى الباطن مثاله مثال حركات السراج في جوانب البيت بتحريك محركه، واما قوله تعالى (فنفخت فيه من روحى) فالمراد به اضافة تشريف لان الروح من جملة مخلوقاته، وقد ثبت ان الارواح خلقت قبل الاجساد بالفى عام . واول الارواح روح خاتم الانبياء، وكذا قوله (وروح منه)اى من عنده اومن امره، وانما اطلق الروح على جبريل الامين لتجرد روحه لان الملائكة كلهم ارواح متجردة ، ولتخصصه بنزول القرآن المسمى بالروح فانه سبب احياء الروح كما قال تعالى (يلقى الروح من امره على من يشاء من عباده) وقال (اومن كان ميتا فاحييناه) وسمى جبريل ايضا بالروح المقدس اى المنزه عن النقصان فى تبليغ امر الحق الى رسل الانسان ، والله المستعان

(واسم العقل) اى ويطلق عليه اسم العقل وفيه النظر السابق، وماذكره من الاستدلال فغير المطابق حيث قال (فورد اول ماخلق الله العقل وقال له اقبل الحديث) اى « فاقبل وقال ادبر فادبر ثم قال الله عز وجل وعزتى وجلالى ماخلقت خلقا اكرم على منك بك آخذ وبك اعطى وبك اثيب وبك اعاقب » الحديث كذا فى الاحياء، وقال

كَمَا يُطْلَقُ عَلَى الصِّفَةِ الْمُكَيِّفَةِ

مخرجه رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط من حديث ابى امامة وابو نعيم من حديث عائشة باسنادين ضعيفين انتهى. وقال ابن تيمية وتبعه الزركشى انه كذب موضوع باتفاق اهل العلم، وتعقبه الحافظ السيوطى بما رواه عبد الله ابن الامام احمد فى زوائد الزهد عن الحسن مرفوعا مرسلا بسند جيد بلفظ لما خلق الله العقل الخ. وفى الحديث دليل على ان العقل غير العلم، فان العلم عرض لا يتصور ان يكون اول مخلوق بل لا بد ان يكون المحل مخلوقا قبله او معه، ولانه لا يمكن الخطاب معه ﴿ كما يطلق ﴾ اى العقل ﴿ على الصفة المكيفة ﴾ اى الوصف الذى يتميز الانسان به عن سائر البهائم من جنس الحيوان، وهو الذى استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذى أراده الحارث بن أسد المحاسبى حيث قال فى حد العقل: انه غريزة يتهيأ بها درك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف فى القلب ليستعد به لادراك الاشياء وهذا هو الصواب فى تعريفه، ونظيره ان الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والادراكات الحسية، ثم العقل كالمرآة التى تفارق غيرها من الاجسام والاكوان فى حكاية الصور والالوان لصفة اختصت بها فى تلك الحالة وهى الصقالة وبها اتصفت بالآلة، فعن ابن عباس مرفوعا « لكل شيء آلة وعدة وان آلة المؤمن العقل » رواه ابن المحبر. وكذلك العين تفارق الجبهة فى هيئات وصفات بها استعدت للرؤية، فنسبة هذه الغريزة التى هى العقل الى العلوم كنسبة العين الى الرؤية ونسبة القرآن والشرع الى هذه الغريزة فى سياقها الى انكشاف العلوم بها كنسبة نور الشمس الى البصر، وعن على رضى الله عنه:

رأيت العقل عقلين * فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

فالاول هو المراد بقوله عليه السلام « ما خلق الله خلقا هو أكرم عليه من العقل » كما اخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من رواية الحسن عن عدة من الصحابة والاخير هو المراد بقوله عليه السلام لعلى « اذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها الى ربنا عز وجل فاكتسب أنت أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقربة » رواه أبو نعيم فى الحلية، وهو المراد أيضا بقوله عليه السلام لابى الدرداء « اذا ازددت عقلا ازددت

من ربك قربا فقال بأبى أنت وأمى فكيف لى بذلك؟ فقال اجتنب محارم الله وأد فرائض الله تكن عاقلا واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل بها من ربك القرب والعز» رواه الترمذى الحكيم وغيره وقال ابن المسيب «ان عمر وأبى بن كعب وابا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله من أعلم الناس؟ فقال العاقل : قالو من أعبد الناس ؟ فقال العاقل قالوا فمن أفضل الناس ؟ قال العاقل قالوا اليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته فقال عليه السلام: (وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) ان العاقل هو المتقى وان كان فى الدنيا خسيسا دنيا رواه ابن المحبر، وله من حديث أنس من حديث ابن سلام سأل النبى عليه السلام فى حديث طويل فى آخره، وصف عظم العرش وان الملائكة قالت : يا ربنا هل خلقت خلقا أعظم من العرش ؟ قال نعم العقل ، قالوا وما بلغ من قدره؟ قال هيهات لا يحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا لا قال تعالى فانى خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطى حبة ومن الناس من أعطى حبتين ومنهم من أعطى الثلاث ومنهم الأربع ومنهم من أعطى فرقا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم من أعطى أكثر من ذلك» ورواه الترمذى الحكيم فى نوادره مختصرا، ولهذا انقسم الناس الى بليد لا يفهم بالتفهيم الا بعد تعب طويل فى التعليم والى ذكى يفهم بالرمز والاشارة من غير حاجة الى العبارة والى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور ودقائقها بدون التعليم (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام وبعض اتباعهم من الأولياء الكرام ويعبر عن الأول بالوحى وعن الثانى بالالهام هذا وقد قال عليه السلام «يا ايها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه ، واعلموا أنه يجدكم عند ربكم ، واعلموا أن العاقل من أطاع الله وان كان دميم المنظر حقير الخطر دنى المنزلة رث الهيئة، وان الجاهل من عصى الله وان كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة نصوحا نطوقا فالقردة والخنازير أعقل عند الله ممن عصاه ولا تغتروا بتعظيم أهل الدنيا اياكم واياهم فانهم من الخاسرين» رواه داود بن المحبر أحد الضعفاء فى كتاب العقل من حديث أبى هريرة وهو فى مسند الحارث بن أبى أسامة عن داود . عن أنس قال أثنى قوم على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال عليه السلام كيف عقل الرجل فقالوا نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال عليه السلام «ان الأحمق يصيب بحمقه أكثر من فجور الفاجر ، وانما يرتفع العباد غدا فى الدرجات زلفى

من ربهم على قدر عقولهم» رواه ابن المحبر بتمامه والحكيم الترمذي مختصرا. وعن عمر مرفوعا «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه الى هدى أو يرده عن ردى وما تم ايمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله» ابن المحبر، وعنه الحارث بن أبي أسامة وعن أبي سعيد مرفوعا «لكل شيء دعامة أي عماد ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار في النار: (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعير» ابن المحبر وعنه الحارث. وقال عليه السلام «ان الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم له عقله، فعند ذلك تم له ايمانه وأطاع ربه وعصى عدوه ابليس» ابن المحبر من رواية عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده به. والحديث عند الترمذي مختصرا دون قوله ولا يتم من حديث عائشة وصححه «وعن عائشة قالت قلت يارسول الله باى شيء يتفاضل الناس فى الدنيا؟ فقال بالعقل قلت ففى الآخرة قال بالعقل قلت اليس انما يجزون باعمالهم؛ فقال هل عملوا الا بقدر مااعطاهم الله من العقل، فبقدر مااعطوا من العقل كانت اعمالهم، وبقدر ماعملوا يجزون» ابن المحبر والحكيم الترمذي نحوه. وقال عليه السلام «اتمكم عقلا اشدكم لله خوفا واحسنكم فيما أمر به ونهى عنه نظرا وان كان اقلكم تطوعا» ابن المحبر من حديث ابى قتادة. وفى الاحياء: اما العلوم الدينية فهى المأخوذة من الانبياء عليهم السلام بطريق التقليد، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله وسنة رسوله وفهم معانيهما بعد سماع مبانيهما، وبه كمال صفة القلب فى معرفة الرب، وبه سلامته عن الاعراض والاغراض والادواء والامراض. فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب وان كان محتاجا اليها فى معرفة الرب. فالداعى الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفى بمجرد العقل عن انوار القرآن والسنة مغرور. فاياك ان تكون من احد الفريقين، وكن جامعا بين الاصلين فان العلوم العقلية كالاغذية، والعلوم الشرعية كالادوية، والشخص المريض يتضرر بالغذاء مهما فاته الدواء، وكذلك امراض القلب لا يمكن علاجها الا بالادوية المستفادة من الشريعة المصطفوية، وهى وظائف العبادات والاعمال التى رتبها الانبياء عليهم السلام لاصلاح القلوب، فمن لا يداوى قلبه المريض بمعالجة العبادات الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء. ثم قال: والعلوم العقلية تنقسم الى دنيوية واخروية، والدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات، والاخروية كعلم احوال القلب وآفات الاعمال والعلم بالله وصفاته وافعاله، وهما علمان متنافيان، يعني ان من صرف عنايته الى احدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر

ثُمَّ الخَوَاطِرُ آثَارٌ تَحْدُثُ فِى القَلْبِ تَبْعَثُ عَلَى الأَفْعَالِ وَالتُّرُوكِ فَإِنْ نَفَعَ فِى الآخِرَةِ فَخَيْرٌ وَالاِعَانَةُ عَلَيْهِ تَوْفِيقٌ وَإِنْ ضَرَّ فَشَرٌّ وَالاِعَانَةُ خِذْلَانٌ وَالفَارِقُ الشَّرْعُ، ثُمَّ الفَارِقُ عَمَلُ الصُّلَحَاءِ فَالمُوَافِقُ خَيْرٌ وَالمُخَالِفُ شَرٌّ وَلَوْ بِرُخْصَةٍ أَوْ شُبْهَةٍ ثُمَّ النَّفْسُ فَمَا تَنَفَّرَتْ عَنْهُ نَفْرَةَ طَبْعٍ لَا خَشْيَةٍ خَيْرٌ

ضرورة على الاكثر، ولذا ترى الاكياس فى علوم الدنيا جهالا فى امور الآخرة، والاكياس فى دقائق علوم الآخرة جهالا فى اكثر علوم الدنيا ، لان قوة العقل لا تفى بالامرين جميعا فى الغالب فيكون احدهما مانعا من الكمال فى الثانى، ولذا قال عليه السلام « اكثر اهل الجنة البله » رواه الدارمى من حديث انس . وقال الحسن: ادركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا شياطين . وقال تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) فالدنيا والآخرة لا تجتمعان فهما ضرتان اذا أرضيت إحداهما أسخطت الاخرى . ومن هنا قال عليه السلام « من أحب آخرته أضر بدنياه ومن أحب دنياه اضر با آخرته فا ثروا ما يبقى على ما يفنى » ﴿ ثم الخواطر آثار تحدث في القلب ﴾ وهى التى تعرض فيه من الاذكار والافكار ﴿ تبعث على الافعال ﴾ اى تارة ﴿ والتروك ﴾ اى وعليها تارة؛ فان الخواطر هى المحركات للارادات . فمبدأ الافعال الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الاعضاء، والخواطر المحركة تنقسم الى قسمين ﴿ فان نفع ﴾ أى الخاطر ومايخطر فيه أو الفعل أو الترك ﴿ فى الآخرة فخير ﴾ محض ﴿ والاعانة عليه توفيق ﴾ اى لطف وهداية من الله سبحانه ﴿ وإن ضر ﴾ ذلك فى الآخرة ﴿ فشر والاعانة ﴾ اى عليه كما فى نسخة ﴿ خذلان ﴾ اى ترك نصرة منه وإغراء، فالاعانة الثانية وقعت بطريق المشاكلة ﴿ والفارق ﴾ بين الخير والشر ﴿ الشرع ﴾ ولاعبرة بالطبع ﴿ ثم الفارق عمل الصلحاء ﴾ اى من العلماء ﴿ فالموافق خير والمخالف شر ولو ﴾ كان ﴿ برخصة أو شبهة ﴾ لانه لاينفع فى الآخرة اذ التقدير ولو كان ذلك الموافق برخصة والمخالف بشبهة. والرخصة مايستباح بعذر مع قيام دليل الحرمة كتناول المضطر مال الغير وترك الخائف على نفسه الامر بالمعروف ، وحكمه أن الاخذ بالعزيمة أولى ﴿ ثم ﴾ الفارق ﴿ النفس فما تنفرت عنه نفرة طبع لاخشية ﴾ اى مخافة من مخالفة غير الله ﴿ خير ﴾ وقيل نفرة

وَمَامَالَتْ اَلَيْهِ مَيْلَ طَبْعٍ لَارَجَاءُ شَرٌّ ثُمَّ مِنَ الْمَلَكِ إِلْهَامٌ وَلَيْسَ سِوَى الْخَيْرِ وَمِنَ الشَّيْطَانِ وَسْوَاسٌ وَهُوَ شَرٌّ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا كَمَا يَدْعُوهُ إِلَى الْمَفْضُولِ بِالشُّغْلِ عَنِ الْفَاضِلِ وَالْجَرِّ الَى ذَنْبٍ لَا يَفِي خَيْرُهُ كَالْعُجْبِ فَوَرَدَ « إِنَّ الْقَلْبَ مَفْتُونٌ بِمَلَكٍ أَوْ شَيْطَانٍ يَدْعُوَانِهِ»

الطبع كنفرة الشخص عن البزاق والمخاط ونحوهما، ونفرة الخشية كنفرته عن الحيوانات المؤذية ، فاذا خطر له أن يطوى ميلا الى ثلاثة ايام فى الصوم ولكن يجد فى نفسه نفرة وكراهة من هذا العمل فهذا الخاطر خير لأنه لا يهلك بجوع ثلاثة ايام غالبا ﴿ وماءالت إليه ميل طبع لارجاء ﴾ من الله سبحانه ﴿ شر ﴾ مثلا خطر الخاطر أن يخرج من البيت ويتفرج على المكان الفلانى ولا يخطر معه نية خير يرجو ثوابه مثل زيارة أخ فى الله أو عيادة مريض بل خرج لمجرد الخاطر فهو شر لما ورد من حديث «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » ﴿ ثم ﴾ الخاطر الصادر ﴿ من الملك إلهام وليس ﴾ ذلك الخاطر ﴿ سوى الخير ﴾ لانه مرشد ناصح هنالك لم يرسل الالذلك ﴿ ومن الشيطان وسواس وهو شر ﴾ محض غالبا ﴿ وقد يكون ﴾ الوسواس ﴿ خيرا ﴾ فى الصورة وقصده منه شر ﴿ كما يدعوه الى المفضول بالشغل ﴾ اى بسبب اشتغاله بالمفضول ممتنعا ﴿ عن الفاضل ﴾ كمن يلقى فى قلبه خاطر العبادة من الفعل ليشغله عن العلم الذى هو أفضل منها مع الجهل ﴿ والجر ﴾ عطف على الشغل اى وكما يدعوه الى خير بسبب جره ﴿ إلى ذنب لا يفى خيره ﴾ أى لا يعدل نفعه بشره وضرره ﴿ كالعجب ﴾ او غيره من طلب جاه ونحوه ﴿ فورد إن القلب مفتون ﴾ اى ممتحن ﴿ بملك أو شيطان يدعوانه ﴾ اى الى خير وشر ، والحديث لم أجد له اصلا ، فالملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه افاضة الخير وافادة العلم ، والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك ، وهو الوعد بالشر والامر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير بالفقر ، كما قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) . فنسب فعل الملك الى نفسه تفضلا او نظرا الى الحقيقة من غير الواسطة ، فان رؤية الاسباب نوع من الحجاب ومن هذا الباب قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) وقوله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) وورد «القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن..

وَمِنْهُ ابْتِدَاءُ خَاطِرٍ مُطْلَقٍ

ان شاء أن يقيمه أقامه وان شاء أن يزيغه أزاغه،قال تعالى حكاية عن الراسخين في العلم حيث يقولون (ربنا لاتزغ قلوبنا بعداذهديتنا) الآية وقال عليه السلام « فى القلب لمتان لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وتعالى فليحمد الله ، ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا : الشيطان يعدكم الفقر » الآية. رواه الترمذى وحسنه من حديث أبى سعيد . وقال الحسن : انما هما همان يجولان فى القلب هم من الله سبحانه وهم من العدو ، فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان من الله أمضاه وما كان من عدوه جاهده ونهاه . ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين ورد « قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن » أى بين صفتى الجمال والجلال ، او تمثيل بسرعة تقلب القلب وتردده بالشيء المأخوذ بين الاصبعين المتحركين ولما كان قلب لايخلو عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل الى غير ذلك من الصفات البشرية المتشعبة عن الهوى النفسية لاجرم لايخلو قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة، ولذا قال عليه السلام « ما منكم من أحد الا وله شيطان قالوا وأنت يارسول الله قال وأنا الا أن الله اعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بالخير » رواه مسلم عن ابن مسعود ۞

ثم القلب الخالى عن الهوى لايدخله الشيطان ولذا قال تعالى (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) وكل من اتبع هواه فهو عبد الهوى لاعبد الله قال تعالى (أفرأيت من اتخذ الهه هواه) وقال جرير بن عبد الله : شكوت الى العلاء بن زياد ماأجد فى قلبى من الوسواس فقال : انما مثل ذلك مثل البيت الذى يمر به اللصوص فان كان فيه شيء عالجوه والامضوا وتركوه ، ومن هنا قيل : المفلس فى امان الله . وقال عثمان ابن ابى العاص « يارسول الله ان الشيطان حال بينى وبين صلاتى وقراءتى ، فقال ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسست به فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا، قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عنى » رواه مسلم . ولابن ماجه والترمذى من حديث أبى بن كعب « ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه » والحاصل أنه لاخلاص من الشيطان الا بالالتجاء الى الرحمن والتبرى من الحول والقوة للانسان، واظهار العجز فى ميدان البيان بذكر الله فانه هو المستعان ، وذلك لايقدر عليه الا المتقون كما يشير اليه قوله سبحانه (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ﴿ ومنه ﴾ اى من الوارد من عنده تعالى ﴿ ابتداء خاطر مطلق ﴾

وَهُوَ امَّا خَيْرٌ اعْتِنَاءٌ وَإِمَّا شَرٌّ ابْتِلَاءٌ وَمِنَ النَّفْسِ هَوًى وَلَيْسَ الهَوَى سِوَى الشَّرِّ
وَقِيلَ كَالْوَسْوَسَةِ وَقِيلَ الاَّ اذَا كَانَتْ مُطْمَئِنَّةً فَلَيْسَ سِوَى الخَيْرِ وَهَذَا هُوَ الخَامِسُ
الْمُسَمَّى بِخَاطِرِ القَلْبِ

وانما قال ابتداء لان حدوث الخواطر جميعها فى قلب العبد من الله حقيقة، لكن اذا حدثت عقيب دعوة الملك تنسب اليه وتسمى الهاما ، واذا حدثت عقيب دعوة الشيطان تنسب اليه وتسمى وسوسة ، واذا حدثت موافقا للطبع يقال له هوى النفس وتنسب اليه، واذا حدثت من الله فى القلب ابتداء بلاواسطة الملك والشيطان ولاموافقا لطبع الانسان يسمى خاطرا مطلقا غير مقيد بالواسطة والرابطة ﴿وهو اما خير اعتناء﴾ اى عناية ورعاية لعبده ﴿واما شر ابتلاء﴾ اى امتحانا لعبده ﴿ ومن النفس هوى ﴾ اى والوارد منها يسمى هوى وهو ضد هدى ﴿وليس الهوى سوى الشر ﴾ كما ان الهدى ليس سوى الخير ﴿ وقيل كالوسوسة﴾ اى من الشيطان يدعو الى الشر غالبا وقد يدعو الى الخير اليسير ليجره به الى الشر الكثير ، وذلك كما قال احمد بن ارقم البلخى : نازعتنى نفسى بالخروج الى الغزو فقلت سبحان الله ان الله تعالى يقول (ان النفس لامارة بالسوء) وهذه تأمرنى بالخير لايكون هذا ابدا ، ولكنها استوحشت فارادت لقاء الناس لتتروح اليهم ، وتتسامع الناس فيستقبلونها بالتعظيم والتكريم ؛ فقلت لها : لاانزلك العمران ولاانزلك على ذى معرفة فاجابت، فاسات الظن بها فقلت الله اصدق ، فقلت اقاتل العدو حاسرا اى بلا سلاح فتكونين اول قتيل فاجابت ، فاسأت الظن بها ، فعد أشياء مما ارادها فاجابت الى كل ذلك ،فقلت يارب نبهنى لها فانى متهمها ومصدق لك ، فكوشفت كأنها تقول : يااحمد تقتلنى كل كل يوم بمنعك اياى من شهواتى مرات وبمخالفتك لى كرات : وما يشعر بذلك احد ، فان قاتلت فقتلت مرة واحدة نجوت منك ، وتتسامع فيقال استشهد احمد ويكون لى شرف وذكر، فقعدت ولم اخرج الى الغزو فى ذلك العام.فانظر الى خداع النفس وغرورها ترائى الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد . ولقد صدق القائل :

توق نفسك لاتأمن غوائلها فالنفس شر من السبعين شيطانا

﴿ وقيل الا اذا كانت ﴾ النفس ﴿ مطمئنة ﴾ بذكر الله ﴿ فليس ﴾ خاطرها ﴿ سوى الخير وهذا هو الخامس ﴾ من الخواطر ﴿ المسمى بخاطر القلب ﴾

فورد «إستفت قلبك» أما الفرق في الخير يعرف الخاطر بكونه مصمما ومحدثا عقيب الطاعة إثابة فورد (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وطاريا في الأصول والأعمال الباطنة فلا سبيل لغيره تعالى اليها وتنبيها فورد «اللهم نبهنا عن نومة الغافلين» والالهام بكونه مترددا ومبتديا وطارئا في الفروع والأعمال الظاهرة وحثا على الطاعة فورد (ويفعلون ما يؤمرون) والوسوسة

لقوله تعالى (الا بذكر الله تطمئن القلوب) يعنى ولا تميل ابدا الى الذنوب والعيوب ﴿فورد استفت قلبك﴾ تمامه «وان افتاك المفتون» فالخطاب للمتقى فان قلبه لا يخطىء، ومن هنا قيل: حكى قلبى عن ربى ﴿اما الفرق﴾ بين الخواطر فى الخير والشر ﴿ففى الخير يعرف الخاطر﴾ المطلق الذى يرد من الله ﴿بكونه مصمما﴾ اى ثابتا على حالة واحدة دائما ﴿ومحدثا﴾ اى وبكونه واقعا ﴿عقيب الطاعة اثابة﴾ اى جزاء واكراما ﴿فورد﴾ فى التنزيل ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ بالطاعة ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ الباقية الموصلة الى قربنا ووصلنا. ففى الخبر «من عمل بما علم أورثه الله علم مالا يعلم» وهو معنى قوله سبحانه (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقوله (واما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) اى الطريقة السهلة الموصلة الى الحالة الاخرى فى الدنيا والعقبى ﴿وطاريا﴾ عطف على مصمما اى عارضا ﴿فى الاصول﴾ اى الاعتقادات ﴿والاعمال﴾ اى العبادات ﴿الباطنة فلا سبيل لغيره تعالى اليها﴾ فهو عليم بذات الصدور وخفايا الامور ﴿وتنبيها﴾ عطف على اثابة اى للتنبيه عن نوم الغفلة فى مقام الاثابة على فعل الطاعة، ولا يبعد ان يعطف على مصمما بذكر المصدر وارادة الفاعل: اى منبها على الغفلات عن عمل الخيرات ﴿فورد﴾ فى الدعاء ﴿اللهم نبهنا عن نومة الغافلين﴾ لم اره له اصلا ﴿والالهام﴾ الملكى يعرف ﴿بكونه﴾ اى الخاطر ﴿مترددا﴾ بين الفعل وتركه غير قوى فى حكمه، وقيل مترددا اى يجىء مرة ويذهب اخرى ﴿ومبتدئا﴾ اى لا محدثا بعد عمل عبادة ونحوه ﴿وطاريا﴾ أى عارضا ﴿فى الفروع﴾ العلمية والعملية ﴿والاعمال الظاهرة﴾ الاخروية وقيد الاعمال بالظاهرة لان الملك لا سبيل له الى معرفة باطن العبد فى قول اكثرهم ﴿وحثا على الطاعة﴾ فى الامور الدينية ﴿فورد﴾ فى التنزيل (لا يعصون الله ما امرهم ﴿ويفعلون﴾ اى الملائكة ﴿ما يؤمرن﴾ لانهم جبلوا على الطاعة ﴿والوسوسة﴾ من

بكونها مع عجلة ونشاط دون خشية على اتمامه وآدائه على وجهه وقبوله تعالى اياه وبصيرة أنه خير أو شر وفى الشر يعرف الخاطر بكونه مصمما ومحدثا عقيب الذنب عقوبة فورد (بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون) والهوى بكونها مطالبة للشهود فورد (ماتشتهى أنفسكم)

الخواطر تعرف ﴿ بكونها مع عجلة ﴾ لا مع تأن لقوله تعالى (وكان الانسان عجولا) وفى الحديث «العجلة من الشيطان والاناة من الله» رواه الترمذى وحسنه من حديث سهل بن سعد وقال عز وجل (ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه) ﴿ ونشاط ﴾ اى فرح وانبساط وهو خفة تحصل للانسان للاقدام على العمل من غير بصيرة وتصور مثوبة ﴿ دون خشية ﴾ اى من غير مخافة ﴿ على اتمامه ﴾ اى اتمام العمل انهاء ﴿ وادائه على وجهه ﴾ اى وجه العمل وحقه ابتداء ﴿ وقبوله تعالى اياه ﴾ اى العمل وصاحبه اذلا عبرة لماسواه ﴿ وبصيرة ﴾ اى ودون بصيرة ﴿ انه ﴾ اى ذلك العمل ﴿ خير ﴾ يرجى عليه الثواب ﴿ او شر ﴾ يخاف عليه العقاب ، وقيل : المراد بالبصيرة بصارة العاقبة بان تبصر وتتحقق وتتيقن انه خير ورشد ، ويجب لزومه مع قطع النظر عن قصد الثواب ، والله اعلم بالصواب *

والحاصل انك ان وجدت نفسك فى ذلك الفعل الذى خطر بقلبك مع نشاط لا مع خشية ، ومع عجلة لامع تان ، ومع امن لامع خوف ، ومع عمى عن العاقبة لامع بصيرة فاعلم انه من الشيطان . وان وجدت نفسك مع ضد ذلك بان تكون مع خشية لامع نشاط ، ومع تأن لامع عجلة ، ومع خوف لامع امن ، ومع بصيرة لامع عمى فاعلم انه من الله تعالى او من الملك . وهذا الفرق فى الخواطر فى الخير كله ﴿ وفى الشر يعرف الخاطر ﴾ المطلق الذى هو من الله سبحانه ﴿ بكونه مصمما ﴾ اى قويا ﴿ ومحدثا ﴾ واقعا ﴿ عقيب الذنب عقوبة ﴾ اى للعقوبة على المعصية ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ بل ران ﴾ اى غلب وعلا ﴿ على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ من السيئات الواقع بعضها عقيب بعض عقوبة لهم حتى اسودت قلوبهم حيث تراكمت ذنوبهم ، ومنه قوله تعالى (واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) اى الطريقة العسرى الموصلة الى مثلها فى الدنيا والاخرى ﴿ والهوى ﴾ اى ويعرف خاطر هوى النفس ﴿ بكونها مطالبة للشهوة ﴾ اى للذة التي فيها الشهوة ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ ما تشتهى انفسكم ﴾ حيث

وَمُصِرَّةً عَلَى مُعَيَّنٍ فَالنَّفْسُ لَا تَسْكُنُ دُونَ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ وَالْوَسْوَسَةُ بِكَوْنِهَا مُبْتَدَأَةً فِي الْأَكْثَرِ وَمُتَرَدِّدَةً فَالشَّيْطَانُ كَلْبٌ إِذَا طُرِدَ مِنْ جَانِبٍ دَخَلَ مِنْ آخَرَ، وَبَاعِثَةً عَلَى غَيْرِ مُعَيَّنٍ فَغَرَضُهُ نَفْسُ الْإِغْوَاءِ، وَمُسَوِّلَةً لِمَعْصِيَةٍ فَوَرَدَ (الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ)

نسب الاشتهاء الى النفس التى هى منبع الهوى ﴿ ومصرة على معين ﴾ اى وبكونها مصممة على شهوة معينة على وجه معين وطريق مبين لا عدول عنه بوجه اصلا وقطعا ﴿ فالنفس لا تسكن دون قضاء الشهوة ﴾ اى من غير غرضها التى تريده كما قيل :

تريد النفس ان تلقى مناها ويأبى الله الا ما يريد

﴿ والوسوسة ﴾ تعرف ﴿ بكونها مبتدأة ﴾ اى ليست عقب طاعة ولا معصية ﴿ فى الاكثر ﴾ اى اكثر الاحوال او اكثر الوساوس ﴿ ومترددة ﴾ فتارة تدعو الى معصية واخرى الى اخرى فهى غير مصممة على حالة واحدة ﴿ فالشيطان كلب ﴾ او ذئب ﴿ اذا طرد من جانب دخل من آخر ﴾ اى جانب آخر كما يشير اليه قوله تعالى (فبما أغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم) والمراد طرق المعاصى جميعها . فعن ابن مسعود « خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمين الخط وشماله وقال هذه سبل الشيطان على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم تلا : وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ﴿ وباعثة ﴾ اى وبكونها محرضة ﴿ على غير معين ﴾ من انواع المعاصى ﴿ فغرضه نفس الاغواء ﴾ من اى جهة كان من الاعمال والاحوال ﴿ ومسولة ﴾ اى وبكونها مزينة ومسهلة ﴿ لمعصية ﴾ من المعاصى غير متعين ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ الشيطان سول لهم ﴾ اى زين لهم سوء اعمالهم ﴿ واملى لهم ﴾ اى امهلهم ببطء آجالهم ، او القى فى قلوبهم ما يندمون عليه فى مآلهم . قال الحسن : بلغنا ان ابليس قال سولت لامة محمد المعاصى فقطعوا ظهرى بالاستغفار ، فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله عز وجل منها وهى الاهواء ، وقد صدق الملعون فانهم لا يعلمون ان ذلك من الاسباب التي تجر الى المعاصي فكيف يستغفرون

وَمُنْدَفِعَةً بِذِكْرِهِ تَعَالَى فَوَرَدَ فِيهِ «وَاذَا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ وَإِذَا غَفَلَ وَسْوَسَ

منها؟ ومن عظيم حيل الشيطان انه يشغل الانسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب الاصولية والفروعية، والخصومات الدنيوية. وقال عبدالله بن مسعود: قعد قوم يذكرون الله عز وجل، فاتاهم الشيطان ليقيمهم من مجلسهم فيفرق بينهم لم يستطع، فاتى رفقة اخرى يتحدثون بحديث الدنيا فافسد بينهم، فقاموا يقتتلون وليس اياهم يريد فقام الذين يذكرون الله واشتغلوا بهم يفصلون بينهم، فتفرقوا عن مجلسهم ذلك مراد الشيطان منهم ﴿ومندفعة﴾ اى وبكونها مندفعة ﴿بذكره تعالى﴾ ولو بذكر خفى ﴿فورد﴾ فى الحديث ﴿فيه﴾ اى فى حق الشيطان ﴿اذا ذكر﴾ العبد ﴿الله خنس﴾ اى تأخر الشيطان ﴿واذا غفل وسوس﴾ قال مجاهد فى معنى فى قوله تعالى (من شر الوسواس الخناس) قال هو منبسط على قلب الانسان فاذا ذكر الله خنس وانقبض واذا غفل انبسط على قلبه، فالتطارد بين ذكر الله ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار. ولتطاردهما قال تعالى (استحوذ عليهم الشيطان فانسيهم ذكر الله) وعن انس قال عليه السلام «ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فاذا ذكر الله خنس وان نسى الله التقم قلبه» ابن ابى الدنيا وابو يعلى وابن عدى. هذا ولما ان الشهوات ممتزجة بلحم الآدمى ودمه فسلطنة الشيطان ايضا سارية فى لحمه ودمه ولذا قال عليه السلام «ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع» وذلك لان الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوة المانعة عن الطاعات، وفيه تنبيه على انه لايتخلص احد من الشيطان مادام حيا، نعم له سبيل الى دفعه وتضعيف قوته، كما قال عليه السلام «ان المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر» اى يهزله ويضعفه، رواه احمد من حديث أبى هريرة. وقال ابن مسعود: شيطان المؤمن مهزول، وقال قيس: قال لى شيطانى دخلت فيك وانا مثل الجزور وانا الآن مثل العصفور، فقلت ولم ذلك؟ قال تذيبنى بكتاب الله عزوجل. وقال ابوهريرة: التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر، فاذا شيطان الكافر سمين دهين كاس، واذا شيطان المؤمن مهزول اشعث اغبر عار، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك؟ فقال انا مع رجل اذا اكل سمى الله فاظل جائعا، واذا شرب سمى الله فاظل عطشانا، واذا ادهن سمى الله فاظل اشعث، واذا لبس سمي الله فاظل عريانا، فقال شيطان الكافر لكنى مع رجل

وَقِيلَ يَتَعَذَّرُ التَّمْيِيزُ الاَّ بِنُورِ التَّقْوَى وَالْمَعْرِفَةِ

لايفعل شيئا مما ذكرت ، فانا اشاركه فى طعامه وشرابه ودهنه ولباسه. وفى النسائى من حديث سبرة باسناد صحيح « ان الشيطان قعد لابن آدم فى طريقه ، فقعد له فى طريق الاسلام فقال اتسلم وتذر دينك ودين آبائك فعصاه واسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال اتهاجر وتذر ارضك وسماءك فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له اتجاهد وهو جهاد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك فعصاه وجاهد، فقال عليه السلام : فمن فعل ذلك ومات كان حقا على الله ان يدخله الجنة. واذا عرف هذا فينبغى للعبد ان يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالبحث عن اصله ونسله ومحله ، فقد قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير) وقال عز وعلا (الم اعهد اليكم يابنى آدم ان لاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) ﴿وقيل يتعذر التميز﴾ بين الخواطر بشىء من الاشياء ﴿الا بنور التقوى والمعرفة﴾ بصفات المولى كما قال تعالى (ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا) أى رجعوا الى نور العلم (فاذا هم مبصرون) اى انكشف لهم الاشكال وانحل لهم العقال وتبين لهم غامض الاحوال وأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه الى اذعان الهوى لتلبيسه بمتابعة الهدى ويكثر فيه غلطه ويعجل هلاكه وهو لايشعر به، وفى مثلهم قال تعالى (وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) قيل هى اعمال ظنوها حسنات فاذا هى سيئات . وفى الاحياء: ينبغى ان يعلم ان الخواطر تنقسم الى مايعلم قطعا أنه داع الى الشر فلا يخفى كونه وسوسة ، والى مايعلم انه داع الى الخير فلاشك فى كونه الهاما ، والى مايتردد فيه ولايدرى انه من لمة الملك او من لمة الشيطان. فان من مكائد الشيطان ان يعرض الشر فى معرض الخير والتمييز فى ذلك غامض، واكثر العباد به يهلكون ، فان الشيطان لايقدر على دعائهم الى صريح الشر فيصور الشر لهم بصورة الخير . ولذا روى: ان ابليس تمثل لعيسى عليه السلام فقال له قل لااله الا الله فقال كلمة حق ولا اقولها بقولك . وعن النبى صلى الله عليه وسلم « كان راهب فى بنى اسرائيل فاخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى فى قلوب اهلها ان دواءها عند الراهب ، فاتى بها الى الراهب فابى ان يقبلها، فلم يزالوا به حتى قبلها فكانت عنده ليعالجها، فاتاه الشيطان فوسوس اليه وزين له مقاربتها، فلم يزل به حتى وقع عليها فحبلت منه، فوسوس اليه وقال : الآن تفتضح

وَاخْتُلِفَ فِي الْأَخْذِ بِالْخَوَاطِرِ وَالتَّحْقِيقُ

ياتيك أهلها فاقتلها فان اتوك فقل ماتت ، فقتلها ودفنها ، فاتى الشيطان اهلها فوسوس اليهم والقى فى قلوبهم انه احبلها ثم قتلها ودفنها ، فاتاه اهلها فسألوه فقال ماتت ، فالقى اليهم الشيطان انها مدفونة عنده ففتشوا عليها فوجدوها مقتولة فاخذوه، فاتاه الشيطان فقال انا الذى اخذتها وانا الذى القيت فى قلوب اهلها فاطعنى اخلصك منهم، قال بما ذا قال اسجدلى سجدتين فسجد له سجدتين، فقال له الشيطان انى برىء منك، فهو الذى قال الله تعالى: «كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك» الآية والحديث رواه ابن ابى الدنيا فى مكائد الشيطان ، وابن مردويه فى تفسيره من حديث عبيد بن رفاعة مرسلا ، وللحاكم نحوه موقوفا على على بن ابى طالب وقال صحيح الاسناد ، ووصله مطين فى مسنده من حديث على ، وذكره البغوى فى تفسيره عن ابن عباس ، وذكر ان الراهب اسمه برصيصا، وتعلل بعد قتلها بان جنيها اخذها وراح بها ولم يقدر على دفعه عنها القصة بطولها . فانظر الآن الى حيل الشيطان واضطرارة الراهب الى هذه الكبائر ، وكل ذلك لطاعته له فى قبول الجارية للمعالجة. وهو امر هين فى المخالطة وربما يظن صاحبه انه خير وحسنة وملاطفة فى المرافقة وحسن عشرة فى المخالقة ، فيحسن ذلك فى قلبه ، ويخفى الهوى فى نفسه ،فيقدم اليه كالراغب فى الخير لديه فيخرج الامر بعد ذلك عن اختياره هنالك ، ويجر البعض الى البعض بحيث لا يجد محيصا فى الخلاص عن الامر المذكور فنعوذ بالله من تضييع اوائل الامور، واليه الاشارة بقوله عليه السلام «من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه» متفق عليه من حديث النعمان ابن بشير ﴿ واختلف فى الاخذ ﴾ اى فى المؤاخذة ﴿ بالخواطر ﴾ فبعضهم قال بعدم الاخذ مطلقا ، واستدل بقوله عليه السلام « يقول الله تعالى إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها» وبعضهم بالاخذ مطلقا واستدل بقوله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) ﴿ والتحقيق ﴾ التفصيل فان اول مايرد على القلب الخاطر، كما لو خطرت له مثلا صورة امرأة وانها وراء ظهره فى الطريق بحيث لو التفت اليها ليراها ويسمى حديث النفس، والثانى هيجان النفس فى الرغبة الى النظر وهو حركة الشهوة التى فى الطبع وهذا يتولد من الخاطر الاول ويسمى ميل الطبع ، والثالث حكم القلب بان هذا ينبغى ان ينظر اليها فان الطبع اذا مال لم تنبعث الهمة والنية مالم تندفع الصوارف ،فانه قد يمنعه حياء أوخوف

عَدَمُهُ فِيمَا لَا اخْتِيَارَ لَهُ كَحَدِيثِ النَّفْسِ وَمَيْلِ الطَّبْعِ لِامْتِنَاعِ التَّكْلِيفِ فِيهِ وَوَرَدَ عُفِيَ عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ نُفُوسُنَا . وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْعَزْمِ وَالْهَمِّ فَوَرَدَ (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

من الله تعالى عن الالتفات ، وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتامل وهو على كل حال من جهة العقل ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخواطر والميل، والرابع تصميم العزم وجزم النية، وقيل الارادة ميل الباطن نحو المطلوب والقصد قراره فى القلب على نهج المرغوب والعزم بحيث لا يمكن زواله والجزم بحيث يوجب العمل فى ما له فاذا عرفت هذا فالتحقيق عند أهل التدقيق وأرباب التوفيق ﴿عدمه﴾ أى عدم الأخذ بمعنى المؤاخذة ﴿فيما لا اختيار له كحديث النفس﴾ مما يخطر ببالها ويذهب بسرعة زوالها ﴿وميل الطبع﴾ أى الجبلى الذى لا اختيار لصاحبه فى الميل اليه ، وأنت عرفت أن حديث النفس وميل الطبع متغايران . وقيل عطف تفسيرى وهو خاطر فعل الذى ما ا تجر الى العزم والهم ﴿لامتناع التكليف فيه﴾ أى فيما لا اختيار فيه فانه تكليف مالا يطاق وقد قال تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) ﴿وورد﴾ فى الحديث ﴿عفى عما حدثت به نفوسنا﴾ وهو معنى حديث الصحاح الست عن أبى هريره « ان الله تجاوز لامتى عما حدثت به انفسها مالم يتكلم به اويعمل به » وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله اذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فان عملها فا كتبوا عليه سيئة فان تركها من أجلى فا كتبوها حسنة ، وإذا هم بحسنة ولم يعملها فا كتبوها حسنة فان عمل فا كتبوها عشرة » رواه الشيخان ﴿وانما هو﴾ أى الاخذ والمؤاخذة ﴿فى العزم﴾ أى حكم القلب بان هذا ينبغى أن يفعل ﴿ والهم ﴾ أى المصمم فهو عطف تفسيرى وهو قصد الفعل بعد الخطور ولكن ما افضى الى مباشرة الفعل لمانع من الشرع أو العقل أو غيرهما ، فانه قد يكون الفاسق محروما وفسقه مجزوما ، او الثانى اخص من الاول فتأمل ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿وان تبدوا مافى انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اى ان تظهروا مافيها من العزم والهم على المعصية او تخفوه يجازكم به كما قال: (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) ولما نزلت الآية جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا مالا نطيق ، أن احدنا ليحدث نفسه بما لا يحب ان يثبت

اِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ الآيَةَ . اِنَّمَا يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ، وَوَقَعَ الاِجْمَاعُ عَلَى الأَخْذِ بِالْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ اِلَّا اَنْ يَمْتَنِعَ بَعْدَ الْعَزْمِ لَهُ تَعَالَى فَيَمْحُوهُ لِرُجْحَانِ تَأْثِيرِ الاِمْتِنَاعِ فِى تَنْوِيرِ الْبَاطِنِ لِأَنَّهُ يُخَالِفُ الطَّبْعَ عَلَى تَأْثِيرِ الْقَصْدِ فِى تَسْوِيدِهِ لِأَنَّهُ يُوَافِقُهُ

فى قلبه ثم يحاسب بذلك ، فقال عليه السلام « لعلكم تقولون كما قالت بنو اسرائيل سمعنا وعصينا قولوا سمعنا واطعنا » فانزل الله الفرج بقوله (لايكلف الله نفسا الا وسعها) رواه مسلم من حديث أبى هريرة. وابن عباس . فظهر به ان كل مالا يدخل تحت الوسع من اعمال القلوب لايؤاخذ به ، قال تعالى ﴿ان السمع والبصر الآية﴾ أى (والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا) وقال تعالى (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه) وقال (لايؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) ﴿ انما يحشر الناس على نياتهم ﴾ رواه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله انما، وله من حديث أبى هريرة « انما يبعث الناس على نياتهم » واسنادهما حسن. وفى الاحياء ونحن نعلم أن من عزم ليلا على ان يصبح و يقتل مسلما او يزنى فمات تلك الليلة مات مصرا و يبعث على نيته . والدليل القاطع فيه حديث « اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال لانه اراد قتل صاحبه » رواه الشيخان ﴿ ووقع الاجماع على الاخذ ﴾ اى المؤاخذة ﴿ بالكبر والعجب والرياء ﴾ وخص الثلاثة بالذكر لكونها من اعمال الباطن ولمناسبتها بالخواطر ﴿ الا ان يمتنع ﴾ عن العمل السوء ﴿ بعد العزم ﴾ أى القصد والجزم على الفعل ﴿ له ﴾ أى يكون امتناعه لاجله ﴿ تعالى ﴾ رجاء أو خوفا ﴿ فيمحوه ﴾ أى فيمحو الله سبحانه الاخذ بها والعقوبة عليها (لرجحان تأثير الامتناع) عن العمل لاجله تعالى (فى تنوير الباطن لانه) أى الامتناع (يخالف الطبع) ويوافق الشرع فيترجح (على تأثير القصد) أى قصد المعصية والعزم عليها فيكون مؤثراً (فى تسويده) أى تسويد الباطن وتغييره (لانه يوافقه) أى لان قصد المعصية يوافق الطبع ولا يلائم الشرع *

وحاصله الامتناع من حيث انه يخالف الطبع يحتاج الى جد شديد وسعى أكيد وما كان جده أشد وسعيه أهم كان تأثيره أكمل وأتم فثبت بهذا ان تأثير الامتناع فى تنوير الباطن أشد من تأثير قصد المعصية فى تسويد الباطن لانه لايحتاج الى سعى

وَوَرَدَفيه «إِنْ تَرَكَهَافَا كْتبوهَا حَسَنَةً» ثُمَّ الوَاجبُ الاحْترَازُعَن الشَّيطَان لأَنَّه عَدوٌّ كمَا نَطَقَ به القُرآنُ وَلأَنَّ العَابدَ يُغَايظُه فَتشتَد مُعَادَاته ايَّاهُ

بليغ، ولما كان جده واجتهاده أقل كان التأثير أنقص فتأمل، وفى الخبر « أفضل الطاعات أحمزها » أى أشقها وأصعبها ﴿ وورد ﴾ فى الخبر ﴿ فيه ﴾ أى فى الامتناع ﴿ ان تركها ﴾ أى العبد السيئة ﴿ فاكتبوها حسنة ﴾ وقد تقدم، ولابن أبى الدنيا فى مكائد الشيطان هكذا مرسلا قال ثابت : لما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه لقد حدث أمر فانظروا ماهو، فانطلقوا ثم جاؤه فقالوا ماندرى، قال إبليس أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء فقال بعث محمد صلى الله عليه وسلم، قال فجعل يرسل شياطينه الى أصحاب النبى عليه السلام فينصرفون خائبين فيقولون ماصحبنا قوماً قط مثل هؤلاء ليس لنانصيب منهم ثم يقومون الى صلاتهم فينمحى أثر ذلك فقال إبليس رويداً بهم عسى الله ان يفتح لهم الدنيا فهناك تصيبون حاجتكم منهم، ومما يدل على ان حديث النفس لايؤاخذ به ماروى عن عثمان بن مظعون حيث قال « يارسول الله ان نفسى تحدثنى ان اطلق خولة قال مهلا ان من سنتى النكاح، قال نفسى تحدثنى أن أجب نفسى، قال مهلا خصاء أمتى دووب الصيام، قال نفسى تحدثنى أن أترهب، قال مهلا رهبانية أمتى الجهاد والحج، قال نفسى تحدثنى ان اترك اللحم، قال مهلا فانى أحبه ولو أصبته لاكلته ولو سألت الله لاطعمنى » رواه الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول عن سعيد بن المسيب مرسلا ﴿ ثم الواجب الاحتراز ﴾ أى الاحتراس ﴿ عن الشيطان ﴾ ومافيه من الوسواس ﴿ لانه عدو كما نطق به القرآن ﴾ حيث قال (ان الشيطان لكم عدو مبين) وقال (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) الاية ﴿ ولان العابد ﴾ العالم ﴿ يغايظه ﴾ أى يغالبه فى غيظه لاجل كونه فى سبيل الله ﴿ فتشتد معاداته ﴾ أى الشيطان ﴿ اياه ﴾ أى ذلك العابد، ولذا ورد « لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » ثم من عداوته للانام أمره لهم بالآثام ووعده الامان من عذاب الله وعدم حسابه واليأس من ثوابه من غير شبهة فضلا عن حجة، ويخوفهم بالفقر فى اعطاء الزكاة ويحثهم على الانفاق فى المحرمات، ويخيل لهم حصر اللذات فى الشهوات واللهوات، ويدعو من له ازواج وجوار ذات جمال ومزينة ومعطرة فى غاية كمال الى زنا من ليس لها ذلك فى الاحوال، ويامر الامراء بالظلم فى اموال الاغنياء واوقاف الايتام والفقراء مع

وَالطَّرِيقُ الاسْتِعَاذَةُ لأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِهَا «وَلأَنَّ الكَلْبَ اِنْ حَارَبْتَهُ تَعِبْتَ وَرُبَّمَا غُلِبْتَ فَالرُّجُوعُ اِلَى رَبِّهِ أَوْلَى» وَالْمُجَاهَدَةُ بِالرَّدِّ

وفورها لهم ، ويقتل النفس بادنى خيال مع تمكنهم من الدفع فى الحال والاستقبال، وله ابواب فيها اطناب ﴿ والطريق ﴾ أى طريق الاحتراز خمسة ﴿ الاستعاذة ﴾ منه به تعالى ﴿ لانه ﴾ أى العبد والاستعاذة ﴿ مأمور بها ﴾ فى قوله تعالى (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) الآية وسائر الآيات والاخبار الواردات. وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح : اللهم انك سلطت علينا عدوا من غير انفسنا بصيرا بعيوبنا مطلعا على عوراتنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك ، وقنطه منا كما قنطته من عفوك ، وابعد بيننا و بينه كما ابعدت بينه وبين جنتك انك على كل شيء قدير، وعن عبد الرحمن بن ابى ليلى قال : كان شيطان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلى فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب ، فاتاه جبريل عليه السلام فقال : قل « اعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ماذرأ وبرأ فى الارض ومن شر مايخرج منها، وما ينزل من السماء ومايعرج فيها، ومن فتن الليل والنهار، وطوارق الليل والنهار الا طارقا يطرق بخير يارحمن » فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه ، رواه ابن أبى الدنيا فى مكائد الشيطان هكذا مرسلا ، ولمالك فى الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلا ووصله ابن عبد البر فى التمهيد من رواية يحيى عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامى عن ابن مسعود ، ورواه احمد والبزار من حديث عبد الرحمن ابن حبيش ﴿ ولأن الكلب ان حاربته تعبت وربما غلبت فالرجوع الى ربه أولى ﴾ فى الخلاص عن البلوى . ومثل الشيطان بالكلب الجائع يقرب منك ، فاذا لم يكن بين يديك لحم أو خبز فانه ينزجر بان تقول له اخسأ فمجرد الصوت يدفعه ، وان كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع فانه يهجم عليك ولا يندفع بمجرد الكلام. فالقلب الخالى عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر ؛ فأما الشهوة اذا غلبت على القلب رفعت حقيقة الذكر الى حواشى القلب فلم يتمكن الذكر من سويدائه فيستقر الشيطان فى سويداء القلب . ومثل بعضهم الشيطان بالكلب التركى فانه لا يخلص لأحد منه لا بالسيف ولا بالفرار ولا باعطاء اللحم وغيره وانما ينجيه منه همهمة صاحبه من داخل خيمته فيفتر غضب كلبه ونهمته ﴿ والمجاهدة ﴾ مع الشيطان ﴿ بالرد ﴾ اى برد الوسوسة

وَقَلعُ الْمُهلِكَاتِ فَهُوَ اِنَّمَا سُلِّطَ لِلاِمْتِحَانِ وَادَامَةُ ذِكْرِهِ تَعَالَى لِسَانًا وَقَلْبًا لِمَا سَبَقَ

ودفعها فى الحالة الآنسة ﴿ وقلع المهلكات ﴾ اى وازالتها من اصلها ،وهى الحسد والحرص والغضب والشهوة وحب التزين فى الثياب والاثاث والدار والشبع من الطعام ولو لم يكن من الحرام ، والطمع فى الانام واخذ كل مايزيد على قدر القوت والحاجة من الدراهم والدنانير وسائر اصناف الاموال ، وخوف الفقر والبخل والتعصب للمذاهب والترصد للمناصب والتفكر فى ذات الله وسوء الظن بالمسلمين ، ونحو ذلك من الحالات الكاسدة والمقامات الفاسدة ﴿ فهو ﴾ اى الشيطان ﴿ انما سلط ﴾ على الانسان ﴿ للامتحان ﴾ فى ميدان الطاعة والعصيان فحينئذ يكرم المرء أو يهان ﴿ وادامة ذكره تعالى لسانا ﴾ خفية اوجهرا ﴿ وقلبا ﴾ فهو أفضل وأكثر تاثيرا والجمع بينهما اكمل ﴿ لما سبق ﴾ من ان العبد اذا ذكر الله خنس الشيطان وتاخر. وفى الخبر «ماسلك عمر فجا ـ اى طريقا ـ الاسلك الشيطان فى غير فجه» رواه الشيخان من حديث سعد بن ابى وقاص . قال فى الاحياء: وهذا لان قلبه هذا كان مطهرا عن مرعى الشيطان وقوته وهى الشهوات ، فمهما طمعت فى أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر كان محالا ، كمن طمع فى أن يشرب الدواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة ، ويطمع فى أن ينفعه الدواء كما نفع الذى يشربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة . فالذكر دواء والتقوى احتماء ، فاذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان عنه كما تندفع العلة بنزول الدواء فى معدة خالية عن الأطعمة ، فان قلت الحديث قد ورد مطلقا بان الذكر يطرد الشيطان ، قلنا ان عمومات الشرع مخصوصة بشروط يعرفها علماء الدين . فانظر الى نفسك فليس الخبر كالمعاينة وتأمل ان منتهى ذكرك وعبادتك وصلاتك لله ، فراقب قلبك اذا كنت فى صلاتك كيف يجاذبه الشيطان الى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين ، وكيف يمر بك فى أودية الدنيا ومهالكها حتى انك لاتذكر مانسيته من فضول الدنيا الا فى صلاتك فلا تزدحم الشياطين على قلبك الا اذا صليت ، والصلاة محك القلوب فيها مساويها ومحاسنها . فالصلاة لاتقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلاجرم لاتطرد عنك الشيطان ، بل ربما يزيد عليك الوسواس فى ذلك الزمان كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر فى الداء ، فان شئت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم اردفه بدواء الذكر كما يشير اليه قوله تعالى : (ان الذين اتقوا اذا مسهم

وَالاستخفاف بدعوته فالكلب ان أعرضت عنه سكت وان اشتغلت معه اتعبك ومعرفة مكائده فاللص ان علم احساس صاحب الدار فر وهى كالمنع عن العمل والتسويف والعجلة والرياء والعجب ورجاء الاظهار منه تعالى وعدم الحاجة الى العمل بناء على قسمة الأزل فى السعادة والشقاوة والرد بالحاجة للتزود وهجوم الاجل ورجحان

طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فالشرط فى الذكر تقدم التقوى أو كمال الحضور فى ذكر المولى،ومن هنا ورد من صلى ركعتين لم يحدث فيهما بشىء من الدنيا غفرله ماتقدم من ذنبه» وقدقال وهب بن منبه : اتق الله ولاتسب الشيطان فى العلانية وانت صديقه فى السر أى مطيع له فى الباطن . وقال بعضهم : ياعجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته باحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه . وعن بعض الحكماء الشيطان ياتى ابن آدم من قبل المعاصى ، فان امتنع اتاه من قبل النصيحة حتى يلقيه فى البدعة ، فان أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ماليس بحرام ، فان أبى شككه فى وضوئه وصلاته حتى يخرجه من العلم ، فان أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفا فيميل قلبه اليهم ويعجب بنفسه وبه يهلكه وعنده يشتد الحاجه فانه آخر درجته ويعلم أنه لو جاوزه افلت منه الى الجنة ﴿والاستخفاف بدعوته﴾ أى الاستحقار وعدم الاعتبار بدعوة الشيطان ﴿فالكلب ان أعرضت عنه سكت﴾ عنك ﴿وان اشتغلت معه﴾ بالدفع ﴿اتعبك﴾ بالعواء ﴿ومعرفة مكائده﴾ الآتى بيانها ﴿فاللص ان علم احساس صاحب الدار فر﴾ أى شرد واضطر الى الفرار ولم يتمكن من القرار ﴿وهى﴾ اى المكائد سبعة ﴿كالمنع عن العمل﴾ من أصله ﴿والتسويف﴾ أى التأخير عن محله ﴿والعجلة﴾ فى فعله ﴿والرياء﴾ فى قصده ﴿والعجب﴾ بعد فراغه ﴿ورجاء الاظهار منه تعالى﴾ للخلق بعدم الاكتفاء بنظر الحق وهو من الرياء الخفى ﴿وعدم الحاجة الى العمل بناء على قسمة الازل فى السعادة والشقاوة﴾ وهذا لف فى العبارة ونشر بالاشارة فى قوله ﴿والرد﴾ اى رد المكائد المذكورة ﴿بالحاجة﴾ الى العمل ﴿للتزود﴾ أى لزاد المعاد فى يوم التناد ، فقد قال تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) ﴿وهجوم الاجل﴾ أى مجيئه بغتة قبل حصول العمل ﴿ورجحان

القَلِيلِ التَّامِّ عَلَى الكَثِيرِ النَّاقِصِ وَ كِفَايَةِ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى وَالتَّفْوِيضِ اِلَيْهِ فِى الاِظْهَارِ وَالاِخْفَاءِ وَفَرْضِيَّةِ اِمْتِثَالِهِ وَحَقِّيَّةِ وَعْدِهِ الأَدْنَى ثُمَّ الاِقْتِصَارُ عَلَى التَّكْذِيبِ وَتَرْكُ الجِدَالِ ثُمَّ الاِسْتِمْرَارُ عَلَى مَاكَانَ عَلَيْهِ ثُمَّ الزِّيَادَةُ فِى ضِدِّهِ فَفِيهِ اِغْضَابُهُ وَاخْتُلِفَ فِى أَمْنِ الأَقْوِيَاءِ

﴿القليل﴾ من العمل ﴿التام﴾ اى الكامل بالتأنى ﴿على الكثير﴾ من العمل ﴿الناقص﴾ بالعجلة ﴿وكفاية رؤيته تعالى﴾ لقوله سبحانه (الم يعلم بان الله يرى) وقوله عز وجل (اليس الله بكاف عبده) ﴿وذكر منته والتفويض اليه﴾ أى التسليم بين يديه ﴿فى الاظهار والاخفاء﴾ فى العبادة، بل ينبغى ان يميل الى الاخفاء لانه أبعد من الرياء. وفى الخبر «افضل امتى الاتقياء الاخفياء» ﴿وفرضية امتثاله﴾ أى امتثال امره على عبده، ثم ان كنت شقيا فانا محتاج الى العمل لكيلا الوم نفسى يوم القيامة فانى لو ادخلت النار وانا مطيع احب الى من ان ادخلها وانا عاص لخفة العذاب، وان كنت سعيدا فانا محتاج الى زيادة الثواب ﴿وحقية وعده الادنى﴾ اى الاقرب بالاثابة على الطاعة والاجابة ﴿ثم﴾ الافضل ﴿الاقتصار على التكذيب﴾ أى تكذيب الشيطان فيما يوسوسه ﴿وترك الجدال﴾ فانه يردد قلب العبد و يشوشه. ولان المجادلة شاغلة عن العبادة الكاملة ﴿ثم الاستمرار على ماكان عليه﴾ من العبادة والاستقرار من غير تكذيب ولاجدال لان التكذيب ايضا شاغل كالجدال وان كان قليلا فان المقصود الاعلى هو الحضور مع المولى ﴿ثم الزيادة﴾ اى زيادة الاجتهاد ﴿فى ضده﴾ اى اضداد ماذكر من المكائد وفى ضد كيد الشيطان ﴿ففيه اغضابه﴾ اى اغضاب الشيطان وارضاء الرحمن كما حكى عن ابراهيم بن ادهم انه لما اراد ان يدخل البادية اتاه الشيطان فخوفه بان هذه بادية مهلكة هاوية ولازاد معك ولاسبب ولاراوية؛ فعزم على نفسه ان يقطع البادية على تجرده ذلك، وان لايقطعها حتى يصلى الف ركعة تحت كل ميل من اميالها هنالك؛ وقام بما عزم عليه من الهمة وبقى عليه فى البادية اثنتى عشرة سنة. ويروى عن الفضيل بن غزوان انه قيل له: ان فلا نا ذكرك بسوء، فقال: والله لاغيظن من امره قيل من امره؟ قال الشيطان، ثم قال: اللهم اغفر له اى لاغيظنه بان اطيع الله فيه. ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة ان تزيد فى حسناته وهو خلاف ماله من الارادة ﴿واختلف﴾ اى اختلف العلماء ﴿فى امن الاقوياء﴾ كالانبياء

مِنْهُ وَالْحَقُّ عَدَمُهُ لِقِصَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَرَدَ أَنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَفِي مُنَافَاةِ التَّرَصُّدِ التَّوَكُّلَ وَالْحَقُّ عَدَمُهَا فَأَخْذُ السِّلَاحِ وَجَمْعُ الْعَسْكَرِ وَحَفْرُ الْخَنْدَقِ مَاقَدَحَتْ فِي تَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِي كَيْفِيَّةِ الْحَذَرِ

والأصفياء من الأولياء ﴿ ومنه ﴾ أى من الشيطان فقال قوم هم معصومون ومحفوظون عنه لقوله سبحانه (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقوله (الا عبادك منهم المخلصين) ﴿ والحق ﴾ من الأقوال ﴿ عدمه ﴾ أى عدم أمنهم من الشيطان في جميع الأحوال ﴿ لقصة آدم عليه السلام ﴾ فى أكل الشجرة فانه صريح فى الملام ونص فى الكلام حيث قال (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) ولقوله تعالى (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) والخطاب لنبينا عليه السلام وقد روى أنه عليه السلام نظر الى علم ثوبه فى الصلاة فلما سلم رمى ذلك الثوب وقال «شغلنى عن الصلاة» ولقوله سبحانه (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى) أى قرأ (ألقى الشيطان فى أمنيته) أى قراءته (فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) ﴿ وورد ﴾ فى صحيح مسلم وغيره ﴿ انه ﴾ أى الشيطان ﴿ ليغان ﴾ أى ليحجب ﴿ على قلبى ﴾ فيمنعنى عن ذكر ربى مع أن شيطانه أسلم فلا يأمر الا بخير » وتمام الحديث « وانى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » وفيه انه ليس فى هذا الحديث ما يدل على مدعى المصنف من اغواء الشيطان له فان المراد بالغين حجاب يقع من كثرة مشاهدة غبار الغير فى مقام البين فيمنع عن مشاهدة العين فيستغفر ربه من الذنب اللائق به ، فان سيئات المقربين الاحرار حسنات المطيعين الابرار ، ومادمت فى هذه الدار لا تستغرب وقوع الاكدار ﴿ وفى ﴾ اى وكذا اختلف فى ﴿ منافاة الترصد ﴾ اى التحفظ للحذر من الشيطان ﴿ التوكل ﴾ بالنصب مفعول منافاة ﴿ والحق ﴾ من الاقوال المختلفة ﴿ عدمها ﴾ اى عدم المنافاة ﴿ فاخذ السلاح ﴾ من الدرع والمغفر وسائر الاسلحة ﴿ وجمع العسكر ﴾ للمقاتلة ﴿ وحفر الخندق ﴾ فى المقابلة ﴿ ماقدحت فى توكله ﴾ اى وما طعنت فى توكله ﴿ عليه السلام ﴾ واصحابه الكرام ، بل ورد الامر من الله سبحانه بأخذ السلاح فى قوله تعالى (وليأخذوا حذرهم واسلحتهم) وقال (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) وفى الحديث « الا ان القوة الرمى » ﴿ وفى ﴾ اى وكذا اختلف فى ﴿ كيفية الحذر ﴾ عن الشيطان فقوم قالوا اذا حذرنا الله تعالى عن العدو فينبغى لنا ان نستغرق فى ترصده ولا يكون شىء اغلب على قلوبنا من ذكره وفكره . وقال قوم : لا ينبغى لنا ان نجمع بين ذكر الله .

فَالأَولَى تَقْرِيرُ عَدَاوَتِه عَلَى القَلْبِ وَالاسْتِغْرَاقُ فِى ذِكْرِه تَعَالَى بِجَمْعِ الهِمَّة وَالاشْتِغَالُ بِالدَّفْعِ عِنْدَ الانْتِبَاهِ بِوُرُودِه أَمَّا الاسْتِغْرَاقُ فِى التَّرَصُّدِ فَيُنَافِى الذِّكْرَ وَهُوَ أَسْرَارُه وَالجَمْعَ يَنْقُصُ الحُضُورَ وَوَرَدَ (قُلِ اللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) وَعَنِ النَّفْسِ فَعِلاجُهَا أَعْسَرُ

سبحانه وبين ذكر عدوه فضلا ان يكون ذكره غالبا، ففى الخبر «من احب شيئا اكثر ذكره» وقال قوم: غلط الفريقان لان كلا من القولين لا يخلو عن نوع من النقصان كما سيأتى له البيان ﴿ فالاولى تقرير عداوته ﴾ اى احكام عداوة الشيطان واثباته ﴿على القلب﴾ فاذا تقررت عداوته فى القلب لزم ترك الالتفات اليه ﴿والاستغراق فى ذكره تعالى﴾ اى وتمام التوجه الى ذكر الرب ﴿ بجمع الهمة ﴾ من غير الالتفات الى ذكر الشيطان ومكره بسبب حضور القلب فى طاعة ربه ﴿ والاشتغال بالدفع ﴾ اى بدفع الشيطان ﴿ عند الانتباه بوروده ﴾ اى بدخول الشيطان فى القلب بالوسواس ونحوه لدخوله فى الانسان مجرى الدم فى لحمه ﴿ اما الاستغراق فى الترصد﴾ أى فى التحفظ عن الشيطان للحذر ﴿فينا فى الذكر﴾ المطلوب لذاته ﴿وهو﴾ اى الاستغراق المذكور ونفى الذكر ﴿ اسراره ﴾ اى ايقاع الشيطان فى السرور وايثاره، لانه مراده فى مقام اختياره ﴿ والجمع ﴾ اى وينافى جمع الهمة اومقام الجمع اوجمع الجمع، وهو ان لا تمنع الكثرة عن الوحدة ولا تحجب الوحدة عن الكثرة، والجمع بين ذكر الرحمن وبين ترصد الشيطان ﴾ ينقص الحضور ﴿ فى ميدان المشاهدة والعيان على قدر اشتغال القلب بذكر الشيطان، فان الله سبحانه امر الخلق بذكره ونسيان غيره ﴿وورد ﴾ فى التنزيل ﴾ قل الله ﴾ أى ولا سواه ولا نعبد ولا نشهد الا اياه ﴿ثم ذرهم﴾ اى اترك الخلق من الشيطان وغيره فهم ﴿ فى خوضهم ﴾ أى اباطيلهم من الاشتغال بغير الحق ﴿يلعبون﴾ كالبهائم والاطفال والمجانين كما قال فى موضع آخر (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون) اى جزاء عملهم او مضمون قوله سبحانه (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) اى ليوحدون اولا، ثم يطيعون ثانيا، ثم يذكرون على الدوام ثالثا، ثم يعرفون حق المعرفة رابعا ﴿ وعن النفس ﴾ عطف على قوله عن الشيطان أى ثم الواجب الاحتراز عن النفس الامارة بالسوء لانها اشد الاعداء وبلاؤها اصعب البلاء ﴾ فعلاجها اعسر ﴾ من علاج الشيطان واشد الاشياء وداؤها اعضل الداء، ودواؤها اشكل الدواء

لِأَنَّهَا مَحْبُوبَةٌ وَالْحُبُّ يُعْمِي عَنْ رُؤْيَةِ الْعَيْبِ وَيُصِمُّ عَنْ سَمَاعِ الْمَلَامَةِ وَعَدُوٌّ دَاخِلِيٌّ فَلِصُّ الْبَيْتِ تَعِزُّ فِيهِ الْحِيلَةُ وَلَا تَنْفَكُّ إِلَّا بِالْمَوْتِ وَلَا تَنْدَفِعُ بِالذِّكْرِ وَتَشْكُو النَّفْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّنْ وَافَقَهَا فِي الدُّنْيَا وَمِنْهَا نَشَأَ ذَنْبُ إِبْلِيسَ بِالْكِبْرِ وَالْحَسَدِ

لاربعة امور ﴿ لانها محبوبة ﴾ لصاحبها مع انها اعدى عدوه ﴿ والحب يعمى ﴾ العين ﴿ عن رؤية العيب ﴾ فى محبوبه ﴿ ويصم ﴾ الاذن ﴿ عن سماع الملامة ﴾ فى مطلوبه، ففى الخبر « حبك الشيء يعمى ويصم » رواه احمد وغيره عن ابى الدرداء *

والحاصل ان للانسان عمى عن عيب محبوبه لا يكاد يبصر عيبا فى مطلوبه، كما قال قائل فى شعره :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

فاذا يستحسن الانسان من نفسه كل قبيح، ولا يكاد يطلع على عيب لها الا ويقول انه مليح، وهى فى عداوته مستقرة، وفى غوايته مستمرة، فما اوشك ان توقعه فى هلاك وفضيحة، ويتوهم انه خلاص ونصيحة، وهو لا يشعر به الا اذا حفظه الله سبحانه بفضله وكرمه ﴿ وعدو ﴾ أى ولانها عدو ﴿ داخلى ﴾ أى باطنى ﴿ فلص البيت ﴾ أى ممن يدخل فيه ويخرج منه ﴿ تعز فيه الحيلة ﴾ أى يعسر فى دفعه الخلاص من المكيدة ولذا قال تعالى (لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا) ﴿ ولا تنفك ﴾ أى النفس عن الانسان ﴿ الا بالموت ﴾ بخلاف الشيطان فانه ينفك بالاستعاذة والمجاهدة ﴿ ولا تندفع ﴾ النفس وشرها ﴿ بالذكر ﴾ أى بذكر الله، بخلاف الشيطان فانه يندفع بالذكر لما سبق من حديث « اذا ذكر الله خنس » ﴿ وتشكو النفس يوم القيامة عمن وافقها فى الدنيا ﴾ فللحاكم عن انس مرفوعا « عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول يارب أليس وعدتنى ان لا تظلمنى؟ قال بلى ؛ قال فانى لا اقبل على شهادة شاهد الا من نفسى، فيقول اوليس كفى بى شهيدا وبالملائكة الكرام الكاتبين، فيردد هذا مرات فيختم على فيه وتكلم اركانه بما كان يعمل، فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت اجادل » واما ما فى الاحياء من انه عليه السلام قال: « كف اذاك عن نفسك ولا تتبع هواها فى معصية الله تعالى اذن تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضا الا ان يعفو الله ويستر » فقال مخرجه لم اجده بهذا السياق ﴿ ومنها ﴾ اى من النفس ﴿ نشأ ذنب ابليس بالكبر والحسد ﴾ حيث قال (انا خير منه) وامتنع عن حكم

وَقَابِيلَ بِالشُّحِّ وَهَارُوتَ بِالشَّهْوَةِ وَالطَّرِيقُ مَنْعُ الشَّهَوَاتِ فَالْحَرُونُ يَلِينُ بِنَقْصِ الْعَلَفِ وَحَمْلِ اعْبَاءِ الْعِبَادَةِ فَالْحِمَارُ يَنْقَادُ بِزِيَادَةِ الْحِمْلِ ، وَالاسْتِعَانَةُ بِهِ تَعَالَى فَوَرَدَ (اِنَّ النَّفْسَ لَاَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ اِلَّا مَارَحِمَ رَبِّى) وَالْاَصْلُ فِيهِ الرِّيَاضَةُ

ربه فكفر بسببه بعد قضاء الله السابق فى حقه فغرق فى بحر الضلال بعد عبادة ثمانين الف سنة فى بعض الاقوال، ولم يكن هناك دنيا ولا خلق ولا شيطان آخر بل كانت النفس وحدها فعملت ما عملت من جهدها ﴿ وقابيل بالشح ﴾ أى بسبب بخله على اخيه فى اخته، فانكر على ابيه فوقع فى الكفر بسببه لا بسبب قتل اخيه ﴿ وهاروت ﴾ وصاحبه ماروت وقعا فيما وقعا من البلية ﴿ بالشهوة ﴾ التى ادت الى الزنا ونحوه من المعصية قيل: وآدم وحواء بالحرص على الدوام والبقاء حتى اغترا بقول ابليس (هل اذلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فسقطا بذلك من جوار المولى الى هذه الدنيا الدنية الحقيرة النكدة الفانية ، ولقى اولاده من الامور المهلكة، ثم هلم جرا الى يوم القيامة لا تجد فى الخلق فتنة ولا فضيحة ولا محنة ولا ضلالا ولا معصية الا واصلها النفس وهواها والا كان الخلق فى سلامة وخير فى مبدأ الامور ومنتهاها، واذا كان العدو بهذا الضرر كله فحق على العاقل ان يهتم بامرها فى حقه . فان قيل بين لنا طريق دفع هذه النفس فيقال : ﴿ والطريق ﴾ أى طريق تذلل النفس وتكسر هواها، اوطريق الاحتراز عن النفس ومشتهاها ثلاثة ﴿ منع الشهوات ﴾ ودفع اللهوات ، ورفع اللذات عنها ﴿ فالحرون ﴾ أى الصعب من الدواب ﴿ يلين بنقص العلف ﴾ عن عادته مع حبسه فى مربطه ﴿ وحمل اعباء العبادة ﴾ أى اثقالها واشغالها ﴿ فالحمار ﴾ الجموح ﴿ ينقاد بزيادة الحمل ﴾ على ظهره ﴿ والاستعانة به تعالى ﴾ والتضرع اليه ليهون امرها عليه والا فلا مخلص لديه ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى ﴾ اى من رحمه او مدة رحمته ﴿ والاصل فيه ﴾ اى فى طريق الاحتراز او فى طريق تذلل النفس ﴿ الرياضة ﴾ اى وفق الشريعة المرضية ففى تحفة الملوك: لا تحل الرياضة بتقليل الاكل الى أن يضعف عن اداء العبادة ، ولو واصل اربعين يوما فمات مات عاصيا، ولو مرض وترك المعالجة توكلا على الله فمات لم يمت عاصيا ، والتنعم بانواع الفاكهة يباح وتركه افضل ، والجمع بين الاطعمة حرام أى ممنوع ومكروه كراهة تنزيهية او حرام فى طريق الصوفية ثم الاصل المهم المجاهدة والوفاء بالعزم على المعاندة ،

وَهِيَ تَهْذِيبُ الأَخْلَاقِ فَوَرَدَ «أَنِّي رَأَيْتُ البَارِحَةَ عَجَبًا رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي جَاثِيًا وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ فَجَاءَ حُسْنُ الخُلُقِ فَأَدْخَلَهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى» أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ فِي المِيزَانِ حُسْنُ الخُلُقِ» وَهُوَ ضَبْطُهُ تَحْتَ الشَّرْعِ وَالعَقْلِ وَهُوَ مُمْكِنٌ لِصَيْرُورَةِ الصَّيْدِ الوَحْشِيِّ أَهْلِيًّا وَالجَمُوحِ مُنْقَادًا وَالكَلْبِ مُعَلَّمًا

فاذاعزم على ترك شهوة وتيسر اسبابها ابتلاء من الله فينبغي ان يصبر عنها ويستمر عليها ، فانه ان عود نفسه كسر العزم ألفت بعدذلك عدم الجزم وفسدت لفقد الحزم، واذا اتفق منه بعض العزم فينبغي ان يلزم نفسه عقوبة عليه وجزاء لديه ﴿وهى﴾ اى الرياضة او المقصود من الرياضة المستحسنة بالاتفاق ﴿تهذيب الاخلاق فورد﴾ فى الحديث ﴿انى رأيت البارحة عجبا﴾ اى امرا غريبا ﴿رأيت رجلا من امتى جاثيا﴾ أى جالسا على ركبتيه ﴿وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن الخلق﴾ من باب ﴿فادخله على الله تعالى﴾ من غير حساب ولا عقاب . والحديث رواه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث عبد الرحمن بن سمرة ﴿اثقل مايوضع فى الميزان حسن الخلق﴾ رواه ابو داود والترمذى وصححه من حديث ابى الدرداء. ولابى داود والترمذى من حديث أبى الدرداء « مامن شيء فى الميزان اثقل من حسن الخلق» وللطبرانى فى الاوسط من حديث عمار بن ياسر « حسن الخلق خلق الله الاعظم » ولاحمد والحاكم والبيهقى من حديث ابى هريرة « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » ولاحمد من حديث عائشة «الشؤم سوء الخلق» ولابن حبان وغيره «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » وللخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عائشة «المؤمن حسن الخلق» وللطبرانى فى الصغير من حديث عائشة «مامن شيء الا وله توبة الا صاحب سوء الخلق فانه لايتوب من ذنب الا عاد فى شر منه» وذكر شيخ مشايخنا الجلال السيوطى حديث «أحسن الحسن الخلق الحسن» رواه الحسن عن الحسن عن ابى الحسن عن جد الحسن بسند حسن ﴿وهو﴾ أى حسن الخلق ﴿ضبطه﴾ أى حفظه وربطه ﴿تحت الشرع والعقل﴾ فى قضية الطبع ﴿وهو﴾ أى تحسين الاخلاق ﴿ممكن﴾ بالاتفاق ﴿لصيرورة الصيد الوحشي اهليا﴾ كالظبي والحمام ﴿والجموح منقادا﴾ كالفرس والبعير ﴿والكلب معلما﴾

وورد «حسنوا أخلاقكم»

و كذا سائر الجوارح من الصيود حتى يصير آلة للصيد فى مقام القيد ﴿ وورد ﴾ فى الحديث ﴿ حسنوا اخلاقكم ﴾ رواه ابن لال فى مكارم الاخلاق من حديث معاذ «يامعاذ حسن خلقك للناس» ولاحمد من حديث عائشة «اللهم حسنت خلقى فحسن خلقى» وللطبرانى من حديث جابر «ان اقربكم منى مجلسا يوم القيمة احاسنكم اخلاقا» هذا، والخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الافعال بسهولة و يسر من غير حاجة الى روية وفكر، ثم ان كانت الهيئة بحيث تصدر منها الافعال الجميلة شرعا وعقلا سميت الهيئة التي هى المصدر خلقا حسنا، وأن كان الصادر منها الافعال القبيحة بسهوله سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا. وكما أن حسن الصورة الظاهرة لايتم الابحسن جميع اعضائه فكذا فى الباطن أربعة اركان لابد من الحسن فى جميعها، وهى قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه الثلاثة. و يعبر عن حسن القوة الغضبية بالشجاعة، وعن حسن قوة الشهوة بالعفة. والمراد بالعدل هو اعتدال القوتين بين الافراط والتفريط. فان الامر المحمود فى كل شيء هو التوسيط. فالجبن والتهور مذمومان كما ان البخل والاسراف منهيان، والشره والجوع مشغلان. وقد ورد «خير الامور اوساطها» رواه البيهقى فى شعبه. وقال تعالى فى ذم التبذير والتقتير (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال تعالى (ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا أن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا) وقال تعالى (كلوا واشربوا ولاتسرفوا) وقال (اشداء على الكفار رحماء بينهم) وقال (اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين) فالاعتدال مطلوب فى جميع الاحوال، فان العقيدة الحميدة هى المتوسطة بين التشبيه والتعطيل، وبين القدر والجبر، وبين النصب والرفض. وهو الصراط المستقيم والدين القويم الذى لاعوج له ولاميل الى احد الجانبين الزائغ عن الجادة قال تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال (واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا) ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض، بل هو ادق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا جاز على مثل هذا الصراط المستقيم في العقبى، وقل ماينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم، اعنى الوسط حتى

فَالْأَسْرَعُ عِلَاجًا مَنْ غَفَلَ عَنِ اعْتِقَادٍ وَتَمْيِيزٍ ثُمَّ مَنْ عَرَفَ الْقَبِيحَ ثُمَّ مَنِ اعْتَقَدَهُ حَسَنًا وَهُوَ أَصْعَبُ، وَالطَّرِيقُ عِنْدَ فَقْدِ الْكَمَالِ الْفِطْرِيِّ كَمَا لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالْجَذْبَةِ

لايميل الى احد الجانبين فيكون قلبه متعلقا بالجانب الذى مال اليه ، فلهذا لاينفك عن عذاب ما واجتياز عن النار وان كان مثل البرق قال تعالى (وان منكم الاواردها كان على ربك حتما مقضيا) ولاجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد ان يدعو الله فى كل يوم سبع عشرة مرة بقوله : (اهدنا الصراط المستقيم) ومن هنا قال عليه السلام « استقيموا ولن تحصوا » أى ولن تطيقوا حق الاستقامة وهى الموصوفة بنعت الاستدامة فينبغى للعبد ان يجتهد ان يصل الى القرب من الاستقامة ان لم يقدر على حقيقتها فان مالايدرك كله لايترك كله ، والمقصود عجز الانسان كما يشير اليه قوله تعالى (كلا لما يقض ما أمره) هذا، وقال يحيى بن معاذ : فى سعة الاخلاق كنوز الارزاق وعن الحسن من ساء خلقه عذب نفسه . وقال الكنانى : التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف. وقال يحيى بن معاذ سوء الخلق سيئة لاينفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لايضر معها كثرة السيئات، ثم قال الحسن: حسن الخلق بسط المحيا وبذل الندى وتحمل الاذى . وقال الواسطى :هو ان لايخاصم ولايخاصم من شدة معرفته بالمولى . وقال الحسين بن منصور :هو ان لايؤثر فيك حياء الخلق بعد مطالعتك للحق ﴿ فالاسرع علاجا ﴾ أى الاهون مداواة ﴿ من غفل عن اعتقاد وتميز ﴾ من جهة اعتماد كالصبيان والنسوان والبله من الانسان وجماعة التركمان ،ومن هنا ورد « اكثر اهل الجنة البله» ﴿ ثم من عرف القبيح ﴾ أى واعتقده سيئا فانه قابل للعلاج فى تركه ﴿ ثم من اعتقده ﴾ اى القبيح ﴿ حسنا ﴾ وذلك كالمبتدعة ونحوهم قال تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) ﴿ وهو اصعب ﴾ لان علاجه باخراجه عن اعتقاده وفيه غاية من التعب ،وفى مثله قيل : من التعذيب تهذيب الذيب ﴿ والطريق ﴾ مبتدأ اى طريق تهذيب الاخلاق ﴿ عند فقد الكمال الفطرى ﴾ أى الجبلى الذى لايحتاج الى التكلف الطبيعى ﴿ كما للانبياء عليهم السلام ﴾ وكذا لبعض الاصفياء والاولياء من اتباعهم الكرام ﴿ والجذبة ﴾ أى وعند فقد

الالهيّة كَمَا للسَّحرة وعُمر رضى الله عنه التّكلُّف فى اعْتيَاد الاضْدَاد بالتّدْريج وَالمُجَاهدَةُ فيه حَتّى يَعتَادَ الطّاعَة ويَلتذَّ بهَا التذَاذَ المَريض بالطّعَام بَعْدَ العلاَج وَالمُتعلّم بالعلْم عَلى الدّوَام لَا أَحْيَانًا

الجذبة ﴿ الالهية كما للسحرة ﴾ أى سحرة فرعون ﴿ وعمر رضى الله عنه ﴾ فانه آمن بغتة ﴿ التكلف ﴾ خبر المبتدأ اى تكلف السالك ﴿ فى اعتياد الاضداد ﴾ أى تعود اضداد الاخلاق السيئة ﴿ بالتدريج ﴾ أى بالتأنى فى المعالجة ﴿ والمجاهدة ﴾ بالرفع عطف على التكلف ويجوز جره عطفا على التدريج ، أى المبالغة فى المعالجة ﴿ فيه ﴾ أى فى الاعتياد ﴿ حتى يعتاد ﴾ السالك ﴿ الطاعة ﴾ بوصف الدوام ﴿ ويلتذ بها ﴾ أى بالطاعة ﴿ التذاذ المريض بالطعام بعد العلاج ﴾ أى بعد علاج المريض ﴿ والمتعلم ﴾ أى والتذاذه ﴿ بالعلم على الدوام ﴾ متعلق بالتكلف كذا قيل ، والاظهر انه متعلق بيلتذ ﴿ لا احيانا ﴾ أى متساوية ، نعم قد تفيد المجاهدة اذا كان فى اكثر الاحوال الواردة ، وقد مثل عدم افادة بعض الاوقات فى الذكر والفكر والطاعات بايقاد النار تحت البرمة فانها لا تفور ابدا اذا كان الامر مترددا بين الحالات .

هذا وقد توهم عبارة المصنف أن صاحب الجذبة لا يحتاج الى سلوك المجاهدة ، وليس كذلك ، فان الجهاد لابد لجميع العباد ، غاية ما فى الباب ان ارباب السلوك على نوعين: منهم سالك مجذوب وهو اغلب احوال المريدين ، ومنهم مجذوب سالك وهو قليل من بين المرادين ، ويشير الى الطائفتين قوله تعالى : (الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) واختلفوا فى ايهما افضل؟ والجمهور على ان السالك المجذوب اكمل .

هذا والانبياء عليهم السلام أيضا فى مقام الترقى لا يستغنون عن زيادة المجاهدة لكمال المشاهدة فقد قال تعالى (وقل رب زدنى علما) وفى دعائه عليه السلام «اللهم كما حسنت خلقى نحسن خلقى » أى زد فى تحسين خلقى ، والا فكان عليه السلام خلق على خلق عظيم ، ثم كان خلقه القرآن وقد قال له تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين) وفسر العفو بان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك . وكان من دعائه عليه السلام «اللهم اهدنى لاحسن الاخلاق لا يهدينى لاحسنها الا انت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها الا انت » رواه مسلم من حديث

فَالْمَقْصُودُ مِنْهُ رُسُوخُ حُبِّهِ تَعَالَى فِي الْقَلْبِ وَقَلْعُ حُبِّ الدُّنْيَا عَنْهُ وَهُوَ بِالاسْتِفَادَةِ مِنْ شَيْخٍ بَصِيرٍ بِالْعُيُوبِ مُطَّلِعٍ عَلَى الْخَفَايَا وَهُوَ عَزِيزُ الْوُجُودِ

على ﴿ فالمقصود منه ﴾ اى من حسن الخلق او من رياضة الخلق ﴿ رسوخ حبه تعالى ﴾ أى ثبوته ﴿ فى القلب وقلع حب الدنيا عنه ﴾ أى عن القلب فانهما لا يجتمعان كما يشير اليه قوله تعالى : (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) وورد « من احب آخرته اضر بدنياه ومن أحب دنياه اضر باخرته فآثروا ما يبقى على ما يفنى » وقد مثل على كرم الله وجهه الدنيا والآخرة بالضرتين اذا ارضيت واحدة اسخطت الاخرى ، وبكفتى الميزان اذا اثقلت واحدة خفت الاخرى ، وبالمشرق والمغرب فمهما توجهت الى المشرق بعدت عن المغرب وكذا بالعكس ، فكل قلب مال الى حب شىء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله الا اذا احب الشىء لكونه معينا له على حب الله ودينه ، قال تعالى (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) قال على رضى الله عنه : الايمان يبدو لمعة فى القلب بيضاء وكلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض ، فاذا استكمل العبد الايمان ابيض القلب كله ، وان النفاق ليبدو فى القلب نكتة سوداء ، فكلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد ، فاذا استكمل النفاق أسود القلب كله . وفيه تنبيه على ان الخلق الحسن من نتيجة الايمان والعرفان ، والسئ من ثمرة النفاق والكفران .

ثم أعلم أن اصل الاشياء وموجدها ومخترعها الذى جعلها اشياء هو الله تعالى ، فلو عرف كل شىء ولم يعرف الله سبحانه فكانه لم يعرف شيئا ، وعلامة المعرفة المحبة ، فمن عرف الله أحبه ومن احبه لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات ، كما قال تعالى (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم) إلى قوله (أحب اليكم من الله ورسوله) الآية ، فمن كان عنده شىء احب اليه من الله ورسوله فقلبه مريض ، كما أن كل معدة صار الطين أحب اليها من الخبز والماء وسقطت شهوتها عن الخبز والماء فهى مريضة محتاجة الى الدواء ﴿ وهو ﴾ أى الطريق الذى يتعرف به الانسان عيوب نفسه او التكلف باعتبار الاضداد أنما يحصل بخمسة اشياء ﴿ بالاستفادة من شيخ ﴾ أى ولو شاب تائب من الذنوب ﴿ بصير بالعيوب ﴾ أى الظاهرة والباطنة ﴿ مطلع على الخفايا ﴾ من أحوال المريد كالعجب والرياء ﴿ وهو عزيز الوجود ﴾ فى ميدان الشهود كما يشير اليه قوله تعالى (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) وقوله (وقليل من عبادى الشكور) وورد

أَوْ صَدِيقٍ يُنَبِّهُ عَلَيْهَا كَمَا رُوِيَ عَنِ السَّلَفِ أَوْعَدُوٍّ فَعَيْنُ السُّخْطِ تُبْدِيهَا أَوْمُخَالَطَةِ النَّاسِ وَتَرْكِ مَارَأَى مَذْمُومًا

«الناس كابل مائة لاتجد فيها راحلة « واخبر تقله » وقال الشاعر *

اتمنى على الزمان محالا   أن ترى مقلتاى طلعة حر

والمراد بالحر من لا يستعبده هواه ولا تسترقه دنياه، فالاطباء هم العلماء، وقد استولى المرض عليهم وغلب حب الدنيا لديهم ، فلا يفيد السالك التردد اليهم ، بل اندرس هذا العلم وهو معرفة احوال القلوب الخفية وانكر وجودها بالكلية، واقبل الخلق على اعمال ظاهرها عبادات وباطنها مراياة وعادات. نعم كان يكثر وجودهم فى الصحابة واكابر التابعين وبعض المتأخرين كالسرى. والجنيد. والشبلى رضى الله عنهم اجمعين وقد قال الشبلى للحصيرى: أن كان يخطر بقلبك من الجمعة الى الجمعة التى تأتى شيء غير الله عز وجل فحرام عليك ان تأتينى ﴿ او صديق ﴾ أى صاحب صديق ﴿ ينبه ﴾ صديقه ﴿ عليها ﴾ أى على عيوبه ﴿ كما روى عن السلف ﴾ ومنهم عمر رضى الله عنه حيث قال : رحم الله من أهدى إلى بعيوبى . وكان يسأل سلمان عن عيوبه كلما قدم عليه ، وقال: ماالذى بلغك عنى مما كرهته ؟ فاستعفى ، والح عليه فقال: سمعت انك جمعت بين ادامين على مائدة، وأن لك حلتين : حلة بالنهار وحلة بالليل. فقال هل بلغك غير هذا ؟ فقال : اما هذان فقد كفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول: أنت صاحب سر رسول الله فى المنافقين فهل ترى على شيئا من آثار النفاق ؟ وقد قال تعالى: (ياأيها الذين آمنوا أتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال بعضهم كن مع الله ، فان لم تطق فكن مع من يكون مع الله وهذا أيضا عزيز فيقل فى الاصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب او يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب ، ولذا كان داود الطائى قد اعتزل عن الناس فقيل له لم لا تخالط الناس ؟ فقال : ما اصنع باقوام يخفون عنى عيوبى ، فكان شهوة ذوى الدين من السلف المجتهدين ان يتنبهوا على عيوبهم تنبيه غيرهم، وقد آل الامر الى امثالنا ، أن ابغض الخلق الينا من ينصحنا ويعرفنا بعيوب احوالنا ، ويشبه أن يكون هذا من قساوة القلب التى ثمرتها كثرة العصيان، واصل ذلك كله ضعف الايمان ﴿ اوعدو ﴾ حاذق عاقل ﴿ فعين السخط ﴾ بفتحتين وبضم فسكون أى عدم الرضاء ﴿ تبديها ﴾ أى تظهر العيوب وتكشف الذنوب كما تقدم فى قول الشاعر *

فعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدى المساويا

فلعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوب نفسه اكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه و يمدحه ويخفى عنه عيوبه ﴿ او مخالطة الناس ﴾ اماما او ماموما ﴿ وترك ما رأى مذموما

أَوِالْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَهُوَ الْأَنْفَعُ، وَالْأَصْلُ تَرْكُ التَّمَتُّعِ بِمَا لَا يُنَالُ فِي الْقَبْرِ إِلَّا بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ لِئَلَّا يَحْصُلَ الْأُنْسُ بِالدُّنْيَا الْمُؤَدِّي إِلَى حُبِّهَا فَهُوَ رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ٭

لئلا یکون مذموما ، ومایراه محمودا یطالب نفسه به لیصیر مسعودا فان المؤمن مرآة المؤمن فیری من عیوب غیره عیوب نفسه فلو ترک الناس کلهم مایکرهونه من غیرهم لاستغنوا عن مؤدب لانفسهم، وقیل لعیسی علیه السلام من ادبك ؟ فقال : ما ادبنی احد، رأیت جهل الجاهل فجانبته ﴿ او الکتاب و السنة ﴾ ای العمل بهما ﴿ وهو ﴾ ای الاعتصام بهما ﴿ الانفع ﴾ بل هو النافع، ویؤیده قوله تعالی : (والذین جاهدوا فینا لنهدینهم سبلنا) وحدیث «من عمل بما علم ورثه الله علم مالایعلم» ﴿ والاصل ﴾ فی تهذیب الاخلاق اوفی رسوخ حبه سبحانه ﴿ ترك التمتع بما لاینال ﴾ ای لاتحصل منفعته ﴿ فی القبر ﴾ الذی هو البرزخ بین الدنیا والاخری، فینبغی ان لایتمتع ﴿ الا بقدر الضرورة ﴾ فی معیشة الدنیا من اللقمة والخرقة ونحوهما، ویتعین ترك التمتع باللذات والشهوات من غیر الضرورات ، فقد قال وهب بن منبه : مازید علی الخبز . فهو شهوة، وقال یزید الرقاشی : السلام علی الماء البارد مادمت فی الدنیا لعلی لا احرمه فی الاخری وقال السری : منذ اربعین سنة : تطالبنی نفسی ان اغمس جزرة فی دبس فما اطعتها ﴿ لئلا یحصل الانس بالدنیا المؤدی الی حبها ﴾ والی نسیان الاخری، وذلك انه اذا تمتع بشیء منه انس به وألفه ، واذا مات تمنی الرجوع الی الدنیا بسببه ، ولایتمنی الرجوع الی الدنیا الا من لاحظ له فی الاخری ﴿ فهو ﴾ ای حب الدنیا ﴿ راس کل خطیئة ﴾ کما رواه البیهقی عن الحسن البصری مرسلا ، وقال تعالی (اولئك الذین امتحن الله قلوبهم للتقوی) قیل نزع عنهم محبة شهوات الدنیا . وقال علیه السلام : « المؤمن بین خمس شدائد : مؤمن یحسده ، ومنافق یبغضه، کافر یقتله، وشیطان یضله ، ونفس تنازعه » رواه ابوبکر بن لال من حدیث انس، وقال علیه السلام لقوم قدموا من الجهاد « مرحبا بکم قدمتم من الجهاد الاصغر الی الجهاد الاکبر ، فقالوا وما الجهاد الاکبر یارسول الله؟ «قال جهاد النفس» رواه البیهقی فی الزهد، والترمذی فی اثناء حدیث وصححه وابن ماجه من حدیث فضالة بن عبید «المجاهد من جاهد نفسه»، وقال سفیان الثوری ، ماعالجت شیئا اشد علیّ من نفسی مرة لی ومرة علیّ. وکان ابو العباس الموصلی یقول یانفس لافی الدنیا مع ابناء الملوك تتنعمین، ولا فی الآخرة مع طلب العباد تجتهدین کانك بین الجنة والنار تحبسین الا یانفس ما تستحیین،

وقال يحى بن معاذ الرازى جاهد النفس باسياف الرياضة ، والرياضة على اربعة اوجه . القوت من الطعام، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام ، واحتمال الاذى من الانام . فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفوة الارادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الاذى البلوغ الى الدرجات. وليس على العبد اشد من الحلم عند الجفا. والصبر على الاذى، فاذا تحركت من النفس ارادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت عليها سيف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام ، وضربتها بايدى الخمول وقلة الكلام حتى ينقطع من الظلم والانتقام فتأمن بوائقها فى سائر الأيام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها ، فتصير عند ذلك روحانية لطيفة ، ونورانية حقيقة ، فتجول فى ميدان الخيرات وتسير فى مسالك الطاعات والمبرات، كالفارس الفار فى الميدان وكالملك المتنزه فى البستان . وقال أيضا أعداء الانسان ثلاثة . دنياه. وشيطانه، ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فى نعمتها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك شهواتها . وقال جعفر بن حميد اجمعت العلماء والحكماء ان النعيم لايدرك الا بترك النعيم ، وقال ابو يحى الوراق : من ارضى الجوارح بالشهوات فقد غرس فى قلبه شجرة الندامات . وقال وهيب بن الورد: من اراد شهوات الدنيا فليتهيأ للذل فى العقبى . وقال الجنيد : ارقت ليلة فقمت الى وردى فلم اجد الحلاوة التى كنت اجدها ، فاردت ان انام فلم اقدر فقعدت فلم اطق القعود ، فخرجت فاذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق فلما احس بى قال يا أبا القاسم الى الساعة . فقلت ياسيدى من غير موعد قال بلى سألت الله محرك القلوب ان يحرك الى قلبك ، قلت قد فعل فما حاجتك ؟ قال متى يصير داء النفس دواءها؟ فقلت اذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها . فاقبل على نفسه فقال اسمعى قد اجبتك بهذا سبع مرات فابيت ان تسمعيه الا من الجنيد . قال فانصرف وما عرفته، وكان مالك بن دينار يطوف فى السوق فاذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه. اصبرى فوالله ما امنعك الا من كرامتك على . وقال ابراهيم الخواص : كنت فى جبل لكام فرأيت رمانا فاشتهيته فاخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركت الرمان فرأيت رجلا مطروحا قد اجتمع عليه الزنابير، فقلت السلام عليك فقال وعليك السلام يا ابراهيم، فقلت كيف عرفتنى؟ قال من عرف الله لا يخفى عليه شيء، فقلت له ارى لك حالا مع الله فلو سالته ان يحميك من هذه الزنابير؟ قال وارى لك حالا مع الله فلو سالته ان يحميك من شهوة الرمان فان لدغ شهوة الرمان يجد الانسان المه

فى الآخرة، ولدغ الزنابير يجد الانسان ألمه فى الدنيا . فان قيل التنعم بالمباح مباح فكيف يكون سبب البعد من الله ؟ فيقال هذا خيال ضعيف ، او المباح الخارج عن الحاجة من الدنيا «وحب الدنيا رأس كل خطيئة» كما ورد وكذا يؤيده حديث « اشبعكم فى الدنيا اجوعكم فى العقبى » وللطبرانى فى الكبير وابى نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس « ان اهل الجوع فى الدنيا هم اهل الشبع فى الآخرة » وللديلمى من حديث أبى هريرة مرفوعا « نور الحكمة الجوع ، والتباعد من الله عز وجل الشبع » ولاحمد والحاكم والبيهقى باسناد جيد انه عليه السلام نظر الى رجل سمين البطن فاومأ الى بطنه باصبعه وقال : « لو كان هذا فى غير هذا لكان خيرا لك » وللبيهقى فى الشعب من حديث عائشة انه عليه السلام قال لها « اياك والاسراف فان اكلتين فى يوم من السرف » ولابى الشيخ عن ابن عمر مرفوعا « ايما امرىء اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له » .

ثم اعلم أن الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب ، وورد « من نوقش فى الحساب عذب » كما فى الصحيحين ، فعند الصباح يحمد القوم السرى : فترك الشهوة يثقل على المريد فى البداية ، ثم يتنعم فى النهاية . ونظيره الطفل فى الفطام عند الرعاية .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال « ان المؤمن همته فى الصلاة والصيام والعبادة ، والمنافق همته فى الطعام والشراب كالبهيمة » وقال حاتم الاصم : المؤمن مشغول بالفكر والعبر ، والمنافق مشغول بالحرص والامل . والمؤمن آيس من كل احد الا من الله ، والمنافق راج كل احد الا الله . والمؤمن آمن من كل احد الا من الله ، والمنافق خائف من كل احد الا من الله ، والمؤمن يقدم ماله دون دينه ، والمنافق يقدم دينه دون ماله ، والمؤمن يحسن ويبكى والمنافق يسيء ويضحك ، والمومن يحب الوحدة والخلوة ، والمنافق يحب الخلطة والجلوة . والمؤمن يزرع ويخشى الفساد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد . والمؤمن يأمر وينهى للسياسة ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة . وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الاذى واحتمال البلوى . ومن شكى من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه لان حسن الخلق احتمال اذى الخلق . وقال عيسى عليه السلام : جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم . وقال سهل : ماصار الابدال ابدالا الا باربع خصال : اخماص البطون والسهر والصمت والاعتزال عن الناس . وقد قيل فى صفة الابدال : أن اكلهم فاقة ، ونومهم غلبة ، وكلامهم ضرورة .

﴿ البَابُ السَّادِس عَشَـــر فِى التَّوْبَة وَالْمرابَطَة وَالتَّقْوى ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ*التَّوْبَةُ تَنْزِيهُ القَلْبِ عَنِ الذَّنْبِ،وَقِيلَ الرُّجُوعُ مِنَ البُعْدِ الَى القُرْبِ وَهِىَ وَاجِبَةٌ لِوُرُودِقَوْلِهِ تَعَالَى.(تُوبُوا إِلَى اللهِ)وَدَلَالَةِ الاجْمَاعِ

﴿ الباب السادس عشر فى التوبة والمرابطة والتقوى ﴾

قد ورد « التوبة ندم » رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن مسعود . وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) ومعنى التوبة ندم أى معظم اركان التوبة الندامة كما ورد « الحج عرفة » والافمن اركانها ترك المعصية مباشرة ، والعزم على ان لايعود اليها أبدا ، والتدارك لما امكنه من حقوق الله وحقوق العباد *

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ المستعان به فى امر الدنيا والاخرى ﴿ التوبة ﴾ فى اللغة الرجعة ، وفى الشرع الرجوع من المعصية الى الطاعة ومن الغفلة الى الحضرة،وقال بعضهم هى (تنزيه القلب عن الذنب) أى عن اختياره ﴿ وقيل الرجوع من البعد ﴾ أى من كل مايبعد العبد عن المولى ﴿ الى القرب ﴾ أى الى قرب الرب فى الدنيا والاخرى فيختص بتحصيل كل فضيلة جليلة تقربه الى الله ،وبالرجوع عن كل خصلة رذيلة تبعده عن الله فى دنياه وآخرته،فيعم الذنوب الظاهرة والعيوب الباطنة والاخلاق الذميمة والغفلة عن الاذكار الكريمة ، وقيل فى حد التوبة : ذوبان الحشا لما سبق من الخطاء . وقيل هو نار فى القلب تلتهب وصدع فى الكبد لاينشعب. وقيل هو خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة فكأنه اخذ من قوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) على ماذهب اليه بعض المفسرين . ومن معانيها ترك المعاصى فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال ، وتدارك ماسبق من التقصير فى ماضى الاحوال ﴿ وهى ﴾ أى التوبة ﴿ واجبة ﴾ أى فريضة لازمة لكل من المكلفين ﴿ لورود قوله تعالى توبوا الى الله ﴾ أى (جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون) وفى نسخة (توبة نصوحا) أى خالصة لله من دون رياء وسمعة واغراض فاسدة، والامر فى الآيتين للوجوب بناء على اصله ﴿ ودلالة الاجماع ﴾ المنعقد من الامة على ان

وَالْعَقْلِ فَالْوَاجِبُ مَاتَعَلَّقَ بِفِعْلِهِ السَّعَادَةُ وَبِتَرْكِهِ الشَّقَاوَةُ،وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ فِيهَا
وَجَدْوَاهَا حُبُّهُ تَعَالَى إِيَّاهُ فَوَرَدَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ،التَّائِبُ حَبِيبُ اللهِ وَالتَّوْفِيقُ

التوبة من المعصية فريضة ﴿ والعقل ﴾ أى ودلالة العقل ﴿ فالواجب ﴾ من طريق العقل مع قطع النظر عن ورود النقل ﴿ ماتعلق بفعله السعادة ﴾ العظمى ﴿ وبتركه الشقاوة ﴾ الكبرى ، اذبها الوصول الى سعادة الابد من قرب المولى والنجاة من الهلاك السرمدى الذى هو الحجاب عن اللقاء فى العقبى ﴿ وهو ﴾ أى التعلق بهما ﴿ متحقق فيها ﴾ أى ثابت فى التوبة بلا خلاف عند العقلاء ﴿ وجدواها ﴾ أى فائدة التوبة ومنفعتها وثمرتها ونتيجتها اربعة اشياء ﴿ حبه تعالى اياه ، فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ ان الله يحب التوابين ﴾ وفى الحديث ﴿ التائب حبيب الله ﴾ رواه ابن أبى الدنيا. وابو الشيخ من حديث انس بلفظ « أن الله يحب الشاب التائب » ولعبد الله بن احمد فى زوائد المسند من حديث على « ان الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب » ولاحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر « يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة » ولابن ماجه من حديث ابن مسعود « التائب من الذنب كمن لاذنب له » وللشيخين من حديث ابن مسعود وانس « لله افرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى ارض دوية مهلكة فقد راحلته عليه طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد عليه الحر والعطش اوماشاء الله قال ارجع الى مكانى الذى كنت فيه فانام حتى اموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله اشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » زاد مسلم فى حديث انس « ثم قال من شدة الفرح : اللهم انت عبدى وانا ربك » أخطأ من شدة الفرح . هذا وأيضا من علامات حب العبد لله ان يتوب عما يشغله عن مولاه ويطيعه فيما يأمره وينهاه كما قال عبد الله بن المبارك ه

تعصى الاله وانت تظهر حبه   هذا لعمرى فى الفعال شنيع
لو كان حبك صادقا لاطعته   ان المحب لمن يحب مطيع

ويشير اليه قوله تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ويفيد أيضا الملازمة بين المحبين كما يومى اليه قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) ولولا محبته السابقة لماوجدت محبتنا اللاحقة ﴿ والتوفيق ﴾ أى جعله تعالى اسبابا موافقة

عَلَى الطَّاعَةِ فَقَيْدُ الذُّنُوبِ يَمْنَعُ عَنْهَا وَلِأَنَّ الاصْرَارَ يُقْسِي الْقَلْبَ وَيَجُرُّ الَى الشَّقَاوَةِ الكُبْرَى وَلِأَنَّ الْمُتَلَطِّخَ بِالنَّجَاسَةِ لَا يُقْرَبُ فَوَرَدَ اذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَنَحَّى الْمَلَكَانِ عَنْ نَتْنِ مَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ وَحَلَاوَتُهَا فَالْمُصِرُّ لَا يَجِدُهَا وَقَبُولُهَا فَرُبَّ الدَّيْنِ لَا يَقْبَلُ هَدِيَّةَ الْمَدْيُونِ الْمُمَاطِلِ

للاعانة ﴿ على الطاعة ﴾ فى كل وقت وساعة ﴿ فقيد الذنوب ﴾ التى بمنزلة القيود والاغلال من العيوب ﴿ يمنع عنها ﴾ أى عن الطاعة وتوفيقها ﴿ ولان الاصرار ﴾ أى الاقامة على المعاصى من غير تخلل التوبة بالرجوع الى الرب ﴿ يقسي القلب ﴾ أى يسوده ويشدده ﴿ ويجر الى الشقاوة الكبرى ﴾ فان المعصية بريد الكفر وقد قال تعالى (والذين اذا فعلوا فاحشة اوظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون) ﴿ ولان المتلطخ بالنجاسة ﴾ اى المتلوث بنجاسة المعصية ﴿ لا يقرب ﴾ الى بساط الرب بل يبعد ويحجب ﴿ فورد اذا كذب العبد ﴾ وهو من اهون اسباب البعد ﴿ تنحى الملكان ﴾ أى يبعد اللذان معه من الكرام الكاتبين من عنده لكمال نزاهتهما وجمال طهارتهما ﴿ عن نتن مايخرج من فيه ﴾ أى من فمه وهو الكذب. والحديث رواه الترمذى وحسنه ، وابو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر ولفظه «اذا كذب العبد كذبة تباعد عنه الملك ميلا من نتن ماجاء به» ﴿ وحلاوتها ﴾ أى لذة الطاعة التى لولم يكن للمطيع جزاء لعمله الا مايجده من حلاوة الطاعة وروح الانس بمناجاة ربه لكان ذلك كافيا ، فكيف بما ينضاف اليه من نعيم الآخرة كما يشير اليه قوله تعالى (فلا تعلم نفس مااخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون افمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) الآية ، وفى الخبر القدسى «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» وتقسيم هذه اللذة لايكون في ابتداء التوبة بل التوبة فى اولها مرة كانفطام الصبى ثم تصير حلوة بعد ماصبر على مرارة العادة مدة مديدة ومعالجة شـــديدة والنفس قابلة ما عودتها تتعود ﴿ فالمصر لايجدها ﴾ اى تلك اللذة اذ من لم يذق لم يعرف ان ترك اللذة الفانية هى اللذة الباقية ﴿ وقبولها ﴾ اى قبول الطاعة قال تعالى ﴿ انما يتقبل الله من المتقين ﴾ ﴿ فرب الدين لا يقبل هدية المديون المماطل ﴾ الممتنع من اداء الدين فمن الفضول تضييع الاصول

وَلِأَنَّ الْغَضَبَ يُنَافِى الْقَبُولَ وَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى الْكُلِّ فِى كُلِّ حَالٍ لِعُمُومِ الْأَدِلَّةِ وَعَلَى الْفَوْرِ لِوُجُوبِ الِانْتِهَاءِ عَنِ الْمَعَاصِى كَذَلِكَ وَحُرْمَةِ التَّسْوِيفِ

﴿ ولان الغضب ﴾ المترتب على معصية بالعقاب الصادر عن تجلى صفة الجلال ﴿ ينافى القبول ﴾ اى قبول طاعته المترتب عليه بالثواب الوارد عن تجلى نعت الجمال ﴿ وهى ﴾ اى التوبة ﴿ واجبة على الكل ﴾ من الانبياء والاولياء فلا تظن ان التوبة اختصت بآدم عليه السلام حيث قال تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبيه ربه فتاب عليه وهدى) بل هو حكم ازلى مكتوب على جنس البشر لا يمكن فرض خلافه مالم تتبدل السنة الالهية التى لا مطمع فى تبديلها . فالرجوع فى حق كل انسان يكون ضروريا نبيا كان او غبيا وليا أو غويا . قال ابو تمام :

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها　　سجية نفس كل غانية هند

ويشير اليه حديث « كلكم خطاؤن وخير الخطائين التوابون » كما رواه احمد فى غيره عن انس ﴿ فى كل حال ﴾ اى على الدوام ﴿ لعموم الأدلة ﴾ كقوله تعالى : (وتوبوا الى الله جميعا) وذلك لأن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه اذ لم يخل عنه الأنبياء والاخيار كما ورد فى القرآن والاخبار من خطاياهم وتوبتهم وبكائهم ، فان خلا احد فى بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب فى القلب ، فان خلا عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وبصفاته وافعاله ، وكل ذلك نقص وله اسباب ، وترك اسبابه بالتشاغل باضدادها رجوع عن الطريق الى ضده ، وانما يتفاوتون فى مقادير النقصان لا فى اصله ﴿ وعلى الفور ﴾ واجبة من غير تراخ ومهلة ﴿ لوجوب الانتهاء ﴾ اى الامتناع ﴿ عن المعاصى كذلك ﴾ اى على الفور من غير التراخى ﴿ وحرمة التسويف ﴾ اى ولحرمة تأخير التوبة ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ وليست التوبة الآية ﴾ اى (للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن) ﴿ اكثر صياح أهل النار من التسويف ﴾ كذا فى الاحياء ، وقال مخرجه : لم اجد له اصلا ، وقال لقمان لابنه يابنى لا تؤخر التوبة فان الموت يأتى بغتة ، فكل ايمان لم يثبت فى اليقين أصله ولم ينتشر فى الاعمال فرعه لم يثبت على عواصف الاحوال عند ظهور ناصية ملك

فَورَدَ (وَلَيستِ التَّوبَةُ) الآيَةَ أكثرُ صِيَاحِ أهْلِ النَّارِ مِنَ التَّسويفِ وَهِيَ مَقبُولَةٌ

فَوَرَدَ (وَهُوَ الَّذِى يَقبَلُ التَّوبَةَ) الآيَةَ

الموت وسائر الاهوال ، وخيف عليه سوء الخاتمة ، الاماسقى بماء الطاعات على توالى الايام والساعات . وأما قول العاصى للمطيع: أنى مؤمن كما انك مؤمن، فهو كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنى شجرة وأنت شجرة . وما احسن جواب الصنوبر اذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم اذا عصفت رياح الخريف ، فعندذلك تنقطع اصولك وتتناثر اوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجر مع الغفلة عن أسباب نبات الاشجار *

سوف ترى اذا انجلى الغبار افرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة نسأل الله العافية؛ ولقد صدق ابو سليمان الدارانى فى قوله: لولم يبك العاقل فيما بقى من عمره الاعلى فوت مامضى منه فى غير طاعة الله وأمره لكان خليقا أن يحزنه ذلك الى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل مامضى من جهله فيما سبق من الحياة، وقال بعض العارفين: أن ملك الموت اذا ظهر للعبد اعلمه انه قد بقى من عمرك ساعة وانك لاتستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الاسف والحسرة مالو كانت له الدنيا بحذا فيرها يخرج منها على أن يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليستعد فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد اليه سبيلا . وهو اول مايظهر من معانى قوله تعالى (وحيل بينهم وبين مايشتهون) واليه الاشارة بقوله سبحانه (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتى احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتنى الى أجل قريب فاصدق وا كن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء اجلها) أى ولا نفسا. هذا وما مثال المسوف الامثال من احتاج الى قلع شجرة فرآها قوية لاتنقلع الا بمشقة شديدة جلية ، فقال اؤخرها سنة ثم اعود اليها ، وهو يعلم ان الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته اذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف ، فاخذ ينتظر الغلبة عليه اذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضعيف ﴿ وهى ﴾ أى التوبة اذا استجمعت شرائطها ﴿ مقبولة ﴾ لامحالة ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ وهو الذى يقبل التوبة الآية ﴾ أى (عن عباده) فوعده حق وقوله صدق لايجوز خلفه ولا

(قَابِلُ التَّوْبِ) «إِنَّ اللهَ يبسطُ يدهُ بِالتَّوْبَةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» وَأَيْضًا

يتصور تبديله ﴿ قابل التوب ﴾ فهو من صفاته كقوله (غافر الذنب) ﴿ ان الله يبسط يده بالتوبة حتى تطلع الشمس من مغربها ﴾ وفى الاحياء «أن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسىء الليل الى النهار ولمسىء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» قال مخرجه رواه مسلم من حديث أبى موسى بلفظ «يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار» الحديث. وفى رواية الطبرانى «لمسىء الليل ان يتوب بالنهار» وبسط اليد كناية عن طلب التوبة ومبالغة فى قبولها اذ الطالب ابلغ من القابل ، فرب قابل ليس بطالب ولا طالب الا وهو قابل، ولابن ماجه من حديث ابى هريرة « لو اخطأتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم » اى قبل توبتكم اورجع عليكم بالرحمة والمغفرة، ولابن المبارك فى الزهد عن الحسن مرسلا « ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة قيل كيف ذلك يارسول الله قال يكون نصب عينيه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة » ولابى نعيم فى الحلية من حديث ابى هريرة «ان العبد ليذنب الذنب فاذا ذكره احزنه فاذا نظر الله اليه انه احزنه غفرله» الحديث ولاحمد وابى يعلى والحاكم وصححه من حديث ابى سعيد «ان الشيطان قال وعزتك يارب لا ازال اغوى عبادك مادامت ارواحهم فى اجسادهم فقال وعزتى وجلالى لا ازال اغفر لهم مااستغفرونى» وقال سعيد بن المسيب نزل قوله تعالى : (انه كان للاوابين غفورا) فى الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب، وقال طلق بن حبيب ان حقوق الله اعظم من ان يقوم بها العبد ولكن اصبحوا تائبين وامسوا تائبين ، ويروى ان نبيا من انبياء بنى اسرائيل اذنب ذنبا فاوحى الله اليه وعزتى وجلالى لئن عدت لاعذبنك، فقال يارب أنت أنت وانا انا، وعزتك لئن لم تعصمنى لاعودن، فعصمه الله. وقال بعضهم : ان العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما تائبا حتى يدخل الجنة فيقول ابليس ياليتنى لم اوقعه فى الذنب، يعنى لاهلكه بالعجب. ويروى انه كان فى بنى اسرائيل شاب عبد الله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته فساءه ذلك ، ثم قال : إلهى اطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت اليك اتقبلنى ؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى الشخص : احببتنا، فاحببناك، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فامهلناك فان رجعت الينا قبلناك، وقد قال تعالى : (وان عدتم عدنا) وورد «ما أصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة » ﴿ وايضا ﴾ اى وفى العقل ايضا دلالة على ان التوبة مقبولة لامحالة

تَزُولُ ظُلْمَةُ الذَّنْبِ عِنْدَ سُطُوعِ نُورِ التَّوْبَةِ زَوَالَ الدَّنَسِ بِالصَّابُونِ وَالصَّدَاءِ بِالصَّيْقَلِ

وَإِنَّمَا يَشُكُّ التَّائِبُ لِشَكِّهِ فِي تَحْقِيقِ الشُّرُوطِ وَالْأَرْكَانِ فَهِيَ دَقِيقَةٌ شَكَّ شَارِبِ الْمُسْهِلِ

فانها ﴿ تزول ظلمة الذنب ﴾ وبخارها ﴿ عند سطوع نور التوبة ﴾ وآثارها ﴿ زوال الدنس ﴾ اى كزوال الوسخ والدرن من الثوب والبدن ﴿ بالصابون ﴾ ونحوه من الاشنان ﴿ والصداء ﴾ اى وكزوال صداء الحديد من المرءاة ونحوها ﴿ بالصيقل ﴾ وتوضيحه ان نار الندم تحرق غبرة الذنب، ونور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وانه لا طاقة لظلام السيئات مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، وكما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون. فكما ان الثوب الوسخ لا يقبله الملك لان يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله لان يكون فى جواره ، فكما ان استعمال الثوب فى الاعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة، فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول ، كما ان كل ثوب نظيف فهو مقبول. والقبول له حسب القضاء السابق الازلى مبذول *

والحاصل أن من توهم ان التوبة تصح ولا تقبل فهو كمن يتوهم ان الشمس تطلع والظلام لا يقلع ، وان الثوب يغسل والوسخ لا يزول نعم اذا غاص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وظله فلا يقوى الصابون على قلعه من اصله ، ومثاله ان تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب ، فمثل هذا القلب لا يتوب ولا يرجع الى الرب وربما يقول باللسان قد ثبت من العصيان فيكون ذلك كقول القصار قد غسلت الثوب . هذا وقد ورد « ان للقلوب صداء كصداء الحديد وجلاؤها الاستغفار » رواه الحكيم الترمذى. وابن عدى عن انس . ثم لما كان المصنف استشعر سؤالا وهو ان يقال لا ينبغى ان يجوز الشك فى القبول لانه يخالف اخبار الله والرسول اجاب بقوله ﴿ وانما يشك التائب ﴾ فى قبول توبته وحصول اوبته ﴿ لشكه فى تحقق الشروط ﴾ المعتبرة فى باب التوبة ﴿ والاركان ﴾ اللازمة فى حصول الاوبة كما سيأتى بيانها فى محلها اللائق بها ، ومجملها الندم والقلع والعزم والتدارك بالجزم ﴿ فهى ﴾ أى الشروط والاركان ﴿ دقيقة ﴾ ادراكها فلا يجزم بكونها حقيقة ﴿ شك ﴾ أى مثل شك ﴿ شارب المسهل ﴾ فى حصول شروط الاسهال فى الدواء باعتبار الوقت والحال،

بِخِلَافِ القَصَّارِ اذْشُرُوطُهُ جَلِيَّةٌ وَالذَّنْبُ مَا يُخَالِفُ أَمْرَهُ تَعَالَى مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ
وَيَنْقَسِمُ الَى حَقِّهِ تَعَالَى وَحَقِّ العَبْدِ وَهُوَ اغْلَظُ فَوَرَدَ أَنَّهُ لَا يُتْرَكُ وَأَيْضًا الَى كَبِيرَةٍ
وَصَغِيرَةٍ وَوَرَدَ فِى البَعْضِ أَنَّهُ مِنَ الكَبَائِرِ

وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقره وادويته ، والافلاشك فى تأثيره وخاصيته ﴿ بخلاف القصار اذ شروطه ﴾ من الماء والصابون والدلك ﴿ جلية ﴾ وليست فى نظر صاحبه خفية . ثم اعلم أن التوبة ترك الذنوب ولا يمكن ترك الشىء الا بعد معرفته واذا كانت التوبة واجبة كان مالا يتوصل اليها الا به واجبا فمعرفة الذنوب اذا واجبة، ولذا قال المصنف ﴿ والذنب ما يخالف امره تعالى من فعل ﴾ للطاعات ﴿ او ترك ﴾ للسيئات ﴿ وينقسم الى حقه تعالى ﴾ وهو اقرب الى العفو كترك الصلاة والصوم ونحوهما ﴿ وحق العبد ﴾ أى والى حقه كترك الزكاة وقتل النفس وامثالهما ﴿ وهو ﴾ أى حق العبد ﴿ اغلظ ﴾ أى اشد وعن العفو ابعد ﴿ فورد ﴾ في الحديث ﴿ انه ﴾ أى حق العبد ﴿ لا يترك أى لا يعفى الا أن العبد يرضى ولذا قيل : حق الكافر اشد من حق المسلم واقوى ، وحق الحيوان أشد من الكافر كما لا يخفى. ولاحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة « الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك فالديوان الذى يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى ، واما الديوان الذى لا يغفر فالشرك ، وأما الديوان الذى لا يترك فمظالم العباد أى لابد أن يطالب بها حتى يتخلص عنها ﴿ وأيضا ﴾ ينقسم ﴿ الى ﴾ معصية ﴿ كبيرة وصغيرة ﴾ كما جاء فى القرآن (أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) ﴿ وورد فى البعض ﴾ ﴿ أنه ﴾ أى ذلك البعض ﴿ من الكبائر ﴾ ففى البخارى من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا « الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس » وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يارسول الله وما هى قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، واكل الربا ، واكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » ولهما من حديث أبى بكرة « الا انبئكم باكبر الكبائر الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وقول الزور » ولهما من حديث ابن مسعود « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب

وَاخْتُلِفَ فِي حَصْرِهَا عَلَى مَانُهِيَ مَخْصُوصًا فَالتَّخْصِيصُ لِلتَّعْظِيمِ وَمَا أُوعِدَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ لِعِظَمِ الْعُقُوبَةِ

اعظم ؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى ؟ قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ؛ قلت ثم أى ؟ قال أن تزنى بحليلة جارك » وللطبرانى من حديث سلمة بن قيس « انما هى أربع لاتشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرفوا » وفى الاوسط للطبرانى من حديث ابن عباس « الخمر ام الفواحش واكبر الكبائر » وللبزار من حديث ابن عباس باسناد حسن ، أن رجلا قال ما الكبائر قال الاشراك بالله ، والاياس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله » وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن ابيه « الكبائر تسع » فذكر منها استحلال البيت الحرام . وللطبرانى من حديث واثلة « أن من اكبر الكبائر أن يقول الرجل على : مالم اقل » وله أيضا من حديثه « أن من اكبر الكبائر ان ينتفى الرجل من ولده ، ولمسلم من حديث جابر « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « من الكبائر شتم الرجل والديه » ولابى داود من حديث سعيد ابن زيد « أن من اربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق » وفى الصحيحين من حديث ابن عباس « أنه عليه السلام مر على قبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير وانه لكبير ، اما احدهما فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستبرىء من بوله » الحديث ، ولاحمد فى هذه القصة من حديث أبى بكرة « اما احدهما فكان يأكل لحوم الناس » الحديث . ولابى داود والترمذى من حديث انس « عرضت على ذنوب أمتى فلم ارذنبا اعظم من سورة من القرآن اوآية اوتيها رجل ثم نسيها » وللديلمى « من الكبائر السبتان بالسبة » وقد اختلف الصحابة والتابعون فى عدد الكبائر من أربع الى سبع الى تسع الى أحدى عشرة فما فوق ذلك . قال ابن مسعود هى أربع . وقال ابن عمر هى سبع وقال ابن عمرو هى تسع . وكان ابن عباس اذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هى الى سبعين اقرب منها الى سبع ﴿ واختلف ﴾ على اقوال ﴿ فى حصرها ﴾ أى الكبائر ﴿ على مانهى ﴾ أى على ذنب ورد عنه نهى نهيا ﴿ مخصوصا فالتخصيص ﴾ بالذكر فى القرآن ﴿ للتعظيم ﴾ أى لتعظيم العصيان . وقد قال ابن عباس : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ، ويشير اليه قوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) اذا كانت الاضافة بيانية ﴿ وما ﴾ أى وعلى ذنب ﴿ اوعد ﴾ أى ورد الوعيد ﴿ عليه بالنار لعظم العقوبة ﴾

وَمَا وَجَبَ عَلَيْهِ حَدٌّ فَالتَّعجِيلُ لِلتَّغْلِيظِ وَمَااسْتُصْغِرَ كَمَا أَنَّ الصَّغِيرَةَ مَا اسْتُعْظِمَ فَوَرَدَ «لَاصَغِيرَةَ مَعَ الاصْرَارِ وَلَاكَبِيرَةَ مَعَ الاسْتِغْفَارِ» وَقِيلَ الأَصَحُّ أَنَّهَا مُبهَمَةٌ كَلَيْلَةِ القَدْرِ وَسَاعَةِ الجُمعَةِ لِأَنَّهَا مَالَا يُكَفِّرُهُ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ فَوَرَدَ «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ يُكَفِّرْنَ مَابَيْنَهُنَّ إِنِ اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»

فقد قال جماعة من الصحابة كل ماتو عد الله عليه بالنار فهو من الكبائر ﴿ وما ﴾ أى وعلى ذنب ﴿ وجب عليه حد ﴾ من رجم وجلد وقتل وقطع ﴿ فالتعجيل ﴾ لعقوبة المذنب ﴿ للتغليظ ﴾ فى حقه ذنب ، فقد قال بعض السلف : كل مااوجب الحد فى الدنيا فهو كبيرة ﴿ وما ﴾ أى وعلى ذنب ﴿ استصغر ﴾ أى استحقر وعد صغيرا وحقيرا ﴿ كما أن الصغيرة مااستعظم ﴾ أى عد عظيما وكبيرا ﴿ فورد لاصغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار ﴾ رواه الديلمى عن ابن عباس به مرفوعا . وعن أنس موقوفا . . وعن أبى سعيد الخدرى وغيره من الصحابة رضى الله عنهم « انكم لتعملون اعمالا هى ادق فى اعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر » رواه أحمد والبزار بسند صحيح . وقال ابن مسعود لما سئل عن الكبائر فقال : اقرأ من اول سورة النساء الى رأس ثلاثين آية منها عند قوله (أن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) فكل مانهى الله عنه فى هذه السورة الى ههنا كبيرة . . وقال قائلون : لاصغيرة ، بل كل مخالفة لله فهى كبيرة . وضعف هذا القول لقوله تعالى (أن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) وقوله (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم) أى الصغائر . وفى الحديث « ان تغفر اللهم فاغفر جما ، فاى عبد لك لا الما » ﴿ وقيل الاصح أنها ﴾ أى الكبيرة ﴿ مبهمة ﴾ اذ ربما قصد الشرع بابهامها كون العباد على وجل منها ﴿ كليلة القدر وساعة الجمعة ﴾ وكذا الصلاة الوسطى ليعظم جد الناس فى طلبها وعدم الا كتفاء بها عن غيرها ﴿ لانها ﴾ أى والدليل على كون الكبيرة مبهمة أن المراد بها ﴿ ما ﴾ أى ذنب ﴿ لا يكفره الصلوت الخمس ﴾ أى ونحوها من المكفرات للسيئات ﴿ فورد ﴾ فى الحديث ﴿ الصلوات الخمس يكفرن مابينهن ﴾ أى من الصغائر ، ولم يبق عليه شىء من الذنوب حينئذ ﴿ ان اجتنبت الكبائر ﴾ وليس المعنى أن اجتناب الكبائر شرط لكون الصلوات

أَوْ الَّا الكَبَائِرُ وَهُوَ يَتَعلَّقُ بالآخِرَة فَالابْهَامُ أَوْلَى تَحْذِيرًاعَنِ الكُلِّ وَلَاتَكْلِيفَ فَمُوجِبَاتُ الحُدُودِ مَعْلُومَةٌ وَردُّ الشَّهَادَة

ونحوها تكفر الصغائر ، بل أن كان عنده الصغائر والكبائر فتكفر الصغائر والاقتخفف الكبائر ،وأن كان محفوظا من الكبائر والصغائر فتكون سببا لرفع الدرجات العالية والزلفات الغالية ﴿ اوالا الكبائر ﴾ شك من الراوى اواختلاف الروايات فالاخير رواية مسلم. وللحاكم من حديث أبي هريرة وصححه « الصلاة الى الصلاة كفارة، ورمضان الى رمضان كفارة الا من ثلاث : اشراك بالله ، وترك السنة، ونكث الصفقة، قيل وما ترك السنة؟ قال الخروج من الجماعة ، ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله » ﴿ وهو ﴾ أى حكم الكبيرة أو التكفير وهو الاظهر ﴿ يتعلق بالآخرة فالابهام اولى ﴾ ﴿ تحذيرا عن الكل ﴾ أى كل المعاصى لئلا يقع أحد فى مخالفة المولى لاحتمال أن يكون كل ذنب أقدم عليه بارتكابه كبيرة فيتخاص من الكبائر والصغائر جميعهما، ومطلوب الرب من العبد أن لايقع فى مطاق الذنب ليحصل له كمال القرب ، وتوضيحه أن كل ما لا يتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز أن يتطرق اليه الابهام ﴿ ولا تكليف فيها ﴾ أى لا تكليف بما لايطاق فى معرفة الكبائر للاجتناب عنها لان دار التكليف هى دار الدنيا ، والكبيرة على الخصوص لاحكم لها في الدنيا من حيث أنها كبيرة بل لها تعاق فى حكم العقبى ﴿ فموجبات الحدود معلومة ﴾ باساميها كالسرقة والزنا والقتل وغيرها . وفى الاحياء وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى (أن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) ولكن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا اجتنبها مع القدرة والارادة ، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع بها ويقتصر على نظر ولمس منها ، فان مجاهدة نفسه فى الكف عن الوقاع أشد تأثيرا فى تنوير قلبه من اقدامه على النظر من اظلامه ، فهذا معنى تكفيره . فان كان عنينا ولم يكن امتناعه الا بالضرورة للعجز، اوكان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لايصلح للتكفير أصلا ، فكل من لا يشتهى الخمر لطبعه ولو ابيح له لما شربها فاجتنابها لايكفر عنه الصغائر التى هى من مقدماته كسماع الملاهى والاوتار ، نعم من يشتهى الخمر وسماع الاوتار فيمسك نفسه عن الخمر ويطاقها فى السماع ، فمجاهدة النفس بالكف ربما يمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت اليه من معصية السماع ﴿ ورد الشهادة ﴾ فى الحكومة

لَا يَخْتَصُّ بِهَا فَالْأَكْلُ فِي الطَّرِيقِ يُوجِبُهُ مَعَ كَوْنِهِ مُبَاحًا وَقِيلَ الْأَصَحُّ أَنَّهَا اسْمٌ اضَافِيٌّ وَالْمُطْلَقُ هُوَ الْكُفْرُ وَالْجَمْعُ فِيمَا وَرَدَ (انْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ـ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الاثْمِ)

﴿ لايختص بها ﴾ أى بالكبيرة بل ولا بالصغيرة ﴿ فالاكل فى الطريق ﴾ من السوق ونحوه ﴿ يوجبه ﴾ اى رد الشهادة ﴿ مع كونه مباحا ﴾ وفى الاحياء لاخلاف فى ان من يسمع الملاهى ويلبس الديباج وبخاتم الذهب ويشرب من اوانى الذهب والفضة لاتقبل شهادته، ولم يذهب احد الى ان هذه الامور من الكبائر، فكل الذنوب تقدح فى العدالة الا مالا يخلو الانسان عنه غالبا الضرورة مجارى العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب فى بعض الاحوال وسماع الغيبة وترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائد على حكم المصلحة واكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجرة والتكاسل عن تعليم الاهل والولد جميع ما يحتاجون اليه فى امر الدين، فهذه ذنوب لا ينفك الشاهد عن قليلها او كثيرها الا بان يعتزل الناس ويتجرد بامر الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل الاقول مثله لعز وجوده وبطلت الاحكام والشهادات، وليس لبس الحرير ونحوه من قبيل هذه المذكورات ﴿ وقيل الاصح انها ﴾ اى الكبيرة ﴿ اسم اضافى ﴾ كان الزنا كبيرة بالنسبة الى المعانقة مع التجريد عن الثياب فى الجانبين، والمعانقة كبيرة بالنسبة الى اللمس، واللمس كبيرة بالنسبة الى النظر بالشهوة، والنظر كبيرة بالنسبة الى الهم والعزيمة، وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة الى ضربه وصغيرة بالاضافة الى قتله ﴿ والمطلق ﴾ اى الفرد الذى اذا اطلق الكبيرة ينصرف اليه ﴿ هو الكفر ﴾ اذلا كبيرة فوقه . وقد قال تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) ولهذا لايغفر بالاجماع او الذنب المطلق . والكفر وباقى الذنوب مقيد بالاضافة، ولما كان هذا القول يفيد انه لاكبيرة الا الكفر وهو مفرد، وقد جاء فى القرآن بلفظ الجمع قال فى دفع هذه الاشكال ﴿ والجمع ﴾ مبتدأ اى وقوع لفظ الكبيرة جمعا ﴿ فيما ورد ﴾ فى التنزيل ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ وقد قرئ كبير ما تنهون عنه، فيكون المراد به الكفر او اريد به الجنس ﴿ والذين يجتنبون كبائر الاثم ﴾

لتنوعه أو تعدد المخاطب فالمغفرة تتعلق بالمشيئة لا غير، فورد (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ثم هو يعظم بالاصرار لأنه سبب تراكم الظلام فورد «لا صغيرة مع الاصرار» والمباهاة والاستحقار فهما سبب التألف وورد «المنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فاطاره»

لتنوعه ﴾ خبر المبتدأ اى لوقوع افراد الكفر انواعا كعبادة الصنم والشمس والقمر وكفر اليهود والنصارى والمجوس وامثالها ﴿ اوتعدد المخاطب ﴾ فوقع مقابلة الجمع بالجمع. اولان كفر زيد غير كفر عمرو ﴿ فالمغفرة ﴾ للصغيرة والكبيرة وهى العفو من غير التوبة ﴿ تتعلق بالمشيئة لاغير ﴾ اى لاغيرها من الاشياء المكفرة ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ ويغفر مادون ذلك ﴾ اى غير الشرك والكفر بجميع انواعه ﴿ لمن يشاء ﴾ اى لمن تعلقت مشيئة الله تعالى بمغفرته . وكان مطرف بن عبد الله يقول : اللهم ارض عنا فان لم ترض عنا فاعف عنا فان المولى قد يعفو عن عبده وهو غير راض عن فعله . والحاصل أن الرضاء يتعلق بالطاعة . والعفو والمغفرة بالمعصية ﴿ ثم هو ﴾ أى الذنب ولو صغيرة ﴿ يعظم ﴾ فى الكيفية حتى يصير كبيرة بسبب أربعة اشياء ﴿ بالاصرار ﴾ وهو الاستمرار على الذنب والاستقرار ﴿ لانه ﴾ أى الاصرار ﴿ سبب تراكم الظلام ﴾ أى ظلمات الآثام فى قلوب الانام ﴿ فورد لا صغيرة مع الاصرار ﴾ وتمامه «ولا كبيرة مع الاستغفار» وقد تقدم فكبيرة واحدة تنصرم ولا تتبعها بمثلها لو تصور وجودها لكان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها الا أن الكبيرة قل ما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومطالبة ومطالعة، وقلما يقتل القاتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة سالفة، فكل كبيرة يتبعها صغائر سابقة ولاحقة ﴿ والمباهاة ﴾ أى وبالمباهاة والمفاخرة ﴿ والاستحقار ﴾ بعدم المبالاة ﴿ فهما ﴾ لفان ونشرهما مرتبا ﴿ سبب التألف ﴾ أى تألف الذنب. والالفة شديدة الاثر فى القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويده بالسيئات، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة عند الرب وعظم اثرها فى تسويد القلب ﴿ وورد المنافق يرى ذنبه كذباب مر على انفه فاطاره ﴾ أى عن نفسه، وتمامه «والمؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن

وَنِسْيَانِ حِلْمِهِ وَكَرَمِهِ تَعَالَى فَهُوَ سَبَبُ الْأَمْنِ مِنَ الْمَكْرِ وَوَرَدَ (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) وَالاظْهَارِ فَهُوَ يُؤَدِّي الى ذُنُوبٍ أُخَرَ كَهَتْكِ السَّتْرِ وَتَرْغِيبِ الْغَيْرِ وَوَرَدَ «كُلُّ النَّاسِ مُعَافُونَ الَّا الْمُجَاهِرَ بِالذَّنْبِ»

يقع عليه» رواه البخارى من رواية الحارث بن سويد عن ابن مسعود مرفوعا وموقوفا. ولا يخفى أن هذا الحديث يصلح أن يكون شاهدا لعدم المبالاة لا بوجود المباهاة فكان حقه أن يؤخر عن قوله ﴿ ونسيان حلمه ﴾ وهو بالجر عطف على التآلف أى وسبب نسيان حلمه ﴿ و كرمه تعالى ﴾ وستره وعدم كشف حاله ﴿ فهو ﴾ أى ما ذكر من النسيان ﴿ سبب الامن من المكر ﴾ الالهى من استدراج العبد بالنعمة واخذه بالبغتة للنقمة ﴿ وورد ﴾ فى التنزيل ﴿ انما نملى لهم ﴾ أى نمهلهم اياما ﴿ ليزدادوا اثما ﴾ أى آثاما وقال بعضهم : الذنب الذى لا يغفر قول العبد ليت كل شىء عملته مثل هذا فانما يعظم الذنب فى القلب لعلمه بعظمة الرب ، فاذا نظر الى جلال من عصى رأى الصغيرة كبيرة . وقد اوحى الله تعالى الى بعض الانبياء «لا تنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها، ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها» وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين الابرار : لا صغيرة ، بل كل مخالفة فهى كبيرة. وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامى فى امور لا يتجاوز فى أمثالها عن العارف لان المخالفة تكثر بقدر معرفة المخالف كما يشير اليه قوله سبحانه: (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها اجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما) فوزرهن مضاعف كاجرهن .ومن هنا قال تعالى خطابا لعلماء اهل الكتاب: (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) وقال: (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم) الى أن قال:(اولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآية ﴿ والاظهار ﴾ أى وباظهار المعاصى للفجار ﴿ فهو ﴾ أى الاظهار ﴿ يؤدى الى ذنوب اخر كهتك الستر ﴾ بنفسه لنفسه والله سبحانه هو الستار ﴿ وترغيب الغير ﴾ الى مثل فعله فيكون عليه ذنب التسبب فى عمله ، ففى حديث مسلم من حديث جرير بن عبد الله « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها» الحديث ﴿ وورد كل الناس معافون ﴾ بضم الميم وفتح الفاء يقربون الى العفو ﴿ الا المجاهر بالذنب ﴾ فانه

وَحقَّهَا أَنْ يَتَنَدَّمَ فَوَرَدَ «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»

بعيد عن العفو ، وتمامه « يبيت احدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح ويكشف ستر الله فيحدث بذنبه » والحديث فى الصحيحين من حديث أبى هريرة بلفظه كل امتى وقال بعضهم : لا تذنب فان كان ولابد فلا ترغب فيه غيرك فتذنب ذنبين ، ولذا قال تعالى :(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف) وقال بعض السلف : ماانتهك المرء من اخيه حرمة اعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه ، فسبحان من يظهر الجميل ويستر القبيح . وقال تعالى (ونكتب ماقدموا وآثارهم) والآثار مايكتب بعد انقضاء العمل والعامل فاذا كان المذنب المظهر عالما يقتدى به وهو يلبس الحرير ويركب سرج الذهب ويأخذ المال الحرام ويدخل على الظلمة من بين الانام طمعا فى المناصب العظام كثر له الآثام . وطوبى لمن اذا مات ماتت ذنوبه معه ولم تتجاوزه الى غيره . فعن ابن عباس « ويل للعالم من الاتباع تزل بزلة فيرجع عنها ويحتملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق ، وقال بعضهم : مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق وتغرق أهلها وفى الاسرائيليات : أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم ادركته التوبة فعمل فى الاصلاح دهرا ، فاوحى الله الى نبيهم أن قل له ان ذنبك لوكان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن قد اضللت من عبادى فادخلتهم النار ؟ ﴿ وحقها ﴾ أى حق التوبة على صاحب المعصية ﴿ ان يتندم ﴾ أى يظهر الندامة فى القلب ﴿ فورد ﴾ فى الحديث كما تقدم ﴿ الندم ﴾ وهو توجع القلب بمخالفة الرب ﴿ توبة ﴾ أى معظم اركانها هى الندامة على فعل المعصية من حيث أنها معصية وتكون خالصة لله من الرياء والسمعة ويتبعها قلع المعصية فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال . وفى الاسرائيليات أن الله سبحانه قال لبعض انبيائه وقد سأله النبى قبول توبة عبد بعد ان اجتهد سنين فى العبادة ولم ير اثر قبول توبته فى مقام السعادة ، فقال وعزتى وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والارض ماقبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه . فلابد فى التوبة من مرارة المعصية بدلا عن حلاوتها فيلتذ بترك اللذة ، ويشير اليه قوله عليه السلام « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا » الحديث وينبغى أن يجد مثل هذه المرارة فى جميع الذنوب وأن لم يرتكبها قبل فتكون مرارة المعصية وحلاوة الطاعة بالطبع الموافق للشرع . فتكون المعصية عنده كالسم والطاعة كالعسل هذا ، وفى حديث « الندم

وَقِيلَ هُوَ غَيْرُ مَقْدُورٍ وَيَتَدَارَكُ وَهُوَ فِي حَقِّهِ تَعَالَى القَضَاءُ وَالكَفَّارَةُ مُحْتَاطاً

توبة ايماء الى انه مقدور مرغوب فيه وكذا في قوله تعالى: (وتوبوا) والا فيكون الامر بما لا يطاق وهو ما وقع في الشرع بالاتفاق على خلاف في جوازه وعدمه ﴿ وقيل هو ﴾ اى الندم ﴿ غير مقدور ﴾ للبشر ولا يدخل تحت التكليف فلا يكون توبة بل هو الباعث فاستعير لها وفى الاحياء فان قلت تألم القلب امر ضرورى لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب واعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل الى تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى ان العلم يخلقه العبد ويحدثه فى نفسه فان ذلك محال، بل العلم والندم والفعل والارادة والقدرة للقادر والكل من خلق الله وفعله (والله خلقكم وما تعملون) هذا هو الحق عند ذوى البصائر وماسوى هذا ضلال ﴿ ويتدارك ﴾ أى وحق التوبة أن يتدارك ويتلافى مافاته من الطاعة وماسبق له من المعصية ﴿ وهو ﴾ أى التدارك ﴿ فى حقه تعالى القضاء ﴾ بدل الاداء ﴿ والكفارة ﴾ بدل المعصية وقصد دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى المــــوت مع استدراك الفوت ﴿ محتاطا ﴾ أى حال كونه يحتاط فى امره من اوله الى آخره بردفكره الى اول يوم بلغ فيه بالسن اوالاحتلام، فيفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفساً نفساً، وينظر الى الطاعات ما الذى قصر عليه فيها، والى المعاصى ما الذى قارفه منها، فان كان قد ترك صلاة اوصلاها مع ثوب نجس، أوصلاها بنية غير صحيحة، أو ترك فيها شيئا من الواجبات كتعديل الاركان ونحوها فيقضيها من آخرها، فان شك فى عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه اداه ويقضى الباقى، وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل اليه على حسب التحرى والاجتهاد، وكذا امر الصوم والزكاة والحج وسائر فرائض الاسلام وشرائع الاحكام. فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات. وأما بحثه عن السيئات فيتفكر من أول بلوغه الى آخر امره عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر فى جميع ايامه وساعاته، وينشر عند نفسه ديوان سيئاته حتى يطلع على جميعها قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها، ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله من حيث لا يتعلق بمظالم العباد كنظر الى غير محرم وقعود فى المسجد مع الجنابة ومس المصحف من غير طهارة واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع آلة فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها *

وَفِى حَقِّ العَبْدِ رَدُّ المَالِ مُحْتَاطًا الَى المَالِكِ أوِ الوَارِثِ مُبَالِغًا فِى التَّبْلِيغِ بِالطَّوْفِ فِى البِلَادِ انْ أمْكَنَ لَهُ وَالاَّ فَالتَّصَدُّقُ أوِ الصَّرْفُ الَى مَصَالِحِ المُسْلِمِينَ أوِ التَّسْلِيمِ الَى القَاضِى الأَمِينِ وَالدِّيَةُ وَالقِصَاصُ فِى النَّفْسِ

ثم اعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، واثر اتباع الدنيا فى القلب السرور بها والالفة لها والحنين اليها ، فلا جرم أن كل اذى يصيب المسلم ثم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون ذلك كفارة لداء القلب يتجا فى بالغموم عن دار الهموم، فورد « من الذنوب ذنوب لايكفرها الاالهموم » وفى لفظ آخر الا الهم بطلب المعيشة رواه الطبرانى فى الاوسط وابو نعيم فى الحلية من حديث أبى هريرة . ولاحمد من حديث عائشة « اذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له اعمال تكفرها ابتلاه الله بالحزن فيكون كفارة لذنوبه » ويقال الهم الذى يدخل على القلب والعبد لايعرفه هو ظلمة الذنوب والهم بها . وروى « أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام فى السجن فقال له يوسف : كيف تركت الشيخ الكئيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مابه ثكلى ، قال فماله عند الله ؟ قال اجر مائة شهيد » والطبرانى والحاكم عن أبى الدرداء مرفوعا « ان الله يحب كل قلب حزين » ﴿ وفى حق العبد ﴾ أى والتدارك فى حق العباد ثلاثة اشياء ﴿ رد المال محتاطا ﴾ أى وفى قدره ﴿ الى المالك ﴾ ان كان حيا ﴿ او الوارث ﴾ أن كان ميتا ﴿ مبالغا ﴾ أى غاية الاجتهاد ﴿ فى التبلغ ﴾ أى اتصال حق العباد ﴿ بالطوف ﴾ أى السير والتردد ﴿ فى البلاد ﴾ رجاء ان يلقى المالك هنالك فيرد اليه حقه او يستحل منه ﴿ ان امكن له ﴾ السفر ﴿ والا فالتصدق ﴾ على الفقراء والمساكين ﴿ اوالصرف الى مصالح المسلمين ﴾ من بناء مسجد وعمارة وجسر ومدرسة ﴿ اوالتسليم الى القاضى الامين ﴾ ليصرفه فى امور الدين ﴿ والدية ﴾ عطف على رد المال ، اى وفى حق العبد اداء الدية الى مستحقها اذا وقع القتل او القطع خطأ ﴿ والقصاص ﴾ اذا وقع عمدا ﴿ فى النفس ﴾ وكذا فى الاطراف ، فيجب عليه ان يعترف عند ولى الدم ويحكمه فى روحه فان شاء عفا عنه وان شاء قتله ، ولاتسقط عهدته الا بهذا ، ولايجوز له الاخفاء ، وليس هذا كما لو زنى اوسرق اوشرب اوقطع طريقا اوباشر مايجب فيه الحد لله ، فانه لايلزمه فى التوبة ان

وَالاستغفاء نفساً كان أوْمالاً وعند العجز فتكثير الحسنات بحسب المظالم وفى نحْو الغيبة والسب والايذاء فالاستغفاء والذكر المفصل الا أن يزداد التأذى بالاظهار فالمبهم تحاميا عن ذنب آخر والجبر بالحسنات كما لو كان ميتاً أوغائباً والمبالغة فى الاستغفاء

يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استعفاء حق الله ، بل عليه ان يستر بستر الله ويقيم حد الله على نفسه بانواع المجاهدة ، فان رفع امره الى الوالى حتى اقام عليه الحد وقع فى موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله ﴿ والاستغفاء ﴾ اى طلب العفو ، والاستحلال عند العجز عن رد المال او الدية والقصاص ﴿ نفسا كان ﴾ حق العبد ﴿ اومالا وعند العجز ﴾ أى عدم القدرة على الاستغفاء ﴿ فتكثير الحسنات ﴾ متعين ﴿ بحسب المظالم ﴾ أى مراتبها فى مقام السيئات ، وذلك بان يحسب مقدارها من حيث الكثرة ومن حيث المدة ، ويحاسب نفسه على الحبات والذرات من اول يوم حياته الى يوم توبته قبل ان يحاسب يوم القيامة ، ويناقش نفسه قبل ان يناقش. وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى الفجار فانهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ، ولكن على كل منهم ان يفعل منه مايقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق الا ان يكثر من الحسنات حتى يقبض منه يوم القيامة فتؤخذ حسناته فتوضع فى موازين ارباب المظالم، ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فانه أن لم تف بها حسناته حمل من سيئات ارباب المظالم على سيئاته فيهلك بسيئات غيره ﴿ وفى ﴾ اى والتدارك فى ﴿ نحو الغيبة ﴾ وكذا النميمة ﴿ والسب ﴾ اى الشتم واللعن ﴿ والايذاء ﴾ باللسان او بالاركان، ومنه الزنا بحليلة المسلم او جارته اوبقرابته ﴿ فالاستغفاء ﴾ متعين لعدم وجوب المال وجواز القصاص فى امثالها ﴿ والذكر المفصل ﴾ بفتح الصاد او كسرها بان يذكر الغيبة ونحوها مبينة معينة ﴿ الاان يزداد التأذى ﴾ اى لصاحب الحق ﴿ بالاظهار فالمبهم ﴾ اى فالاستغفاء المبهم متعين ﴿ تحاميا عن ذنب آخر ﴾ فان مثل هذا الاعتذار اشد من الذنب عند اهل الاعتبار ولانه يصير سببا لعدم عفو الذنب الاول ﴿ والجبر ﴾ اى جبر نقصان الاستغفاء المبهم ﴿ بالحسنات ﴾ ولوكان حيا موجودا حاضرا ﴿ كما لوكان ﴾ صاحب الحق ﴿ ميتا اوغائبا ﴾ لم يمكن الاجتماع به ﴿ والمبالغة ﴾ اى حينئذ ﴿ فى الاستغفاء

بِالتَّلَطُّفِ وَالتَّوَدُّدِ وَالْاِحْسَانِ فَاِنْ عَفَا وَالَّافَيُحَاسَبُ فِي مُقَابَلَتِهِ فَالْكُلُّ مَأْثُورٌ وَيَتْبَعُ الْحَسَنَةَ بِحَسَبِ السَّيِّئَةِ فَسَمَاعُ الْمَلَاهِي بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ وَالْقُعُودُ فِي الْمَعْصِيَةِ بِالْاِعْتِكَافِ وَشُرْبُ الْخَمْرِ بِالتَّصَدُّقِ بِشَرَابٍ حَلَالٍ لَذِيذٍ وَالْقَتْلُ بِالْاِعْتَاقِ وَالْغِيبَةُ بِالثَّنَاءِ وَالْغَصْبُ بِالصَّدَقَةِ وَنَحْوِهَا

بالتلطف ﴾ فى طريق المحو ﴿ والتودد ﴾ اى اظهار المحبة بالقيام والاكرام ﴿ والاحسان ﴾ بالهدية والضيافة والانعام لا بالاكراه والابرام فانه غير مفيد عند الله ﴿ فان عفا ﴾ اى صاحب الحق ، وفى نسخة فان عفى اى عن المذنب بالاستعفاء فيها ﴿ والا فيحاسب ﴾ فى القيامة بحسناته ﴿ فى مقابلته ﴾ اى مقابلة سيئاته كما قدمنا ﴿ فالكل مأثور ﴾ وعن السلف مذكور ٭

والحاصل ان الانسان عبد الاحسان وكل من نفر قلبه بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال عن فعله ، فان ابى الا الاصرار فليكن تلطفه واعتذاره اليه من جملة حسناته التى يمكن ان يجبر بها فى القيامة جنايته وليكن قدر سعيه فى فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه فى ايذائه حتى اذا قاوم احدهما الآخر اوزاد عليه اخذ ذلك عوضا منه يوم القيامة بحكم الله عليه كمن اتلف فى الدنيا مالا فجاء بمثله وامتنع من هو له عن القبول وعن الابراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض والابراء عنه شاء ام ابى ، فكذلك يحكم الله فى صعيد القيامة احكم الحاكمين واعدل المقسطين ﴿ ويتبع ﴾ وهو مرفوع وقيل منصوب ، اى وحق التوبة ان يتبع ﴿ الحسنة بحسب السيئة ﴾ اى بقدرها كمية وكيفية ﴿ فسماع الملاهى ﴾ من انواع الاوتار المناهى يتبع ﴿ بسماع القرآن ﴾ ومجالس الذكر الالهى ﴿ والقعود فى المعصية ﴾ كقعود فى المسجد جنبا ﴿ بالاعتكاف ﴾ فيه مع الاشتغال بالعبادة ، وكذا مس الصحف محدثا باكرام المصحف وكثرة تقبيله ، وبان يكتب مصحفا ويجعله وقفا ﴿ وشرب الخمر بالتصدق بشراب حلال لذيذ ﴾ اى حلو بارد ﴿ والقتل بالاعتاق ﴾ اى وقتل النفس عمدا اوخطأ باعتاق رقبة لان ذلك نوع احياء ، اذ العبد مفقود بنفسه موجود بسيده ، فالاعتاق ايجاد لا يقدر الانسان على اكثر منه فيقابل الاعدام بالايجاد ﴿ والغيبة ﴾ ونحوها من الايذاء ﴿ بالثناء ﴾ على صاحب الحق اوعلى اهل الدين والخير فى الحضور اوالغيبة ﴿ والغصب بالصدقة ونحوها ﴾ عطف على سماع الملاهي اى وكذا نحو المذكورات فعد جميع

فَوَرَدَ (اِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) اَتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسنةَ تَمحُهاو يستغفرُ فوردَ «مَاأَصَرَّ مَنِ اسْتَغفَرَ وَاِنْ عَادَ فِي اليَوْمِ سبعِينَ مرةً» وَالسَّترُ اَحبُّ ولو اَقرَّ لاِقَامَةِ الحَدِّ فَلاَقَدْحَ فَوَرَدَ فِى مَاعِزٍ رَضِىَ اللهُ عنه «لَقدتَابَ تَوبَةً لَو قُسِمتْ بَينَ الأُمَّةِ لَوَسِعَتْهم» وَيُؤَكِّدُ العَزْمَ عَلى أَنْ لاَيَعُودَ

المعاصى غير ممكن فى العبادات ، والعاقل يكفيه بعض الاشارات ، والمقصود سلوك طريق المضادة فان المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت الى القلب بمعصية فلا يمحوها الا نور يرتفع اليها بحسنة تضادها ، والمتضادات هى المتناسبات ، فكذا ينبغى أن يمحو كل سيئة بحسنة من جنسها لـــكى تضادها ، فان البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو ، فالرجاء فيه اصدق ، والثقة به اكثر من ان يواظب على نوع واحد من العبادات وان كان ذلك ايضا مؤثرا فى المحو ، هذا وسلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع حيث كفر القتل باعتاق الرقبة ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ ان الحسنات ﴾ اى جميع الطاعات ﴿ يذهبن السيئات ﴾ أى تمحوها ﴿ اتبع السيئة ﴾ أى وورد ؟ اتق الله حيث كنت واتبع السيئة من باب الافعال أى اعقب السيئة ﴿ الحسنة تمحها ﴾ رواه الترمذى من حديث أبى ذر وصححه . وللبيهقى فى الشعب من حديث معاذ «اذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية» ﴿ ويستغفر ﴾ اى وحق التوبة ان يستغفر ﴿ فورد ماأصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة ﴾ رواه ابو داود والترمذى عن ابى بكر ﴿ والستر احب ﴾ اى من الاظهار فى حق الله ﴿ ولو اقر لاقامة الحد ﴾ اى فى حقوق الله الخالصة ﴿ فلا قدح ﴾ اى لاذم ولامنع كما تقدم ﴿ فورد فى ماعز رضى الله عنه ﴾ حيث اعترف بالزنى ورجم ﴿ لقد تاب توبة لو قسمت بين الامة ﴾ وفى رواية بين الخلائق ﴿ لوسعتهم ﴾ اى لكفتهم وهو عبارة عن كثرة ثوابها . والحديث رواه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب ، وكذا حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها . وقوله عليه السلام: « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفرله » ﴿ ويؤكد العزم ﴾ اى وحق التوبة ان يشدد العزم ويقوى الجزم ﴿ على ان لايعود ﴾ بمثل الذنب الذى تاب منه ابدا ، قال بعضهم : من صدق فى ترك شهوة

وَيخَلِّصَ النِّيَّةَ فَمَنْ تَرَكَ لِذَهَابِ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ عَدَمِ أَسْبَابٍ لَا يَكُونُ تَائِبًا ثُمَّ أَنْ يَغْسِلَ الثِّيَابَ وَيَغْتَسِلَ وَيُصَلِّيَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي مَوْضِعٍ خَالٍ وَيَضَعَ الْوَجْهَ عَلَى الْأَرْضِ وَالتُّرَابِ وَلِلتَّذَكُّرِ بِدَمْعٍ حَارٍّ وَقَلْبٍ حَزِينٍ وَصَوْتٍ عَلِيٍّ وَيَذْكُرَ الذُّنُوبَ وَاحِدًا وَاحِدًا وَيَلُومَ النَّفْسَ وَيُوَبِّخَهَا وَيَرْفَعَ يَدَيْهِ وَيَحْمَدَ اللهَ وَيُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

وجاهد نفسه لله سبع مرات لم يبتل بها . وقال آخر : من تاب من ذنب فاستقام عليه سبع سنين لم يعد اليه ابدا ﴿ ويخلص النية ﴾ اى وحقها ان يصحح النية ويخلص الطوية فى ترك المعصية الجلية والخفية ﴿ فمن ترك ﴾ المعصية ﴿ لذهاب مال ﴾ كما فى القمار ونحوه ﴿ اوجاه ﴾ من سقوط اعتباره عند الخلق ﴿ او عدم اسباب ﴾ معينة له على المعصيه ﴿ لايكون تائبا ﴾ وقيل من العصمة ألا تقدر ﴿ ثم ﴾ أى بعد ذلك حق التوبة على التائب ﴿ ان يغسل الثياب ﴾ التى عصى الله فيها ﴿ و يغتسل ﴾ فان طهارة الظاهر عنوان طهارة الباطن ، وفى رواية ويتوضأ واختيار الغسل اشعار بالتوبة عن الكل ﴿ ويصلى اربع ركعات ﴾ تنبيها على جهات اربع تشهد له يوم القيمة كما قال تعالى: (يومئذ تحدث اخبارها بان ربك أوحى لها) ﴿ فى موضع خال ﴾ عن اشتغال وعن توهم الرياء والسمعة فى بال ﴿ ويضع الوجه ﴾ أى وأن يضع جبينه ﴿ على الارض ﴾ تواضعا لله ﴿ والتراب ﴾ لزيادة الخشوع عند رب الارباب ﴿ وللتذكر ﴾ أى اصله ومرجعه فى هذا الباب كما يشير اليه قوله تعالى: (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى) ﴿ بدمع حار ﴾ أى مع بكاء فى الندامة فان دمع الندامة والخوف حار ودمع الفرح والسرور بارد ، ولذا ورد قرة عين وقرى عينا ﴿ وقلب حزين ﴾ على ماسبق له من المعصية ﴿ وصوت على ﴾ اى رفيع فى البكاء ، والا فالدعاء والاذكار اولى ان تكون بالاخفاء ﴿ ويذكر الذنوب ﴾ أى وان يتذكر ذنوبه ﴿ واحدا واحدا ﴾ جنسا وفردا ﴿ ويلوم النفس ﴾ أى وأن يعيبها ويذمها ﴿ ويوبخها ﴾ أى يثربها ويقرعها ﴿ ويرفع يديه ﴾ الى كتفيه اواذنيه حتى يرى بياض ابطيه مبالغة فى التضرع الى الله والالتجاء اليه ﴿ ويحمد الله ﴾ على آلاء الله ونعمائه الظاهرة والباطنة عليه ويقول : الحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال اهل النار ﴿ ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ﴾

وَيَدْعُو لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ ، وَجَاءَ فِي الْأَثَرِ . اذَا أُتْبِعَ الذَّنْبُ بِعَزْمِ التَّوْبَةِ وَخَوْفِ الْعِقَابِ وَرَجَاءِ الْعَفْوِ وَأَدَاءِ رَكْعَتَيْنِ فِي الْمَسْجِدِ وَالِاسْتِغْفَارِ سَبْعِينَ مَرَّةً وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ مِائَةَ مَرَّةٍ وَالتَّصَدُّقِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَصَوْمِ يَوْمٍ فَالْعَفْوُ أَرْجَى

لانه شفيع المذنبين ﴿ ويدعو لنفسه ﴾ لقبول التوبة وحصول المغفرة والرحمة ﴿ ولوالديه ﴾ فيقول رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴿ وللمسلمين ﴾ فيقول (رب اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) ويكثر الاستغفار لاسيما ماورد عن سيد الابرار نحو قوله (رب ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفرلى ذنوبى)وكذا يكثر من سيد الاستغفار ﴿ وجاء فى الاثر اذا اتبع الذنب بعزم التوبة ﴾ أى بالتوبة على وجه العزم والجزم ﴿ وخوف العقاب ﴾ عند مناقشة الحساب ﴿ ورجاء العفو ﴾ من رب الارباب ﴿ واداء ركعتين فى المسجد ﴾ فانه افضل الاماكن واشرفها ، ويشهد له بما عرفه ﴿ والاستغفار سبعين مرة ﴾ لما ورد فى بعض طرق الاحاديث ولو زاد حتى صار مائة مرة فهو افضل واكمل ﴿ والتسبيح والتحميد مائة مرة ﴾ أى كل واحد منهما اويقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، وينبغى ان يكون التكبير والتهليل كذلك لتجتمع الباقيات الصالحات ، بل ويضم اليها لاحول ولا قوة الا بالله كذلك ﴿ والتصدق سرا وعلانية ﴾ وكذا نهارا وليلا ليدخل فى قوله تعالى (الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم) وليكون تصدقه مكفرا لجميع انواع معاصيه من السيئات السرية والعلانية والليلية والنهارية ﴿ وصوم يوم ﴾ فانه من جملة الحسنات المكفرات للسيئات ﴿ فالعفو ﴾ عن الذنب حينئذ ﴿ ارجى ﴾ أى اكثر رجاء . وفى الاحياء ان فى الآثار مايدل على ان الذنب اذا اتبع بثمانية اعمال كان العفو عنه مرجوا ، اربعة من اعمال القلب وهى التوبة او العزم على التوبة ، وحب الاقلاع عن الذنوب ، وخوف العقاب عليها ، ورجاء المغفرة لها ، واربعة من اعمال الجوارح وهى ان يصلى عقيب الذنب ركعتين ، ثم يستغفر الله بعدهما سبعين مرة ويقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم يتصدق بصدقة ثم يصوم يوما ، وفى بعض الاخبار يصلى ركعات . قال مخرجه : اثران من مكفرات الذنب ان يسبغ الوضوء ويدخل المسجد ويصلى ركعتين ، رواه أصحاب السنن

وَالطَّرِيقُ ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِيهَا وَقُبْحُ الذَّنْبِ وَشِدَّةُ العُقُوبَةِ وَضَعْفُ النَّفْسِ عَنِ الاحْتِمَالِ

من حديث أبى بكر الصديق « مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله الاغفر الله له » هذا لفظ أبى داود وهو فى الكبرى للنسائى مرفوعا وموقوفا . وحديث التكفير بصلاة اربع ركعات ذكره ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس قال : « كان رجل يهوى امرأة » الحديث - وفيه « فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدبة فقام نادما فاتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له عليه السلام صلى اربع ركعات فانزل الله عز وجل (اقم الصلاة طرفى النهار) الآية » واسناده جيد *

وفى هذا الحديث دلالة على ان توبة العنين ، صحيحة وفى الصحيحين « ان رجلا قال يارسول الله انى عالجت امرأة فاصبت منها كل شىء الا المسيس فامض على بحكم الله فقال عليه السلام اوما صليت معنا صلاة الغداة فقال بلى ، فقال عليه السلام ان الحسنات يذهبن السيئات » وهذا يدل على ان مادون الزنى من معالجة النساء صغيرة اذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله عليه السلام « الصلوات الخمس كفارة لما بينهن الا الكبائر » كذا فى الاحياء . وقال مخرجه حديث الرجل متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله اوما صليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث انس ، وفيه « هل حضرت معنا الصلاة قال نعم » ومن حديث أبى امامة وفيه « ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم » الحديث ﴿ والطريق ﴾ الموصل الى التوبة عشرة اشياء ﴿ ذكر ماورد فيها ﴾ أى من الكتاب والسنة فى فضل التوبة كقوله تعالى (ان الله يحب التوابين) وكقوله عليه السلام « ليتمنين اقوام لو اكثروا من السيئات الذين بدل الله عز وجل سيئاتهم حسنات » رواه الحاكم فى مستدركه عن أبى هريرة ، وهو مقتبس من قوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) ﴿ وقبح الذنب ﴾ فعن ابن مسعود : ينسى المرء بعض العلم بالمعصية ، وتلا آية (فنسوا حظا مما ذكروا به) ولانه مخالفة الرب وقد تجر الى الكفر كقصة ابليس اوله ذنب وآخره كفر ، وكذا قضية قابيل وبلعام بن باعوراء اوله شهوة وآخره شقوة ﴿ وشدة العقوبة ﴾ أى وذكر شدتها الناشئة عن غضب الله وسخطه الذى لا طاقة لاحد به ﴿ وضعف النفس عن الاحتمال ﴾ أى تحمل اهوال يوم القيمة فقد قال تعالى (فما اصبرهم على النار) فان من لا يحتمل حر شمس ولطمة شرطى كيف يحتمل غدا حر نار

وَشَرَف الآخرةوخَساسَة الدنياوقُرْب الموت ولَذَّة المعرفة والمُنَاجاة ، وخَوْف الإمْلاء بعَدم الأخذ الحَالِّي والاسْتِدْرَاج بالاحْسَان بَعْد الارْتكاب وَقَلْع أَسْبابِه وَهِيَ الغُرُور وحب الدنيا وطُولُ الأَمَل بِمَا في مَوْضعها،وَالتَّحْقِيق أَنَّ تَرادُف المَعَاصِي سَبَبُ تَرَاكُم ظَلَام القَلْب وبه يَحْصُل

جهنم ، وضرب مقامع الزبانية ، ولسع حيات اعناقها كاعناق البخت ، وعقارب كالبغال خلقت من النار فى دار الغضب والبوار ، نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخط الواحد القهار ﴿ وشرف الآخرة ﴾ أى وذكر شرفها فانها خير وابقى ﴿ وخساسة الدنيا ﴾ من سرعة فنائها وقلة بقائها وكثره عنائها وخسة شركائها ﴿ وقرب الموت ﴾ كما قال سيدنا ابو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ۞

كل امرىء مصبح فى اهله والموت ادنى من شراك نعله

﴿ ولذة المعرفة ﴾ فانها لاتجامع المعصيةفقداجمع السلف على ان كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ والمناجاة ﴾ لانها تختص باهل العبادات والمناداة ﴿ وخوف الاملاء ﴾ بالرفع عطف على ذكر ، أى وخوف الامهال ﴿ بعدم الاخذ الحالى ﴾ بتشديد الياء نسبة الى الحال ضد الماضى والاستقبال ، فقال تعالى (انما نملى لهم ليزدادوا اثما) ﴿ والاستدراج ﴾أى وخوف الاستدارج ﴿ بالاحسان ﴾أى باحسان الرب ﴿ بعد الارتكاب ﴾ أى ارتكاب الذنب وذلك بمزيد العطية وقت صدور الخطية ﴿ وقلع اسبابه ﴾ عطف على ذكرماورد ، أى وقطع اسباب الذنب ﴿ وهى ﴾ اى اسبابه ثلاثة ﴿ الغرور ﴾ قال تعالى (وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور ، فلا تغرنكم الحيوة الدنيا) وهو سكون النفس الى دليل فيه شك وشبهة كمن يذنب وتسكن نفسه الى ان الله تعالى غفور ، فهذا تمن وغرور ، بخلاف من يطيعه ويرجو ثوابه من اللقاء والحضور أو الجنة والحور والقصور ﴿ وحب الدنيا ﴾فانه رأس كل خطيئة كما ورد ﴿ وطول الامل ﴾ فانه مانع من العمل ومسوفه الى آخر الاجل ، فقلع اسبابه ﴿ بما فى موضعها ﴾ من علاج هذه الاشياء بتمامها ﴿ والتحقيق ﴾ فى وجوب التوبة عن كل معصية بلا مهلة اوفى قلع الاسباب عليك ﴿ ان ترادف المعاصى ﴾أى ترادفها وتتابعها باصرارها من غير تخلل توبة فى اثنائها ﴿ سبب تراكم ظلام القلب ﴾ أى تكاثف ظلماته ﴿ وبه يحصل

الرَّيْنُ وَالطَّبْعُ وَهُوَ دَاءٌ عُضَالٌ وَاخْتُلِفَ فِي صِحَّتِهَا عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ وَالْحَقُّ إِفَادَةُ نُقْصَانِ الْعُقُوبَةِ لِأَنَّهَا بِحَسَبِ الذَّنْبِ دُونَ النَّجَاةِ لِأَنَّهَا بِتَرْكِ الْكُلِّ فَإِنْ قُلْتَ إِنَّمَا التَّرْكُ

الرين ﴾ فى قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) ﴿ والطبع ﴾ اى الختم فى قوله سبحانه (ان لو نشاء لاصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون) وقال مجاهد: القلب مثل الكف المفتوحة كلما اذنب ذنبا انقبضت اصبع حتى تنقبض الاصابع كلها فيشتد عليه الفعل فذلك هو القفل يعنى فيما قال تعالى (افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها) وقال بعض السلف : ليست اللعنة سوادا فى الوجه انما اللعنة ان لايخرج من ذنب الاوقد وقع فى مثله او اشر منه . وقال ابو سليمان الدارانى : لايفوت احدا صلاة جماعة الا بذنب يذنبه وفى الخبر «ما انكرتم من زمانكم فبما تركتم من اعمالكم » رواه البيهقى فى الزهد من حديث ابى الدرداء ﴿ وهو ﴾ أى ترادفها ﴿ داء عضال ﴾ أى صعب فى غاية اشكال عجز عنه اطباء القلوب الا ان يريد دواءه علام الغيوب ﴿ واختلف فى صحتها ﴾ اى التوبة ﴿ عن بعض الذنوب ﴾ ففى الاحياء : ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما ان يتعلم مايجب عليه فى المستقبل ومايحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة ، ثم ان لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة الا ان يتوب عن بعض الذنوب ، كالذى يتوب عن الشرب والزنى واللواطة والغصب مثلا دون غيره ؛ وليست هذه توبة مطلقة . وقد قال بعض الناس: ان هذه التوبة لاتصح ، وقال قائلون تصح ولكن لفظ الصحة فى هذا المقام مجمل ﴿ والحق ﴾ أى الذى لامحيص عنه أن فى التوبة عن بعض المعاصى ﴿ افادة نقصان العقوبة لأنها ﴾ أى العقوبة ﴿ بحسب الذنب ﴾ كثرة وقلة ﴿ دون النجاة ﴾ أى دون افادة النجاة من النار ﴿ لأنها ﴾ أى النجاة انما تحصل ﴿ بترك الكل ﴾ أى جميع المعاصى وتوضيحه أن يقال لمن قال لاتصح ان عنيت به ان ترك بعض الذنوب لايفيد أصلا بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك ، فانا نعلم ان كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته . ويقال لمن قال تصح ان أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل الى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر فلسنا نتكلم فى خفايا اسرار عفو الله فهو اعلم بالسرائر ﴿ فان قلت انما الترك ﴾ أي ليس مراد القائل الأول بعدم الصحة عن البعض الا ترك بعض الذنب وهو شرب الخمر

لِكَوْنِهِ ذَنْبًا لَا بِعَيْنِهِ وَهُوَ مُشْتَرِكٌ فِيهِ فَكَيْفَ تُتَصَوَّرُ عَنِ الْبَعْضِ قُلْتُ يَجُوزُ التَّرْكُ لِكَوْنِهِ أَفْحَشَ وَالْعِقَابُ عَلَيْهِ أَصْعَبُ أَوِ التَّدَارُكُ أَشَقُّ أَوْ مَيْلُ النَّفْسِ إِلَيْهِ أَقَلُّ

مثلا ﴿ لكونه ﴾ أى ذلك البعض الذى تاب منه وهو الشرب ﴿ ذنبا لا بعينه ﴾ أى لا لكونه شرب الخمر بذاته ﴿ وهو ﴾ أى كونه ذنبا أو علة تركه ﴿ مشترك فيه ﴾ أى يشترك فى هذا المعنى جميع الذنوب شامل بين جميع المعاصى، لأن من ترك الخمر لكونها معصية وتوقعه فى عقوبة وجب عليه أن يترك سائر المعاصى لكونها معصية وتوقعه فى العقوبة ﴿ فكيف تتصور ﴾ التوبة ﴿ عن البعض ﴾ دون البعض، فاذا ثبت انها لا تصح عن البعض بهذا المعنى فوجب أن يتوب عن الجميع دون البعض ﴿ قلت ﴾ التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو اما ان تكون من الكبائر دون الصغائر أو بالعكس أو عن كبيرة دون كبيرة اما الأول فانه ممكن ويقال ﴿ يجوز الترك ﴾ لبعض الذنوب ﴿ لكونه ﴾ أى ذلك البعض ﴿ أفحش ﴾ أى اغاظ وأعظم وأجلب لسخط الله وغضبه ﴿ والعقاب عليه أصعب ﴾ أى أشد وأقوى وأبقى، والصغيره أقرب الى تطرق العفو اليه فلا يستحل ترك الكبيرة بهذه العلة ومثاله كمثل عبد يترك ضرب ولد السيد لعظم العقوبة ويضرب دابته اظن أن السيد ربما يساعه فى ذلك، وكالمريض يحذره الطبيب عن أكل الحلو تحذيرا شديدا فيتوب المريض عن العسل دون السكر. وأما الثالث وهو أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد عند الله من بعض كمن ترك شرب الخمر مثلا لكونه مفتاح الشر، ولأنه اذا زال عقله ارتكب سائر المعاصى فيجتنبها دون الزنا ﴿ أو التدارك ﴾ أو يكون تدارك ذلك البعض ﴿ أشق ﴾ أى اتعب كالذى يترك القتل او النهب ومظالم العباد لعلمه ان التدارك فيه أصعب، ولأن ديوان العباد لا يترك يوم المعاد، ويرتكب ما بينه وبين الله كترك الصلاة فانه يتسارع العفو اليه وأما الثانى وهو أن يتوب عن الصغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة وهذا أيضا ممكن كالذى يترك الغيبة او النظر الى غير المحرم وما يجرى مجراه وهو مصر على شرب الخمر لان ميل النفس اليها اكثر ﴿ او ميل النفس اليه ﴾ أى الى ما ترك من الصغائر ﴿ أقل ﴾ فيكون تركه اهون واسهل. ووجه امكان ذلك انه مامن مؤمن الا وهو خائف على المعاصى نادم على فعله ندما ضعيفا اوقويا، ولكن ميل نفسه فى تلك المعصية اقوى من الم قلبه فى الخوف منها لاسباب توجب الخوف من الجهل والغفلة، واسباب توجب

هَذَا وَلَمْ يَشْتَرِطِ الْكُلَّ فِيمَا وَرَدَ وَفِى صِحَّتِهَا عَنِ الْعَاجِزِ كَالْعِنِّينِ عَمَّا زَنَى قَبْلَ الْعُنَّةِ وَالْأَقْرَبُ الْعَدَمُ لِامْتِنَاعِ التَّرْكِ فِى غَيْرِ الْمَقْدُورِ لَكِنْ لَوْ تَنْدَمُ وَتَأَلَّمَ الْقَلْبُ بِحَيْثُ لَوْ فُرِضَتِ الشَّهْوَةُ لَقَهَرَهَا فَالرَّجَاءُ الْقَبُولُ عَلَى حَسَبِ اطِّلَاعِهِ تَعَالَى عَلَى الضَّمَائِرِ

قوة الشهوة ، فيكون الخوف موجودا لكن لا يحمل على ترك الذنب ، فان سلم من شهوة هى اقوى منه بل لم يعارضه الا ما هو اضعف منه ، فهو أى ذلك الخوف الضعيف ملك الشهوة التى هى اضعف منه ودفعها ، وان لم يسلم من شهوة هى اقوى منه كشرب الخمر لم يقدر على الدفع ؛ فمثاله كمثل رجل له عدو ان احدهما ضعيف والآخر قوى ، فاذا واجه الضعيف غلب عليه واذا واجه القوى صرعه القوى ، ولان التوبة على حسب المعصية ، وتوبة ذنب لا تتوقف على توبة ذنب آخر ، وهذا لان توبة ذنب احسان فى العبودية . وتوبة ذنب آخر احسان آخر ، وصحة احسان لا تتوقف على صحة احسان آخر ﴿ هذا ﴾ هو التحقيق ، أو خذ هذا على طريق التوفيق ﴿ ولم يشترط الكل ﴾ أى لم يشترط التوبة عن جميع المعاصى ﴿ فيما ورد ﴾ من الكتاب والسنة فى التوبة كقوله تعالى (ان الله يحب التوابين) حيث لم يقل عن جميع الذنوب ، وكقوله عليه السلام «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ولم يقل عن جميع الذنوب وقوله : «الندم توبة» ولم يقل عن جميع المعاصى ، وأيضا يقاس على الطاعات من نحو الصوم والصلاة والزكاة حيث لا تتوقف صحة طاعة على وجود اخرى اجماعا ﴿ وفى صحتها ﴾ أى وكذا اختلف فى صحة التوبة ﴿ عن العاجز ﴾ الذى لم يقدر على المعصية ﴿ كالعنين ﴾ بوزن سكين وهو من لم يقدر على الجماع ﴿ عما زنى ﴾ أى كتوبته عما قارفه ﴿ قبل العنة ﴾ أى حدوثها ﴿ والاقرب ﴾ أى القول الاقرب الى الصحة او الصواب ﴿ العدم ﴾ أى عدم صحته ﴿ لامتناع الترك فى غير المقدور ﴾ لان التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله ، وأما ما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه اياه ﴿ لكن ﴾ قد يقال ﴿ لو تندم ﴾ العنين ﴿ وتألم القلب ﴾ بالزنى ﴿ بحيث لو فرضت الشهوة ﴾ أى قدرت شهوة الزنى ﴿ لقهرها ﴾ أى لغلبها وتركها ﴿ فالرجاء ﴾ أى المأمول من كرمه سبحانه ﴿ القبول ﴾ أى قبول توبته ﴿ على حسب اطلاعه تعالى على الضمائر ﴾ أى على ما يخفى على غيره من

كما لو تاب قبل طريان العنة ومات قبل هيجان الشهوة وتيسر أسباب قضائها وفي «أن الأفضل من يجاهد شهوته أو من انقطعت شهوته» والحق أن الثاني أسلم مطلقا وأفضل إن كان انقطاعها لقوة اليقين وسبق المجاهدة فالمظفر أولى من المجاهد وإن كان لضعفها في نفسها فالأول أفضل لأن الترك بالمجاهدة من قوة اليقين واستيلاء الدين

السرائر ﴿كما لو تاب﴾ العنين عن الزنى ﴿قبل طريان العنة﴾ أي حدوثها ﴿ومات قبل هيجان الشهوة﴾ أي شهوة الزنى او الجماع ﴿وتيسر اسباب قضائها﴾ اى قضاء الشهوة ومباشرتها لكان من التائبين اتفاقا فبعد طريان العنة لو تندم بما تقدم لكان من التائبين أيضا حيث لا فرق بينهما ﴿وفي﴾ أي واختلاف أيضا في ﴿ان الافضل من يجاهد شهوته﴾ ويمنع معصيته ﴿أو من انقطعت شهوته﴾ وسكنت نفسه عن الميل الى معصية ، فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني: ان المجاهد أفضل لان له مع التوبة فضل المجاهدة ويؤيده ما أخرجه الامام أحمد في الزهد عن مجاهد أنه قال كتب الى عمر يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر ان الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ويقويه ان جنس البشر أفضل من جنس الملك لما تقدم والله أعلم، وقال علماء البصرة ذلك الأجر أفضل لانه لو فتر في توبته كان أقرب الى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة القصور عن المجاهدة ﴿والحق ان الثاني أسلم مطلقا﴾ سواء كان انقطاع شهوته من المجاهدة أو ضعف البنية ﴿وأفضل﴾ أي الثاني مقيدا بقيد وهو انه ﴿ان كان انقطاعها﴾ أي الشهوة ﴿لقوة اليقين﴾ في مقام المشاهدة ﴿وسبق المجاهدة﴾ مع النفس في دفع الشهوة على سبيل المعصية ﴿فالمظفر﴾ أي المنصور على العدو ﴿أولى من المجاهد﴾ المشغول في صف القتال ولا يدرى كيف يسلم في الاستقبال ﴿وان كان﴾ انقطاعها ﴿لضعفها﴾ أي لفتور الشهوة ﴿في نفسها﴾ أي في أصل خلقتها ﴿فالأول﴾ وهو الذي يجاهد شهوته ﴿أفضل﴾ ﴿لان الترك بالمجاهدة من قوة اليقين واستيلاء الدين﴾ ولقد زل في هذا البحث فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا ان ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وعلائقها الشاغلة عن المولى، وظن آخرون ان قمع الشهوات واماتتها بالكلية مقصود بالذات

وَفِي نَفْعِ الاسْتِغْفَارِ مَعَ الاصْرَارِ وَالحَقُّ النَّفْعُ لِمَا سَبَقَ وَكَوْنهِ حَسَنَةً تَصْلُحُ لِلتَّكْفِيرِ
وَعَدَمِ ضَيَاعِ الأَجْرِ فَوَرَدَ انَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَانْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا
وَمَا وَرَدَ انَّ الْمُسْتَغْفِرَ بِلِسَانِهِ الْمُصِرَّ عَلَى ذَنْبِهِ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ مَحْمُولٌ عَلَيْهِ بِحُكْمِ الْعَادَةِ
مِنَ الغَفْلَةِ دُونَ الابْتِهَالِ وَالصِّدْقِ فِي السُّؤَالِ

حتى جرب بعضهم ذلك فعجز عنه، فقال: هذا محال وكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة واسترسل فى اتباع الشهوات. وكل ذلك جهالة وضلالات ﴿وفى﴾ أى وكذا اختلف فى ﴿نفع الاستغفار﴾ باللسان ﴿مع الاصرار﴾ على الذنوب الكبار أو الصغار ﴿والحق النفع﴾ لثلاثة أوجه ﴿لما سبق﴾ من الأخبار فى فضل الاستغفار من غير قيد بعدم الاصرار ﴿وكونه﴾ أى ولكون الاستغفار باللسان ﴿حسنة تصلح للتكفير﴾ أى لتكفير العصيان ﴿وعدم ضياع الأجر﴾ أى ولعدم ضياع أجر عامل عبده سبحانه ﴿فورد﴾ فى التنزيل ﴿ان الله لا يضيع اجر المحسنين﴾ (ولا يضيع أجر من أحسن عملا) ﴿وان تك حسنة يضاعفها﴾ تمامه (ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقال: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) ﴿وما ورد﴾ مبتدأ أى وما جاء فى حديث ﴿ان المستغفر بلسانه المصر على ذنبه﴾ أى بجنانه ﴿كالمستهزىء بربه﴾ وفى الاحياء بلفظ «المستغفر من الذنب وهو مصر كالمستهزىء بآيات الله» قال مخرجه: هو حديث ابن عباس عند ابن أبى الدنيا، ومن طريق البيهقى فى الشعب ولفظه «المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بربه» ﴿محمول عليه﴾ خبر المبتدأ اى حمله العلماء على الاستغفار ﴿بحكم العادة من الغفلة﴾ عن الارادة ﴿دون الابتهال﴾ أى التضرع فى الحال ﴿والصدق فى السؤال﴾ أى سؤال المغفرة فى الاستقبال، فهذا حسنة تصلح ان تدفع بها السيئة. وكذا ما نقل عن بعضهم انه كان يقول: استغفر الله من قولى استغفر الله، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين، وهو محمول على الاستغفار بمجرد القول من غير أن يكون للقلب فيه شركة العمل. وقالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير، فلا تظن انها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر الله بل تذم غفلة القلب، فهو يحتاج الى استغفار من غفلة جنانه لا من حركة لسانه، فان من سكت عن الاستغفار باللسان أيضا يحتاج الى استغفارين لا الى استغفار واحد: فهكذا ينبغى ان يفهم حمد ما يحمد وذم ما يذم، والا جهلت معنى

قول القائل الصادق : حسنات الابرار سيئات المقربين ، فان هذه امور تثبت بالاضافة فلا ينبغى ان تؤخذ من غير اضافة ، بل ينبغى ان لا يستحقر ذرات الطاعات والسيئات. ولذا قال الامام جعفر الصادق : ان الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : رضاه فى طاعته، فلا تحقروا منها شيئا فلعل رضاه فيه ، وسخطه فى معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئا فلعل غضبه فيه ، وخبأ وليه فى عباده فلا تحقروا من عباد الله احدا فلعله ولى الله . وزادوا وخبأ اجابته فى دعائه واسمائه ، فلا تتركوا شيئا منهما فربما كانت الاجابة فيه . وقال سهل : لا بد للعبد فى كل حال من مولاه . فاحسن احواله أن يرجع اليه فى كل شىء مما قدره وقضاه ، فان عصاه قال يارب استر على ، فاذا فرغ من المعصية قال يارب تب على فاذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة، واذا عمل الطاعة قال يارب تقبل منى . وسئل أيضا عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال : اول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة، فالاستجابة اعمال الجوارح ، والانابة اعمال القلوب ، والتوبة اقباله على مولاه بان يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ، ثم التنقل الى الافراد ، ثم الثبات ، ثم البيان، ثم القرب، ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ثم محادثة السر وهو الخلة ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غداءه والذكر قوامه والرضاء زاده والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله اليه فيرفعه الى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش ، وسئل عن معنى قوله عليه السلام « التائب حبيب الله » فقال : انما يكون حبيب الله اذا كان فيه جميع ما ذكره الله فى قوله تعالى (التائبون العابدون) الآية . وقال الحبيب هو الذى لا يدخل فيما يكرهه حبيبه . وفى الاحياء : فاياك ان تستحقر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصى فلا تتقيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بانها لا تقدر فى كل ساعة الا على خيط واحد، فتقول وأى غنى يحصل فى خيط واحد ؟ وما وقع ذلك فى الثياب ؟ ولا تدرى المعتوهة ان ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وان اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة، فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله اصلا ، بل اقول : الاستغفار باللسان ايضا حسنة اذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الحالة بغيبة اوفضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالاضافة الى السكوت عنه، وأنما يكون نقصانا بالاضافة الى عمل القلب ، ولذا قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى: ان لسانى فى بعض الاحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبى غافل ، فقال اشكر الله اذا استعمل جارحة من جوارحك فى خير وعوده الذكر، ولم يستعمله فى الشر ولم يعودها الفضول .

وَفى نسْيَانِ الذَّنْبِ بَعْدَ التَّوبَةِ وَهُوَ الأَوْلَى لِلْمُبْتَدِىءِ تَحَامِياً عَنْ تَحْرِيكِ المَيْلِ وَمَارُوِيَ مِنْ كَثْرَةِ نَوْحِ المُنْتَهِينَ وَبُكَائِهِمْ فَلاَ يُقَاسُ المَلاَئِكَةُ بِالحَدَّادِينَ وَأَفْضَلُ التَّائِبِينَ المُسْتَقِيمُ الَى المَوْتِ مُبَالِغًا فى اجْتِنَابِ غَيْرِ الزَّلاَّتِ فَهُوَ سَابِقٌ بالخَيرَاتِ

انتهى . فاياك أن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك فى العبادات ، فهذه مكيدة روجها الشيطان بلعبه على المغرورين ، وخيل اليهم انهم ارباب البصائر واهل التفطن فى الخبايا والسرائر ، فاى خير فى ذكر اللسان مع غفلة الجنان والله المستعان ﴿ وفى ﴾ أى وكذا اختلف فى ﴿ نسيان الذنب ﴾ وذكره ﴿ بعد التوبة ﴾ ايهما اولى ، وانما قيد بما بعد التوبة فان النسيان قبلها مذموم اجماعا قال تعالى: (ونسى ماقدمت يداه) فقال قوم حقيقة التوبة ان تنصب ذنبك بين عينيك ، وقال آخرون حقيقة التوبة ان تنسى ذنبك ﴿ وهو ﴾ أى نسيان الذنب ﴿ الاولى للمبتدىء تحاميا عن تحريك الميل ﴾ أى احتراسا عن تحريك ميل قلبه الى المعصية الناشئة عن الشهوة عند ذكرها ولان المذنب اذا نسيه لم يكثر احترافه ، ولا تقوى ارادته وانبعاثه لسلوك الطريق لان ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع الى مثله ، فهو بالاضافة الى الغافل كمال ، ولكنه بالاضافة الى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق ﴿ ومارُوى ﴾ مبتدأ أى وما نقل ﴿ من كثرة نوح المنتهين ﴾ من الانبياء والمرسلين والاولياء والصالحين ﴿ وبكائهم ﴾ حال كثرة دعائهم والخبر ﴿ فلا يقاس ﴾ فى سلوك طريق الدين ﴿ الملائكة بالحدادين ﴾ فان صدور البكاء واظهار الذنوب بالاستغفار والدعاء انما كان لتعليم امتهم حتى لايغفلوا عن حال الجفاء وقت الوفاء . هذا وقد اخرج ابن المبارك وابن أبى حاتم عن المقبرى ان عيسى بن مريم كان يقول : ياابن آدم اذا عملت حسنة فاله عنها فانها عند من لايضيعها ، واذا عملت سيئة فاجعلها نصب عينيك ﴿ وافضل التائبين المستقيم ﴾ على اكتساب الطاعات واجتناب السيئات ﴿ الى الموت ﴾ أى انقضاء الحيا من غير نقصان الفوت ﴿ مبالغا فى اجتناب غير الزلات ﴾ التى لاينفك البشر عنها فى الحالات بحسب العادات من المعاصى المنهيات ، وانما المبالغة مطلوبة فى جانب المحظورات لما ورد « اذا امرتكم بشىء فأتوا منه مااستطعتم ، واذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » ﴿ فهو ﴾ أى المستقيم ﴿ سابق بالخيرات ﴾ ومسارع الى المبرات

وَالنَّفْسُ مُطْمَئِنَّةٌ وَيَزْدَادُ الْفَضْلُ بِطُولِ الْعُمُرِ وَالْمُجَاهَدَةِ فَوَرَدَ «أَفْضَلُ السَّادَاتِ طُولُ الْعُمُرِ فِي طَاعَةِ اللهِ» وَالسَّلَامَةُ بِقُرْبِ الْمَوْتِ ثُمَّ الْمُعَاوِدُ فِي بَعْضِ الذَّنْبِ الْمُجَدِّدُ لِلتَّوْبَةِ مُبَالِغًا وَهُوَ الْمُفْتَتَنُ التَّوَّابُ وَالنَّفْسُ لَوَّامَةٌ

مستبدل لسيئاته بالحسنات . وفى الكلام ايماء الى قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) ﴿ والنفس ﴾ أى نفس هذا التائب الموصوف بهذه الصفات ﴿ مطمئنة ﴾ راضية مرضية فى رياض التوبة ، واهل هذه الرتبة يتفاوت حالهم فى القوة، فمنهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك ضراعها، ومنهم من لا ينفك عن منازعة النفس ومنعها ولكن تغلب بالمجاهدة وردعها . ومنهم من يقل مدة النزاع ومنهم من يكثر . ومنهم من يطول عمره ويطول اجتهاده فى أمره وتكثر حسناته وتستمر استقامته . ومنهم من يقصره عمره فيظفر بالسلامة عن مرارة امره وعن فتوره فى الطاعات وقصوره ، وهذا معنى قوله ﴿ ويزداد الفضل ﴾ أى فضل التائب ﴿ بطول العمر ﴾ أى ان طال عمره فى مكابدة الطاعة ﴿ والمجاهدة ﴾ مع النفس فى العبادة ﴿ فورد افضل السعادات طول العمر فى طاعة الله ﴾ أى فى العبادات، والحديث لم اعرفه . وقد ورد « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله » رواه الطبرانى وأبو نعيم عن عبد الله بن بسر ﴿ والسلامة ﴾ عطف على الفضل ، أى وتحصل زيادة السلامة عن الوقوع في المعصية والملامة ﴿ بقرب الموت ﴾ وقصر العمر وتمام الامر ونقصان الاجر وقد طلب بعض الاكابر طول العمر رجاء كثرة العبادة ، وبعضهم الموت خلاصا من الفتنة، والتسليم اسلم، وفى الدعاء المأثور « اللهم احينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى واجعل الموت راحة لى من كل شر واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير » ﴿ ثم المعاود ﴾ عطف على المستقيم أى ثم الافضل المعاود ﴿ فى بعض الذنب المجدد للتوبة ﴾ رجوعا الى الرب ﴿ مبالغا ﴾ فى تجديد التوبة ﴿ وهو ﴾ أى كثير الابتلاء بالمعصية والتوبة ﴿ المفتتن التواب ﴾ أى كثير التوبة والرجعة وعند البيهقى عن على مرفوعا « خياركم كل مفتن تواب » ﴿ والنفس ﴾ اى نفس هذا التائب المعاود فى بعض الذنوب ﴿ لوامة ﴾ تلوم صاحبها بعد المعصية وترجع الى الطاعة التى فيها سلامة وهو المقتصد وهذه أيضا رتبة عالية وان كانت عن الطبقة الاولى ناقصة نازلة فهى أغلب احوال التائبين لان الشر

ثُمَّ التَّائِبُ عَنِ الْبَعْضِ الْمُسَوِّفُ فِى الْآخَرِ الْمُتَنَدِّمُ بَعْدَ الارْتِكَابِ الْقَاصِدُ لِلتَّوْبَةِ فَهُوَ الْمُخَلِّطُ وَالنَّفْسُ مُسَوِّلَةٌ وَهُوَ عَلَى الْخَطَرِ فِى الْخَاتِمَةِ فَإِنْ مَاتَ تَائِبًا فَازَ وَإِلَّا فَفِى مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى بِخِلَافِ الْأَوَّلِينَ فَهُمَا فَائِزَانِ، وَأَمَّا الْمُرْتَكِبُ الْمُصِرُّ النَّاسِى لِلتَّوْبَةِ وَعَزْمِهَا فَهُوَ الْغَافِلُ

معجون فى طينة البشر ، وانما غاية سعيه ان يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات . واما أن تخلو عنه بالكلية كفة السيئات فذلك فى غاية العبد من حيث العادات، فهؤلاء مع هذا الابتلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى اذ قال سبحانه (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم) أى الصغائر (ان ربك واسع المغفرة) وفى الخبر ٭

ان تغفر اللهم فاغفر جما وأى عبد لك لا الما

وقد قال عز وعلا فى مقام المدح والثناء (والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله)الآية ، فاثنى عليهم مع ظلمهم انفسهم لتندمهم وتحسرهم ﴿ثم التائب﴾ عطف على المعاود او المستقيم اى الانضل بعدهما التائب ﴿ عن البعض ﴾ أى بعض الذنوب ﴿ المسوف ﴾ اى المؤخر بالتوبة ﴿ فى الآخر ﴾ أى فى البعض الآخر من الذنوب ﴿ المتندم ﴾ أى مظهر الندامة ﴿ بعد الارتكاب ﴾ اى اكتساب المعصية ﴿ القاصد ﴾ اى الناوى ﴿ للتوبة فهو المخلط ﴾ الداخل فيمن قال الله فى حقه (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم) وهو ظالم لنفسه ﴿ والنفس ﴾ أى نفس هذا الغافل ﴿ مسولة ﴾ أى مزينة للمعصية ومسهلة لتأخير التوبة وقد قال تعالى (أولئك هم الغافلون لا جرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون) فالخسارة مترتبة على الغفلة ﴿ وهو على الخطر فى الخاتمة فان مات تائبا فاز ﴾ بالجنة وظفر بالمثوبة ﴿ والا ﴾ أى وان لم يتب ومات ﴿ ففى مشيئة الله تعالى ﴾ ان شاء عفا عنه بلطفه وكرمه وان شاء عذبه بقدر ذنبه ﴿ بخلاف الاولين ﴾ أى صاحب النفس المطمئنة وصاحب النفس اللوامة ﴿ فهما فائزان ﴾ بالجنة والسلامة فى العاقبة ﴿ واما المرتكب ﴾ للمعصية ﴿ المصر ﴾ عليها من غير التوبة ﴿ الناسى للتوبة ﴾ اى التارك لها نفسها ﴿ وعزمها ﴾ اى والعزم عليها ﴿ فهو ﴾ الذى اسمه ﴿ الغافل ﴾

وَالنَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ يُخْشَى عَلَيْهِ سُوءُ الْخَاتِمَةِ وَيَجُوزُ شُمُولُ الْعَفْوِ إِيَّاهُ كَنَيْلِ الْكَنْزِ بِلَاطَلَبٍ لَكِنِ التَّوَقُّعُ حَمَاقَةٌ فَوَرَدَ (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى)

عن حكم ربه الجاهل عما خلق لاجله فقد ورد من حديث ابن عمر عند الديلمى « ان لله ملكا ينادى فى كل يوم وليلة ابناء الاربعين زرع قددنا حصاده » الحديث وفيه « ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم اذ خلقوا علموا الماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فيتذاكروا » الحديث ﴿ والنفس ﴾ أى نفسه ﴿ امارة ﴾ أى كثيرة الامر ﴿ بالسوء ﴾ اى بالمعصية ﴿ يخشى عليه سوء الخاتمة ﴾ من الموت على الفسق اوالكفر هنالك نعوذ بالله من ذلك ﴿ ويجوز شمول العفو ﴾ من الله ﴿ اياه ﴾ أى الغافل ولكنه نادر لايقع فى الاغلب بلا سبب ﴿ كنيل الكنز ﴾ اى كوصوله للكنز ﴿ بلاطلب ﴾ وكمن يحصل له العلم اللدنى بمجرد الجذب الالهى ﴿ لكن التوقع ﴾ للعفو مع الاصرار على المعصية وعدم اتيان الطاعة ﴿ حماقة ﴾ اى غرور وجهالة ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ وان ليس للانسان الا ماسعى ﴾ وفق ماقدره الله له وقضى ، فلابد من فعل الطاعة وترك المعصية اوالرجوع عنها بالتوبة ، والافعا قبته خطرة ، فربما يختطف قبل التوبة و يقع امره فى المشيئة ، فان تداركه الله بالرحمة وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين ، وأن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى عليه ان يحق عليه فى الخاتمة ماسبق عليه من القول الاول فى قضاء الازل ، لانه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على انه سبق له فى الازل ان يكون من الجاهلين ، فيضعف الرجاء فى حقه من ذلك الحين ، واذا تيسرت له اسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له فى الازل أن يكون من جملة العالمين ، فكذا ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الاسباب ، كارتباط المرض والصحة بتناول الاغذية والادوية ، وارتباط حصول فقه النفس الذى تستحق به المناصب العلية فى الدنيا بترك الكسل فى طلب المراتب العليا والموظبة على طلب العلم ، فكما لايصلح لمنصب الرياسة والتقدم بالعلم فى مقام السياسة الانفس صارت فقيهة بطول التفقه ، فلايصلح لملك الآخرة ونعيمها ولاللقرب من رب العالمين الاقلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير ، هكذا سبق فى الازل بتقدير رب الارباب ومسبب الاسباب قال تعالى (ونفس وماسواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب

وَلاَ يَتْرُكُهَا لِخَوْفِ العَوْدِ لِجَوَازِ المَوْتِ قَبْلَهُ وَغُفْرَانِ السَّالِفَةِ فَوَرَدَ «خِيَارُكُمْ المُفْتَتَنُ التَّوَّابُ» أَيْ كَثِيرُ الاِبْتِلاَءِ بِالذَّنْبِ وَكَثِيرُ التَّوْبَةِ مِنْهُ وَسَبَبُ الاِسْتِقَامَةِ الرِّيَاضَةُ وَالمُرَابَطَةُ فَوَرَدَ . (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا

من دساها) فالمخافة من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس خاتمة ماقبله ، اذ يمكن أن يكون الموت متصلا به فليراقب الانفاس والاوقع فى المحذور ودامت الحسرة الى ان يخرج من دار الغرور . فالناس كلهم محرومون الا العالمون والعالمون كلهم محرومون الا العاملون والعاملون كلهم محرومون الا المخلصون . والمخلصون كلهم على خطر عظيم ﴿ ولا يتركها ﴾ أى التوبة ﴿ لخوف العود ﴾ أى لمخافة الرجعة الى المعصية ﴿ لجواز الموت قبله ﴾ اى قبل عوده الى ذنبه ﴿ وغفران السالفة ﴾ اى السابقة ان عاد الى ذنبه ولم يتب الى ربه . وهذا الترك من خدوع الشيطان . فانه من اين له هذا العلم ، فعسى أن يموت تائبا عن الذنب ويصير حبيبا للرب مع أن الخوف من العود لاضرر فيه بل فيه منفعة ، فعلى العبد العزم والصدق فى الجزم ، وعلى الله الاتمام من باب الفضل والا كرم ، فان اتم فهو المطلوب الاعلى ، وان لم يتم فقد غفرت ذنوبه السالفة كلها فهذا هو الربح العظيم والفائدة الكبرى ، فالعبد من التوبة ابدا بين احدى الحسنيين ﴿ فورد ﴾ عن على مرفوعا ﴿ خياركم المفتتن ﴾ بصيغة المجهول . وفى رواية المفتن بالادغام ﴿ التواب ﴾ رواه البيهقى فى شعبه ﴿ أى كثير الابتلاء بالذنب وكثير التوبة منه ﴾ أى طاعة الرب وفى خبر آخر «المؤمن كالسنبلة تقوم احيانا وتميل احيانا» رواه أبو يعلى وابن حبان من حديث انس . وللبيهقى والطبرانى من حديث ابن عباس باسانيد حسنة «لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة» أى الحين بعد الحين . فالفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من العثرات ومقارفة السيئات المختطفات ، فللترمذى والحاكم وصححه من حديث أنس «كل بنى آدم خطاؤن وخير الخطائين التوابون» وللطبرانى والبيهقى من حديث جابر «المؤمن واه راقع فسعيدهم من مات على رقعه» أى واه بالمعصية والملامة راقع بالتوبة والندامة ﴿ وسبب الاستقامة الرياضة ﴾ وهى تهذيب الاخلاق ﴿ والمرابطة ﴾ وهى الاقامة بالمجاهدة والاستدامة ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ ياايها الذين آمنوا اصبروا ﴾ على الطاعات وعن السيئات ، وفى المصيبات ﴿ وصابروا ﴾ أى وغالبوا

وَرَابِطُوا) أىْ أَنْفُسَكُمْ بِالْمُشَارَطَةِ وَهُوَ وَصِيَّةُ النَّفْسِ فِى أَوَّلِ النَّهَارِ نَحْوُ أَنْ لَا بِضَاعَةَ لَكَ سِوَى الْعُمُرِ وَالْأَنْفَاسُ مَعْدُودَةٌ وَالْمَاضِى لَا يَعُودُ وَالْوَقْتُ ضَيِّقٌ وَالتَّمَنِّى غَيْرُ نَافِعٍ وَتَوْظِيفُ الْعَمَلِ وَشَرْطُ الشُّرُوطِ عَلَيْهِ ثُمَّ بِالْمُرَاقَبَةِ فِى الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ فَالْأَعْلَى أَنْ يَصِيرَ مَغْلُوبًا بِالْاسْتِغْرَاقِ بِهِ تَعَالَى وَعَدَمِ الْالْتِفَاتِ الَى مَاسِوَاهُ

الاعداء الظاهرة والباطنة بشدة الصبر وحدة الامر ﴿ ورابطوا أى انفسكم بالمشارطة ﴾ أى مع النفس بالمداومة على الطاعة والمواظبة على العبادة فى كل يوم وساعة خوفا عليها من ضياع البضاعة . والتحقيق ان المرابطة ربط النفس على الارتحال والفناء؛ والقلب على اغتنام العبادات والتأهب ليوم الجزاء ، وهو معنى قوله ﴿ وهو ﴾ أى ربطها بالمشارطة ثلاثة اشياء : منها ﴿ وصية النفس ﴾ أى وصيته بها ﴿ فى أول النهار ﴾ بل فى كل نفس من الاعمار ﴿ نحو ان لا بضاعة لك ﴾ اى ليس لك رأس مال ﴿ سوى العمر ﴾ وهو ايام غير ممدودة ﴿ والانفاس ﴾ أى والحال أن انفاسه ﴿ معدودة ﴾ لا تزيد ولا تنقص ﴿ والماضى لا يعود ﴾ فى الوجود ﴿ والوقت ضيق ﴾ فى ميدان الشهود ﴿ والتمنى ﴾ بان يرجع الى الدنيا يوما واحدا ليعمل عملا صالحا ، او تمنى المراتب العلية بدون المكاسب العلمية والعملية ﴿ غير نافع ﴾ بعد الورود ﴿ و ﴾ منها ﴿ توظيف العمل ﴾ بان يجعل فى كل وقت عملا ينفعه فى العقبى او يعينه على الطاعة فى الدنيا ﴿ و ﴾ منها ﴿ شرط الشروط عليه ﴾ أى على نفسه لحذف لفظ النفس فاتى الجار على ضميره فصار عليه ، ولا يبعد أن يكون الضمير راجعا الى العمل ، والمعنى يقول لها : ان كذبت فعليك صوم ثلاثة ايام ، وان اغتبت فعليك صدقة درهمين ونحوهما ﴿ ثم ﴾ المرابطة ﴿ بالمراقبة ﴾ وهى مشاهدة كونه سبحانه رقيبا بحاله عالما بفعاله ﴿ فى الحركات والسكنات ﴾ فلا يتحرك ولا يسكن الا بما يرضاه الحق فى تلك الساعات من العبادات والطاعات ﴿ فالاعلى ﴾ أى اعلى انواع المراقبة ﴿ ان يصير ﴾ العبد ﴿ مغلوبا بالاستغراق به ﴾ من ذكره وفكره ﴿ تعالى وعدم الالتفات الى ماسواه ﴾ أى سوى الله وما عداه ، وهذا مراقبة المقربين من الصديقين ، وهو مراقبة التعظيم والاجلال ، بان يصير القلب فى جميع الاحوال مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومطالعة تجليات ذلك الجمال على وجه الكمال ، ومنكسرا تحت الهيبة والعظمة فى المشاهدة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات الى الغير حتى يحتاج

ثُمَّ أَنْ يَكُونَ تَحْتَ حُكْمِ الشَّرْعِ فَيَنْظُرُ قَبْلَ العَمَلِ فِي أَوَّلِ خَاطِرٍ فَيَتِمُّ مَاهُوَ لَهُ تَعَالَى وَيَتْرُكُ مَاسِوَاهُ وَيَنْظُرُ عِنْدَهُ فَفِي الطَّاعَةِ يُخْلِصُ النِّيَّةَ وَيُرَاعِي الأَدَبَ وَفِي الْمَعْصِيَةِ يَسْتَحِي وَيَتُوبُ وَيُكَفِّرُ وَفِي الْمُبَاحِ يُرَاعِي النِّيَّاتِ وَالآدَابَ ثُمَّ بِالْمُحَاسَبَةِ فِي آخِرِ النَّهَارِ وَهُوَ النَّظَرُ بَعْدَ العَمَلِ فَوَرَدَ «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا» لِلْعَاقِلِ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ سَاعَةٌ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ فِيهَا ثُمَّ بِالْمُعَاقَبَةِ فَبِالْجُوعِ انْ أَكَلَ حَرَامًا وَالسَّهَرِ

الى المجاهدة، وهذا الذى صارهمه واحدا وكفاه الله سائر همومه ابدا ،ومن نال هذه الدرجة مع الحق فقدغفل عن مراقبة الخلق ، فلا يبصر من يحضر لديه وهو فاتح عينيه ، ولايسمع مايقال له مع أنه لاصمم فى اذنيه ﴿ ثم ﴾الاعلى من انواع المراقبة﴿ ان يكون تحت حكم الشرع ﴾ خارجا عن تحكم الهوى والطبع ، وهذه مراقبة الورعين من اصحاب اليمين ﴿ فينظر ﴾ ويتأمل ويتفكر ﴿ قبل العمل فى اول خاطر ﴾يخطر﴿ فيتم ماهو له تعالى ﴾وفيه رضاه﴿ ويترك ماسواه ، وينظر ﴾أيضا﴿ عنده ﴾أى عند الشروع فى العمل طاعة اوغيرها ﴿ ففى الطاعة يخلص النية ﴾ويصفى الطوية بان يجعلها لله تعالى من غير الرياء والسمعة ، ويحضر القلب لمشاهدة الرب كما ورد «الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه» ﴿ ويراعى الادب ﴾ فى حضرة الرب ويحفظ نفسه عن النشاط فى بساط الانبساط ﴿ وفى المعصية يستحيى ﴾ من الرب ﴿ ويتوب ﴾ من الذنب ﴿ ويكفر ﴾ بما يناسبه ان صدرت عنه ﴿ وفى المباح يراعى النيات ﴾فان المباحات بتحسين النيات تصير عبادات ﴿ والآداب ﴾بان لايتجاوز عن الضرورات﴿ ثم ﴾مرابطة النفس﴿ بالمحاسبة فى آخر النهار ﴾ اوفى آخر كل نفس وساعة﴿ وهو النظر بعد العمل ﴾من الحسنات والسيئات ﴿ فورد حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ﴾ وهو اثر عن عمر كما تقدم وقد قال تعالى(ياايها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله» ﴿ للعاقل اربع ساعات ساعة يحاسب نفسه فيها ﴾ أى وساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يفضى فيها الى بعض اخوانه الذين يبصرونه بعيوبه ، وساعة يخلو فيها بينه وبين شهواته وقد تقدم﴿ ثم ﴾مرابطة النفس ﴿ بالمعاقبة ﴾ لها ﴿ فبالجوع ﴾ يعاقبها﴿ ان اكل حراما والسهر ﴾ اى ويعاقبها

انْ نَظَرَ حَرَاماً وَنَحْوَهُ فَلَوْ سَاهَلَ سَهُلَ عَلَيْهِ الرُّجُوعُ ثُمَّ بِالْمُجَاهَدَةِ بِأَدَاءِ الْوِرْدِ عِنْدَ اسْتِثْقَالِ النَّفْسِ بَلْ بِالزِّيَادَةِ كَاحْيَاءِ لَيْلَةٍ عِنْدَ التَّوَانِى عَنْ حِفْظِ جَمَاعَةٍ أَوْ أَدَاءِ نَافِلَةٍ . ثُمَّ بِالْمُعَاتَبَةِ بِمِثْلِ يَانَفْسُ أَلَا تَسْتَحِينَ مِنْهُ تَعَالَى أَلَكِ طَاقَةٌ بِعَذَابِهِ الأَلِيمِ وَالْكُلُّ مَأْثُورٌ وَالأَصْلُ الاسْتِعَانَةُ بِهِ تَعَالَى مُتَضَرِّعاً بَيْنَ يَدَيْهِ تَعَالَى مُتَبَرِّئاً عَنِ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، قِيلَ مَنْ جَاهَدَ سَبْعَ مَرَّاتٍ لَا يَبْتَلِى ثَامِنَةً وَقِيلَ مَنِ اسْتَقَامَ سَبْعَ سِنِينَ لَا يَعُودُ

بالسهر ﴿ ان نظر حراما ونحوه ﴾ بان رقد عن التهجد ﴿ فلو ساهل ﴾ التائب فى هذه المعاقبة ﴿ سهل عليه الرجوع ﴾ اى المراجعة الى المعصية و ما يتبعها من الغفلة ، فقد عاقب عمر رضى الله عنه نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة بان تصدق بارض كانت له قيمتها مائتا الف درهم ، وكان ابن عمر اذا فاتته صلاة فى جماعة احيا تلك الليلة وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فاعتق رقبتين ﴿ ثم ﴾ المرابطة ﴿ بالمجاهدة ﴾ وهى مخالفة النفس ﴿ باداء الورد ﴾ من أنواع الطاعات والعبادات ﴿ عند استثقال النفس ﴾ عن بعض المأمورات ﴿ بل بالزيادة ﴾ على المواظفات ﴿ كاحياء ليلة ﴾ فى عبادة ﴿ عند التوانى ﴾ اى التساهل والتكاسل ﴿ عن حفظ جماعة ﴾ كان يحفظها ﴿ أو اداء نافلة ﴾ كان يفعلها ﴿ ثم ﴾ المرابطة ﴿ بالمعاتبة بمثل يانفس ﴾ بالضم او بالكسر اى يانفسى ﴿ الا تستحين منه تعالى ﴾ فى ترك طاعته او فعل معصيته ﴿ الك طاقة بعذابه الاليم ﴾ المؤلم من نار الجحيم ومن ماء الحميم ﴿ والكل ﴾ اى جميع ما ذكر من انواع المرابطات ﴿ ماثور ﴾ عن السلف والخلف القائمين بمجاهدة النفس ، والرياضات فى مقام الطاعات ﴿ والاصل ﴾ المعتبر فى تحصيل الاستقامة ﴿ الاستعانة به تعالى ﴾ والاستعانة بكرمه سبحانه ﴿ متضرعا بين يديه تعالى ﴾ اى حال عبادته وطاعته ﴿ متبرئا عن الحول والقوة ﴾ من جهته ورؤية العمل من طاقته كما يشير اليه قوله تعالى (اياك نعبد واياك نستعين) فاياك نعبد تفرقة واياك نستعين جمع وفى الجملة الأولى رد على الجبرية وفى الثانية على القدرية ﴿ قيل ﴾ اى فى باب الاستقامة ﴿ من جاهد ﴾ فى ترك المعصية ﴿ سبع مرات لا يبتلى ﴾ بالذنب ﴿ ثامنة ﴾ أى مرة ثامنة ، وبه تحصل الاستدامة ﴿ وقيل من استقام ﴾ على التوبة ﴿ سبع سنين لا يعود ﴾ الى المعصية فى جميع عمره

ثُمَّ التَّوبَةُ مِنَ الذَّنْبِ وَهِيَ لِلمُؤْمِنِينَ فَورِدَ (تُوبُوا الى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ) وَالانَابَةُ مِنَ الغَفْلَةِ وَهِيَ لِلْمُقَرَّبِينَ فَورِدَ (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) وَالأَوبَةُ مِن رُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ وَهِيَ لِلمُرْسَلِينَ فَورِدَ (نِعْمَ العَبْدُ انَّهُ أَوَّابٌ) ثُمَّ التَّقْوَى أَعَمُّ مِنْهَا فَالمُمتَنِعُ عَنْ ذَنْبٍ لَمْ يَرْتَكِبْهُ قَبْلُ مُتَّقٍ لَا تَائِبٌ *

وهو قول فرقد السنجى ﴿ثم التوبة﴾ فى عرف المحققين ﴿من الذنب وهى للمؤمنين﴾ خاصة حيث قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا) او عامة ﴿فورد﴾ فى التنزيل (توبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون) لعلكم تفلحون ﴿والانابة من الغفلة﴾ الى الحضور ﴿وهى للمقربين فورد﴾ فى التنزيل (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) ومنه قوله تعالى (الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) وقوله خر راكعا وأناب ﴿والاوبة من رؤية التقصير﴾ فى الطاعة ﴿وهى للمرسلين فورد﴾ فى التنزيل (ووهبنا لداود سليمان) ﴿نعم العبد انه اواب﴾ وكذا فى حق ايوب (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب) وقد يستعمل فى حق المؤمنين المقربين كقوله تعالى (ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا) ﴿ثم التقوى اعم منها﴾ اى من التوبة وهى اخص من التقوى فكل تائب متق وليس كل متق تائبا ﴿فالممتنع عن ذنب لم يرتكبه قبل﴾ اى قبل وقته ﴿متق لا تائب﴾ والممتنع بعد ارتكابه تائب ومتق ، اما كونه تائبا فظاهر ، واما كونه متقيا فلانه لم يرتكب الذنب مع امتناعه فمن هنا يصح ان يقال للنبى انه متق ولا يجوز ان يقال انه تائب . والله سبحانه اعلم . وأما ما فى الاحياء من انه يجب على كل عالم باقليم او بلدة او محلة أو مسجد او مشهد ان يعلم اهله دينهم ، ويميز ما يضرهم عما ينفعهم ، وما يشغلهم عما يسعدهم ولا ينبغى ان يصبر الى ان يسأل عنه ، بل ينبغى ان يتصدى لدعوة الناس الى نفسه ، فان العلماء ورثة الانبياء و الانبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم فى مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ويطلعون واحدا بعد واحد فيرشدونهم ، فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما ان الذى ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف مرضه مالم يعرفه غيره . وهذا فرض عين على العلماء كافة ففيه ان هذا غير معروف في الكتاب والسنة انه فرض عين

بل ولا فرض كفاية وانما الواجب على العلماء ان لا يكتموا العلم ويبينوه لاهله وعلى الجهال ان يسألوهم كما قال تعالى (فسئلوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون) وقال (واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب) لتبيننه للناس ولاتكتمونه واما معنى قوله عليه السلام «العلماء ورثة الانبياء» فهو انهم لم يورثوا دينارا ولادرهما وانما ورثوا العلم فمن اخذه اخذ بحظ وافر وهم مختلفون فى مراتب الوراثة كتفاوت مناصب العلوم من التفسير والحديث والفقه والقراءة ٠هذا والعلماء الذين هم بمنزلة الاطباء فى زماننا صاروا مرضى بالداء الذى ليس له دواء وهو حب الدنيا فبهذا السبب عم الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء ، ومع هذا غلب عليهم الرجاء وهى الدهياء المعضلة والعلماء العاملون من الاولياء والاصفياء اختاروا ان يكونوا من الاتقياء الاخفياء فنسأل الله الهداية من الابتداء الى الانتهاء٭

ثم اعلم ان من ابتلى بحب الدنيا فداؤه عضال ليس له دواء ، وقد قال رجل لمحمد بن واسع اوصنى ، فقال انا اوصيك بان تكون ملكا فى الدنيا والآخرة ، فقال : كيف لى بذلك ؟ فقال الزم الزهد فى الدنيا، وكتب معاوية الى عائشة بالسلام انا اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى فكتبت اليه من عائشة الى معاوية سلام عليك ، اما بعد فانى سمعت رسول الله عليه السلام يقول «من التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله الى الناس ومن التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس» والسلام عليك ٠ والحديث رواه الترمذى والحاكم، وكتبت اليه مرة اخرى : أما بعد فاتق الله فانك أن اتقيت الله كفاك الناس، وان اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام ٠ وهو مقتبس من قوله تعالى (ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) ومن قوله سبحانه (انهم لم يغنوا عنك من الله شيئا) وقال لقمن لابنه ٠يا بنى زاحم العلماء بركبتيك ولاتجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك ، وانفق فضول كسبك لآخرتك ، ولاترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا ، وعلى اعناق الرجال كلا ، وصم صوما تكسر شهوتك، ولاتصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة افضل من الصوم . وقال أيضا يابنى لاتضحك من غير عجب، ولا تمش فى غير ارب ، ولاتسأل عما لايعنيك ؛ ولا تضيع مالك . وتصلح مال غيرك فان مالك ماقدمت ، ومال غيرك ماخلفت . يابنى من يرحم يرحم، ومن يصمت يسلم ومن يفعل الخير يغنم ، ومن يفعل الشر يأثم ومن لم يملك لسانه يندم وقال رجل لابى حازم اوصنى، فقال: كل مالوجاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه، وكل مالوجاءك الموت عليه فرأيته مصيبة

﴿ البَابُ السَّابِعَ عَشَرَ فِى الصَّبْرِ وَالرِّضَاءِ وَالشُّكْرِ ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ الصَّبْرُ ثَبَاتُ بَاعِثِ الدِّينِ فِى مُقَابَلَةِ بَاعِثِ الهَوَى

فاجتنبه. وقال رجل لحامد اللفاف . اوصنى، فقال: اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف لئلا تدنسه الآفات. قال : وما غلاف الدين؟ قال : ترك طلب الدنيا الى ما لا بد منه ، وترك كثرة الكلام الا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس الا فيما لا بد منه، وكتب الحسن الى عمر ابن عبد العزيز : أما بعد نخف ما خوفك الله ، واحذر ما حذرك الله وخذ مما فى يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام. وكتب مطرف بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز : اما بعد فان الدنيا دار عقوبة، ولها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده ، فكن فيها يا امير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن ارطاة : اما بعد فان الدنيا عدوة اولياء الله تعالى وعدوة اعداء الله، اما أولياء الله فغمتهم ، واما أعداؤه فغرتهم. ومجمل الكلام فى هذا المقام من المرام أن من اعطى قلبه حسن الاصغاء ، واستشعر الخوف واتقى، وانتظر المثوبة الاسنى ، وصدق بالحسنى ، فسييسره الله تعالى للطريقة اليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى ، ثم لا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك فتردى ، وما على الانبياء الا شرح طريق الهدى، وانما لله الآخرة والاولى.

﴿ الباب السابع عشر في الصبر والرضاء والشكر ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الذى نستعين بذاته وصفاته على توفيق الصبر على ثلاثة وابتلائه ، والرضاء بحكمه وقضائه ، والشكر على نعمائه وآلائه . وقد اجتمع الثلاثة فى حديث عطاء عن ابن عباس « لما دخل عليه السلام على الانصار فقال امؤمنون انتم؟ فسكتوا ، فقال عمر نعم يارسول الله، قال وما علامة ايمانكم؟ فقالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء . فقال عليه السلام : مؤمنون ورب الكعبة » رواه الطبرانى فى الاوسط ﴿ الصبر ﴾ وهو حبس النفس عن الامر ﴿ ثبات باعث الدين ﴾ من قصد الامتثال، ثم خوف النار، ثم طمع الجنة، ثم رجاء اللقاء، وهذا طريق أهل الهدى وهو اسم لجميع ما يقرب العبد الى المولى ﴿ فى مقابلة باعث الهوى ﴾ من الاغراض الفاسدة والاعواض الكاسدة فالهوى هو ميل النفس الى الشيء من غير داعية الشرع بل بمجرد

فَأَمَّا بِالجِسْمِ عَنِ الشَّاقِّ كَالعِبَادَةِ أَوْ عَنِ المَصَائِبِ وَأَمَّا بِالنَّفْسِ عَنِ الشَّهْوَةِ فَعَنِ الشَّهْوَتَيْنِ عِفَّةٌ وَعَنِ احْتِمَالِ المَكْرُوهِ صَبْرٌ مُطْلَقًا

هوى النفس والطبع ، وقيل الصبر على ثلاثة أنواع صبر العوام وهو صبر النفس على ماتكره، وصبر الخواص وهو تجرع المرارات من غير تعبس ، وصبر اخص الخواص وهو التلذذ بالبلاء كالتلذذ بالآلاء فانه علامة اهل الولاء من الانبياء والاولياء، وقيل الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الادب في الثبات على الولاء وتلقى مر اقضيته بالرحب والسعة على احكام الكتاب والسنة ه وينقسم اقساما صبر لله وهو الثبات على اداء اوامره وانتهاء زواجره، وصبر مع الله وهو السكون تحت جريان قضائه من سرائه وضرائه، وصبر على الله وهو الركون الى وعده في كل شيء من أمره حلوه ومره وصبر عن الله وهو مذموم وصاحبه ملوم مذؤم كما قيل ه

الصبر يحمد في المواطن كلها الاعليك فانه مذموم

أي الاعنك وقد يحمد اذا وصل الى مقام الرضاء في جميع ابواب القضاء كما قيل

اريد وصاله ويريد هجرى فاترك مااريد لما يريد

وقال الجنيد : المسير من الدنيا الى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في جنب الحق شديد والسير من النفس الى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد وحكى عن بعض العارفين أنه سئل الشبلي عن الصبر أيه أشد فقال الصبر في الله فقال لا قال الصبر لله قال لا قال الصبر مع الله قال لا قال فاي شيء ، قال الصبر عن الله قال فصرخ الشبلي صرخة ، كادت روحه تتلف وقد قيل في معنى قوله تعالى (اصبروا وصابروا ورابطوا) اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله عناء والصبر بالله تقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء * وانشد

الصبر عنك مذموم عواقبه والصبر في سائر الاشياء محمود

﴿ فاما ﴾ أن يكون الصبر ﴿ بالجسم عن ﴾ الامر ﴿ الشاق ﴾ على البدن ﴿ كالعبادة اوعن المصائب ﴾ البدنية ﴿ وأما ﴾ أن يكون الصبر ﴿ بالنفس ﴾ طلبا للثواب أو هربا من العقاب ﴿ عن الشهوة ﴾ أي شهوة البطن وشهوة الفرج وغيرهما ﴿ فعن الشهوتين ﴾ المذكورتين يقال له ﴿ عفة وعن أحتمال المكروه ﴾ بموت الاقارب ونحوه يقال له ﴿ صبر مطلقا ﴾ أي وهو الفرد الكامل في هذا الباب كما اطلق

وَضِدُّ الصَّبْرِ الْجَزَعُ وَالْهَلَعُ وَفِي الْغِنَى ضَبْطُ النَّفْسِ وَضِدُّهُ الْبَطَرُ وَفِي الْحَرْبِ شَجَاعَةٌ وَضِدُّهُ الْجُبْنُ وَفِي كَظْمِ الْغَيْظِ حِلْمٌ وَضِدُّهُ التَّهَوُّرُ وَفِي نَوَائِبِ الزَّمَانِ سَعَةُ الصَّدْرِ وَضِدُّهُ ضِيقُهُ وَالتَّضَجُّرُ وَالتَّبَرُّمُ وَفِي اخْفَاءِ الْأَمْرِ كِتْمَانٌ وَضِدُّهُ الاظْهَارُ وَفِي فُضُولِ الْعَيْشِ زُهْدٌ وَضِدُّهُ الْحِرْصُ وَفِي الْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا

في منزل الكتاب (وبشر الصابرين) الآية فاقتصر حينئذ على اسم الصبر بلا اختلاف اسم خاص ﴿ وضد ﴾ أي نقيض ﴿ الصبر الجزع ﴾ وهو حركة الفزع ﴿ والهلع ﴾ بفتحتين الفحش الجزع كرفع الصوت بالبكاء وضرب الخدود وشق الجيوب ونحوها ومنه قوله تعالى (أن الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) وظاهر الآية أن الهلع ضد الجزع والمنع كلاهما ﴿ وفي الغنى ﴾ أي ويقال في احتمال الغنى وتحمله من البلوى ﴿ ضبط النفس ﴾ تحت الشرع والعقل والهدى وحفظها عن متابعة الطبع والهوى ﴿ وضده البطر ﴾ بفتحتين وهو الطغيان بالنعمة ومنه قوله تعالى (كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى) ﴿ وفي الحرب ﴾ أي والصبر في مواطن الحرب يقال له ﴿ شجاعة ﴾ وهي قوة القلب وثباته في المقاتلة ﴿ وضده الجبن ﴾ وهو ضعف القلب وخوفه من رؤية العدو في المعركة حين المقابلة ﴿ وفي كظم الغيظ ﴾ أي تحمل الغضب ﴿ حلم ﴾ وعفو ﴿ وضده التهور ﴾ صوابه ما في الاحياء من جعل ضده سفها وأما التهور فهو التجاوز عما يقتضيه العقل في الشجاعة وهو مذموم في الشريعة قال تعالى (ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة) فان الخلق الحسن هو المتوسط بين طرفي الافراط والتفريط (والتدمر) وهو المترتب على التهور هو قبول الدمار وهو الاهلاك كالتدمير ومنه قوله تعالى عز وجل تدمر كل شيء بامر ربها ﴿ وفي نوائب الزمان ﴾ أي حوادث الدهر وآفات الدوران ﴿ سعة الصدر ﴾ وهو كناية عن كمال التحمل في الامر ويقال له شرح الصدر ومنه قوله تعالى (الم نشرح لك صدرك) ﴿ وضده ضيقه ﴾ أي ضيق الصدر ومنه قوله تعالى (ولا تك في ضيق مما يمكرون) قرىء بالتخفيف والتشديد (والتضجر والتبرم) فالثلاثة الفاظ مترادفة او متقاربة ﴿ وفي اخفاء الامر كتمان وضده الاظهار ﴾ والافشاء ﴿ وفي فضول العيش زهد ﴾ وهو عدم الرغبة وقلة المحبة ﴿ وضده الحرص ﴾ على الزيادة ﴿ وفي اليسير من الدنيا ﴾ أي في القليل من فضول

قَنَاعَةٌ وَضِدُّهُ الشَّرَهُ وَوَرَدَ (اِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) الايمانُ هُوَ الصَّبْرُ وَهُوَ لِدُخُولِ أَكْثَرِ أَخْلَاقِهِ فِيهِ الصَّبْرُ نِصْفُ الايمَانِ وَهُوَ لِاطْلَاقِهِ عَلَى الْمَعَارِفِ

الدنيا ﴿قناعة وضده الشره﴾ بفتحتين وهو الحرص على طلب الكثير ﴿وورد﴾ فى التنزيل ﴿انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب﴾ وقال تعالى واصبروا ان الله مع الصابرين ه وقال وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون، وكان عمر رضى الله عنه يقول نعم العدلان ونعم العلاوة للصابرين يعنى بالعدلين الصلوة والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلاوة مايحمل فوق العدلين على البعير، وقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الاشعرى عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر الصبر فى المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله وكان حبيب بن أبى حبيب اذا قرأ هذه الآية انا وجدناه صابرا نعم العبد أنه اواب بكى وقال واعجباه اعطى واثنى أى هو المعطى للصبر وهو المثنى عليه كما يشير اليه قوله تعالى (واصبر وماصبرك الا بالله) ﴿الايمان﴾ أى معظم خصال أهل الايمان ﴿هو الصبر﴾ لم اعرفه وفى رواية الديلمى عن أنس مرفوعا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وزاد البيهقى عن على موقوفا ولاجسد لمن لارأس له والاايمان لمن لاصبر له ﴿وهو﴾ أى كون الايمان هو الصبر ﴿لدخول اكثر اخلاقه﴾ أى اخلاق الايمان من فعل الطاعة وترك المعصية وعدم الجزع فى المصيبة ﴿فيه﴾ أى فى الصبر وللاكثر حكم الكل أمر مقرر، وقد جمع الله سبحانه اقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال والصابرين فى البأساء أى المصيبة والضراء أى الفاقة وحين البأس أى المحاربة ﴿الصبر نصف الايمان﴾ رواه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود. وللديلمى والبيهقى فى الشعب عن انس «الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» وفى النهاية اراد بالصبر الورع لان العبادة قسمان: نسك وورع، فالنسك ماامرت به الشريعة، والورع مانهت عنه. انتهى، والحديث مقتبس من قوله تعالى (أن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى لكل مؤمن. وفى تقديم الصبر على الشكر ايماء بان الاحتياج اليه اكثر واتم، وأنه افضل كما تقدم والله أعلم ﴿وهو﴾ أى وكون الصبر نصف الايمان ﴿لاطلاقه﴾ أى الايمان ﴿على المعارف﴾ اليقينيات من الاعتقادات

وَالأعْمَال وَلاَتَتِمُّ الأعْمَالُ الاَّ بِثَبَات بَاعِث الدِّين فَهُوَ نِصْفُ الايمَان وَلاطَاقَه عَلَى الأحْوَال المُثْمِرَة لِلاعْمَال وَانَّ مَا أصَابَ امَّا نَافِعٌ وَامَّا ضَارٌ وَفِيهِمَا الشُّكْرُ وَالصَّبرُ فَهُمَا نِصْفَان وَلاَبُدَّ مِنْهُ لابْتِنَاء العِبَادَة عَلَيْه فَالدُّخُولُ فِيهَا لِقَمْعِ النَّفْس وَالاتْمَامُ أشَدُّ وَلأنَّ الدُّنْيَادَارُ مِحْنَةٍ وَالجَزَعُ شَاغِلٌ وَلأنَّ طَلَبَ الآخِرَة أشَدُّ ابْتِلاَءً فَوَرَدَ «أشَدُّ النَّاس بَلاَءً الأنْبِيَاءُ ثُمَّ الأوْلِيَاءُ

﴿ والاعمال ﴾ الصالحات من العبادات ﴿ ولا تتم الاعمال ﴾ للمجتهدين ﴿ الا بثبات باعث الدين ﴾ من الهدى فى مقابلة باعث الهوى ﴿ فهو ﴾ أى الصبر ﴿ نصف الايمان ﴾ بهذا الاعتبار ، والترتيب بين النصف الاول والثانى وفق اقتضاء الشرع والطبع ﴿ و ﴾ أيضا ﴿ لاطاقه ﴾ أى الايمان ﴿ على الاحوال ﴾ من استيلاء تلك المعارف وهى الرضاء والهيبة والانس والشوق ﴿ المثمرة للاعمال ﴾ لا على المعارف والعوارف من مقامات الرجال . وفى الاحياء : أن جميع مقامات الدين ومنازل السالكين أنما ينتظم من ثلاثة أمور : معارف ، وأحوال وأعمال ، فالمعارف هى الاصول فهى تورث الاحوال ، والاحوال تثمر الاعمال ، فالمعارف كالاشجار ، والاحوال كالاغصان ، والاعمال كالاثمار ﴿ وأنما ﴾ اى لاجل أن ما ﴿ أصاب ﴾ السالك من النعم الدنيوية ﴿ أما نافع ﴾ فى الدنيا والآخرة كالطاعات والمباحات ﴿ واما ضار ﴾ فيهما كالمصائب والسيئات ﴿ وفيهما ﴾ أى النافع والضار ﴿ الشكر ﴾ للعبد بالاضافة الى ماينفعه ﴿ والصبر ﴾ بالنسبة الى مايضره وهما لايحصلان الا بتلك الاحوال ﴿ فهما نصفان ﴾ لتلك الاحوال باعتبار ماذكر من الاقوال ﴿ ولا بد ﴾ للعبد ﴿ منه ﴾ أى من الصبر ﴿ لابتناء العبادة ﴾ من الصلاة والصوم وسائر أسباب السعادة ﴿ عليه ﴾ أى على الصبر ﴿ فالدخول فيها ﴾ أى فى العبادة ﴿ لقمع النفس ﴾ لتكميلها ونفعها ﴿ والاتمام ﴾ أى اتمام العبادة بعد الدخول فيها ﴿ أشد ﴾ من دخولها فى باب الارادة والقمع والاتمام أنما يتأتى بالصبر فى المقام ﴿ ولان الدنيا دار محنة ﴾ فمن كان فى الدنيا فلا بد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها والصبر على جميع مراتبها لتحصل العبادة ومناقبها ﴿ والجزع شاغل ﴾ عن العبادة التى هى غاية المنحة ﴿ ولان طلب الآخرة أشد ابتلاء فورد : أشد الناس بلاء الانبياء ثم الاولياء ﴾

ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ وَهُوَ عَنِ الحَرَامِ وَاجِبٌ وَعَنِ المَكْرُوهِ نَفْلٌ ثُمَّ هُوَ فِي النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِتَرْكِ المَيْلِ وَرِعَايَةِ حَقِّهِ تَعَالَى وَهُوَ الشُّكْرُ

ثم الامثل ﴾ كالعلماء ﴿ فالامثل ﴾ كالصلحاء رواه الترمذى وقال: حسن صحيح وصححه ابن حبان والحاكم ، لكنه بدون لفظ الاولياء . وقد قسم عليه السلام مرة مالا فقال بعض الاعراب من المسلمين : هذه قسمة ما اريد بها وجه الله ، فاخبر به عليه السلام فاحمرت وجنتاه ثم قال عليه السلام «رحم الله أخى موسى قد اوذى باكثر من هذا فصبر » متفق عليه من حديث ابن مسعود وقال عليه السلام «صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك» وقد تقدم . وقال عيسى عليه السلام: لقد قيل لكم من قبل - يعنى فى التوراة - ان السن بالسن والعين بالعين والانف بالانف ، وانا اقول لكم : لاتقاوموا الشر بالشر ، بل من ضرب خدك الايسر فحول له خدك الايمن ومن اخذ رداءك فاعطه ازارك ومن سخرلك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين . انتهى . ولا يخفى أن عيسى عليه السلام كان مظهرا للجمال ، كما أن موسى عليه السلام كان مظهر الجلال ، ونبينا ﷺ كان مظهرا للكمال المتضمن للجلال والجمال ، فاحكامه فى غاية الاعتدال ، والله سبحانه أعلم بحقائق الاحوال ﴿ وهو ﴾ أى الصبر ﴿ عن الحرام واجب ﴾ أى فرض لازم ﴿ وعن المكروه ﴾ أى كراهة تنزيه ﴿ نفل ﴾ بل مستحب ، أما عن المكروه كراهة تحريم فواجب ، وعن فضول المباح زيادة فضيلة وحزم . وفى الاحياء أن الصبر ينقسم أيضا باعتبار حكمه الى فرض و نفل ومكروه ومحرم ، فالصبر عن المحظورات فرض ، وعن المكاره نفل ، والصبر على الاذى المحظور محظور كمن يقطع يده او يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فيهيج غيرته فيصبر على اظهار الغيرة ويسكت على مايجرى على اهله فهذا الصبر محرم ، والصبر على المكروه هو الصبر على اذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع فليكن الشرع محك الصبر الذى هو نصف الايمان ، ولا ينبغى ان يخيل اليك ان جميعه محمود بل المراد به انواع مخصوصة ﴿ ثم هو ﴾ اى الصبر ﴿ فى النعم الدنيوية ﴾ انما يحصل ﴿ بترك الميل ﴾ الهاوى بعرف بترك ارتكاب المحرم والمكروه فى تحصيلها ﴿ ورعاية حقه تعالى ﴾ فيها لصرفها الى طاعته وعبادته ﴿ وهو الشكر ﴾ اى من وجه فلا يتحد الصبر والشكر كما قيل .

ثم اعلم ان جميع مايلحق العبد فى هذه الحياة لايخلو من نوعين احدهما مايوافق هواه والآخر مالا يوافقه بل يكرهه ، وهو محتاج الى الصبر فى كل واحد

وَفى الطَّاعَة بِصَوْن النيَّةِ وَالأَدَاء وَالثَّوَاب عَن الرِّيَاء وَالتَّكَاسُل وَالافْشَاء وَنَحْوهَا وَفى المَعْصيَةِ بالرِّيَاضَةِ وَفى مُصيبَةٍ يُمْكِن المُجَازَاة بالتَّحَمُّل بتَرْك المُكَافَأَة قَوْلاً وَفعْلاً

منهما والنوع الاول اصعبهما فانه يوافق هوى نفسه من الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع المعيشة وكثرة الاتباع والانصـــار وجميع ملاذ الدنيا ، وما احوج العبد الى الصبر على هذه الامور ، فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال فيها والركون اليها والانهماك في اللذات المباحة منها أخرجه ذلك الى البطر والطغيان ، ويجر انه الى أنواع من العصيان كما قال تعالى (كلا ان الانسان ليطغى أن راآه استغنى) وقال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية لايصبر عليها الاصديق . ولما فتحت أموال الدنيا على الصحابة قالوا : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ؛ وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، وقال عليه السلام « الولد مبخلة مجبنة محزنة » رواه أبو يعلى الموصلى من حديث أبى سعيد ، ولاصحاب السنن من حديث بريدة باسناد حسن أنه عليه السلام لما نظر الى ابنه الحسن اوالحسين يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر فاحتضنه ثم قال . صدق الله (انما اموالكم واولادكم فتنة) أنى لما رأيت ابنى يتعثر لم املك نفسى أن اخذته » ففى ذلك عبرة لاولى الابصار ﴿ و ﴾ الصبر ﴿ فى الطاعة ﴾ أى العبادة ﴿ بصون النية ﴾ أى بحفظها عن السمعة والرياء فى حال الابتداء ﴿ والاداء ﴾ أى وبصون اداء العمل عن غير الاخلاص أو عن الغفلة ودواعى الفترة فى الاثناء ﴿ والثواب ﴾ اى وبصونه عن الافشاء حال الانتهاء فالثلاثة مذكورة بطريق اللف ، ومقابلاتها مسطورة عـــلى وجه النشر حيث قال ﴿ عن الرياء ﴾ وفى معناه السمعة ولو فى الخلاء ﴿ والتكاسل ﴾ اى وعن التثاقل فى الاعضاء ﴿ والافشاء ﴾ بالاملاء فى الملاء ﴿ ونحوها ﴾ من العجب والغرور والندامة عن الطاعة ، ورؤية الحول والقوة ، والامن من مكر الله ، واستدراجه وعدم خوف الخاتمة ولعل المراد بقوله تعالى (نعم أجر العاملين الذين صبروا) أى على تصحيح النية وعلى اتمام العمل واخلاصه عن الآفات ﴿ و ﴾ الصبر ﴿ فى المعصية ﴾ المبتلى بها ﴿ بالرياضة ﴾ أى برياضة النفس عن مخالفة هواها ﴿ و ﴾ الصبر ﴿ فى مصيبة ﴾ من شانها أنها ﴿ يمكن المجازاة ﴾ أى يمكن فيها المكافاة ﴿ بالتحمل ﴾ أى الحلم والعفو ﴿ بترك المكافاة ﴾ أى المجازاة ولو بالمماثلة فى المعاقبة ﴿ قولا ﴾ كمن سبه ﴿ وفعلا ﴾ كمن ضربه ، ومنه قوله تعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا

وَفى غَيرِهَا بِتَرْكِ الجَزَعِ وَالشِّكَايَةِ وَاسْتِمْرَارِ العَادَةِ فى الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ أَمَّا التَّأَلُّمُ وَجَرَيَانُ الدَّمْعِ فَلَا يُنَافِيهِ لِعَدَمِ الدُّخُولِ تَحْتَ الاخْتِيَارِ وَالكَمَالُ تَرْكُ مَا يَشْغَلُ عَنهُ تَعَالَى وَجَاءَ الصَّبْرُ عَلَى الفَرَائِضِ ثَلَاثُمِائَةِ دَرَجَةٍ وَعَن

واصلح فاجره على الله) وقد قال بعض الصحابة : ما كنا نعد ايمان الرجل ايمانا اذا لم يصبر على الاذى . وقال تعالى حكاية عن الانبياء (ولنصبرن على ما آذيتمونا) وقال تعالى (ودع اذاهم وتوكل على الله) وقال (واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا) وقال (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون) وقال (ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا وأن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور) ﴿ وفي غيرها ﴾ أى وفى مصيبة غير ممكن المجازاة ﴿ بترك الجزع ﴾ والفزع ﴿ والشكاية ﴾ الى الخلق ﴿ واستمرار العادة ﴾ أى وباستقرارها على حالها ﴿ فى الطعام واللباس ﴾ وكذا الكلام مع الناس وقد قيل : ان الصبر هو أن لا يعرف من صاحب المصيبة اذ يشبه غيره. وقال داود عليه السلام . ماجزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟ قال: جزاؤه أن البسه لباس الايمان فلا انزعه عنه أبدا ، وقال نبينا عليه السلام من أجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك. ذكره فى الاحياء وقال مخرجه لم أجده مرفوعا وأنما رواه ابن أبى الدنيا من رواية سفيان عن بعض الفقهاء، قال من الصبر أن لا تحدث بمصيبتك ولا بوجعك انتهى. وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والاوجاع والصدقة، وفى الاثر وأن ثواب الصبر على المصيبة اكثر مما فات، فاذن مجارى الصبر ثلاثة الطاعة والمعصية والبلية من جهة الخلق او الخالق ﴿ أما التألم ﴾ أى الحزن للقلب ﴿ وجريان الدمع ﴾ من العين ﴿ فلا ينافيه ﴾ أى الصبر ﴿ لعدم الدخول تحت الاختيار ﴾ بل هما مستحبان لما ورد عن سيد الابرار أنه بكى عند موت ولده وقال « القلب يحزن والعين تدمع وأنا على فراقك يا ابراهيم لمحزونون » رواه الشيخان من حديث أنس ﴿ والكمال ﴾ أى كمال الصبر ﴿ ترك مايشغل عنه ﴾ أى عن الله ﴿ تعالى ﴾ من أمور الدنيا فمن غفل عن الله ولو فى لحظة فليس له فى تلك اللحظة قرين الا الشيطان قال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن) الآية، وعن الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف فقيل ما هو؟ قال : هى نفسك أن لم تشغلها شغلتك ﴿ وجاء ﴾ فى الاثر عن ابن عباس ﴿ الصبر على الفرائض ﴾ أى ادائها ﴿ ثلاثمائة درجة ﴾ أى بالنسبة الى الصبر على اداء النوافل ﴿ وعن

اَلْمَحَارِمِ سِتّمِائَةٍ وَفِى الْمُصِيبَةِ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى تِسْعِمِائَةٍ وَالطَّرِيقُ تَضْعِيفُ بَاعِثِ الْهَوَى بِالرِّيَاضَةِ

المحارم ستمائة ﴾ لانه اصعب على النفس ، فان فى فعل الطاعة نوعا من اللذة زيادة على لذة ترك المعصية ﴿ وفى المصيبة عند الصدمة الاولى ﴾ أى فورتها وشدتها وحدتها ﴿ تسعمائة ﴾ لانه اقوى واشق على النفس ، فلا بن أبى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس عن عمر بن عبد العزيز « أفضل الاعمال ما اكرهت عليه النفوس » والحديث الذى فى المتن رواه ابن أبى الدنيا فى الصبر وأبو الشيخ فى الثواب عن على مرفوعا بلفظ « الصبر ثلاثة . فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الارضين الى منتهى الارضين ، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الارضين الى منتهى العرش » .

فالحديث يدل على أن الصبر عن المعصية افضل الانواع ويؤيده ماسبق من اثر عمر رضى الله عنه حيث قال الصبر فى المصيبات حسن وافضل منه الصبر عما حرم الله وأما « الصبر عند الصدمة الاولى » فحديث رواه البزار وأبو يعلى عن أبى هريرة مرفوعا وفى رواية البزار عن ابن عباس الصبر عند اول صدمة وفى رواية البخارى فى تاريخه عن أنس « الصابر الصابر عند الصدمة الاولى » ﴿ والطريق ﴾ فى تحصيل الصبر بعد التوفيق منها ثلاثة ﴿ تضعيف باعث الهوى ﴾ أى تقليله ﴿ بالرياضة ﴾ الكثيرة بأن يقول داعى الهدى ويقهر داعى الهوى فلا يبقى لها قوة المنازعة فى الامتناع عن الطاعة بحسب الاستطاعة . وعند هذا يقال : من صبر ظفر . والواصلون إلى هذه الرتبة هم الاقلون فلا جرم هم الصديقون والمقربون (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فهؤلاء لزموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم . وأما من يغلب عليه دواعى الهوى ويضعف عنده بواعث الهدى فهؤلاء هم الغافلون وهم الاكثرون ، وهم الذين استرقتهم شهوتهم وغلبت عليهم شقوتهم ، وهم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم وما ربحت تجارتهم ، وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالامانى وهى غاية الحمق كما قال عليه السلام « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى » وفى رواية « والعاجز » بدل الاحمق كما رواه أحمد والترمذى

وَذِكْرُ قِلَّةِ قَدْرِ الشِّدَّةِ وَوَقْتِهَا وَاضْرَارِ الْجَزَعِ وَتَقْوِيَةِ بَاعِثِ الدِّينِ بِذِكْرِ فَضَائِلِ الْمُجَاهَدَةِ ثُمَّ انْ كَانَ بِتَعَبٍ قَوِيٍّ فَتَصَبُّرٌ وَانْ

وابن ماجه والحاكم عن شداد بن اوس . ومعنى دان نفسه حاسبها قاله الترمذي وغيره من العلماء . واما من يغلب عليه باعث الهدى تارة وداعي الهوى اخرى فهذا من المجاهدين الذين قيل فيهم (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) وأما التاركون للمجاهدة فيشبهون بالانعام حيث قال تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون) وقال بعض الشعراء :

دع المكارم لاترحل لبغيتها وأقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

وقد قال تعالى (اولئك كالانعام بل هم اضل)اذالبهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها يجاهد مقتضى الشهوة ، وهذا قد خلق له وعطله فهو الناقص حقا والمدبر يقينا وصدقا ولذا قال أبو العتاهية :

ولم ارفي عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وهو مقتبس من قوله عليه السلام «أشد الناس حسرة يوم القيامة رجل امكنه طلب العلم في الدنيا فلم يطلبه ، ورجل علم علما فانتفع به دونه » رواه ابن عساكر . وأما من علم وعمل وعلم فيدعى في الملكوت عظيما كما قال عيسى عليه السلام ﴿ و ﴾ منها ﴿ ذكر قلة قدر الشدة ﴾ في مخالفة النفس حال المجاهدة لأن شدائد الدنيا وأحوالها سهل بالنسبة الى شدائد الآخرة واهوالها ﴿ ووقتها ﴾ أي وذكر قلة وقت الشدة كما يشير اليه قوله تعالى (كانهم يوم يرونها لم يلبثوا الاعشية اوضحاها) ولذا قيل « الدنيا ساعة فاجعلها طاعة » ﴿ واضرار الجزع ﴾ أي وذكر اضرار الجزع والفزع من غير حصول الدفع والنفع ﴿ و ﴾ منها ﴿ تقوية باعث الدين بذكر فضائل المجاهدة ﴾ الواردة في الكتاب والسنة في حق المجاهدين والمجتهدين من قوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقوله (وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما) وقوله عليه السلام « المجاهد من جاهد هواه » رواه النسائي « ورجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر » وقد تقدم ﴿ ثم أن كان ﴾ الصبر والتحمل اوذلك الثبات والتحمل حاصلا ﴿ بتعب قوي ﴾ أي شديد وجهد جهيد ﴿ فتصبر ﴾ أي فيقال له تصبر لان صاحبه متكلف في الصبر كما يقال زاهد ومتزهد وصوفي ومتصوف ﴿ وأن

كَانَ بِيَسِيرٍ فَصَبْرٌ وَإِنْ كَانَ دُونَ جَهْدٍ فَرِضًى وَوَرَدَ «أُعْبُدِ اللهَ عَلَى الرِّضَاءِ فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ» وَإِنْ كَانَ بِتَلَذُّذٍ فَشُكْرٌ وَهُوَ بِالْغَيْبَةِ عَنْ حُظُوظِ النَّفْسِ وَالشُّهُودِ مَعَهُ تَعَالَى كَمَا وَرَدَ «إِنِّي أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي هُوَ وَيَسْقِينِي» وَعَدَمِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْأَلَمِ وَاللَّذَّةِ

كان ﴾ ماذكر واقعا ﴿ بيسير ﴾ أي بتعب سهل وغير عسير ﴿ فصبر ﴾ أي فيخص باسم الصبر فاذا دام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر بالوجه الاسنى قال تعالى (فامامن اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) ﴿ وان كان ﴾ الصبر ﴿ دون جهد ﴾ اى من غير تعب ﴿ فرضى ﴾ اى فهو رضى بما يفعل المولى ﴿ وورد اعبد الله على الرضاء ﴾ فان الرضاء بالقضاء باب الله الاعظم ﴿ فان لم تستطع ﴾ على عبادته فى مقام الرضاء من غير جهد ﴿ البلاء ففى الصبر على ما تكره ﴾ بمقتضى البشرية ﴿ خير كثير ﴾ فى الامور الدنيوية والاخروية ، فاعبده على الصبر فان ما لا يدرك كله لا يترك كله ، والحديث رواه الترمذى من حديث ابن عباس . وقال ابو سليمان : والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على مانكره ﴿ وان كان ﴾ الصبر على البلاء بتلذذ كتلذذ النعماء ﴿ فشكر ﴾ اى فهو شكر ينشأ عن كمال المحبة والصدق وغاية الرضاء عن الحق ، فقد قال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاث مقامات . الاولى ترك الشكوى وهذه درجة التائبين ، والثانية الرضاء بالمقدور وهذه درجة الزاهدين ، والثالثة المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين ﴿ وهو ﴾ أي التلذذ بالبلاء انما يكون بستة أشياء ﴿ بالغيبة عن حظوظ النفس ﴾ ولذات الهوى ﴿ والشهود ﴾ اى وبالحضور ﴿ معه تعالى ﴾ ليلاونهارا ﴿ كما ورد ﴾ عنه عليه السلام انه قال ﴿ انى ابيت عند ربى ﴾ اى حاضر الديه كالواقف بين يديه ﴿ يطعمنى هو ﴾ اى لاغيره ﴿ ويسقينى ﴾ اى يغنينى عن الطعام والشراب ويقوينى بدلهما بما يلتذ به الاحباب فلم اجد الم الجوع والعطش لفناء حظوظ نفسى وشهود قلبى مع ربى ، فهذا المعنى يصلح ان يكون استئناف علة لمنع الاصحاب عن الوصال بدون ارتكاب الاسباب . واما ما قيل من ان المعنى يطعمنى ويسقينى من طعام الجنة وشرابها فلا يصلح ان يكون علة لمنعهم كما لايخفى على أولى الالباب ﴿ وعدم التمييز ﴾ أى وبعدم الفرق ﴿ بين الالم واللذة ﴾ الطبيعيين . ولقد قال بعض المحبين

كَمَا فِي حَدِيثِ حَارِثَةَ «مَا أُبَالِي عَلَى أَيِّ الْحَالَيْنِ وَقَعْتُ عَلَى غِنًى أَوْ فَقْرٍ وَالأَعْلَى التَّمْيِيزُ وَاخْتِيَارُ الأَلَمِ فِي مُوَافَقَتِهِ تَعَالَى وَالِالْتِذَاذُ بِهِ» فَوَرَدَ «أَخْتَارُ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا وَجَاءَ يَا حَبَّذَا الْمَكْرُوهَانِ الْمَوْتُ وَالْفَقْرُ

فليس لى فى سواك حظ * فكيف ما شئت فاختبرنى

لكن لما كان فى هذا شائبة من الدعوة ابتلى بنوع من البلوى ﴿ كما فى حديث حارثة ما ابالى على أى الحالين ﴾ اى المقامين ﴿ وقعت ﴾ أى سقطت وثبت ﴿ على غنى او فقر ﴾ وكذا صحة او مرض ، وكذا وصل أو هجران . وقيل الفقر بلاء ومحنه ، والغنى هم ومشقة . وكل ذلك قادح فى كمال الرضاء والمحبة ، بل ينبغى ان يفوض التدبير لمالكها ويسلم الامر الى صاحبه وسيده ويقول ما قال عمر رضى الله عنه : لا ابالى اصبحت غنيا أو فقيرا فانى لا أدرى أيهما خير لى ، وفيه اشارة الى قوله (ن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا) «وفى الحديث القدسى « ان من عبادى من لا يصلحه الا الفقر . ومنهم من لا يصلحه الا الغنى » الحديث وقد قال عز وجل (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون) فالتسليم اسلم والله اعلم ﴿ والاعلى ﴾ اى أعلى مراتب الصبر من التلذذ بالبلاء الذى هو الشكر بالنسبة الى عدم التمييز كحال اهل السكر ﴿ التمييز ﴾ بين النفع والضر والحلو والمر ﴿ واختيار الالم فى موافقته تعالى ﴾ حيث جعله مختارا ﴿ الالتذاذ به ﴾ أى بالامر فهو الاولى ﴿ فورد ﴾ عنه عليه السلام انه لما خير بين الدنيا وتركها بأن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا فقال : ﴿ اختار ان أكون عبدا نبيا ﴾ وفى رواية زيادة (أجوع يوما فاصبر وأشبع يوما فاشكر) ليفوز بالمقامين ويجمع بين الامرين لانه كان فى غاية من الكمال فاخذ ما يقتضيه الجمال و يستدعيه الجلال ﴿ وجاء ﴾ فى الخبر ﴿ يا ﴾ قوم ﴿ حبذا المكروهان ﴾ أى نعم المكروهان فى طبع الانسان وهما سببا مزيد الاحسان ﴿ الموت ﴾ على الايمان ﴿ والفقر ﴾ المقرون برضى الرحمان رواه ابن أبى الدنيا وغيره . واخرج احمد وسعيد بن منصور فى سننه بسند صحيح عن محمود بن لبيد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال «اثنتان يكرههما ابن آدم يكره الموت والموت خير له من الفتنة ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب»

ثُمَّ الرِّضَاءُ بِتَرْكِ الاعْتِرَاضِ وَقِيلَ تَرْكُ السَّخَطِ وَلَابُدَّ مِنْهُ لِلفَرَاغِ لِلعِبَادَةِ وَالتَّحَامِي مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَالتَّعَبِ فِيهَا وَغَضَبِهِ تَعَالَى فَوَرَدَ «مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائِي فَلْيَطْلُبْ رَبًّا سِوَايَ»

﴿ثم الرضاء بترك الاعتراض﴾ بالقلب فى جميع انواع القضاء فلا يقول لحادث حدث : لولم يحدث لكان أولى ، أولو حدث فى غير هذا الموضع كان أحسن وأعلى ، اذ ليس فى الامكان ابدع مما كان كما فى الاحياء . وأعترض عليه من لم يفهم معناه من العلماء ﴿وقيل ترك السخط﴾ أى الكراهة وهو ضد الرضاء ، والرضاء غاية الغايات ونهاية العنايات ، ففى الحديث « ان الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك » و يؤيده قوله تعالى (ورضوان من الله أكبر) أى من النعيم الذى يتم فيه ، فهذا فضل رضى الله ، وهو ثمرة رضى العبد ، كما يشير قوله تعالى (رضى الله عنهم) اولا (ورضوا عنه) أخرا ﴿ولابد﴾ للعبد ﴿منه﴾ أى من الرضاء عن الله تعالى لاربعة أشياء ﴿للفراغ﴾ أى فراغ الخاطر ﴿للعبادة﴾ وقد ورد « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » ﴿والتحامى﴾ أى والتحافظ ﴿من هموم الدنيـــا﴾ بالقلب ﴿والتعب﴾ ومن غموم النصب بالبدن والقلب ﴿فيها﴾ أى فى الدنيا ، وقد ورد « من جعل الهموم هما واحدا هم الاخرة كفاه الله هم الدنيا والاخرى » ﴿وغضبه﴾ أى التحامى من غضبه ﴿تعالى فورد﴾ فى الحديث القدسى والكلام الانسى ﴿من لم يرض بقضائى﴾ فى احكام ارضى وسمائى ﴿ولم يصبر على بلائى﴾ أى ابتلائى فى سرائى وضرائى وفى رواية زيادة ولم يشكر على نعمائى ﴿فليطلب ربا سواى﴾ أى غيرى وما عداى من اعدائى » وروى أنه عليه السلام سأل طائفة من أصحابه الكرام فقال : ما انتم؟ فقالوا مؤمنون ، فقال ما علامة ايمانكم؟ قالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء ، فقال : مؤمنون ورب الكعبة ، وفى لفظ آخر أنه قال « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا انبياء » وفى مناجاة موسى عليه السلام قال : يارب أى خلقك أحب اليك؟ قال من اذا اخذت عنه محبوبه سالمنى ، قال فاى خلقك أنت ساخط عليه؟ قال من يستخيرنى فى الامر فاذا قضيته له سخط قضائى ، وفى الخبر « قدرت المقادير ودبرت التدابير من رضى فله الرضاء منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى »

ويحصل رضوانه فورد (رضى الله عنهم ورضوا عنه)

فى الخبر المشهور « يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير واجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقته للشر واجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف » وفى الاخبار السالفة « أن نبيا من الانبياء شكى الى الله تعالى الجوع والفقر والعمل عشرين سنة فما اصيب الا ماأراد ، ثم اوحى الله اليه لم تشكو؟ هكذا كان بدوك عندى فى ام الكتاب قبل ان اخلق السموات والارض ، وهكذا سبق لك منى ، وهكذا قضيت عليك قبل ان اخلق الدنيا افتريد ان اعيد خلق الدنيا من اجلك ام تريد أن ابدل ما قدرت عليك فيكون ماتحب فوق ماأحب ، او يكون ماتريد فوق ما اريد ، وعزتى وجلالى لئن يلج هذا فى صدرك مرة أخرى لامحونك من ديوان النبوة » ويروى « ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام : ياداود تريد واريد وانما يكون ماأريد ، فان سلمت لما اريد كفيتك ماتريد ، وان لم تسلم لما اريد اتعبتك فيما تريد ثم لا يكون الا ماأريد » ولله در من قال من أهل المزيد :

تريد النفس أن تلقى مناها ويأبى الله الا مايريد

﴿ ويحصل رضوانه ﴾ أى وليحصل رضاء الله عنه ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ فعلامة رضى العبد عن الله رضاء الله عنه او بالعكس وهو الاولى لذكر رضى الله فى المرتبة الأولى وليسبق رضاه فى الازل الاعلى . وقد سئل الفضيل عن الصبر فقال : هو الرضاء بقضاء الله . قيل وكيف ذلك ؟ قال الراضى لا يتمنى فوق منزلته . وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ؛ وحسن الرضاء فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وروى عن بعضهم قال ، مررت على سالم مولى أبى حذيفة فى القتلى وبه رمق فقلت له : اسقيك ماء ؟ فقال : جرنى قليلا الى الاعداء واجعل الماء فى الترس فانى صائم فان عشت الى الليل شربته ، وفى الخبر « طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به » وفى خبر آخر « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى الله منه بالقليل من العمل » وللترمذى « من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله » وفى خبر آخر « أرض بما قسم الله لك تكن اغنى الناس » وفى اخبار موسى عليه السلام : أن بنى اسرائيل قالوا له سل لنا ربك امرا اذا نحن فعلناه يرضى به عنا ، فقال موسى : الهى قد سمعت ماقالوا ، فقال ياموسى قل لهم : يرضون عنى حتى ارضى عنهم ، ويشهد لهذا ماروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحب أن ينظر ماله

وَالسَّبَبُ ادهَاشُ غَلَبَةِ الحُبِّ عَنِ الاحْسَاسِ بِالألَمِ كَمَا بِالعَاشِقِ وَالحَرِيصِ

عند الله فلينظر ماالله عز وجل عنده فان الله ينزل العبدمنه حيث أنزله العبدمن نفسه» وفى اخبار داودعليه السلام:ما لا وليا ئى والهم بالدنيا ان الهم بالدنيا يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم ، ياداود ان علامة محبتى من أوليائى ان يكونوا روحانيين لا يغتمون » وروى أن موسى عليه السلام قال : يارب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله ، فاوحى الله اليه أن رضائى فى كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره ، قال يارب دلنى عليه ، فقال أن رضائى فى رضاك بقضائى . وعن عمر بن عبد العزيز : ما بقى لى سرور الا فى مواقع القدر . وقيل له ما تشتهى ؟ قال مايقضى الله تعالى ﴿ والسبب ﴾ لرضاء العبد بما يفعل الرب شيئان أحدهما ﴿ ادهاش غلبة الحب ﴾ أى اغنائها واغفالها ﴿ عن الاحساس بالالم ﴾ فى المحن وأهوالها ﴿ كما بالعاشق ﴾ بالدنيا ﴿ والحريص ﴾ فى جمع مالها وأحوالها ، وكان سهل به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له فى ذلك ، فقال ياد وست ضرب الحبيب لا يوجع . وقال الجنيد : سألت سريا السقطى هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال لا قلت وان ضرب بالسيف قال نعم وان ضرب بالسيف سبعين ضربة على ضربة . وقال بعضهم : أحببت كل شىء يحبه حتى لوأحب النار أحببت دخولها . وقال بشر بن الحارث مررت برجل وقد ضرب ألف صوت فى شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل الى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت ؟ فقال لانى عاشق . فقلت ولم سكت ، قال لان معشوقى كان بحذائى ينظر الى ، قلت ولو نظرت الى المعشوق الاكبر ، فزعق زعقة وخر ميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازى: اذا نظر أهل الجنة الى الله سبحانه ذهبت عيونهم فى قلوبهم من لذة النظر الى الله ثمانمائة سنة لا ترجع اليهم ، فما ظنك بقلوب وقعت بين جلاله وجماله اذا لاحظوا جلاله هابوا واذا لاحظوا جماله تاهوا وقال بشر : قصدت عبادان فى باديتى فاذا أنا برجل اعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفعت رأسه فوضعته فى حجرى فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذى دخل بينى وبين ربى ، لو قطعنى اربا اربا ما ازددت له الاحبا قال بشر فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين رب فانكرتها . ويروى ان يونس عليه السلام قال لجبريل عليه السلام : دلنى على اعبد اهل الارض ، فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب سمعه وبصره وهو يقول : الهى متعتنى بهما ما شئت وسلبتنى ما شئت

وَالعِـــلْمُ بِجَزَالَةِ الثَّوَابِ

وأبقيت لى فيك الامل يابر ياوصول : ويروى أن عسى عليه السلام مر برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجبين بفـــالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول: الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه ، فقال له عيسى عليه السلام ياهذا أى شيء من البلاء اراه مصروفا عنك ؟ فقال ياروح الله اناخير ممن لم يجعل الله فى قلبه ما جعل فى قلبى من معرفته ، فقال صدقت ، هات يدك فناوله يده فاذاهو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة ، قد أذهب الله عنه ما كان به وصحب عيسى وتعبد معه ※ وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من اكلة خرجت بها ثم قال : الحمد لله الذى أخذ منى واحدة وأبقى أخرى ، لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت أبليت لقد عافيت ، ثم لم يدع ورده تلك الليلة ※ وقال أبو سليمان الدارانى: قدنلت من كل مقام حالا الا الرضاء فما لى منه الا مشام الريح ، وعلى ذلك لو ادخل الخلائق كلهم الجنة وادخلنى النار كنت راضيا · ولما قدم سعد بن أبى وقاص مكة وكان قد كف بصره جاءه الناس يهرعون اليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعو لهذا ولهذا ، وكان مجاب الدعوة ، قال عبد الله بن السائب :فاتيته وانا غلام فتعرفت اليه فعرفنى وقال أنت قارىء اهل مكة ؟ قلت نعم ، فذكر قصة قال فى آخرها فقلت له : ياعم أنت تدعو للناس فلودعوت لنفسك فـــرد الله عليك بصرك ؟ فتبسم وقال : يابنى قضاء الله عنـــدى أحسن مـــن بصرى : وقال بعض السلف : ولو قرض جسمى بالمقاريض لـــكان أحب الى من أن اقول لشيء قضاه الله ليته لم يقضه ﴿ والعلم ﴾ أى وثانيهما المعرفة بشيئين ﴿ بجزالة الثواب ﴾ اى عظمته وكثرته يوم الحساب فقد قال تعالى (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) وقد ينال الجزاء فى الدنيا أيضا قبل العقبى كما روى (عن الرميصاء ام سليم انها قالت : توفى ابن لى وكان زوجى أبو طلحة غائبا ، فقمت فسجيته فى ناحية من البيت ، فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له افطاره فجعل يأكل ، فقال كيف الصبى ؟ فقلت فى أحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى خيرا منه الليلة ، ثم تصنعت له باحسن ما كنت أتصنع من قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ، ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا ؟ فقال ومالهم ؟ فقلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ، فقال بئس ما صنعوا ، فقلت هكذا أبنك كان عارية من الله تعالى وان الله قبضه اليه فحمد الله وأثنى عليه واسترجـــع

كَمَا لِلْمَرِيضِ وَالتَّاجِرِ الْمتحملين شِدَّةَ الْحِجَامَةِ وَالسَّفَرِ وَبَانَ لَهُ تَعَالَى فِي كُلِّ صُنْعٍ حِكْمَةٌ يَتَعَجَّبُ الذَّاهِلُ عَنِ السِّرِّ كَمَا فِي قِصَّةِ مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَلَا يَرِدُ التَّنَاقُضُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بُغْضِ الْمَعْصِيَةِ لِأَنَّ الرِّضَاءَ بِالْقَضَاءِ وَالْمَعْصِيَةُ مَقْضِيَّةٌ وَلِأَنَّ الرِّضَاءَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَقْضِيٌّ لَا يُنَافِي الْبُغْضَ لِلْمَعْصِيَةِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مَعْصِيَةٌ

ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال عليه السلام: اللهم بارك لهم فى ليلتهم قال الراوى فاقدر أيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرؤوا القرآن، رواه الطبرانى فى الكبير من طريق أبى نعيم فى الحلية، والقصة فى الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف، وللنسائى فى الكبرى باسناد صحيح من حديث جابر «دخلت الجنة فاذا انا بالرميصاء امرأة أبى طلحة» فقد روى ان امرأة فتح الموصلى عثرت فقطع ظفرها فضحكت فقيل لها اما تجدى من الوجع فقالت ان لذة ثوابه ازالت عن قلبى حرارة وجعه وعذابه. وقد ورد فى الترمذى وغيره حديث *

«هل أنت الا اصبع دميت * وفى سبيل الله مالقيت»

وقال شقيق من يرى ثواب الشدة لا يشتهى المخرج منها ولله در المتنبى اذ يقول *

أن كان سركم ماقال حاسدنا فما لجرح اذا أرضاكم الم

﴿ كما للمريض والتاجر ﴾ المسافر ﴿ المتحملين شدة الحجامة ﴾ رجاء الصحة ﴿ والسفر ﴾ أى ومحنته طمعا للزيادة ﴿ وبان له تعالى فى كل صنع حكمة ﴾ كما قال تعالى (صنع الله الذى اتقن كل شيء) وقال (صبغة الله ومن احسن من الله صبغة) بل حكما كثيرة ﴿ يتعجب الذاهل ﴾ الغافل ﴿ عن السر ﴾ أى سر تلك الحكمة فى تلك الصنعة وما يترتب عليها من الحكم ﴿ كما فى قصة موسى والخضر عليهما السلام ﴾ وما وقع بينهما من الملام والكلام فى تحقيق المقام وتدقيق المرام ﴿ ولا يرد التناقض بينه ﴾ أى بين الرضاء بالقضاء، فقد ورد فى الدعاء «اللهم اسألك الرضاء بالقضاء» ﴿ وبين بغض المعصية ﴾ الواقعة بحكم القضاء ﴿ لان الرضاء ﴾ انما هو ﴿ بالقضاء ﴾ الذى هو فعل الرب وخلقه ﴿ والمعصية مقضية ﴾ على العبد صادرة عن فعله وكسبه، ولو كان بتقدير الرب وحكمه، ولان قضاء الشر ليس بشر، أنما الشر هو المقضى فلا يكون الرضاء بالشر، وبهذا يتحقق معنى الخبر «الخير كله بيديك والشر ليس اليك» ﴿ ولان الرضاء ﴾ بالقضاء ﴿ من حيث أنه مقضي لا ينافى ﴾ أيضا ﴿ البغض للمعصية من حيث أنها معصية ﴾

وَهُوَ لَا يُوجِبُ تَرْكَ الْأَسْبَابِ وَتَحْقِيقُهُ يَأْتِي فِي التَّوَكُّلِ وَلَا الدُّعَاءَ بِشَرْطِ الصَّلَاحِ قَلْبًا فَوَرَدَ «اللَّهُمَّ زِدْنَا فِي اللَّبَنِ اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا خَيْرًا مِنْهُ فِي غَيْرِهِ

فالحيثية اذا كانت مختلفة تصير الامور المختلفة كلها مؤتلفة ، كالولد العاق يحب من حيثية الولدية ويبغض من جهة العقوقية ﴿ وهو ﴾ أى الرضاء بالقضاء ﴿ لا يوجب ترك الاسباب ﴾ أى اسباب البقاء وغيره من الابواب ﴿ وتحقيقه ﴾ أى تحقيق ترك الاسباب ﴿ يأتى فى التوكل ﴾ الموضوع لهذا الباب ﴿ ولا الدعاء ﴾ أى ولا يوجب الرضاء ترك الدعاء لقوله تعالى (ويدعوننا رغبا ورهبا) وثبت انواع من الدعاء عن سيد الانبياء مع أنه فى أعلى مقامات الرضا ﴿ بشرط الصلاح قلبا ﴾ ولو لم يشرطه لسانا ﴿ فورد «اللهم زدنا » فى اللبن « اللهم أرزقنا خيرا منه » فى غيره ﴾ والحديث رواه الترمذى فى الشمائل عن ابن عباس أنه عليه السلام قال « من أطعمه الله طعاما فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه. قال وقال عليه السلام « ليس شيء يجزى مكان الطعام والشراب غير اللبن » هذا، وقد قال ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء ، وقال الفضيل : اذا لم تصلح على تقدير الله فلم تصلح على تقدير نفسك. وقال عبد العزيز بن أبى رواد : وليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل ، ولا فى لبس الصوف والشعر ، لكن الشأن فى الرضاء بالقضاء والقدر . وقال عبدالله بن مسعود : لئن ألحس جمرة أحرقت ما احرقت وابقت ما أبقت أحب إلى من ان أقول لشىء كان ليته لم يكن ، أو لشيء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد بن واسع فقال : أنى لارحمك من هذه القرحة، فقال انى لاشكرها منذ خرجت اذ لم تخرج فى عينى . وقال الثورى يوما عند رابعة العدوية : اللهم ارض عنا ، قالت : أما تستحى من الله أن تسأله الرضاء وأنت عنه غير راض : فقال أستغفر الله . فقال جعفر بن سلمان : متى يكون العبد راضيا عن الله ؟ قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة، وعن الفضيل إذا إستوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى ، عن احمد بن أبى الحوارى قال أبو سليمان الدارانى أن الله من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى به العبيد من مواليهم قلت كيف ذلك؟ قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم ، قال أن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه ، وقال بعض السلف : من حسن الرضاء بالقضاء ان لا

ثُمَّ الشُّكْرُ يَجْمَعُهُ عِرْفَانُ النِّعْمَةِ مِنَ الْمُنْعِمِ وَالْفَرَحُ بِهِ وَاسْتِعْمَالُهَا فِي طَاعَتِهِ

يقول هذا يوم حار أو يوم بارد فى معرض الشكاية . وقول القائل : الفقر بلاء ومحنة , والعيال هم وتعب ، والاحتراف كد ومشقة وكل ذلك قادح فى كمال الرضاء بالقضاء ؛ فعن عمر رضى الله عنه لا ابالى أصبحت غنيا أو فقيرا فانى لا أدرى أيهما خير لى . وعن ابن مسعود أنه قال الفقر والغنى مطيتان لا أبالى أيهما اركب ان كان الفقر ففيه الصبر ، وان كان الغنى ففيه البذل وانما لم يقل ففيه الشكر ايماء الى ان الفقر أفضل من الغنى واشارة الى أن الغنى من غير البذل مذموم عند أهل الفضل والعدل هذا ،

وقد اختلف العلماء فى الافضل من أهل المقامات الثلاثة : رجل يحب الموت شوقا الى الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا اختار شيئا وأرضى بما يختاره الله لى . ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرضاء أفضل لانه أقلهم فضولا . واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثورى ويوسف بن اسباط ، فقال سفيان الثورى : كنت اكره موت الفجاءة قبل اليوم ، واليوم وددت أنى مت ، فقال له يوسف لم؟ قال : لما اتخوف من الفتنة ، فقال يوسف لكنى لا اكره طول البقاء ، فقال سفيان لم ؟ قال لعلى اصادف يوما اتوب فيه واعمل صالحا . فقال لوهيب أى شىء تقول ؟ قال انا لا اختار شيئا ، أحب ذلك الى الله أحبه الى فقبل الثورى بين عينيه فقال : روحانية ورب الكعبة . ويؤيده الدعاء المأثور « اللهم احينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » ﴿ ثم الشكر يجمعه ﴾ ثلاثة اشياء ﴿ عرفان النعمة من المنعم ﴾ وهذا علم يصدر عن اعتقاد ان كل ما فى العالم موجود فهو من الله مشهود كما قال تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله) وفى دعائه عليه السلام « اللهم ما اصبح بى من نعمة او باحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر » ﴿ والفرح به ﴾ أى بالمنعم الحاصل بانعامه لا بنفس النعمة من حيث ذاتها الادنى ، بل من حيث انها وسيلة الى القرب من المولى والنظر الى وجهه الاعلى ، فهذا هو الرتبة العليا ، وعلامته ان لا يفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة للاخرى ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن طريق الهدى وهذا حال ﴿ واستعمالها ﴾ أى صرف النعمة ﴿ فى طاعته ﴾ أى طاعته دون معصيته للمنعم ، وهذا عمل . وقال الشبلى الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . وقال الجنيد : الشكر أن لا ترى نفسك اهلا للنعمة . وقال الخواص : شكر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخاصة على واردات القلوب ، وهي رتبة

وَلَابُدَّ مِنْهُ لِاسْتِدَامَةِ النِّعْمَةِ فَوَرَدَ (فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) وَإِنَّ النِّعَمَ أَوَابِدُ فَقَيِّدُوهَا بِالشُّكْرِ وَاسْتِزَادَتِهَا فَوَرَدَ (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ - وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)

لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج وسائر الشهوات ومدركات الحواس من الالوان والاصوات ، وخلا عن لذة القلب وما يردعليه من الواردات ، فان القلب السليم لا يلتذ فى حالة من الصحة القويم الابذكر الله ومعرفته من حيث الذات والصفات ، وانما يلتذ بغيره اذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس باكل الطين ويختاره على السكنجبين ، وكما يستبشع بعض المرضى الاشياء الحلوة ويستحلى الاشياء المرة حتى قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

﴿ ولابد ﴾ للعبد ﴿ منه ﴾ أى من الشكر ﴿ لاستدامة النعمة ﴾ أى لطلب دوام النعمة وبقائها ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ وكفرت ﴾ صوابه فكفرت كما فى نسخة وصدر الآية (وضرب الله مثلا قرية) أى مكة (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا) أى واسعا (من كل مكان فكفرت) أى أهلها ﴿ بانعم الله ﴾ أى بتكذيب رسوله ﴿ فاذاقها الله لباس الجوع ﴾ أى القحط سبع سنين ﴿ والخوف ﴾ أى الرعب من المسلمين ﴿ بما كانوا يصنعون وان ﴾ أى وورد فى الحديث ﴿ أن النعم اوابد ﴾ أى وحشيات متنفرات كصيود شوارد ﴿ فقيدوها بالشكر ﴾ وقد قيل الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد المنحة المفقودة ، كما يشير اليه قوله ﴿ واستزادتها ﴾ أى ولطلب زيادة النعمة ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ لئن شكرتم لازيدنكم ﴾ تمامه (ولئن كفرتم أن عذابى لشديد) ﴿ والذين اهتدوا ﴾ بالايمان وترك الكفر واداء الشكر ﴿ زادهم هدى ﴾ أى هداية على هدايتهم ، وعناية على رعايتهم .

ثم أعلم أن لكل عضو من القلب واللسان وسائر الجوارح والاركان شكرا يليق به من عمل الطاعة وترك المعصيه ، واعظمها شكر الجنان ، واظهرها شكر اللسان . وقد قال عليه السلام لرجل « كيف اصبحت؟ فقال بخير فاعاد عليه السلام السؤال حتى قال فى الثالثة بخير أحمد الله واشكره ، فقال عليه السلام هو الذى اردت منك » رواه الطبرانى فى الدعاء من رواية الفضل بن عمرو مرفوعا ، وهذا معضل . وفى المعجم الكبير من حديث عبدالله بن

وَأَيْضاً اذا أَرْسَلَ مَلِكٌ فَرَساً وَثَوْباً وَزَاداً الَى عَبْدٍ لِيَجِيءَ اليه وَيَنَالَ حَظَّ القُرْبَةِ مَعَ اسْتِغْنَاءِ المَلِكِ عَنْهُ فَاسْتَعْمَلَ فِى البُعْدِ عَنْهُ أَوْ اَهْمَلَ أَوْ مَكَّنَ عَبْداً عَلَى بِسَاطِ القُرْبَةِ فَاشْتَغَلَ العَبْدُ عَنْ خِدْمَتِهِ مُلْتَفِتاً الَى خَسِيسٍ فِى حِرْفَتِهِ يَسْأَلُهُ

عمرو وليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله اليك . وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله ليكون الشاكر لله مطيعا والمستنطق له به مطيعا ، فكل عبد يسأل عن حاله فهو بين ان يشكر وبين أن يشكو ، وبين أن يسكت ، فالشكر طاعة صحيحة ، والشكوى معصية قبيحة . وكيف لاتقبح الشكوى من المولى وهو ملك الملوك ؛ وبيده كل شيء الى عبد مملوك لايقدر على شيء فالاحرى بالعبد أن لم يصبر على البلوى ويفضيه الضعف الى الشكوى أن تكون شكواه الى المولى ، فهو المبلى وهو القادر على ازالة البلاء ؛ وذل العبد لمولاه عز ، والشكوى الى غيره ذل ، واظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى (ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) فقد روى ان وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر الكبير الكبير ، فقال يا امير المؤمنين لو كان الامر بالسن لكان فى المسلمين من هو اكبر منك ، فقال تكلم ، فقال لسنا وفدا لرغبة ولا وفد الرهبة ، اما الرغبة فقد اوصلها الينا فضلك ، واما الرهبة فقد آمننا منها عدلك . وانما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف ﴿ وايضا ﴾ مما يدل على تحقيق وجوب الشكر على العبد من جهة العقل مع قطع النظر عن النقل مثال ، وهو ان يقال ﴿ اذا أرسل ملك ﴾ عظيم ﴿ فرسا وثوبا وزادا الى عبد ﴾ بعيد عن قربه ﴿ ليجيء اليه ﴾ راكبا لابسا منعما عليه ﴿ وينال حظ القربة ﴾ اى وليلاقى حظ قرب الملك لديه ﴿ مع استغناء الملك عنه ﴾ وكمال احتياج العبد منه ﴿ فاستعمل ﴾ الفرس والزاد ﴿ فى البعد عنه ﴾ أى عن حكمه وفى سفر المخالفة من قربه ﴿ أو أهمل ﴾ أمره ونسى قدره ، وجلس فى محله ، ولم يستعمل لافى قربه ولافى بعده ﴿ او مكن ﴾ اى او اذا اقدر ﴿ عبدا على بساط القربة ﴾ وامكنه من الانبساط فى بساط عدم الكربة ﴿ فاشتغل العبد عن خدمته ﴾ اى خدمة الملك وعن المأتى الى حضرته ﴿ ملتفتا الى خسيس فى حرفته ﴾ من دباغ وكناس . وسيس دابة ﴿ يساله ﴾ اى يطلب العبد من ذلك الخسيس

كِسْرَةَ رَغِيفٍ يَسْتَحِقُّ الْمَقْتَ وَسَلْبَ النِّعْمَةِ

﴿ كسرة رغيف ﴾ باظهار فاقته وحرفته فى حضرة الملك وصحبته فلا شك ان كلا منهما ﴿ يستحق المقت ﴾ اى كمال الغضب ﴿ و ﴾ يقتضى ﴿ سلب النعمة ﴾ وجلب النقمة وادامة العقوبة والطرد عن الخدمة والبعد عن الحضرة. وتوضيحه ما فى الاحياء ان الانبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق الى كمال توحيد الحق ولكن بينهم وبين الوصول اليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وانما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة ، وقطع تلك العقبات الشاقة ويمكنك أن تفهم بمثال وهو ان ملكا من الملوك ارسل الى عبد قد بعد عنه مركوبا وملبوسا ونقدا لأجل زاده فى الطريق حتى يقطع به مسافة البعد فيقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان ، أحداهما أن يكون قصده من وصول العبد الى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له غنى فى خدمته ، والثانية أن لا يكون للملك حظ فى العبد ولا حاجة به اليه ، بل حضوره لا يزيد فى ملكه ، كما ان غيبته لا تنقص من ملكه ، فيكون قصده من الانعام عليه بالمركوب ونحوه أن يحظى العبد بالقرب منه فى مقابلة خدمته ، وينال سعادة حضرته لينتفع هو فى نفسه لا لينتفع الملك به بانتفاعه . فتنزل العباد من الله فى المنزلة الثانية لا فى المنزلة الاولى ، فان الاولى محال على الله والثانية غير محال *

ثم أعلم أن العبد لا يكون شاكرا فى الحالة الاولى بمجرد الركوب والوصول الى حضرته مالم يقم بخدمته التى ارادها الملك منه ، وأما فى الحالة الثانية فلا يحتاج الى الخدمة أصلا ، ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرا أو كافرا ، فيكون شكره بان يستعمل ما انفذه اليه مولاه فيما احبه لاجله لا لاجل نفسه، وكفره بان لا يستعمل ذلك فيه بان يعطله اويستعمله فيما يزيد فى بعده منه ، فمهما لبس العبد الثوب وركب المركوب ولم ينفق الزاد الا فى الطريق فقد شكر مولاه ، اذ استعمل نعمته فى سبيل محبته أى فيما أحبه لعبده لا لنفسه ، وأن ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته اى استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه ، وان جلس ولم يركب لا فى طلب القرب ولا فى طلب البعد فقد كفر ايضا نعمته اذ اهملها وعطلها وان كان هذا دون مالو بعد منه ، فكذا خلق الله سبحانه الخلق وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى إستعمال الشهوات لتكمل أبدانهم بها فيبعدون عن حضرته بسببها ، وإنما سعادتهم فى القرب منه ، فاعد لهم من النعم ما يقدرون

وَالفَارِقُ بَيْنَ مَحْبُوبِهِ تَعَالَى وَمَبْغُوضِهِ لِلْفِعْلِ وَالتَّرْكِ الْعِلْمُ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالاسْتِبْصَارُ وَالضَّابِطُ أَنَّ المُوصِّلَ الَى مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ مَحْبُوبٌ لِلّٰهِ وَالشَّاغِلَ عَنْهُ مَبْغُوضٌ لِلّٰهِ ثُمَّ النِّعْمَةُ امَّا دُنْيَوِيَّةٌ كَالخِلْقَةِ السَّوِيَّةِ وَالمَلَاذِّ الشَّهِيَّةِ وَصَرْفِ المَفَاسِدِ وَالمَضَارِّ وَامَّا دِينِيَّةٌ كَالتَّوْفِيقِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالعِصْمَةِ وَالحِفْظِ

على استعماله فى نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى فقال (لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية فاذا أنعم الله بالات يترقى بها العبد عن أسفل سافلين خلقها لله لاجل العبد حتى ينال بها سعادات القرب ، والله سبحانه غنى عنه قرب أو بعد منه ، والعبد فيه بين أن يستعملها فى الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه ، وبين أن يستعملها فى المعصية فقد كفر لاقتحامه لما يكرهه مولاه ولا يرضاه له ، فان الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وان عطلها فلم يستعملها لا فى طاعة ولا فى معصية فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع اذ كل ما خلق الله تعالى فى الدنيا انما خلقه آلة للعبد ليتوصل بها الى سعادة الاخرى ونيل القرب من المولى ، فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر لنعمة الله فى الاسباب التى استعملها ، وكل كسلان ترك الاستعمال ، أو عاص استعمل ذلك فى طريق البعد فهو كافر جار فى غير محبة الله ، فالمعصية والطاعة تشملها المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذى منع من افشائه صونا للحقيقة (والفارق بين محبوبه تعالى ومبغوضه) عز وعلا (للفعل) محبوبا ومبغوضا (والترك) كذلك العلم بالكتاب والسنة فانهما كفتا ميزان العدالة (والاستبصار) أى برؤية كما فى نسخة ، أى والاعتبار بفكر من العقل ونظر وتامل فى النقل (والضابط) لما يحبه الله وما يبغضه (أن الموصل) للعبد (الى معرفته) اى الله تعالى (ومحبته محبوب لله) فينبغى استعمال النية فيه (والشاغل عنه) أى والمانع عما ذكر من المعرفة والمحبة (مبغوض لله) فيجب عدم استعمال النية فيه (ثم النعمة اما دنيوية كالخلقة السوية والملاذ الشهية) من المطالبات النفسية (وصرف المفاسد والمضار) البدنية بالات حسية مثل اليد والرجل حيث يدفع الضرر أو يهرب من الشر (واما دينية كالتوفيق على الطاعة والعصمة) فى حق الانبياء (والحفظ) فى حق الاولياء

عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَهِيَ أَعْظَمُ لِايصَالِهَا الَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ وَالانْجَاءِ عَنِ الشَّقَاوَةِ السَّرْمَدِيَّةِ واشْتِرَاكُ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَوِيَّةِ وَاغْتِنَامُ الْأَبْرَارِ زَوَالَهَا وَطَلَبُ الْاحْصَاءِ تَوَقُّعُ الْمُحَالِ فَوَرَدَ (وَانْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَاتُحْصُوهَا) وَالطَّرِيقُ الْمَعْرِفَةُ وَالتَّفَكُّرُ فِي صَنَائِعِهِ تَعَالَى وَالنَّظَرُ الَى الْأَدْنَى فَوَرَدَ «مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا الَى مَنْ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي الدِّينِ الَى مَنْ فَوْقَهُ كَتَبَهُ اللهُ صَابِراً وَشَاكِرًا»

﴿ عن المعصية ﴾ مع القدرة أو عدمها فان من العصمة أن لا يقدر ﴿ وهى ﴾ أى النعمة الدينية ﴿ أعظم ﴾ قدرا من النعمة الدنيوية ﴿ لايصالها ﴾ أى لتبليغ النعمة الدينية ﴿ الى السعادة الابدية ﴾ التى لا غاية لها ﴿ والانجاء ﴾ أى الخلاص ﴿ عن الشقاوة السرمدية ﴾ التى لا نهاية لها ﴿ واشتراك الكفار ﴾ مع الابرار ﴿ فى الدنيوية والدنيا مبغوضة لسرعة فنائها وكثرة عنائها وخسة شركائها ﴿ واغتنام الابرار زوالها ﴾ أى فقد النعمة الدنيوية خوفا من نقصان النعمة الاخروية كما قال بعض المجتهدين: ورود الفاقات اعياد المريدين. و ﴿ طلب الاحصاء ﴾ لنعم الله وعدها ﴿ توقع المحال ﴾ وتمنية لعدم طاقة البشر فى ذلك الحال ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ وأن تعدوا ﴾ أى تريدوا أن تحصوا ﴿ نعمة الله لا تحصوها ﴾ أى لا تطيقوا احصاءها وعدها فضلا عن القيام بحقها من شكرها. وقد قيل : الانفاس فى اليوم والليلة اربعة وعشرون الفا، وفى كل نفس نعمتان فى حصولها باعتبار طلوعها ونزولها ﴿ والطريق ﴾ المفضى الى الشكر ثلاثة ﴿ المعرفة ﴾ لنعمه سبحانه فانه ما من عبد الاولو أمعن النظر في احواله لرأى من الله نعمة او نعما كثيرة تخصه لايشاركه فيها عامة الناس ، بل يشاركه عدد يسير منهم ، وربما لا يشاركه فيها أحد ﴿ والتفكر فى صنائعه تعالى ﴾ من الانفسية والآفاقية ، واحساناته سبحانه عليه من بين البرية ﴿ والنظر الى الادنى ﴾ فى المرتبة المعيشية والامور الدنيوية ﴿ فورد من نظر فى الدنيا الى من دونه ﴾ فى المرتبة من الجاه والمال ﴿ ونظر فى الدين الى من فوقه ﴾ من العلم والعمل والحال ﴿ كتبه الله صابرا ﴾ بالنظر الثانى ﴿ وشاكرا ﴾ بالنظر الاول فتأمل . والحديث رواه الترمذى من حديث عبدالله بن عمرو ، وهو فى الصحيحين بلفظ «انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو اجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » أي لا تحتقروها . وللعسكري عن أنس مرفوعا « من نظر الى ما فى ايدى الناس

طال حزنه ولم يشف غيظه » وحكى عن بعضهم أنه كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر ومواضع الحدود ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم، ثم يتأمل فى صحته وسلامته عما ابتلوا به فيحمد الله على ما اعطاه من نعمه ، فاذن كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة ، لاسيما من خص بالسنة والايمان والعلم والقرآن ، ثم بالفراغ والصحة والامان ، ولذا قيل :

من شاء عيشا رحيبا يستطيب به في دينه ثم فى دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه ورعا ولينظرن الى من دونه مالا

وقال عليه السلام «أن القرآن هو الغنى الذى لاغنى بعده ولا فقر معه» رواه أبو يعلى والطبرانى من حديث أنس . وقال عليه السلام « من آتاه الله حفظ كتابه فظن أن احدا اوتى أفضل مما اوتى فقد صغر اعظم النعم » رواه البخارى فى تاريخه . منه «فقد استهزأ بآيات الله» وعن الصديق «من أوتى القرآن فظن أن احدا اوتى أفضل منه فقد حقر عظيما وعظم حقيرا » وقال عليه السلام « من لم يتغن بالقرآن فليس منا » أى لم يستغن ، وقد سبق . والكل مقتبس من قوله سبحانه (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم لاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم) وقال بعض السلف : يقول الله أن عبدا اغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتى ، عن سلطان يأتيه - فيه احتمالان - وطبيب يداويه ، وعما فى يداخيه » وعبر الشاعر عن هذا بقوله :

اذا ماالقوت يأتيك * كذا الصحة والامن * وأصبحت اخا حزن * فلا فارقك الحزن

بل أفصح العبارات وأملح الاشارات كلام أفصح من نطق بالضاد ، حيث عبر عن هذا المراد على وجه الارشاد للعباد بقوله « من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا» اى جمعت . والحديث قد تقدم . قال فى الاحياء : ومهما تاملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث ولا يحمدون نعمة الله عليهم فى الايمان الذى به وصولهم الى النعيم المقيم والملك العظيم ، بل البصير ينبغى أن لا يفرح الا بالمعرفة واليقين والايمان ، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الارض من المشرق الى المغرب من أموال وأتباع وأنصار ، وقيل له خذ هذا عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به الى قربه سبحانه فى الآخرة ، بل لو قيل له : لك ما ترجوه فى الاخرة بكماله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم فى الدنيا وفرحك

فَانْ قلتَ كَيفَ يمكنُ الشكرُ والعبدُ يعجزُ عنه الا بتوفيقه وَهوَ نعمةٌ تستدعي شكراً الَى أن يتسلسلَ قلتُ التحقيقُ لمَنْ بلغَ مقامَ الفَنَاء أنّ الشاكرَ هوَ المشكورُ فوَرَدَ «لَا أحصِي ثناءً عَلَيكَ أنتَ كَمَا أثنيتَ عَلَى نفسكَ»

به قبل العقبى لكان لا يأخذه ، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وثابتة لاتسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها ولا تنقلع ، وأنها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بمخوفها ولا لذاتها بالمها ، ولا فرحها بغمها هكذا جرى إلى الان ، وهكذا يكون الى آخر ما بقي من الزمان، اذ ما خلقت لذات الدنيا الا لتخدع بها العقول الناقصة ، حتى اذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليهم وامتنعت عنهم واستعصت منهم كالمرأة الجميلة ظاهرها مزين للشاب العشيق الغبي حتى اذا تعلق بها قلبه احتجبت عنه ، فلا يزال معها فى عناء دائم وتعب قائم ،وكل ذلك لاغتراره بلذة النظر اليها فى لحظة ، ولو غفل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم فى جميع عمره ، فهكذا وقع ارباب الدنيا فى شباك الدنيا وحبائلها ، ولا ينبغى أن يقول أن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فان المقبل عليها أيضا متالم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها وجمعها ومنعها ودفع المقصود عنها . وتالم المعرض عنها يفضى الى اللذة فى الآخرى وتالم المقبل عليها يفضى الى العسر فى المعاقبة. فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى (ان تكونوا تألمون فأنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون)*

﴿ فان قلت كيف يمكن الشكر ﴾ لله ﴿ والعبد يعجز عنه ﴾ أى عن شكر الله ﴿ الا بتوفيقه ﴾ لشكره ﴿ وهو ﴾ أى والحال ان توفيقه لشكره ﴿ نعمة تستدعى شكراً ﴾ آخر ﴿ الى ان يتسلسل ﴾ فيصير الشكر محالا ﴿ قلت التحقيق لمن بلغ مقام الفناء عن نفسه والبقاء بربه ﴿ أن الشاكر ﴾ الذى ﴿ هو ﴾ الشكور ﴿ المشكور ﴾ وأن المثنى هو المثنى عليه ﴿ فورد ﴾ فى الحديث المشهور ﴿ لا احصى ثناء عليك ﴾ أى لا اطيق الحمد والشكر على نعمك ﴿ أنت كما أثنيت على نفسك ﴾ وحاصله أن الاعتراف بالعجز عن الشكر عين الشكر ، وأنشد العجز عن درك الادراك ادراك :

كما حقق فى توحيد الذات حيث قال تعالى: (ولا يحيطون به علما) (ليس كمثله شيء) وقال علي : ماخطر ببالك فالله غير ذلك . وقالت الملائكة (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا) ويوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا) وقيل

فى معنى قول بعض السلف : من عرف نفسه فقد عرف ربه . أى من عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء . وتوضيح السؤال والجواب ولو احتيج الى بعض الاطناب لانه من فصل الخطاب الذى هو لب لباب هذا الباب من الكتاب عند ارباب الالباب : هو أن جميع ماتتعاطاه باختيارنا من أنواع الشكر على نعم الدنيا والاخرى هى نعمة اخرى من الله تعالى وبالشكر احرى ، اذ جوارحنا وقدرتنا وارادتنا وداعيتنا وسائر أمورنا التى هى اسباب سكوننا وحركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمه. فكيف نشكر نعمته بنعمته ، ولو اعطانا الملك مركوبا فاخذنا مركوبا آخر له وركبناه ، او أعطانا مركوبا آخر لم يكن الثانى شكرا للاول منا ، بل كان الثانى يحتاج الى شكر آخر كما يحتاج الاول، ثم لا يمكن شكر الشكر الا بنعمة اخرى، فيؤدى الى أن يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذين الوجهين، ولسنا نشك فى الامرين، وقد ورد به الشرع فكيف السبيل الى الجمع *

فاعلم أن هذا الخاطر خطر لداود وكذا لموسى عليهما السلام فقال : يارب كيف اشكرك وانا لا استطيع أن اشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك، وفى لفظ آخر وشكرى لك نعمة اخرى منك توجب الشكر على ذلك ، فاوحى الله تعالى اليه : اذا عرفت هذا فقد شكرتنى . وفى خبر آخر اذا عرفت أن النعم منى رضيت بذلك منك شكرا. والتحقيق فى مقام التوفيق على وجه التدقيق ان ههنا نظرين : نظرا بعين التوحيد المحض، وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر وانه المشكور ، وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس فى الوجود غيره ، وأن كل شىء هالك الا وجهه ، ومن هنا قول لبيد

الا كل شىء ماخلا الله باطل

وقول بعض ارباب الشهود: سوى الله والله ما فى الوجود، وقول بعض الابرار

ليس فى الدار غيره ديار

وذلك أن الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام ، ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال ان يوجد ، اذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه ، وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود ، بل قائم بغيره فهو موجود بغيره ، فان اعتبر ذاته ولم يلتفت الى غيره لم يكن له وجود البتة ، وانما الموجود هو القائم بنفسه، والقائم بنفسه هو الذى اذا قدر عدم غيره بقى موجودا . فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم الا واحد ولا يتصور ان يكون غير ذلك فاذا نظرت فى هذا المقام علمت ان الكل منه مصدره ، واليه مرجعه ، فهو الشاكر وهو المشكور ، وهو المحب

وهو المحبوب ، ومن هنا نظر حبيب بن أبى حبيب حيث قرأ
(انا وجدناه صابرانعم العبدانه أواب) فقال واعجباه اعطى وأثنى. اشار الى انه اذا اثنى على عطائه فعلى نفسه اثنى ، فهو المثنى وهو المثنى عليه. ومن هنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى حيث قرىء بين يديه (يحبهم ويحبونه) فقال لعمرى يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لانه انما يحب نفسه ، اشار به الى ان المحب هو المحبوب ، وهذه رتبة عالية ومنزلة غالية لاتفهمها الا بمثال على حد عقلك ، فيقال ان المصنف اذا احب تصنيفه فقد أحب نفسه ، والصانع اذا احب صنيعته فقد أحب نفسه ، وكل مـا فى الوجود ســـوى الله فهو تصنيفه وصنعته ، فان أحبه فمـــا احب الا نفسه واذا لم يحب الا نفسه فبحق احب مـا احب . وهذا كله نظر بعين التوحيد وتحقيق التفريد . وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أى فنى عن نفسه عن غير الله فلم يرفى الكون الا الله ، وليس المعنى كما فهمه الوجودية من العينية لنص المعية كما بينته فى رسالة المرتبة الشهودية فى المنزلة الوجودية ، فهذا احد النظرين * وأما النظر الثانى فنظر من لم يبلغ الى مقام الفناء عن نفسه فظن لنفسه وجودا مستقلا ، ولو عرف العلم انه من حيث هو لاثبات له ولا وجود له وانما وجوده من حيث أوجد لا من حيث وجد ، وفرق بين الموجود وبين الموجد . وليس فى الوجود الا موجود واحد وموجد . فالموجود حق والموجد من حيث هو هو باطل ، والموجود قائم وقيوم ، والموجد هالك وفان ، فاذا كان كل من عليها فان فلا يبقى الا وجه ربك ذو الجلال والا كرام ودرجات الموحدين متفاوتة فى مقامات المجتهدين وقد جاء جميع الانبياء والمرسلين داعين الى التوحيد المحض وترجمته قول لا اله الا الله ، ومعناه ان لا ترى الا الله الواحد القهار . فالواصلون الى كمال التوحيد هم الاقلون ، والباقون وهم الاكثرون عن هذا المعنى غافلون كما قال تعالى (ومايؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون) اذعبدة الاوثان قالوا مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وكانوا داخلين فى اوائل التوحيد دخولا ضعيفا . والمتوسطون وهم الكثيرون ففيهم من تنفتح بصيرته فى بعض الاحوال فتلوح لهم حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لايثبت ، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لايدوم والدوام فيه عزيز كما قيل :

كل الى شأو العلا حركاته ولكن عزيز فى الرجال ثباته

ولما أمر عليه السلام بطلب القرب بقوله سبحانه (واسجد واقترب) قال فى سجوده . « اعوذ بعفوك من عقابك ، واعوذ برضاك من سخطك ، واعوذ بك منك لا احصى ثناء

وَاخْتُلِفَ فِي وُجُوبِهِ فِي المَصَائِبِ وَالحَقُّ الوُجُوبُ عَلَى أَنْ لَا يُصِيبَ أَكْبَرَ مِنْهَا وَأَنْ لَا تَكُونَ فِي الدِّينِ

عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقوله عليه السلام : اعوذ بعفوك من عقابك كلام عن مشاهدة فعل الله فقط ، وكأنه لم ير الا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ، ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الافعال وترقى الى مصادر الافعال وهى الصفات ، فقال : اعوذ برضاك من سخطك ، ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات الى مشاهدة الذات فقال : اعوذ بك منك فهذا فرار منه اليه من غير رؤية فعل ولا صفة، ولكنه رأى نفسه فارا منه اليه ، ومستعيذا به ومثنيا عليه ، ففنى عن مشاهدة نفسه اذ رأى ذلك نقصانا في مقام أنسه فاقترب فقال لا احصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك. فقوله : لا احصى خبر عن فنائه نفسه وخروجها عن مشاهدتها . وقوله أنت كما أثنيت على نفسك بيان أنه هو المثنى وهو المثنى عليه ، وأن الكل منه بدا واليه يعود ، ولقد كان عليه السلام لا يرقى من مرتبة الى الاخرى الا ويرى الاولى بعدا بالاضافة الى الثانية فكان يستغفر الله تعالى من الاولى ، كما قال « أنه ليغان على قلبى فى اليوم والليلة حتى استغفر الله سبعين مرة » فكان ذلك لترقيه الى سبعين مقاما بعضها فوق بعض فى مقام الوحدة ومشاهدة الكثرة ، هذا وما من مقبول الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الاسباب من تسليط العلم والخوف عليه ، وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بسلاسل تسليط الغفلة والغرور عليه ، فالمتقون يساقون الى الجنة قهرا والمجرمون يقادون الى النار قهرا ، ولا قاهر الا الله الواحد القهار ، ولا قادر الا الملك الجبار . وهذا معنى قوله « خلقت هؤلاء للجنة ولا ابالى وخلقت هؤلاء للنار ولا ابالى » ﴿ واختلف فى وجوبه ﴾ أى الشكر ﴿ فى المصائب والحق الوجوب ﴾ بناء على ستة اشياء ﴿ على أن لا يصيب أكبر منها ﴾ أى من تلك المصيبة التى أصابته اذ مقدورات الله لا تتناهى فلو ضعفها الله وزادها ماذا كان يردها عما ارادها . وكان يقول شيخنا العالم النقى على المتقى : اذا اخذ عمامتك فتصدق بالحلاوة بسلامة رأسك . فالمصيبة المالية أهون من المصيبة البدنية ﴿ وأن لا تكون ﴾ المصيبة ﴿ فى الدين ﴾ فقد قال رجل لسهل : دخل اللص بيتى وأخذ متاعى ، فقال له : اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع وقد ورد فى دعائه عليه السلام « لا تجعل مصيبتنا فى ديننا » وقال عمر

وَأَنْ تعجّلَ عقوبتَهاولا تدخرَ للآخرةِ وأنّها كانتْ آتيهِ ففرغَ منهاوأنّ ثوابهاخيرٌ منها

رضى الله عنه : ماابتليت ببلاء الا كان لله على فيه أربع نعم : اذ لم تكن فى دينى، ولم تكن أعظم منها واذ لم أحرم الرضاء واذرجوت الثواب عليها ﴿ وان تعجل عقوبتها ﴾ بصيغة المجهول أى عقوبة المعصية فى الدنيا ﴿ ولاتدخر للاخرة ﴾ فلعذاب الآخرة أشد وأبقى، اذ مصائب الدنيا يتسلى عنها باسباب اخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها بالتسلى . اذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين . وأيضا مامن عقوبة الا وكان يتصور أن تؤخر الى الآخرة ، ومن تعجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانية فى العقبى لقوله عليه السلام « اذا اذنب ذنبا فاصابته شدة او بلاء فى الدنيافالله اكرم أن يعذبه ثانيا فى العقبى » كذا فى الاحياء . وقال مخرجه رواه الترمذى وابن ماجه من حديث على « من أصاب فى الدنيا ذنبا عوقب به فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده » ولاحمد والطبرانى باسناد صحيح من رواية الحسن البصرى « عن عبد الله بن مغفل أن رجلا من الصحابة رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية فكلمها ثم تركها ، فجعل الرجل يلتفت اليها وهو يمشى فصدمه حائط فاثر فى وجهه ، فأتى النبى عليه السلام فاخبره ، فقال عليه السلام : اذا اراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبته فى الدنيا » وقال على كرم الله وجهه : الا أخبركم بارجى آية فى كتاب الله تعالى؟ قالوا بلى فقرأ عليهم (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير) ولله در القائل

لعمرك ماكالشكر داع زيادة ولاعوضا كالصبر عند المصائب

﴿ وانها ﴾ أى ولان المصيبة الماحية ﴿ كانت ﴾ فى التقدير ﴿ آتية ﴾ لابد من وصولها اليه وقد وصلت ﴿ ففرغ منها ﴾ وتخلص عنها فهى نعمة بذاتها كما يشير اليه قوله تعالى (ماأصاب من مصيبة فى الارض ولافى انفسكم الافى كتاب من قبل ان نبرأها) ﴿ وأن ثوابها ﴾ أى المصيبة ﴿ خير منها ﴾ أى من عدمها فمامن شىء يقع للعبد الا ويتصور أن يكون له فيه ذخيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله فيما يعطيه ويبتليه فان حكمته تعالى واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره العباد على البلاء اذا رأوا ثواب البلاء ويتمنوا أنه كان يقرض ابدانهم فى الضراء فقد روى أن رجلا قال له عليه السلام اوصنى ، فقال « لاتتهم الله فى شىء قضاه عليك » رواه أحمد والطبرانى من حديث عبادة . وقال عليه السلام « عجبا لامر المؤمن أن أمره كله

وَانَّهَا تُنْقِصُ مِنَ الْقَلْبِ حُبَّ الدُّنْيَا فَهِيَ فِى التَّحْقِيقِ نِعَمٌ اِذْ لَاتَخْلُو عَنْ تَكْفِيرِ لِلْخَطِيئَةِ أَوْرِيَاضَةٍ لِلنَّفْسِ أَوْرَفْعٍ لِلدَّرَجَةِ وَقِرَاءَةُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ فِى أَيَّامِ الْعُسْرَةِ لِطَلَبِ الْقَنَاعَةِ أَوِالْعُدَّةِ عَلَى الْعِبَادَةِ دُونَ وُسْعَةِ الدُّنْيَا وَاِنَّمَا قُرِئَتْ لِمَا وَرَدَ فِيهَا مِنَ الْأَخْبَارِ

له خير وليس ذلك لاحد الا للمؤمن أن اصابته سراء شكر فكان خيرا له وأن اصابته ضراء صبر فكان خيرا له » رواه مسلم ﴿ وانها ﴾ أى ولان المصيبة ﴿ تنقص من القلب حب الدنيا ﴾ فلم يسكن اليها ولم يأنس بها فقد ورد « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » رواه مسلم من حديث أبى هريرة ﴿ فهى ﴾ أى المصائب ﴿ فى التحقيق نعم ﴾ يجب لأهل التوفيق الشكر عليها ﴿ اذ لاتخلو ﴾ المصيبة ﴿ عن تكفير للخطيئة ﴾ ان كان من المبتدئين ﴿ أو رياضة للنفس ﴾ لما فيها من المحنة والبلية ان كان من المتوسطين ﴿ أو رفع للدرجة ﴾ أن كان من المنتهين . والاخبار الواردة فى الصبر على المصائب كثيرة شهيرة كقوله عليه السلام « من يرد الله به خيرا يصب منه » رواه البخارى من حديث أبى هريرة » ولابن أبى الدنيا من حديث أبى سعيد الخدرى « أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالى وسقم جسدى ، فقال: لاخير فى عبد لايذهب ماله ولا يسقم جسده ، أن الله تعالى اذا أحب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره » ولابى داود « أن الرجل لتكون له الدرجة عند الله لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك » ﴿ وقراءة سورة الواقعة ﴾ مبتداو ﴿ فى ايام العسرة ﴾ ظرفه والخبر ﴿ لطلب القناعة ﴾ أى قناعة القلب، وهو أن لايشغله شاغل عن حضرة الرب ؛ وهو جواب سؤال مقدر تقديره انكم اوصيتم بالشكر على المصيبة وأثبتم انها فى التحقيق من النعمة ، فقراءة السلف سورة الواقعة كل ليلة فى أيام العسرة لاى معنى كانت ؟ فاجاب بما تقدم . وقد اخرج ابن عساكر فى فضائل القرآن . وأبو يعلى وابن مردويه فى تفسيره والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه الفاقة » واخرج ابن مردويه عن انس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « سورة الواقعة سورة الغنى فاقرءوها وعلموها اولادكم » ﴿ او العدة ﴾ أى الاستعداد ﴿ على العبادة دون وسعة الدنيا ﴾ لان السلف لم يكونوا محبين لوسعتها ﴿ وانما قرئت ﴾ السورة ﴿ لما وردفيها ﴾ أى فى فضلها ﴿ من الاخبار

وَالآثَار وَالاَّ فَلاَمبَالاَةَ بِحَمْدِه تَعَالَى بِالشِّدَّة فَهُمْ كَانُوا يَغْتَنِمُونَهَا وَأَمَّا نِدَاءُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَلِبَيَانِ الشُّكْرِ عَلَى نِعْمَةِ الصَّبْرِ وَجَزِيلِ جَزَائِهِ لِقَرِينَةِ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، أَوْلِبُلُوغِ الْمَرَضِ الَى الْعَقْلِ وَاللِّسَانِ الْمُفَوِّتِ لِلْمَعْرِفَةِ وَالذِّكْرِ أَوِ الْعَجْزِ عَنْ اقَامَهِ الصَّلاَةِ أَوْلاِنْقِطَاعِ الْوَحْيِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَاِنَّمَا وَرَدَ الأَمْرُ بِسُؤَالِ الْعَافِيَةِ وَالنَّهْيُ عَنْ سُؤَالِ الْبَلِيَّةِ

والآثار ﴾ لما سبق ﴿ والا ﴾ أى وأن لم يحمل على ماتقدم ﴿ فلامبالاة بحمده تعالى ﴾ للسلف ﴿ بالشدة ﴾ أى بالبلاء والمحنة ﴿ فهم ﴾ أى السلف ﴿ كانوا يغتنمونها ﴾ أى الشدة والبلاء اكثر مما كانوا يغتنمون الراحة والنعماء ﴿ وأما نداء ايوب عليه السلام ﴾ (رب أنى مسنى) الضر ﴿ فلبيان الشكر ﴾ واظهاره ﴿ على نعمة الصبر ﴾ لقوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) ﴿ وجزيل جزائه ﴾ أى وعلى عظيم جزاء الصبر وعطائه ﴿ لقرينة وأنت ارحم الراحمين ﴾ وذلك لان الله تعالى سلط بعض بلائه على خاصة عباده وخلاصة اصفيائه فهو فضل من الله ومن جملة عطائه ، فشكر عليه وتبجح لديه وأشار اليه بقوله مسنى الضر الذى تخص به انبياءك واولياءك بلااستحقاق منى بل بكرم منك فانك ارحم الراحمين ﴿ اولبلوغ المرض الى العقل ﴾ أى القلب ﴿ واللسان المفوت ﴾ ذلك المرض ﴿ للمعرفة ﴾ بالجنان ﴿ والذكر ﴾ باللسان ﴿ اوالعجز عن اقامه الصلاة ﴾ بتمام اركانها ﴿ اولانقطاع الوحى اربعين يوما ﴾ ومقام الفترة فى غاية من العسرة حتى كاد نبينا عليه السلام أن يرمى نفسه عن الصخرة ، ولذا قيل : الحجاب أشد العذاب ﴿ وانما وردالامر بسؤال العافية ﴾ فى الاحاديث الثابتة الوافية لما رواه الترمذى من قوله عليه السلام « ماسئل الله شيئا احب اليه من أن يسئل العافية » ولابن ماجه عن انس مرفوعا « سل ربك العافية والمعافاة فى الدنيا والآخرة فاذا اعطيت العافية فى الدنيا واعطيتها فى الآخرة فقد افلحت » ولاحمد والترمذى عن أبى بكر « سلوا الله العفو والعافية فان احدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية » ﴿ والنهى عن سؤال البلية ﴾ فقد مر عليه السلام بقوم مبتلين فقال « أما هؤلاء كانوا يسألون الله العافية » رواه الترمذي ، وقال علي رضي الله عنه : اللهم أني اسئلك الصبر ، فقال عليه السلام

لأنَّ الأولى سؤالُ تمامِ النعمة فى الدُّنْيا وَثوابِ الشُّكْرِ فى الآخرة لقُدْرَته تعالَى علَى أنْ يعْطِيَ الأجْرَ الجزيلَ علَى الشُّكْرِ مَا يُعطي علَى الصَّبْرِ، وَأمَّا مثْلُ :

فَلَيْسَ لى فى سِوَاكَ حَظٌّ * فَكَيْفَ مَاشِئْتَ فَاخْتَبِرْنى

وَقَوْلِ الآخَرِ: أُرِيدُ وِصَالَهُ وَيُرِيدُ هجْرى * فَأتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

فَكَلامُ العُشَّاقِ فى حَالِ الغَلَبَةِ وَهُوَ يطْوَى وَلاَ يُرْوَى

« لقد سألت الله البلاء فسله العافية » رواه الترمذى ولابن ماجه والنسائى باسناد جيد عن أبي بكر الصديق أنه عليه السلام قال « سلوا الله العافية فما أعطى عبد أفضل من العافية الا اليقين » واشار باليقين الى عافية القلب من مرض الجهل والشك، فعافية القلب اعلى من عافية القالب ﴿ لان الاولى سؤال تمام النعمة فى الدنيا ﴾ فان تمامها بعافية البدن فيها ﴿ وثواب الشكر ﴾ أى وسؤال ثوابه على نعمة رفع البلاء ﴿ فى الآخرة لقدرته تعالى على أن يعطى الاجر الجزيل على الشكر ﴾ على نعمة رفع البلاء ﴿ مايعطى على الصبر ﴾ على محنة البلاء، ومن هنا قال عليه السلام « ولكن عافيتك اوسع » كما رواه ابن أبي الدنيا وغيره فى اثناء دعائه يوم خرج الى الطائف . وقال مطرف بن عبدالله: لان اعافى فاشكر احب الى من أن ابتلى فاصبر . ﴿ وأما ﴾ مايرد على قوله والنهى عن سؤال البلية ﴿ مثل ﴾ قول سمنون المحب :

فليس لى فى سواك حظ فكيف ماشئت فاختبرنى

وقول الآخر اريد وصاله ويريد هجرى فاترك ما اريد لما يريد

﴿ فكلام العشاق فى حال الغلبة ﴾ من الاشواق ﴿ وهو ﴾ أى مثل هذا الكلام حين يجرى ﴿ يطوى ولايروى ﴾ لان صاحب الحال لايقتدى ٠

ومن اللطائف ماحكى أن فاختة كانت يراودها زوجها فتمنعه، فقال ماالذى يمنعك عنى ولو اردت أن اقلب لك ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلت لاجلك ، فسمعه سليمان فاستدعاه وعاتبه على ماجرى ، فقال يانبى الله : كلام العشاق يسمع ولايحكى ٠

ثم اعلم أنه حكى أن سمنون بلى بعد هذا البيت بعلة الحصر، فكان بعد ذلك يدور على أبواب الكتاب ويقول للصبيان ادعوا لعمكم الكذاب ، ومن هذا القبيل ماقال

وَفِي أَنَّ الشَّاكِرَ أَفْضَلُ أَمِ الصَّابِرِ ؟

بعضهم : اودان أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا فى النار ، لأن محبة الانسان ليكون هو فى النار دون سائر الخلق غير ممكن ، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن بنفسه حبا لمثل ذلك ، فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع فيما ذكر فلو زايله سكره علم ان ماغلب عليه كان حالة لاحقيقة لها فما أيسر الدعوى وما أعسر المعنى، وأما قول الشاعر . أريد وصاله البيت فهو أيضا محال اذ معناه انى أريد مالا أريد لأن من أراد الوصال ماأراد الهجر ، فكيف أراد الهجر الذى لم يرده كذا قرره الامام حجة الاسلام، ولا يبعد أن يقال فى البيت الثانى انه أراد ان لايكون له ارادة بدون ارادة الله ، وان تكون ارادته تابعة لارادته سبحانه سواء يكون وصلا اوهجرا قربا اوبعدا كما يشير اليه قوله تعالى (وماتشاؤن الا ان يشاء الله) وقول السلف : ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، وفى هذا المقام قال أبو يزيد البسطامى لما قيل له ماتريد : أريد ان لااريد غايته انه قال صاحب منازل السائرين : هذه ايضا ارادة، ونوقش بان هذه ارادة مطلوبة وبانها داخلة فى قوله لااريد . والحاصل انه من باب كمال الرضاء بالقضاء، واما البيت الآخر فلانه يدعى ان يصل السالك الى مقام ليس له فيه حظ ولذة سوى ذكر المحبوب وفكره وقربه، ولعل وجه الابتلاء انه كان فيه بقية حظ اوشظية لذة ولو كان فى ضمن الدعوى لهذه الحالة التى اظهرها بتلك المقالة ﴿وفى﴾ أى واختلف أيضا فى ﴿ان الشاكر﴾ الغنى ﴿افضل أم الصابر﴾ الفقير، وأما الفقير الصابر فهو افضل من الغنى الشاكر اتفاقا فقد قال قائلون : الصبر افضل من الشكر، وقال آخرون : الشكر افضل من الصبر ، وقال جماعة : هما سيان لقوله عليه السلام : الصبر نصف الايمان وهو استدلال ضعيف اذ يحتمل ان يكون احدهما افضل من الآخر كما يقال ان الايمان علم وعمل وهما لايستويان اذ العلم خير من العمل. وقالت طائفة : يختلف باختلاف الاحوال وقيل القناعة خير منهما واختاره الجلال السيوطى والصوفية اجمعوا على ان الفقير الصابر افضل من الغنى الشاكر بل قال بعضهم : ان الفقير الشاكر افضل من الغنى الشاكر، ولما سئل الجنيد عن الصبر والشكر ايهما افضل قال ليس مدح الغنى بالوجود ولامدح الفقير بالعدم ، وانما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما فشرط الغنى ان يصحبه فيما عليه اشياء تألم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير ان يصحبه فيما عليه اشياء تألم صفته وانقباضها وانزعاجها فاذا كان الاثنان قائمين لله عز وجل بشروط

وَالحَقُّ أنَّه ان أُرِيدَ مَاكَانَ بتلَذُّذٍ فَلَا تَعدُدَ وَهُوَعلَى البَلَاءِ خَيرٌ منهُ علَى الرَّخَاءِ وَهُوَ المُرَادُ بمَا وَرَدَ . مِنْ أَفْضَلِ مَا اوتيتُمُ اليَقِينُ وَعزِيمَةُ الصَّبْرِ «يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بأشْكَرِ أَهْلِ الأَرْضِ فَيَجْزِيهِ اللهُ جَزَاءَ الشَّاكِرِينَ وَيُؤْتَى بأصبرِ أَهْلِ الأَرْضِ فَيُقَالُ لَهُ أَتَرضَى انْ نَجْزِيَكَ كَمَا جَزَيْنَا هَذَا الشَّاكِرَ فيَقُولُ نَعَمْ يَارَبِّ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَعَلَا أنعمتُ عليهِ فَشَكَرَ وَابْتَلَيْتُكَ فَصَبَرْتَ لَأُضعفَنَّ لَكَ الأَجْرَ

ماالذى كان آلم صفته وازعجها اتم حالا ممن متع صفته ونعمها . ويقال كان ابو العباسى بن عطاء قد خالفه فى ذلك فقال . الغنى الشاكر افضل من الفقير الصابر، فدعا عليه الجنيد فاصابه ما أصابه من البلاء من قبل اولاده وتلف امواله وزوال عقله اربع عشرة سنة ، ويقول دعوة الجنيد اصابتنى ورجـــع الى تفضيل الفقير الصابر على الغنى الشاكر . هذا والشاكر الذى يشكر على الموجود، والشكور الذى يشكر على المعبود ، ومن هنا قوله سبحانه (وقليل من عبادى الشكور ـ انه كان عبدا شكورا) وقوله عليه السلام «افلا أكون عبدا شكورا » واما الشكور من اسمائه عز وجل فهو الذى يعطى الاجر الجزيل على الامر القليل ﴿والحق﴾ فى المسألة ﴿انه﴾ أى الشأن ﴿ ان أريد ﴾ بالصبر ﴿ ماكان﴾ من الصبر ﴿ بتلذذ فلا تعدد ﴾ كما سبق بيانه ان الصبر حينئذ هو الشكر ﴿ وهو ﴾ أى الصبر المطلق من غير التلذذ الملحق ﴿ على البلاء خير منه على الرخاء ﴾ كما مر فى كلام الجنيد من طريق الايماء ﴿ وهو ﴾ أى وهذا الصبر هو ﴿ المراد بما ورد من افضل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ﴾ وقد تقدم ﴿ يوتى يوم القيمة باشكر أهل الارض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويوتى باصبر أهل الارض فيقال له أترضى ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول نعم رب، فيقول الله عز وعلا انعمت عليه ﴾ وفى نسخة الاحياء كلما انعمت عليه ﴿ فشكر وابتليتك فصبرت لاضعفن لك الاجر ﴾ كذا فى الاحياء. وقال مخرجه: لم أجد له اصلا الا لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) وروى «يؤتى باهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الاجر صبا بغير حساب حتى يتمنى اهل العافية فى الدنيا ان اجسادهم تقرض بالمقاريض

وَالَّا فَالشُّكْرُ لِابْتِنَائِه عَلَى الْمَحَبَّة وَهِىَ أَعْلَى الْمَقَامَاتِ ٭

﴿ الباب الثَّامِنَ عَشَرَ فى الْخَوْف وَالرَّجَاء ﴾

مما يذهب به اهل البلاء من الفضل كـذا فى تفسير البغوى ﴿والا﴾ أى وان لم يرد بالصبر ما كان بتلذذ ﴿فالشكر﴾ الذى يضمن ركنيه وهما الامتناع عن المعصية وصرف النعمة الى الطاعة أفضل من الصبر ﴿لابتنائه﴾ أى الشكر هذا ﴿على المحبة وهى﴾ أى المحبة ﴿اعلى المقامات﴾ وحاصله ان لا فرق بين الصبر مع التلذذ والشكر التام ثم الصبر بغير التلذذ خير من الشكر الذى غير تام ، والشكر التام خير من الصبر بغير التلذذ ، وأما قوله عليه السلام « الطاعم الشاكر بمنزله الصائم الصابر » كما ذكره الترمذى من حديث أبى هريرة فهو دليل على فضيلة الصبر حيث الحق به الشكر ، ومن المعلوم ان المشبه به ينبغى ان يكون اعلى رتبة فى القدر .ومما يدل على فضيلة الفقر ما رواه الطبرانى فى الاوسط من حديث معاذ بن جبل « يدخل الانبياء كلهم قبل داود وسليمان عليهما السلام الجنة باربعين عاما » وروى البزار من حديث انس «آخر من يدخل الجنة من اغنياء أمتى عبد الرحمن بن عوف » ٭

﴿ الباب الثامن عشر في الخوف والرجاء ﴾

وهما جناحان للسالك يطير بهما الى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع كل عقبة كؤود ، فلا يقود الى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الارجاء الا ازمة الرجاء ، ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب المقيم الا سياط التخويف وسطوات التعنيف ، وقد دخل عليه السلام عـــلى رجل وهو فى النزع فقال عليه السلام: كيف تجدك فقال اجدنى اخاف ذنوبى وارجو رحمة ربى ، فقال عليه السلام « مااجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن الا اعطاه الله مارجاه وامنه مما يخاف » رواه الترمذى وغيره باسناد جيد ، ومن هنا قال تعالى: (نبىء عبادى أنى انا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم) ليكونوا بين الرجاء والخوف ٭ وفى تقديم الرجاء ايماء الى أن الوصول به ارجى كما لا يخفى ، وكـذا قوله تعالى (وأن ربك لذ ومغفرة للناس على ظلمهم وأن ربك لشديد العقاب) فكان حق المصنف أن يقدم الرجاء ، وانما اخره كما فى الاحياء لان الخوف حال أهل الابتداء بخلاف الرجاء فانه مقام أهل الانتهاء . ومـــا يدل على استواء الامرين حديث « القلوب بين اصبعين » ومما يدل على ترجيح الرجاء حديث «غلبت

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * الخَوْفُ وَالرَّجَاءُ خَاطِرَانِ فَلَا تَكْلِيفَ إلَّا فِي مُقَدِّمَاتِهِمَا

مَبْنِيَّانِ عَلَى انْتِظَارِ مَا يَسْتَقْبِلُ فَالْمُسْتَغْرِقُ بِذِكْرِهِ تَعَالَى ابْنُ الوَقْتِ فَبِعَدَمِهِمَا

رحمتى غضبى » وفى الجملة لابد للمؤمن من اجتماعهما وعدم انفكاك أحدهما. فلابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى فى شعبه ، وابن المبارك فى زهده من رواية الحسن مرسلا « لااجمع على عبدى خوفين ولا اجمع له امنين » .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ رجاء كل خائف من العذاب الاليم ﴿ الخوف ﴾ للسائرين ﴿ والرجاء ﴾ للطائرين فى منازل السالكين ﴿ خاطران ﴾ عاطر ان ، وفى اصلهما عارضان ، وهما من جملة مقامات المريدين واحوال الطالبين ، وانما يسمى الوصف مقاما اذا ثبت وأقام وأنما يسمى حالا اذا كان عارضا يوشك زوالا ، فالذى هو غير ثابت يسمى حالا لانه يحول عن القلب على القرب ، وهو جار فى كل وصف من اوصاف القلب لتقلبه بتقليب الرب . ثم اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه من الخوف لان اقرب العباد الى الله احبهم له ، والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملك له عبدان يخدم احدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء ثوابه ؛ واذا كان الخوف والرجاء خاطرين من غير اختيار فيهما ولا اقتدار عليهما ﴿ فلا تكليف الا فى مقدماتهما ﴾ وهى ذكر الآيات والاحاديث التى تبعث الانسان على الخوف والرجاء ، فمقدمات الخوف اربع : ذكر الذنوب السابقة وذكر شدة العقوبة التى لاطاقة للانسان بها فى العاقبة ، وذكر ضعف النفس عن احتمالها ، وذكر قدرة الله على الانسان متى شاء و كيف شاء فى احوالها ، ومقدمات الرجاء اربع ايضا . ذكر سوابق الفضل اليك من غير العمل ، وذكر ما ورد من جزيل ثوابه وعظيم كرامته فى بابه دون استحقاقك اياه بالخدمة فى جنابه ، وذكر كثرة نعمه عليك دنيا واخرى ، وذكر سعة رحمته تعالى وسبقها على غضبه ، فهو بالرجاء أولى واحرى ثم هما ﴿ مبنيان على انتظار ما يستقبل ﴾ من الثواب والعقاب فان الخوف غم يلحق لتوقع المكروه والرجاء فرح يلحق لتوقع المحبوب ﴿ فالمستغرق بذكره تعالى ابن الوقت ﴾ بل ابو الوقت ، فانه الغالب عليه ، وانما غيره فهو ابن الوقت لانه الحاكم لديه ، والحاصل انه مشتغل بما هو أولى فى الوقت قائم بما هو مطالب فيه حذرا عن المقت ﴿ فبعدمهما ﴾ أى

فَالرَّجَاءُ الفَرَحُ لِانْتِظَارِ مَحْبُوبٍ فَلَا بُدَّ مِنْ سَبَبٍ فَإِنْ حَصَلَ أَكْثَرُ الأَسْبَابِ فَالأَصْدَقُ اسْمُ الرَّجَاءِ كَتَوَقُّعِ الحَصَادِ مِمَّنْ أَلْقَى بَذْرًا جَيِّدًا فِى أَرْضٍ صَالِحَةٍ يَصِلُهَا المَاءُ وَإِنْ فُقِدَ فَالْغُرُورُ وَالحَمَاقَةُ كَمَا لَوْ أَلْقَى بَذْرًا فِى غَيْرِ صَالِحَةٍ لَا يَصِلُهَا المَاءُ وَإِنْ شَكَّ فِيهَا فَالتَّمَنِّى كَمَا إِذَا أَصْلَحَتِ الأَرْضُ وَلَا مَاءَ

الخوف والرجاء ، وفى نسخة فبفقدهما ﴿ فالرجاء الفرح لانتظار محبوب فلا بد من سبب ﴾ وباعث لتحقيق انتظار المطلوب ﴿فان حصل اكثر الاسباب﴾ اى اسباب حصوله لديه ﴿ فالاصدق اسم الرجاء ﴾ ووصوله عليه كتوقع الحصاد ممن القى بذرا جيدا ﴾ نقيا غير عفن ولا مسوس ﴿ فى ارض صالحة ﴾ للزراعة بان تكون غير سبخة ﴿ يصلها الماء ﴾ على سعة ﴿وان فقد﴾ اكثر الاسباب ﴿فالغرور والحماقة﴾ اصدق عليه من اسم الرجاء لصاحبه فى هذا الباب ﴿ كما لو القى بذرا ﴾ تالفا ﴿ فى غير صالحة ﴾ من ارض ﴿ لا يصلها الماء ﴾ الا مرة ﴿ وان شك فيها ﴾ أى فى كثرة الاسباب للحصاد بان حصل بعضها دون بعضها ﴿ فالتمنى ﴾ اصدق عليه من اسم الرجاء ﴿ كما اذا صلحت الارض ﴾ مع القاء البذر الجيد ﴿ ولا ماء ﴾ لاحتمال وصول ماء من السماء . وتوضيحه أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالارض ، والايمان كالبذر ، والطاعات جارية مجرى تقليب الارض وتنظيفها وحفر الانهار ونحوها . والقلب المولع بالدنيا ومتاعها المستغرق لحبها وذكرها كالارض السبخة التى لا ينمو البذر فيها ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد الا مازرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان ، وقل ماينفع الايمان مع خبث الجنان وسوء الاخلاق ومساوى العصيان ، فاذن اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع اسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق الا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله بصرف القواطع والمفاسد والموانع . فالعبد اذا بث بذر الايمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الاخلاق الردية ، وانتظر من فضل الله تثبيته على ذلك الى الممات ، وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة والرحمة الكاملة الشاملة كان انتظاره رجاء حقيقيا ، وأن قطع عن بذر الايمان ماء الطاعات ، وترك القلب مشحونا بالاخلاق السيئات ، وانهمك فى طلب اللذات والشهوات واللهوات ، ثم انتظر المغفرة

فورد (انَّ الَّذينَ آمَنُوا وَالَّذينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وكما ورد «الأحمقُ من أتبعَ نفسهُ هواها وتمنَّى على اللهِ أما أحسنُ الظَّنِّ

وعلو الدرجات فانتظاره حمق وغرور فى الحالات ﴿ فورد أن الذين آمنوا والذين هاجروا ﴾ السيئات واللذات ﴿ وجاهدوا فى سبيل الله ﴾ بتكثير الطاعات ﴿ اولئك يرجون رحمت الله ﴾ أى هم الذين يستحقون أن يرجوا رحمة ربهم ، بخلاف من ينهمك فيما يكرهه الله ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع اليه ، فرجاؤه المغفرة حمق وغرور كما قيل : الغرة بالله أن يعمل الرجل بمعصية الله تعالى ويتمنى مغفرته عز وعلا . ﴿ وكما ورد: الاحمق من اتبع نفسه هواها ﴾ وتابعها فى طلب مشتهاها ﴿ وتمنى على الله ﴾ أن يدخل الجنة ومأواها . والحديث تقدم . وقال يحيى بن معاذ الرازى . من اعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله عز وجل من غير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء من غير عمل ، والتمنى على الله عزوجل مع الافراط فى الامل، قال عبد الله بن المبارك الحنظلى ❊

ما بال دينك ترضى أن تدنسه ❊ وثوبك الدهر مغسول من الدنس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ❊ ان السفينة لا تجرى على اليبس

وقد ورد «أن زيد الخيل الذى غيره عليه السلام وسماه زيد الخير جاءه عليه السلام وقال : جئت لاسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد ، فقال كيف اصبحت ؟ قال أصبحت احب الخير وأهله واذا قدرت على شىء منه سارعت اليه وايقنت بثوابه ، واذا فاتنى شىء منه حزنت عليه وحننت اليه ، فقال هذه علامة الله فيمن يريد ولو هيأك للاخرى هيأك لهاثم لا يبالى فى أى اوديتها هلكت» رواه الطبرانى فى الكبير من حديث ابن مسعود ❊ فمن ارتجى أن يكون مرادا للخبر من غير هذه العلامات فهو مغرور فى وادى الملامات . وعن على كرم الله وجهه من اشتاق إلى الجنة تبتل عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ﴿ أما حسن الظن ﴾ بالله حيث يقول «أنا عند ظن عبدى بى» كما رواه الشيخان وزاد ابن حبان «فليظن بى ما شاء» وعنه عليه السلام «لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله» كما رواه مسلم من حديث جابر ، أنما يكون

بِالحَذَرِ عَنِ المَعْصِيَةِ وَالاجْتِهَادِ فِى الطَّاعَةِ فَلَا بُدَّ مِنْهُ لِلسَّالِكِ فَهُوَ يَبْعَثُ عَلَى الطَّاعَةِ وَيُهَوِّنُ احْتِمَالَ المَشَقَّةِ وَالقُنُوطُ كُفْرٌ فَوَرَدَ (لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ) وَالطَّرِيقُ ذِكْرُ سَوَابِقِ فَضْلِهِ

﴿ بالحذر عن المعصية والاجتهاد فى الطاعة فلا بد منه للسالك ﴾ أى من حسن الظن وغاية الرجاء ﴿ فهو يبعث على الطاعة ﴾ وترك المعصية ﴿ ويهون احتمال المشقة ﴾ فى ورود المصيبة والمحنة ﴿ والقنوط ﴾ وهو ضد الرجاء ﴿ كفر ﴾ قال تعالى (لا تقنطوا من رحمة الله) وقال (ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) وهو بمعنى اليأس ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ﴾ وورد أنه عليه السلام قال « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم ، فهبط جبريل فقال : أن ربك عز وجل يقول : لم تقنط عبادى ؟ فخرج اليهم فرجاهم وشوقهم » رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة ؟ وأوله متفق عليه من حديث أنس . وقال على كرم الله وجهه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : ياهذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وعنه رضى الله عنه : انما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم من مكر الله . وللبيهقى فى الشعب عن زيد بن أسلم « أن رجلا من بنى أسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، قال فيقول الله تعالى له يوم القيامة : اليوم اؤيسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها » وفى الخبر « أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبنى وحببنى الى خلقى ، فقال يارب كيف أحببك إلى خلقك ؟ فقال اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى واحسانى وذكرهم ذلك فانهم لا يعرفون منى الا الجميل » ولابن أبى الدنيا والبيهقى فى شعبه من حديث أنس مرفوعا « أن رجلا يدخل النار فيمكث فيها الف سنة ينادى ياحنان يامنان ، فيقول الله تعالى لجبريل أذهب فأتنى بعدى ، قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول له كيف وجدت مكانك ؟ قال فيقول شر مكان فيقول بما قدمت يداك وما أنا بظلام للعبيد ردوه إلى مكانه ، قال فيمشى فيلتفت الى ورائه فيقول الله عز وجل الى أى شىء تلتفت ؟ فيقول رجوت أن لا تعيدنى اليها بعد أن أخرجتنى منها ، فيقول الله تعالى اذهبوا به الى الجنة » فدل هذا على أن رجاءه أنجاه ﴿ والطريق ﴾ الموصل الى تحصيل الرجاء ذكر ستة اشياء ﴿ ذكر سوابق فضله ﴾ فى ايجاد

دُونَ شَفِيعٍ وَمَا وَعَدَ اللهُ مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ دُونَ اسْتِحْقَاقٍ وَمَا أَنْعَمَ بِمَا يُمِدُّ فِي الدَّارَيْنِ دُونَ سُؤَالٍ وَسَعَةِ الرَّحْمَةِ وَسَبْقِهَا الْغَضَبَ فَوَرَدَ «رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» وَمَا وَرَدَ فِيهِ مِثْلُ (لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ) الآيَةَ «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»

العبد وأمداده من جوده و كرمه ﴿دون شفيع﴾ أى بلا شفيع من عنده ﴿ وما وعد الله من جزيل ثوابه﴾ فى كتابه ﴿ دون استحقاق﴾ سابق فى بابه مع أنه لا استحقاق للمملوك على المالك بشيء من حسابه ﴿ وما انعم ﴾ على عبده من الرزق والعافية وتوفيق الطاعة ﴿ بما يمد﴾ نفعه ﴿ فى الدارين ﴾ من عنده ﴿ دون سؤال ﴾ أى من غير مسألة سابقة من عبده ﴿ وسعة الرحمة ﴾ قال الله تعالى: (ورحمتى وسعت كل شيء) وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة «لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد» ﴿ وسبقها الغضب فورد رحمتى سبقت غضبى ﴾ وفى رواية غلبت. وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة «أن الله كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق أن رحمتى تغلب غضبى» ﴿ وما ورد فيه ﴾ أى فى فضل الرجاء من الكتاب والسنة ﴿ مثل لا تقنطوا من رحمة الله الآية ﴾ أى (أن الله يغفر الذنوب جميعا) وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالى كما رواه الترمذى من حديث اسماء بنت ابى يزيد وحسنه ﴿ انا عند ظن عبدى بى ﴾ كما تقدم والله اعلم وكان ابو جعفر محمد بن على يقول : انتم اهل العراق تقولون ارجى آية فى كتاب الله عز وجل (قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية ونحن اهل البيت نقول ارجى آية فى كتاب الله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) انتهى وذلك لما ذكر فى تفسيره انه عليه السلام قال «لا يرضى محمد وواحد من امته فى النار» اى مؤبدا . وكان بعض العارفين يرى آية المداينة فى سورة البقرة من اقوى اسباب الرجاء فقيل له : وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الانسان فيها قليل ، والدين من رزقه قليل ، فانظر كيف أنزل الله فيه أطول آية ليهتدى بها عبده الى طريق الاحتياط فى حفظ دينه ، فكيف لا يحفظ دينه الذى لا عوض له منه فى دنياه وعقباه ، وروى فى تفسير قوله تعالى (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه) ان الله أوحى الى نبيه عليه السلام انى أجعل حساب أمتك اليك ، فقال لا يارب أنت خير لهم منى فقال اذن لا أخزيك فيهم » رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب

وَالخَوْفُ وَهُوَ الحُزْنُ لانْتظار مَكْرُوهٍ

حسن الظن بالله تعالى . وللبيهقى فى شعبه من رواية عقبة بن الوليد «ان الخليل قال يوما يا كريم العفو، فقال جبريل أتدرى ما تفسير يا كريم العفو؟ هو أن يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه» ولابن أبى الدنيا من حديث حذيفة مرفوعا «ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد حتى ان ابليس ليتطاول لها رجاء ان تصيبه» ، وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة ان لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعة وتسعين رحمة وأظهر منها فى الدنيا رحمة واحدة يتراحم الخلق بها فتحن الوالدة الى ولدها ، وتعطف البهيمة على ولدها ، فاذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة الى التسعة والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه، وكل رحمة منها طباق السموات والارضين قال فلا يهلك على الله يومئذ الاهالك » وللترمذى من حديث أنس وصححه وابن ماجه من حديث جابر «شفاعتى لاهل الكبائر من امتى »وقال الثورى: ما احب أن يجعل حسابى الى ابوى ، لانى أعلم أن الله تعالى ارحم بى منهما . وقال ابن ادهم: خلالى المطاف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت فى الملتزم عند الباب، فقلت يارب اعصمنى حتى لا اعصيك ابدا، فهتف هاتف من البيت : ياابرهيم أنت تسألنى العصمة وكل عبادى المؤمنين يطلبون ذلك ، فاذا عصمتهم فعلى من اتفضل ولمن اغفر ، ويؤيده حديث «لولم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم أنه هو الغفور الرحيم » رواه مسلم من حديث أبى هريرة وكان الحسن يقول لولم يذنب المؤمن لكان يطير فى الملكوت ولكن الله قمعه بالذنوب، ويؤيده حديث «لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب، فقيل ماهو؟ قال العجب »رواه البزار وابن حبان والبيهقى من حديث أنس. وقال الجنيد : أن بدت عين من الكرم الحقت المسيئين بالمحسنين . ويؤيده قوله تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)وقال يحيى بن معاذ فى مناجاته : يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى لك مع الاعمال لانى اعتمد فى الاعمال على الاخلاص، وكيف احرزها وانا بالآفة معروف . واجدنى فى الذنوب اعتمد على عفوك وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف . وكان بعض السلف يقول فى دعائه: يارب وأى أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمك عليهم سابغة ، وارزاقك عليهم دارة سائغة ، سبحانك ما احلمك ، وعزتك أنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى لكأنك ياربنا أنما تطاع، وسبحانك ما أحلمك تعصى وتدر الرزق وتسبغ النعمة حتى لكانك ياربنا لاتغضب ﴿ والخوف ﴾ عطف على الرجاء ﴿ وهو الحزن لانتظار مكروه ﴾ وهو تألم

فَأَمَّا مَنَ العِلْمِ بِعَدَمِ مُبَالَاتِهِ تَعَالَى فَوَرَدَ هٰؤُلَاءِ فِى الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِى وَهٰؤُلَاءِ فِى النَّارِ وَلَا أُبَالِى مِنْ مَلَامَةِ أَحَدٍ أَوْ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ أَوْ لِعَدَمِ تَأْثِيرِ الاثَابَةِ وَالتَّعْذِيبِ فِى زِيَادَةِ مُلْكِى وَنُقْصَانِهِ

القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال واما من انس بالله فى جميع الاحوال وملك الحق قلبه على وجه النظام، وصار ابن وقته ويشاهد الجمال الحق على الدوام ولم يبق له التفات الى المستقبل من الايام فلم يبق له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فانهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج الى رعوناتها، ولهذا اشار الواسطى حيث قال: الخوف حجاب بين الله وبين العبد، وقال أيضا: اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف فى الضمائر. ويؤيده ظاهر قوله تعالى (الا أن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا بالنسبة الى الخواص الكرام، وأما بالنسبة إلى الصلحاء من العوام فمعناه لا خوف عليهم بلحوق العقاب ولا هم يحزنون بفوت الثواب فى العقبى، وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه فى مشاهدة محبوبه لخوف فراقه كان ذلك نقصانا فى شهوده، وانما دوام الشهود غاية المقامات ونهاية الدرجات، لكن الكلام الآن فى اوائل الحالات، فنقول الخوف له اسباب ينشأ منها ويصدر عنها كما قال ﴿ فاما من العلم بعدم مبالاته تعالى ﴾ فانه عز وجل لا يسأل عما يفعل، ومن عزته فى صفاته أنه لو أهلك العالمين لم يبال من أحد ولم يمنعه مانع لوحدة ذاته ﴿ فورد ﴾ فى حديث مشهور: ان الله تعالى لما خلق آدم مسح على ظهره فاستخرج منه ذريته فقبض قبضة فقال ﴿ هؤلاء فى الجنة ولا ابالى و ﴾ قبض اخرى فقال ﴿ هؤلاء فى النار ولا ابالى ﴾ أى لا ابالى ﴿ من ملامة أحد ﴾ اذ لا يجب على الله شىء لا من اثابة المطيع ولا من تعذيب العاصى ﴿ أو من الطاعة والمعصية ﴾ أى او المعنى لا ابالى من طاعة مطيع ولا من معصية عاص، فانه كما ورد « لو عذب أهل سمواته وارضه لكان عادلا فى حكمه غير ظالم فى امره » ﴿ أو ﴾ لا ابالى ﴿ لعدم تأثير الاثابة والتعذيب فى زيادة ملكى ونقصانه ﴾ كما فى حديث مسلم عن أبى ذر مرفوعا حكاية عن الله سبحانه « ياعبادى أنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، ياعبادى لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا، ياعبادي

أوْ لَأنّي مُتَصَرِّفٌ فِي مِلْكِي أوْ مُتَفَضِّلٌ غَيْرُ مَائِلٍ عَادِلٌ غَيْرُ جَائِرٍ أَوِ الْجَهْلُ بِالْخَاتِمَةِ وَهُوَ لِلْمُتَّقِي أَغْلَبُ وَالْأَعْلَى مِنْ سَابِقَةِ الْأَزَلِ وَإِمَّا مِنَ الْمَعَاصِي

لو أن اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا » ﴿ او ﴾ لا ابالي ﴿ لانى متصرف فى ملكي ﴾ افعل ما اشاء وأحكم ما اريد بالعدل ﴿ او ﴾ لانى ﴿ متفضل غير مائل ﴾ فى ادخال الجنة ﴿ عادل غير جائر ﴾ فى ادخال النار لما تقدم ﴿ اوالجهل ﴾ أى اوالخوف هوالحزن للجهل ﴿ بالخاتمة وهو ﴾ أى خوف الخاتمة ﴿ للمتقى أغلب ﴾ لانه بحسب معرفته بعيوب نفسه وبعظمة جلال الله وقدسه ، فاخوف الناس لربه اعرفهم بنفسه وبربه ، ولذا قال عليه السلام: «والله انى لاخشاكم لله واتقاكم له » رواه البخارى من حديث انس وللشيخين من حديث عائشة « والله انى لاعلمهم بالله واشدهم له خشية » وقد قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) ﴿ والاعلى ﴾ من انواع المخافة وادلها على كمال المعرفة ان يكون الخوف ﴿ من سابقة الازل ﴾ لان الخاتمة اللاحقة تتبع المقدمة السابقة . فالخاتمة فى هذا الباب تظهر بما سبق به القضاء فى ام الكتاب ، فالالتفات الى القضاء الازلى الذى جرى بتوفيقه القلم اعلى من الالتفات الى ما يظهر فى الابد بعد ما كان فى حيز العدم ، واليه اشار صلى الله عليه وسلم حيث قال على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال «هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة باسمائهم واسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص ، وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستنقذهم الله قبل المـــوت ولو بفواق ناقة وليعملن اهل الشقاوة بعمل اهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله ، والأعمال بالخواتيم » رواه الترمذى من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب وفى رواية «السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه » رواه البزار وغيره بسند حسن ، ومن هنا خوف الكاملين حيث لم يعرفوا أنهم من أى القبضتين ومن أى الفريقين المذكورين فى قوله تعـالى (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) وفى قوله عزوعلا (فمنهم شقى وسعيد) وقوله عزوجل (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) وقوله سبحانه (اما شاكرا واما كفورا) ﴿ واما ﴾ بالكسر عطف على قوله اما من العلم الخ ، والمعنى أن الحزن لانتظار مكروه اما من جهة المعرفة بصفة الله تعالى وعزته وجلاله فى مرتبة عظمته واما ﴿ من المعاصى ﴾ أى من جهة

وَيَخْتَصُّ بِمَوْضِعِ الْغُرُورِ عِنْدَ الْمُوَاظَبَةِ عَلَى الطَّاعَةِ بِخِلَافِ الْأَوَّلِ ثُمَّ أَمَامَ السُّؤَالِ

كثرة المعصية الصادرة عن العبد فى حال غفلته وغرته ﴿ ويختص ﴾ الخوف من المعصية ﴿ بموضع الغرور عند المواظبة على الطاعة بخلاف الأول ﴾ أى يختص هذا الخوف ويتميز من الخوف الاول وهو عدم المبالاة بان يغتر بمواظبته على الطاعة فيعلم أن هذا كان من المعاصى لامن عدم المبالاة لأن خوف عدم المبالاة لا يزول قط وخوف الثانى يزول عند المواظبة على الطاعة * وتوضيحه ان هذا انقسام الخائفين الى من يخاف من معصيته وجنايته والى من يخاف الله تعالى نفسه لعظمته وجلالته فهذا أعلى رتبة وأعلى منزلة ، ولذا يبقى خوفه وان كان فى طاعه الصديقين ، وأما الآخر فهو فى عرضة الغرور والأمن ان واظب على الطاعات وداوم على العبادات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله تعالى خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله ، فكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بان يخاف من غير جنايته ، بل العاصى لو عرف الله حق معرفته لخاف الله ولم يخف من معصيته ، اذ لولا انه مخوف فى نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيل بابها ومهد له تمام أسبابها ، فان تيسير أسباب المعصية ابعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجرى عليه أسبابها ، ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من تيسرت له الطاعات وتمهدت له سبل القربات ، فالعاصى قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى فكذا المطيع حسب ماقدره الله وقضى . فالذى رفع محمدا صلى الله عليه وسلم الى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ووضع أباجهل فى أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل شهوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله فان من اطاع الله أطاع بأن سلط عليه ارادة الطاعة وآتاه القدرة ، وبعد خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذى عصى عصى لانه سلط عليه ارادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة ، فكان الفعل بعد الارادة والقدرة ضروريا فليت شعرى ما الذى اوجب اكرام هذا وتخصيصه بتسليط ارادة الطاعات عليه ، وما الذى اوجب اهانة الآخر وتبعيده بتسليط دواعى المعصية لديه ، وكيف يحال ذلك على العبد وينسب اليه . واذا كانت الحوالة ترجع الى القضاء الازلى من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بماشاء ويحكم بما يريد جزم عند كل مريد طالب للمزيد ﴿ ثم ﴾ الخوف عند سكرات الموت وشدته ومابعده ﴿ امام السؤال ﴾ فى القبر من منكر ونكير ، او عنه

أَو العَذَاب أَوفَوت الجَنَّة وَنَحوِهَا، وَتَختَلفُ الآثَارُ فَمَنْ خَافَ استيلاَءَ العَادَة وَاظَبَ عَلَى تَركهَا وَمنْ خَافَ اطِّلاَعَه تعَالَى اشْتَغَلَ بتَنقيَة السِّرِّ فَاعتَبِر وَيُؤثِّرُ فى البَدَن بالهُزالَة وَالصُّفْرَة وَالضَّعف وَالبُكَاء وَاذَا كَمُلَ يُؤدِّى الَى الجُنُون وَالمَوْت وَهُوَ شَهَادَةٌ لَكنْ الأَفْضَلُ مَنْ عَاشَ وَجَاهَدَ

الموقف من نقير وقطمير ﴿ او العذاب ﴾ فى القبر، او من هول المطلع، او هيبة الموقف، والحياء من كشف الستر، اومن مزلة الصراط، او حدته وكيفية العبور عليه باختلاف الاحوال، او العذاب فى النار وما فيها من الاغلال والانكال والاهوال ﴿ او فوت الجنة ﴾ دار النعيم والملك المقيم ﴿ ونحوها ﴾ من نقصان الدرجات وخوف حجاب الذات، واعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب، فانه أشد العذاب عند ارباب الالباب، وهو خوف العارفين وماقبل ذلك هو خوف العابدين والصالحين والزاهدين وكافة العاملين. ومن لم تكمل معرفته، ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بالم البعد والفراق، فاذا ذكر له أن العارف لايخاف النار وانما يخاف الحجاب في دار القرار وجد ذلك منكرا فى باطنه وتعجب منه فى نفسه. قال ذو النون: خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت فى بحر لجى ﴿ وتختلف الآثار ﴾ للخوف بحسب اختلاف أنواعه فى الاسرار ﴿ فمن خاف استيلاء العادة ﴾ في اتباع الشهوات المألوفة بالارادة ﴿ واظب على تركها ﴾ وداوم على خلافها ﴿ ومن خاف اطلاعه تعالى ﴾ على السرائر ﴿ اشتغل بتنقية السر ﴾ وتطهير القلب من الوساوس فى الضمائر ﴿ فاعتبر ﴾ وقس على هذا مخاوف اخر وهى من خاف اغتراره بزخارف الدنيا زهد فيها، ومن خاف هجوم الموت قبل التوبة بادر اليها ﴿ ويؤثر ﴾ الخوف ﴿ فى البدن بالهزالة ﴾ أى النحول باذابة اللحم والشحم ﴿ والصفرة ﴾ باللون المصحوب بالكدرة ﴿ والضعف ﴾ فى القوى ﴿ والبكاء ﴾ الصادر عن الخشية ﴿ واذا كمل ﴾ الخوف ﴿ يؤدى الى الجنون ﴾ بان يصعد الى الدماغ فيفسد العقل أ ﴿ و ﴾ يقوى فيورث القنوط واليأس او يفضى الى ﴿ الموت ﴾ بان تنشق به المرارة ﴿ وهو ﴾ أى الموت من خوف الله ﴿ شهادة لكن الافضل من عاش وجاهد ﴾ لقوله عليه السلام « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله » وقد تقدم. واعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لاينالها لو مات فى ذلك الوقت، لا بسبب الخوف

وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ كَمَا كَانَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَوَرَدَ «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَفِرُّ مِنْ ظِلِّ عُمَرَ» وَالْأَعْلَى أَنْ يُدْهِشَهُ عَنِ الْأَشْيَاءِ فَلَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ لِلْغَيْبَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ قَصَدَهُ الشَّيْطَانُ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَاحْتَرَقَ فَلَا بُدَّ

فهو بالاضافة اليه فضيلة ، واما بالاضافة الى بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبيل أمره فليس بفضيلة، بل للسالك لطريق الفكر والمشاهدة والترقى فى درجات المجاهدة فى كل لحظة رتبة شهيد ، ولذا ورد « يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء » ولولا هذا لكان رتبة صبى يقتل ، اومجنون يفترسه سبع اعلى من رتبة نبى اومنزلة ولى يموت حتف انفه ، وهو محال . والحاصل أن اقصى درجات الخوف أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله حتى لا يبقى فيه متسع لغير الله ، وذلك مع بقاء الصحة والعقل ، فان جاوز هذا الى ازالة العقل والصحة فهو مرض يجب عليه علاجه أن كان قدرة لديه ، ولذا كان سهل يقول للمريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة : احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله ولى ناقص العقل . ويؤيده ما اشتهر فى لسان العامة : مااتخذ الله وليا جاهلا ولو اتخذه لعلمه، وكذا يؤثر الخوف فى الجوارح فيكفها عن السيئات ويقيدها بالطاعات تلافيا لما فرط فى الماضى واستعدادا للمستقبل ، ولذا قيل: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ، بل الخائف من يترك مايخاف أن يعاقب عليه. وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئا هرب منه ومن خاف الله هرب اليه . وقيل لذى النون : متى يكون العبد خائفا قال اذا نزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام ﴿ ومن غلب عليه ﴾ خوف الله ﴿ خافه كل شىء ﴾ مما سواه . ولابى الشيخ بن حيان وابن أبى الدنيا حديث « من خاف الله خافه كل شىء » ﴿ كما كان ﴾ هذا المقام المعمر ﴿ لعمر رضى الله عنه فورد : أن الشيطان ليفر من ظل عمر ﴾ كما مر، وكذا يؤثر فى الصفات بان يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف سما فيه ﴿ والاعلى ﴾ فى مراتب الخوف ﴿ أن يدهشه ﴾ الخوف ويذهله ﴿ عن الاشياء ﴾ أى رؤيتها ويغفله عما يجرى على الاعضاء من حركتها ﴿ فلم توثر ﴾ الاشياء ﴿ فيه ﴾ أى فى الخائف ﴿ للغيبة عنها ﴾ أى لغيبة الخائف عن الاشياء والغفلة عنها ﴿ كما كان له عليه السلام حيث قصده الشيطان وهو فى الصلاة فاحترق ﴾ أى الشيطان فاذا كان الامر كذلك ﴿ فلا بد ﴾

مِنْهُ فَهُوَ يَزْجُرُ النَّفْسَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَيَنْفِي الْعُجْبَ عَنِ الطَّاعَةِ. وَالْأَمْنُ كُفْرٌ فَوَرَدَ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّٰهِ الْآيَةَ، وَالطَّرِيقُ النَّظَرُ فِي صِفَاتِهِ تَعَالَى وَأَفْعَالِهِ

للسالك ﴿ منه ﴾ أى من الخوف هنالك ﴿ فهو ﴾ أى الخوف ﴿ يزجر النفس ﴾ ويمنعها ﴿ عن المعصية ﴾ وارتكابها ﴿ وينفى العجب ﴾ ويدفعه ﴿ عن الطاعة ﴾ واكتسابها فاقل درجات الخوف مما يظهر اثره فى الاعمال المورثة للاحوال أن يمتنع من المحظورات، ويسمى الكف الحاصل عنها ورعا، فاذا زادت قوته كف عما يتطرق اليه امكان التحريم فيكف عما لا يتيقن أيضا تحريمه، ويسمى ذلك تقوى، إذ التقوى أن يترك ما يريبه الى ما لا يريبه، وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس، وهو الصدق فى التقوى، فاذا انضم اليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى ما لا يسكنه، ولا يجمع ما لا يأكله، ولا يصرف الى غير الله نفسا من أنفاسه فو الصدق وصاحبه جدير بان يسمى صديقا، وأما الخوف الذى يجرى مجرى رقة النساء كما يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء، وكذا عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة عن خوف الرب، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى. وهذا حال الناس كلهم الا العارفين والعلماء الراسخين. ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسومهم والمتسمين باسمائهم فانهم أبعد الناس عن الخوف لما فيهم من العجب والغرور، بل العلماء بآيات الله وصفاته وأفعاله فى مصنوعاته وذلك مما قد عز وجوده الآن كالكبريت الأحمر فى سالف الزمان ولذا قال الفضيل: إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت، فانك أن قلت لا كفرت وأن قلت نعم كذبت. وأما الخوف المفرط وهو الذى يجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى اليأس والقنوط فهو مذموم أيضا لانه يمنع من العمل، والمراد من الخوف هو الحمل على العمل، وإذا تحقق الياس له فهو كفر منه لانه أعتقد عدم قدرته سبحانه على عفوه فى زلته ﴿ والامن ﴾ وهو ضد الخوف ﴿ كفر ﴾ أيضا لانه يدل على عتقاد عدم قدرته وفقد ارادته على عقوبته على ذنوبه مع وجود طاعته وعبادته ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ فلا يأمن مكر الله الآية ﴾ أى (الا القوم الخاسرون) أى الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة بالكفر والمعصية ﴿ والطريق ﴾ الموصل الى تحصيل الخوف شيئان ﴿ النظر فى صفاته تعالى ﴾ الجلالية كالقهار والمنتقم والجبار ﴿ وأفعاله ﴾ فى مصنوعاته من معاملاته مع طوائف الكفار، فمن عرف الله حق معرفته حملته معرفته على خشيته

فَوَرَدَ (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ وَذِكْرُ الذُّنُوبِ وَالْخُصُومِ وَشِدَّةِ الْعَذَابِ وَضَعْفِ النَّفْسِ وَمَا وَرَدَ فِيهِ

بمشاهدة عظمة الله وعزته ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ لانهم العارفون بصفاته الخائفون منه بحسب ذاته ﴿ انا أعلمكم بالله واخشاكم له ﴾ حديث متفق عليه ﴿ وذكر الذنوب ﴾ السابقة ﴿ والخصوم ﴾ المتعلقين به يوم القيامة فى الاحوال اللاحقة ﴿ وشدة العذاب ﴾ بعد مناقشة الحساب ﴿ وضعف النفس ﴾ عن العقاب والحجاب ﴿ وما ورد فيه ﴾ أى فى فضل الخوف من الكتاب والسنة وأقوال السلف وأحوالهم فى هذا الباب ، أما الكتاب فقوله تعالى (هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) (ولمن خاف مقام ربه جنتان) (وخافونى ان كنتم مؤمنين) (سيذكر من يخشى) (وهم من خشية ربهم مشفقون) ه

وأما السنة فقوله عليه السلام «رأس الحكمة مخافة الله» رواه البيهقى فى شعبه من حديث ابن مسعود وقوله لعائشة لما قالت : يارسول الله الذين يؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة: هو الرجل يسرق ويزنى ، قال لا بل هو الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم . وقوله عليه السلام «ما من مؤمن تخرج من عينه دمعة وأن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله ثم تصيب شيئا من حر وجهه الا وحرمه الله على النار» رواه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود ، وقوله « اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة ورقها» رواه الطبرانى والبيهقى فى شعبه من حديث العباس وقوله «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع» رواه الترمذى وقال حسن صحيح وقوله لعقبة بن عامر حيث سال : ما النجاة يارسول الله قال «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك» وقد تقدم . وقوله «ما من قطرة أحب الى الله من قطرة دمع جرت من خشية الله أو قطرة دم اهريقت فى سبيل الله» رواه الترمذى من حديث أبى أمامة وحسنه ، وقوله « اللهم ارزقنى عينين هطالتين تسقيان بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والاضراس جمرا» رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر باسناد حسن وقوله «سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله» وذكر منهم «رجلا ذكر الله في خلوة ففاضت عيناه» رواه الشيخان، وعن حنظلة قال « كنا عند رسول الله

صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت الى أهلى فدنت منى المراة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عنده عليه السلام وأخذنا فى الدنيا ، ثم تذكرت ما كنت فيه وقلت فى نفسى قد نافقت حين تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرقة ، فخرجت وجعلت انادى نافق حنظلة ، فاستقبلنى ابو بكر فقال كلا لم تنافق ، فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا اقول نافق حنظلة نافق حنظلة ، فقال عليه السلام كلا لم ينافق حنظلة ، فقلت يارسول الله كنت عندك فوعظتنا موعظة رقت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا انفسنا ، فرجعت الى أهلى فاخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عليه عندك ؛ فقال ياحنظلة لو كنتم أبدا على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة فى الطرق وعلى فرشكم ؛ ولكن يا حنظلة ساعة فساعة ، رواه مسلم * وأما الآثار فقال أبو بكر الصديق : من استطاع أن يبكى فليبك ومن لم يستطع فليتباك . وكأنه اخذه من قوله تعالى (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) ومن قوله (يبكون ويزيدهم خشوعا) ومن قوله (افمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون) ومن قوله (خروا سجدا وبكيا) وكان محمد بن المنكدر اذا مسح وجهه ولحيته من دموعه يقول : بلغنى أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع . وقد تقدم فى الحديث ما يساعده . وقال عبد الله بن عمرو : ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا ، فو الذى نفسى بيده لو يعلم أحدكم ماوراءه لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه ، وقال أبو سليمان الدارانى : ما تغرغرت عين بمائها من خشية الله الالم يرهق وجه صاحبها قتر ولا زلة يوم القيمة ، فان سالت دموعه انطفأ باول قطرة منها بحار من النيران ، ولو ان رجلا بكى فى أمة ماعذبت تلك الامة . وقال كعب الاحبار : والذى نفسى بيده لان ابكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب الى من أن اتصدق بجبل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر : لان ادمع دمعة من خشية الله أحب الى من ان اتصدق بالف دينار . وقال الفضيل : من خاف الله تعالى دله الخوف على كل خير ، أى وحفظه عن كل شر وضير . وقال الشبلى : ما خفت الله يوما الا رأيت له بابا من الحكم والعبر ما رأيته قط . وقال ذو النون من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد لله حبه وصح له لبه أى عقله . وقال ذو النون ينبغى أن يكون الخوف ابلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسن الضرير يقول علامة السعادة خوف الشقاوة لان الخوف زمام بين الله وبين عبده ، فاذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين ، وقيل ليحيى بن معاذ : من آمن الناس غدا ؟ فقال أشدهم خوفا اليوم . وقال سهل

وَاختلف فى أَنَّ الرَّجاءَ أفضل أم الخوف والحقّ عدم الانفكاك اذ لو عدم أحدهما لَصار أمنا أو قنوطا فشرطهما عدم القطع فلا يقال أرجو طلوع الشمس وأخاف هجوم الأجل والرَّجاء أفضل من حيث هو هو فهو طريق المحبّة وورد سبقت رحمتى غضبى

لاتجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقال أبوسليمان الدارانى مافارق الخوف قلبا الاخرب ﴿ واختلف فى أن الرجاء ﴾ للعبد ﴿ أفضل ﴾ من الخوف ﴿ أم الخوف ﴾ افضل له من الرجاء ﴿ والحق ﴾ من القول ﴿ عدم الانفكاك ﴾ أى انفكاك أحدهما عن الآخر ﴿ اذ لو عدم احدهما لصار أمنا ﴾ عند عدم الخوف ﴿ اوقنوطا ﴾ عند عدم الرجاء فان الرجاء بلا خوف امن والخوف بلا رجاء يأس وكلاهما ممنوعان بنص القرآن والحق الاعتدال فى غالب الاحوال وأيضا فهما متلازمان لان كل من رجا محبوبا فلا بد أن يخاف فوته كما يشير اليه قوله تعالى (يدعوننا رغبا ورهبا) (ويدعون ربهم خوفا وطمعا) نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب باحدهما ولا يلتفت الى الآخر فى الحال لغفلته عنه ﴿ فشرطهما ﴾ أى شرط وجودهما ﴿ عدم القطع ﴾ فى كليهما فالأمن والقنوط ينافى عدم القطع ﴿ فلا يقال ارجو طلوع الشمس وأخاف هجوم الأجل ﴾ لأن أمرهما مقطوع فيه عادة بل يقال انتظر لموت الشرط وهو عدم القطع نعم يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه فلا يطلق اسم الرجاء والخوف الا على مشكوك يتردد منه اذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف فان المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقديره عدمه يوجع القلب وهو الخوف فالتقديران لامحالة يتقابلان نعم أحد طرفى الشك قد يترجح بحصول بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالاضافة وكذا بالعكس ﴿ والرجاء أفضل من حيث هو هو ﴾ أى مع قطع النظر عن صاحبه انه فى أى مقام هو من مقامات المبتدئين والمنتهين من المريدين فى طريق المجتهدين أو المريدين فى أمر الدين ﴿ فهو ﴾ أى الرجاء ﴿ طريق المحبة ﴾ وسبيل المحبين وهو أفضل المقامات وأكمل الحالات ﴿ وورد سبقت رحمتى غضبى ﴾ وقد تقدم، وفيه تنبيه نبيه على أنه ينبغى أن يكون الرجاء أغلب على الخوف وتوضيحه أن الخوف والرجاء دواء ان تداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب

وَهُوَ الأَفْضَلُ ان امْتَنَعَتِ النَّفْسُ عَنِ التَّوْبَةِ لِكَثْرَةِ المَعَاصِي أَوِ اقْتَصَرَتْ عَلَى الفَرَائِضِ أَوْ ضَعُفَ وَأَشْرَفَ عَلَى المَوْتِ لِيَمُوتَ عَلَى المَحَبَّةِ، وَالخَوْفُ ان غَلَبَ التَّمَنِّي وَاعْتَادَ المَعَاصِي وَالاعْتِدَالُ ان اتَّقَى ظَاهِرَ الاثْمِ وَبَاطِنَهُ وَلَا يُعْرِضُ بِمُعَارَضَةِ كَثْرَةِ أَسْبَابِ الرَّجَاءِ فَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ لَوْ لَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ الَّا وَاحِدٌ

على القلب داء الأمن من مكر الله والاعتراربه فالخوف أفضل وان كان الأغلب على العبد هو الياس والقنوط من رحمة الله فالرجاء افضل فبهذا الاعتبار غلبة الخوف افضل لأن الاغترار اغلب على القلب وان نظر الى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء افضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه اغلب وليس وراء المحبة مقام فى طلب الرب وأما الخوف فمستنده الالتفات الى الصفات التى تقتضى العنف والنقمة فلا تمازجه المحبة بمازجة الرجاء ﴿ وهو ﴾ أى الرجاء ﴿ الافضل ﴾ من الخوف والمفهوم من الاحياء انه الأصلح كما فى بعض النسخ هنا ولعله المصلح وانما يكون الرجاء أولى من الخوف ﴿ ان امتنعت النفس عن التوبة لكثرة المعاصى ﴾ الموجبة لليأس والقنوط من الرحمة ﴿ واقتصرت ﴾ النفس ﴿ على الفرائض ﴾ دون الواجبات والسنن المؤكدات ﴿ أوضعف ﴾ بالمرض والكبر ﴿ وأشرف على الموت ﴾ أى قاربه الفوت فان الأفضل حينئذ هو الرجاء ﴿ ليموت ﴾ بزيادة وصف الرجاء ﴿ على المحبة ﴾ الناشئة من كثرة الرجاء ﴿ والخوف ﴾ أفضل وأصلح واولى من الرجاء فى مقام الدواء ﴿ ان غلب التمنى واعتاد ﴾ صاحبه ﴿ المعاصى ﴾ لقلة خوفه ﴿ والاعتدال ﴾ بين الخوف والرجاء انسب واقرب ﴿ أن اتقى ظاهر الاثم وباطنه ﴾ أى جليه وخفيه ولذا قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا، وروى أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يابنى خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الارض لم يقبلها منك وارج الله رجاء ترى انك لو اتيته بسيئات أهل الارض غفرها لك ﴿ ولا يعرض ﴾ من الاعراض أى ولا يعدل المتقى المذكور عن الاعتدال ﴿ بمعارضة كثرة أسباب الرجاء ﴾ من الاعمال ﴿ فكان عمر رضى الله عنه ﴾ مع كمال تقواه وكثرة أعماله لله ﴿ يقول لو لم يدخل الجنة الا واحد ﴾ من

أَرجُو أَنْ أَكُونَ اِيَّاهُ وَلَوْ لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ الاَّ وَاحِدٌ أَخَافُ أَنْ أَكُونَ اِيَّاهُ وَتَعَسُّرُ التَّحَرُّزِ عَنِ المَعَاصِى البَاطِنَةِ حَتَّى كَانَ عُمَرُ يَسْأَلُ حُذَيْفَةَ عَنْ وُجُودِ أَثَرِ النِّفَاقِ فِيهِ وَاحْتِمَالِ زَوَالِ الاَسْبَابِ فِى الْمُسْتَقْبَلِ فَوَرَدَ اَنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لاَيَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ الاَّ شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ

المؤمنين ﴿ أرجو أنا كون اياه ﴾ اى ذلك الرجل ﴿ ولو لم يدخل النار الا واحد ﴾ من الخلق ﴿ أخاف أن أكون اياه ﴾ وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتد الهامع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى أن يساوى خوفه رجاءه فاما العاصى اذا ظن أنه ذلك الرجل واستثنى من دخول النار كان ذلك دليلا على مافيه من الاغترار ﴿ وتعسر التحرز ﴾ عطف بالمعنى لان الفاء فى قوله فكان عمر لتعليل المعنى فالتقدير لانه كان عمر ولتعسر الاحتراز ﴿ عن المعاصى الباطنة ﴾ ويجوز عطفه على قوله بمعارضة فيكون ما بينهما جملة معترضة وفيه جواب لسؤال مقدر وهو ان مثل عمر لا ينبغى أن يساوى خوفه رجاءه بل ينبغى أن يغلب رجاؤه خوفه فاشار الى أن شروط صحة الايمان على وجه الحقيقة من الامور الدقيقة فانه لا بد للقلب أن يكون نظيفا من الشرك الخفى والنفاق والرياء وخبايا الاخلاق الخبيثة فيه غامضة والآفات من الشهوات وزخارف الدنيا وما يتعلق بها من اللذات واللهوات كثيرة وان سلم القلب فى الحال عن هذه الاحوال ربما يلتفت اليها فى الاستقبال فان كان ضعيف القلب جبانا فى نفسه غلب خوفه على رجائه لامحالة كما يحكى فى أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وان كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فاما أن يغلب رجاؤه فلا ولقد كان عمر يبالغ فى تفتيش قلبه وتقلب حاله من المعاصى حتى كان يقول رحم الله: من أهدى الى بعيوب نفسى وكذا يخاف من النفاق وخصال أهله ﴿ حتى ﴾ غاية التعسر اى الى أن ﴿ كان عمر يسأل حذيفة ﴾ بن اليمان ﴿ عن وجود اثر النفاق فيه ﴾ أى عمر اذ كان حذيفة قد خصه عليه السلام بعلم المنافقين، وكان يسمى صاحب سر النبى عليه السلام ﴿ واحتمال زوال الاسباب ﴾ أى ولاحتمال زوال اسباب الرجاء ﴿ فى المستقبل ﴾ من الزمان ﴿ فورد أن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ﴾ وفى الاحياء زيادة خمسين سنة ﴿ حتى لا يبقى بينه وبين الجنه الاشبر ﴾ قال فى الاحياء وفى رواية الا قدر فواق ناقة ﴿ فيسبق عليه

الـكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ثُمَّ سُوءُ الْخَاتِمَةِ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهُ إِمَّا بِالشَّكِّ أَوِ الْجُحُودِ

الكتاب ﴾ أى المكتوب الازلى فى علم الله او المكتوب فى اللوح المحفوظ او عند تولده فى صحائف الملائكة الموكلة على حفظه ﴿ فيختم له بعمل أهل النار ﴾ فيدخل النار وكذا من يعمل عمل اهل النار، والحديث رواه مسلم من حديث أبى هريرة أن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وللبزار والطبرانى فى الاوسط سبعين سنة واسناده حسن، وللشيخين فى اثناء حديث لابن مسعود «أن احدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها الاذراع» الحـــديث وليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة ﴿ ثم سوء الخاتمة نعوذ بالله منه ﴾ أى من سوء الخاتمة وتغير الحالة فمن ذا يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفى والرياء فى زوايا القلب وأن اعتقد نقاء قلبه وصفاء لبه عن مثله فمن يأمن مكر الله بتلبيس حاله عليه واخفاء غيبه عنه فان وثق به فمن اين يثق ببقائه على ذلك الى تمام حسن الخاتمة التى عليه مدار سعادة العاقبة فاذن اقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه اماغلبة الرجاء فى اكثر الناس فيكون مستنده الاغترار وقلة المعرفة واين مثل عمر حتى يعتدل خوفه ورجاؤه كما مر، فالخلق الموجودون فى هذا الزمان كلهم الاصلح لهم غلبه الخوف بشرط ان لايخرجهم الى الياس وترك العمل وقطع الطمع عن المغفرة فيكون سببا للتكاسل عن العمل وداعيا الى الانهماك فى المعاصى وطول الامل فان ذلك قنوط وليس بخوف انما الخوف هو الذى يحث على الطاعات ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون الى الدنيا وزخارف اللذات ويدعوه الى التجافى عن دار الغرور والامنيات فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذى لايؤثر فى الكف عن السيئات والحث على العبادات ودون الياس الموجب للقنوط من رحمة خالق البريات وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله بمحض الخوف غرق فى بحار الافكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه فى مفازة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام فى محجة ذوى الاستبصار، وقال مكحول النسفى من عبد الله بالخوف فهو حرورى ومن عبده بالرجاء فهو مرجى ومن عبده لمجرد المحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد صديق ثم سوء الخاتمة ﴿ اما بالشك ﴾ والتردد فى قبول الايمان ﴿ اوالجحود ﴾ أى الانكار باصل الايمان ومحض الكفران

عِنْدَ النَّزْعِ لِظُهُورِ بُطْلَانِ بِدْعَةٍ كَانَ يَعْتَقِدُهَا تَقْلِيدًا أَوْ تَعْوِيلًا عَلَى مُجَادَلَتِهِ الْكَلَامَ فَهُوَ حَالَةُ الانْكِشَافِ وَاعْتِقَادُ بُطْلَانِ كُلِّ مَا اعْتَقَدَهُ أَوْ شَكِّهِ لِهَذَا السَّبَبِ

﴿ عند النزع ﴾ أى نزع الروح حال سكرات الموت وظهور أهواله الموجبة لتغير أحواله فتقبض روحه فى حالة شك القلب اوجحود الرب وذلك يقتضى البعد الابد والعذاب المخلد وذلك الشك أو الجحود انما يقع ﴿ لظهور بطلان بدعة ﴾ يعتقدها فى ذاته سبحانه اوصفاته أو افعاله فى مصنوعاته او يتأولها فى آية من آياته ﴿ كان يعتقدها ﴾ أى البدعة ﴿ تقليدا ﴾ ممن هذا حاله ﴿ اوتعويلا ﴾ أى اعتمادا ﴿ على مجادلته الكلام ﴾ أى مجادلته الخصام بما يعول عليه من أصول علم الكلام ويغتر به فيما بين الانام ﴿ فهو ﴾ أى وقت النزع ﴿ حالة الانكشاف ﴾ أى انكشاف كل شيء على ماهو عليه كما قال تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) فقوله هو علة لظهور بطلان البدعة، وأما قوله ﴿ واعتقاد بطلان كل مااعتقده ﴾ فمبتدأ وقوله ﴿ اوشكه ﴾ بالجر عطف على بطلان الثانى ، وقوله ﴿ لهذا ﴾ خبر المتبدأ أى واعتقاد بطلان كل المعتقدات الصحيحة اواعتقاد شك كلها لهذا ﴿ السبب ﴾ وهو ظهور النزع أى صار هذا الظهور سببا لاعتقاد بطلان جميع الاعتقادات الصحيحة ، اوسببا لاعتقاد شك الجميع . ويجوز كون قوله أوشكه مرفوعا عطفا على قوله واعتقاد ، قيل وهو الارجح يعنى اعتقاد بطلان الجميع لهذا السبب أوشك الجميع لهذا الباعث . والاظهر عندى انه فعل ماض عطفا على اعتقده فتأمل ، ثم حاصل كلامه انه جواب سؤال مقدر يترتب على قوله لظهور بطلان بدعة وتقرير السؤال ، فان قلت: ظهور بطلانها بما يوجب الشك او الجحود فى نفسها فقط دون بقية الاعتقادات الصحيحة وسوء الخاتمة المستلزم لخلود النار انما هو باعتقاد بطلان جميع الاعتقادات الصحيحة أو الشك فيها كلها ، فكيف يتصور سوء الخاتمة بهما فى بدعة واحدة ؟ فاجيب بما تقدم . وتوضيحه : ان المبتدع مهما كان بطل عنده ماكان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه انه اخطا فى هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه الى رأيه الكاسد وعقله الفاسد ، بل ظن أن كل مااعتقده لااصل له اذ لم يكن عنده فرق بين ايمانه بالله وبرسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاداته الفاسدة الصريحة ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو باعثا لشكه فيها ، فاذا اتفق زهوق روحه فى

وورد (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) الآيَةَ وَالمُعَامَلَةُ لاَتُنَافِيهِ وَالْبُلْهُ بِمَعْزِلٍ عَنْهُ وَمَنْ ثَمَّ وَرَدَ «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ»

هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الايمان نقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشك والعياذ بالله منه ، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى: (وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) ﴿ وورد ﴾ فى التنزيل ﴿ قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الآية ﴾ أى (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا) ﴿ والمعاملة ﴾ أى حسنها ﴿ لاتنافيه ﴾ أى لاتعارض سوء الخاتمة واراد بالمعاملة الورع والزهد وسائر الاعمال الصالحة فانها لاتكفى لدفع هذا الخطر بل لاينجى منه الاالاعتقاد الحق ﴿ والبله ﴾ جمع الابله ﴿ بمعزل عنه ﴾ أى عن خطر سوء الخاتمة فانهم هم الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر أيمانا مجملا راسخا كالاعراب والعجائز وسائر العوام الذين لم يخوضوا فى البحث والنظر العقلى استدلالا ، ولم يشرعوا فى الكلام استقلالا ، ولا اصغوا إلى أصناف أهل الكلام فى تقليد آرائهم المختلفة التى تقتضى ضلالا واضلالا ﴿ ومن ثم ورد اكثر أهل الجنة البله ﴾ رواه البزار من حديث أنس ، ولذا منع السلف الكرام من البحث والنظر والخوض فى الكلام والتفتيش عن هذه الامور بالتمام ، وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله جميعه وبكل ماجاء من الظواهر من عنده مع اعتقاد نفى التشبيه ، ومنعوهم من الخوض فى التأويل لان الخطر فى البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤودة ومسالكه وعرة والعقول عن درك جلال الله قاصرة وهداية الله بنور اليقين عن القلوب بماجبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطربة ومتعارضة والقلوب لما القى اليها فى ابتداء النشو آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين فى أول الامر ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فاذا فتح باب الكلام بالله وبصفاته بالرأى والمعقول وفى تفاوت الناس فى قرائحهم واختلافهم فى طبايعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال والاحاطة بكنه ذى الجلال انطلقت السنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين اليهم وتأكيد ذلك بطول الالف فيهم وانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت

أَوْ بِمُعَادَاتِه تَعَالَى لِعلْمِه بِتَفْرِيقِه تَعَالَى اِيَّاهُ وَتَأَلُّمِ الْقَلْبِ بِفَوَاتِهَا وَكَانَ يَسْتَوْلِى حُبُّهَا عَلَيْهِ وَلِضَعْفِ اِيمَانِه وَلَايَكُونُ مِنْ ذِكْرِه تَعَالَى فِيهِ الاَّحَادِيثُ النَّفْسِ وَهُوَ أَسْوَدُ مِنْ تَرَاكُمِ ظَلَامِ الرَّذَائِلِ فَوَرَدَ (قُلْ اِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَاِخْوَانُكُمْ) الآيَةَ أَوْ بِأَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ كَانَ يُحِبُّهُ فَاحْتَجَبَ عَنْهُ تَعَالَى شُغْلاً بِهِ

سلامة الخلق فى أن يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولايتعرضوا لماهوخارج عن حد طاقتهم ولكن الآن قد أسترخى العنان وفشا الهذيان وترك كل جاهل على ماوافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنهم صفو ايمان وعرفان ويظن أن ماقنع به من حدس وتخمين علم يقين بل عين يقين ولتعلمن نبأه بعد حين كما قيل

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

وينشد فى حق هؤلاء عند كشف الغطاء :

احسنت ظنك بالايام إذ حسنت ولم تخف سوء مايأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل مافارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض فى البحث فقد تعرض لخطر سوء الخاتمة وهذا ملخص مافى الاحياء ﴿ او ﴾ سوء الخاتمه يقع ﴿ بمعاداته تعالى ﴾ وهو من اضافة المصدر إلى مفعوله ﴿ لعلمه ﴾ أى لمعرفة العبد ﴿ بتفريقه تعالى اياه ﴾ أى للعبد من الدنيا ﴿ وتألم القلب ﴾ أى ولتوجعه ﴿ بفواتها ﴾ أى بفوات الدنيا ولذاتها ﴿ وكان يستولى حبها عليه ﴾ أى على قلبه ﴿ ولضعف ايمانه ﴾ بالله وبماديه ﴿ ولا يكون من ذكره تعالى فيه الاحديث النفس ﴾ المحظور اليه ﴿ وهو ﴾ أى والحال أن قلبه ﴿ اسود من تراكم ظلام الرذائل ﴾ من سوء الاخلاق والشمائل فان اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة نقد ختم له بالسوء سرمدا وهلك هلاكا مؤبدا ولايظلم ربك أحدا ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم الآية ﴾ أى وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره والله لايهدى القوم الفاسقين ﴿ أو ﴾ سوء الخاتمة يحصل ﴿ بامر دنيوى كان يحبه ﴾ العبد ﴿ فاحتجب عنه تعالى شغلا ﴾ لذلك العبد ﴿ به ﴾ أى بالامر الدنيوي

فَمَا اعْتَادَ وتَرَسَّخَ فِى القَلْبِ لَا يُنْسَى كَمَا فِى النَّوْمِ وَهُوَ لِكَثْرَةِ المَعَاصِى مَعَ قُوَّةِ الايمَانِ أَوْقِلَّتِهَا مَعَ ضَعْفِهِ وَهَذَا لَا يُوجِبُ الخُلُودَ فِى النَّارِ وَمِنْ ثَمَّ تُكْرَهُ الفُجَاءَةُ لِجَوَازِ اتِّفَاقِهَا عَلَى خَاطِرِ سُوءٍ وَتُغْبَطُ الشَّهَادَةُ لِاسْتِيلَاءِ حُبِّهِ تَعَالَى عَلَى القَلْبِ

﴿ فما اعتادو ترسخ ﴾ أى ثبت ﴿ فى القلب لا ينسى كما فى النوم ﴾ ويعرف هذا بمثال وهو لا يخفى عليك أن الانسان يرى فى منامه جملة من الاحوال التى عهدها طول عمره حتى انه لا يرى الا ما يماثل مشاهداته فى اليقظة فان المراهق الذى لم يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ولو بقى كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لا يخفى ان الذين مضى عمره فى التفقه يرى من الاحوال المتعلقة بالعلم والعلماء الا يراه التجار الذى مضى عمرهم فى التجارة والتاجر يرى من الاحوال المتعلقة باسباب التجارة اكثر مما يراه الطبيب والفقيه لانه انما يظهر له فى حالة النوم ما حصل له من مناسبته مع القلب بطول الالف والموت يشبه النوم ولذا قيل الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ولكن الموت فوق النوم، وأما سكرات الموت وغشيانه فقريب من النوم فيقتضى بذلك تذكر المألوفات من الطاعات او السيئات أو اللذات والشهوات ومن هنا يخالف منامات الصالحين والصالحات وقد قيل كما تعيشون تموتون وكما تموتون تحشرون ويشير اليه قوله تعالى (كما بدأكم تعودون) وطول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت وساعات الفوت فانه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات لديه، ولذا قيل عن بقال كان يلقن عند الموت كلمة الشهادة وهو يقول خمسة ستة أربعة زيادة ﴿ وهو ﴾ أى الاحتجاب المذكور وسائر الامور ﴿ لكثرة المعاصى مع قوة الايمان أو قلتها مع ضعفه ﴾ أى لقلة المعاصى مع ضعف الايمان ﴿ وهذا ﴾ الحجاب المذكور أو القسم المسطور من اقسام سوء الخاتمة ﴿ لا يوجب الخلود فى النار ﴾ بخلاف الاولين من اقسام سوء الخاتمة فانهما يوجبان الخلود فى دار البوار ﴿ ومن ثم ﴾ أى ومن اجل أن سوء الخاتمة يتحقق عند النزع ﴿ تكره الفجاءة ﴾ من الموت والبغتة المقتضية لبعض الفوت ﴿ لجواز اتفاقها ﴾ أى اتفاق وقوع الفجاءة ﴿ على خاطر سوء ﴾ يكون سببا لسوء الخاتمة ﴿ وتغبط الشهادة ﴾ أى تحب وتتمنى ﴿ لاستيلاء حبه تعالى ﴾ حينئذ ﴿ على القلب

وَأعْرَاضه عَن الدُّنيَا وَهوَ لِمَنْ يخْلِصُ وَلَا يَقصدُ الغَلَبَةَ وَالغَنِيمَةَ وَالصِّيتَ وَالعلَاجُ الْمَعرِفَةِ وَلزُومُ الطَّاعَةِ وَتعجِيلُ التَّوبَةِ وَالنَّومُ عَلى الطَّهَارَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَتَنقِيَةُ القَلْبِ وَتِلَاوَةُ الْقُرآن وَطَلَبُ العِلْمِ النَّافِعِ فَالْأَمرُ صَعْبٌ وَمِنْ ثَمَّ يُروَى عَنِ السَّلَفِ كَثْرَةُ النَّوحِ وَالْبُكَاءِ ۞

وأعراضه عن الدنيا ﴾ وإقباله بكليته على الرب ﴿ وهو ﴾ اى هذا المقام ﴿ لمن يخلص ﴾ فى النية ﴿ ولا يقصد الغلبة ﴾ من اخذ البلاد وقهر العباد ﴿ والغنيمة ﴾ من الاموال النفيسة والخدام الانيسة ﴿ والصيت ﴾ بالجاه والرياء والسمعة ﴿ والعلاج ﴾ للخلاص عن سوء الخاتمة ﴿ المعرفة ﴾ التامة من العلم النافع ﴿ ولزوم الطاعة ﴾ من العمل الصالح ﴿ وتعجيل التوبة ﴾ عن المعصية ﴿ والنوم على الطهارة ظاهرا ﴾ وهو طاهر ﴿ وباطنا ﴾ بان لا يكون فى قلبه غل وغش لاحد من خلق الله فورد « من بات على طهارة ثم مات من ليلته مات شهيدا » رواه ابن السنى عن أنس ﴿ وتنقية القلب ﴾ اى تصفيته وتخليته عن حب غير الرب ﴿ وتلاوة القرآن ﴾ غيبا ونظرا مع مراعاة المبانى وملاحظة المعانى ﴿ وطلب العلم النافع ﴾ من التفسير والحديث والفقه والتصوف ﴿ فالأمر ﴾ اى امر سوء الخاتمة ﴿ صعب ﴾ اى شديد ومر ﴿ ومن ثم يروى عن السلف ﴾ من الصحابة والتابعين ﴿ كثرة النوح والبكاء ﴾ مع زيادة التضرع والدعاء فى السراء والضراء فقد قال الحسن البصرى: يخرج رجل من النار بعد الف عام ياليتنى كنت ذلك الرجل وانما قال ذلك لخرف سوء الخاتمة ، وقال محمد بن خولة الحنفية والله لا ازكى أحداغير رسول الله ولا أبى الذى ولدنى فثارت الشيعة عليه فجعل يذكر من فضائل على ومناقبه ، وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام يكيا خوفا من الله عز وجل فاوحى الله اليهما لم تبكيان فقد امنتكما فقالا ومن يأمن مكرك رواه الطبرانى وغيره وكأنهما اذا علما أن الله علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الامور لم يأمنا أن يكون قوله فقد أمنتكما ابتلاء لهما وامتحانا ومكرا بهما حتى أن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما هذا ، ولولا أن الله لطيف بعباده العارفين اذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف فاسباب الرجاء للعارفين رحمة من الله لهم وأسباب الغفلة رحمة على عموم الخلق من وجه ؛ وكان أبو الدرداء يحلف بالله

ما احد أمن على أيمانه أن يسلب عند الموت الاسلبه، وكان سهل يقول خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وكل حركة وهم الذين وصفهم الله اذ قال (وقلوبهم وجلة) ولما احتضر سفيان جعل يبكى فقيل ياأبا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله أعظم من ذنوبك فقال اوعلى ذنوبى ابكى لوعلمت انى اموت على التوحيد لم ابال ان القى الله بامثال الجبال من الخطايا، وفى رواية عنه انه قال بكينا على الذنوب زمانا فالآن بكاؤنا على الاسلام، وكان سهل يقول المريد يخاف ان يبتلى بالمعاصى والعارف يخاف ان يبتلى بالكفر، وروى عن عيسى عليه السلام انه قال يامعشر الحواريين انتم تخافون المعاصى ونحن معاشر الانبياء نخاف الكفر، وفيه تنبيه تنبيه على ان خوف الانبياء اقوى وبه اشار حديث انا اخوفكم بالله والمعتقد ان الانبياء معصومون من الكفر اجماعا بحسب النقل لكنهم كانوا خائفين من جهة تجويز العقل اذ لايجب شيء على الله وان فعله اما العدل واما الفضل، وقد قيل كان الخليل عليه السلام إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل فيأتيه جبريل فيقول له الجبار يقرؤك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله فيقول ياجبريل أنى اذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى، وعن الحسن لوأعلم أنى برىء من النفاق كان أحب إلى مما طلعت عليه الشمس، وقد قال الحسن أن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب والمدخل والمخرج ومن الذى يخلص من هذه المعانى بل صارت هذه الامور مألوفة بين الناس معتادة ومنسى كونها منكرا بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمانه عليه السلام فكيف الظن بزماننا هذا حتى قال حذيفة: ان كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهده عليه السلام فيصير بها منافقا انى لاسمعها من احدكم اليوم عشر مرات رواه احمد، وكان الصحابة يقولون انكم لتعملون اعمالا هى ادق فى اعينكم من الشعر كنا نعدها على عهده عليه السلام من الكبائر رواه البخارى وغيره، وقال بعضهم علامة النفاق أن تكره من الناس ماتأتى مثله وان تحب على شيء من الجور وان تبغض على شيء من الحق، وقيل من النفاق أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك وقال رجل لابن عمر انا ندخل على هؤلاء الامراء فنصدقهم بما يقولون فاذا خرجنا تكلمنا فيهم فقال: كنا نعد هذا نفاقا على عهده عليه السلام رواه احمد، وسمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال ارأيت لوكان الحجاج حاضرا اكنت تتكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهده عليه السلام، واشد من ذلك ماروى ان نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا

يتكلمون فى شىء من شانه فلما خرج سكتوا حياء منه فقال تكلموا فيما لنتم تقولون فسكتوا فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهده عليه السلام ، وكان حذيفة يقول أنه يأتى على القلب ساعة يمتلىء بالايمان حتى لايكون للنفاق فيه مغرزابرة ويأتى عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لايكون للايمان فيه مغرزابرة ،ولعلهم ماعنوا به النفاق الذى هو ضد الايمان بل المراد به مايجتمع مع أصل الايمان من بعض العصيان، والحاصل أن العارف بين الالتفات الى السابقة والى الخاتمة اللاحقة خائفا منهما ولذا قال عليه السلام العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لايدرى ماالله صانع فيه وبين أجل قد بقى لايدرى ماالله قاض فيه فو الذى نفسى بيده مابعد الموت من مستعتب ولابعد الدنيا من دار الاالجنة أوالنار ذكره البيهقى وغيره، وقال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعد ان من الدنيا وبحق أقول لكم أن اكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل ويروى عن الصديق أنه قال لطائر ليتنى كنت مثلك ياطائراولم اخلق بشرا، وقال أبو ذر وددت لوأنى لشجرة تعضد وكذا قال طلحة، وقال عثمان وددت أنى اذامت لم ابعث وقالت عائشة وددت أنى كنت حيضة ونسيامنسيا وروى أن عمر كان يسقط من الخوف فاذا سمع آية من القرآن خر مغشيا عليه وكان يعاد اياما واخذ يوما تبنة من الارض وقال ياليتنى كنت مثل هذه التبنة ياليتنى لم اك شيئا مذكورا ياليتنى كنت نسيامنسيا ياليت أمى لم تلدنى وكان فى وجه عمر خطان أسودان من الدموع ولما قرأ عمر (إذا الشمس كورت) فانتهى الى قوله (وإذا الصحف نشرت) خر مغشيا عليه، ومر يوما بدار انسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى (أن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) نزل عن حماره واستند الى حائط فمكث زماناورجع إلى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولايعرفون مرضه، وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الصبح وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحابه عليه السلام فلم ار اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون صفرا شعثا غبرا بين اعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم فاذا أصبحوا وذكروا مادوا كما تميد الشجرة في يوم الريح فهملت اعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله كأنى بالقوم باتوا غافلين يعنى من حوله ثم قام فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم، وقال عمران بن حصين لوددت أنى كنت رمادا تسفينى الرياح فى يوم عاصف وقال أبو عبيدة بن الجراح وددت انى كبش فيذبحنى

أهلي فيأكلون لحمي ويحتسون مرقي ، وكان علي بن الحسين اذا توضأ اصفرلونه فيقول له أهله ماهذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول أتدرون بين يدي من اريد أن اقوم، وقرأ مضر القاري يوما (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا) الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه وقال وعزتك وجلالك لاعصيتك جهدي ابدا فاعني بتوفيقك على طاعتي ، وكان المسور بن مخرمة لايقوى على أن يسمع القرآن من شدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف اوالآية فيصيح الصيحة فما يعقل اياما حتى اتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا) فقال انا من المجرمين ولست من المتقين فقال اعد على القول ايها القارى فاعاد عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة ، وروى ان زرارة بن اوفى صلى بالناس صلاة الغداة فلما قرأ (فاذا نقر في الناقور) خر مغشيا عليه فحمل ميتا ، وسئل ابن عباس عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف قرحة واعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت وراءنا والقبر أمامنا والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا وبين يدى ربنا موقفنا ، وقال عمر بن عبد العزيز انما جعل الله الغفلة فى قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله ، وقال الفضيل انى لاغبط نبيا مرسلا ولاملكا مقربا اليس هؤلاء يعاتبون يوم القيامة انما اغبط من لم يخلق، وروى ان فتى من الانصار دخلته خشية النار فبكى حتى حبسه ذلك فى البيت فجاء عليه السلام ودخل البيت فاعتنقه فخر ميتا فقال عليه السلام : جهزوا ميتكم فان الفرق من النار فتت كبده» رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من حديث سهل بن سعد ، وقال العنبرى أجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكى ولحيته ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث انما هذا زمان بكاء وتضرع ودعاء كدعاء الغريق انما هذا زمان احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ماتعرف ودع ماتنكر، وقال رجل للحسن ياابا سعيد كيف اصبحت فقال بخير فقال كيف حالك فتبسم الحسن فقال تسألني عن حالي ماظنك بناس قد ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل انسان منهم بخشبة على أى حال هم قال الرجل على حالة شديدة قال الحسن حالي أشد من حالهم ، وعن ابن السماك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود امافى الجنة اوفى النار، وقال معاذ بن جبل أن المؤمن لاتسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وراءه وخلاصة الكلام فى هذا المقام أن غلبة الخوف حال الصحة أصلح ليبعثه على ترك الغفلة وغلبة الرجاء فى تلك الحالة أصلح لانه اجلب للمحبة، ولذا قال عليه السلام: «لايموتن

﴿ البَابُ التَّاسِعَ عَشَرَ فِى الفَقْرِ وَالزُّهْدِ ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * الفَقْرُ فَقْدُ مَايَحْتَاجُ اِلَيْهِ فَاِنْ فَرِحَ بِالفَقْدِ وَكَرِهَ الزَّائِدَ عَلَى الضَّرُورَةِ فَزَاهِدٌ وَاِنْ لَمْ يَكْرَهْ

أحدكم الا وهو يحسن الظن بربه، رواه مسلم من حديث جابر، ومن هنا لما حضر الوفاة سليمان التيمى قال لابنه يابنى حدثنى بالرخص واذكرلى الرجاء حتى القى الله حسن الظن به، وكذلك لما حضر الوفاة الثورى واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه، وقال الامام أحمد عند الموت لابنه اذكرلى الاخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن، والمقصود من ذلك أن يحبب الله إلى نفسه وأن يموت مع المحبة التى هى مقام أنسه رزقنا الله من فيض قدسه *

﴿ الباب التاسع عشر فى الفقر والزهد ﴾

الفقر فخر الانبياء وذخر الاولياء والزهد زاد الاتقياء، وقدم الفقر على الزهد بناء على تقدم وجود أصله فى كل مخلوق ونسله كما يشير اليه قوله تعالى (والله الغنى وأنتم الفقراء) والزهد عارض من جهة عدم ميله إلى الغنى المضر لوصول نيله ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ افتقر إلى غنى ربى الكريم وأزهد عن غير لقاء مولاى العظيم ﴿ الفقر ﴾ عند الصوفى ﴿ فقد مايحتاج اليه ﴾ فى ظن الفاقد مما لديه أما فقد مالاحاجة اليه فلا يسمى فقرا وان كان المحتاج اليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج اليه فقيرا وإذا فهمت هـــذا لم تشك فى أن كل موجود سوى الله سبحانه فهو فقير لانه محتاج إلى دوام الوجود فى ثانى الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله وجوده وأن كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود الا واحدا فليس فى الوجود الا غنى واحد وكل ماعداه محتاج اليه فى ايجاده وامداده، وإلى هذا الحصر اشير فى قوله تعالى (والله الغنى وأنتم الفقراء) وهذا معنى الفقر مطلقا ولكن المراد هنا بيان الفقر من المال على الخصوص والا فقر العبد بالاضافة إلى أصناف حاجاته لاينحصر ﴿ فان فرح ﴾ السالك ﴿ بالفقد ﴾ المذكور أو بحصول مايحتاج اليه ﴿ وكره الزائد على الضرورة ﴾ فيما لديه ﴿ فزاهد ﴾ أى فهو زاهد وهذه الحالة حالة علياء ﴿ وان لم يكره ﴾

وَلَمْ يَرْغَبْ فَرَاضٍ وَوَرَدَ يَامَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللّٰهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَانْ تَرَكَ الطَّلَبَ مَعَ أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَهُ أَحَبُّ فَقَانِعٌ وَانْ رَغِبَ وَتَرَكَهُ لِلْعَجْزِ فَحَرِيصٌ وَانِ اضْطُرَّ الَيْهِ وَفَقْدُهُ فَمُضْطَرٌّ وَالْأَعْلَى تَسْوِيَةُ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ

الزائد على الضرورة كراهة يتأذى بوصوله ﴿ ولم يرغب ﴾ فى الزائد على الضرورة رغبة يفرح بحصوله ﴿ فراض ﴾ أى فاسمه راض ورب راغب فى المال لا يخطر بقلبه انكار على الله ولا كراهة فى فعل مولاه فتلك الكراهة هى التى تحبط ثواب الفقر فى دقباه ﴿ وورد يامعشر الفقراء ﴾ أى جماعتهم ﴿ اعطوا الله الرضاء من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم ﴾ وتتمة الحديث والا فلا رواه الديلمى عن أبى هريرة، ويكاد مفهوم الحديث يشعر بان الحريص لا ثواب له على فقره لكن العمومات الواردة فى فضل الفقر والقناعة والزهد تدل على أن له ثوابا فلعل المراد بعدم الرضاء هو الكراهة بفعله سبحانه فى حبس الدنيا عنه ﴿ وأن ترك الطالب ﴾ أى طلب الزائد على الضرورة وهو قادر على طلبه ولكن تركه ﴿ مع أن الوجود ﴾ أى وجود المال الزائد ﴿ عنده أحب ﴾ من عدم وجوده لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن يكون من طلبته بل أن اتاه عفوا صفوا اخذه وفرح به وان افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به ﴿ فقانع ﴾ أى فيقال له قانع اذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك طلب المفقود مع ما فيه من الرغبة الضعيفة فى الوجود ﴿ وان رغب ﴾ فى الزائد لو وجد سبيلا الى طلبه ولو بالتعب لطلبه ﴿ وتركه للعجز ﴾ أى وترك الطالب لعجزه عن طلبه أو هو مشغول بالطالب وتعبه ﴿ فحريص ﴾ اسمه ﴿ وأن اضطر اليه ﴾ أى افتقر إلى ما يحتاج اليه ﴿ وفقده ﴾ أى وفقده ضرر عليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب ﴿ فمضطر ﴾ وصفه كيف ما كانت رغبته فى الطلب ضعيفة اوقوية وقل ما ينفك صاحب هذه الحالة عن الرغبة فى الجملة ﴿ والاعلى ﴾ من الفقر او من الزهد أو أعلى الاحوال الخمس ﴿ تسوية الوجود ﴾ أى وجود ما يحتاج اليه من المال ﴿ والعدم ﴾ أى وفقد ما يحتاج اليه فان وجده لم يفرح من ثباته ولم يتأذ عن اتيانه وان فقده كذلك كحال عائشة اذ اتاها مائة الف درهم من العطاء فاخذته وفرقته من يومها فقالت خادمتها لوابقيت منها درهما تشترى لنا به لحما نفطر به فقالت لو ذكرتينى فعلت فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذا فيرها فى يده وخزائنها فى تصرفه

فَهُوَ اسْتِغْنَاءٌ دُونَ الغِنَى لاخْتِصَاصِهِ بِهِ تَعَالَى وَهُوَ الْمُرَادُ بِمَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الفَقْرِ

لم تضره اذهو يرى الاموال من جملة خزائن الملك المتعال لافى يدنفسه فلا يفرق بين أن تكون فى يده اوفى يدغيره وقد حملت خزائن الارض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبى بكر وعمر فاخذوها ووضعوها فى مواضعها ولم يكن عندهم فرق بين الماء والمال في كل الحال ﴿ فهو استغناء دون الغنى ﴾ المطلق ﴿ لاختصاصه ﴾ أى الغنى المطلق ﴿ به ﴾ أى بالحق ﴿ تعالى ﴾ شأنه وينبغى أن يسمى صاحبه المستغنى لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعا، وقد يقال له غنى بغنى مولاه لخبر ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس، ثم هذا العبد وان استغنى عن المال وجودا وعدما لم يستغن عن اشياء اخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله ليبقى استغناؤه الذى زين الله تعالى به قلبه فان القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذى اعتقه عن هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرق والحرية فى اوقات متقاربة لانها بين أصبعين من أصابع الرحمن فلذا لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال الا مجازا ﴿ وهو ﴾ أى الاستغناء ﴿ المراد بما ورد ﴾ من الكتاب والسنة ﴿ فى فضل الفقر ﴾ والفقراء كقوله تعالى (للفقراء المهاجرين) الآية (وللفقراء الذين أحصروا) الآية ساق الكلام فى معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار، وكقوله عليه السلام لبلال القَ الله فقيرا ولا تلقه غنيا، رواه الحاكم من حديث بلال والطبرانى من حديث أبى سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا، وقوله يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام رواه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح، وقوله الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس رواه الطبرانى من حديث شداد بن أوس، وقوله اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الاغنياء رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو باسناد جيد وللشيخين من حديث اسامة بن زيد قمت على باب الجنة فاذا عامة من دخلها المساكين واذا أصحاب الجد محبوسون وقوله تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر رواه محمد بن حنيف الشيرازى فى شرف الفقراء، والديلمى من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به، وقوله آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه وفى رواية رأيته دخل الجنة زحفا، وللديلمى عن أبى الدرداء مرفوعا

أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ياموسى اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته، وروى أن عيسى عليه السلام مر فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة فايقظه وقال يانائم قم فاذكر الله فقال ماتريد منى انى قد تركت الدنيا لاهلها فقال له فنم اذن حبيبى نم، وقال موسى عليه السلام يارب من أحباؤك من خلقك حتى احبهم فقال كل فقير فقير فيحتمل أن يكون الثانى تأكيدا وان يكون المراد به شديد الفقر، وكان عيسى عليه السلام احب الاسامى اليه ان يقال له يامسكين، ولابى الشيخ من حديث انس يقول الله عزوجل يوم القيامة ادنوا منى احبائى فتقول الملائكة ومن احباؤك فيقول فقراء المسلمين فيدنون منه فيقول اما انى لم ازو الدنيا عنكم بهوان كان بكم ولكن اردت بذلك ان اضعف لكم كرامتى اليوم فتمنوا على ماشئتم، ولابى نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن على اتخذوا عند الفقراء ايادى فان لهم دولة يوم القيامة وللطبرانى من حديث أبى امامة دخلت الجنة فسمعت حركة امامى فنظرت فاذا بلال فنظرت إلى اعلاها فاذا فقراء امتى واولادهم ونظرت فى اسفلها فاذا فيهم الاغنياء والنساء قليل فقلت يارب ماشأنهم قال أما النساء فاضرتهن الاحمران الذهب والحرير وأما الاغنياء فاشتغلوا بطول الحساب فتفقدت أصحابى فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءنى بعد ذلك وهو يبكى فقلت ماخلفك عنى فقال أما والله يارسول الله ماخلصت اليك حتى لقيت المشيبات فظننت أنى لااراك قلت لم قال كنت احاسب بمالى، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ الا اخبركم عن ملوك الجنة قالوا بلى يارسول الله قال كل ضعيف مستضعف ذى طمرين لايؤبه به لواقسم على الله لابره، وللحاكم والترمذى من حديث عائشة أنه عليه السلام قال لها ان اردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء واياك ومجالسة الاغنياء ولاتنزعى درعك حتى ترقعيه، وعن ابن عباس ملعون من اكرم بالغنى واهان بالفقير، وقال لقمان لابنه لاتحقرن احدا لخلقان ثيابه فان ربك وربه واحد، وقال يحيى بن معاذ حبك للفقراء من اخلاق المرسلين وايثارك لمجالستهم من علامات الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامات المنافقين، وقال المؤمل مارأيت الغنى اذل منه فى مجلس الثورى ولارأيت الفقير اعز منه فى مجلس الثورى، وللدار قطنى وغيره من حديث ابن عمر ان لكل شىء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبرهم جلساء الله يوم القيامة وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة اللهم أجعل رزق آل محمد قوتا وفى رواية لمسلم كفافا ولابن ماجه من حديث أنس ما من أحد غني ولافقير الاود يوم القيامة أنه كان اوتي قوتا فى الدنيا، وللديلمي يقول الله

أَمَّا مَا وَرَدَ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الفَقْرِ وَنَحْوِهِ فَمَحْمُولٌ عَلَى الاضْطِرَارِ، وَاخْتُلِفَ فِي أَنَّ الفَقْرَ أَفْضَلُ أَمِ الغَنِيّ؟

تعالى يوم القيامة اين صفوتى من خلقى؟ فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القانعين بعطائى الراضين بقضائى ادخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون منها والناس فى الحساب يترددون ﴿ أماما وردا عوذبك من الفقر ﴾ كما للنسائى من حديث أبى سعيد الخدرى أنه عليه السلام كان يقول أعوذ بالله من الكفر والفقر وفى رواية للحاكم من الفقر والكفر ﴿ ونحوه ﴾ من حديث كاد الفقر أن يكون كفرا وقد تقدم ﴿ فمحمول على الاضطرار ﴾ بلا انضمام زهد فى الاختيار وهو أن يضطر الى الشيء ويفقده لان هذه الحالة لاشك أنها مشوشة او محمول على فقر القلب فعن ذى النون اقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لاصبر له ، وفى الجملة كل ماهو شاغل عن المولى فهو شؤم فى الدنيا والاخرى ، ومن هنا ورد اعوذ بك من شرفتنة الفقر وشرفتنة الغنى فان الفقر يكون منسيا كما أن الغنى يكون مطغيا هذا وسنذكر فضل الزهد فى محله الآتى *

وأما الآثار فى الرضى والقناعة فكثيرة منها قول عمر رضى الله عنه أن الطمع فقر واليأس غنى وأنه من ييأس عما فى ايدى الناس وقنع بما فى يده استغنى عنهم وفى دعائه عليه السلام اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه ، وقد قيل فى القناعة

اضرع الى الله لاتضرع إلى الناس … واقنع بيأس فان العز فى الياس
واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم … أن الغنى من استغنى عن الناس

وقال ابن مسعود مامن يوم الاوملك ينادى من تحت العرش ياابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك ، وقال أبو الدرداء مامن أحد الا وفى عقله نقص وذلك أنه اذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبين فى هدم عمره ثم لايحزنه ذلك ويح ابن آدم ماينفع مال يزيد وعمر ينقص، وقيل لبعض الحكماء ماالغناء فقال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك ، ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا فقال له ياابا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا فقال أفلا ادلك على من رضى بشر من هذا؟ قال بلى قال من رضى بالدنيا عوضا عن العقبى، وروى أن الله عز وجل قال فى بعض الكتب المنزلة ياابن آدم لوكانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت فاذا انا اعطيتك منها القوت وجعلت حسابها إلى غيرك فانا محسن اليك ﴿ واختلف فى أن الفقر ﴾ مع الصبر ﴿ أفضل ﴾ من الغنى مع الشكر ﴿ أم الغنى ﴾ مع الشكر افضل

وَالحَقُّ الاِخْتِلَافُ بِحَسَبِ الأَشْخَاصِ فَالْفَضْلُ بِقَدْرِ الفَرَاغِ عَنِ الشَّوَاغِلِ وَالدُّنْيَا إِنَّمَا حُــذِّرَ عَنْهَا

من الفقر مع الصبر فذهب الجنيد والخواص والا كثرون إلى فضل الفقر وخالفهم ابن عطاء كما تقدم وقد استدل عليه بان الغنى وصف الحق واجيب بان غناه سبحانه ليس بالاسباب فانقطع ولم ينطاق فى هذا الباب، واجيب أيضا بان التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ثم قيل بل هذا يدل على أن الفقر افضل لان صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لاينبغى أن ينازع فيها لما ورد الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى فيهما قصمته، وقال سهل حب العز والبقاء شرك فى الربوبية ولامنازعة فيهما لانهما من صفات الله قلت ويشير اليه قوله تعالى (والله الغنى وانتم الفقراء) ثم التحقيق ان الفقر والغنى إذا اخذا مطلقا لم يشك من قرأ الاخبار والآثار فى تفضيل الفقر وانما يتصور التردد فى مقامين احدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع وراض بالاضافة إلى غنى ينفق ماله فى الخيرات ليس حريصا على امساك المال وثانيهما فقير حريص مع غنى حريص اذ لايخفى ان الفقير القانع افضل من الغنى الحريص الممسك وان الغنى المنفق ماله فى الخير خير من الفقير الحريص اتفاقا واما الاول فربما يظن ان الغنى افضل من الفقير لانهما تساويا فى ضعف الحرص على المال والغنى متقرب بالخيرات والفقير عاجز عنه، وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فى غالب الظن فأما الغنى المتمتع بالمال وان كان فى مباح فلا يتصور ان يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ماسيأتى من سؤال الفقراء عما يوهم ترجيح الأغنياء ﴿ والحق الاختلاف بحسب الأشخاص ﴾ بل وتفاوت الأحوال كما يشير اليه قوله تعالى (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا) وفى الحديث القدسى «ان من عبادى من لايصلحه الا الفقر ولو أغنيته لفسد حاله وان من عبادى من لايصلحه الا الغنى ولو أفقرته لفسد حاله» وفى دعائه عليه السلام «اللهم وسع لى فى رزقى عند كبر سنى» ومن هنا قيل التسليم أسلم ومقام الرضاء اتم والله أعلم ويؤيده قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون) ﴿ فالفضل ﴾ أى زيادة الفضيلة ﴿ بقدر الفراغ عن الشواغل ﴾ أى الموانع عن تحصيل الفضائل ﴿ والدنيا انما حذر عنها ﴾ أى عن حبها

لِلشُّغْلِ عَنْهُ تَعَالَى وَكَمْ مِنْ فَقِيرٍ شَغَلَتْهُ وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ لَمْ تَشْغَلْهُ كَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَعَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ عَوْفٍ أَمَّا فِي حَقِّ الأَكْثَرِ فَالْفَقْرُ إِذْ هُوَ أَبْعَدُ عَنِ الْخَطَرِ وَالأُنْسِ

بِالدُّنْيَا وَالْقُدْرَةِ عَلَى الشَّهْوَةِ

﴿ للشغل عنه تعالى ﴾ بسببها وتوضيحه أن مالا يراد بعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده اذبه يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لعينها بل لكونها عائقة عن الوصول إلى الله ولا الفقر مطلوب لعينه ولكن لان فيه فقد العائق عن الله سبحانه ﴿ وكم من فقير شغلته ﴾ الدنيا وحبها وكسبها وصرفه الفقر عن المقصد كاكثر ابناء الدنيا ﴿ وكم من غني لم تشغله ﴾ الدنيا ولوا كثر في مالها وجاهها ﴿ كسليمان عليه السلام ﴾ وداود وابراهيم ﴿ وعبد الرحمن بن عوف ﴾ وعثمان بن عفان وذلك لان غاية المقصد في الدنيا هو حب الله والانس به ولا يكون ذلك الابعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قديكون من الشواغل كما ان الغنى قد يكون من الشواغل كما يشير اليه قوله عليه السلام « أعوذ بك من شر فتنة الفقر وشر فتنة الغنى » كما تقدم وانما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ولا يجتمع معه حب الله في القلب ، والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه او في وصاله ، وربما يكون شغله في الفراق اكثر ، وربما يكون في الوصال اكثر . والدنيا معشوقة للغافلين، فالمحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها ﴿ اما في حق الاكثر فالفقر ﴾ افضل ﴿ اذ هو ابعد عن الخطر ﴾ في الشغل عن المولى ﴿ والانس ﴾ اى وعن الاستيناس ﴿ بالدنيا والقدرة ﴾ اى وعن القوة ﴿ على الشهوة ﴾ اذ فتنة السراء اشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة ان لا تقدر ، ولذا الصحابة : بلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . ومن هنا قال عيسى عليه السلام : لا تنظروا إلى اموال أهل الدنيا فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم . وفي الخبر « ان لكل امة عجلا وعجل هذه الامة الدينار والدرهم » رواه الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة . وكان أصل عجل قوم موسى عليه السلام من حلية الذهب والفضة ايضا ، فاستواء المال والماء والذهب والحجر أنما يتصور للانبياء والاولياء ، ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله بطول المجاهدة هنالك اذ كان عليه السلام يقول للدنيا « اليك عني اليك عني » إذ كانت تتمثل له بزينتها ، رواه الحاكم . وكان

الاَّفِى الْمُضْطَرِّ لِاَنَّهُ يَمُوتُ جَبْرًا وَالْوَاجِدُ يَحْصُلُ الْمَعْرِفَةَ الاَّمَنْ لاَ يَتُوبُ عَنِ الْمَعَاصِى فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ وَكَذَا فِى نَفْسِ الْاَمْرِ فَوَرَدَ اللَّهُمَّ أَحْيِنِى مِسْكِينًا وَأَمِتْنِى مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِى فِى زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ بَلِّغْ عَنِّى الْفُقَرَاءَ أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ خِصَالٍ لَيْسَتْ لِلْأَغْنِيَاءِ أَمَّا الْخَصْلَةُ الْوَاحِدَةُ فَاِنَّ فِى الْجَنَّةِ غُرَفًا يَنْظُرُ اِلَيْهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الْأَرْضِ اِلَى نُجُومِ السَّمَاءِ لَا يَدْخُلُهَا اِلَّا نَبِىٌّ فَقِيرٌ أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ وَالثَّانِيَةُ

على كرم الله وجهه يقول : ياصفراء غرى غيرى ، يابيضاء غرى غيرى ، وذلك لاستشعاره فى نفسه ظهور مبادى الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه ﴿ الافى المضطر ﴾ فليس الفقر افضل فى حقه ﴿ لانه ﴾ أى المضطر ﴿ يموت جبرا ﴾ اى خاليا عن الخير قهرا ، وقد يكون ذلك كفرا ﴿ والواجد ﴾ بالنصب عطفا على الضمير وبالرفع على انه مبتدا خبره ﴿ يحصل المعرفة ﴾ والجملة حال ﴿ الامن ﴾ استثناء من المستثنى اى الامضطر ﴿ لايتوب عن المعاصى فالموت خير له ﴾ اى فالفقر الموجب للموت خير له ، اذ تقل معاصيه فى الديار ويتخلص هو عن الم الاضطرار ﴿ وكذا فى نفس الامر ﴾ أى وكما ان الفقر افضل فى حق الا كثر فكذا هو افضل فى نفس الامر ﴿ فورد اللهم احينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين ﴾ رواه الترمذى من حديث انس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد . وفيه مبالغة عظيمة فى مدح المساكين حيث لم يقل واحشرهم فى زمرتى ، وهو اما تواضع منه عليه السلام واما اراد بهم الانبياء والمرسلين . لان غالبهم كانوا فقراء ومساكين ، وفى رواية للترمذى زيادة يوم القيامة ، فقالت عائشة : لم يارسول الله ؟ قال « انهم يدخلون الجنة قبل اغنيائهم باربعين خريفا » ﴿ بلغ عنى ﴾ خطاب منه عليه السلام لمن جاء برسالة ﴿ الفقراء ﴾ من أصحابه الكرام والمعنى اخبر من قبلى الفقراء تسلية لهم حيث ماجعلوا اغنياء ﴿ أن لمن صبر ﴾ على الفقر ﴿ واحتسب ﴾ أى طلب من الله الاجر ﴿ منكم ﴾ ومن أمثالكم ﴿ ثلاث خصال ﴾ مختصة لكم ﴿ ليست للاغنياء ﴾ واحدة منها فضلا عن جميعها ﴿ أما الخصلة الواحدة فان فى الجنة غرفا ﴾ اى قصورا عالية ﴿ ينظر اليها أهل الجنة كما ينظر اهل الارض الى نجوم السماء لا يدخلها الا نبى فقير او شهيد فقير او مؤمن فقير ﴾ وهو من لا يكون صاحب نصاب ﴿ والثانية

يَدْخُلُ الفُقَرَاءُ الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ وَالثَّالِثَةُ إِذَا قَالَ الغَنِيُّ سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَقَالَ الفَقِيرُ مِثْلَ ذَلِكَ لَمْ يَلْحَقِ الغَنِيُّ بِالفَقِيرِ وَإِنْ أَنْفَقَ مَعَهَا عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ البِرِّ كُلُّهَا لِمَنْ جَاءَ بِرِسَالَةِ الفُقَرَاءِ إِنَّ الأَغْنِيَاءَ يَحُجُّونَ وَيَعْتَمِرُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَنَحْنُ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ

يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ﴾ وهذه الجملة رواها الترمذى من حديث أبى هريرة وصححه ﴿ والثالثة إذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير وأن انفق معها عشرة آلاف درهم ، وكذلك أعمال البر كلها لمن جاء ﴾ متعلق بيابلغ عنى أى قال النبى عليه السلام لمن جاء ﴿ برسالة الفقراء أن الاغنياء ﴾ يجوز فتح أن وكسرها ﴿ يحجون ويعتمرون ويتصدقون ﴾ بفضول اموالهم ﴿ ونحن عاجزون عن ذلك ﴾ فى تمام احوالهم . وفى الاحياء : روى فى الخبر « أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنياء بالخيرات والصدقات ، والحج والجهاد ، فعلمهم كلمات فى التسبيح وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما نال الاغنياء فعلم الاغنياء بذلك فكانوا يقولونه ، فعادوا إلى رسول الله ﷺ فاخبروه فقال عليه السلام « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » قال مخرجه متفق عليه من حديث أبى هريرة ونحوه انتهى . وقال فى الاحياء أيضا : وقد استشهد ابن عطاء بهذا أيضا قال وفيه نظر لان الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير فى التسبيح يزيد على ثواب الغنى ، وأن فوزهم بذلك الثواب هو (فضل الله يؤتيه من يشاء) فقد روى زيد بن اسلم عن أنس قال « بعث الفقراء رسولا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أنى رسول الفقراء اليك ، فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم ، جئت من عند قوم احبهم الله ، قال قالوا يارسول الله أن الاغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه ، ويعتمرون ولا نقدر عليه ، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم ، فقال عليه السلام بلغ عنى الفقراء » الحديث قال مخرجه : لم أجده هكذا بهذا السياق . والمعروف فى هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر « اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم ، فقال يامعشر الفقراء ألا ابشركم أن فقراء المهاجرين

وَلأَنَّ الغنى سَبَبُ طُول الحِسَاب وَالغُرُور فَإِنْ عُورِضَ بِأَنَّ الغنى صِفَتُه تَعَالَى وَالتَّخَلُّقُ بِأَخْلاَقِه مَنْدُوبٌ إِلَيْه وَبِأَنَّ الغَنِيَّ قَادِرٌ عَلَى العِبَادَاتِ المَالِيَّةِ دُونَ الفَقِيرِ لَمْ يُعْتَرَضْ لأَنَّ الغَنِيَّ بِالأَسْبَابِ وَالأَعْرَاضِ لَيْسَ مِنْ خُلُقِه تَعَالَى كَالتَّكَبُّرِ دُونَ اسْتِحْقَاقٍ

يدخلون الجنة قبل اغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام » ﴿ ولان ﴾ عطف على ورد فهو دليل ثان على أن الفقر أفضل فى نفس الامر وذلك لان ﴿ الغنى سبب طول الحساب ﴾ وهو نوع من العذاب ، ولذا قال أبو الدرداء: ما أحب أن لى حانوتا على باب المسجد لاتخطئنى صلاة ولاذكر واربح كل يوم اربعين دينارا ، واتصدق بها فى سبيل الله ، قيل وماتكره ؟ قال سوء الحساب . ومن هنا قال شقيق : اختار الفقراء ثلاثة اشياء : راحة النفس ، وفراغ القلب ، وخفة الحساب . واختار الاغنياء ثلاثة اشياء : تعب النفس، وشغل القلب ، وشدة الحساب ﴿ والغرور ﴾ اى وسبب طول الغرور فى الامور الموجبة للحجاب، فقد قال بعض السلف : مثل من تعبد وهو فى طلب الدنيا كمثل من يطفىء النار بالحلفاء ، ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك، وقال أبو سليمان الدارانى : تنفس فقير فى شهوة لايقدر عليها أفضل من عبادة غنى الف عام، وعن الضحاك قال : من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيه فصبر واحتسب كان خيرا له من الف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله عز وجل . وقال رجل لبشر بن الحارث : ادع الله لى فقد أضرنى العيال ، فقال : إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولاخبز فادع الله لى فى ذلك الوقت فان دعاءك افضل من دعائى . وكان يقول : مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر على جيد الحسناء . وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الاغنياء ﴿ فان عورض ﴾ ماذكر من ادلة تفضيل الفقر على الغنى ﴿ بان الغنى صفته تعالى والتخلق باخلاقه مندوب اليه ﴾ كما ورد «تخلقوا باخلاق الله » ﴿ وبان الغنى قادر على العبادات المالية ﴾ من الزكاة والحج والعمرة ﴿ دون الفقير ﴾ أى بخلافه ﴿ لم يعترض ﴾ أى لم يقبل اعتراضه فى الامرين فهما لف ونشر هما مرتبا قوله ﴿ لان الغنى بالاسباب والاعراض ﴾ الواقعة من غير الاكتساب ﴿ ليس من خلقه ﴾ أى صفته ﴿ تعالى كالتكبر ﴾ بهما ﴿ دون استحقاق ﴾ للغنى والكبرياء وذلك لان الله غنى بذاته لابما يتصور زواله والتكبر لايليق بالعبد لانه من خاصة صفاته

وَالعِبَادَةُ المَالِيَّةُ انَّمَا تُوجِبُ الثَّوَابَ لِتَرْكِ الدُّنْيَا كَالتَّوْبَةِ لِتَرْكِ الذَّنْبِ فَلَوْ فُضِّلَ الغَنِيُّ عَلَى الفَقِيرِ لَفُضِّلَ العَاصِي عَلَى المُتَّقِي وَحَقُّهُ أَنْ لَا يَكْرَهَهُ مِنْ حَيْثُ انَّهُ فِعْلُهُ تَعَالَى بَلْ يَتَقَلَّدُ مِنْهُ المِنَّةَ كَتَقَلُّدِ المَحْجُومِ مِنَ الحَاجِمِ وَالَّا يَأْثَمُ وَيَسْتُرُ أَمْرَهُ بِالتَّجَمُّلِ وَالتَّعَفُّفِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ

اللائقة بذاته كما اوضحناه فيما تقدم ﴿ والعبادة ﴾ أى ولان العبادة ﴿ المالية أنما توجب الثواب ﴾ فى العقبى ﴿ لترك الدنيا ﴾ للاشتغال بخدمة المولى ﴿ كالتوبة ﴾ فى الدنيا توجب المثوبة فى الاخرى ﴿ لترك الذنب ﴾ أى مخالفة المولى ﴿ فلو فضل الغنى على الفقير ﴾ بهذا الاعتبار ﴿ لفضل العاصى على المتقى ﴾ أى الطائع من الابرار وهو لا يصح عند اولى الاستبصار ﴿ وحقه ﴾ أى حق الفقير الواجب عليه عشرون حقا ﴿ ان لا يكرهه ﴾ أى الفقر ﴿ من حيث أنه فعله تعالى ﴾ شرعا وأن كان كارها للفقر طبعا ، كالمحجوم يكون كارها للحجامة ولا يكره فعل الحجام الا كارها للحجامة ﴿ بل ﴾ ربما ﴿ يتقلد منه ﴾ سبحانه ﴿ المنة كتقلد المحجوم ﴾ أى كتقلده المنة ﴿ من الحاجم ﴾ ثم عدم الكراهة من هذه الحيثية واجب ونقيضه حرام ويحبط ثواب الفقر . وهذا معنى قوله ﴿ والا يأثم ﴾ أى وأن لم يحبه من حيث أنه فعله تعالى يأثم لعدم الرضاء بالقضاء ، وهو واجب على العباد شرعا وان كان الفقر مكروها عنده طبعا وارفع من هذا المقام أن لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به وارفع منه أن لا يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى واثقا به فى قدر ضرورته أنه يأتيه الرزق لا محالة عند المولى ، ويكون كارها للزيادة على الكفاف ، وقد قال على كرم الله وجهه : أن لله عقوبات للفقر ومثوبات بالفقر ، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة ان يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ، ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره . ومن علامته إذ كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه ويكثر الشكاية والتسخط بالقضاء ، وهذا آداب باطنه مع ربه ﴿ ويستر ﴾ أى ومن حق الفقير فى ادب ظاهره أن يستر ﴿ امره ﴾ ويكتم فقره ويستر أيضا سره فقد قال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر . وروى ومن كنوز البر كتمان المصائب ، ﴿ بالتجمل ﴾ أى باظهار الجمال كأنه صاحب المال كما قال صاحب هذا الحال ، واذا تصبك خصاصة فتجمل ❁ وقال سفيان : افضل الاعمال التجمل عند شدة الاحوال ﴿ والتعفف ﴾ عن السؤال واظهار الحال ، وقد وصف الله اصحاب الصفة من كمل الرجال بقوله ﴿ يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف ﴾ اى اظهار

فورد ان الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ولا يتواضع لغني للغنى فورد فيه «من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه» بل يترفع عليه فورد أنه صدقة ولا يتوانى فى العبادة ويتصدق بالفاضل فورد فيه «ان درهما أفضل من مائة ألف»

العفة حال المحنة ﴿ فورد ان الله يحب الفقير المتعفف اباالعيال ﴾ رواه ابن ماجه من حديث عمران بن الحصين ﴿ ولا يتواضع ﴾ أى وحق الفقير ان لا يتواضع ﴿ لغنى ﴾ بالمال ﴿ للغنى ﴾ أى لاجل ماله من مال المستغنى عن طلب الكمال من العلوم والاعمال ﴿ فورد فيه ﴾ أى فى ذمه ﴿ من تواضع لغنى ﴾ لاجل غناه ﴿ ذهب ثلثا دينه ﴾ رواه البيهقى وغيره . وروى الديلمى من حديث أبى ذر بلفظ ولعن الله فقيرا تواضع لغنى من أجل ماله من فعل ذلك منهم فقد ذهب ثلثا دينه » انتهى . وذلك لان آلة العبادة قلب ولسان وجوارح ، وفى تعظيم الغنى لابد من استعمال اللسان والجوارح ، وفيه تنبيه نبيه على أنه لو عظمه بقلبه ذهب كل دينه ﴿ بل ﴾ حق الفقير ان ﴿ يترفع عليه ﴾ أى على الغنى استغناء بربه الغنى المغنى ﴿ فورد أنه ﴾ أى التكبر على الغنى المتكبر ﴿ صدقة ﴾ أى ثوابه صدقة اوصدقة من صدقات الفقير تدل على صدقه فى باب الفقر ، وفى رواية ته مع التاهى فانه صدقة . وعن على كرم الله وجهه : ما احسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله ، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة لله ، فهذه رتبة واقل منها أن لا يخالط الاغنياء ولا يرغب فى مجالستهم لان ذلك مبادى الطمع . قال الثورى: إذا خالط الفقير الاغنياء ورغب فى مجالستهم فاعلم أنه مراء ، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا مال الفقير الى الاغنياء انحلت عروته ، فاذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، واذا سكن اليهم ضل سعيه ومحنته ﴿ ولا يتوانى ﴾ أى وحقه أن لا يفتر عن الطاعة ولا يتكاسل ﴿ فى العبادة ﴾ بسبب فقره وقلة صبره ﴿ ويتصدق بالفاضل ﴾ أى وحقه أن لا يمنع ما يفضل عنه من حاجته كطعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ويدفع عنه حره وبرده ، وبيت يكنه ويستره فان ذلك جهد المقل ، وفضله اكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى ﴿ فورد فيه ﴾ أى فى حقه ﴿ ان درهما ﴾ من الفقير ﴿ أفضل من مائة الف ﴾ أى مائة الف درهم من الغنى ، وفى رواية «سبق درهم مائة الف درهم » وعن أبى هريرة قال عليه السلام «درهم من الصدقة افضل عند الله من مائة

وَيَسْتَقْرِضُ تَحْسِينًا لِلظَّنِّ بِهِ تَعَالَى لَا تَعْوِيلًا عَلَى السُّلْطَانِ الظَّالِمِ فَيَقْضِي إِنْ وَجَدَ حَلَالًا وَإِلَّا يَقْضِيهِ تَعَالَى وَيُرْضِي الْخُصَمَاءَ وَيَكْشِفُ الْحَالَ عَنِ الْمُقْرِضِ وَلَا يَخْدَعُ بِالْمَوَاعِيدِ وَيَجِبُ الْقَضَاءُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَالصَّدَقَاتِ وَلَا يَسْأَلُ فَهُوَ فِي الْأَصْلِ حَرَامٌ لِتَضَمُّنِهِ الشِّكَايَةَ مِنْهُ تَعَالَى وَإِذْلَالَ النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ لِغَيْرِهِ

الف ، قيل وكيف يارسول الله ؟ قال اخرج رجل من عرض ماله مائة الف درهم فتصدق بها ، واخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه ، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة الالف » رواه النسائى ﴿ ويستقرض ﴾ أى وحقه أن يستقرض ﴿ تحسينا للظن به تعالى ﴾ أن يقضيه من خزائن كرمه وجوده ﴿ لا تعويلا ﴾ أى اعتمادا ﴿ على السلطان الظالم ﴾ وأعوانه وجنوده ﴿ فيقضى ﴾ دينه بنفسه ﴿ ان وجد حلالا ﴾ بعده ﴿ والا ﴾ أى وان لم يجد حلالا فلا يأخذه فانه حينئذ ﴿ يقضيه تعالى ﴾ فى الدنيا ﴿ ويرضى الخصماء ﴾ فى العقبى امابفضله أو بعدله بأن يعطى الخصم منزلة يرضى بها عن حقه ﴿ ويكشف الحال ﴾ أى وان يظهره ولا يخفيه ﴿ عن المقرض ﴾ لئلا يدخل تحت وعيد « من غشنا فليس منا » ﴿ ولا يخدع ﴾ أى وأن لا يخدع المقرض ﴿ بالمواعيد ﴾ الكاذبة ﴿ ويجب القضاء ﴾ أى قضاء دين الفقير حيث صرفه فى الطاعات ﴿ من بيت المال ﴾ الموضوع لمهمات المسلمين من الملمات ﴿ والصدقات ﴾ أى الزكاة ﴿ ولا يسال ﴾ أى وحقه أن لا يسال من الناس أصلا ﴿ فهو ﴾ أى السؤال من الخلق ﴿ فى الأصل ﴾ أى أصل وضع الشرع ﴿ حرام ﴾ وانما يحل لعوارض تشرع من ضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فان كان عنها بد فهو حرام وانما كان الاصل فيه التحريم لثلاثة أمور محرمة ﴿ لتضمنه الشكاية منه تعالى ﴾ اذ السوال اظهار للفقر وفقد للمال وذكر لقصور نعمة الله عنه فى الحال ، وهو عين الشكوى من المولى وكما أن العبد المملوك اذا سال غير سيده كان سؤاله تشنيعا على مالكه فكذا سؤال العبد تشنيع على ربه سبحانه وهذا ينبغى أن يحرم ولا يحل الا لضرورة كما لا تحل الميتة الا لضرورة ﴿ واذلال النفس ﴾ أى ولتضمنه اهانة النفس ﴿ المومنة لغيره ﴾ سبحانه وقد قيل السوال ذل ولو أين الطريق وورد « لا يحل لمومن أن يذل نفسه » يعنى لغير الله بل عليه ان يذل نفسه لمولاه فان فيه العزة والجاه فقد قال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فاما سائر الخلق فانهم عباد امثاله فلا ينبغي

وَايذاءِ المَسْؤولِ فَرُبَّمَا يعطى حَيَاءً فَوَرَدَ مَا أُحِلَّ مِنَ الفَوَاحِشِ غَيْرَ مَسْأَلَةِ النَّاسِ

أن يذل لهم الا لضرورة فى أحواله ففى السوال ذل السائل بالاضافة الى المسؤل ، ومن دعاء الامام أحمد : اللهم كما صنت وجهى عن سجود غيرك فصن وجهى عن مسالة غيرك ﴿ وايذاء المسئول ﴾ اى ولتضمنه ايذاءه غالبا لانه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه ﴿ فربما يعطى حياء ﴾ من السائل او رياء اذا كان السؤال فى المحافل فهو حرام على الآخذ وان منع ربما استحى وتاذى فى نفسه بالمنع اذيرى نفسه فى صورة البخلاء ، ففى البذل نقصان ماله وفى المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب فى الايذاء والايذاء حرام الا لضرورة ﴿ فورد ﴾ فى كون السوال فى الاصل حراما « (ما احل من الفواحش غير مسالة الناس) » ولفظ الاحياء مسالة الناس من الفواحش ما احل من الفواحش غيرها ، قال مخرجه لم اجد له اصلا انتهى ، فورد « من سال عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم ومن سال وله مال يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه دظم يتقعقع ليس عليه لحم » رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الحنظلية ، ولمسلم من حديث أبى هريرة « من سأل الناس أموالهم تكثرا فانما يسأل جمرا » ، وللشيخين من حديث ابن عمر « مايزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم » ، ولاصحاب السنن من حديث ابن مسعود « من سأل وله مايغنيه كانت مسألته خدوشا وكدوحا فى وجهه » ولمسلم من حديث عوف بن مالك الاشجعى « أنه عليه السلام بايع قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ، ثم قال كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيئا ، ولقد كان بعضهم يقع السوط من يده فينزل عن فرسه و يتناوله ولا يقول لاحد ناوله » ولابن ابى الدنيا وغيره من حديث أبى سعيد الخدرى « من سالنا اعطيناه ومن استغنى اغناه الله ، ومن لم يسالنا فهو أحب الينا » وللبزار والطبرانى من حديث ابن عباس « استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك » واسناده صحيح ، وفى رواية فتغنموا ولو بحزم الحطب . فهذه الاحاديث صريحة فى تحريم السؤال الا للفقير . قال فى الاحياء : وتقديره عسير اذ ليس الينا وضع التقدير ، بل يستدرك ذلك بالتوقيف والتقرير ، وقد ورد فى الحديث « استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره . قالوا وما هو ؟ قال غداء يوم وعشاء ليلة » كذا فى الاحياء قال مخرجه : هو من حديث سهل بن الحنظلية قالوا مايغنيه ؟ قال مايغديه او يعشيه » ولاحمد من حديث على باسناد حسن « قالوا وماظهر غنى قال عشاء ليلته » وهذا هو المختار من مذهبنا الحنفية . وفى حديث آخر « من سال وله خمسون درهما

الاَّ لِضَرُورَةٍ تُمِيتُ أَوْ تُمْرِضُ لِمَنْ عَجَزَ عَنِ الكَسْبِ أَوِ اسْتَغْرَقَ فِي طَلَبِ العِلْمِ أَوْ تَعِبَ وَفِيهِ التَّرْكُ أَوْلَى

اوعدلها من الذهب فقد سال الحافا» وفى لفظ آخر «اربعون درهما» ولعل هذه الاحاديث محمولة على حالة احتياج السائل لغير الاكل من الثوب اوالبيت ونحوهما من ضروريات معيشته . وقيل يجوز للسائل أن يسال معيشة سنة لاسيما اذا كان معيلا اولا يعطى العطاء الافى وقت واحد ، والله سبحانه أعلم ﴿ الا ﴾ أى وحقه ان لايسال احدا الا ﴿ لضرورة تميت ﴾ أى تقتله ﴿ او تمرض ﴾ أى تجعله مريضا اوتجعله عريانا ونحوها فالسؤال حينئذ مرخص فيه لكن ﴿ لمن عجز عن الكسب ﴾ بحرفة ونحوها ﴿ اواستغرق ﴾ وقته ﴿ فى طلب العلم ﴾ الشرعى من الامر الاصلى او الفرعى، لا من استغرق فى طلب العبادة ، فان نفع هذا قاصر ونفع ذلك متعد ، ولان زيادة العبادة نافلة وزيادة العلم فريضة ﴿ اوتعب ﴾ أى اولمن تعب بسبب الكسب وضعف عن الطاعة ﴿ وفيه ﴾ أى فى حصول التعب ﴿ الترك ﴾ للسؤال ﴿ أولى ﴾ مع جواز السؤال . وفى الجملة ورد مايدل على الرخصة فى السؤال حيث قال عليه السلام «للسائل حق وأن جاء على فرس» رواه أبو داود من حديث الحسين بن على، ولابى داود والترمذى وقال حسن صحيح «ردوا السائل ولو بظلف محرق» ، وقد سأل ثلاثة من الانبياء فى موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام . وروى : أن بعضهم رأى ابا الحسن الثورى يمد يده ويسأل الناس فى بعض المواطن ، قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له ، فأتيت الجنيد فاخبرته فقال لا يعظم هذا عليك ، فان الثورى لم يسال الناس لتعطيهم ، أنما يسالهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لايضره ، ثم قال الجنيد : هات الميزان فوزن مائة درهم ، ثم قبض قبضة والقاها على المائة ، ثم قال احملها اليه ، فقلت فى نفسى : انما يوزن الشىء ليعلم مقداره فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم ، فاستحييت أن اساله ، فذهبت بالبصرة الى الثورى ، فقال هات الميزان فوزن مائة وقال ردها عليه ، وقال : قل له انا لا اقبل منك انت شيئا ، واخذ مازاد على المائة ، قال فزاد تعجبى ، فسالته فقال : الجنيد رجل حكيم يريد أن ياخذ الحبل بطرفيه ، وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عزوجل فاخذت ماكان لله ورددت ماجعل لنفسه ، قال فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال : أخذ ماله ورد مالنا الله المستعان ، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم ، وكيف خلصت لله أعمالهم ، حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير

وَيَحْتَرِزُ عَنِ الشِّكَايَةِ فَيَقُولُ انِّى مُسْتَغْنٍ لَكِنِ النَّفْسُ تُرِيدُ الشَّهْوَةَ وَعَنِ الاذْلَالِ فَيَسْأَلُ قَرِيبًا أَوْ كَرِيمًا لَايَمُنُّ بَلْ يَقْبَلُ المِنَّةَ وَعَنِ الايذَاءِ فَلَا يَسْأَلُ فِى الجَمْعِ الَّا عَمَّنْ يَسْتَحِى عَنِ الرَّدِّ فَيَحْرُمُ انْ أَعْطَى حَيَاءً مِنْهُ أَوْ مِنْ حَاضِرٍ كَمَا لَوْ أَخَذَ عُنْفًا وَالفَارِقُ القَرَائِنُ وَفَتْوَى القَلْبِ وَيَشْكُرُهُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ القَبْضِ بِالاشْتِغَالِ بِالطَّاعَةِ وَالانْفَاقِ فِيهَا

مناطقة باللسان ، ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الاسرار ، وذلك نتيجة اكل الحلال، وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على المولى بكنه الهمة ﴿ ويحترز ﴾ أى وحقه أن يحترس ﴿ عن الشكاية ﴾ من الله فى سؤاله ﴿ فيقول ﴾ كاتما لحاله ﴿ أنى مستغن ﴾ بالقلب عن السؤال ثقة بالله الملك المتعال ﴿ لكن النفس تريد الشهوة ﴾ فتوقعنى فى السؤال ﴿ وعن الاذلال ﴾ أى ويحترز عن التذلل فى السؤال فيجتنب اجنبيا لئيما من ارباب الاموال ﴿ فيسال قريبا ﴾ أى ذا قرابة حميما من اهل الكمال ، من وصفه أنه لا ينقصه ذلك فى عينه ولا يزدريه بسبب فقره و كذا حكم صديقه ، فكان ابراهيم النخعى يسال اصحابه الدرهم والدرهمين ويعرض عليه غيرهم المائتين فلا ياخذه ﴿ اوكريما ﴾ من ذوى الجمال من نعته أنه ﴿ لا يمن ﴾ على السائل بالعطاء والنوال ﴿ بل يقبل المنة ﴾ للسائل عليه فى اخذ المال ولو بالسؤال . فقد قال بشر الحافى : ماسالت احدا قط شيئا الا السرى السقطى لانه قد صح عندى زهده فى الدنيا . فهو يفرح بخروج الشىء من يده ويتبرم ببقائه عنده فاكون عونا له على ما يحب ﴿ وعن الايذاء ﴾ أى ويحترز عن ايذاء المسؤل ﴿ فلا يسال فى الجمع الا عمن يستحي عن الرد ﴾ والمنع وأن لم يكن فى الجمع ﴿ فيحرم ﴾ حينئذ ما اخذ ﴿ ان اعطى ﴾ المسؤل ﴿ حياء منه ﴾ أى من السائل ﴿ أو من حاضر ﴾ آخر ﴿ كما لو اخذ عنفا ﴾ أى غصبا ، اذ لافصل بين الاخذ بضرب العصا اوبسوط الحياء ، بل ضرب الباطن اشد نكاية عند العقلاء ﴿ والفارق ﴾ بين عطائه لله او حياء من الخلق ﴿ القرائن ﴾ الموجودة فى تلك الحالة ﴿ وفتوى القلب ﴾ الخالى عن الميل الى المال وسبيل الخلاص عن الايذاء ، أن يلقى الكلام تعريضا فى الصحبة بحيث لايقدم على البذل الا متبرع بصدق الرغبة ، وأن لايعين شخصا للسؤال لئلا يشوش له البال ﴿ ويشكره ﴾ أى وحق الفقير أن يشكر الله ﴿ سبحانه بعد القبض ﴾ أى اخذ العطاء بثلاثة من الاشياء ﴿ بالاشتغال بالطاعة ﴾ قولا أو فعلا مثل أن يقول الحمد لله او يصلى ركعتين لله ﴿ والانفاق فيها ﴾ أى وبصرف

فَهُوَ الْأَحَبُّ أَوْفِى الْمُبَاحِ وَمَعْرِفَةُ فَضْلِ الْفَقْرِ وَشُكْرُ الْمُعْطِى بِكَوْنِهِ سَبَباً فَوَرَدَ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللّٰهَ وَيَدْعُو لَهُ فَوَرَدَ مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا فَادْعُوا لَهُ وَلَا يَسْتَصْغِرُ وَلَا يَفْزَعُ بِالْمَنْعِ وَيَحْتَرِزُ عَنِ الشُّبْهَةِ فَوَرَدَ (وَمَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً

العطاء فى طاعة المولى ﴿ فهو ﴾ أى الانفاق فى الطاعة ﴿ الاحب ﴾ أى الافضل من غيره المستفاد من قوله ﴿ او فى المباح ﴾ ينفق مثل فضول الحلال ﴿ ومعرفة فضل الفقر ﴾ أى وبمعرفته المثمرة لترك التواضع المفرط للمعطى ﴿ وشكر المعطى ﴾ أى وبثنائه لجزائه ﴿ بكونه سببا ﴾ فى عطائه ﴿ فورد من لم يشكر الناس لم يشكر الله ﴾ رواه أحمد والترمذى وحسنه عن أبى سعيد ، وذلك لا ينافى رؤية النعمة من الله ، أما اذا غفل عن الله فى اخذ العطاء وأثنى على المخلوق وشكره بالثناء والدعاء فلا يكون شكره حينئذ شكرا لله ﴿ ويدعو له ﴾ أى وحقه أن يدعو بالخير للمعطى فيقول : طهر الله قلبك فى قلوب الابرار ، وزكى عملك فى عمل الاخيار : او يقول : بارك الله لك فيما اعطيت وفيما ابقيت ﴿ فورد من اسدى ﴾ أى أوصل ﴿ اليكم معروفا ﴾ أى احسانا ﴿ فكافئوه ﴾ أى جازوه بمثله لقوله تعالى (هل جزاء الاحسان الا الاحسان) ﴿ فان لم تستطيعوا ﴾ على المكافاة فى العطاء ﴿ فادعوا له ﴾ باظهار الثناء واسرار الدعاء ، فللترمذى والنسائى وابن حبان عن اسامة « من صنع اليه معروفا فقال لفاعله جزاك الله خيرا فقد ابلغ فى الثناء » وللشيرازى عن ابن عباس « من اسدى إلى قوم نعمة فلم يشكروها له فدعا عليهم استجيب » ولابن عساكر عن على « من صنع إلى أحد من اهل بيتى يدا كافأته عليها يوم القيامة » ﴿ ولا يستصغر ﴾ أى وحقه أن لا يستحقر العطاء ولا يترك الدعاء والثناء ؛ لحديث « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر » رواه عبد الله بن احمد فى زوائد المسند عن عثمان بن بشير ﴿ ولا يفزع ﴾ اى وان لا يجزع ﴿ بالمنع ﴾ فان العطاء والمنع والضر والنفع بيد الله سبحانه . فورد « لا مانع لما اعطيت ولا معطى لما منعت » وفى الحكم لابن عطاء : ربما اعطاك فمنعك ، وربما منعك فاعطاك وقال تعالى (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) وما منع عبد عن باب الا وفتح له عن ابواب ﴿ ويحترز ﴾ أى وحقه أن يحترز ﴿ عن الشبهة ﴾ أى تناولها ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ أى من الشدائد

وَيرزقه من حيث لايحتسب) وَلا يَاخذ أكثر من قوت يومه وَليلته فهوَ العزيمة وَالرخصة قوت سنة لتجدد سبب الدخل بعدها وكان عليه السلام لا يَاخذ للعيال أكثر منه بل يؤثر شيئًا منه حتى ينتهي قبل مضى السنة وهو الوَسط المرضى من الروايات فورد اربعون أوخمسون وَنصاب الزكاة وقيمة الضيعة أو البضاعة المحصلة للغنى

الدنيوية والاخروية ، و يجعل له من كل ضيق فرجا ومن كل عسر يسرا ﴿ ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾ رزقا حلالا طيبا من غير حساب ﴿ ولا ياخذ ﴾ أى وان لا يقبل ﴿ اكثر من قوت يومه وليلته ﴾ أن كان من الاقوياء ﴿ فهو ﴾ أى أخذ قوت اليوم ﴿ العزيمة ﴾ التى ياخذبها الانبياء والاولياء ﴿ والرخصة ﴾ للضعفاء ، ومن له العيال والنساء ﴿ قوت سنة لتجدد سبب الدخل ﴾ وهو مايدخل على الانسان من ضيعته وزراعته ﴿ بعدها ﴾ أى بعد تمام سنته ﴿ وكان عليه السلام لا ياخذ ﴾ اى لايدخر ﴿ للعيال اكثر منه ﴾ اى من قوت سنة ﴿ بل يؤثر شيئا منه ﴾ اى من قوت سنته للفقراء ﴿ حتى ينتهى ﴾ أى يفرغ ما ادخره ﴿ قبل مضى السنة وهو ﴾ اى ادخار قوت السنة ﴿ الوسط ﴾ اى الافضل المتوسط بين الحالات ﴿ المرضى من الروايات ، فورد اربعون ﴾ يوما ﴿ اوخمسون ﴾ يوما فى مدة جواز الادخار ، وا وللشك اوالتنويع ﴿ ونصاب الزكاة ﴾ وهوعشرون دينارا اواربعمائة درهم ﴿ وقيمة الضيعة ﴾ اى المزرعة فيستغنى بها طول عمره ، وفى معناها قيمة البيوت والحوانيت المستقلة لفوائد الغلة ﴿ اوالبضاعة ﴾ اى قدر رأس مال التجارة ﴿ المحصلة للغنى ﴾ بسبب الربح الكافى للمعيشة ، فيتجر بها ويستغنى عن غيرها . وفى الاحياء: ان فى الادخار ثلاث درجات : أحدها ان لا يدخر الا ليومه وليلته وهى درجة الصديقين . وثانيتها ان يدخر لاربعين يوما ، فايما زادعليه دخل فى طول الامل . وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله لموسى عليه السلام ، ففهم منه الرخصة فى أمل الحياة أربعين يوما وهذه درجة المتقين ، ثالثتها ان يدخر لسنة وهى أقصى المراتب ، وهى رتبة الصالحين . ومن زاد فى الادخار على هذا فهو داخل فى غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية ، فغنى الصالح الضعيف لطمأنينة قلبه فى قوت سنة ، وغنى الخصوص فى أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص فى يوم وليلة . وقد قسم النبى عليه السلام لنسائه على مثل هذه الاقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عنـــد

وَيَسْتُرَ تَحَامِياً عَنْ هَتْكِ المُرُوءَةِ وَكَشْفِ الحَاجَةِ وَالحَسَدِ وَالغِيبَةِ وَسُوءِ الظَّنِّ بِهِ وَعَنْ اعْلَانِ عِبَادَةِ المُعْطِي وَمَذَلَّةِ النَّفْسِ المُؤْمِنَةِ فَهُوَ حَرَامٌ وَشُبْهَةِ الشَّرِكَةِ فَوَرَدَ مَنْ اُهْدِيَ اِلَيْهِ هَدِيَّةٌ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ فَهُمْ شُرَكَاؤُهُ فِيهَا وَيُعْرَفُ بِكَرَاهَةِ ظُهُورِ أَخْذِ غَيْرِهِ كَأَخْذِهِ

حصول ما يحصل وبعضهن قوت أربعين يوما وبعضهن يوما وليلة ، منهن عائشة وحفصة . وقد سكت عنه مخرجه ﴿ ويستر ﴾ أى وحقه ان يستر السوال او أخذ النوال ويكتمه فيسال فى الخلاء دون الملاء ﴿ تحاميا عن هتك المروءة ﴾ أى تحفظا عن خرق الفتوة فانها تقتضى عدم السوال فى حال يوجب الايذاء، او مروءة المسؤول ان رد السائل مع القدرة والقوة ﴿ وكشف الحاجة ﴾ أى وتحاميا عن اظهار الفقر والفاقة وقد تقدم ان من كنوز البر كتمان الفقر ﴿ والحسد ﴾ أى وعن اظهار الحسد الذى لا يخلو من الجسد ﴿ والغيبة ﴾ بالطعن عليه بالغيبة ﴿ وسوء الظن به ﴾ فى كونه غنيا ، ويظهر الفقر الذى يقتضى خلقا دنيا ، وهذا كله من الكبائر فصيانتهم عن هذه الجرائم أولى ، وذا انما يحصل بستر السوال والاخذ كما لا يخفى ﴿ وعن اعلان عبادة المعطى ﴾ فان الاخفاء افضل فى الصدقة لقوله تعالى (ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) وفى ستر السوال واخذ النوال اعانة للمعطى على أسرار والعمل واخفائه الذى هو الاكمل والاعانة على اتمام المعروف معروف عند الكمل ﴿ و ﴾ عن اعلان ﴿ مذلة النفس المومنة فهو حرام ﴾ من غير الضرورة ﴿ وشبهة الشركة ﴾ أى وتحاميا عنها ﴿ فورد من أهدى اليه هدية وعنده قوم ﴾ اواحد ﴿ فهم شركاؤه فيها ﴾ والمراد بهم هم الذين يداومون مجلسه ويعتكفون بابه ويتفقدون اموره، لا كل من كان جالسا فى ذلك الوقت عنده كذا فى أصول الترمذى. والحديث رواه الطبرانى من حديث الحسن بن على بلفظ « جلساؤه شركاوه فيها» وعليه البخارى بصيغة تمريض. قال السيوطى: واخرجه العقيلى من حديث عائشة انتهى . واما حديث «الهدايا تشترك» فلا أصل له وكذا «الهدية لمن حضر» الا من حيث المعنى من غير اعتبار المبنى ﴿ ويعرف ﴾ من ستر سواله واخذه تحاميا عن هتك ستر المروءة الى آخره ﴿ بكراهة ظهور اخذ غيره كاخذه ﴾ أى ككراهة ظهور اخذ نفسه . فورد « لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه

وَيُظْهِرَ قَصْدَ الاخْلَاصِ وَاسْقَاطَ الجَاهِ وَهَضْمِ النَّفْسِ وَأَدَاءُ الشُّكْرِ فَوَرَدَ (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيُعْرَفُ بِارَادَةِ ظُهُورِ عَطَاءِ السَّاتِرِ لَهُ كَعَطَاءِ الْمُظْهِرِ لَهُ وَأَمَّا انْ بَلَغَ حَدًّا يَسْتَوِي فِيهِ السِّرُّ وَالعَلَانِيَةُ فَكِبْرِيتٌ أَحْمَرُ وَيَتْرُكُ مَا فِيهِ السُّمْعَةُ وَالرِّيَاءُ تَحَامِيًا عَنِ الاعَانَةِ عَلَى الاثْمِ وَالأَوْلَى أَنْ لَا يَأْخُذَ الاَّ لِلْحَاجَةِ

ويكره لاخيه مايكره لنفسه» ﴿ ويظهر ﴾ أى وحقه أن يظهر السؤال واخذ النوال ﴿ قصد الاخلاص ﴾ فى تصحيح الحال ، والمعنى أن من ترك السؤال فى الملأ لئلا يعيب عليه الخلق فى الخلاء فهذا نوع من الرياء ، فيصح له أن يظهر اخذ العطاء ليتخلص من شائبة الرياء ﴿ واسقاط الجاه ﴾ واسقاط المنزلة عند ارباب الدنيا ﴿ وهضم النفس ﴾ أى ولرياضتها فى طريق المولى النافعة له فى العقبى ﴿ واداء الشكر ﴾ أى ولادائه لنعمة الفقر ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل لبيان مدح اظهاره ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ ولبيان ذم اسراره ﴿ ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وهذا أنما يصح لمن يتلذذ بالفقر والبلاء كما يتلذذ غيره بالسعة والنعماء بل يكون ممن يقتدى به الصلحاء ، وينفق على فضله العلماء فيظهر الشكر على الفقر ، ليعلم أن موجب فضله الفقر المقرون بالشكر ﴿ ويعرف ﴾ من يظهر السؤال قصدا لاداء الشكر فى نعمة الفقر ﴿ بارادة ظهور عطاء الساتر له ﴾ أى المعطى ﴿ كعطاء المظهر له ﴾ بل ربما يرد العطاء على وجه الاسرار ويقبله على طريق الاظهار عكس فعل بعض الابرار ﴿ وأما ان بلغ حدا يستوى فيه السر والعلانية ﴾ فى حقه ﴿ فكبريت أحمر ﴾ أى فهو كبريت أحمر عزيز الوجود فى دائرة الشهود بل كعنقاء مغرب يسمع لها اسم ولا يرى له جسم ﴿ ويترك ﴾ أى وحقه أن يترك ﴿ ما ﴾ أى سؤال ما أو اخذ ما يدخل ﴿ فيه ﴾ أى عطائه ﴿ السمعة والرياء ﴾ وكذا المنة والايذاء ﴿ تحاميا عن الاعانة على الاثم ﴾ قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وكان سفيان الثورى يرد ما يعطى ويقول: لو علمت انهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لاخذت ، وعوتب بعضهم فى رد ما كان يأتيه من صلة قال : انما ارد صلتهم اشفاقا عليهم ونصحالهم ، لانهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم بهم فتذهب اموالهم وتحبط اجورهم ، وتفسد احوالهم ﴿ والاولى أن لا يأخذ الا للحاجة

اَلَيْه فَوَرَدَ مَاالْمُعْطى مِنْ سَعَة بأعْظَمِ أجْرًامِنَ الآخذ اذاكَانَ مُحْتَاجًا اَلَيْه أَو التَّفْرِيق عَلَى الفُقَرَاءِ فيعَجِّلُ تحَامِيًا عَنِ الأُنْسِ بالدُّنْيَا أَو الأَخْذ فى المَلاءِ وَالرَّدّ فى الخَلاءِ فَهُو أَقْرَبُ اَلَى السَّلَامَة وَيختَارُ التَّطَوُّعَ اِنْ شَكَّ فى شَرَائط الوَاجِب أَوْعَلِمَ أَنَّه لاَ يَتَصَدّق

اليه ﴾ فيما لابد منه ، وهو مفسر فى حديث رواه الترمذى وصححه عن عثمان مرفوعا « لاحق لابن آدم الا فى ثلاث : جلف الخبز والماء . وثوب يوارى عورته ، وبيت يسكنه ويكنه فما زاد فهو حساب » ﴿ فورد ما المعطى من سعة ﴾ فى ماله ﴿ باعظم أجرا من الآخذ اذا كان ﴾ الآخذ ﴿ محتاجا اليه ﴾ رواه الطبرانى من حديث ابن عمر ﴿ او التفريق ﴾ أى او لا يأخذ الا لاجل تفريقه ﴿ على الفقراء ﴾ المحرومين من خيرات الاغنياء ﴿ فيعجل ﴾ فى التفريق ولا يهمل ﴿ تحاميا عن الانس بالدنيا ﴾ فلا يدخر فان أمساكه ولو ليلة واحدة فيه اختبار وفتنة ، فربما يحلو فى قلبه فيمسكه . ولاحمد من حديث عائشة بسند حسن أنه قال فى مرضه الذى مات فيه « ياعائشة مافعلت بالذهب ؟ فجاءت ما بين الخمسة الى الثمانية الى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول : ماظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده ؟ انفقيها » وفى رواية سبعة او تسعة دنانير . وله من حديث أم سلمة باسناد صحيح « دخلت على رسول الله عليه السلام وهو ساهم الوجه - أى متغيره - قالت فحسبت ذلك من وجع ، فقلت يانبى الله مالك ساهم الوجه ؟ فقال من اجل الدنانير السبعة التى اتانا أمس ، امسينا وهى فى خصم الفراش » وفى رواية « امسينا ولم ننفقها » ﴿ او الاخذ ﴾ اى ولا يأخذ الا لاجل اخذه ﴿ فى الملأ والرد فى الخلاء فهو اقرب إلى السلامة ﴾ من السمعة والرياء ، ومن خجالة الاغنياء وما يحصل لهم من الايذاء ، وأما أن اخذه فى الملأ وفرقه فى الخلاء فهو مقام الصديقين من الاولياء ، وهذا أمر شاق على النفس لا يطيقه الا من اطمانت نفسه بالرياضة . هذا ويجوز له أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو احوج اليه منه ، او يأخذ العطاء ويوصله إلى من هو احوج اليه من الفقراء فيفعل كلاهما فى السر او كلاهما فى الملاء ﴿ ويختار التطوع ﴾ أى وحقه أن يختار أخذ صدقة التطوع على الواجب من الزكاة والفطرة ﴿ أن شك ﴾ الفقير ﴿ فى شرائط الواجب ﴾ أى فى وجود شرائط اخذ الزكاة الواجبة هل هو مستحق للزكاة أم لا ، فان اشتبه الامر عليه فهو محل الشبهة ﴿ اوعلم ﴾ الفقير ﴿ أنه ﴾ أي الغني ﴿ لايتصدق ﴾ بصدقة

عَلَى غَيرِه اَنْ لَمْ يَاخذْ اَوْقَصدُ التَّوسِيعِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالوَاجِبُ اَنْ قَصَدَ الاعَانَةَ عَلَى اَدَائِهِ اَوْ مُوَافَقَةَ الْفُقَرَاءِ اَوْ هَضْمَ النَّفْسِ فَاَمْثَالُه يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النِّيَّةِ

التطوع ﴿ على غيره أن لم ياخذ ﴾ الفقير بعينه ﴿ اوقصد ﴾ الفقير ﴿ التوسيع على الفقراء ﴾ بايثار مال زكاة الاغنياء فانه يختار اخذه .فانه محض الخير و نفع الغير ﴿ والواجب ﴾ أى و يختار اخذ صدقة الواجب ﴿ أن قصد الاعانة على ادائه ﴾ أى اداء الواجب وقضائه ﴿ او ﴾ قصد ﴿ موافقة الفقراء ﴾ و مرافقة الضعفاء ﴿ أو هضم النفس ﴾ اى رياضته فى مقام الابتلاء ﴿ فامثاله ﴾ اى امثال ما ذكر ﴿ يختلف باختلاف النية ﴾ اى نيات الصلحاء وجاءت الى فتح الموصلى صرة فيها خمسون درهما ،فقال « حدثنا عطاء عن النبى ﷺ انه قال: من اتاه رزق من غير مسألة فرده فانما يرده على الله عز وجل » ثم فتح الصرة فاخذ منها درهما ورد سائرها. وكان الحسن يروى هذا الحديث ايضا، ولكن حمل اليه رجل كبشا ورزمة من دقيق فرد ذلك وقال : من جلس مجلسى هذا وقبل من الناس مثل هذا لقى الله عز وجل يوم يلقاه وليس له خلاق . وهذا يدل على ان امر العالم والواعظ اشد فى قبول العطاء ، وكان الحسن يقبل من اصحابه ، كذا فى الاحياء. وقال مخرجه حديث عطاء لم اجده مرسلا بهذا . ولاحمد وأبى يعلى والطبرانى باسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهنى « من بلغه من اخيه معروف من غير مسالة ولا اشراف نفس فليقبله ولا يرده فانما هو رزق ساقه الله عز وجل اليه » وجاء خراسانى بمال إلى الجنيد وسأله أن يأخذه ويأكله ، فقال افرقه على الفقراء ، فقال ما اريد هذا ، قال ومتى اعيش حتى آكل هذا ؟ فقال ما أريد أن تنفقه فى الخل والبقل ، بل فى الحلوى والطيبات فقبل ذلك منه ، فقال الخراسانى : ما اجد ببغداد آمن على منك .فقال الجنيد: ولا ينبغى أن يقبل الامن مثلك . وقيل من اعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط . قال العلماء يخاف فى الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع اودخول فى شبهة اوغيره . وفى الاحياء قال بعض العلماء المجاورين بمكة : كانت عندى دراهم اعددتها للانفاق فى سبيل الله ، فسمعت فقيرا وقد فرغ من طوافه وهو يقول . بصوت خفى . جائع كما ترى ، عريان كما ترى، فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى. فنظرت فاذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت فى نفسى لا اجد لدراهمى أحسن من هذا ، فحملتها اليه فنظر اليها ثم اخذ منها خمسة دراهم فقال : اربعة ثمن مئزرين ، ودرهم انفقه ثلاثا ، ولا حاجة لى إلى الباقى

ثُمَّ الزُّهْدُ عُزُوفُ القَلْبِ عَنِ الدُّنْيَا الَى الآخِرَةِ طَوْعًا

فرده . قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديد ان فهجس فى نفسى منه شيء فالتفت الى واخذ بيدى فطافنى معه سبعا كل شوط منها فى جوهر من معادن الارض تتخشخش تحت اقدامنا إلى الكعبين ، منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلوء وجوهر ، ولم يظهر للناس ، فقال هذا كله اعطانيه ربى فزهدت فيه وآخذ من ايدى الخلق لان هذه اثقال وفتنة ، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة ، والمقصود أن الزيادة على الحاجة أنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه ، وقدر الحاجة ياتيك رفقابك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال تعالى (انا جعلنا ماعلى الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا) وعن موسى عليه السلام أنه قال : يارب جعلت رزقى هكذا على ايدى بنى اسرائيل يغدينى هذا يوما ويعشينى هذا ليلة ، فاوحى الله تعالى اليه هكذا اصنع باوليائى ، اجرى ارزاقهم على ايدى البطالين من عبادى ليؤجروا فيهم ، فلا ينبغى ان يرى المعطى الامن حيث أنه مسخر مأجور . وقيل فى تفسير قوله تعالى (لينفق ذوسعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) معناه ليبع أحد ثوبيه ، وقيل ليستقرض بجاهه فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم : لله عباد ينفقون على قدر بضائعهم ، ولله عباد ينفقون على قدر حسن ظنهم بربهم . ومات بعضهم فاوصى بماله لثلاث طوائف : الاقوياء والاسخياء والاغنياء ، فقيل من هولاء؟ فقال : أما الاقوياء فهم أهل التوكل على الله ، وأما الاسخياء فهم اهل حسن الظن بالله ، واما الاغنياء فهم أهل الانقطاع الى الله . وكان بشر رحمه الله يقول : الفقراء ثلاثة . فقير لايسأل وان أعطى لا ياخذ فهذا مع الروحانيين فى عليين ، وفقير لا يسال وان أعطى أخذ فهذا مع المقربين فى جنات الفردوس ، وفقير يسال عند الفاقة فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين . وقال ابراهيم بن أدهم لشقيق البلخى حين قدم عليه من خراسان . كيف تركت الفقراء من أصحابك ؟ قال تركتهم ان أعطوا شكروا وان منعوا صبروا ، وظن انه لما وصفهم بترك السوال اثنى عليهم غاية الثناء . فقال ابراهيم هكذا تركت كلاب بلخ عندنا . فقال شقيق فكيف الفقراء عندكم ياأبا اسحق ؟ فقال الفقراء عندنا أن منعوا شكروا وان أعطوا آثروا فقبل رأسه وقال : صدقت يااستاذ ﴿ ثم الزهد عزوف القلب ﴾ أى ميله وانصرافه ﴿ عن الدنيا الى الآخرة طوعا ﴾ أى اختياراً وجعله طاعة ، فالزهد عبارة عن انصراف الرغبة

وَلَا يُعْبَأُ بِالْيَدِ لِوُجُودِهَا لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَوْنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْلَى يَدًا مِنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عن الشيء الى ما هو خير له منه ومنه قوله تعالى (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) أى باعوه طمعا فى أن يخلولهم وجه ابيهم وكان ذلك أحب عندهم من يوسف ، فاذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد فى الآخرة ، لكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا كما يخصص اسم الالحاد بمن يميل إلى الباطل ، واسم الحنيف بمن يميل الى الحق وأن كان الكل بمعنى الميل فى وضع اللسان ، فالذى يرغب عن كل ماسوى الله حتى الفراديس فهو الزاهد المطلق ، والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة بل طمع فى الحور والقصور والانهار والاثمار فهو أيضا زاهد لكن دون الاول ، والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذى يترك المال دون الجاه او بالعكس ، او يترك التوسع فى الاكل ولا يترك التجمل فى الزينة فلا يستحق أسم الزهد مطلقا ، ودرجته فى الزاهدين درجة من يتوب عن بعض المعاصي فى التائبين ، وقد تقدم الخلاف فى صحة التوبة ، لكن لاخلاف فى صحة الزهد عن البعض . ثم الزهد عبارة عن ترك المباحات ، ومن ترك المحظورات لايسمى زاهدا ، ويشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه ، ولذا قيل لابن المبارك: يازاهد ، فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز اذجاءته الدنيا راغمة فتركها ، أما انا ففيماذا زهدت . وقال ابن أبى ليلى لابن شبرمة: الاترى إلى هذا ابن الحائك لانفتى فى مسألة الاردعلينا يعنى ابا حنيفة ، فقال ابن شبرمة : لاادرى اهو ابن الحائك أوماهو ، ولكن أعلم أن الدنيا غدت اليه فهرب منها ، وهربت منا فطلبناها انتهى . فمن عرف أن ماعندالله باق وأن الآخرة خير وابقى عزف قلبه عن الدنيا إلى العقبى مع القدرة على تحصيل مراتب الغنى ، وإلى هذا الشرط اشار بقوله طوعا (ولا يعبأ باليد) أى ولا يعتبر بتصرف المال وتوسع الجاه وجودا وعدما وقلة وكثرة إذا حصل الزهد فيها (لوجودها) أى الدنيا جاها ومالا (لسليمن عليه السلام) مع أنه كان زاهدا فى الدنيا وراغبا فى العقبى كسائر الانبياء والاولياء (وكون عيسى) أى ولكونه (عليه السلام اخلى يدا من نبينا صلى الله عليه وسلم

مَعَ أَنَّهُ أَفْضَلُ وَهُوَ يُثْمِرُ الْمُكَاشَفَةَ كَمَا سَبَقَ فِي حَدِيثِ التَّجَافِي وَحَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

مع أنه ﴾أى نبينا ﴿انضل﴾وزهده اتم واكمل ، على أنه لابدع أن يوجد فى المفضول بعض ما لايوجد فى الافضل . فتأمل . ولعل الحكمة فى اختيار عيسى عليه السلام المبالغة فى الزهد فانه مسلك أهل الترهب ، وأما نبينا عليه الصلاة والسلام فلما كان رحمة لكافة الانام اختار طريقا يسع جميع امته أن يتبعوه ، ولانه صاحب الملة الحنيفية السمحاء ، وليس فى دينه من حرج ، ولكونه مظهرا لمرتبة الجمع بين الصفات الجمالية والنعوت الجلالية كما يشير اليه قوله : اشبع يوما فاشكر واجوع يوما فاصبر مع أن الزهد عند المحققين هو ترك ما يشغلك عن المولى وزاد العقبى . ثم كل مؤمن يعلم ان الآخرة خير وأبقى ، لكن قد لا يقدر على ترك الدنيا . اما لضعف علمه ويقينه بالمآل ، واما لاستيلاء الشهوة عليه فى الحال ، وأما لاغتراره فى الاستقبال بمواعيد الشيطان فى التسويف يـــوما بعد يوم الى ان يختطفه الموت ولا يبقى معه الا حسرة بعد الفوت . والى تعريف خساسة الدنيا اشار قوله تعالى (قل متاع الدنيا قليل) والى تعريف نفاسة الآخرة قوله تعالى (وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن) وأما قول ابن مسعود : ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى (منكم من يريد الدنيـــا ومنكم من يريد الاخرة)فرواه البيهقى فى دلائل النبوة باسناد حسن ، لكن حمل على أن منهم من يريد الدنيا ليصرف فى طريق العقبى ، ومنهم من يريد الآخرة ويترك الدنيا بالكلية رضا للمولى وعملا بما قال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لتبر . تركك الدنيا أبر . (وهو) أى الزهد (يثمر) خمسة أشياء (المكاشفة) لاحوال الاخرة (كما سبق فى حديث التجافى وحارثة رضى الله عنه) أما حديث التجافى فهو أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح فى قوله تعالى(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للسلام) فقيل له ما هذا الشرح فقال أن النور إذا دخل القلب إنشرح له الصدر وانفسح قيل يارسول الله هل لذلك من علامة ؟ قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» رواه الحاكم ، وأما حديث حارثـــة فهو أنه لما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا مؤمن حقا فقال : وما حقيقة ايمانك ؟ قال عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها وحجرها وكانى بالجنة عن يمينى والنار عن يسارى ، وكانى بعرش ربى بارزا ، فقال عليه السلام « عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالايمان»

وَالفَرَاغَ لِلْعِبَادَةِ فَوَرد مَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ وَتَعْظِيمَ قَدْرِهَا فَوَرَدَ «رَكْعَتَانِ مِنْ عَالِمٍ زَاهِدٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الْمُتَعَبِّدِينَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ وَمَحَبَّتَهُ تَعَالَى وَمَعْرِفَتَهُ فَهُمَا

رواه البزار من حديث أنس، والطبرانى من حديث الحارث بن مالك ﴿ والفراغ ﴾ أى ويثمر الزهد فراغ خاطر أرباب الارادة ﴿ للعبادة ﴾ التى هى سلوك سبيل السعادة ﴿ فورد من أحب آخرته اضر بدنياه ﴾ تمامه ومن احب دنياه اضر باخرته فآثروا ما يبقى على مايفنى» رواه احمد والطبرانى من حديث أبى موسى ﴿ وتعظيم قدرها ﴾ اى ويثمر تعظيم مقدار العبادة ﴿ فورد ركعتان من عالم زاهد خير من عبادة المتعبدين الى آخر الدهر ﴾ لم اجدله اصلا بهذا السياق، وانما هو لابن مسعود موقوفا ، وللشيرازى فى الالقاب عن على مرفوعا «ركعة من عالم بالله خير من الف ركعة من متجاهل بالله » وللديلمى عن أنس« ركعتان من رجل ورع أفضل من الف ركعة من مخلط ، ولابن النجار عن محمد بن على مرسلا « ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم » وقد صح « لفقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد » ﴿ ومحبته تعالى ﴾ أى ويثمرها الزهد ، فقد ورد فى الخبر « ان اردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا » رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد وقد تقدم حديث «ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى ايدى الناس يحبك الناس » ﴿ ومعرفته ﴾ أى ويثمرها ، ففى الخبر قد ورد « اذا رأيتم العبد قد أعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقربوا منه فانه يلقى الحكمة » رواه ابن ماجه من حديث أبى خالد ، وقد قال تعالى (ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا) ولذا قيل : من زهد فى الدنيا اربعين يوما اجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه وأنطق بها لسانه . كذا فى الاحياء وقد وجد معناه من حديث « من اخلص لله اربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة على لسانه» رواه أبو نعيم من حديث أبى أيوب . ومن المعلوم أنه لايكون العبد عابدا مخلصا الا اذا كان زاهدا . وفى الخبر أيضا « من زهد فى الدنيا ادخل الله الحكمة قلبه ، وانطق بها لسانه ، وعرفه داء الدنيا ودواءها ، واخرجه منها سالما إلى دار السلام» رواه ابن أبى الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا ، ولابن عدى من حديث أبى موسى « من زهد فى الدنيا اربعين يوما واخلص فيها العبادة اجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ﴿ فهما ﴾ أي المحبة والمعرفة اللتان يثمرهما الزهد

لَايَحْصُلَانِ الَّا بِدَوَامِ الذِّكْرِ وَالفِكْرِ الْمُمْتَنِعَيْنِ مَعَ الشُّغْلِ بِالدُّنْيَا

﴿ لايحصلان الابدوام الذكر ﴾ اى ذكر المولى ﴿ والفكر ﴾ لزادالعقبى ﴿ الممتنعين مع الشغل بالدنيا ﴾ وقد قال تعالى (اولئك يؤتون اجرهم مرتين بماصبروا) اى على الزهد فى الدنيا كما جاء فى التفسير ، وقال تعالى (انا جعلنا ماعلى الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا) قيل معناه ايهم ازهد فيها . وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزدله فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب) وقال عز وعلا (لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى) وللطبرانى من حديث ابن مسعود بسند حسن « من اشرب قلبه حب الدنيا التاط منها ـ اى ابتلى ـ بثلاث : شقاء لاينفدعناه ، وحرص لايبلغ غناه ، وامل لايبلغ انتهاه » وللديلمى من رواية على بن ابى طلحة مرسلا « لايستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشيء أحب اليه من كثرته » وله من حديث أنس « من زهده فى الدنيا بصره بعيوب نفسه وفقهه فى الدين » وعن عيسى عليه السلام: الدنيا قنطرة فاعبروها ولاتعمروها، ولابن حبان من حديث على « من اشتاق إلى الجنة سارع الى الخيرات ، ومن خاف من النار لها عن الشهوات ، ومن يرقب الموت ترك اللذات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات» وجاء فى الآثار « لاتزال لااله الاالله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل مالم يبالوا بمانقص من دنياهم » وفى لفظ « مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فاذافعلوا ذلك وقالوا لااله الاالله قال تعالى: كذبتم لستم بها صادقين » وعن بعض الصحابة قال: تابعنا الاعمال كلها فلم نر فى امر الآخرة ابلغ من زهد فى الدنيا . وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أنتم اكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم كانوا خيرا منكم ، قيل ولم ذلك؟ قال كانوا ازهد فى الدنيا منكم ، وقال عمر رضى الله عنه الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد . وقال ابن سعد: كفى به ذنبا أن الله تعالى زهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها : وقال رجل لسفيان : اشتهى أن ارى عالما زاهدا ، فقال ويحك تلك ضالة لاتوجد . وقال يوسف ابن أسباط . انى لاشتهى من الله ثلاث خصال ، أن اموت حين اموت وليس فى ملكى درهم ، ولايكون على دين ، ولايكون على عظمى لحم ، فاعطى ذلك كله ، ويروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء الجوائز فقبلوها وأرسل إلى الفضيل بعشرة

ثُمَّ الأَدْنَى بِاعْتِبَارِ نَفْسِهِ أَنْ يُجَاهِدَ فِيهِ لِمَيْلِ النَّفْسِ إِلَى الدُّنْيَا وَهُوَ تَزَهُّدٌ ثُمَّ أَنْ يَتَنَفَّرَ عَنْهَا فَهُوَ زُهْدٌ ثُمَّ عَدَمُ الْمَيْلِ وَالتَّنَفُّرِ وَيُعْرَفُ بِتَسْوِيَةِ سَرِقَةِ مَالِهِ وَمَالِ غَيْرِهِ ثُمَّ عَدَمُ الاعْتِبَارِ بِزُهْدِهِ

آلاف درهم فلم يقبلها فقال بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد وأنت على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال : أتدرون ما مثلي ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها لكي ينتفعوا بجلدها وكذلك أنتم أردتم ذبحي على كبرسني موتوا يا أهلي جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا ﴿ ثم الادنى ﴾ من مراتب الزهد ﴿ باعتبار نفسه ﴾ أى نفس الزهد وذاته مع قطع النظر عن حكمه ومامنه وفيه كما سيأتي ﴿ أن يجاهد فيه ﴾ أي في تحصيل الزهد ﴿ لميل النفس الى الدنيا ﴾ والتفاتها اليها ولكنه يجاهدها ويكفها عنها ﴿ وهو تزهد ﴾ وهو مبدأ الزهد في حق من يصل الى درجة الزهد بالكسب والجهد ﴿ ثم ﴾ الاعلى منه ﴿ أن يتنفر ﴾ طبعه ﴿ عنها ﴾ أي عن الدنيا لعدم ميل نفسه اليها ﴿ فهو زهد ﴾ فالمتزهد في الدنيا يذيب أولا نفسه في الطاعة ثم كيسه والزاهد يذيب أولا كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعة لا في الصبر على مافارقه والمتزهد على خطر لأنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود الى الدنيا والى الاستراحة بها في قليلها أو كثيرها ﴿ ثم ﴾ الاعلى منه ﴿ عدم الميل ﴾ اليها ﴿ و ﴾ عدم ﴿ التنفر ﴾ عنها وذلك بان يترك الدنيا طوعا لاستحقاره اياها بالاضافة إلى ماطمع فيه من غيرها خيرا منها ، ولكن هذا الزاهد يرى لامحالة زهده ويلتفت اليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ، ويظن بنفسه انه ترك شيئا له قدر لما هو اعظم قدرا منه ، وهذا أيضا نقصان عند من له عرفان ﴿ ويعرف ﴾ صاحب هذا المقام ﴿ بتسوية سرقة ماله ومال غيره ﴾ لعدم ميله إلى كل منهما ، ولقوله عليه السلام « لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه ويكره لاخيه ما يكره لنفسه » بل ربما يهون عليه سرقة مال نفسه دون سرقة مال غيره ﴿ ثم ﴾ الاعلى ﴿ عدم الاعتبار بزهده ﴾ لغنائه في الله وبقائه به ، فقد انطوى في نظره وجود كل شيء فضلا عن زهده ، وهي المرتبة العليا بان يزهد في الدنيا طوعا ، ويزهد في زهده أيضا فلا يري زهده أصلا ، اذ لا يري أنه ترك شيئا اذ عرف أن الدنيا لاشيء ، وسببه كمال

وَباعْتبَار مَا منْهُ من خَوْف النَّار ثُمَّ منْ أَجل الرَّجاء الَى الجَنَّة لاقتضائه المَحَبَّة ثُمَّ منْ رَفْع الالْتفَات الَى مَاسوَاهُ تَعَالَى وَباعْتبَار مَافيه فى بَعض الدُّنْيَا كَالمَال دُون الجَاه وَهُوَ كَالتَّوْبَة

المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، ومن هنا قال ابو يزيد لابى موسى عبدالرحيم : فى أى شىء تتكلم ؟ قال فى الزهد ، قال فى أى شىء ؟ قال فى الدنيا ، فنفض يده وقال : ظننت أنك تتكلم فى شىء الدنيا لاشىء أى شىء تزهد فيها ، فاذن لايلتفت الزاهد إلى زهده الااذا التفت إلى مازهد فيه ولايلتفت إلى مازهد فيه الالانه يراه شيئا معتدا به ، ولايراه شيئا معتدا به الالقصور معرفته ؛ فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة ﴿ وباعتبار مامنه ﴾ أى والادنى فى الزهد باعتبار مامنه الزهد أن يكون زهده للنجاة ﴿ من خوف النار ﴾ ومافيها من أنواع العقاب ﴿ ثم ﴾ الاعلى أن يكون زهده ﴿ من اجل الرجاء إلى الجنة ﴾ ومافيها من انواع الثواب ، وانما يكون اعلى مما قبله ﴿ لاقتضائه المحبة ﴾ أى زيادتها ، والمحبة أعلى المقامات كما سيأتى فى خاتمة الكتاب ﴿ ثم ﴾ الاعلى أن يكون زهده ﴿ من رفع الالتفات ﴾ لخواطره ﴿ الى ماسواه تعالى ﴾ فلا تكون له رغبة الا فى الله وفى لقائه ورضائه ولايلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ، وإلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى ، وهو الذى يصبح وهمه هم واحد ، وهو الموحد الحقيقى الذى لايطلب غير الله ، ومن طلب غير الله فقد عبده ، سواء وجده اوفقده . وهذا زهد المحبين وهم العارفون ، لانه لايحب الله تعالى خاصة الامن عرفه ولاتظن أن أهل الجنة عند النظر الى وجهه الكريم تبقى لذة الحور والقصور وسائر النعيم المقيم فى قلوبهم ، بل تلك اللذة بالاضافة إلى نعيم الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على اطراف الارض ورقاب الخلق بالاضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به ، فالطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة كالصبى الطالب للعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن ادراك لذة الملك لالان اللعب بالعصفور فى نفسه اعلى والذمن الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق ، ومن هنا روى « اكثر أهل الجنة البله وعليون لاولى الالباب » ﴿ وباعتبار مافيه ﴾ أى ادنى الزهد باعتبار مافيه الزهد أن يكون زهده ﴿ فى بعض الدنيا كالمال دون الجاه ﴾ أوعكسه ﴿ وهو كالتوبة

عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ ثُمَّ فِي كُلِّهَا ثُمَّ فِيمَا سِوَاهُ تَعَالَى

عن بعض الذنوب ﴾ وقد اختلف فى صحتها ، لكن الصحيح اعتبارها فى الجملة على ماتقدم ، بخلاف الزهد فانه لاخلاف فى صحة بعضه ﴿ ثم ﴾ الاعلى أن يكون زهده ﴿ فى كلها ﴾ أى فى جميع الدنيا مالها وجاهها ﴿ ثم ﴾ الاعلى وهى المرتبة العليا أن يكون زهده ﴿ فيما سواه تعالى ﴾ حتى يزهد فى نفسه أيضا وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة مما فيه الزهد فقال (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) ثم أجمله فى آية اخرى ورده إلى خمسة فقال (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد) إلى أن قال (وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) ثم رده الى اثنين فقال (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) وقال فى موضع آخر (انما الحياة الدنيا لعب ولهو) ثم رد الكل الى واحد فى موضع آخر فقال (ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا .

والحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء فى الدنيا ، واذا رغب عنها لم يردها ، ولذا لما كتب عليهم القتال (قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا اخرتنا الى أجل قريب فقال تعالى (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) أى لستم تريدون البقاء الا لمتاع الدنيا ، فظهر عند ذلك الزاهدون وفضح المنافقون . أما الزاهدون المحبون فى الله فقاتلوا فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا احدى الحسنيين ، وكانوا اذا دعوا الى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون اليه مبادرة الظمآن الى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله او نيل رتبة الشهادة ، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت سعادة الشهادة حتى أن خالد بن الوليد رضى الله عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول : لم غررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا فى الشهادة ، والآن أموت موت العجائز ، فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات . وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت ، فقيل لهم (إن الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم) الآية هذا . واجمع ماقيل فى حد الزهد قول أبى سليمان الدارانى : قد سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل ، وقرأ

وَباعْتبَارِ الْحُكْمِ الْفَرْضُ وَهُوَ فِى الْحَرَامِ ثُمَّ السُّنَّةُ وَهُوَ فِى الشُّبْهَةِ ثُمَّ النَّفْلُ وَهُوَ فِى فُضُولِ الْمُبَـــاحِ

أبو سليمان قوله تعالى (الامن اتى الله بقلب سليم) فقال: هو القلب الذى ليس فيه غير الله ، وقال انما زهدوا فى الدنيا ليفرغوا قلوبهم من همومها للاخرى ﴿ وباعتبار الحكم ﴾ أى والزهد الأدنى باعتبار حكم الزهد ﴿ الفرض ﴾ أى يجب على السالك أن يزهد فيه ﴿ وهو ﴾ أى الزهد الفرض أن يكون زهدا ﴿ فى الحرام ﴾ وهو لابد منه لكمال الاسلام وجمال الأحكام ﴿ ثم السنة ﴾ أى الزهد الذى يسن للمريد أن يزهد فيه ﴿ وهو ﴾ أى الزهد السنة أن يكون زهدا ﴿ في الشبهة ثم ﴾ الزهد ﴿ النفل ﴾ المندوب المستحب ﴿ وهو ﴾ أى الزهد النفل أن يكون زهدا ﴿ فى فضول المباح ﴾ وقال قوم : الزهد فى الحلال لا فى الشبهة والحرام ، فليس ذلك من درجاته فى شىء . ثم رأوا انه لم يبق حلال فى أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن ، ويؤيده قول الحسن : رايت سبعين بدريا كانوا فيما احل الله لهم ازهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفى خبر آخر : كانوا بالبلاء اشد فرحا منكم بالرخاء ، وكان احدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول : اخاف ان يفسد على قلبى ، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف على فساده ، والذين قد أمات حب الدنيا قلوبهم فقد اخبر الله عنهم اذ قال (ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون) وقال تعالى (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) وقال عزو علا (فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم) فاحال ذلك كله على الغفلة وعدم المعرفة ، فان قلت مهما كان الصحيح ان الزهد هو ترك ماسوى الله فكيف يتصور مع الاكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم ، فكل ذلك اشتغال بما سواه فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا الى الله هو الاقبال بالقلب على المولى ذكراً وفكرا ، ولا يتصور ذلك الامع البقاء ولا بقاء الا بضرورات النفس فمهما اقتصرت فى الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله ، فان مالا يتوصل الى الشىء الا به فهو منه ، كذا فى الاحياء وقد يقال المراد بالاشتغال بالمولى أن يكون بالقلب دون القالب ، فان الواصلين الى مقام الحضور لا يشغلهم شىء من الأمور ، فقلبهم لا يغفل عن الله ولو كانوا فى الزراعة والتجارة

وَيُخْرِجُ عَنْهُ الْقَصْدُ اِلَى الْكَسْبِ اِنْ كَانَ لِلَّذَّةِ دُونَ الْعُدَّةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالادِّخَارُ اِنْ زَادَ عَلَى قُوتِ السَّنَةِ اِلَّا لِمَنْ لَا يَكْسِبُ وَلَا يَأْخُذُ مِنَ الْأَيْدِى كَدَاوُدَ الطَّائِى وَهُوَ مَلَكَ عِشْرِينَ دِينَارًا قَنَعَ بِهَا عِشْرِينَ سَنَةً

كما يشير اليه قوله سبحانه (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) الآية كما أن قلب أهل الدنيا لايغفل عن دنياهم ولو كان قالبهم فى المسجد والطاعة والقراءة ونحوها بل أهل القلوب لكمال ذكرهم وفكرهم لو أرادوا أن يغفلوا قلبهم ساعة لم يقدروا على ذلك كما أن أهل الغفلة لو اجتهدوا أن يحضروا قلبهم ساعة عجزوا عما هنالك بل العارفون عدوا الغفلة كفرا وارتدادا كما أشار اليه العارف ابن القارض بقوله:

ولو خطرت فى سواك ارادة * على خاطرى يوما حكمت بردتى

فالحاضرون على الدوام هم الأنبياء عليهم السلام والأولياء من اتباعهم الكرام والغافلون الكاملون هم الكافرون المشبهون بالأنعام، وأما المخلطون فهم فى أحوالهم مختلفون فتارة يحضرون وأخرى يغفلون وهم الذين قال الله تعالى فيهم (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) الآية ﴿ ويخرج ﴾ السالك ﴿ عنه ﴾ أى عن الزهد ويدخل فى حب الدنيا خمسة أشياء ﴿ القصد الى الكسب ان كان ﴾ القصد ﴿ للذة ﴾ أى بشهوة النفس بالمكسوب ﴿ دون العدة ﴾ أى بخلاف ما اذا كان القصد من الكسب الاستعداد والاستعانة ﴿ على العبادة ﴾ التى هى المندوب والمطلوب، وهذا محمل قول أبى سليمان الدارانى : من تزوج اوسافر فى طلب المعيشة ، او كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا ، وذلك لانه نقل عنه أيضا أنه قال: كل ما شغلك عن الله من مال أو ولد فهو عليك شؤم ﴿ والادخار ﴾ يخرج السالك عن الزهد أيضا ﴿ ان زاد ﴾ الادخار ﴿ على قوت السنة ﴾ كما ثبتت الرخصة فى السنة ﴿ الالمن لايكسب ﴾ أى لايقدر على الكسب لعدم حرفة اولاشتغاله بتحصيل وجوه معرفة ﴿ ولايأخذ من الايدى ﴾ مع هذه الحالة أيضا فانه لايخرجه الادخار عن الزهد وأن كان زائدا على قوت السنة ﴿ كداود الطائى وهو ملك عشرين دينارا ﴾ ورثها من ابيه ﴿ قنع بها عشرين سنة ﴾ ثم اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك ، فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد ، بل لابد من الزهد فى المال والجاه جميعا فى مقام الكمال هذا وقوم يظهرون الزهد بالتقشف ، وآخرون بالتكلف ، ومن الخواص قوم ادعوا

وَالتَّغَذِّي مِنْ بِرٍّ

الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى اليهم مثل لباسهم ؛ ولئلا ينظر اليهم بالعين التى ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما يعطى المساكين، ويحتجون لانفسهم باتباع العلم وأنهم على السنة ، وأن الاشياء داخلة عليهم وهم خارجون منها ، وأن ما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق والجئوا إلى المضائق . وكل هؤلاء اكلة الدنيا بالدين ، لم يعبأوا بتصفية أسرارهم ولا تهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم ، فهم مائلون الى الدنيا متبعون الهوى ، فهذا كله كلام الخواص ، فاذا معرفة الزهد مشكل حتى على الزاهد نفسه ، فينبغي أن لا يتعبد بلبس خاص موافقا للسنة ، وإن يعول فى باطنه على ثلاث علامات . الأولى أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) أى لا تحزنوا حزن فزع ولا تفرحوا فرح بطر وإلا فلا يخلو تأثيرهما فى النفس باعتبار أصل الطبع ، ثم الكمال أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده لأنه سبب وجود صحة الحال . والثانية أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، بل ينبغي أن يفرح بذمه ويحزن بمدحه . والثالثة أن يكون أنسه بالله ونسيانه عما سواه ، ولذا قيل لبعضهم: الى ماذا أفضى بهم الزهد فقال الى الأنس بالله ، وأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان كالماء والهواء فى القدح ، فالماء إذا دخل خرج الهواء وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الايمان بظاهر القلب احب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما ، واذا بطن الايمان سو ايداء القلب وباشره أبغض الدنيا ولم ينظر اليها ولم يعمل لها ، ولذا ورد فى دعائه عليه السلام «اللهم انى أسألك ايمانا يباشر قلبي» وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه شغل عن الناس، وهذا مقام العابدين . ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، وهذا مقام العارفين. وقال السرى: لا يطيب عيش الزاهد اذا اشتغل عن نفسه ، ولا يطيب عيش العارف اذا اشتغل بنفسه. وقال النصرابادى: الزاهد غريب فى الدنيا والعارف غريب فى الآخرى وقال يحيى بن معاذ : الزاهد يسعطك الخل والخردل، والعارف يشمك المسك والعنبر، ثم لا يستدل بامساكه قليلا من المال على فقد زهده فى مقام الكمال ، كما لداود الطائى ، فان مدار الزهد فى الدنيا عدم محبتها . وقد قال الفضيل . جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها ﴿والتغذى﴾ بالذال المعجمة أى الأكل ﴿من بر﴾ أى دقيق

مَنْخُولٍ وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَى الادَامِ وَاتِّخَاذُ ثَوبَيْنِ وَأَثَاثَيْنِ، وَجِنْسٍ رَفِيعٍ

حنطة ﴿منخول﴾ يخرجه من الزهد أيضا ﴿و المواظبة على الادام﴾ تخرجه أيضا منه ﴿و﴾ كذا ﴿اتخاذ ثوبين﴾ كقميصين ﴿وأثاثين﴾ أى متاعين من أمتعة البيت كصحنين وابريقين أحدهما زائد عن استعماله ﴿وجنس رفيع﴾ أى مستحسن ولذيذ من الادام والثوب والاثاث. والأولى فى المقام الأعلى عدم التقيد بالادنى والأعلى كما كان طريق المصطفى. وقد قال يحيى بن معاذ الرازى الزاهد الصادق قوته ما وجد، ولبسه ما ستر، ومسكنه حيث أدركه المساء، الدنيا سجنه. والقبر مضجعه والخلوة مجلسه. والاعتبار فكرته. والقرآن حديثه. والرب أنيسه. والذكر رفيقه. والزهد قرينه. والحزن شعاره والحياء دثاره، والجوع ادامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل حسيبه، والعقل دليله، والعبادة حرفته، والجنة مبلغه ان شاء الله وحده *

ثم اعلم ان المهمات الضرورية فى الامور الدنيوية ستة: المطعم، والملبس، والمسكن والاثاث، والمنكح، ومايكون وسيلة إلى هذه الخمسة: أما المطعم فلا بد للانسان من قوت حلال يقيم صلبه واقل مقداره لقيمات كما ورد فى حده، واقل جنسه مايقوته ولو خبز نخالة، واوسطه خبز الشعير والذرة واعلاه خبز البر غير منخول وأقل ادامه الملح اوالبقل اوالخل، واوسطه الزيت والسمن واللبن واعلاه اللحم. وذلك فى الاسبوع مرة اومرتين ووقته الاقل فى ثلاثة ايام واوسطه فى اليوم والليلة مرة واقصاه فى اليوم والليلة مرتين، ويشير اليه قوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وكان يعيش عليه السلام بالاسودين أى التمر والماء وماشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير يومين متتابعين وفى رواية عند عليه السلام أنه قال: من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير، وكان عيسى عليه السلام يقول: يابنى اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرى، وخبز الشعير واياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره. ولما أتى عليه السلام اهل قبا اتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح فى يده وقال « أما انى لست احرمه، ولكنى اتركه تواضعا لله » واما الملبس فاقل درجاته مايدفع الحر والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به واوسطه قميص وقلنسوة ونعلان واعلاه ان يكون له مع ذلك منديل وسروال، واقل جنسه المسوح الخشنة واوسطه الصوف الخشن، واعلاه القطن الغليظ. قال ابو بردة: اخرجت لنا عائشة كساء ملبدا وازارا غليظا

وقالت قبض عليه السلام فى هذين ، رواه الشيخان . ولابن ماجه من حديث ابى ذر باسناد جيد « مامن عبد لبس ثوب شهرة الا اعرض الله تعالى عنه حتى ينزعه » وقد اشترى عليه السلام سروالا باربعة دراهم كما رواه ابو يعلى من حديث ابى هريرة . ولابى الشيخ من رواية عروة بن الزبير مرسلا « كان رداؤه عليه السلام اربعة اذرع وعرضه ذراعان ونصف » وفى طبقات ابن سعد من حديث ابى هريرة « كان له ازار من نسج عمان طوله اربعة اذرع وشبر فى ذراعين وشبر » وعن جابر قال دخل عليه السلام على فاطمة وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من اجلة الابل ، فلما نظر اليها بكى وقال « يافاطمة تجرعى مرارة الدنيا لنعيم الابد » فانزل الله سبحانه (ولسوف يعطيك ربك فترضى)وقال عليه السلام لعائشة « ان اردت اللحوق بى فاياك ومجالسة الاغنياء ، ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعيه » رواه الترمذى والحاكم وصححه من حديث عائشة . ولابى نعيم والحاكم والبيهقى فى شعبه « أن من خيار أمتى فيما انبأنى العلى الاعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ، ويبكون سرا من خوف عذابه ، مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى انفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ، ويتبعون الرهبان ، اجسامهم فى الارض وافئدتهم عند العرش » وعد على قميص عمر اثنى عشر رقعة بعضها من ادم . واشترى على كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو فى الخلافة ، وقطع كميه من الرسغين وقال : الحمد لله الذى كسانى هذا من رياشه . وقال بعضهم : قومت ثوبى سفيان ونعليه بدرهم واربعة دوانق . ولاحمد من حديث معاذ « أن عبادا لله ليسوا بالمتنعمين » وأما المسكن فالاعلى أن يقنع بزاوية من المسجد كاصحاب الصفة واوسطها بيت من سعف ونحوه وادناها حجرة مبنية أما بشراء اوكراء . وللطبرانى من رواية أبى العالية « أن العباس بنى غرفة فقال له عليه السلام اهدمها » ولابى داود من حديث أنس بسند جيد « رأى عليه السلام قبة مشرفة فقال لمن هذه ؟ قالوا لفلان فلما جاءه الرجل اعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه عليه السلام فاخبره بذلك فذهب فهدمها فمر عليه السلام بالموضع فلم يرها فاستخبر فاخبر بانه هدمها فدعا له بخير » ولابن حبان فى الثقات وأبى نعيم فى الحلية عن الحسن مرسلا « مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة » وقال عبدالله بن عمرو « مر علينا عليه السلام ونحن نعالج خصا ، فقال ماهذا ؟ فقلنا خص لنا قد وهى فقال ارى الامر اعجل من ذلك » رواه أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محرز وهو فى بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو اصلحته فقال كم من رجل قدمات وهذا قائم على حاله

ولابى داود من حديث أنس بسند جيد « كل بناء وبال على صاحبه الا مالا » يعنى مالا بد منه ، وكان فى السلف من يبنى داره مرارا فى مدة عمره لضعف بنائه ، وكان منهم إذا حج اوغزا نزع بيته اووهبه لجيرانه فاذا رجع اعاده ، قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوته عليه السلام ضربت بيدى إلى السقف .وقال عليه السلام للرجل الذى شكا اليه ضيق منزله « اتسع فى السماء» يعنى فى الجنة رواه أبو داود فى المراسيل ووصله الطبرانى.وقال ابن مسعود « يأتى قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين ،يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير ملتكم » وأما اثاث البيت فاعلاها حال عيسى عليه السلام إذكان لا يصحب الامشطا وكوزا ، فرأى أنسانا يمشط لحيته باصابعه فرمى المشط،ورأى آخر يشرب من النهر فرمى الكوز ٠ ثم الظرف ينبغى أن يكون من الخزف ولو مكسور الطرف ، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى أشياء متعددة كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها،وقالت عائشة رضى الله عنها « كان ضجاعه أى فراشه عليه السلام الذى ينام عليه وسادة من ادم حشوها ليف» رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح،وللترمذى فى الشمائل من حديث حفصة « ان فراشه عليه السلام كان عباءة مثنية ووسادة من ادم حشوها ليف ، ورأى عليه السلام على باب منزل عائشة سترا فهتكه ، وقال: كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلى به الى فلان» رواه الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديثها، وقال الحسن «أدركت سبعين من الخيار ما لاحدهم الا ثوبه ، وماوضع أحدهم بينه وبين الارض ثوبا قط وكان اذا اراد النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه وأما المنكح فقال قائلون لازهد في أصل النكاح ولا فى كثرته ، والى هذا ذهب سهل بن عبد الله،وقال قد حبب الى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن ووافقه ابن عيينة قال وكان على ازهد الصحابة وله أربع نسوة وبضع عشرة سرية، والصحيح ماقاله أبو سليمان الدارانى ان كل ماشغلك عن الله من أهل أو مال أوولد فهو عليك شؤم ، وهو مستفاد من قوله تعالى : (لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون) وقوله (ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) وقال أبو سليمان: الزهد في النساء أن يختار المرأة الفقيرة الضعيفة على المرأة الجميلة الشريفة،وقال الجنيد . أحب للمريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث ولا يغير حالة الكسب وطلب الحديث والتزوج وقال أحب للصوفى ان لايكتب ولا يقرأ لانه أجمع لهمه وأما مايكون وسيلة الى هذه الخمسة فهو المال و الجاه أما الجاه فانه قد يفتقر الى خادم له فينفعه ، وقد يحتاج الى دفع ظلم

وَالأَولَى الْمُبَالَغَةُ فِى التَّشْدِيدِ تَحَامِيًا عَنِ الأُنْسِ بِالدُّنْيَا وَطُولِ الْمُكْثِ لِلْحِسَابِ وَالْحَبْسِ عَنِ الْجَنَّةِ وَاللَّوْمِ وَالتَّعْيِيرِ وَالْحِرْمَانِ عَنِ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ وَهُوَ الْمَأْثُورُ

عن نفسه اوغيره، والغالب ان من اشتغل بالعلم والعمل تمهدله من قلوب الخلق مايدفع به عنه الاذى ، ولوكان بين الكفار فكيف بين الابرار ، وأما المال فقدر الضرورة كاف فى المعيشة ، فاذا كان كاسبا واكتسب حاجة يومه ينبغى أن يتركه ويشتغل بامر يهمه، وقد قال أبوسليمان لا ينبغى للرجل أن يرهق اهله إلى الزهد ، بل يدعوهم اليه فان اجابوه والاتركهم وفعل بنفسه ماشاء . وروى أن ابراهيم الخليل عليه السلام اصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه ، فرجع مهموما فاوحى الله اليه لو سألت خليلك لاعطاك ، فقال يارب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن اسألك شيئا منها، فاوحى الله اليه ليس الحاجة من الدنيا . فتبين من هذا أن تحصيل قدر الحاجة من أمر الدين، ﴿ والاولى المبالغة فى التشديد ﴾ أى التضييق على نفسك أن كنت من المريدين المجتهدين ﴿ تحاميا ﴾ أى تحافظا عن ستة اشياء ﴿ عن الانس بالدنيا ﴾ ونسيان العقبى والاشتغال بغير ذكر المولى ﴿ و ﴾ عن ﴿ طول المكث للحساب ﴾ المتضمن لعذاب الحجاب ﴿ و ﴾ عن ﴿ الحبس ﴾ والتوقف ﴿ عن الجنة ﴾ ومافيها من الثواب ﴿ واللوم ﴾ أى وعن الملامة فى اكتساب السيئات ﴿ والتعيير ﴾ أى التوبيخ فى تقصير الطاعات ﴿ والحرمان عن الدرجات العالية ﴾ والمقامات الغالية ﴿ وهو ﴾ أى المبالغة على المنهج المذكور كله وردفيه ﴿ المأثور ﴾ عن السلف الصالحين . فعن الثورى وكان قد شدد على نفسه فقيل له : لو خففت لنلت الجنة أيضا ، فما هذه الشدة ؟ فقال : كيف لا اشدد على نفسى وقد ورد أن جارية تضحك عند زوجها فى الجنة فتشرق الجنان الثمانية بنور اسنانها فيظنون أن ذلك نور من جهة الرب سبحانه فيخرون ساجدين ؛ فنودوا أن ارفعوا رؤوسكم ليس الذى تظنون ، انما هو نور جارية تبسمت فى وجه زوجها » وأما ما حكى ان داود الطائى كان له جب مكسور فيه ماؤه ، فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب منه الماء الحار ، ويقول : من وجد لذة الماء البارد يشق عليه مفارقة الدنيا ، فلعله محمول على وقت رياضته وابتداء مخالفته النفس فى شهوته ، والا فيبعد من الزهد البارد لانه عليه السلام كان يستعذب الماء ويقول فى دعائه « اللهم أجعل حبك أحب إلى من حب الماء البارد » وقد دخل بستانا فقال لصاحبه « أن كان عندك ماء بارد فى شن والا كرعنا فاتى به فشرب » وكان

وَوَرَدَ «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَاسَقَى كَافِرًامِنْهَاشَرْبَةَ مَاءٍ» الدُّنْيَامَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَافِيهَا الَّامَا كَانَ لِلّٰهِ . ثُمَّ الحَالَاتُ الَّتِى قَبْلَ المَوْتِ دُنْيَاوَالَّتِى بَعْدَهُ آخِرَةٌ لَكِنَ العِبَادَةَ وَمَا لَابُدَّ مِنْهُ فِيهَامَعْدُودَةٌمِنَ الآخِرَةِبِخُرُوجِهَا عَمَّا جَمَعَ فِيمَاوَرَدَ (اَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

بعض العارفين يقول: اذا شربت الماء البارد أحمد الله من صميم قلبى. وأيضا أنما خلق الله اللذات الدنيوية لتكون انموذجا للذات الاخروية وقدقال تعالى: (قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق) وقال تعالى (ياايها الذين آمنوا كلوا من طيبات مااحل الله لكم ولاتعتدوا أن الله لايحب المعتدين) أى المتجاوزين عن الحد فى أمر الدين كالرهبانيين ﴿ وورد ﴾ فى الحديث ﴿ لو كانت الدنيا تعدل عند الله ﴾ أى تساوى وتماثل ﴿ جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء ﴾ رواه الترمذى من حديث سهل بن سعد . ورواه ابن ماجه بلفظ تزن بدل تعدل ، وقال قطرة ابدا بدل شربة ماء رواه الحاكم وصححه ﴿ الدنيا ملعونة ملعون ﴾ وفى نسخة وملعون ﴿ مافيها الا ماكان لله ﴾ وهو العبادة ومايعين عليها . وفى رواية الطبرانى من حديث أبى الدرداء « الا ما يبتغى به وجه الله عز وجل » واسناده لابأس به ورواه الترمذى من حديث أبى هريرة وحسنه. ولفظه « الاذكر الله وماوالاه وعالما ومتعلما» يعنى ومايجرى مجراه فانه سبحانه خالق الاشياء كلها لعباده كما يشير اليه قوله تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا) وخالق عباده لعبادته كما قال (وماخلقت الجن والانس الاليعبدون) فشكر نعمته أن يصرفها فى طاعته، وكفرانها أن يصرفها فى معصيته اوغفلته ﴿ ثم الحالات التى قبل الموت ﴾ خيرا اوشرا تسمى ﴿ دنيا والتى بعده ﴾ أى بعد الممات تكون ﴿ آخرة ﴾ فان من مات فقد قامت قيامته ، وقد يقال بين الموت والبعث حال يقال له البرزخ فانه الواسطة بين الدنيا والاخرى ﴿ لكن العبادة ومالابدمنه فيها ﴾ مما يعين عليها كالاكل والشرب واللباس والنوم والمخالطة ونحوها بقدر الضرورة ﴿ معدودة من الآخرة بخروجها عما جمع ﴾ من أمورها ﴿ فيما ورد ﴾ فى التنزيل ﴿ أنما الحياة الدنيا لعب ﴾ وهو مايتعب الشخص فيه نفسه من غير فائدة له ، وهو فعل الصبيان والمجانين ﴿ ولهو ﴾ وهو ما يشتغل به عن الطاعات ويلهو عن العبادات وهو فعل أهل الغفلة من الشباب

الآيَةَ ۞ فَهِىَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا وَمَتَاعُهَا مَاجُمِعَ فِيمَا وَرَدَ (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ) الآيَةَ وَالشُّغْلُ بِهَا حُبُّ حُظُوظِهَا بَاطِنًا وَتَحْصِيلُهَا ظَاهِرًا وَعِلَاجُ حُبِّهَا مَعْرِفَةُ الرَّبِّ وَالنَّفْسِ وَشَرَفِ الآخِرَةِ وَخَسَاسَةِ الدُّنْيَا ۞

وارباب المال والجاه، كما يشير اليه قوله تعالى (الهيكم التكاثر حتى زرتم المقابر) ﴿ الآية ﴾ أى (وزينة) وهى الغالب على النساء ومن تشبه بهن من السفهاء (وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد) وهو حال اكثر أهل الدنيا من الاغنياء والامراء ﴿ فهى ﴾ أى الاشياء التى جمعت فى الآية السابقة ﴿ الدنيا باجمعها ﴾ أى بتمامها ﴿ ومتاعها ﴾ مبتدأ خبره ﴿ ماجمع ﴾ من أنواعها ﴿ فيما ورد ﴾ فى التنزيل ﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ أى اللذات ﴿ الآية ﴾ أى (من النساء والبنين) أى دون البنات ولذا قيل فى قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات) أن البنات داخلة فى الباقيات الصالحات (والقناطير المقنطرة) أى الحمول الكثيرة (من الذهب والفضة) وقد ورد «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا ولن يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب» (والخيل المسومة أى المعلمة او المرسلة (والانعام) من الابل والبقر والغنم (والحرث) للزراعة والاشجار والاثمار والازهار (ذلك متاع الحياة الدنيا) اى (وما الحيوة الدنيا الامتاع الغرور) (والله عنده حسن المـــآب) وجزيل الثواب (وما عند الله خير للابرار) ﴿ والشغل بها حب حظوظها ﴾ اى لذاتها وشهواتها ﴿ باطنا وتحصيلها ظاهرا ﴾ واما الانبياء والأصفياء فاختار الله لهم الدرجات العليا فى العقبى والمحن والبلايا فى الدنيا، فعن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم « لقد كان الانبياء قبلى ليبتلى احدهم بالفقر فلا يجد الا العباء، وان كان احدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتلهم القمل ، وكان ذلك احب اليهم من العطاء اليكم» رواه ابن ماجه باسناد صحيح ، وعن ابن عباس قال «لما ورد موسى ماء مدين كانت خضرة البقل ترى من بطنه من الهزال » ﴿ وعلاج حبها معرفة الرب ﴾ فان معرفة الرب موجبة لحبه وحبه لا يجتمع مع حب غيره كما يشير اليه قوله سبحانه (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) ولانه سبحـــانه يبغضها فلا ينبغى لاحد ان يحبها ﴿ والنفس ﴾ اى ومعرفة قدرها حتى لايضيعها فى طلبها الدنية ، ويمنعها عن تحصيل المنازل السنية ﴿ وشرف الآخرة ﴾ ودرجاتها العاليـــة الباقيـــة ونفاسة مراتبها الرفيعة المنيعة ﴿ وخساسة الدنيا ﴾

﴿ البَابُ العِشْرُونَ فِى التَّوْحِيد . وَالتَّوَكُّلِ وَالْيَقِين ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَدْنَى رُتَبِ التَّوْحِيدِ مَحْضُ القَوْلِ وَهُوَ النِّفَاقُ وَالعِيَاذُ بِاللهِ مِنْهُ وَلَا يُفِيدُ الَّا عِصْمَةَ الدَّمِ وَالمَالِ فَوَرَدَ فَاذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ثُمَّ التَّصْدِيقُ كَمَا لِلْعَامِىِّ وَالمُتَكَلِّمِ

من خمسة شركائها وسرعة فنائها وكثرة عنائها وقلة غنائها ، ويكفيك فى ذمها ماورد فى حقها من «ان الدنيا جيفة وطلابها كلاب» فقدروى ابو الشيخ فى تفسيره عن على موقوفا «الدنيا جيفة فمن ارادها فليصبر على مخالطة الكلاب» واخرج الديلمى عن على مرفوعا «اوحى الله تعالى الى داود ياداود مثل الدنيا كمثل جيفة اجتمعت عليها الكلاب يجرونها افتحب ان تكون كلبا مثلهم فتجر معهم» ولاحمد عن عائشة مرفوعا ورجاله ثقات «الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له» وفى صحيح مسلم والترمذى عن ابى هريرة مرفوعا «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» ورواه احمد عن عبد الله بن عمرو بزيادة «فاذا فارق الدنيا فارق السجن» ثم الدنيا فتنة وبلية كما فى صحيح مسلم «الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون» وفقنا الله سبحانه وتعالى لما يحب ويرضى فى الدنيا والاخرى ، وبلغنا المقام الاسنى مع الذين احسنوا الحسنى انه جواد كريم *

﴿الباب العشرون فى التوحيد والتوكل واليقين﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ المنفرد بتوحيد الذات وتفريد الصفات عليه يتوكل المتوكلون وبه يتقرب المتقون الموقنون ﴿ادنى رتب التوحيد﴾ من مراتبه الاربع ﴿محض القول﴾ بالتفريد بان يقول الانسان بظاهر اللسان لااله الاالله وقلبه غافل عنه وهو جاهل به أومنكر له كتوحيد المنافق ﴿وهو﴾ اى قوله ﴿النفاق والعياذ بالله منه﴾ اى من النفاق وما يترتب عليه من الخلاف والشقاق ولا يفيد ذلك التوحيد فى الحال ﴿الاعصمة الدم والمال﴾ اى حفظ دم الموحد وماله ﴿فورد﴾ فى الحديث الصحيح وصدره «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لااله الا الله» ﴿فاذا قالوها﴾ أى كلمة التوحيد ﴿عصموا منى دماءهم وأموالهم﴾ تمام الحديث «الابحقها وحسابهم على الله» ﴿ثم التصديق﴾ معه وهو أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين ويكون اعتقاده ﴿كما للعامى﴾ أى كما هو اعتقاد العوام ﴿والمتكلم﴾ وهو الخائض

فَهُوَ لَا يَتَمَيَّزُ إِلَّا بِالحِيلَةِ الدَّافِعَةِ لِتَشْوِيشِ المُبْتَدِعَةِ وَيُفِيدُ النَّجَاةَ مِنَ الخُلُودِ فِي النَّارِ ثُمَّ مُشَاهَدَةُ صُدُورِ الكُلِّ مِنْهُ تَعَالَى وَيُفِيدُ اعْتِمَادَ القَلْبِ عَلَيْهِ وَانْقِطَاعَهُ عَمَّا سِوَاهُ وَهُوَ التَّوَكُّلُ

فى علم الكلام ﴿فهو﴾ أى المتكلم ﴿لا يتميز﴾ عن العامى فى هذا المقام ﴿الا بالحيلة﴾ أى الصنعة الجدلية ﴿الدافعة لتشويش المبتدعة﴾ المانعة من انخرام قواعد أهل السنة والجماعة ﴿ويفيد﴾ التصديق الجنانى مع الاقرار اللسانى ﴿النجاة من الخلود فى النار﴾ ولو كان صاحبه من الفساق والفجار ﴿ثم مشاهدة صدور الكل﴾ أى ظهور جميع مايقع فى الكون ﴿منه تعالى﴾ وفى الحقيقة هذا يسمى توحيد الافعال فى المصنوعات وما سبق توحيد الذات والصفات وهذا انما يكون بطريق الكشف بواسطة نور الحق لتنوير الأسرار وهو مقام المقربين الأبرار وذلك بان يرى أشياء كثيرة ظاهرها الأغيار ولكنه يراها على كثرتها صادرة من الواحد القهار ، فيقول المشاهد حينئذ ليس فى الدار غيره ديار ﴿ويفيد﴾ هذا التوحيد ﴿اعتماد القلب عليه﴾ فى أمور الدنيا والاخرى ﴿وانقطاعه عما سواه﴾ فلا يرى أحدا يضر وينفع أو يعطى ويمنع الااياه ﴿وهو التوكل﴾ أى الاعتماد على الله وعدم الالتفات إلى ما عداه، وتوضيحه أن ينكشف لك أن لافاعل الاالله وأن كل موجود من خلق ورزق، وعطاء ومنع وضر ونفع، وحلو ومر، وخير وشر، وغنى وفقر، وحياة وممات، الى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم الوجود فى دائرة الشهود فالمنفرد بابداعه وابدائه واختراعه هو الله سبحانه لاشريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ،بل كان منه خوفك واليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فانه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وماسواه مسخرون لااستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والارض ، وإذا انفتح لك ابواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا اتم من المشاهدة بالبصر . وأنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقامين ، ويبتغى به أن يتطرق إلى قلبك شائبة الشرك بشيئين: أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات ، والثانى الالتفات إلى الجمادات . أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه ، وإلى الغيم فى نزول المطر ، وعلى البرد فى اجتماع الغيم ، وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها وهذا كله

ثُمَّ رُؤْيَةُ عَدَمِ مَاسِوَاهُ وَيُفِيدُ الاسْتِغْرَاقَ بِهِ تَعَالَى وَالغَيْبَةَ عَنِ الغَيْرِ

شرك فى التوحيد وجهل بحقائق أمر التفريد ، ولذا قال تعالى (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر اذا هم يشركون) قيل معناه يقولون لولا استواء الريح لمانجونا . ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لايتحرك بنفسه مالم يحرك، وكذا محركه وهكذا ينتهى إلى المحرك الاول الذى لامحرك له ولاهو متحرك فى نفسه ،ومنه قوله تعالى (ومارميت اذرميت ولكن الله رمى) وأما الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الافعال الاختيارية فيقول الشيطان كيف ترى الكل من الله وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره ، فان شاء اعطاك وأن شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه ، وهو قادر عليك أن شاء حز رقبتك وأن شاء عفاعنك، فكيف لاتخافه ولاترجوه وأمرك بيده ؟ فانت تشاهد ذلك ولاتشك فيه ،وعند هذا زلت اقدام الاكثرين الاعباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين، فشاهدوا بنور البصائر أن جميع مافى السموات ومافى الارض: من الشمس والقمر والنجوم والمطر والارض والحجر والمدر والشجر ، وكل حيوان وملك وبشر مسخرات فى قبضة القدرة الالهية الصمدانية ؛ والقوة السبحانية الربانية .

ثم اعلم أنه سبحانه قال (وما تشاؤن الا أن يشاء الله) وأجمع السلف على أن ماشاء الله كان ومالم يشألم يكن فلا يتحرك الانسان ولا يسكن الااذاشاء الله شاء العبدأو لم يشأ فليست المشيئة اليه فمهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة الى مقدورها انصرفت القدرة لامحالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة، والقدرة محركة ضرورة عند انجزام المشيئة والمشيئة تحدث ضرورة فى القلب، فهذه ضروريات يرتبط بعضها الى بعض ، وليس للعبد ان يدفع وجود المشيئة ولاانصراف القدرة الى المقدور بعدها، ولاوجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة ،فهو مضطر في الجميع ، فان قيل فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وانت لاتنكر الاختيار فكيف تكون مجبرا مختارا اجيب بانه لو كشف لك الغطاء لعرفت انه فى عين الاختيار مجبور، لانه عبد مسخر مقهور ولذا قال بعض العارفين. لاتختر فان كنت تختار فاختر ان لا تختار، وربك تخلق مايشاء ويختار، والله سبحانه اعلم بحقائق الاسرار ﴿ثم رؤية عدم ماسواه﴾ اى مشاهدته بجنب وجود مولاه، فلا يرى فى الوجود الا واحدا وهو مشاهدة الصديقين الاحرار ﴿ويفيد﴾ هذا التوحيد ﴿الاستغراق به تعالى﴾ أي بشهوده ﴿والغيبة عن الغير﴾ اى الغفلة عن وجود غيره

وَهُــــوَ الفَنَاءُ

﴿ وهو ﴾ عندالصوفية﴿ الفناء ﴾فى التوحيدالحاصل من كمال الصفاءوجمال الوفاءمن حيث انه لا يرى الا واحدا،لا يرى نفسه ايضا،فاذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالواحدكان فانيا عن نفسه فى توحيده بمعنى انه فنى عن رؤية نفسه بالكلية وقديفنى عن رؤية فنائه ايضا ويسمى الفناء عن الفناء ويبقى له البقاء فى مشاهدة اللقاء ، فالاول موحد بمجرد اللسان وذلك يعصم صاحبه عن السيف والسنان ، والثانى موحد بجنانه مفهوم لسانه لكن ليس فيه انشراح وانفتاح لشانه،والثالث موحد بمعنى انه لم يشاهد الافاعلا واحدا.والرابع موحد بمعنى انه لم يظهر فى نظارشهوده غيرالواحد الواجب فى وجوده ولا يرى الكل من حيث انه كثير بل من حيث انه واحد وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد ويسمى مقام جمع الجمع فى حال التوحيد وهو ان لاتحجزه الكثرة عن الوحدة ولا تحجبه الوحدة عن الكثرة وبهذا يتبين لك أن توحيد الفعل مقصدعال للسالكين لكنه لا يخلو عن مشاهدة الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لايشاهد سوى الواحد الحق المطلق . فان قلت كيف يتصور ان لايشاهدالا واحدا وهو يشاهد السماء والارض وما بينهما من الطول والعرض وهى كثيرة فكيف يكون الكثيرواحدا؟فاعلم ان العارفين قالوا صدورالاحرار قبورالاسرار كما يشير اليه قوله عليه السلام «لو تعلمون ما اعلم» وقالوا ايضا : افشاءسر الربوبية كفر لكن قد يمكن الاشارة إلى كشف ما فيه ستر بان يقال الشىء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار، وقد يكون واحدا بنوع آخر من ملاحظة واستبصار ، وهذا كما أن الانسان كثير اذا التفت إلى روحه وجسده واطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وأعضائه ،وهو باعتبار آخر ومشاهدة اخرى واحد . وكم من شخص يشاهد انسانا ولا يخطر بباله كثرة امعائه واجزائه فهو فى حال الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفرق ، وكانه فى عين الجمع والملتفت الى الكثرة فى تفرقه ، فكذا كل ما فى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، وهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات اخر سواها كثير . ثم هذه المشاهدة التى لايظهر فيها الا الواحد الحق تارة تدوم وتارة كالبرق الخاطف وهى الاكثر والدوام نادر عزيز يغلب فى المجاذيب وإلى هذا المقام أشار الحسين بن منصور بن الحلاج حيث رأى الخواص يدور فى الاسفار فقال فيما ذا أنت ؟ قال ادور فى الإسفار لاصحح حالى فى التوكل وقد كان من المتوكلين

فقال الحسين . قد افنيت عمرك فى عمران باطنك فاين الفناءفىالتوحيد؟فكانالخواص فى تصحيح المقامالثالث من التوحيدفطالبهبالمقام الرابع منالتفريد . فان قلت. فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ؟ اذ معنى التوحيد أن لافاعل الاالله ومعنىالشرع اثبات الافعال للعباد فان كان العبد فاعلافكيف يكون الله فاعلا ؟ وأن كان اللهفاعلافكيف يكون العبد فاعلا ؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم فالجواب نعم ذلكغيرمفهوم إذا كانللفاعل معنى واحد ، وأن كان له معنيان ويكونالفعل مجملا ،ردداببنهمالم يتناقض، كما يقال قتلالامير فلانا ويقالقتله الجلاد ، لكن الامير قتل بمعنى آخروالجلاد قتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله فاعل بمعنى آخر ، فمعنىكون اللهفاعلا أنه المخترع الموجد ، ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذى خلقت فيه القدرة بعد أنخلق اللهفيه الارادة ، بعدأنخلق الله فيه العلم،ولاجل توافقذلكوتطابقهنسبالله سبحانه الافعال فى القرآن مرة إلى الملائكة واخرى الى العباد ، ونسبها بعينها مرة إلى نفسه فقال تعالى (قل يتوفيكم ملك الموت الذى وكل بكم) وقال (ثم توفته رسلنا) وقال (الله يتوفى الانفس حين موتها) وقال (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت اذرميت ولكن الله رمى)وهو جمع بينالنفى والاثباتظاهراولكن معناه مارميت بالمعنى الذى يكون به الرب راميا اذرميت بالمعنى الذى يكونبهالعبد راميا فانهمالغتان مختلفتان فالمعنىومارميتحقيقة اذرميتمجازا ولكن الله رمى حيث خلق فيك قوة الرمى أوخلق فى مرمى الوصول إلى عين العدو. وقيل مارميت خلقا اذرميت كسبا .ولكنالله قدررميك ازلا . وكذاذكراللهتعالىفىالقرآنالادلةوالآيات فى الارض والسموات ثم قال (اولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) وقال (شهد الله أنه لااله الاهو) فبينأنهالدليل على نفسهوذلك ليس بمتناقض بل طريق الاستدلال مختلف،فكم من طالبعرفالله بالنظرإلىالموجودات كماقالبعضهم:مانظرت شيئا الاورأيت اللهبعده ، وهذا طريق المريدالسالك . وكمن طالبعرفالموجودات باللهسبحانهكماقال بعضهم:مانظرتشيئا الاورأيت اللهقبله، وهذامسلك المريدالمجذوب.

ومن هنا قال من قال عرفت ربى بربى ، ولو لاربى لما عرفت ربى *

فالحاصلأنالفعليستعملعلىوجوهمختلفة فلاتناقض لهذهالمعانى اذافهمتحقائق المعانى ، ولذاقال عليه السلام للذى ناوله التمرة ، خذها لولم تأتها لاتتك،رواهابن حبان والطبرانى فاضاف الاتيانأليهوإلىالتمرة ومعلوم أنالتمرةلاتأتىعلى الوجهالذى يأتى الانسان به اليها ، وكذا لماقال ذلك التائب:اتوبإلىاللهولااتوبالىمحمدقال عليه

وَالالتفَاتُ الى الْغَيْرِ إمَّا الضَعْفُ اليَقين لتَطَرّقِ الشَّكِّ وَعدَمِ الاستيلاءِ عَلَى الْقَلْب

وَامَّا للضَعْف الجِبلِّيِّ كَالجَبَانِ مُطيع الوَهْمِ لَا يُطيقُ البيتُوتَةَ فِي بَيْت خَالٍ أَوْ فيه ميِّتٌ

السلام «عرف الحق لاهله» وذلك لان من اضاف الكل الى الله فهو المحقق الذى عرف الحق لاهله، ومن اضاف الى غيره فهو المتجوز فى مرامه المستعير فى كلامه ومن هنا قال عليه السلام «اصدق بيت قالته العرب قول لبيد : الاكل شيء ما خلاالله باطل» متفق عليه من حديث ابي هريرة . والمعنى أن مالاقوام له بنفسه وانما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وانما حقيقته وحقيته لغيره لا بنفسه فاذن لاحق بالحقيقة الاالحى القيوم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل اى مضمحل وزائل وكما قال تعالى (كل شى هالك الا وجهه) ومن هنا قال سهل : يامسكين كان ولم تكن، ويكون ولا تكون، فلما كنت اليوم صرت تقول انا وانا كن الآن كأن لم تكن ،فانه اليوم كما كان . وهذا تفصيل ما اجمل فى قول بعضهم كان الله ولم يكن معه شيء ، وهو الآن على ما عليه كان. هذا واذ ثبت فى نفسك بكشف او اعتقاد جازم انه لافاعل الا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك ان له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والرحمة بجملة الآحاد وانه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، لا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم تلتفت الى غيره بوجه ، ولا الى نفسك وحولك وقوتك فانه لاحول ولا قوة الا بالله ، فالحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة ﴿والالتفات الى الغير﴾ حينئذ لاحد الامرين ﴿اما الضعف اليقين﴾ وذلك ﴿لتطرق الشك﴾ وخطوره فى امور يجب عدم الالتفات اليها ﴿وعدم الاستيلاء﴾ اى ولقلة غلبة اليقين واستعلائه ﴿على القلب﴾ ودخول اليقين فى سويدائه ﴿واما للضعف الجبلى﴾ اى الخلقى الطبيعى وهو مرض القلب باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة لديه فان القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له من غير نقصان فى اليقين فان من كان يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر عنه طبعه ويمتنع عليه تناوله ﴿كالجبان مطيع الوهم لايطيق البيتوتة فى بيت خال او فيه ميت﴾ فلو كلف العاقل ان يبيت مع الميت فى قبر او فراش او بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقنا لكونه ميتا وانه جماد في الحال وإن سنة الله مطردة بانه لا يحشره الآن .

وَأَدْنَى رُتَبِ التَّوَكُّلِ أَنْ يَعْتَمِدَ اعْتِمَادَ الْمُوَكِّلِ عَلَى الْوَكِيلِ لِلْعِلْمِ بِشَفَقَتِهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ ، ثُمَّ اعْتِمَادَ الطِّفْلِ عَلَى الْأُمِّ وَتُفَارِقُ الْأُولَى بِعَدَمِ الِالْتِفَاتِ عَلَى الِاعْتِمَادِ

ولا يحييه، ولو احياه لعاد كما كان واحبه وابقاه وعانقه وارتضاه، كما أن سنته سبحانه مطردة بان القلم الذى فى يده لايقلبه حية وان كان قادرا عليه ومع أنه لا يشك فى هذا اليقين فلينفر قلبه عن مضاجعة الميت فى فراش بل الميت معه فى بيت ولا ينفر عن سائر الجمادات . وذلك جبن فى القلب وهو نوع ضعف قل مايخلو الانسان عن شىء منه وان قل، وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع اغلاق الباب واحكامه . فاذن لايتم التوكل الا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا اذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته ، فالسكون فى القلب شىء واليقين شىء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى (اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) فالتمس أن يشاهد احياء الميت بعينه ليترقى من مقام علم اليقين الى عين اليقين .

هذا وقد قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) فالانسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان، ولذا قيل: الشفيق بسوء الظن مولع واذا انضم اليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلفين على الطلب والكسب غلب سوء ظنه وضعفت قوة توكله . وعنه عليه السلام : أن الله عز وجل بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط ﴿ وادنى رتب التوكل ﴾ على الله ﴿ ان يعتمد ﴾ عليه ﴿ اعتماد الموكل ﴾ من المخلوق ﴿ على الوكيل ﴾ مثله ﴿ للعلم ﴾ أى لعلم الموكل ﴿ بشفقته تعالى وقدرته وعلمه ﴾ كما قدمناه وهذه الدرجة الاولى. ﴿ ثم ﴾ التوكل الاعلى منه أن يعتمد عليه سبحانه ﴿ اعتماد الطفل على الام ﴾ فيكون حاله مع الله كحالة الطفل مع أمه ، فانه لايعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد الا اياها ، فا ذاراها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يتركها ، وأن نابه أمر فى غيبتها كان اول سابق الى لسانه ياأماه ياأماه واول خاطر يخطر على قلبه أمه فانها مفزعه وقد وثق بكفالتها وشفقتها وكفايتها ورعايتها فمن كان تالهه إلى الله ونظره الى مولاه واعتماده عليه فى دنياه واخراه كلف به كما تكلف الصبى بامه بل أقوى منه ، فالله سبحانه أرحم الراحمين فيكون متوكلا حقا كما أن الطفل متوكل على أمه صدقا ﴿ وتفارق ﴾ هذه الرتبة الثانية الدرجة ﴿ الأولى ﴾ بشيئين ﴿ بعدم الالتفات على الاعتماد .

اسْتِغْرَاقًا بِالْأُمِّ وَتَرْكِ التَّدْبِيرِ فَتِلْكَ لَا تنافيه بِالطَّرِيقِ الَّذِي رَسَمَهُ الْوَكِيلُ ثُمَّ أَنْ يَكُونَ كَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيِ الْغَسَّالِ

استغراقا بالام ﴾ فى باب الاستناد اذالصبى اذاطولب بتفصيل الكل لايعرف أن التوكل ماهو فلا يعرف الا الوكيل وتوضيحه فى مقام الفرق بين هذا وبين الاول ان هذا متوكل وقد فنى فى توكله عن توكله اذليس يلتفت قلبه الى التوكل وحقيقته بل على المتوكل عليه فقط فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليه وأما الاول فمتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله حيث له التفات الى توكله وشعور به وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده وإلى هذه الدرجة اشار سهل حيث سئل عن التوكل ماأدناه فقال ترك الأمانى قيل فاوسطه قال ترك الاختيار وهذا اشارة الى الدرجة الثانية وسئل عن اعلاه فلم يذكره وقال لم يعرفه الامن بلغ أوسطه ﴿ وترك التدبير ﴾ أى وتفارق الثانية الاولى بترك تدبير الامور اذا كان فى مقام الحضور ﴿ فتلك ﴾ الرتبة الاولى ﴿ لا تنافيه ﴾ أى أصل التدبير ﴿ بالطريق الذى رسمه ﴾ أى بينه ﴿ الوكيل ﴾ به وعينه بان يفعله تصريحا أو تلويحا ولكن تنافى بعض التدبيرات التى مارسمه بها ولا كلفه فى تحصيلها ، وذلك كالمتوكل على وكيله فى الخصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذى أشار اليه وكيله أو التدبير الذى عرف من عادته وسنته دون صريح اشارته فاما الذى يعرفه باشارته بان يقول لست أتكلم الا بحضورك فيشتغل لامحالة بالتدبير للحضور ولايكون هذامنا قضا لتوكله عليه اذ ليس هو فزعا منه الى حول نفسه وقوتها فى اظهار الحجة ولا إلى حول غيره بل من تمام توكله أن يفعل مارسمه له اذ لولم يكن متوكلا ولا معتمداً له فى قوله لما حضر بقوله وأما المعلوم بعادته واطراد سننه فهو ان يعلم من عادته أنه لا يحاج الخصم الا من السجل ، فتمام توكله ان كان متوكلا عليه أن يكون معولا على سنته وعادته ووفائه بمقتضاها وهو أن يحمل السجل مع نفسه اليه عند مخاصمته فاذن لا يستغنى عن التدبير فى الحضور وعن التدبير فى احضار السجل ونحوه من الشهود فى الامور ﴿ ثم ﴾ أعلى رتب التوكل على الله تعالى ﴿ أن يكون ﴾ المتوكل بين يدى الله سبحانه فى حركاته وسكناته ﴿ كالميت بين يدى الغسال ﴾ حال تقلبه وسائر تصرفاته لايفارقه الا فى أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذى

وَتفَارقُ الثَّانيَةَ بِتَرْكِ السُّؤَالِ مُطْلَقًا فتلْكَ انَّمَا تُنَافيه مِنْ غَيْرِه تَعَالَى وَهِيَ أَنْدَرُ وُقوعًا وَبَقَاءً، ثُمّ الثَّانيَةُ ثُمّ الأُولَى

قوى يقينه بانه سبحانه مجرى الحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات ، وأن كله يحدث جبرا فيكون غائبا عن الانتظار لما يجرى عليه ﴿ وتفارق ﴾ هذه المنزلة الثالثة الدرجة ﴿ الثانية بترك السؤال مطلقا ﴾ سواء كان السؤال من الله اومن غيره فى جميع الاحوال كما روى عن الخليل أنه لما قال له جبريل الك حاجة قال أما اليك فلا وأما الى الله فبلى ، فقال سل ربك فانك فى مقام البلاء المورث للولاء ، فقال حسبى من سؤالى علمه بحالى *

وحاصله أن صاحب هذا المقام يفارق الصبى فيما له من المرام ، فان الصبى يفزع إلى أمه ويصيح وراءها ، ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها ، بل مثال هذا مثال صبى فرض أنه يعلم أمه وإن لم يزعق بامه فالام تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالام تحمله وانه وإن لم يطلب منها اللبن فالام تبتدى وترضعه . وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ورحمته ورعايته وأنه يعطى ابتداء افضل مما يسأل فكم من نعمة ابتدأها قبل الدعاء وبغير الاستحقاق كما يشير اليه قوله تعالى (وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ﴿ فتلك ﴾ اى الرتبة الثانية ﴿ انما تنافيه ﴾ اى السؤال ﴿ من غيره تعالى ﴾ فقط ﴿ وهى ﴾ اى الدرجة الثانية ﴿ اندر ﴾ اى اقل ﴿ وقوعا و ﴾ اعز ﴿ بقاء ثم الثانية ثم الاولى ﴾ كذلك فان انبساط القلب الى ملاحظة الحول والقوة والاسباب طبع ، وانقباضه بالكلية عن ملاحظة هذه الاشياء عارض لا يدوم، فاذا رجع حال المتوكل الى التبرى من الحول والقوة ، وهذا هو تحقيق معنى لا حول ولا قوة الا بالله حقــا صــدقا ، وقد اشكل امر الحول والقوة على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى انه تدقق فى الرأى والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره فهى مهلكة مخطرة ، ومزلقة قدم عظيمة هلك فيها العالمون اذ اثبتوا لانفسهم امرا وهو شرك فى التوحيد واثبات خالق سوى الله فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله اياه فقد علت رتبته ، وعظمت نسبته ، ورفعت درجته، وارتفعت همته، وهو الذى يصدق بمعنى قوله: لا حول ولا قوة الا بالله . وعن بعض العارفين انه قال ما مضمونه : اسأت

وَلَا بُدَّ مِنْهُ فَوَرَدَ (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) « وَلَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ »

بالذنب واعتذرت منه الى الرب ، مع ان اعتذارى عند قلبى اسوأ من ذنبى لتضمنه دعوى الوجود والقدرة والفعل . وهذه كلها مخصوصة بربى ﴿ولا بد منه﴾ اى من التوكل فى امر الرزق وغيره لثمانية اشياء ﴿فورد﴾ فى التنزيل ﴿وعلى الله﴾ اى لا على ماسواه ﴿فتوكلوا ان كنتم مؤمنين﴾ كاملين، أو اذا صرتم مؤمنين والامر للوجوب. وفى آية اخرى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال (نعم اجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ اى كافيه فيما تمناه وقال (أليس الله بكاف عبده) فمن يطلب من غيره الكفاية فهو مكذب بهذه الآية. وقال (ان الله يحب المتوكلين) وناهيك بخصلة موجبة للمحبة الاهلية وقال (ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) اى عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ الى حماه وزمامه وبابه ، حكيم لا يقصر عن تدبير امر من توكل على حسن تدبيره وفق تقديره وقال (وتوكل على الحى الذى لا يموت) ايماء الى ان من يموت لا اعتماد عليه ولا استناد اليه كما حكى عن الخواص ﴿ولو توكلتم﴾ وفى رواية لو أنكم تتوكلون ﴿على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير) تمامه « تغدو خماصا وتروح بطانا » رواه الترمذى والحاكم وصححاه من حديث عمر وهو مقتبس من قوله تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) وفى رواية زيادة « ولمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال » وفى رواية للبيهقى « لو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال » وعن ابن مسعود مرفوعا « أريت الامم بالموسم فرأيت امتى قد ملأت السهل والجبل فأعجبنى كثرتهم وهيئاتهم ، فقيل لى افرضيت؟ فقلت نعم، فقيل ومع هؤلاء سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب، قيل من هم يارسول الله؟ قال الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون . فقام عكاشة بن محصن فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم فقال عليه السلام سبقك بها عكاشة » رواه منيع باسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس . وللحاكم وغيره من حديث ابن عباس « من سره أن يكون اغنى الناس فليكن بما عندالله اوثق منه بما فى يديه » وللطبرانى وغيره من رواية

الحسن عن عمران بن الحصين ولم يسمع منه أنه قال عليه السلام «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله اليها» ويروى أنه لما قال جبريل لابراهيم الخليل ألك حاجة فقال اما اليك فلا وفاء بقوله حسبى الله ونعم الوكيل انزل الله فيه (وابراهيم الذى وفى) وقد اوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام «مامن عبد يعتصم بى من دون خلقى فيكيده أهل السموات والارض الا جعلت له مخرجا» وقال سعيد بن جبير : لدغتنى عقرب فاقسمت على أمى لتسترقين فناولت الراقى يدى التى لم تلدغ . وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا الاما كتبه الله لك . وقال هرم بن حيان لاويس القرنى : اين تأمرنى أن اكون ؟ فأومأ الى الشام، فقال هرم كيف المعيشة بها فقال اويس : اف لهذه القلوب قد خالطتها الشكوك فما تنفعها الموعظة . وقال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلا وجدت الى كل خير سبيلا، وقال ابو موسى الديلى قلت لابى يزيد : ما التوكل؟ فقال: ماتقول انت؟ فقلت ان اصحابى يقولون: لو ان السباع والافاعى عن يمينك ويسارك ماتحرك لذلك سرك ، فقال ابو يزيد : نعم هذا قريب، ولكن لو ان اهل الجنة فى الجنة يتنعمون وأهل النار فى النار يعذبون ثم وقع لك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل قال فى الاحياء مما ذكره أبو موسى خبر عن أعلى أحوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة وان مافعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالاضافة الى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر وأبو يزيد قل مايتكلم الاعن اعلى المقامات واقصى الدرجات ، وليس ترك الاحتراز عن نحو الحيات شرطا فى المقام الاول من التوكل ، فقد احترز الصديق فى الغار اذ سد منافذه، الا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه باطن سره ، أو يقال إنما فعل ذلك شفقة على رسوله لا على نفسه ، وإنما يزول التوكل بحركة سره ولغيره لامر يرجع إلى نفسه. وللنظر فى هذا مجال لان أمثال ذلك واكثر منه لايناقض أحوال التوكل، فان حركة السر من الحيات هو الخوف، وحق المتوكل أن لا يخاف تسلط الحيات ، إذ لاحول للحيات ولا قوة الا بالله. وإن احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته فى الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير ، ويشير إلى هذا المقام قوله تعالى لموسى (لاتخف إنى لا يخاف لدى المرسلون) وقال تعالى (فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الاعلى) لانك فى المنظر

وَأَيضًا فيه التَّفرغُ للعِبَادَة عَن الالْتِفَات، وَأَيْضًا لايتغيرُ المُقدرُ المُقسومُ فوردُ «الرِّزق مقسوم مفروغ»

الاعلى ﴿ وأيضا ﴾ أى مما لابد من التوكل لوجوبه لابد منه لما يحصل ﴿ فيه التفرغ للعبادة عن الالتفات ﴾ الى تحصيل الاقوات كالمنع عن ارادة طريق السعادة، فقد سئل ذوالنون المصرى عن التوكل فقال: خلع الارباب وقطع الاسباب فخلع الارباب اشارة الى علوم التوحيد، وقطع الاسباب الى الاعمال فى مقام التفريد، فقيل له زدنا فقال القاء النفس فى العبودية واخراجها من الربوبية، يعنى بالتبرى من الحول والقوة ﴿ وايضا ﴾ لابد من التوكل فانه كما هو المعلوم ﴿ لايتغير المقدر المقسوم ﴾ قال تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) الآية وقد سئل حمدون القصار عن التوكل فقال: إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى ذلك فى عنقك، وإن كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير ان تترك لها وفاء فلا تيأس من الله ان يقضيها عنك، ويقرب منه قول صاحب المنازل: مابيدى لم اعرف بصيب من ومايصيبنى لم اعرف بيد من، وفى هذا إشارة الى مجرد الايمان بسعة القدرة وان فى المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الاسباب الظاهرة (فورد الرزق مقسوم مفروغ) ليس له أصل بهذا المبنى ولكنه صحيح من حيث المعنى . فللبيهقى فى الشعب مرفوعا عن أم الدرداء « ان الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله » ويشير اليه قوله سبحانه (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم) بل فيه تنبيه نبيه على أن مابقى له شيء من رزقه لم يتأت له طلب أجله . وقد قال بعض العلماء: لو هرب العبد من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لادركه، وأنه لو سأل الله أن لايرزقه لما استجاب له وكان عاصيا، ويقال له ياجاهل كيف أخلقك ولا أرزقك، ولذا قال ابن عباس: اختلف الناس فى كل شيء الا فى الرزق والاجل فانهم أجمعوا على أن لارازق ولا مميت الا الله . وقال عيسى عليه السلام : انظروا الى الطير لاتزرع ولا تحصد ولا تدخر والله يرزقها يوما بيوم. فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا الى الانعام والوحوش كيف قيض الله لها الرزق . وقال أبو يعقوب السوسى : المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدى العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم : العبيد كلهم فى رزق الله لكن بعضهم يأكل بذل السؤال وبعضهم بتعب وانتظار

أَرْبَعٌ فُرِغَ مِنْهُنَّ الخَلْقُ وَالخُلُقُ وَالأَجَلُ وَالرِّزْقُ» وَأَيْضًا المَطْلُوبُ هُوَ العُدَّةُ عَلَى الطَّاعَةِ وَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِعْطَائِهِ لِسَبَبٍ حَاصِلٍ بِالطَّلَبِ أَوْ دُونَ السَّبَبِ

كالتجار ، وبعضهم بامتهان كالصناع ، وبعضهم بعز كالصوفية يعبدون فيشهدون العزيز فياخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة ، ويشير الى هذا المقام قوله تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون) الى أن قال : (ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون) ﴿أربع فرغ منهن الخلق﴾ بالفتح ﴿والخلق﴾ بالضم ﴿والاجل والرزق﴾ رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود ولفظه « فرغ الى ابن آدم من أربع : الخلق والخلق والرزق والاجل » ورواه أحمد والطبرانى عن أبى الدرداء بلفظ « فرغ الله عز وجل الى كل عبد من خمس : من أجله ورزقه وأثره ـ أى عمله ـ ومضجعه ـ أى محل موته ـ وشقى او سعيد ولقد احسن من قال من اهل الفنون .

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق * ويرزق فى غشاوته الجنين

﴿وايضا﴾ لابد من التوكل اذ ﴿المطلوب﴾ من العبد ﴿هو العدة﴾ أى الاستعداد ﴿على الطاعة﴾ لزاد المعاد ﴿وهو تعالى قادر على اعطائه لسبب حاصل بالطلب او دون السبب﴾ اى او حاصل بغيره من انواع الكسب، فقد قال يحيى بن معاذ فى وجود العبد الرزق دلالة على ان الرزق مأمور بطلب العبد ويؤيده قوله عليه السلام للسائل بعد اعطائه التمرة « خذها ولو لم تأتها لأتتك » وقد تقدم مبناه ومايؤيده من معناه . وسئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل فقال التعلق بالله فى كل حال . فقال السائل : زدنى فقال ترك كل سبب موصل إلى سبب حتى يكون الحق المتولى لذلك . فالاول عام المقامات الثلاثة المتقدمة ، والثانى اشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثل توكل ابراهيم الخليل اذ قال له جبريل : ألك حاجة ؟ فقال أما اليك فلا ، اذ كان سؤاله سببا يوصل الى سبب وهو حفظ جبريل له ، فتركه ثقة بأن الله ان أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو المتولى لذلك . وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله سبحانه فلم ير معه غيره ، وهو حال عزيز فى نفسه ، ودوامه ان وجد أبعد منه وأعز

وَالْمَوْتُ جُوعًا مُقَدَّرٌ أَيْضًا كَالْمَوْتِ شِبَعًا

﴿ والموت جوعا مقدر أيضا كالموت شبعا ﴾ فلا بد من التوكل سواء كان شبعانا أو جيعانا، وقد قال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ، فالاول إشارة إلى فزع العبد اليه وابتهاله وتضرعه بين يديه ، والثانى إشارة الى كمال توكله عليه . فعن أبى على الدقاق : التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن الى وعده ، والمسلم يكتفى بعلمه ؛ والمفوض يرضى بحكمه *

ثم اعلم أن الشخص اذا كان بطالا فعليه أن يصير كاسبا وعمالا ، ولا معنى للتوكل فى حقه الا ما يليق بمقامه وفق مرامه ، فان كمال التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فهو خاصة للمجتهدين ، إما من العلماء الزاهدين وإما من الصلحاء العابدين ، فما للبطال والاتكال واذا كان مشتغلا بالله وملازما لمسجده أو بيته ، ومواظبا على علمه وعبادته بتحسين نيته وتزيين رعايته فالله سبحانه يقرر حبه فى قلوب خلقه حتى يحملوا اليه فوق كفايته ، فما روى الى الآن من قديم الزمان عالم أو عابد استغرق الاوقات بالله سبحانه وتعالى وهو فى وسط الديار من القرى والامصار فات جوعا بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس يعوله لقدر عليه ، فمن كان لله كان الله له ، لكن ينبغى أن يكون نظره الى مسبب الاسباب لا الى الاسباب . نعم لا يطمع فى الحلوى والطير السمانى والثياب الرفيعة والبيوت المنيعة مع انه لو قدر له شىء من ذلك فلا بد من ظهوره هنالك كما يشير اليه (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) (وربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وفى الخبر أبى الله أن يرزق عبده المؤمن الا من حيث لا يحتسب . فالاهتمام الكثير بأمر الرزق قبيح من ذوى الدين ، وهو أقبح من العلماء المجتهدين ، لان من شرطهم القناعة والاشتغال بالطاعة حسب الاستطاعة الا اذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن غالبا فاشتغاله بالسلوك مع الاخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى لانه تفرغ للمولى واعانة للمعطى على نيل الثواب فى العقبى ، ومن نظر الى مجارى سنة الله علم أن الرزق ليس على قدر الاسباب ولا على كد الاكتساب ولذا سأل بعض الاكاسرة حكيما عن الاحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال : اراد الصانع أن يدل

وَأَيْضًا الصَّلاحُ مستور ،وأيضا انه ضَمِنَ الرِّزْقَ بلا تَعْلِيق فَوَرَدَ (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ الاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) فَمَا أَقْبَحَ مَنْ يَثِقُ عَلَى سُوقِىٍّ بَعْدَ الاقْرَاضِ أوِ الضِّيَافَةِ وَلاَ يَثِقُ عَلَى ضَمَانِهِ تَعَالَى

على نفسه ، اذ لو رزق كل عاقل وحرم كل جاهل لظن أن العقل رزق صاحبه ، فلما رأوا خلافه علموا ان الرزق من غيرهم ولا ثقة بالاسباب الظاهرة لهم ، فقد دخل جماعة على الجنيد فقالوا : نطلب الرزق فقال ان علمتم فى اى موضع هو فاطلبوه ، فقالوا انسأل الله تعالى فقال إن علمتم انه ينسا كم فذ كروه ، فقالوا ندخل البيت ونتوكل على الله تعالى وننظر مايكون ، فقال التوكل على التجربة شك،قالوا فما الحيلة؟قال ترك الحيلة . وقال احمد بن عيسى الخراز كنت فى البادية فنالنى جوع شديد فغلبتنى نفسى ان اسأل الله عز وجل طعاما فقلت ليس هذا من افعال المتوكلين ، فطالبتنى ان اسأل الله تعالى صبرا ، فلما هممت بذلك سمعت قائلا يقول :

وتزعم انه منـــا قريب وانا لانضيع لمن اتانا
ويسألنا القوى جهدا وصبرا كأنا لانراه ولايرانا

﴿ وايضا ﴾ لابد من التوكل اذ ﴿ الصلاح ﴾ فى الامور ﴿ مستور ﴾ لان من عرف الله تعالى وعرف افعاله وعرف سنته فى اصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب فانه لايدرى اى الاسباب خير له كما قال عمر رضى الله عنه :لا ابالى اصبحت غنيا او فقيرا فانى لاادرى ايهما خير لى ﴿ وايضا ﴾ لابد من التوكل حيث ﴿ انه ﴾ اى الله سبحانه ﴿ ضمن الرزق بلا تعليق ﴾ اى من غير تقييد بشرط الكسب والطلب ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ﴾ أى ولو لم تكسبه ولم تطلبه لاسيما والرزق مبهم فى نفسه غير معلوم باعتبار محله وجنسه ، فعن ابراهيم بن ادهم سألت راهبا من اين تاكل ؟ فقال ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى مرة من اين يطعمنى ﴿ فما اقبح من يثق ﴾ أى يعتمد ﴿ على سوقى ﴾ مع أن الغالب عليه الكذب وخلف الوعد ﴿ بعد الاقراض او الضيافة ولا يثق على ضمانه تعالى ﴾ مع كمال صدقه وجمال وعده .وقد قيل : مكتوب فى التوراة ملعون من ثقته انسان مثله وفى الحديث « من اعتز بالعبيد أذله الله» رواه أبو نعيم فى الحلية عن عمر وقد حكى عن عابد أنه عكف فى مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الامام بالمسجد لو اكتسبت

وَأَيْضًا لَافَائِدَةَ فِى الطَّلَبِ الَّا الْمَذَلَّةُ وَضَيَاعُ الْوَقْتِ ؛ وَأَيْضًا الْحَيَاةُ فِى الْاسْتِقْبَالِ مَشْكُوكٌ وَالْمَوْتُ مُتَيَقَّنٌ وَالْاسْتِعْدَادُ لِلْمُتَيَقَّنِ أَوْلَى بِخِلَافِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لِوُرُودِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَتَعْلِيقِهِمَا عَلَى الْعَمَلِ ، وَأَمَّا مَاوَرَدَ (وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ) فَالْعِلْمُ وَالثَّوَابُ أَوْهُوَ أَمْرُ إِبَاحَةٍ وَلَايُنَافِيهِ الْكَسْبُ لِأَنَّهُ عَمَلُ الْبَاطِنِ

كان أفضل لك .فلم يجبه حتى اعادها ثلاثا ، فقال فى الرابعة : يهودى فى جوار المسجد قد ضمن لى كل يوم رغيفين ، فقال إن كان صادقا فى ضمانه فعكوفك فى المسجد خير لك ، فقال : ياهذا لولم تكن إماما تقف بين يدى الله وبين العباد مع هذا النقص فى التوحيد خيرا لك ، يعنى فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى للرزق ﴿ وأيضا ﴾ لابد من التوكل اذ ﴿ لا فائدة فى الطلب ﴾ حيث لا يزيد بطلبه ولا ينقص بتركه فلا منفعة فى طلبه ﴿ الا المذلة ﴾ لمخلوق مثله ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ﴿ وضياع الوقت ﴾ أى وتضييع العمر فى غير عبادة هى المطلوب من العبد بحسب الامر ﴿ وأيضا ﴾ لابد من التوكل اذ ﴿ الحياة فى الاستقبال مشكوك والموت متيقن ﴾ مسلوك ﴿ والاستعداد للمتيقن اولى ﴾ من الاستعداد للمشكوك ﴿ بخلاف الثواب والعقاب ﴾ فانهما ولو كانا مقدرين كسائر الاسباب ، لكن لابد للانسان أن يسعى فى اكتساب ما يوجب الثواب وفى اجتناب ما يقتضى العقاب ﴿ لورود الاوامر والنواهى ﴾ فى الكتاب ﴿ وتعليقهما على العمل ﴾ حيث قال (ومن يعمل من الصالحات) (ومن عمل صالحا) الآيات . وقال تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) (وأن ليس للانسان الا ما سعى) ﴿ وأما ماورد ﴾ فى التنزيل ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ فقد يتوهم منه أن المعنى اطلبوا من رزق الله ، وليس كذلك ﴿ فالعلم والثواب ﴾ هما المرادان من فضل الله ﴿ او هو أمر اباحة ﴾ بقدر الحاجة ، او امر بطلب الحلال دون الشبهة هذا وقد يظن ان معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة وهذا ظن الجهال وحرام فى الشرع والشرع قد اثنى على المتوكلين ولا ينال بمحظور مقام من مقامات الدين فدفعه بقوله ﴿ ولا ينافيه ﴾ اى التوكل اربعة اشياء منها ﴿ الكسب لانه ﴾ اى التوكل ﴿ عمل الباطن ﴾ فيجتمع مع عمل الظاهر بل هو اتم عند بعض ارباب السرائر ثم فى مراتب الكسب تفصيل باعتبار السبب

فَانْ كَانَ السَّبَبُ مَقْطُوعًابه بارْتبَاط المُسَبَّب لسُنَّته تَعَالَى كَمَدِّ اليَد للطَّعَام وَالْوقَاع للوَلَد وَبثِّ البَذْر للحَصَاد فَالتَّرْكُ خَطَأٌ فَوَرَدَ (فَلَنْ تَجدَ لسُنَّة الله تَبْديلًا) وَإنْ كَانَ مَظْنُونًا بعَدَم حُصُول المُسَبَّب دُونَهُ غَالبًا كَحَمْل الزَّاد للسَّفَر فى البَوَادى فَكَذَلكَ لأَنَّهُ

﴿ فان كان السبب مقطوعا به بارتباط المسبب ﴾ بحيث لم يحصل المسبب بدون السبب ﴿ لسنته تعالى كمد اليد للطعام ﴾ اى لا كله ﴿ والوقاع ﴾ اى وكالجماع ﴿ للولد ﴾ اى لخلقه ﴿ وبث البذر للحصاد ﴾ بالفتح والكسر اى لقطعه ﴿ فالترك خطأ ﴾ بل جنون محض ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (ولن تجد لسنة الله تحويلا) وتوضيحه أنه اذا كان الطعام موضوعا بين يديك وانت جائع محتاج اليه ولكنك لست تمد اليد اليه وتقول انا متوكل وشرط التوكل ترك السعى ، ومد اليد الى الطعام سعى وحركة ، وكذا مضغه بالاسنان وابتلاعه باطباق أعالى الحنك على أسافله ، فهذا جنون محض وجهل ظاهر وليس من التوكل فى شيء ، فانك ان انتظرت أن يخلق الله شبعا دون أكل الخبز ، او يخلق فى الخبز حركة اليك أو يسخر ملكا ليضغه ويوصله الى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع الارض وطمعت ان يخلق الله نباتا من غير بذر ، أو تلد الزوجة من غير وقاع كما ولدت مريم ، فهذا وامثاله جنون وليس التوكل فى هـــذا المقام بالعمل بل بالعلم والحال اما العلم فهو أن تعلم أن الله تعالى خالق الطعام واليد والاسنان وقوة الحركة وأنه هو الذى يطعمك ويسقيك ويشبعك ويرويك واما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتماده على الله سبحانه وتعالى لا على اليد والطعام فكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف فى الحال . وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك وكيف تثق على حضورها لطعام وربما يسلط الله عليك من يقلبك عليه . واذا كان هذا عمله وحاله فليمد اليد اليه فانه متوكل على الله ومعتمد عليه ﴿ وان كان ﴾ السبب ﴿ مظنونا ﴾ اى مشكوكا فيه ﴿ بعدم حصول المسبب دونه ﴾ أى من غير السبب ﴿ غالبا كحمل الزاد للسفر فى البوادى ﴾ التى لا يطرقها الناس الا نادرا ﴿ فكذلك ﴾ تركه خطأ وجنون وإيقاع للنفس فى التهلكة ﴿ لأنه ﴾

سُنَّةُ الأَوَّلِينَ لَكِنَّهُ يَجُوزُ إِنِ ارْتَاضَتِ النَّفْسُ وَصَبَرَتْ عَنِ الطَّعَامِ أُسْبُوعًا أَوْ مَاقَرُبَ مِنْهُ دُونَ الشُّغْلِ عَنْهُ تَعَالَى وَقَدَرَتْ عَلَى الاقْتِيَاتِ بِالحَشِيشِ

أى حمل الزاد فى السفر ﴿سنة الاولين﴾ أى عادة الانبياء والمرسلين وطريقة السلف الصالحين من الصحابة والتابعين ﴿ لكنه ﴾ أى ترك حمل الزاد ﴿ يجوز ﴾ ولذا كان يفعل الخواص وهو من الخواص لكنه بالنسبة إلى العوام القاء للنفس فى التهلكة وهو حرام. وإنما يجوز ﴿ إن ارتاضت النفس ﴾ فى مقام المرام ﴿ وصبرت عن الطعام اسبوعا ﴾ أى سبعة ايام ﴿ اوماقرب منه ﴾ أى من الاسبوع . واقله أن يكون ثلاثة ايام ولياليها . وقد روى عن أبى تراب النخشبى رأى صوفيا مديده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة ايام ، فقال له : لا يصلح لك التصوف ، أى لا تصوف الامع التوكل ولا يصح التوكل الالمن يصبر على الطعام اكثر من ثلاثة ايام، وعن أبى على الروذبارى : إن قال الفقير بعد خمسة ايام انا جائع فالزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب ﴿ دون الشغل عنه تعالى ﴾ بان يعبده من غير ضيق قلب وتشويش خاطر ، كما حكى أن رجلا قال دخل أبو تراب النخشبى مكة طيب النفس ، فقلت اين اكلت ايها الاستاذ ؟ فقال اكلة بالبصرة واكلة بالنباج واكلة ههنا، كذا فى الرسالة القشيرية ﴿ وقدرت ﴾ أى وإن قدرت وظاهر كلام الاحياء أن يقال اوقدرت ﴿ على الاقتيات بالحشيش ﴾ فبعد هذين الشرطين لا يخلو غالبا ما يخلو فى البوادى فى كل أسبوع من ان يلقاه آدمى، او ينتهى إلى قرية او إلى حشيش يكون سببا لحياته . وقد يكون له ثبات على الرضى هنالك إلى الموت إن لم يتيسر شىء من ذلك فان الذى يحمل الزاد قد يؤخذ زاده أو يضل بعيره فيموت جوعا. فذلك ممكن مع الزاد كما أنه ممكن مع فقده . وأما لو انحاز إلى شعب من الشعاب حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع فى اهلاك نفسه كما روى: أن زاهدا من الزهاد فارق الامصار واقام فى سفح جبل وقال لا اسال أحدا شيئا حتى يأتينى ربى برزقى، فقعد سبعا فكاد أن يموت ولم ياته شىء ،فقال يارب : إن أحييتنى فائتنى برزقى الذى قسمت لى والافاقبضنى ، فاوحى الله تعالى اليه : وعزتى لاارزقنك حتى تدخل الامصار وتقعد بين الناس ، فدخل المصر واقام فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فاكل وشرب ، فاوجس فى نفسه من ذلك ،فاوحى الله تعالى اليه . اردت أن تذهب حكمتى بزهدك فى الدنيا أما علمت أن ارزق عبدى بيد عبادى أحب إلى من أن ازرقه بيد قدرتى . فاذن التباعد عن الاسباب بالكلية مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله القديمة

وَأَمَّا مَاوَرَدَ وَتَزَوَّدُوا فَزَادُ الآخِرَةِ بِقَرِينَةِ (فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) أَوْهُوَ أَمْرٌ لِقَوْمٍ يَقْصُدُونَ الحَجَّ بِلَا زَادٍ اتِّكَالاً عَلَى النَّاسِ وَيُؤْذُونَ بِالْإِلْحَاحِ فِي السُّؤَالِ وَإِلَّا فَحَرَامٌ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ سَعْيٌ فِي الهَلَاكِ وَإِنْ كَانَ مَوْهُومًا كَالْاسْتِقْصَاءِ فِي دَقَائِقِ التَّدْبِيرِ فَهُوَ يُنَافِيهِ لِأَنَّهُ غَايَةُ الْحِرْصِ وَيَسْتَفْتِي الْعَزَبُ قَلْبَهُ فَيَخْتَارُ الْكَسْبَ بِنِيَّةِ التَّصَدُّقِ وَالْإِعَانَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّحَامِي عَنِ الشُّغْلِ عَنْهُ تَعَالَى بِالْالْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِهِ

﴿وأماماورد﴾ في التنزيل ﴿وتزودوا﴾ وهو أمر بطلب الزاد أو اخذ الزاد ﴿فزاد الآخرة﴾ هو المراد ﴿بقرينة﴾ مابعده ﴿فان خير الزاد التقوى﴾ النافعة فى المعاد ﴿اوهو﴾ أى تزودوا ﴿امر لقوم﴾ خاص من أهل اليمن وغيرهم ﴿يقصدون الحج بلازاد اتكالا على الناس﴾ أى اعتمادا على اعطائهم من أزوادهم ﴿ويؤذون﴾ الناس ﴿بالالحاح فى السؤال﴾ ومنهم جمع يدعون انهم متوكلون والحال انهم متأكلون ﴿والا﴾ اى وان لم ترتاض النفس ولم تصبر عن الطعام ﴿فحرام عليه﴾ ترك السبب من الكسب والطلب ﴿لانه سعى فى الهلاك﴾ للبدن والله لا يحب الفساد ورؤف بالعباد ﴿وان كان﴾ السبب ﴿موهوما كالاستقصاء فى دقائق التدبير﴾ من امر الزراعة والتجارة وسائر انواع الصناعة ، ومنه الكى والرقية والطيرة ﴿فهو﴾ اى الاستقصاء فى هذا الباب ﴿ينافيه﴾ اى التوكل عند اولى الالباب ﴿لانه غاية الحرص﴾ ونهاية الاتكال على الاسباب ، فمن سهل التوكل ترك التدبير . وقال : ان الله تعالى خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه ، وانما حجابهم تدبيرهم ﴿ويستفتى العزب قلبه﴾ اى دون المعيل فانه يتعين عليه طلب الحلال لاجل العيال ، فانهم لا يكلفون بالتوكل وفق ماله من الحال ﴿فيختار﴾ العزب ﴿الكسب﴾ بسبب ثلاثة اشياء ﴿بنية التصدق﴾ بما فضل عن قوته على سائر الفقراء لاسيما ذوى القربى ﴿والاعانة على البر﴾ اى للمساعدة على أهل الجاهدة فى العلم والعمل لقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) ﴿والتحامى﴾ أى المحافظة ﴿عن الشغل عنه﴾ أى عن ذكره وفكره ﴿تعالى بالالتفات إلى غيره﴾ سبحانه ولو من حوله وقوته ، فاذا كان المكتسب مكتسبا لعياله او لتفريق مال من ماله فهو بيديه مكتسب ومنتفع ، وبقلبه عنه منقطع لقوة حاله فى مقام

وَالتَّرْكَ لِشَغْلِ الكَسْبِ عَنْهُ تَعَالَى وَانْقِطَاعِهِ الَيْهِ وَيعرفُ بِعَدَمِ التَّغَيُّرِ لِفَقْدِ المَالِ وَكَذَا التَّزَوُّدُ وَنَحْوُهُ وَيَكْتَسِبُ المُعِيلُ كَمَا رُوِيَ عَنِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

كماله ﴿ والترك ﴾ اى ويختار العزب ترك الكسب ﴿ لشغل الكسب عنه تعالى ﴾ اى عن القيام بحقه كما هو حقه ﴿ وانقطاعه اليه ﴾ اى ولكمال انقطاع العبد إلى حضور سيده عملا بقوله تعالى (وتبتل اليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا) والحاصل ان الكسب لا ينافى حال التوكل اذا روعيت فيه الشروط وانضاف اليه الحال والمعرفة ﴿ ويعرف ﴾ صاحب هذا الحال ﴿ بعدم التغير لفقد المال وكذا التزود ونحوه ﴾ من الادخار للاستقبال ، ومن النكاح واختيار العيال اختيارا وتركا. فيختاره بنية التصدق والاعانة ويتركه لشغله عن الحق والعبادة ﴿ ويكتسب المعيل ﴾ لاجل العيال ﴿ كما روى عن الصديق رضى الله عنه ﴾ انه لما بويع للخلافة اصبح فاخذ رزمة متاعه تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى ، فكره المسلمون ذلك ، فقالوا كيف تفعل هذا وقد اقمت لخلافة النبوة ؟ فقال لا تشغلونى عن عيالى فانى ان اضعتهم كنت لما سواهم اضيع حتى فرضوا له قوت اهله من المسلمين ، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق وقته لمصالح المسلمين اولى . ويستحيل أن يقال لم يكن أبو بكر فى مقام التوكل فمن اولى بهذا منه . فدل على أنه ما كان متوكلا باعتبار ترك الكسب والسعى ، بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته . والعلم بان الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الاسباب، وبشروط كان يراعيها من طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ، ومن غير أن يكون درهمه أحب اليه من درهم غيره . فمن دخل السوق ودرهمه أحب اليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ، ولا يصح التوكل الا مع الزهد فى الدنيا . نعم يصح الزهد دون التوكل فان التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد وكان من المتوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق ، كنت أكتسب فى كل يوم دينارا لا أبيت منه دانقا ، ولا أستريح منه الا قيراطا ادخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل . وكان الجنيد لا يتكلم فى التوكل بحضرته ، وكان يقول : استحيى أن أتكلم فى مقامه وهو حاضر عندى ٭

والحاصل أن التوكل مقام شريف ومرام لطيف ، ولذا قال أبو سليمان الدارانى لاحمد بن أبي الحوارى : لى من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فانى

وَلَا يُكَلِّفُ العِيَالَ إِلَّا أَنْ تُسَاعِدَهُ وَلَا الادِّخَارَ لِمَا دُونَ الأَرْبَعِينَ مِنَ العَزَبِ وَاخْتُلِفَ فِيهِ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الفَضْلَ لِقَصْرِ الأَمَلِ

ماشممت منه رائحة . هذا من كلامه مع علو قدره ومقامه ، ولعله أراد اقصى ادراك وهو مشاهد ان لافاعل الا الله ولا رازق سواه ، وان كل مايقدره مولاه على عبده من فقر وغنى ، وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه . وقال الخواص ـ وقد سئل عن أعجب شيء رآه فى اسفاره ـ فقال : رأيت الخضر عليه السلام ورضى بصحبتي ولكنى فارقته خيفة ان تسكن اليه نفسى فيكون نقصا فى توكلى ﴿ ولا يكلف العيال ﴾ بالاتكال ﴿ الا ان تساعده ﴾ فيماله من الحال بالتوكل مع عدم المال ، وإلا فيجب عليه الكسب بقدر نظام الكمال . فمن سهل من طعن على الكسب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على ترك الكسب فقد طعن على التوحيد ، فسبحان من أقام العباد فيما أراد . ومع هذا الحال لايخرج المعيل عن مقام الاتكال على الملك المتعال ، فقد قال الحسن البصرى : وددت أن أهل البصرة فى عيالى ، وأن حبة بدينار ، وقال وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاسا والارض رصاصا واهتممت برزقى لظننت أنى مشرك بربى ﴿ ولا الادخار ﴾ أى ولا ينفى التوكل وضع الذخيرة ﴿ لمادون الاربعين ﴾ يوما ﴿ من العزب ﴾ وللسنة من المعيل كما سيأتى ﴿ واختلف فيه ﴾ أى في الادخار هل يكون منافيا للتوكل أم لا ، فذهب سهل الى أنه يخرج به عن التوكل مطلقا ، وذهب الخواص الى أنه لايخرج عن التوكل بأربعين يوما ويخرج بما زاد على الاربعين . وقال أبو طالب المكى : لايخرج عن حدود التوكل بالزيادة على الاربعين أيضا ، وهذا اختلاف لامعنى له بعد تجويز أصل الادخار كما فى الاحياء على ماسيأتى بيانه فى الاثناء ﴿ والتحقيق ﴾ فى مقام التوفيق ﴿ أن الفضل ﴾ فى قلة الادخار ﴿ لقصر الامل ﴾ فى التعلق بهذه الدار ، وتوضيحه أن كل ثواب موعود على مقام محمود فانه يتوزع على قدر رتبته فيه مما يوافقه وينافيه ، ثم تلك الرتبة لها بداية ونهاية ، ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين اللاحقين . ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات ، وكذلك السابقون ، وأعالى درجات أصحاب اليمين اللاحقين تلاصق اسافل درجات السابقين ، كما قيل : نهاية الاولياء بداية الانبياء ، فلا معنى للتقدير فى مثل هذا التقرير ، بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لايتم الا بقصر الامل وتجويز قرب الاجل . وأما عدم أمل البقاء فيبعد

وَمِيقَاتُ الكَلِيمِ لَيْسَ لِلْأَمَلِ بَلْ لِاسْتِحْقَاقِ نَيْلِ المَرَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَا هُوَ السُّنَّةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي تَدْبِيرِ الْأُمُورِ كَمَا فِي صَيْرُورَةِ الجَنِينِ نُطْفَةً وَعَلَقَةً وَمُضْغَةً، وَوَرَدَ «خَمَّرْتُ طِينَةَ آدَمَ بِيَدِي أَرْبَعِينَ صَبَاحًا» وَمِنْهُ يُؤْخَذُ فِي الرِّيَاضَةِ وَلِلسُّنَّةِ مِنَ المُعِيلِ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِ الضُّعَفَاءِ كَمَا هُوَ المَرْوِيُّ

اشتراطه ولو فى نفس ، فان ذلك كالممتنع وجوده ، ثم الناس متفاوتون فى طول الامل وقصره ، وأقل درجات الامل يوم وليلة فما دونه من الساعات ، وأقصاه مايكون عمر الانسان بحسب غالب العادات ، و بينهما درجات لاحصر لها فى الاوقات فمن لم يامل أكثر من شهر اقرب الى المقصود ممن يأمل سنة فى الوجود ﴿ وميقات الكليم ﴾ اى ميعاد موسى عليه السلام حيث قال الله تعالى (وإذ واعدنا موسى اربعين ليلة) ﴿ ليس للامل ﴾ اى لجواز طول الامل بقدر اربعين من الاجل ؛ فان تلك الواقعة ماقصد بها بيان مايرخص فيه الامل ﴿ بل لاستحقاق نيل المرام ﴾ اى وصول موعود موسى ﴿ عليه السلام ﴾ بعد اربعين يوما الى مقام الكلام ﴿ على ماهو السنة الالهية ﴾ السبحانية والحكمة الربانية الصمدانية ﴿ فى تدبير الامور ﴾ الانسانية ﴿ كما فى صيرورة الجنين ﴾ اى تطوير الطفل فى بطن امه من الاطوار الانسانية الايجادية المتضمنة للتربية التدريجية الامدادية ﴿ نطفة ﴾ اربعين يوما ﴿ وعلقة ﴾ كذلك ﴿ ومضغة ﴾ كذلك ﴿ وورد : خمرت طينة آدم بيدى ﴾ اى بصفتى من نعوت الجمال والجلال او بقدرتى وارادتى على وجه الكمال ﴿ اربعين صباحا ﴾ رواه الديلمى من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسى باسناد ضعيف ، وذلك لان استحقاق تلك الطينة لتتخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ماذكر ﴿ ومنه ﴾ اى مما ذكر من الكتاب والسنة ﴿ يؤخذ فى الرياضة ﴾ على اختيار المشايخ الاربعين و يؤيده حديث « من اخلص لله اربعين يوما ظهرت له ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وقد تقدم «ومن حفظ على أمتى اربعين حديثا حشر مع العلماء » وله طرق يقوى بعضها ببعض فيصير حسنا ﴿ وللسنة ﴾ اى ولا ينافى التوكل الادخار للسنة الكاملة ﴿ من المعيل ﴾ أى صاحب العيال من الاطفال والنساء ﴿ تطييبا لقلوب الضعفاء كما هو المروى ﴾ فى سنة سيد الانبياء ، ففي الصحيحين انه عليه السلام ادخر لعياله قوت

بِخِلَافِ مَافَوقَهَا وَيَتْرُكُ المُضْطَرِبُ طَرِيقَ المُتَوَكِّلِ بِالادِّخَارِ لِأَنَّ الغَرَضَ صَلَاحُ القَلْبِ

سنة ﴿ بخلاف مافوقها ﴾ فان ماوراء السنة لايدخر له الا بحكم ضعف القلوب والركون الى ظاهر الاسباب من الطلب والكسب ﴿ و يترك المضطرب ﴾ أى المتشوش اضطرابا يشغل قلبه عن الذكر والفكر ﴿ طريق المتوكل ﴾ غير المضطرب ﴿ بالادخار ﴾ فان كان يصلح قلبه بالادخار فهو أولى فى الاختيار ، بل لو أمسك صنعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان قلبه لايفرغ الا برعايته فذلك أولى فى مقام عنايته ﴿ لأن الغرض ﴾ وهو مدار المقصود ﴿ صلاح القلب ﴾ فى عبادة الرب المعبود فرب شخص يشغله وجود المال عن تحصيل الكمال ورب شخص يشغله عدمه لحصول شتات البال، والمحذور مايشغل العبدعن الحضور والا فجميع ما فى الدنيا ليس فى عينه محذور ، ولا فى وجودها وعدمها محظور ، ولذا بعث الله رسوله الى أصناف الخلق ومنهم أهل التجارات والزراعات والمحترفون بانواع الصناعات ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا المزارع بترك زراعته ، ولا المحترف بترك حرفته ، ولا أمر التارك لها بالاشتغال بها بل دعا الكل الى الله وطاعته وارشدهم الى أن فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا الى الله سبحانه وعبادته وعمدة الاشتغال فى عبادة الرب هو القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته ، كما ان صواب القوى ترك الادخار على قدر طاقته فقد ادخر عليه السلام لعياله قوت سنة . ونهى أم ايمن وغيرها أن تدخر شيئا لغد كما تقدم ، ونهى بلالا عن الادخار وقال «انفق بلال ولا تخش من ذى العرش اقلالا » رواه البزار من حديث ابن مسعود وأبى هريرة ، وذلك حين دخل عليه النبى عليه السلام وعنده صبر من تمر والطبرانى والحاكم من حديث ابى سعيد أنه عليه السلام قال لبلال « الق الله فقيرا واذا سئلت فلا تمنع ، واذا أعطيت فلا تخبأ » وقد أخبر عليه السلام «ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » كما رواه أحمد وغيره من حديث عمر تطييبا لقلوب الضعفاء حتى لا يأتى بهم الضعف الى اليأس والقنوط فيتركون الميسور عليهم من الخير لعجزهم عن منتهى درجات الاقوياء . فما ارسل سيد الانبياء الا رحمة للعالمين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم، واذا فهمت هذا علمت أن الادخار

وَلَا مُبَاشَرَةَ أَسْبَابٍ تَدْفَعُ الضَّرَرَ إِنْ كَانَ مَقْطُوعًا بِهِ أَوْ مَظْنُونًا كَالتَّحَرُّزِ عَنِ النَّوْمِ فِي مَكْمَنِ السِّبَاعِ وَمَمَرِّ السَّيْلِ وَتَحْتَ الْحَائِطِ الْمَائِلِ

قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ،ويدل عليه ما روى أبو امامة الباهلى «أن بعض اصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن فقال عليه السلام فتشوا ثوبه فوجدوا دينارين فى داخل ازاره فقال عليه السلام كيتان » رواه أحمد وكان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا فلا يقول ذلك فى حقه ، فهذا يحتمل وجهين لان حاله يقتضى امرين أحدهما أنه اراد كيتان من النار، كما قال تعالى (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) وذلك اذا كان حاله اظهار الزهد والفقر والتوكل مع الافلاس منه فهو نوع تلبيس، وثانيهما أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص عن جمال الوجه أثر كيتين فى الوجه . فان كل ما يخلفه الرجل من الدنيا فهو نقصان لدرجته فى العقبى ، اذ لا يؤتى احد شيئا من الدنيا الا نقص بقدره فى الاخرى . واما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ماروى عن بشر ، قال الحسين المغازى من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل اسمر خفيف العارضين فقام له بشر وقال مارأيته قام الى أحد غيره ، قال ودفع الى كفا من دراهم وقال : اشتر لنا بها من اطيب ماتقدر عليه من الطعام والطيب ، وما قال لى قط مثل ذلك قال فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره قال فاكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شىء كثير فاخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وحمله وانصرف فعجبت من ذلك وكرهته له ، فقال لى بشر لعلك أنكرت فعله ؟ قلت نعم اخذ بقية من الطعام من غير اذن ، فقال ذلك أخونا فتح الموصلى زارنا اليوم من الموصل ، وانما أراد أن يعلمنا أن التوكل اذا صح لم يضر معه الادخار . والله سبحانه أعلم بحقائق الاسرار ﴿ولا مباشرة أسباب﴾ أى ولا ينفى التوكل مباشرة أسباب هى (تدفع الضرر) المتعرض للخوف فى نفس أو مال(ان كان) الضرر ﴿مقطوعا به أو مظنونا كالتحرز عن النوم فى مكمن السباع﴾ أى فى الارض المسبعة (وممر السيل) أى وفى مجرى السيل من الوادى لا سيما فى الليل فانه أدعى للويل ﴿وتحت الحائط﴾ أى الجدار ﴿المائل﴾ الى السقوط وكذا السقف المنكسر الذى يخاف منه الهبوط

لأَنَّ التَّعرُّضَ لِلْهَلاَكِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ بِخِلاَفِ الْمَوْهُومِ فَوَرَدَ فِي وَصْفِ الْمُتَوَكِّلِينَ لاَيَكْتَوُونَ وَلاَيَسْتَرْقُونَ إِلاَّ فِي أَذَى النَّاسِ فَالأَوْلَى فِيهِ الصَّبْرُ فَوَرَدَ (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا. وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) بِخِلاَفِ أَذَى السِّبَاعِ فَيَأْخُذُ السِّلاَحَ فَوَرَدَ. وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ

﴿ لان التعرض للهلاك منهى عنه ﴾ فكل ذلك منهى عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة منه ﴿ بخلاف الموهوم ﴾ أى بخلاف ما اذا كان الضرر موهوما فان مباشرته تنفى التوكل ، فترك الموهوم منها من شرط التوكل ، وهى التى نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكى والرقية ، فان الكى والرقية قد يقدم به على المحذور دفعا لما يتوقع ، وقد يستعمل بعد نزول المحذور لازالة ماوقع ﴿ فورد فى وصف المتوكلين ﴾ انهم ﴿ لايكتوون ولايسترقون ﴾ على ماتقدم فما وصفهم عليه السلام الا بترك الكى والرقية والطيرة ، ولم يصفهم بانهم اذا خرجوا الى موضع بارد لم يلبسوا جبة والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع ﴿ الافى اذى الناس ﴾ استثناء من قوله : ولامباشرة اسباب تدفع الضرر ، أى الاان يكون الضرر فيما ناله من اذى الناس له ، ويكون مما لااثر له فى الخارج كالشتم والملامة والتعيير والتوبيخ والمذمة فانه اذا أمكنه الصبر والتحمل وامكنه الدفع والتشفى ﴿ فالاولى فيه الصبر ﴾ وترك اسباب تدفع الضرر ، وقول المصنف فالاولى اولى من قول صاحب الاحياء : فشرط التوكل الاحتمال والصبر ﴿ فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ فاتخذه وكيلا واصبر على مايقولون ﴾ تمامه (واهجرهم هجرا جميلا) ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ آخره (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) ﴿ ودع أذاهم ﴾ أى اترك مدافعته ومعاقبته فى الحال ، او مكافأته ومجازاته فى الاستقبال ﴿ وتوكل على الله ﴾ فان من توكل عليه كفاه ﴿ بخلاف اذى السباع ﴾ فانهم مجبولون على الاضرار ، وفى معناها الكفار فالصبر على اذى الحيوانات كالعقارب والحيات ليس من التوكل فى الدرجات ، اذ لافائدة فيه فى حال من الحالات ﴿ فيأخذ ﴾ المتوكل ﴿ السلاح فورد ﴾ فى التنزيل ﴿ وليأخذوا اسلحتهم ﴾ فى صلاة الخوف وهو أمر ايجاب او استحباب ، وقد اختفى عليه السلام عن اعين الاعداء فى الغار خوفا من ضرر الكفار ، وقد قال تعالى لموسى عليه السلام : (فاسر

وَيَعْقِلُ الْبَعِيرَ فَوَرَدَ اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ وَيَسُدُّ الْبَابَ غَيْرَ مُسْتَقْصٍ فِي الْحِفْظِ وَلَا يَحْفَظُ مَتَاعًا يَحْرِصُ فِيهِ السَّارِقُ بَلْ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا لَا بُدَّ مِنْهُ كَكُوزٍ وَرَكْوَةٍ وَجِرَابٍ وَسِلَاحٍ وَيَغْتَمُّ إِنْ سُرِقَ لِمَعْصِيَةِ السَّارِقِ وَتَعَرُّضِهِ لِلْعِقَابِ لَا لِنَقْصِ الْمَالِ بَلْ يَفْرَحُ بِهِ لِمَا فِيهِ مِنْ صَلَاحِهِ تَحْسِينًا لِلظَّنِّ بِهِ وَيَشْكُرُهُ تَعَالَى عَلَى جَعْلِهِ مَظْلُومًا لَا ظَالِمًا وَنَقْصِ دُنْيَاهُ لَا دِينِهِ

بعبادى ليلا) فهذا وماقبله كله فى حق النفس ، وأما فى حق المال فأشار بقوله ﴿ ويعقل البعير ﴾ أى يربط رجله لئلا يفارق رحله ﴿ فورد ﴾ أنه قال عليه السلام للاعرابى لما اهمل البعير وقال توكلت على الله ﴿ اعقلها وتوكل ﴾ أى على الله ،رواه الترمذى من حديث أنس وضعفه يحي القطان ورواه الطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمرى باسناد جيد بلفظ قيدها ﴿ ويسد الباب ﴾ أى يغلقه ﴿ غير مستقص ﴾ أى مبالغ ﴿ فى الحفظ ﴾ كالتماسه من الجيران حفظه مع وجود غلقه ، وكجمعه اغلاقا كثيرة فى محله، فقد كان مالك بن دينار يغلق بابه ليلا بشريط ويقول :لولا الكلاب ماشددته ، وفيه لطافة اذ الدنيا جيفة وطالبها كلابها كما ورد وقد تقدم ﴿ ولا يحفظ متاعا يحرص فيه ﴾ أى فى اخذه ﴿ السارق ﴾ ويطمع فيه الطارق فيكون هو سبب معصيته وباعث مصيبته ، او يكون امساكه موجب هيجان رغبته ﴿ بل يقتصر على مالا بدمنه ككوز ﴾ يشرب منه ﴿ وركوة ﴾ يتطهر بها ﴿ وجراب ﴾ يضع زاده فيه ﴿ وسلاح ﴾ إذا كان من أهل الجهاد،او سلاح كل احد بحسب مقامه ووفق مرامه ، كالكتب للعلماء وعدة الحرف للفقراء ، والعصا سلاح الضعفاء وسنة الانبياء . وكان بعض المتجردين لم يكن فى خلوته شىء فاذا دخلها أغلقها واذا خرج منها تركها مفتوحة ويقول انا متاع البيت ولما اهدى المغيرة الى مالك بن دينار ركوة وقال له خذها قال لاحاجة لى اليها،قال لم؟ قال يوسوس الى العدو أن اللص قد اخذها ، فكأنه احترز من أن يعصى السارق ، ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها فى اللاحق ، ولذا قال أبو سليمان هذا من ضعف قلب الصوفية هو قد زهد فى الدنيا فما عليه من أخذها ﴿ ويغتم ﴾ المتوكل ﴿ إن سرق ﴾ أى جعل مسروقا ﴿ لمعصية السارق وتعرضه للعقاب ﴾ اللاحق ﴿ لا ﴾ يغتم ﴿ لنقص المال بل يفرح به ﴾ أى بنقص المال ﴿ لما فيه من صلاحه ﴾ أى لما فى نقص المال من كمال صلاح الحال ﴿ تحسينا للظن به ﴾ فيما قدره وقضاه من أزل الآزال ﴿ ويشكره تعالى على جعله مظلوما لا ظالما ونقص دنياه ﴾ من ماله ﴿ لا دينه ﴾ الذى من كماله ،فقد

وَلَا يُبَالِغُ فِى الطَّلَبِ وَسُوءِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ وَالْأَوْلَى أَنْ يَعْفُو وَيُحِلَّ فَهُوَ صَدَقَةٌ إِنْ كَانَ فَقِيرًا وَإِلَّا فَاغْنَاءٌ لَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَعَمَلٌ بِمَا وَرَدَ اُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا

شكى بعض الناس الى عالم أنه قطع الطريق عليه وأخذ ماله ، فقال: إن لم يكن غمك أنه صار فى المسلمين من يستحل هذا اكثر من غمك بمالك فما تصحب المسلمين. وسرق من على بن الفضيل دينار وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكى ويحزن، فقال له أعلى الدنيا تبكى ؟ فقال لا والله ولكن على المسكين أنه يسأل يوم القيامة ولم تكن له حجة . وقيل لبعضهم : أدع على من ظلمك، فقال إنى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه ﴿ ولا يبالغ فى الطلب ﴾ أى طلب المسروق او السارق ﴿ وسوء الظن بالمسلم ﴾ أى وفى التهمة للجيران أو غيرهم من اقاربه وأصحابه ﴿ والاولى أن يعفو ﴾ اولا ﴿ ويحل ﴾ ثانيا ﴿ فهو ﴾ أى ماذكر من العفو والاحلال ﴿ صدقة إن كان ﴾ السارق ﴿ فقيرا والا ﴾ أى وان لم يكن السارق فقيرا ﴿ فاغناء له عن المعصية ﴾ التى هى السرقة ﴿ وعمل بما ورد انصر اخاك ظالما او مظلوما ﴾ وتوضيحه ما فى الاحياء فان قلت : كيف يتصور أن لا يحزن إذا اخذ متاعه الذى هو محتاج اليه ولا يأسف عليه، وذلك لانه إن كان لا يشتهيه ولا يريده لم امسكه لديه واغلق الباب عليه ، وان امسكه لانه يشتهيه لحاجته اليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن على فقده وقد حيل بينه وبين مايشتهيه ؟ فاقول انما كان يحفظه ليستعين به على دينه اذ كان يظن أن الخيرة له فى أن يكون له ذلك المتاع ، ولولا أن الخيرة له فيه ما رزقه الله ولما أعطاه ، فاستدل على ذلك بتيسير الله وحسن الظن به تعالى مع ظنه ان ذلك معين له على أسباب دينه ، ولو لم يكن ذلك عنده مقطوعا به إذ يحتمل أن يكون خيرته فى أن يبتلى لفقد ذلك حتى ينصب فى تحصيل غرضه ويكون ثوابه فى النصب والتعب أكثر ، فلما أخذه الله بتسليط اللص تغير ظنه لانه فى جميع الاحوال واثق بالله حسن الظن به . فيقول لولا أن الله علم لى الخيرة الآن فى عدمها لما أخذها منى ، فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن ، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بالاسباب من حيث انها الاسباب بل من حيث أنه يسرها مسبب الاسباب عناية به وتلطفا له ، وهو كالمريض بين يدى الطبيب الحبيب يرضى بما يفعله ، فان قدم اليه الغذاء فرح به وقال لولا أنه عرف أن الغذاء ينفعنى وقد قويت على احتماله لما قربه الى ، وإن أخذ عنه الغذاء فرح أيضا وقال : لولا أنه عرف أن الغذاء يضرنى لما حال بينى وبينه ، فكل من لا يعتقد فى لطف الله ما يعتقده المريض فى الوالد المشفق

الحاذق بعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا ، ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته فى اصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب فانه لايدرى أى الاسباب خير له كما قال عمر رضى الله عنه : لاأبالى أصبحت غنيا أو فقيرا فانى لاأدرى أيهما خير لى ، فلذلك ينبغى أن لايبالى المتوكل بسرقة متاعه أو بقائه فانه لايدرى أيهما خير له فى الدنيا ولافى الاخرى . فكم من متاع فى الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غنى يبتلى بواقعة لاجل غناه فيقول ليتنى كنت فقيرا ويتمناه أن مايضطر المتوكل الى تركه فى البيت ، فينبغى أن ينوى عند خروجه منه الرضا بما يقضى الله تعالى فيه من تسليط سارق عليه ، ويقول ماياخذه السارق هو منه فى حل أو هو فى سبيل الله أو ان كان فقيرا فهو عليه صدقة وان لم يشترط الفقير فهو أولى ، ويكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير ، إحداهما أن يكون ماله مانعاله من المعصية فانه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعده ، وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما ان جعله فى حل ، والثانية أن لايظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر . ومهما نوى حراسة مال غيره بمال نفسه أو نوى دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله عليه السلام « انصر اخاك ظالما او مظلوما » على مافى الصحيحين وتمامه « قيل كيف انصره ظالما قال تحجزه عن الظلم فان ذلك نصرة » فنصرة الظالم منعه عن الظلم ، وعفوه عنه اعدام للظلم ومنع له . والتحقيق أن هذه النية لاتضره بوجه من الوجوه اذليس فيها مايسلط السارق ويغير القضاء الازلى السابق ، ولكن يتحقق بالزهد بنيته فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لانه نواه وقصده ، وإن لم يؤخذ حصل له الاجر ايضا وجملة الامر ان يكون فى هذا المقام متوكلا على الله سبحانه بالعلم والحال : اما العلم فهو ان يعلم ان اللص ان اندفع لم يندفع بكفايته فى اغلاق الباب بل بدفع الله سبحانه اياه كما سبق فى الكتاب . فكم من بيت يغلق ولاينفع ، وكم من بعير يعقل ويموت اويفلت . وكم من أخذ سلاحه يقتل او يغلب فلايتكل اصلا على هذه الاسباب بل على مسبب الاسباب ورب الارباب . واما الحال فهو ان يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به فى نفسه وبيته ، ويقول : اللهم ان سلطت على مافى البيت من يأخذه فهو فى سبيلك وانا راض بحكمك فانى لاادرى انما اعطيتنى هبة فلا تسترجعها اوعارية او وديعة فتستردها ، ولاادرى انها رزقى قبل خلقى اوسبقت مشيئتك فى الازل انها رزق غيرى ، وكيف ماقضيت فانا راض به ، وما اغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا به على بلائك بل جريا على مقتضى سنتك فى ترتيب الاسباب ولا ثقة الا بك يامسبب الاسباب . ثم اذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي ان يكون

وَ يَنْوِيهِ لِيُثَابَ وَانْ لَمْ يسرقْ كَمَا فِى تَرْكِ الْعَزْلِ فَوَرَدَ فِيهِ ثَوَابُ وَلَدٍ كَبِرَ وَقُتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى فَلَا يَأْخُذُ لَوْ أُتِىَ بِهِ وَإِنْ جَازَ الْأَخْذُ لِأَنَّ النِّيَّةَ لَا تُخْرِجُ الْمِلْكَ

ذلك عنده نعمة جديدة من الله ، وان لم يجده بل وجده مسروقا فانظر الى قلبه فان وجده راضيا او فرحا بذلك عالما بانه ما اخذ الله تعالى ذلك منه فى الدنيا الا ليزيد رزقه فى العقبى فقد صح مقامه فى التوكل وظهر به صدقه ، وان تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له انه ما كان صادقا فى دعوى التوكل لان التوكل مقام بعد الزهد ، ولا يصح الزهد الا ممن لا يأسف على ما فاته من الدنيا ولا يفرح بما يأتيه ، بل قد يكون على العكس من ذلك فكيف يصح له التوكل ؟ نعم قد صح له مقام الصبر ان اخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه فى الطلب والتجسس بعده وان لم يقدر على ذلك حتى يتأذى قلبه وأكثر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه فقد كانت السرقة معيبة له فى دينه من حيث انها اظهرت له قصوره عن جميع المهمات وكذبته فى جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغى ان يجتهد حتى لا يصدق نفسه فى دعواها ولا يتدلى بحبل غرورها فانها خداعة امارة بالسوء مدعية للخير فى امورها ﴿ وينويه ﴾ اى العفو ابتداء ﴿ ليثاب وان لم يسرق ﴾ انتهاء ﴿ كما فى ترك العزل ﴾ فانه اذا نوى تحصيل الولد المجاهد فى سبيل الله يثاب به ولو لم يولد ﴿ فورد فيه ﴾ اى فى ترك العزل ﴿ ثواب ولد كبر وقتل فى سبيل الله تعالى ﴾ وفى الاحياء كما روى عن رسول الله ﷺ فيمن ترك العزل واقر النطفة قرارها : ان له اجر غلام ولد من ذلك الجماع وعاش وقتل فى سبيل الله وان كان لم يولد له لانه ليس من امر الوالد الا الوقاع ، واما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس اليه ، فلو خلق لكان ثوابه على فعله وفعله لم ينعدم ، فكذلك أمر السرقة ، لكن مخرجه قال لم اجد له اصلا . هذا واذا جعله فى سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة الى الآخرة فان اعيد عليه ﴿ فلا يأخذ ﴾ أى فالاولى أن لا يقبله ﴿ لو أتى به ﴾ أى بالمال المسروق ﴿ وان جاز الاخذ ﴾ والقبول فانه ملكه فى ظاهر العلم ﴿ لان النية ﴾ بمجردها ﴿ لا تخرج الملك ﴾ عن يد المالك لكن أخذه غير مستحسن عند المتوكلين فقد روى أن ابن عمر رضى الله عنهما سرقت ناقته فطلبها حتى اعيي ثم قال فى سبيل الله ، فدخل المسجد فصلى ركعتين فجاءه رجل فقال يا ابا عبد الرحمن إن ناقتك فى مكان كذا وكذا فلبس نعليه وقام ، ثم قال استغفر الله وجلس ، فقيل له الا تذهب فتأخذها؟ فقال إني كنت قلت في سبيل الله . وكذا من

وَلَا إِزَالَةَ الضَّرَرِ الْمَقْطُوعِ بِهِ كَالشُّرْبِ لِدَفْعِ الْعَطَشِ وَالْمَظْنُونِ كَالْحِجَامَةِ وَالْإِسْهَالِ بِخِلَافِ الْمَوْهُومِ كَالرُّقْيَةِ وَالطِّيَرَةِ

أخذ رغيفا مثلا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كره له أن يرده الى البيت بعد إخراجه منه فيعطيه فقيرا آخر، وحكى عن رجل من العباد بمكة أنه كان نائما بجنب رجل معه هميان فانتبه الرجل وفقد هميانه فاتهمه فيه فقال له كم كان فذكره فحمله الى البيت ووزن من عنده ثم بعد ذلك اعلمه أصحابه بانهم كانوا اخذوا الهميان مزحا معه فجاء هو وأصحابه اليه فردوا الذهب اليه فابى عليهم وقال خذوه حلالا فما كنت لأعود فى مال اخرجته فى سبيل الله ولم يقبله فالحوا عليه فدعا ابناله وجعل يصره صررا ويبعث بها الى الفقراء حتى لم يبق منه شيء ثم أقل درجات المتوكل أن لايدعو على السارق الذى ظلمه بالاخذ فان فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهيته وتأسفه على مافات وبطل زهده، وفى الخبر من دعا على ظالم فقد انتصر وقد تقدم وفى رواية أن العبد ليظلم المظلم فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون مقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه فيقتص له من المظلوم وقد تقدم، وحكى أن الربيع بن خيثم سرق له فرس ثمنه عشرون الفا ورقا وكان قائما يصلى فلم يقطع صلاته ولم ينزعج قلبه لطلبه فجاءه قوم يعزونه فقال أما انى كنت قد رأيته وهو يحله قيل فما منعك ان تزجره؟ قال كنت فيما هو احب الى من ذلك يعنى الصلاة فى مقام الاحسان وكمال التكلان قال فجعلوا يدعون على السارق فقال لاتفعلوا وقولوا خيرا فانى قد جعلتها صدقة عليه، وقيل لبعضهم فى شيء كان قد سرق له الاتدعو على ظالمك فقال ما احب أن اكون عونا للشيطان عليه قيل افرأيت لوردت عليك السرقة؟ قال لا آخذها ولا انظر اليها لانى كنت قد احللتها له، وقيل لآخر ادع الله على من ظلمك فقال ماظلمنى احد ثم قال انما ظلم نفسه الايكفيه المسكين ظلمه لنفسه حتى ازيده شرا ﴿ ولا ازالة الضرر ﴾ اى ولا ينفى التوكل دفع الضرر ﴿ المقطوع به ﴾ اى بالسبب المقطوع به ﴿ كالشراب لدفع العطش ﴾ وكذا الاكل لدفع الجوع واللبس لدفع الحر والبرد ﴿ والمظنون ﴾ اى والضرر المظنون فيه بالسبب المظنون وهو الطرف الراجح من المشكوك ﴿ كالحجاعة والفصد والاسهال ﴾ اى شرب الدواء المسهل وسائر أسباب الطب من معالجة البرودة بالحرارة ومعالجة الحرارة بالبرودة ﴿ بخلاف الموهوم ﴾ وهو الطرف المرجوح من المشكوك ﴿ كالرقية والطيرة ﴾ والكي فروي أن عمران بن الحصين اعتل فاشاروا عليه بالكي فامتنع فلم

وَالتَّرْكُ حَرَامٌ فِي الْمَقْطُوعِ بِهِ دُونَ الْمَظْنُونِ

يزالوا به وعزم عليه الامير حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا واسمع صوتا وتسلم على الملائكة فلما اكتويت انقطع ذلك عنى وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما افلحن ولا انجحن ثم تاب من بعد ذلك واناب الى الله فرد عليه ما كان يجده من امر الملائكة، وقال لمطرف بن عبد الله الم ترالى الملائكة التي كان اكرمني الله بها قد ردها الله على بعد أن كان قد اخبره بفقدها ﴿ والترك ﴾ لمباشرة السبب ﴿ حرام في المقطوع به ﴾ عند خوف الموت ﴿ دون المظنون ﴾ فان تركه ليس بحرام، واما الموهوم فشرط التوكل تركه اذا وصف به النبي عليه السلام المتوكلين واقواها الكي وتليه الرقية ولذا نهى عليه السلام عن الكي دون الرقية ففي البخاري « وانهى امتي عن الكي » وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه عليه السلام رخص في الرقية من كل ذي حمة ثم الطيرة آخر درجاتها فالاعتماد عليها والاتكال اليها في هذا الباب غاية التعمق في ملاحظة الاسباب وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالاسباب الظاهرة عند الاطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محذورا بخلاف المقطوع بل قد يكون تركه أفضل من فعله في بعض الاحوال وفي حق بعض الاشخاص ويدل على أن التداوي غير مناقض للتوكل من فعله عليه السلام وقوله وامره أما قوله فحديث « ما من داء الاوله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الاالسام ـ يعني الموت » رواه الطبراني وغيره وحديث « تداووا عباد الله » رواه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث اسامة بن شريك وسئل عليه السلام « عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا قال هي من قدر الله » رواه الترمذي وصححه وابن ماجه، والحديث المشهور « ما مررت بملأ من الملائكة الا قالوا مر أمتك بالحجامة » رواه الترمذي من حديث ابن مسعود، وحديث « احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لايتبيغ بكم الدم فيقتلكم » رواه الترمذي من حديث ابن عباس، فذكر أن تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل باذن الله تعالى، وبين أن اخراج الدم خلاص منه اذ لافرق بين اخراج الدم المهلك من الاهاب وبين اخراج العقرب من تحت الثياب. وأما امره عليه السلام فقد أمر غير واحد من أصحابه الكرام بالتداوي والحمية، وقطع لسعد بن معاذ عرقا أي فصده كذا في الاحياء، ورواه مسلم من حديث جابر قال « رمي سعد في اكحله فحسمه النبي عليه السلام بيده بمشقص » الحديث، وقد كوى اسعد بن زرارة رواه الطبراني. ويؤخذ منه أن سبب الكي

فَتَرْكُ الدَّوَاءِ أَيْضًا مَأْثُورٌ

إذا كان موهوما فالاولى تركه ، فينافى التوكل فعله . وقد قال لعلى كرم الله وجهه وكان وجع العين « لاتأكل من هذا » يعنى الرطب « وكل من هذا فانه اوفق لك» يعنى السلق الذى طبخ بشعير. وقال لصهيب وقد رآه آخرا يأكل التمر وهو وجع العين « اتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال انما آكل بالجانب الآخر ، فتبسم عليه السلام » وأما فعله صلى الله عليه وسلم فقد روى من طريق أهل البيت « أنه كان يكتحل كل ليلة ، ويحتجم كل شهر ، ويشرب الدواء كل سنة » رواه ابن عدى من حديث عائشة وقال أنه منكر انتهى. وحديث الاكتحال ثابت فى الترمذى كما لايخفى وللطبرانى باسناد حسن «أنه عليه السلام لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس» الحديث وله فى الاوسط « عن انس أنه عليه السلام كان اذا اشتكى تقمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا » ولابى يعلى وللطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله بن جعفر « أن النبى عليه السلام احتجم بعدما سم » وللبزار وابن عدى فى الكامل من حديث أبى هريرة «انه عليه السلام كان اذا نزل عليه الوحى صدعه رأسه فيغلفه بالحناء » وللترمذى وابن ماجه من حديث سلمى كان اذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء» فكما أن التداوى مروى ومشهور ﴿ فترك الدواء أيضا مأثور ﴾ عن السلف مسطور . فروى عن الصديق أنه قيل له: لودعونا لك طبيبا فقال قد رآنى الطبيب، وقال إنى افعل ماأريد . وقيل لابى الدرداء فى مرضه : ماتشتكى ؟ قال ذنوبى، قيل فما تشتهى ؟ قال رحمة ربى. قالوا : ألا ندعوا لك الطبيب قال الطبيب أمرضنى . وقيل لابى ذر - وقد رمدت عيناه - لوداويتهما ؟ فقال: انى مشغول عنهما ، قيل لو سألت الله ان يعافيك ؟ فقال اسأله فيما هو أهم على منهما، وكان قد اصاب الربيع بن خيثم فالج فقيل له لو تداويت فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الاطباء فهلك المداوى والمداوى ولم يغن الدواء من الله شيئا من الداء. وكان أحمد بن حنبل يقول: احب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق أن يترك التداوى من شرب الدواء وغيره ، وقيل لسهل متى يصح للعبد التوكل ؟ قال : اذا دخل عليه الضرر فى جسمه والنقص فى ماله فلم يلتفت اليه شغلا بحاله ، وينظر الى قيام الله تعالى . فوجه الجمع انه عليه السلام وبعض اصحابه الكرام تداووا توسعة للانام ورخصة فى الاحكام ، وتركه بعض الاعلام من مشايخ الاسلام عملا بالعزيمة المناسبة لما لهم من المقام ، والافالتداوى لايضر الا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق

لِمَعْرِفَةِ عَدَمِ النَّفْعِ بِالْمُكَاشَفَةِ أَوْ لِكَوْنِ الْمَرَضِ مُزْمِنًا وَالعِلَاجِ مَوْهُومًا كَالْكَيِّ أَوْ لِلشُّغْلِ عَنْهُ بِخَوْفِ العَاقِبَةِ وَعِلْمِهِ تَعَالَى أَوْ لِقَصْدِ تَطْوِيلِهِ لِنَيْلِ الْأَجْرِ بِالصَّبْرِ

الدواء ، فلا يرى ان الدواء نافع بنفسه بل من حيث أنه جعله الله سببا لنفعه ، كما لا يرى الماء مرويا ، ولا الخبز مشبعا، وفى الاحياء ولا يصح وجه الجمع بين فعله عليه السلام وأفعال التاركين من الاعلام الا بحصر الصوارف عن التداوى فى ذلك المقام فترك الدواء المذكور والمأثور انما هو لاحد اسباب سبعة ﴿لمعرفة عدم النفع بالمكاشفة﴾ وهو أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف له بانه قد انتهى اجله وأن التداوى لاينفعه ،ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة، وتارة بحدس وظن، وتارة بكشف محقق، ويشبه ان يكون ترك الصديق التداوى من هذا السبب فانه من المكاشفين فقد قال لعائشة فى أمر الميراث انهما أختاك، ولم يكن لها الا أخت واحدة ، ولكن كانت امرأته حاملا فوضعت انثى فعلم أنه قد كوشف بانها حامل بانثى. ولا يبعد أيضا أن يكون قد كوشف بانتهاء أجله والا فلا يظن به إنكار التداوى ، وقد شاهده عليه السلام تداوى وامره كذا فى الاحياء . وفرق بين انكار التداوى وعدم مباشرته كما لا يخفى ﴿أو لكون المرض مزمنا والعلاج موهوما ﴾ فى النفع ﴿ كالكى ﴾ والرقية ونحوهما وعليه حمل كلام الربيع ﴿أو للشغل عنه ﴾ أى لاشتغال قلبه عن المرض وتداويه بما يوافقه وينافيه ﴿بخوف العاقبة وعلمه تعالى﴾ بما وقع له فى السابقة فينسيه ذلك ألم الامراض اللاحقة فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله وتأملا فى مآله وعليه يدل كلام أبى الدرداء وأبى ذر فى ترك الدواء فكان تألم قلبه خوفا من ذنبه اكثر من تألم بدنه من حلول مرضه ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته ، أو كالخائف الذى يحمل إلى ملك من أجل سياسته اذا قيل له ألا تأكل وانت جائع فيقول إنى مشغول عن الاكل وعن ألم الجوع بما هو أهم منه . ويقرب من هذا اشتغال سهل رحمه الله حيث قيل له ماالقوت ؟ فقال هو الحى القيوم فقيل له إنما سألناك عن القوام ؟ قال القوام هو العلم ، قيل سألناك عن الغذاء ؟ قال الغذاء هو الذكر قيل سألناك عن طعمة الجسد؟ قال : مالك والجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخرا، اذا دخلت عليه علة فرده الى صانعه أما رأيت الصنعة اذا عابت ردوها الى صانعها حتى يصلحها ﴿أو لقصد تطويله ﴾ أى لارادة استبقاء المرض ﴿ لنيل الاجر بالصبر ﴾ على بلائه تعالى فقد ورد فى ثواب المرض مايكثر

أَوْ تَكْفِيرِ الذَّنْبِ

ذكره ومن ذلك « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار ، فنهم من يخرج كالابريز ، ومنهم من يخرج دون ذلك ، ومنهم من يخرج أسود محترقا » رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة . وقال ابن مسعود . تجد المؤمن من أصح شيء قلبا وأمرضه جسما ، وتجد المنافق من أصح شيء جسما وأمرضه قلبا ويشير اليه قوله تعالى (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتنموه وتركوا الدواء لينالوا ثواب الصبر على الداء فكان فيهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ، ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ومافيه من الحكمة . ويعلم أن ذكر الحق اغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه ، وإنما يمنع المرض جوارحه ، وعلموا أن صلاتهم من قعود مثلا مع الصبر على قضائه سبحانه من العلة أفضل من الصلاة قائما مع العافية والصحة . وكان سهل يقول : ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات أفضل من التداوى لاجل القوة على العبادات . وكانت به علة عظيمة ولم يتداولها وكان يداوى الناس منها ، وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل فى شيء من الدواء فانما هو سعة من الله عزوجل لاهل الضعف ، ومن لم يدخل فى شيء منه فهو أفضل لانه إن اخذ شيئا من الدواء وإن كان هو الماء البارد يسأل عنه لم اخذت ذلك؟ ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم أن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا يمنع من اعمال القلوب الا اذا كان المه غالبا مدهشا . وقال سهل : علل الاجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة ﴿أو تكفير الذنب﴾ بان يرى طول المرض تكفيرا لخطاياه فلأبى يعلى وابن عدى من حديث أبى هريرة « لا يزال الحمى والصداع بالعبد حتى يمشى على الارض كالبردة ماعليه خطيئة » وللطبرانى من حديث أبى الدرداء نحوه . وله فى الاوسط من حديث أنس « مثل المريض اذا صح وبرىء من مرضه كمثل البردة تقع من السماء فى صفائها ولونها » وللقضاعى من حديث ابن مسعود « حمى يوم كفارة سنة » وفى رواية « حمى ليلة » ولاحمد وأبى يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد جيد « أن رجلا من المسلمين قال : يارسول الله أرأيت هذه الامراض التى تصيبنا مالنا فيها؟ قال كفارات ، قال أبى وإن قلت قال وإن شوكة فما فوقها ، قال فدعا أن لا يفارقه الوعك حتى يموت » الحديث . والوعك الحمى او شدة ألمها . وللطبرانى فى الاوسط من حديث

أَوِ امْتِحَانِ النَّفْسِ أَوْ طُغْيَانِهَا فِى الصِّحَّةِ بِتَضْيِيعِ الْوَقْتِ بِالتَّنَعُّمِ وَتَأْخِيرِ الْخَيْرَاتِ لِتَطْوِيلِ الْأَمَلِ

أبى بن كعب أنه قال : يارسول الله ماجزاء الحمى؟ قال تجرى الحسنات على صاحبها مااختلج عليه قدم اوضرب عليه عرق ، فقال « اللهم إنى اسألك حمى لاتمنعنى خروجافى سبيلك ولاخروجا الى بيتك ولامسجد نبيك » الحديث . وقال عيسى عليه السلام: لايكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسمه وماله لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه؛ وروى أن موسى عليه السلام نظر الى عبد عظيم البلاء فقال يارب ارحمه ، فقال كيف أرحمه مما به ارحمه ؟ أى به اكفر ذنوبه وازيد فى درجته ﴿أو امتحان النفس﴾ أى لتجربتها فى القدرة على الصبر فى المحنة بعدم الجزع والفزع والشكاية فقد ورد « نحن معاشر الانبياء أشد الناس بلاء ثم الامثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر إيمانه فان كان صلب الايمان شدد عليه البلاء وان كان فى إيمانه ضعف خفف عليه البلاء » رواه أحمد وابو يعلى والحاكم وصححه ﴿أو طغيانها﴾ أى تجاوز النفس عن حدها ﴿فى الصحة﴾ أى فى أيام الصحة والعافية ﴿بتضييع الوقت بالتنعم﴾ فى الشهوات واللهوات ﴿وتاخير الخيرات﴾ أى بتأخير الطاعات والعبادات والمبرات ﴿لتطويل الامل﴾ وتبعيد الاجل وتوضيحه أن يستشعر العبد فى نفسه مبادىء البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان أوطول الامل وتسويف العمل بتاخير الخيرات والمبرات ، فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو الى المعاصى والسيئات ، واقلها أن تدعو الى التنعم فى المباحات وهو تضييع الاوقات واهمال للربح العظيم فى مخالفة النفس وملازمة الطاعات ، فاذا اراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبيه بالامراض والمصيبات ولذا قيل لا يخلو المؤمن من علة او قلة أوذلة وروى أن الله تعالى يقول الفقر سجنى والمرض قيدى احبس به من أشاء من خلقى . وقال بعض العارفين لانسان : كيف كنت بعدى ؟ قال فى عافية ، قال ان كنت لم تعص الله فانت فى عافية ، فان كنت عصيته فاى داء ادوى من المعصية ؟ ماعوفى من عصى. وعن على كرم الله وجهه أنه لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيدهم قال ماهذا الذى اظهروه؟ قالوا ياأمير المؤمنين هذا يوم عيدلهم فقال كل يوم لانعصى الله فيه فهو لنا عيد وما أحسن من قال من ارباب الحال وليس العيد لمن لبس الجديد انما العيد لمن أمن من الوعيد ، وقال تعالى: (كلا

وَالأَوْلَى الاخْفَاءُ صَبْرًا وَرِضَاءً وَتَحَامِيًا عَنِ الشِّكَايَةِ إِلاَّ عَلَى سَبِيلِ الحِكَايَةِ لِقَصْدِ العِلَاجِ لِلطَّبِيبِ أَوْ تَعْلِيمِ حُسْنِ الصَّبْرِ بِالشِّكَايَةِ وَهُوَ مِنَ المُقْتَدَى بِهِ أَوْ إِظْهَارِ العَجْزِ عَنِ الصَّبْرِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَهُوَ مِنَ القَوِيِّ

أن الانسان ليطغى ان رآه استغنى) قيل أى بالعافية ، وقال بعضهم انما قال فرعون (أنا ربكم الاعلى) لطول العافية لانه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ولو اخذته الشقيقة لشغلته عن الفضول الدنيوية فضلا عن دعوى الالوهية، وروى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها ، وفي الخبر انه عليه السلام عرض عليه امرأة فذكر من صفتها ونعتها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل له انها ما مرضت قط فقال «لا حاجة لى فيها ».
رواه أحمد من حديث أنس باسناد جيد ، وذكر عليه السلام الامراض والاوجاع كالصداع وغيره فقال رجل ما الصداع ما اعرفه ؟ فقال عليه السلام «عنى اليك من اراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى هذا» رواه أبو داود وذلك لما ورد «أن الحمى حظ كل مؤمن من النار» رواه أحمد من حديث أبى امامة . ولابن ماجه من حديث أبى هريرة أنه عليه السلام عاد مريضا من وعك كان به فقال «ابشر ان الله عز وجل يقول هى نارى اسلطها على عبدى المؤمن فى الدنيا لتكون حظه من النار فى العقبى» ﴿ والاولى الاخفاء ﴾ أى اخفاء مرضه وسوء حاله ﴿ صبرا ﴾ على بلائه تعالى ﴿ ورضاء ﴾ بقضائه سبحانه ﴿ وتحاميا عن الشكاية الا على سبيل الحكاية ﴾ وانما جاز ذلك لثلاثة اغراض ﴿ لقصد العلاج للطبيب ﴾ اذا كان المريض من الضعفاء بخلاف الاقوياء فكان الامام احمد به علل لا يخبر بها الطبيب اذا سأله عنها، وتارة يخبر بامراض يجدها ويقول : انما اصف قدرة الله فى ﴿ أو تعليم حسن الصبر ﴾ أى او لتعليم المريدين استحسان الصبر وجواز اظهاره ﴿ بالشكاية ﴾ على طريق الحكاية بل لبيان الشكر فى الرواية بأن يظهر أن المرض بلية يصبر عليها أو نعمة يشكر لديها فيتحدث به كما يتحدث بالنعمة، وقال الحسن البصرى اذا حمد المريض ربه تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى ﴿ وهو ﴾ أى صاحب هذا المقام يكون ﴿ من المقتدى به ﴾ فى أمر الرعاية ﴿ أو اظهار العجز ﴾ والافتقار ﴿ عن الصبر اليه تعالى وهو ﴾ انما يستحسن ﴿ من القوى ﴾ فى مقام الصبر كما روى عن على كرم الله وجهه انه قيل له فى مرضه كيف أنت؟ فقال بشر فنظر بعضهم الى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال أتجلد على الله فاحب أن يظهر فيه العجز والافتقار مع ما علم فيه من القوة

فَالنِّيَّةُ مُرَخِّصَةٌ

والاقتدار ﴿فالنية﴾ أى تحسينها واصلاحها ﴿مرخصة﴾ لاظهار علله واسبابها أو المعنى أن النية مرخصة للتداوى وتركه فان ذلك يختلف باختلاف الاحوال والاوقات وانما الأعمال بالنيات وأما من ترك التداوى توكلا فلا وجه له للاظهار أصلا فان الاستراحة الى الدواء أحسن من الاستراحة الى الانشاء ،وقد قال بعضهم من بث لم يصبر ولذا قال يعقوب عليه السلام (انما أشكوا بثى وحزنى الى الله) وقيل فى معنى قوله (فصبر جميل) لاشكوى فيه ،وقيل ليعقوب عليه السلام ماالذى أذهب بصرك؟ قال مر الازمان وطول الأحزان فاوحى الله تعالى اليه تفرغت بشكواى الى عبيدى فقال يارب أتوب اليك،وروى عن طاووس ومجاهد انهما قالا يكتب على المريض أنينه فى مرضه وكانوا يكرهون أنين المريض لانه اظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ماأصاب ابليس من أيوب عليه السلام الا أنينه فى مرضه فجعل الانين حظه منه ولعله محمول على انين كان يمكنه أن لا يظهره عند عواده والا فقد سبق أنه تسبيح ويثاب عليه مع أنه أمر طبيعى لا يدخل تحت اختيار المريض وفى الخبر اذا مرض العبد قال الله تعالى للملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله تعالى واثنى عليه بخير دعوا له وإن كان شكا وذكر شرا قالا كذلك يكون وإنما كره بعض العباد عيادة العباد خشية الشكاية فى المقام وخوف الزيادة فى الكلام وكان بعضهم اذا مرض اغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج اليهم،منهم الفضيل بن عياض. ووهيب بن الورد. وبشر بن الحارث وكان الفضيل يقول : اشتهى المرض بلاعواد ، وقال لاأكره العلة الا لاجل العواد . هذا ومما ينفع فى باب التوكل من حسن الظن بمجىء الرزق وفق الرفق ان يسمع الحكايات التى فيها عجائب صنع الله تعالى فى وصول الرزق إلى صاحب التوكل فى سائر الاوقات ، كما روى عن حذيفة المرعشى وكان قد خدم ابراهيم بن ادهم فقيل له : ما اعجب مارأيت منه ؟ فقال : بقينا فى طريق مكة اياما لم نجد طعاما، ثم دخلنا الكوفة فآوينا الى مسجد خراب فنظر الى ابراهيم بن أدهم وقال : ياحذيفة أرى بك الجوع ، فقلت هو مارأى الشيخ ، فقال على بدواة وقرطاس ، فجئت بها فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود اليه يا الله بكل حال والمشار اليه بكل معنى . وقال :

انا حامد انا شاكر انا ذاكر ... انا جائع انا نائع انا عارى

هى ستة فأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا بارى

مدحى لغيرك لهب نار خضتها   فأجر عبيدك من لهيب النار

ثم دفع الى الرقعة وقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله وادفع الرقعة الى اول من يلقاك ، فخرجت فاول من لقيني كان على بغلة ، فناولته الرقعة فاخذها ، فلما وقف عليها بكى ، وقال : مافعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت هو فى المسجد الفلانى ، فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار ، ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا رجل نصرانى ، فجئت إلى ابراهيم فاخبرته بالقصة ، فقال لاتمسها فانه يجيء الساعة ، فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم . وقال أبو يعقوب الاقطع البصرى : جعت بالحرم عشرة أيام ، فوجدت ضعفا فحدثتنى نفسى بالخروج ، فخرجت إلى الوادى لعلى اجد شيئا يسكن ضعفى ، فرأيت شلجمة مطروحة فاخذتها فوجدت فى نفسى منها وحشة ، وكأن قائلا يقول لى : جعت عشرة ايام وآخره يكون حظك شلجمة متغيرة فرجعت ودخلت المسجد وقعدت ، فاذا انا برجل أعجمى قد اقبل حتى جلس بين يدى ووضع قطرة وقال هذه لك ، فقلت كيف خصصتنى بها ؟ فقال أعلم انا كنا فى البحر منذ عشرة ايام واشرفت السفينة على الغرق ، فنذرت إن خلصنى الله أن اتصدق بهذه على اول من يقع عليه بصرى من المجاورين ، وأنت اول من لقيته ، فقلت افتحها ففتحها فاذا فيها كعك سميد مصرى ، ولوز مقشر ، وسكر كعاب ، فقبضت قبضة من هذا وقبضة من هذا وقبضة من هذا ، وقلت رد الباقى الى صبيانك هدية منى لهم وقد قبلتها ، ثم قلت فى نفسى رزقك يسير اليك من عشرة أيام وأنت تطلبه فى الوادى وقال ممشاد الدينورى : كان على دين فاشتغل قلبى بسببه فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول يابخيل اخذت علينا هذا المقدار من الدين خذ عليك الاخذ وعلينا العطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهم ، وحكى عن بنان الحمال قال : كنت فى طريق مكة اجيء من مصر ومعى زاد ، فجاءتنى امرأة وقالت : يابنان أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لايرزقك ؟ قال فرميت بزادى ، ثم أتى على ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخالا فى الطريق فقلت فى نفسى أحمله حتى يجيء صاحبه فربما يعطينى شيئا فارده عليه فاذا انا بتلك المرأة فقالت : أنت تاجر تقول عسى يجيء صاحبه فآخذ منه شيئا ثم رمت الى شيئا من الدراهم وقالت : انفقها فاكتفيت بها الى قريب من مصر ، وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه فانبسط إلى اخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا إذا جاء النفير فنشترى مايوافقك ، فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا انها تصلح له ، وقالوا لصاحبها بكم هذه الجارية ؟ فقال انها ليست للبيع ، فألحوا عليه ، فقال

أنها لبنان الحمال اهدتها اليه امرأة من سمرقند ، فحملت الى بنان وذكرت له القصة وقيل كان فى الزمن الاول رجل فى سفر ومعه قرص فقال إن أكلته مت. فوكل الله به ملكا فقال ان أكله فارزقه ، وان لم يأكله فلا تعطه غيره ، فلم يزل القرص معه الى أن مات ولم يأكله وبقى القرص بعده . ويقرب منه مافى حياة الحيوان أن دودة أكلها التراب وتموت جوعا خوفا من فراغه وحزنا على فراقه ، وكذا طير على ساحل البحر يموت عطشا خوفا من نفاد مافيه من الماء ، وقال أبو سعيد الخراز دخلت البادية بغير زاد فاصابتنى فاقة فرأيت المرحلة فسررت بأن وصلت ، ثم فكرت فى نفسى أنى سكنت واتكلت على غيره سبحانه ، فآليت أن لا أدخل المرحلة الا أن أحمل اليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفيرة وواريت جسدى فيها ، فسمعوا صوتا علانيا فى نصف الليل: يا أهل المرحلة ان لله وليا حبس نفسه فى الرمل فالحقوه ، فجاء جماعة فاخرجونى وحملونى الى القرية. وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فقال عمر ياهذا هاجرت الى عمر او الى الله اذهب فتعلم القرآن فانه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة فقال عمر انى اشتقت اليك فما الذى شغلك عنا؟ فقال إنى قرأت القرآن فاغنانى عن عمر وآل عمر ، فقال عمر رحمك الله فما وجدت فيه؟ قال وجدت فيه (وفى السماء رزقكم وما توعدون) فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الارض فبكى عمر وقال صدقت ، وكان عمر بعد ذلك يجلس اليه ، وقال أبو حمزة الخراسانى حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشى فى الطريق اذ وقعت فى بئر فنازعتنى نفسى أن أستغيث ، ثم قلت لا والله لا أستغيث فما استتم هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال أحدهما تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه احد ، فأتوا بقصب وبارية وطموا البئر على رأسه فهممت ان اصيح ثم قلت فى نفسى الى من هو اقرب منهما فسكت فبينما انا بعد ساعة اذ انا بشىء كشف عن رأس البئر وادلى رجله وكأنه يقول تعلق بى فى همهمة له كنت اعرف له ذلك ، فتعلقت به فاخرجنى فاذا هو سبع فمر وتركنى فهتف بى هاتف فقال : ياابا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف فمشيت وانا اقول :

اهابك ان ابدى اليك الذى اخفى　　وانت عليم ما يلاحظه طرفى
نهانى هواى منك أن اكتم الحيا　　واغنيتنى بالفهم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى فابديت شاهدى　　الى غائبى واللطف يدرك باللطف
تراأيت لى بالغيب حتى كأنما　　تبشرنى بالغيب انك فى الكهف
اراك وبى من هيبتى لك وحشة　　فتونسنى باللطف منك وبالعطف

وَالأَصْلُ فيهِ اليَقِينُ. وَوَرَدَ مَنْ كَانَ غَرِيزَتَهُ العَقْلُ وَسَجِيَّتَهُ اليَقِينُ لَمْ تَضُرَّهُ الذُّنُوبُ. مِنْ أَفْضَلِ مَا أُوتِيتُمُ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ

وتحيى محبا كان فى الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

فهذه احوال رجال ماتوا قبل الموت فلا لحقهم شيء من الفوت. وفى هذا المقام قال من قال : دع نفسك وتعال ، وبيان ذلك الحال ان تطييب نفس السالك لهـــذه المسالك بالموت ان لم يأته رزقه علمـا بان رزقه هو الموت . والجـوع وان كان نقصانا فى الدنيا فهو زيادة كمال فى العقبى، فيرى انه سبق اليه من خير الرازقين ويعتقد انه سبحانه خير الرازقين كما انه احسن الخالقين ﴿ والاصل ﴾ الذى عليه مدار امر الدين خصوصا ﴿ فيه ﴾ اى فى التوكل هو ﴿ اليقين ﴾ وقد قال تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) اى عين اليقين فانه كان عليه السلام واتباعه الكرام فى مقام علم اليقين ، ولذا تفسيره بالموت عند عامة المفسرين من الائمة المتبحرين . وقال عز وعلا (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب) الى ان قال (وهم بالآخرة هم يوقنون) وقول على كرم الله وجهه: لو كشف الغطاء ماازددت يقينا ، لانه انما يزداد وضوحا عينيا بعد ماكان ظاهرا غيبيا ، كما ان الذى يرى انسانا فى وقت الاسفار لايزداد يقينا عند طلوع شمس النهار بانه انسان فى صورته وهيأته ، بل يزداد وضوحا فى عرفان تفصيل خلقته .

والحاصل أنه ما يزداد اليقين من طريق العلم والبيان وانما يزداده باعتبار الظهور والعيان فينتقل من علم اليقين الى عين اليقين وبرؤية الحق ينتقل من علم اليقين الى حق اليقين ، ونظيره ان خبر الكعبة متواتر عند كل سالك المناسك ، فله علم اليقين فى سلوك تلك المسالك الى ان يشاهد البيت من بعيد فيشهد له بعين اليقين مع تأييد ثم اذا قبل الحجر الاسحم والتزم الملتزم انتقل الى حق اليقين فى الحرم المحرم ، والله سبحانه أعلم ﴿ وورد ﴾ عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ من كان غريزته العقل ﴾ أى طبيعته ﴿ وسجيته اليقين ﴾ أى خلقته وطويته ﴿ لم تضره الذنوب ﴾ أى ارتكابها لانهما يدعوان الى سرعة التوبة عن اكتسابها ، والتائب من الذنب كمن لاذنب له فى اجتنابها ﴿ من أفضل ما أوتيتم اليقين ﴾ فى أمر الدين ﴿ وعزيمة الصبر ﴾ فى مقام المجتهدين ، قال تعالى (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور) وقال: (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور) ولابى نعيم فى الحلية والبيهقى عن أبى سعيد مرفوعا « ان من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ؛ وأن تحمدهم

وَهُوَ عَدَمُ الشَّكِّ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ وَالاسْتِيلَاءُ عَلَى القَلْبِ فى عِلْمِ الآخِرَةِ قِيلَ ضَعُفَ يَقِينُ فُلَانٍ عِنْدَ الْمَوْتِ مَعَ عَدَمِ الشَّكِّ فِيهِ وَقَوِىَ فِى الرِّزْقِ مَعَ الشَّكِّ فِيهِ وَمَجَارِيهِ كُلُّ مَاجَاءَ بِهِ الشَّرْعُ وَالأُصُولُ . التَّوْحِيدُ وَبُلُوغُ الرِّزْقِ وَالْجَزَاءُ وَاطِّلَاعُهُ تَعَالَى عَلَى الأَحْوَالِ وَالْجَدْوَى عَدَمُ الالْتِفَاتِ إِلَى الْمُسَخَّرَاتِ وَالإِجْمَالُ فِى الطَّلَبِ مَعَ تَرْكِ التَّأَسُّفِ عَلَى الفَوَاتِ وَالإِقْدَامُ عَلَى الطَّاعَاتِ

على رزق الله وان تذمهم على مالم يؤتك الله ان رزق الله لايجره اليك حرص حريص ولا يرده كراهة كاره وان الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضاء واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط ﴿ وهو ﴾ اى اليقين ﴿ عدم الشك ﴾ فى امر الدين ﴿ عند المتكلم ﴾ اى فى علم الكلام ﴿ والاستيلاء ﴾ للامر ﴿ على القلب ﴾ باستعلاء الرب ﴿ فى علم الآخرة ﴾ المنتج العمل فى مرضات الله سبحانه وهذا التعريف عند المتصوفة والفقهاء ولذا يوصف عندهم بالضعف والقوة والكمال والزيادة بخلاف غيرهم ومن هنا ﴿ قيل ﴾ لمن جزع وقت الموت ﴿ ضعف يقين فلان عند الموت ﴾ كان الاظهر أن يقال فى الموت اى فى حال وقوعه ﴿ مع عدم الشك ﴾ لاخذ من المسلم والكافر ﴿ فيه ﴾ اى فى وجود الموت وثبوته فهو يقين يشبه الشك ﴿ وقوى فى الرزق ﴾ أى ويقال لمن ترك بالكلية مباشرة الاسباب وتوكل على الله حق توكله بترك الاسباب قوى فلان فى امر الرزق ﴿ مع الشك فيه ﴾ أى فى وجود الرزق اذ يحتمل عدمه بان يموت جوعا فى مقامه ﴿ ومجاريه ﴾ اى محال اليقين ومجاليه ﴿ كل ماجاء به الشرع ﴾ المبين ﴿ والاصول ﴾ لليقين اربعة ﴿ التوحيد ﴾ للحق ﴿ وبلوغ الرزق ﴾ للخلق ﴿ والجزاء ﴾ على الاعمال ﴿ واطلاعه تعالى على الاحوال ﴾ سرا وعلانية فانه يعلم السر واخفى ﴿ والجدوى ﴾ اى فائدة اليقين اربعة ايضا ﴿ عدم الالتفات الى المسخرات ﴾ من العلويات والسفليات ﴿ والاجمال فى الطلب ﴾ أى طلب الرزق ففى الحديث واجملوا فى طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها، رواه ابن ماجه وغيره من حديث أبى حميد الساعدى والمعنى اكسبوا المال بوجه جميل وهو ان لاتطلبه الا بالوجه الشرعى وتصحيح النيات فى المقامات ﴿ مع ترك التأسف على الفوات ﴾ قال تعالى (لكيلا تأسوا على مافاتكم) اى من الدنيا وورد «من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة ألف سنة، ومن أسف على آخرة فاتته اقترب من الجنة مسيرة ألف سنة» اخرجه البزار فى مشيخته عن أبى عمرو ﴿ والاقدام على الطاعات ﴾ أى واكتساب العبادات

مَعَ الامْتِنَاعِ عَنِ المَعْصِيَةِ وَالمُبَالَغَةُ فِي إِصْلَاحِ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ ٭

﴿ الخَاتِمَةُ فِي المَحَبَّةِ وَالسُّلُوكِ ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٭ وورد (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»

﴿ مع الامتناع عن المعصية ﴾ أى مع الاجتناب عن جميع السيئات ﴿ والمبالغة فى اصلاح الظاهر والباطن ﴾ بتحصيل الاخلاق والشمائل وتحسين الاحوال والفضائل ٭

﴿ الخاتمة فى المحبة والسلوك ﴾

أى وسلوك طريق المحبة وسبيل المودة ، ومن لم يغترف من بحر المعرفة لم يعترف بحقيقة المحبة مع غير الجنس والمثل والصفة . وقال لامعني لها الا المواظبة على الطاعة، ولما انكر المحبة انكر الانس والشوق والذوق ، والمحو والصحو ، والفناء والبقاء ، والقبض والبسط ، وسائر لوازم المحبة وتوابع المودة ، وسائر مقامات أهل المعرفة. وسيجيء كشف الغطاء عن هذه الحالة ببيان الكتاب والسنة ٭

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ تنجلى الامور وتنشرح الصدور . والامة مجمعة على أن الحب لله ورسوله فرض ، فكيف يفترض مالاوجود له، وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تتبع الحب وثمرته ، فلا بد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ﴿ وورد ﴾ فى التنزيل مايقوى هذا التأويل ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ﴾ أى تدعون محبته ﴿ فاتبعونى ﴾ فانى رئيس المحبين فى سلوك المودة ﴿ يحببكم الله ﴾ كما احبنى وسمانى حبيب الله ، وللاتباع حظ من متبوعهم بقدر الاتباع . ومما يدل على اثبات الحب لله قوله عز وعلا (يحبهم ويحبونه) ثم فى قوله سبحانه (والذين آمنوا أشد حبا لله) دليل على إثبات الحب ومناقبه والتفاوت فى مراتبه ﴿ لايؤمن أحدكم ﴾ ايمانا كاملا اوايمانا أصلا ﴿ حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ﴾ من الولد والوالد وما عداهما . والحديث رواه الشيخان من حديث أنس بلفظ « لايجد احد حلاوة الايمان حتى » الحديث . وعن أبى رزين العقيلى أنه قال يارسول الله ما الايمان؟ قال « الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليك مما سواهما » وفى الصحيحين من حديث انس أيضا « لايؤمن أحدكم حتى اكون أحب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين »

وفى رواية لهما «و من نفسه» . وللبخارى من حديث عبدالله بن هشام «قال عمر يارسول الله لانت أحب الى من كل شيء الا نفسى ، فقال لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك ، قال عمر أنت الآن والله احب الى من نفسى، فقال الآن ياعمر» يعنى آمنت وهو خبر ؛ ويحتمل أن يكون استفهاما . ولعل هذه الاحاديث مقتبسة من قوله سبحانه (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره) فان ذلك جرى مجرى التهديد والانكار، والقصد به الاثبات والاقرار ، ونبه عليه السلام على تفاوت المحبة بينه وبين الله سبحانه فى هذا المقام بقوله « احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، واحبونى لحب الله إياى» فأشار الى أن محبة الله اصالة ومحبته عليه السلام تبعية كما يقتضيه مقام الربوبية والعبودية. ويروى «أن رجلا قال يارسول الله إنى أحبك قال فاعد للفقر تجفافا» رواه الترمذى وحسنه، وعن عمر رضى الله عنه أنه عليه السلام نظر إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به فقال عليه السلام: انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذيانه باطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله الى ماترون، رواه أبو نعيم فى الحلية باسناد حسن. وفى الصحيحين من حديث أنس وابن مسعود وأبى موسى «قال اعرابى يارسول الله متى الساعة ؟ قال ما أعددت لها؟ فقال ما أعددت لها كثير صلاة ولاصيام الا أنى أحب الله ورسوله ، فقال له عليه السلام : المرء مع من أحب قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الاسلام فرحهم بذلك» وقال الصديق : من ذاق خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر أى من أرباب الدنيا. وقال الحسن: من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها . والمؤمن لا يلهو حتى يغفل ، فاذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الدارانى . إن من خلق الله تعالى خلقا مايشغلهم الجنان ومافيها من النعيم عنه. فكيف يشتغلون عنه بالدنيا . ويروى : أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم، فقال لهم : ماالذى بلغ بكم ماأرى؟ فقالوا الخوف من النار، فقال حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذاهم أشد نحولا وتغيراً ، فقال ماالذى بلغكم الى ماأرى ؟ فقالوا الشوق الى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ماترجون . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذاهم أشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم المرايا من النور، فقال ماالذى بلغ بكم ماأرى؟ فقالوا الحب لله

وَالمَحبَّةُ أَعْظَمُ المَقَامَاتِ وَأَهَمُّ المُهِمَّاتِ وَهِيَ مَيْلُ النَّفْسِ الَى المُوَافِق

عز وجل ، فقال أنتم المقربون أنتم المقربون أنتم المقربون. وقال هرم بن حيان اذا عرف المؤمن ربه أحبه واذا أحبه أقبل عليه واذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر الى الآخرة بعين الفترة وهو بجسده فى الدنيا وبروحه فى الآخرة وقال يحي بن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ، ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ، وحبه يدهش العقل فكيف وده ، ووده ينسى مادونه فكيف لطفه . وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب ، وقال أيضا : إلهى انى مقيم بغنائك مشغول بثنائك أخذتنى اليك وسربلتنى بقربك وامكنتنى من لطفك وثقلتنى فى الأحوال وقلبتنى فى الأعمال ستراو توبة وزهدا وشوقا ورضا وحبا تسقينى من حياضك وتحملنى فى رياضك ، ملازما لأمرك مشغوفا بقولك ، ولما طر شاربى ولاح طائلى فكيف انصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت منك هذا صغيرا ، ولى مابقيت حولك دندنة ، وبالضراعة اليك همهمة لأنى أحبك ، وكل حبيب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف ﴿ والمحبة أعظم المقامات وأهم المهمات ﴾ فقيل : المحبة محو المحب بصفاته ، واثبات المحبوب بذاته وقيل المحبة ايثار المحبوب على المصحوب . وقيل مشاهدة الحبيب فى المشهد والمغيب وقيل المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك فى مقام المطلوب . وقيل المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب تعجز القلوب عن ادراك نهايته وتمنع الألسن عن عبارتها وقال الجنيد: حرم الله المحبة على صاحب العلاقة وقال: كل محبة تكون بعوض فاذا زال العوض زالت المحبة ، وعن ذى النون : قل لمن أظهر حب الله احذر أن تركن إلى غير الله ﴿ وهى ﴾ أى المحبة ﴿ ميل النفس الى الموافق ﴾ أى الى مايوافق هواها ولاينافى مشتهاها ، وتوضيحه ان المدركات تنقسم إلى مايوافق طبع المدرك ويلذه ويلائمه والى مالاينافيه وينافره ويؤلمه والى مالايؤثر فيه بايلام ولا التئام فكل مافى ادراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك وما كان فى ادراكه ألم ومحنة فهو مبغوض عنده ومايخلو عن استعقاب لذة وراحة وألم وشدة فلا يوصف بكونه محبوبا ولامكروها ، فاذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا ان فى الطبع ميلا اليه ، ومعنى كونه مبغوضا ان فى الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشيء الملذ ، فان تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقا وشوقا والبغض عبارة عن نفرة

وَلَا لَذَّةَ أَعْظَمُ مِنْ مَحَبَّتِهِ تَعَالَى وَمَعْرِفَتِهِ ، فَالْأَدْنَى الْمَطْعَمُ ثُمَّ الْمَنْكَحُ ثُمَّ الْجَاهُ ثُمَّ الْعِلْمُ ، وَيُعْرَفُ بِتَرْكِ الْأَدْنَى وَاسْتِحْقَارِهِ عِنْدَ وُجْدَانِ الْأَعْلَى

الطبع عن المؤلم المتعب ، فاذا قوى سمى مقتا . ويقال سحقاء ثم لما كان الحب تابعا للادراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات بالحواس ، فلكل حاسة نوع من المدركات ولكل واحدة منها لذة فى بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل اليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم ، فلذة العين فى الأبصار وادراك المبصرات الجميلة والصور الحسنة المليحة ، ولذة الاذن فى النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، ولذة الذوق فى الأطعمة المستلذة ، ولذة اللمس فى اللينة والنعومة ، ثم لذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الانسان فان كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال ان الله لا يدرك بالحواس ولا يتمثل بالخيال فلا يحب فاذا قد بطل خاصية الانسان وما تميز به عن الحيوان من الحس ، السادس الذى يعبر عنه إما بالعقل وإما بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيها . وهيهات فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر كما يشير اليه قوله سبحانه (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) والقلب أشد ادراكا من العين ولذا قال تعالى : (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) و(إلا من أتى الله بقلب سليم) وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار ولذا قال تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) و(ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فتكون لا محالة لذة القلوب بما تدركه من الامور الشريفة الالهية التى تخلو عن ادراكها الحواس ابلغ واتم ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح القويم اليه اقوى واهم ، ولا معنى للحب الا الميل الى ما فى ادراكه لذة ﴿ ولا لذة اعظم من محبته تعالى ومعرفته ﴾ فلا ينكر اذن حب الله الا من قعد به القصور عن درجة البهائم غفلا ، فلم يجاوز ادراكه الحواس أصلا ﴿ فالادنى ﴾ من اللذات ﴿ المطعم ﴾ أى لذة الاكل والشرب من المستلذات ﴿ ثم المنكح ﴾ من المشتهيات ، وذلك بالنسبة الى المكلف والا فالصبى عنده بعد الاكل تمام لذته اللهو واللعب ﴿ ثم الجاه ﴾ الصورى ﴿ ثم العلم ﴾ بالامر الضرورى ﴿ ويعرف ﴾ الترقى ﴿ بترك الادنى واستحقاره عند وجدان الاعلى ﴾ واستقراره ، كما أن المرأة الثيب إذا ارادت زوجا خيرت بين غنى عنين وفقير رجول فالغالب أنها لا تختار الغنى لاسيما اذا كانت غنية ولها قوة شهية . فعلم أن

وَاسْتِكْرَاهُ الْبَعْضِ لِلْعِلْمِ لِلنَّقْصِ كَاسْتِكْرَاهِ الْمَرِيضِ الْمَطْعَمَ وَالصَّبِيِّ الْمَنْكَحَ ، وَالْعِلْمُ بِهِ تَعَالَى أَشْرَفُ الْعُلُومِ فَشَرَفُهُ بِشَرَفِ الْمَعْلُومِ ، وَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ الْفَتْوَى أَشْرَفَ مِنَ الْخِيَاطَةِ ، وَالرُّؤْيَةُ لَهُ سُبْحَانَهُ أَلَذُّ مِنْهُ لِازْدِيَادِ الْكَشْفِ فِيهَا ، فَاللَّذَّةُ بِاعْتِبَارِ هَذَا وَسَبَبُهَا الْكَمَالُ فَهُوَ مَحْبُوبٌ طَبْعًا وَمِنْ ثَمَّ أُحِبَّ الْعَالِمُ وَالصَّالِحُ

لذة المنكح أعلى من لذة المطعم. ثم لو فرض انها كانت من اشراف القوم ، وفرض أن الرجولية زالت من الناس الا من اراذلهم كالكناسين والدباغين فالغالب أنها لا تختار زوجا من هذه الطائفة ولو كان غنيا وفى الشهوة قويا ، فعلم أن لذة الجاه اعلى من لذة المنكح ثم لو فرض شريف ذو نسب ذاق لذة العلم وليس فى البلد عالم الا من اراذل القوم المذكورين فالغالب أنه لا يانف أن يحضر فى مجلس هذا العالم ليستفيد منه العلم ، فعلم أن لذة العلم أعلى من لذة الجاه ، وكذا المخير بين النظر الى صورة جميلة وبين استنشاق رائحة طيبة اذا اختار النظر الى حسن الصورة علم به أن الصور الجميلة عنده ألذ من الروائح الطيبة ، وكذا اذا حضر الطعام واستمر اللاعب بالشطرنج علم أن لذة اللعب عنده اقوى من لذة الاكل ﴿ واستكراه البعض العلم للنقص ﴾ فى ذاته ﴿ كاستكراه المريض المطعم ﴾ لعلة فى حاله ﴿ والصبى المنكح ﴾ لعدم بلوغ مثله ، والا فلا يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة حتى أن الذى ينسب الى العلم ولو بشىء خسيس كالشطرنج ونحوه من الكيمياء والسيمياء وأمثاله يفرح به ، والذى ينسب الى الجهل ولو فى شىء حقير يغتم بسببه . ثم مراتب العلم متفاوتة باعتبار تفاوت المعلوم ﴿ والعلم به تعالى اشرف العلوم فشرفه ﴾ أى العلم ﴿ بشرف المعلوم ﴾ وليت شعرى هل فى الوجود شىء أجل واعلى واكمل واغلى من خالق الاشياء ومكملها ، ومزينها ومبديها ، ومعيدها ومدبرها ومرتبها فألذ العلوم العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله فى مصنوعاته وتدبيره فى ارضه وسمواته ﴿ ومن ثم تكون الفتوى ﴾ بل الكتابة ﴿ اشرف من الخياطة ﴾ ونحوها من الصياغة والصباغة ﴿ والرؤية له سبحانه ألذ منه ﴾ أى من العلم به ﴿ لازدياد الكشف ﴾ في معرفة ذاته وصفاته ﴿ فيها ﴾ أى فى الرؤية حال تجلياته ﴿ فاللذة باعتبار هذا ﴾ المعلوم وازدياد الكشف المفهوم ﴿ وسببها ﴾ أى موجب المحبة وباعثها ﴿ الكمال ﴾ فى الجمال ﴿ فهو ﴾ أى الكمال ﴿ محبوب طبعا ﴾ ولو فى زيادة الجاه والمال ﴿ ومن ثم أحب العالم ﴾ لما له كمال فى العلم ﴿ والصالح ﴾ لما له كمال فى العمل لا لصورتهما

وَالوَجْهُ الجَمِيلُ وَالكَلَامُ البَلِيغُ وَالاحْسَانُ فَانَّ الانْسَانَ عَبِيدُهُ وَلَا كَمَالَ إلّا لَهُ تَعَالَى

الظاهرة بل لسيرتهما الباطنة الباهرة ، فان الطباع مجبولة على حب الأنبياء والعلماء والأولياء مع أنهم لم يشاهدوا لهم شيئا من الأشياء ، ومنه حب أرباب المذاهب كأبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وغيرهم من المشايخ ، حتى أن الرجل قد يتجاوز به حبه لصاحب مذهبه أو مشربه حد العشق بسببه فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله فى نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه فى قتال من يطعن فى إمامه أو شيخه فكم من دم أريق فى نصرة المذاهب باختلاف المراتب فليت شعرى من يحب متبوعا من عالم أو صالح فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته وهيأته فاستحسانه الذى حمله على افراط حبه انما هو لاستحسان سيرته وهى صورته الباطنة لا صورته الظاهرة ﴿ والوجه الجميل ﴾ لما له من صورة الجمال ﴿ والكلام البليغ ﴾ لما له من سيرة أهل الكمال ﴿ والاحسان فان الانسان ﴾ أى جنسه ﴿ عبيده ﴾ أى عبيد الاحسان . وفى نسخ الاحياء عبد الاحسان وهو أظهر لحمله على الانسان ، والمعنى أنه قد جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء عليها كما ورد ، وقد ورد أيضا « اللهم لا تجعل لفاجر على يدا فيحبه قلبى » كما رواه الديلمى وهذا المقام اذا حقق رجع الى الاول فان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة الى دوام الوجود وتمام الشهود ، وهو من جملة الكمال الا ان الاول كمال لذاته ، وهذا من عوارض صفاته ، بل اذا حكى من سيرة بعض الملوك وأصحاب المال فى اقطار الارض العدل والاحسان غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار احسانه لبعد المزار وتنائى الديار ، فاذا ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن اليه فقط ، بل المحسن فى نفسه محبوب وإن كان لا ينتهى احسانه قط الى المحب ، لان كل جمال وحسن فهو محبوب ، فالصور ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصورة الظاهرة بالبصر الظاهر ، والصورة الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل اليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة اغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة اكثر من حبه للمعانى الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الانبياء لجمال صورته الباطنة ﴿ ولا كمال ﴾ فى الجمال والجلال ﴿ إلا له تعالى ﴾ شانه وهو الملك

وَلَا إِحْسَانَ إِلَّا مِنْهُ وَالْأَعْلَى أَنْ يُحِبَّ لِذَاتِهِ وَهُوَ مِنَ الْمَوَاهِبِ بِخِلَافِ غَيْرِهِ ثُمَّ لِلْكَمَالِ ثُمَّ لِلْإِحْسَانِ وَهُوَ مَحَبَّةُ النَّفْسِ فِى الْحَقِيقَةِ

المتعال ﴿ ولا احسان إلا منه ﴾ كما يشير اليه قوله تعالى : (ومابكم من نعمة فمن الله) ﴿ والاعلى أن يحب ﴾ أى الله ﴿ لذاته ﴾ مع قطع النظر عما تقتضيه صفاته الجمالية من رجاء الجنة ، ونعوته الجلالية من خوف العقوبة ، وما توجبه صفات الافعال من الاكرام والاحسان والانعام ﴿ وهو ﴾ أى الحب الذى لذاته ﴿ من المواهب ﴾ اللدنية والمراتب العندية دون المكاسب العبدية كما ورد « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » ﴿ بخلاف غيره ﴾ أى غير الحب لذاته من انواع الحب الآتية المعبر عنها بقوله ﴿ ثم للكمال ثم للاحسان وهو ﴾ أى الحب الذى للاحسان ﴿ محبة النفس ﴾ أى نفس المحب ﴿ فى الحقيقة ﴾ وإن كان يطلق عليه محبة الله فى ظاهر الشريعة والطريقة ، فاذاً يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع الى محبة الانسان نفسه . فكل من أحب المحسن لاحسانه فما أحب ذاته تحقيقا ، أى بل أحب احسانه ، وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته ولو نقص نقص الحب ، وتتطرق اليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه . وفى الاحياء إن الانسان لا يخفى أنه يحب نفسه ، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لاجل نفسه ، وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لاجل نفسه ، هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنوا أن لا يتصور أن يحب الانسان غيره لذاته مالم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته . فالحق أن ذلك متصور وموجود ، ولاهل الكمال مدرك ومشهود ، وذلك كحب الجمال فان كل جمال محبوب عند كل مدرك للجمال ، وذلك لعين الجمال لان ادراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ، ولا يظن أن الصور الجميلة لا تتصور الا لقضاء الشهوة ، فان قضاءها لذة اخرى قد تحب الصور الجميلة لاجلها ، وادراك نفس الجمال أيضا لذيذ فيجوز ان يكون محبوبا لذاته ، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوبان لا يشرب الماء ولا تؤكل الخضرة او ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ، فقد كان عليه السلام يحب الخضرة والماء الجارى كما روى أبو نعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس « أنه عليه السلام كان يحب أن ينظر الى الخضرة والماء الجارى والطباع السليمة من العوارض السقيمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة الالوان

والآثار حتى أن الانسان لتفرج عنه الغموم بالنظر اليها لالطلب حظ وراء النظر اليها ، فاذا ثبت ان الله جميل كان لامحالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله، لما ورد « أن الله جميل يحب الجمال » رواه مسلم من حديث ابن مسعود . هذا وقد يكون الموجبة للمحبة مناسبة خفية بين المحب والمحبوب، اذ رب شخصين يتأكد الحب بينهما لابسبب جمال او حظ مال بل بمجرد تناسب الارواح دون تشاكل الاشباح ، كما ورد «الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » رواه مسلم من حديث أبي هريرة . والتعارف هو التناسب والتناكر هو التباين .

ثم اعلم أن المستحق للمحبة إنما هو الله وحده ، وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته الى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة ربه، وإنما يحب غيره من الانبياء والاصفياء لكونهم أحباء له سبحانه ومحبوب المحبوب محبوب ، ولان أسباب المحبة المتقدمة مجتمعة فى حقه سبحانه بجملتها علي وجه الدوام والكمال ، وأما فى حق غيره تعالى فلا يوجد الا آحادها على وجه النقصان والزوال ، وانها حقيقة فى حقه عز وجل وفى حق غيره مجاز محض ، بل وهم وتخيل صرف لاحقيقة لها فى شهودهم كما فى وجودهم فان العبد لاوجود له من ذاته ، بل هو محو محض وعدم صرف ، لولا فضل الله عليه بالايجاد ، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالابقاء والامداد ثم المحبة ثمرة المعرفة تنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها؛ ولذا قال الحسن من عرف ربه احبه ، ومن عرف النار بعد منها، ومن عرف الدنيا زهد فيها،ثم الله سبحانه هو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان من غير غرض ولا عوض ، بخلاف احسان الانسان مع ان احسانه أيضا من جملة احسان الملك المنان، بل الاحسان على وجه الكمال من غيره محال ، فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ، فانه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق اسباب الاحسان . ثم العلم من اسباب المحبة فأين علم الاولين والآخرين من علم الله تعالى الذى لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض، ولقد خاطب الخلق كلهم فقال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) بل لو اجتمع أهل الارض والسماء أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة او بعوضة لم يطلعوا على عشر عشيرة كما قال تعالى (ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء) فالقدر اليسير الذى علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى (خلق الانسان علمه البيان) ثم لاقدرة ولاقوة الا بالله فان العبد لايملك لنفسه نفعا ولاضرا ولاموتا ولاحياة ولانشورا،

وأما ما هو قادرعليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه ، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه ، والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى ملك لاهلكته ، فليس للعبد قوة الا بتمكين مولاه كما يشير اليه حديث «لاحول ولاقوة الا بالله» وكما قال في أعظم ملوك الارض (إنا مكنا له في الارض وآتيناه من كل شيء سببا) (والسموات مطويات بيمينه) والارض ومن عليها جميعا في قبضته وناصية جميع المخلوقات بيد قدرته ، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة ، وان خلق أمثالهم ألف ألف مرة لايزيد في كماله سبحانه ذرة ، وليس كمال لغير الله الا بقدر ما أعطاه. واما كماله فكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الانبياء الاقرار بالقصور عن وصفه ونعته كما قال سيد المرسلين عليه السلام «لاأحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وقال سيد الصديقين العجز عن درك الادراك ادراك فسبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته الا بالعجز عن معرفته . فالواجب على العبد أن يحب الله لجمال ذاته وكمال صفاته لالغرض ولالعوض مما يلائم قلب العبد من حالاته ولذا أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام «إن أود الأوداء إلي من عبدني لغير نوال ولكن ليعطي الربوبية حقها . وفي الزبور : ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار لولم أخلق جنة ونارا ألم أكن أهلا ان أطاع . ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا وقالوا نخاف النار ونرجو الجنة فقال: مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم. ومر بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله ، فقال أنتم أولياء الله معكم أمرت أن أقيم . وقال أبو حازم اني أستحي أن أعبد الله للعقاب والثواب فأكون كالعبد السوء اذا لم يخف لم يعمل أو كالأجير السوء ان لم يعط أجرا لم يعمل. ثم المناسبة للمحبة بين الله وعبده انه أمران يتخلق بأخلاقه في اكتساب محامد الصفات التي هي من النعوت الالهية كالعلم والبر والاحسان واللطف وافاضة الرحمة على الخلق والنصيحة والارشاد لهم الى الحق ، فكل ذلك يقرب العبد من الله سبحانه قرب الصفات ويشير إلى تلك المناسبة قوله تعالى (انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) اذ لم يستحق داود خلافة الله إلا بتلك المناسبة ، واليه يومي قوله عليه السلام « ان الله خلق آدم على صورته » أي صفته الكمالية من النعوت الجمالية والجلالية . وقد ظن القاصرون أن لاصورة الا الصورة الظاهرة فشبهوا وجسموا وصوروا تصويرا كثيرا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، واليه الاشارة بقوله تعالى في الحديث القدسي «مرضت فلم يعدني

وَآثَارُهَا الشَّوْقُ فَوَرَدَ طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي

قال وكيف ذلك قال مرض عبدى فلان ولو عدته لوجدتنى عنده ، وهذه المناسبة لاتظهر الا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض واتمام الشمائل كما قال تعالى « لايزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به » كما رواه مسلم من حديث أبى هريرة وهذا موضع يجب فيضان العلم عنه ، فقد تحزب الناس فيه الى قاصرين مالوا الى التشبيه الظاهر ، والى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة الى الاتحاد، وقالوا بالحلول، حتى قال بعضهم : انا الحق . وضل النصارى فى عيسى وقالوا هو الاله . وقال آخرون تدرعت الناسوت باللاهوت . وقال آخرون اتحد به كما تقول الوجودية وهم طائفة ابن عربى بالمعية . وأما الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والتمثيل والاتحاد والحلول، واتضح لهم فى ذلك حقيقة التنزيه فهم الاقلون عددا والا كثرون عددا، ولعل اباالحسن الثورى كان ينظر من هذا المقام اذ غلبه الوجد فى قول القائل هذا الكلام .

لازلت انزل فى ودادك منزلا تتحير الالباب عند نزوله

﴿ وآثارها ﴾ أى نتائج المحبة وآثمارها خمسة ﴿ الشوق ﴾ وهو غلبة المحبة فى مقام الذوق ﴿ فورد طال شوق الابرار الى لقائى ﴾ قال أبو الدرداء لكعب : اخبرنى عن اخص آية يعنى فى التوراة ، فقال يقول الله تعالى : طال شوق الابرار الى لقائى، وإنى الى لقائهم أشد شوقا . وقال : مكتوب فى جانبها من طلبنى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى . فقال أبو الدرداء : أشهد لسمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كذا فى الاحياء وسكت عنه مخرجه . ومن دعاء نبينا عليه السلام كما اخرجه النسائى والحاكم « اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر الى وجهك ، وشوقا الى لقائك » وكان ابراهيم بن ادهم من المشتاقين ، قال فقلت يوما يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك مايسكن به قلبه قبل لقائك فاعطنى ذلك فقد اضر بى القلق . قال فرأيت فى النوم أنه اوقفنى بين يديه وقال : يا ابراهيم أما استحييت منى أن تسألنى أن اعطيك مايسكن به قلبك قبل لقائى، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ فقلت يارب تهت فى حبك فلم ادر ما اقول فاغفر لى وعلمنى ما اقول ، فقال قل : اللهم رضنى بقضائك ، وصبرنى على بلائك ، واوزعنى شكر نعمائك . وأوحى الله الى داود عليه السلام : ياداود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظارى لهم ورفقى بهم

وَهُوَ غَلَبَةُ التَّطَلُّعِ مِنْ وَرَاءِ حُجُبِ الْغَيْبِ الى الْجَمَالِ وَانْبِعَاثُ الْقَلْبِ الَى الطَّلَبِ وَبِالْمَوْتِ شَوْقُ اللِّقَاءِ لِحُصُولِهِ وَلَا يَرْتَفِعُ شَوْقُ زِيَادَةِ الانْكِشَافِ ، فَلِلرُّؤْيَةِ مَرَاتِبُ لَا تَتَنَاهَى

وشوقى الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الى ، وتقطعت اوصالهم من محبتى . ياداود هذه ارادتى فى المدبرين عنى فكيف ارادتى بالمقبلين على . ياداود احوج مايكون عبدى الى اذا استغنى عنى وارحم ما أكون بعبدى اذا ادبر عنى واجل مايكون عبدى اذا رجع الى ﴿ وهو ﴾ أى الشوق ﴿ غلبة التطلع ﴾ أى الاشراف ﴿ من وراء حجب الغيب الى الجمال ﴾ أى جمال الحق وسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والابصار لشدة ظهوره ولذا قيل :

لقد ظهرت فما تخفى على أحد * الا على اكمه لايبصر القمرا
لكن بطنت بما ظهرت محتجباً * فكيف يعرف من بالعزة استترا

فهو الاول والآخر والظاهر والباطن ﴿ وانبعاث القلب الى الطلب ﴾ أى وقيام قلب العبد الى طلب الرب فلقد كان الخواص يضرب صدره ويقول واشوقاه الى من يرانى ولا أراه ويقال الشوق نار الله الموقدة من نور بلائه لاهل ولائه أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها مافى قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فيكونوا من خلاصة أصفيائه ﴿ و ﴾ يرتفع ﴿ بالموت شوق اللقاء ﴾ أى الملاقاة ﴿ لحصوله ﴾ حال النزع والاشراف ﴿ ولا يرتفع شوق زيادة الانكشاف ﴾ وهى الرؤية المعبر عنها بالزيادة فى قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ﴿ فللرؤية مراتب لا تتناهى ﴾ لعدم تناهى التجليات الالهية الصمدية الازلية الابدية ومن جهة عدم نهاية التجليات الجمالية لاهل الجنة قال تعالى (لهم مايشاؤن فيها ولدينا مزيد) فتتزايد النعم ساعة فساعة كما يشير اليه قوله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) أى صورة (وأتوا به متشابهاً) أى سيرة لان الثانى يزيد على الأول لذة وكذا من جهة عدم نهاية التجليات الجلالية لاهل النار قال عز وعلا (فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا) (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) فلا يدخل تحت الحصر دركات أهل النار كما لايدخل فى حيز الحصر درجات اهل الجنة فكل عارف في جنة عرضها السموات والارض من غير ان تضيق على مثله

اصلا إلا انهم يتفاوتون فی سعة منتزهاتهم بقدر درجاتهم فی اتساع نظرهم وسعة معارفهم فی مقاماتهم فهذا القدر ينبهك علی ان معرفة الله تعالی ألذ الاشياء واذا لايفوز بدرجة النظر والرؤية الا العارفون فی الدنيا فالرؤية بقدر المعرفة لان المعرفة هی البدر الذی ينقلب فی الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة ومن لم يعرف الله فی الدنيا لايراه فی العقبی (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ولما كانت المعرفة علی درجات متفاوتة كان التجلی ايضا علی درجات مختلفة ولذا قال عليه الصلاة والسلام «ان الله يتجلی للناس عامة ولابی بكر خاصة» كما رواه ابن عساكر من حديث جابر وذلك لأنه أفضل الناس بسر وقر فی صدره فضل لا محالة بتجل انفرد به فی سره، وتوضيحه أن طيبة الجنة ان لكل واحد فيها مايشتهيه ، فمن لم يشته الا لقاءالله فلا لذة له فی غيره بل ربما يتأذی به ، فاذاً نعيم الجنة بقدر حب الله وحب الله بقدر معرفته فأصل السعادات هی المعرفة التی عبر عنها الشرع بالايمان والاسلام والاحسان والله المستعان . فللعارفين فی معرفتهم وفكرتهم لمناجات الله لذات لو عرضت عليهم الجنة فی الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة المحبة ثم الواصلون الی رتب المعرفة ينقسمون الی الأقوياء المرادين المجذوبين فيكون أول معرفتهم لله تعالی ، ثم به يعرفون غيره والی الضعفاء المريدين من المجتهدين فيكون أول معرفتهم بالافعال ثم يترقون منها إلی الفاعل والی الاول الاشارة بقوله تعالی (أولم يكف بربك انه علی كل شیء شهيد) وبقوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو) ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك؟ قال عرفت ربی بربی ولو لا ربی لما عرفت ربی والی الثانی الاشارة بقوله (سنريهم آياتنا فی الآفاق وفی أنفسهم) الآية وبقوله (أو لم ينظروا فی ملكوت السموات والارض) وبقوله (قل انظروا ماذا فی السموات والارض) وهذا الطريق هو الأسهل علی الأكثرين والاوسع علی السالكين واليه أكثر دعوة القرآن المبين ، فالعارف لايری غير الله ولا يعرف سواه ويعلم انه ليس فی الوجود إلا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهی تابعة فلا وجود لها بالحقيقة ، وانما الوجود للواحد الحق الذی به وجود الافعال كلها ، ومن هذا حاله فلا ينظر فی شیء من الافعال الا ويری فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث انه أرض وسماء وشجر وماء بل ينظر فيه من حيث أن له صانعا فلا يكون نظره مجاوزا له إلی غيره فكل العالم تصنيف الله فمن نظر اليها من حيث انها فعل الله كان الموحد الحق الذی لايری الا الله بل لاينظر إلی نفسه من حيث نفسه بل من حيث انه عبد الله فهذا الذی يقال انه فنی فی التوحيد وانه فنی عن نفسه

وَالْأُنْسُ وَهُوَ غَلَبَةُ الْفَرَحِ بِالْقُرْبِ إِلَى الرَّبِّ وَقَصْرُ النَّظَرِ عَلَى الْمُطَالَعَةِ

واليه الاشارة بقول من قال: كنا بنا فغيبنا عنا فبقينا نحن بلا نحن . ولذا قال أبو سليمان الدارانى : ان لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ، وفى أخبار عيسى عليه السلام : اذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب فقد ألهاه ذلك عما سواه ، وقال أبو سليمان أيضا : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغولا بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغولا بربه وقال الثورى لرابعة : ماحقيقة إيمانك قالت ماعبدته خوفا من ناره ولا رجاء لجنته فأكون كالاجير السوء بل عبدته حباً له وشوقا اليه . وقالت فى معنى المحبة :

احبك حبين : حب الهوى وحبا لانك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأمـــا الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى اراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولعلها ارادت بحب الهوى حب الله لاحسانه اليها ، وبانعامه عليها بالحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب لجلاله وجماله الذى انكشف لها ، وهو اعلى الحبين واقواها. وقد قيل لرابعة: ماتقولين فى الجنة ؟ قالت : الجار ثم الدار ، فبينت أن ليس فى قلبها التفات الى الجنة بل الى رب الجنة ، وبذلك يشير قول آسية (رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة).

هذا ومن عرف الله عرف أن اللذات المفرقة والشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قال :

كانت بقلبى اهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين اهوائى
فصار يحسدنى من كنت احسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكـــرك يادينى ودنيائى

وقال بعضهم: وهجره اعظم من ناره . ووصله اطيب من جنته

وما ارادوا بهذا الايثار لذة القلب فى معرفة الرب على لذة الاكل والشرب والجماع ونحوها ، فان الجنة معدن تمتع الحواس ، فاما القلب فلذته فى لقاء الله فى مقام الايناس ﴿ والانس ﴾ أيضا من آثار المحبة ﴿ وهو ﴾ أى الانس ﴿ غلبة الفرح بالقرب الى الرب وقصر النظر على المطالعة ﴾ أى مراقبته ومشاهدته ، ومن هنا قيل : الاستيناس

وَيُفَارِقُ الشَّوْقَ بِكَوْنِهِ حَالَةَ الاضَافَةِ إِلَى الحَاضِرِ وَذَلِكَ إِلَى النَّائِي

بالناس علامة الافلاس ، ومن أنس بالله توحش عن خلق الله . وفى اخبار داود عليه السلام : أن الله تعالى قال : ياداود ابلغ أهل ارضى أنى حبيب لمن احبنى وجليس لمن جالسنى ، وانيس لمن انس بذكرى ، وصاحب لمن صاحبنى ، ومختار لمن اختارنى ، ومطيع لمن اطاعنى ، ماأحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه الا قبلته لنفسى واحببته حبا لايتقدم اليه أحد من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا ياأهل الارض ماأنتم عليه من غرورها وهلموا الى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى وسدوها فأنسوا بى اونسكم واسارع الى محبتكم ، فانى خلقت طينة أحبابى من طينة ابراهيم خليلى ، وموسى نجيى ، ومحمد صفيى . وإنى خلقت قلوب المشتاقين من نورى ، ورقتها بجلالى . وفى اخبار داود عليه السلام أيضا : أن الله أوحى اليه قل لعبادى المتوجهين الى محبتى : ماضركم اذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا الى بعيون قلوبكم ؟ وما ضركم مازويت عنكم من الدنيا اذا بسطت لكم كرامتى ؟ وماضركم سخط الخلق اذا التمستم رضائى . وفى اخباره أيضا : ان الله أوحى اليه ان كنت تحبنى فأخرج حب الدنيا من قلبك فان حبى وحبها لايجتمعان فى قلب ياداود خالص أحبتى مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة . ومن هنا قيل : علامة الانس بالحق ضيق صدر صاحبه من معاشرة الخلق واستهتاره بعذوبة الذكر ولذاذة الفكر فان خالط فهو منفرد فى جماعة ومجتمع فى خلوة وغريب فى حضر ، وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة ، وغائب فى شهود ، ومخالط بالقالب ومباين بالقلب ﴿ ويفارق ﴾ الانس ﴿ الشوق بكونه ﴾ أى الانس ﴿ حالة الاضافة الى الحاضر وذلك ﴾ أى الشوق حالة الاضافة ﴿ الى النائى ﴾ أى البعيد الغائب ، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له : انت مشتاق ؟ فقال لا انما الشوق الى الغائب ، فاذا كان الغائب حاضرا قل من اشتاق ، فهذا كلام مستغرق بالفرح لما ناله غير ملتفت الى ما بقى فى الامكان من مزايا الالطاف ومن غلب عليه حال الانس لم تكن شهوته الا فى الانفراد والخلوة كما حكى ان ابراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له : من أين أقبلت ؟ فقال من الانس بالله وذلك لان الانس بالله يقتضى التوحش من غير الله ، بل كل مايعوق عن الخلوة فيكون من اثقل الاشياء على القلب . كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لايسمع كلام أحد من الناس الا اخذه الغشيان ، لان الحب يوجب

وَيُجْدِي الانْبِسَاطَ كَمَا وَرَدَ (رَبِّ أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى - رَبِّ أرِنِي أنْظُرْ إلَيْكَ) أنْجَحَ فِي الْأوَّلِ لِوُجُودِ الشَّرْطِ ، وَاعْتَذَرَ فِي الثَّانِي لِفَقْدِهِ ، وَلَوْلَا الْأُنْسُ لَعُوتِبَ كَمَا احْتَرَقَ قَوْمُ الْكَلِيمِ

غذوبة كلام المحبوب وغذوبة ذكره المطلوب . فتخرج غذوبة ماسواه من القلوب ، وقال بعض الحكماء فى دعائه : يامن آنسنى بذكره واوحشنى من خلقه . قال الله تعالى لداود عليه السلام كن بى مستأنسا ومن سوائى متوحشا ، وقيل لرابعة : بم نلت هذه المنزلة ؟ قالت بترك مالا يعنينى وانسى بمن لم يزل . وقيل من ذوق حلاوة الوحدة استوحش من نفسه الوحدة . وكأنه يشير الى قول من قال : « وجودك ذنب لا يقاس به ذنب »

وعن على كرم الله وجهه فى وصف أهل الانس من خواص الانس : هم قوم هجم بهم الامر على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين واستلانوا مااستوعره المترفهون ، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بابدان ارواحها معلقة بالمحل الاعلى اولئك خلفاء الله فى ارضه والدعاة الى دينه وقد قيل :

الانس بالله لايحويه بطال ... وليس يدركه بالحول محتال

والآنسون رجال كلهم نجب ... وكلهم صفوة لله عمال

﴿ ويجدى ﴾ أى يثمر الانس ﴿ الانبساط ﴾ أى النشاط على حاشية البساط بالأقوال والافعال والمناجاة على سبيل الادلال ﴿ كما ورد ﴾ فى التنزيل : (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى) وقال موسى : ﴿ رب ارنى أنظر اليك انجح فى الاول ﴾ أى اجيب لابراهيم بقوله : خذ أربعة من الطير الآية ﴿ لوجود الشرط ﴾ فيما طلب ﴿ واعتذر فى الثانى ﴾ فيما طلبه أى جواب موسى بقوله : (لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) ﴿ لفقده ﴾ أى لفقد الشرط وعدمه كما بينه قوله (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) ﴿ ولولا الانس ﴾ أى وجوده المقتضى للانبساط لموسى عليه السلام ﴿ لعوتب ﴾ على ماصدر منه من السؤال والكلام ﴿ كما احترق قوم الكليم ﴾ عليه التسليم حيث قالوا (أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) فالانبساط قد يكون منكر الصورة لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة ، ولكنه محتمل ممن أقيم مقام الانس كموسى عليه السلام ومن لم يقم فى ذلك المقام وتشبه بهم فى الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر بسببه كما فى قوم موسى .

ومثاله مناجات برخ الاسود الذى امر الله تعالى موسى كليمه عليه السلام أن يسأله ان يستسقى لبنى اسرائيل بعد ان قحطوا سبع سنين . وخرج موسى عليه السلام يستسقى بهم فى سبعين الفا ، فاوحى الله اليه كيف استجيب لهم وقد اظلمت عليهم ذنوبهم ، وسرائرهم خبيثة ، يدعونى على غير يقين ، ويأمنون مكرى ، ارجع الى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتى استجيب له ، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرفه ، فبينما موسى يمشى ذات يوم في طريق اذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من اثر السجود فى شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله فسلم عليه ، وقال مااسمك ؟ قال اسمى برخ ، فقال أنت طلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا ، فقال فى كلامه : ماهذا من فعالك ، ولا هذا من حلمك ، وما الذى بدالك ؟ انقصت عليك غيومك ؟ ام عاندت الرياح عن طاعتك ؟ ام نفد ماعندك ؟ ام اشتد غضبك على المذنبين ؟ ألست كنت غفارا قبل خلق الخاطئين ؟ خلقت بالرحمة وامرت بالعطف ، ام ترينا انك ممتنع ، ام تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ؟ قال فما برح برخ حتى اخضلت بنو اسرائيل بالقطر ، وانبت الله العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب ، قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام ، فقال كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف انصفنى ؟ فهم موسى عليه السلام به ، فاوحى الله اليه ان برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات ، وعن الحسن قال : احترقت اخصاص البصرة فبقى فى وسطها خص لم يحترق . وابو موسى امير يومئذ بالبصرة فاخبر بذلك ، فبعث الى صاحب الخص ، فاتى بشيخ فقال له ياشيخ مابال خصك لم يحترق ؟ قال اقسمت على ربى عز وجل لايحرقه ، فقال أبو موسى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكون فى امتى قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لو اقسموا على الله لابرهم » رواه ابن ابى الدنيا فى كتاب الاولياء . قال الحسن ايضا : ووقع حريق بالبصرة فجاء ابو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار ، فقال له امير البصرة : انظر لاتحترق بالنار ، فقال انى اقسمت على ربى عز وجل لايحرقنى بالنار ، قال فاعزم عليها أن تطفأ فعزم عليها فطفئت . وكان ابو حفص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاقى مدهوش ، فقال له ابو حفص : مااصابك ؟ قال ضل حمارى ولا املك غيره ، فوقف ابو حفص فقال : وعزتك لااخطو خطوة حتى ترد عليه حماره ، قال فظهر الحمار فى الوقت ، ومر أبو حفص رحمه الله . فهذا وامثاله يجرى لذوى الانس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد : اهل الانس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم اشياء هى كفر عند العامة لو سمعها العوام لكفروهم

وَالْأَعْلَى التَّرْكُ اسْتِغْنَاءً كَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ وَالْقُرْبُ وَهُوَ زَوَالُ كُلِّ مُعْتَرِضٍ وَهُوَ النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ وَالْخَلْقُ

وهم يجدون المزيد فى احوالهم وذلك يحتمل منهم ويليق بهم، واليه اشار القائل بقوله

قوم يخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له ياحسن رؤيتهم فى عزماتاهوا

ومن الانبساط قول موسى عليه السلام (أن هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) وقوله فى الاعتذار لما قيل له اذهب الى فرعون وقومه فقال (ولهم على ذنب فاخاف أن يقتلون) ﴿ والاعلى الترك ﴾ أى الاولى من المراتب فى مقام الانس هو ترك الانبساط فى حضرة المولى ﴿ استغناء ﴾ عن السؤال فى مراتب انتقال الاحوال ﴿ كما كان له عليه السلام فى تحويل القبلة ﴾ حيث كان متأدبا فى مقام الانس والدلال فاكتفى بالحال عن السؤال تبعا للخليل حيث قال: حسبى من سؤالى علمه بحالى، كما يشير اليه قوله سبحانه وتعالى: (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضيها) أى تحبها وتهواها ﴿ والقرب ﴾ ايضا من آثار المحبة كما يشير اليه حديث «لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى احبه» ﴿ وهو ﴾ أى القرب ﴿ زوال كل معترض ﴾ أى شاغل ومانع عن ذكره تعالى وفكره ﴿ وهو ﴾ أى المعترض انما هو ﴿ النفس ﴾ أى المتابعة هواها ومطاوعة مشتهاها قال تعالى (افرأيت من اتخذ إلهه هواه) وورد «ابغض اله عبد فى الأرض الهوى» وقيل وجودك ذنب لايقاس به ذنب ﴿ والشيطان ﴾ لانه يدعو حزبه الى الطغيان فى الدنيا والى النيران فى العقبى، ولان نسبة الاضلال اليه أيضا قد تبعد عن حقيقة صفة الجلال فانه من أسباب الضلالة، كما أن النبى سبب الهداية فاضافة الهداية إلى النبى فى قوله (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) مجاز و (إنك لاتهدى من أحببت) حقيقة ومن المجاز فى جانب الاضلال قول الخليل (رب انهن أضللن كثيرا من الناس) فالله سبحانه هو الهادى والمضل من يهد الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له، وهو يضل من يشاء وهو يهدى من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين كما هو أعلم بالضالين ﴿ والخلق ﴾ لان مخالطتهم غالبا يدعو الى الغيبة والبعد عن قرب الرب لاسيما حب الاهل والولد والاصحاب والاحباب والعقار من البساتين والمنتزهات من الدار فى الديار حتى النوح بطيب أصوات الاطيار وروح

وَالدُّنيَا ، وَكَمَالُه الغَيبَةُ فِى رُؤْيَة فِعْلِه حَتَّى لَا يَرَى نَفْسَــهُ فَاعِلَةً كَمَا وَرَدَ (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيتَ) وَالاتِّصَالُ

نسيم الاشجار فبقدر أنسه وقربه الى غير الله يبعد عن أنسه وقربه الى مولاه كما أنه لايتقرب الانسان من المشرق الا ويبعد من المغرب بالضرورة بقدره الا ان وصل إلى مقام جمع الجمع بحيث لاتحجبه الوحدة عن الكثرة ولا الكثرة عن الوحدة ﴿ والدنيا ﴾ فان قطع علائقها ودفع عوائقها وإخراج حب غير الله من القلب هو الموجب لقرب الرب فان القلب مثل الاناء الذى لايتسع للخل أو الهواء مالم يخل منه الماء (وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) وكمال الحب المورث للقرب ان يحب الله بكل قلبه ومادام يلتفت الى غيره فزاوية فى القلب مشغولة بغيره ؛ فبقدر ما يشتغل بغير الله وحبه وقربه ينقص منه حب الله ويبعد عن قرب ربه، وبقدر ما يبقى فى الاناء من الماء ينقص من الخل أو الهواء ويشير الى هذا التفريد والتجريد قوله سبحانه (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) وقوله (ان الذين قالوا ربنا الله) أى فى مقام التوحيد (ثم استقاموا) على مقام التجريد وقدم التفريد بل هو معنى قولك لا اله الا الله أى لا معبود ولا موجود ولا مشهود سواه ﴿ وكماله ﴾ أى القرب ﴿ الغيبة فى رؤية فعله ﴾ أى غيبة العبد فى رؤية أفعال ربه ﴿ حتى لايرى نفسه ﴾ أيضا ﴿ فاعلة ﴾ فى الحقيقة ﴿ كما ورد ﴾ فى التنزيل ﴿ وما رميت ﴾ خلقا أو حقيقة ﴿ اذ رميت ﴾ كسبا أو مجازا وقد سبق تحقيقه وتدقيقه *

وحاصل المرام فى هذا المقام ان الحبيب هو القريب من الله ، والقريب من الله هو البعيد من صفات البهائم ونعوت الشيطان والتخلق بمكارم الاخلاق التى هى أخلاق الرحمن فهو قريب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا وصار قريبا فقد تغير فربما يتوهم بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا اذ صار قريبا بعد ان لم يكن وهو محال فى حق الله تعالى اذ التغير عليه من المحال بل لا يزال فى نعوت الكمال وصفات الجمال والجلال على ما كان عليه فى أزل الآزل فكلما كان العبد أكمل صفة واتم معرفة واثبت قوة فى قهر النفس والشيطان صار أقرب الى الرحمن فمنتهى الكمال لله وقرب كل واحد منه بقدر كماله فى التخلق باخلاق الله وافعاله ﴿ والاتصال ﴾ أيضا من آثار المحبة وليس المراد بالاتصال هنا ضد الانفصال ولذا

وَهُوَ الْمُكَاشَفَةُ وَالْمُشَاهَدَةُ كَمَا فِى قَوْلِ ابْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُمَا كُنَّا نَتَرَاءَى اللّٰهَ تَعَالَى فِى ذَلِكَ الْمَكَانِ مُعْتَذِرًا عَنْ تَرْكِ رَدِّ السَّلَامِ فِى الطَّوَافِ ، وَحَارِثَةَ كَمَا سَبَقَ ،وَمَا وَرَدَ «اعْبُدِ اللّٰهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» وَمَحَبَّةُ اللّٰهِ تَعَالَى الْعَبْدَ

قال ﴿ وهو ﴾ أى الاتصال يراد به ﴿ المكاشفة والمشاهدة ﴾ فى مقام المراقبة والمشاهدة أقوى من المكاشفة إذ يتصور وهم الخلاف فى المكاشفة بخلاف المشاهدة ٭

والحاصل أن المكاشفة أول نتائج المجاهدة ، والمشاهدة نهاية المساعدة ويشير اليه قوله عليه السلام بعد ذكر الايمان والاسلام « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » وقبل المحاضرة ابتداء ، والمكاشفة بعده والمشاهدة انتهاء فالمحاضرة حضور القلب ، وقد يكون بتواتر البرهان وهو بعدوراء الستر وان كان حاضرا باستيلاء الذكر . والمكاشفة حضوره بنعت البيان غير مفتقر الى تأمل دليل وتطلب سبيل . والمشاهدة هى وجود الحق من غير بقاء تهمة وبلا ريبة فاذا صحا سماء الاسرار عن غيوم الاستار فشمس الشهود مشرقة من برج شوق الانوار ، كذا فى ارشاد المريدين ، وهو تفسير علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ٭

عباراتنا شتى وحسنك واحد فكل إلى ذاك الجمال يشير

﴿ كما فى قول ابن عمر رضى الله عنهما كنا نتراءى الله تعالى فى ذلك المكان ﴾ أى نتكلف فى مشاهدته أو نجتهد حتى نصل إلى مرتبة رؤيته ومنزلة حضرته فى ذلك الحال الذى هو على الشان جلى البرهان ، وإنما قال هذا الكلام حال كونه ﴿ معتذرا عن ترك رد السلام ﴾ لبعض الصحابة الكرام ﴿ فى الطواف ﴾ أى فى حال طواف بيت الله الحرام ﴿ وحارثة ﴾ أى وكما فى قول حارثة للنبى عليه السلام ﴿ كما سبق ﴾ فى تحقيق المقام ﴿ وما ورد ﴾ أى وكما ثبت ﴿ اعبد الله ﴾ وهذا نقل بالمعنى، والصواب أن ينقل بالمبنى وهو أن تعبد الله ﴿ كأنك تراه ﴾ وهذا أعلى مقام للعبد وأقصاه وأما أدناه فكما يشير اليه آخر الحديث ﴿ فان لم تكن تراه فانه يراك ﴾ وقد بسطنا القول فيه فى شرح الاربعين وهو خير معين ﴿ ومحبة الله تعالى العبد ﴾ أى للعبد أيضا من آثار محبة

وورد (يحبهم ويحبونه) «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان أحبه الحب البالغ اقتناه فان صبر على بلائه اجتباه وإن رضى اصطفاه » وورد « إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه

العبد لله سبحانه ﴿ وورد ﴾ فى التنزيل مايدل على ثبوت المحبة من الجانبين حيث قال ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وفى تقديم يحبهم إيماء إلى أن الاصل هو المحبة الازلية الصمدية الموجبة لمحبة العبد المحبة الابدية وورد فى الحديث ﴿ إذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه ﴾ بالمصائب على قدر ماله من المراتب فان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الامثل فالامثل ﴿ فان أحبه الحب البالغ اقتناه ﴾ واقتناء المال وغيره اتخاذه قنية ، فالمعنى اختاره من بين خلقه وجعله من خواص ملكه ، وفى رواية « فقيل وما اقتناه؟ قال لم يترك له أهلا ولا ولدا » أى فى قلبه فعلامة محبة الله أن يوحشه من غيره ويحول بينه و بين غيره كما يشير اليه قوله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) رواه الطبرانى وفى رواية « اذا أحب الله عبدا ابتلاه » ﴿ فان صبر على بلائه اجتباه ﴾ فى مقام ولائه ﴿ وان رضى ﴾ باعطائه ﴿ اصطفاه ﴾ لمقام لقائه ، وعن بعض العلماء اذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد ان يصافيك ، والحديث الثانى ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرجه ولده فى مسنده وقد يتوهم من المتن أنهما حديث واحد وليس كذلك كما بيناه ﴿ وورد ﴾ ايضا ﴿ اذا احب الله عبدا ﴾ من عبيده ﴿ جعل له واعظا من نفسه ﴾ اى يبصره بعيوب نفسه ويعرفه طريق انسه ﴿ وزاجرا من قلبه ﴾ بامر ربه ﴿ يامره ﴾ بالخير ﴿ وينهاه ﴾ عن الشر ، والحديث رواه ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ام سلمة باسناد حسن لكن بلفظ « اذا اراد الله بعبد خيرا » الحديث وله من حديث انس « اذا اراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه » وورد من حديث انس كما رواه الديلمى « اذا احب الله عبدا لم يضره ذنب » ، والتائب من الذنب كمن لاذنب له ثم تلا : ان الله يحب التوابين » ومعناه انه اذا احبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وان كثرت كما لايضره الكفر الماضى قبل الاسلام وإن كبر . وقال عليه السلام « ان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطى الايمان إلا من يحب » رواه احمد والحاكم وصححه من حديث ابن مسعود . ولاحمد وابى يعلى من حديث أبى سعيد « من اكثر ذكر الله احبه الله » وعن رابعة : من احب شيئا اكثر

وَمَعْنَاهَا أَنْ يَبْلِيَهُ بِهِ فَلَا يَصْلُحَ لِغَيْرِهِ كَمَا وَرَدَ (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) وَعَلَامَاتُهَا كِتْمَانُهَا ، وَحُبُّ الْمَوْتِ

ذكره ، فذكر الله علامة لمحبة الله ولمحبة العبد اياه . وفى الصحيحين « من احب لقاء الله احب الله لقاءه » وقال زيد بن اسلم : ان الله تعالى ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له ان يقول اعمل ماشئت فقد غفرت لك ، ويؤيده انه ورد مثل هذا لاهل بدر ﴿ ومعناها ﴾ أى معنى محبة الله للعبد ﴿ ان يبليه به ﴾ أى من علامة حب العبد للمولى ان يبليه بالبلاء المورث لزيادة الولاء . واما علامة كونه محبوبا له سبحانه ان يتولى الله شأنه ظاهره وباطنه سره وجهره ، فيكون هو الميسر عليه والمدبر لامره ، والمزين لاخلاقه والمستعمل لجوارحه ، والمسدد لظاهره وباطنه ، والجاعل همومه هما واحدا من ذكر ربه ، والمبغض للدنيا فى قلبه ، والموحش له من غيره ، والمونس له بلذة المناجاة فى خلوته ، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته. فانظر فى تحقيق هذا المبنى فماايسر الدعوى وماعسر المعنى . وقد قال بعض العلماء ليس فى الجنة نعيم اعلى من نعيم اهل المحبة والمعرفة ، ولا فى جهنم عذاب اشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك . وقد جاء من بعض المتبحرين من المفسرين فى قوله سبحانه (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) انهم هم الذين ادعوا المعرفة والمحبة من غير تحقق تلك الحالة ﴿ فلا يصلح ﴾ العبد ﴿ لغيره ﴾ أى لغير مولاه فيما قدره وقضاه ﴿ كما ورد ﴾ فى التنزيل ﴿ واصطنعتك ﴾ أى اخترتك بالرسالة ﴿ لنفسى ﴾ أى لمعرفة ذاتى وصفاتى .

﴿ وعلاماتها ﴾ أى امارات محبة العبد لله ثمانية ﴿ كتمانها ﴾ لانه قد يدخل فى الدعوى مايجاوز حد المعنى ويزيد عليه فى المبنى ، وتنتظم عليه العقوبة فى العقبى وتتعجل عليه البلوى فى الدنيا ، ويكون ذلك من الافتراء على الله من غير الامتراء (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا) نعم قد تكون للمحب سكرة فى حبه حتى تدهش عقله ولبه فيضطر الى اظهار حبه لربه ، والا فصدور الاحرار قبور الاسرار . ولقد قال بعض الابرار :

من اطلعوه على سر فنم به   لم يامنوه على الاسرار ماعاشا

﴿ وحب الموت ﴾ فانه سبب اللقاء ، ولذا قال عليه السلام « لن تروا ربكم حتى

وَالاطَاعَةُ وَالتَّلَذُّذُ فى العِبَادَةِ

تموتوا » وقال حذيفة : حبيب جاء على فاقة لاافلح اليوم من يندم . وفى وصية ابى بكر لعمر رضى الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء، والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء فان حفظت وصيتى لم يكن غائب احب اليك من الموت وهو مدركك، وان ضيعت وصيتى لم يكن غائب ابغض اليك من الموت ولن تعجزه . وكان الثورى وبشر الحافى يقولان : لا يكره الموت الا المريب لان الحبيب على كل حال لا يكره لقاء الحبيب. نعم من يكون فى ابتداء مقام المحبة ليس يكره الموت بل يكره عجلته قبل ان يستعد للقاء ربه ، وعلامته المداومة على الطاعة واستغراق الهم فى استعداد زاد المعاد ، وان يكون مؤثرا ما احبه الله على ما يحب نفس العبد بهواه ، فان من بقى مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه مايهواه ، بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل

اريد وصاله ويريد هجرى فاترك ما اريد لما يريد

﴿ والاطاعة ﴾ أى بمداومة الطاعة قدر الاستطاعة ، فمن احب الله لا يتبع هواه كما قال ابن المبارك :

تعصى الاله وانت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته ان المحب لمن يحب مطيع

وفى هذا المعنى من بديع المبنى *

واترك ما اهوى لما قد هويته وارضى بما يرضى وان هلكت نفسى

﴿ والتلذذ فى العبادة ﴾ بالمواظبة على الذكر والمداومة على الفكر وكثرة التلاوة ، فقد حكى عن بعض المريدين قال: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى شدة الارادة ، فادمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ، ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة . قال فسمعت قائلا يقول فى منامى : ان كنت تزعم انك تحبنى فلم جفوت كلامى؟ اما ترى ما فيه من لطيف عتابى وشريف خطابى، فانتبهت وقد اشرب قلبى تلاوة القرآن، فعاودت الى حالى، وقال ابن مسعود : لا ينبغى أن يسأل أحدكم عن نفسه الا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل ، وإن لم يكن يحب القرآن فلم يحب الله ، وقال سهل علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبى عليه السلام وعلامة حب النبى حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها الا زادا يبلغه إلى العقبى. وعن مطرف ان المحب

لا يسأم من حديث حبيبه وأوحى الله الى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبتى فاذا جنه الليل نام عنى ، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه ، فها أنا ذا موجود لمن طلبنى ، وقال يحيى بن معاذ : من أحب الله أبغض نفسه ، أى لأنها مما سواه ، وقال أيضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب يؤثر كلام الله على كلام الخلق ، ولقاء الله على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق . ثم اعلم أنه ليس فى الوجود غيره سبحانه فى عين أهل الشهود من ذاته وصفاته ومصنوعاته ، ولذا ذكر عن الشيخ أبى سعيد الميهنى لما قرىء عليه قوله (يحبهم ويحبونه) قال بحق يحبهم فليس يحب الا نفسه ، على معنى انه الكل وان ليس فى الوجود غيره ، فمن لا يحب الا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث انها متعلقة بذاته فهو اذاً لا يحب الا نفسه ، كما أن العارف لا يحب جميع مصنوعات الله ومكنوناته الا من حيث آثار قدرته وانوار ذاته واسرار صفاته . وما ورد من الالفاظ فى حبه عبارة يؤول مبناه ويرجع معناه الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ويشاهده بلبه ، والى تمكنه اياه من قربه ، والى ارادته ذلك به فى ازله ، محبة لمن حبه ازلى مهما اضيف الى الارادة الالهية الازلية التى اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طريق القرب الى الرب ، واذا اضيف الى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث سببه الذى يقتضيه كما قال « لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى احبه » فيكون قربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجب عن قلبه وحصوله فى درجة القرب من ربه ، وكل ذلك فعل الله ولطفه به فهو معنى حبه . وجملة الكلام فى هذا المقام ان حب العبد لله ثمرة حب ربه الازلى ، ونتيجة حب ربه الابدى . فحب العبد مكتنف بين حب الرب كما يشير اليه قوله سبحانه (يحبهم ويحبونه) مع قوله (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ثم لا يخفى ان مراتب الحب ومافيه من الدرجات انما تكون على قدر الطاعة والعبادات . ويدل على تفاوت المقامات ماروى ان اباحذيفة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج اخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وقالوا : انكحت عقيلة من عقائل قريش مولى ، فقال والله لقد انكحته اياها وانى لاعلم انه خير منها ، فكان قوله اشد عليهم من فعله ، قالوا فكيف وهى اختك وهو مولاك ؟ فقال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من اراد ان ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم ، كذا فى الاحياء . وقال مخرجه لم اره من حديث حذيفة . وروى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه من حديث عمر « ان سالما يحب الله حقا من قلبه » وفى رواية « ان سالما شديد الحب لله عزوجل لو لم

وَالْمُصِيبَةِ ، وَالْحِرْصُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالْمُنَاجَاةُ ، وَبُغْضُ الدُّنْيَا

يخف الله عز وجل ماعصاه» فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب غيره أيضا فلا جرم ان يكون تنعمه بلقاء الله عند قدومه عليه على قدر حبه له وعناه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها وتعلقه بها، وقد قال بعض العارفين : اذا كان الايمان فى ظاهر القلب أحب الله حبا متوسطا واذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصى، وقال الجنيد: الناس فى محبة الله عام وخاص، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام احسانه اليهم وكثرة نعمه عليهم فلم يتمالكوا ان أحبوه ، الا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر نعمتهم ، قلت ويشير إلى ذلك قوله تعالى: (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) بل إيماء إلى رجائهم الجنة وخوفهم النار فى دار القرار ومن هنا قال الشبلى لما سمع قوله تعالى: (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) ألخ ، أين من يريد الله؟ وقد أجبت عن هذا فى بعض مؤلفاتى ﴿ والمصيبة ﴾ أى والتلذذ فى البلية لما يرى فيها من فعل المبتلى سواء يكون فى مقام الصبر أو الرضاء أو الشكر ﴿ والحرص فى الخلوة ﴾ عن الخلق دون الجلوة لأنها غالبا تمنع عن مشاهدة الحق وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة والتنعم بمناجاته من دون الرياء والسمعة فمن كان المنام والاشتغال بكلام الدنيا ألذ عنده من العبادة وأطيب من مناجاة الله فكيف تصح محبته ؟ فعلامة الحب كمال الانس بمناجات المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوقه عن لذة المناجاة وعلامة الانس أن يصير العقل والفهم كله مشغوفا بلذة المناجاة كالذى يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة إلى بعضهم حتى كان فى صلاته فوقع الحريق فى داره ولم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة اصابته وهو فى الصلاة ولم يشعر بها ، وعن الصديق من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه من جميع البشر ﴿ والمناجاة ﴾ أى والحرص فى الدعاء والنداء والثناء فى جميع الحالات والمقامات فيواظب على التهجد ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت عن الخلائق بانقطاع العلائق وانفصال العوائق ﴿ وبغض الدنيا ﴾ بان لا يأخذ منها الا الزاد العقبى من سلوك طريق المولى، وفى اخبار داود عليه السلام: لا تستأنس الى أحد من خلقى فانى إنما اقطع عنى رجلين رجل استبطأ ثوابى فانقطع ورجل نسينى فرضى بحاله وعلامة ذلك ان أكله الى نفسه وأن ادعه فى الدنيا حيران ثم مهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا

وَالوَحشَةُ مِنَ الخَلْقِ وَاتِّحَادُ الهَمِّ وَطَرِيقُهَا السُّلُوكُ فَورَدَ «لَا يَزَالُ العَبدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحبَبتُهُ كُنتُ لَهُ سَمعاً وَبَصَراً وَقَلباً وَيَداً وَرِجلاً»

من الله ساخطا عن درجة محبته، وفى قصة برخ وهو العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام إن الله تعالى قال لموسى: إن برخا نعم العبد هو إلا أن فيه عيبا قال يارب وما عيبه؟ قال يعجبه نسيم الأسحار فيسكن اليه ومن أحبنى لم يسكن إلى غيرى ﴿ والوحشة من الخلق ﴾ لأن محبة الله ومحبة غيره لا يجتمعان ﴿ واتحاد الهم ﴾ هم الدين لما ورد من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله هم الدنيا والآخرة» وقال بعض العارفين: ان لله تعالى عباداً أحبوه فاطمأنوا اليه فذهب عنهم التأسف على كل ما فات فلم يشتغلوا بحظ أنفسهم اذ كان ملك مليكهم تاما وماشاء كان فما كان لهم فهو واصل اليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم ثم حق المحب إذا رجع من غفلته فى لحظة أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب لنفسه ويسأله و يقول: يارب باى ذنب قطعت برك عنى وأبعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى وبمتابعة الشيطان؟ ﴿ وطريقها ﴾ أى طريق تحصيل المحبة ﴿ السلوك ﴾ أى سير مسالك أهل الشريعة والطريقة والحقيقة من منازل السائرين ومراحل الطائرين وقد قيل: ان الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق وفيه تنبيه نبيه على أن كل مخلوق له سر مع خالقه لا يطلع عليه إلا من هو أقرب منه اليه، وعن هذا قال تعالى: (وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ثم أقرب الطرق الى الله تعالى هو المحبة وهى حاصلة بمتابعة الكتاب والسنة ومخالفة الهوى والبدعة، وتمامه باجتناب السيئات من المحرمات والمكروهات، واكتساب الطاعات من الفرائض والنوافل من السنن المؤكدات والمستحبات ﴿ فورد لا يزال العبد يتقرب الى ﴾ أى بعد أداء الفرائض والواجبات والسنن الرواتب ﴿ بالنوافل ﴾ من الصلاة والطواف والذكر والفكر والثناء والدعاء وما استحسنه العلماء ﴿ حتى أحبه ﴾ حبا يليق بأرباب المناقب ﴿ فاذا أحببته ﴾ حبا بليغا ﴿ كنت له سمعا ﴾ يسمع بى ﴿ وبصرا ﴾ يبصر بى ﴿ وقلبا ﴾ يعقل بى ﴿ ويداً ﴾ يبطش بى ﴿ ورجلا ﴾ يتقوى بى رواه البخارى وغيره بالفاظ مختلفة، فيستخرج ذلك من السالك صفاء ذكر ورقة قلب ودقة فكر يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكر ربه وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب الا المحبوب ولم ير شيئا الا منه لم

يأسف على فقد المطلوب واستقبل الكل بالرضاء بما وقع من القضاء ، وعلم أن المحبوب لم يقدر له الا ما فى خيرته ويتذكر قوله تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) ولعله عليه السلام قال فى هذا المقام: «انه ليغان على قلبى فى اليوم والليلة فاستغفر الله سبعين مرة» كما فى الصحيحين وإنما كان استغفاره من القدم الاول فانه كان بعدا بالاضافة الى القدم الثانى كما قيل: حسنات الابرار سيئات المقربين الاحرار ويكون ذلك عقوبة لأهل التوفيق على الفتور فى الطريق والالتفات الى غير الحبيب والرفيق ، كما يروى عنه عليه السلام مما يروى عن ربه تبارك وتعالى انه قال: «فى بعض الكتب المنزلة ان أدنى ما أصنع بالعالم اذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى أن اسلبه لذة مناجاتى» فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة العموم وأما الخصوص فيحجبون عن المزيد بمجرد الدعوى والعجب والركون الى ما ظهر من مبادىء اللطف وذلك هو المكر الخفى الذى لا يقدر على الاحتراز منه الا القوى من ذوى الاقدام الراسخة ، وقد سمع ابراهيم بن أدهم قائلا يقول وهو فى سياحته وكان على جبل لبنان ٭

كل شىء لك مغفو ٭ رسوى الاعراض عنا ٭ قد وهبنا لك ما فا ٭ ت بقى ما فات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال وغلبة ثم قال سمعت النداء من الجبل يا ابراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت وقد قدمنا ان درجات الحب لا نهاية لها فى مقام القرب ، فحق العبد أن يجتهد فى كل نفس ما يفيد حبا حتى يزداد فيه قربا، ولذا قال عليه السلام: «من استوى يوما فهو مغبون، ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون كذا فى الاحياء وقال مخرجه: لا أعلم هذا الا فى مقام لعبد العزيز بن أبى رداد قال: رأيت النبى عليه السلام فى المنام فقلت: يارسول الله أوصنى فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى ولعل تلك الزيادة ما فى بعض الروايات ومن لم يكن فى زيادة فهو فى نقصان وقد قال الشيخ البستى :

زيادة المرء فى دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران

وقال بعض العارفين: من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ومن عبده بالخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى وقربه ومكنه وعلمه فالمحب لا يخلو عن خوف، والخائف لا يخلو عن محبة ، ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو فى مقام المحبة ويعد من المحبين ويجعل فى طريق السير من الطائرين المجذوبين المحبوبين وقد قيل فى وصف حال العارفين :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد على الأحرار منهم والعبيد
لقد عزت معانيه فغابت عن الابصار الا للشهيد
غريب الوصف ذو علم غريب كأن فؤاده زبر الحديد
ترى الاعياد فى الأوقات تجرى له فى كل يوم ألف عيد
وللاحباب افراح بعيد ولا تجد السرور له بعيد

وكان الجنيد ينشد أبياتا يشير بها الى أسرار العارفين وان ذلك لايجوز اظهاره للغافلين وهى هذه :

سرت بناس فى الغيوب قلوبهم بما قد حباها الماجد المتفضل
عراضا بقرب الله فى ظل عرشه تجول بها أرواحهم وتنقل
موارد هم فيها على العز والبها ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته وما كتمه اولى لديه وأعدل
سأكتم من علمى به مايصونه وابذل منه ماأرى الحق يبذل
فأعطى عباد الله منه حقوقهم وامنع منه ماأرى المنع أعدل
على أن للرحمن سرا يصونه إلى أهله فى السر والصون أجمل

فأمثال هذه المعارف التى أشير اليها لايجوز أن يشترك الناس فيها ولا ينبغى أن يظهرها من أنكشف له شىء منها لمن لم ينكشف له عنها ، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا ولم تبق على نظامها ، فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لعمارة الدنيا وتمامها ولذا قيل: الغفلة عن الله رحمة ولولا الحمقى لخربت الدنيا بل لو أكل الناس الحلال أربعين يوما لتعطلت الدنيا لزهدهم فيها وذهولهم عنها ، وبطلت الأسواق والمعايش منها . ولو أكل العلماء من مال الحلال لاشتغلوا بأنفسهم لتحصيل الكمال ولوقفت الألسنة والاقلام عن كثير مما انتشر من العلوم بين الأنام ، ولكن لله فيما هو شر ظاهر حكم وأسرار على مالا يخفى كما أن له فى الخير أسرارا وحكما لاتحصى لانهاية لحكمته ولا غاية لقدرته هذا ، وقد يظهر مقال السر على لسان العارف حال السكر فهو معذور لأنه مقهور إذ ربما يشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه ، وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه ولا ينطفى لمعانه ، فيقول القادر على كتمانه :

فقالوا قريب قلت ماأنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان فى حجرى
فمالى منه غير ذكر بخاطر يهيج نار الحب والشوق فى صدرى

والعاجز عنه يقول :

تخفى فيبدى الدمع أسراره ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره فى جفنه كيف يكتم

وكأن صاحب البردة أخذ من هذه الزبدة فى قوله :

أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم

وقال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم اشارة به أى الى مقام قربه وقد دخل ذو النون المصرى على بعض اخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاء فقال : لايحبه من وجد ألم ضر به ، فقال الرجل: لكنى اقول لايحبه من لم يتنعم بضر به ، فقال ذو النون : ولكنى اقول لايحبه من شهر نفسه بحبه ؛ فقال الرجل : استغفر الله واتوب اليه أى من دعوى حبه . وقد قال ابو تراب النخشبى فى علامة الحب ابياتا هى

لاتخدعن فللمحب دلائل ولديه من تحف الحبيب وسائل

منها تنعمه بمر بلائه وسروره فى كل ماهو فاعل

فالمنع منه عطية مقبولة والفقر اكرام وبر عاجل

ومن الدلائل ان يرى من عزمه طوع الحبيب وان ألح العاذل

ومن الدلائل ان يرى متبسما والقلب فيه من الحبيب بلابل

ومن الدلائل أن يرى متفهما لكلام من يحظى لديه السائل

ومن الدلائل أن يرى متقشفا متحفظا من كل ماهو قائل

وقال يحيى بن معاذ الرازى فى هذا المعنى من المبنى :

ومن الدلائل ان تراه مشمرا فى خرقتين على شطوط الساحل

ومن الدلائل حزنه ونحيبه خوف الظلام فماله من عاذل

ومن الدلائل أن تراه مسافرا نحو الجهاد وكل فعل فاضل

ومن الدلائل زهده فيما ترى من دار ذل والنعيم الزائل

ومن الدلائل ان تراه باكيا ان قد رآه على قبيح فعائل

ومن الدلائل ان تراه مسلما كل الامور الى المليك العادل

ومن الدلائل ان تراه راضيا بمليكه فى كل حكم نازل

ومن الدلائل ضحكه بين الورى والقلب محزون كقلب الثاكل

وَهُوَ بِلُزُومِ الْوُضُوءِ فَهُوَ يُنَوِّرُ الْقَلْبَ ، وَالْخَلْوَةِ فَهِيَ تَفَرُّغٌ عَنِ الشَّوَاغِلِ ، وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ ، أَوْ يَلُفَّ رَأْسَهُ وَيُغَمِّضَ عَيْنَيْهِ لِتَرْكُدَ الْحَوَاسُّ ، وَالسُّكُوتِ فَهُوَ يُلَقِّحُ الْعَقْلَ وَيُقَوِّي الْقُوَى ، وَالْجُوعِ وَالسَّهَرِ فَهُمَا يُنَوِّرَانِ الْقَلْبَ

﴿ وهو ﴾ أى السلوك او طريقه بلزوم عشرة اسباب تكون رفيقه ﴿ بلزوم الوضوء ﴾ أى الطهارة الظاهرة ﴿ فهو ﴾ أى الوضوء و ما فى معناه ﴿ ينور القلب ﴾ بسبب تأثير صفاء الظاهر لصفاء الباطن ﴿ والخلوة ﴾ أى و بلزومها عن الجلوة ﴿ فهى ﴾ أى الخلوة ﴿ تفرغ عن الشواغل ﴾ المانعة من تحصيل الفضائل وقد تقدم تحقيق بحث الخلطة والعزلة . ثم القوم مختلفون فى طرق سلوكهم فنهم من جعل مدار الخلوة على خلو القلب من غير ذكر الرب ومشاهدة الحق ولو كان فى مجمع الخلق كما يشير اليه قوله تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) وهو طريق السادة النقشبندية و القادة الشاذلية ويقال فى حقهم انهم غريبون قريبون ، وكائنون بائنون، وعرشيون فرشيون ومنهم من اختار الخلوة المتعارفة بينهم تهوينا للمبتدى و تسهيلا للمنتهى و كان المصنف منهم ولذا قال ﴿ والاولى أن يكون ﴾ السالك الذاكر ﴿ فى بيت مظلم ﴾ ضيق ليس فيه متاع إلا ما لا بد منه ﴿ أو يلف رأسه ﴾ اذا كان فى مسجد و نحوه ﴿ ويغمض عينيه ﴾ حال ذكره وفكره لا حين صلاته فانه مكروه على خلاف دأبه عليه السلام وسنته ، وانما يختار البيت المظلم ولف الرأس و تغميض العين ﴿ لتركد الحواس ﴾ أى لتسكن و تستقر ، وفيه ان ما ذكر انما هو يسكن حاسة البصر ولعل إيراده بصيغة الجمع لتوارد النظر ﴿ والسكوت ﴾ أى و بلزومه من غير ذكر ربه فقد ورد «من صمت نجا» «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا او ليصمت» «ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ﴿ فهو ﴾ أى السكوت المشتمل على الفكر ﴿ يلقح العقل ﴾ أى ينتج ثماره ﴿ و يقوى القوى ﴾ من اللسان وما يتبعه من الجوارح والاركان ﴿ والجوع ﴾ أى و بلزومه للصيام أو للصبر على فقده والا فهو ليس مطلوبا بنفسه ، ولذا ورد فى دعائه عليه السلام «وأعوذ بك من الجوع فانه بئس الضجيع» فانه إذا اشتد عن حده يكون شاغلا لصاحبه عن ذكر ربه وفكر حبه ﴿ والسهر ﴾ فى الذكر والفكر والعبادة والتلاوة ، وإلا فهو أيضا ليس بمطلوب في حد ذاته ﴿ فهما ﴾ أى الجوع والسهر ﴿ ينوران القلب ﴾ اذا كان مشتغلا

بِتَقْلِيلِ دَمِهِ وَذَوَبَانِ شَحْمِهِ عَلَى الاعْتِدَالِ فَالْافْرَاطُ شَاغِلٌ كَالتَّفْرِيطِ وَنَفْيِ الْخَوَاطِرِ فَالتَّمْيِيزُ شَاغِلٌ وَالتَّسْلِيمِ لَهُ تَعَالَى فِي كُلِّ حَالٍ وَنَصْبِ مُتَفَقِّدٍ يُبَلِّغُ الْقُوتَ الْحَلَالَ فَهُوَ الْأَصْلُ

بذكر الرب ﴿ بتقليل دمه وذوبان شحمه ﴾ فيكون مضيقا لمجرى الشيطان ودخوله ووصوله فيختارهما ﴿على الاعتدال﴾ فيهما ﴿فالافراط﴾ والمبالغة منهما ﴿شاغل﴾ عن العبادة ﴿ كالتفريط ﴾ والتقصير عن قدر الحاجة لأرباب الارادة وأصحاب السعادة ﴿ونفى الخواطر﴾ أى وبلزوم نفيها ودفعها إذا كانت مذمومة كما قال العارف ابن الفارض:

ولو خطرت لى فى سواك ارادة على خاطرى سهوا حكمت بردتى

أى بارتدادى عن مقام حالى وحال ودادى وهذا اذا استقرت الخواطر ولم تكن من العواطر وإلا فلا عبرة لها وأشار اليها بقوله ﴿فالتميز ﴾ بين الخاطر الالهى والملكى والشيطانى والنفسى ﴿شاغل﴾ للسالك عما هو بصدده من حصول ذكر ربه ووصول سير قربه فى مقام حبه ﴿والتسليم﴾ أى وبلزوم التسليم والتفويض ﴿ له تعالى فى كل حال ﴾ من جميع أموره الدنيوية والاخروية فيترك تدبيره واختياره فى جميع أحواله الى ما دبره الحق له فى ازله ﴿ونصب متفقد﴾ أى وبلزوم تعيين خادم متفقد للوازمه ﴿ يبلغ القوت الحلال﴾ أى يوصل اليه ما كوله ومشروبه من مال الحلال وإلا فشبهه أقرب اليه من الحرام فان هذا الزمان زمان الشبهات وفقدان الحلال الصرف من الطيبات ﴿فهو﴾ أى الحلال ﴿الأصل﴾ فى محافظة الأعمال والأحوال كما يشير اليه قوله تعالى: (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) وقوله سبحانه: (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون) فقدم اكل الحلال على صالح الاعمال ، وقد امر الله المؤمنين بما امر به المرسلين اشعارا بان هذا شان السالكين من السابقين واللاحقين ، ولان الحلال يثبت ثواب عبادة لم يفعلها الشخص ، والحرام يبطل ثواب عبادة فعلها . وتوضيحه شخص تعب فى النهار بسبب كسب الحلال ، وكانت له وظيفة عبادة فى الليل من الاعمال ، ففات منه العمل بسبب فتور البدن وظهور الكسل ، فلا شك انه يثاب على تلك العبادة بسبب تحسين النية فى الارادة . ومن اكل الحرام او لبس الحرام وترك المنام وقام الليل كله بالصلاة وسائر انواع العبادة لا يقبل منه ، كما ورد « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفيه درهم حرام لم يقبل الله له صلاة مادام عليه منه شيء ».

وَتَرْكُ غَيْرِ الفَرَائِضِ وَالرَّوَاتِبِ وَالذِّكْرِ الدَّائِمِ مُسْتَقْبِلًا مَعَ الحُضُورِ بِاللِّسَانِ قِيلَ هُوَ اللّٰهُ وَوَرَدَ أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ

رواه الامام احمد عن ابن عمر . بل قوله تعالى: (انما يتقبل الله من المتقين) يعم اكل الحرام وسائر المحرمات على الانام ﴿ وترك غير الفرائض ﴾ القطعية والظنية ﴿ والرواتب ﴾ أى وغير السنن المؤكدة للصلوات الخمس، وهذا اللزوم بالنسبة الى المبتدىء حيث الافضل فى حقه مجرد الذكر ، وأما نسبته الى المتوسط فالاكمل فى حقه التلاوة ، وبالنسبة الى المنتهى الصلاة لانها جامعة للذكر والتلاوة واعمال الجوارح واختلاف الحالة كما فى عوارف المعارف ﴿ والذكر الدائم ﴾ أى ولزوم الذكر على سبيل الدوام ﴿ مستقبلا ﴾ لبيت الله الحرام ﴿ مع الحضور ﴾ أى حضور القلب فى مشاهدة الرب، ولعله اراد بالحضور هنا مجرد نفى الغفلة ، وأما الذكر فانما يكون ﴿ باللسان ﴾ أى بلسان البيان او بلسان القلب والجنان او بالجمع بينهما وهو اكمل، وان كان الذكر الخفى افضل لقوله تعالى (واذكر ربك فى نفسك) وهو يحتمل أنه اراد به الخفية عن الخلق واخفى منها وهى السر مع الحق كما لايخفى ، وكذا ماورد « خير الذكر الخفى» وورد « ان الذكر الذى لاتعلمه الحفظة افضل مما تعلمه بسبعين ضعفا » ولذا اختاره النقشبندية لتسليك المريدين فيأمرونهم بان يلصقوا لسانهم الى حنكهم ، ويقولون بلسان قلوبهم : لااله الاالله ويشيرون فى (لااله) الى نفى ماسوى الله ، وفى (الا الله) الى اثبات ذاته وصفاته ، ويريدون بالكلمة معنى لااله معبودا وموجودا ومشهودا بحسب مراتبهم وتفاوت مناقبهم . واما أهل الذكر الجلى باللسان فيشيرون بالنفى الى جانب اليمين ، وفى الاثبات الى جانب اليسار وهو القلب . وهذه كلها اصطلاحات للمشايخ الكبار واختيارات لهم فى مقام الاظهار والاسرار ، والا فما ثبت عن النبى المختار تلقين ذكر ولا اعطاء خرقة ولا طريق مصافحة ، انما الثابت بالتواتر الصحبة ومتابعة الكتاب والسنة . اذا عرفت هذا ﴿ قيل ﴾ افضل الذكر ﴿ هو الله ﴾ لانه المقصود لاسواه ، الا انه لايحصل التوحيد فى مقام التفريد اذ اثبات وجوده لاشك لاحد فى شهوده ، ولذا (قالت رسلهم أفى الله شك) وقال تعالى :(ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) فلا بد من كلمة التوحيد لتحقق صفة التفريد ؛ وقدامر جميع الانبياء والرسل بذلك لاتباعهم واشياعهم ﴿ وورد ﴾ عن نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ افضل الذكر لااله الاالله ﴾ تمامه « وافضل الدعاء الحمد لله » كما رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن جابر

وَقِيلَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، فَوَرَدَ الْاسْمُ الْأَعْظَمُ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَآلِ عِمْرَانَ وَهُمَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ

مرفوعا ﴿ وقيل لااله الاهوالحى القيوم ﴾ وهو لاينافى ماتقدم لما فيه من زيادة الحى القيوم ، ولانه آية من القرآن دالة على التوحيد مع زيادة البرهان ، فالحى الازلى الابدى يشير الى ان غيره لايصلح للالوهية ، لانه اما لاحياة له اوحياته حادثة، والقيوم هو الذى يقوم بذاته ويقوم غيره باظهار صفاته من قدرته وارادته وحكمته فى مصنوعاته، وفى هذا تلويح الى بطلان مايقوله الوجودية من المعية فى المراتب الشهودية حيث قال ابن العربى : سبحان من اوجد الاشياء وهو عينها ، وقد وقع التناقض في عين كلامه المنافى لمرامه ، فانه سبحانه اذا اوجد الاشياء واحدثها كيف يتصور ان يكون عينها ، فما للتراب ورب الارباب ، فهو ابعد من قوله من قال بالاتحاد فى مقام الالحاد والله رؤف بالعباد ﴿ فورد ﴾ فى بعض الروايات تقوية لما تقدم ﴿ الاسم الاعظم ﴾ ثابت ﴿ فى آية الكرسى ﴾ أى فى اولها ﴿ وآل عمران ﴾ أى فى صدر سورتها ﴿ وهما يشتركان فيه ﴾ أى فى وجود لفظ الله لااله الاهو الحى القيوم فيهما دون غيرهما من السور ، فانها خالية عنهما . والحديث رواه ابو داود والترمذى وابن ماجه وابن ابى شيبة عن اسماء بنت يزيد مرفوعا بلفظ «اسم الله تعالى الاعظم فى هاتين الآيتين: والهكم اله واحد لا اله الاهو الرحمن الرحيم ، وفاتحة آل عمران : الم الله لااله الاهو الحى القيوم» والظاهر انه فى الآيتين كلتيهما معا على سبيل الاجتماع، ويحتمل الانفراد، وكذا الكلام فيما ورد من حديث ابى امامة « اسم الله الاعظم فى ثلاث سور : البقرة وآل عمران وطه » قال القاسم التابعى : فالتمسته فوجدته انه الحى القيوم لوجوده فيها . ويؤيده حديث اصحاب السنن الاربعة وغيرهم « ان الاسم الاعظم ياحى ياقيوم» وهو المناسب لما تقدم والله اعلم . وأما ما اورده المصنف فما رأيته فى حديث. ثم فى المستدرك للحاكم عن سعد بن ابى وقاص « اسم الله الاعظم الذى اذا دعى به اجاب واذا سئل به اعطى لااله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين » وهو دعوة ذى النون يونس عليه السلام ، ويؤيده قوله سبحانه (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) وقيل هو هو حيث صدر به وختم به فى قوله (هو الله الذى لااله الا هو) ويقال *

وَالأَوْلَى فِيهِ الاسْتِفْتَاءُ مِنَ القَلْبِ وَيُوَاظِبُهُ حَتَّى تَسْقُطَ حَرَكَةُ اللِّسَانِ وَيَجْرِي دُونَ اخْتِيَارٍ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى القَلْبِ، ثُمَّ تَنْمَحِقُ الحُرُوفُ وَيَبْقَى المَعْنَى ثُمَّ يَرْتَفِعُ العَدَدُ وَتَصِيرُ حَالَةً مُسْتَدِيمَةً وَحِينَئِذٍ تَحْدُثُ المَحَبَّةُ فَلَا يَنْسَى المَذْكُورُ،

اعد ذكر نعمان لنا أن ذكره هو المسك ما كررته يتضوع

ومن هنا قيل أن فى كلمة الجلالة انواعا من الجمالة اذ لو حذف الفه بقى لله ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض، واذا حذف لامه الاولى بقى له وله ما فى السموات وما فى الارض وله الحمد فى الاولى والآخرة وله الكبرياء فى السموات والارض، واذا حذف لامه الثانية بقى هو لااله الا هو قل هو الله احد الى آخره وهو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ليس كمثله شىء وهو السميع البصير فسبحان من لايعرفه ما هو الا هو، وقد جاء فى الاسم الاعظم روايات اخر كما بينته فى شرح الحصن الحصين والجمهور على أن الاسم الاعظم هو الله وقد قال القطب الربانى السيد عبد القادر الجيلانى: أن الله هو الاسم الاعظم لكن بشرط أن تقول الله وليس فى قلبك سوى الله، ومن هنا قال شيخ مشايخنا الشيخ أبو الحسن البكرى قدس الله سره السرى فى اول حزبه استغفر الله مما سوى الله وتعقبه بعض علماء الظاهر حيث لم يعرف الله ولا ماسواه وقد شرحته فى جوابه وبينت القول بصوابه ﴿ والاولى فيه ﴾ أى فى المختار من الاذكار ﴿ الاستفتاء من القلب ﴾ فيختار ما يلهمه الرب ﴿ ويواظبه ﴾ ليلا ونهارا وسرا وجهارا ﴿ حتى تسقط حركة اللسان ﴾ أى كلفتها ﴿ ويجرى ﴾ الذكر على اللسان ﴿ دون اختيار ﴾ أى من غير تكلف تذكار واحضار ﴿ ثم يرجع ﴾ الذكر ﴿ الى القلب ﴾ أى ينتهى اليه ويستولى عليه ﴿ ثم تنمحق ﴾ وتنمحى ﴿ الحروف ﴾ من المبنى ﴿ ويبقى المعنى ثم يرتفع العدد ﴾ من المائة والالف ونحوهما مما لابد له من احضار المبنى ﴿ وتصير ﴾ مداومة تصور الذكر ﴿ حالة مستديمة ﴾ دالة على رتبة مستقيمة ﴿ وحينئذ تحدث المحبة ﴾ وتظهر المودة ﴿ فلا ينسى المذكور ﴾ فى حال من احوال الذاكر كالاكل والشرب والمخالطة والعزلة والسكوت والكلام واليقظة والمنام فقد قال المحبة دوام الذكر ويؤيده حديث من أحب شيئا اكثر ذكره، وقال سفيان المحبة اتباع صاحب النبوة ويؤيده آية * قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى * ولله در القائل.

ثُمَّ يَغِيبُ عَنْ مُشَاهَدَةِ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا حَتَّى عَنِ النَّفْسِ وَعَنْ مُحَاضَرَاتِهَا فِي الْمَذْكُورِ وَهُوَ الْقُرْبُ ، ثُمَّ يَغِيبُ عَنِ الذِّكْرِ أَيْضًا فِي شُهُودِ الْمَذْكُورِ وَهُوَ الْفَنَاءُ ثُمَّ يَحْدُثُ الاتِّصَالُ وَيُشَاهِدُ مَا يُشَاهِدُ لِظُهُورِ النُّورِ وَالْغَفْلَةَ عَنِ الشَّوَاغِلِ

عجبت لمن يقول ذكرت ربى ... وهل انسى فاذكر ما نسيت
أموت اذا ذكرتك ثم أحيا ... ولو لا حسن ظنى ما حييت
فاحيا بالمنى واموت شوقا ... فكم احيا عليك وكم أموت
فليت خيـــاله نصب لعينى ... فان قصرت فى نظرى عميت
شربت الحب كأسا بعد كأس ... فما نفد الشراب ولا رويت

وقال ابن الجلاء: اوحى الله الى عيسى عليه السلام انى اذا اطلعت على سر عبدى فلم اجد فيه الدنيا والآخرة ملأته من حبى وتوليته بحفظى ﴿ ثم يغيب ﴾ الذاكر ﴿ عن ﴾ مشاهدة جميع الاشياء ظاهرا وباطنا ﴾ فى مكنوناتها من ارضها وسمواتها ﴿ حتى عن النفس ﴾ وجودها واجزائها ﴿ وصفاتها ﴾ أى وعن شهود صفاتها الذميمة والمحمودة وسائر حالاتها ﴿ و ﴾ يغيب ﴿ عن محاضراتها فى المذكور وهو القرب ﴾ أى المأثور عن الجمهور، فعن الخواص المحبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات ﴿ ثم يغيب ﴾ الذاكر ﴿ عن الذكر ﴾ أى عن وجوده وشهوده ﴿ أيضا ﴾ كما غاب عما عداه من المسطور ﴿ فى شهود المذكور ﴾ أى حضوره بطريق الفرح والسرور ﴿ وهو الفناء ﴾ فى بحر النور ﴿ ثم يحدث الاتصال ﴾ وهو كمال البقاء فى القرب الناشى من جمال الحب ﴿ ويشاهد ﴾ الذاكر ﴿ ما يشاهد ﴾ من عالم الوصال ﴿ لظهور النور ﴾ من اشعة الجمال ولمعة الجلال فى مقام الكمال ﴿ والغفلة ﴾ أى وللغفلة والذهول ﴿ عن الشواغل ﴾ والموانع من حصول الوصول إلى تحقيق الفروع والاصول وقالت رابعة العدوية يوما: من يدلنا على حبيبنا فقالت جارية لها حبيبنا معنا ولكن شغل الدنيا عنه قطعنا، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى « وهو معكم اينما كنتم » وقوله شغلتنا اموالنا واهلونا « وقال السرى: من احب الله عاش ومن مال الى الدنيا طاش والاحمق يغدو ويروح بلاش والعاقل عن عيوبه فتاش وكأنه مقتبس من قوله تعالى، (فلنحيينه حياة طيبة) «وقال هرم بن حيان اقول المؤمن اذا عرف ربه احبه واذا احبه اقبل اليه وإذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الآخرة

وَيَصِيرُ مِنْ مُلُوكِ الدِّينِ * وَقَدْ انْتَهَى الكِتَابُ مُتَحَلِّيَ المَقْطَعِ بِالدُّعَاءِ

بعين الرغبة وبقى بجسده فى الدنيا و بروحه فى العقبى مع المولى فى المقام الاعلى و قال الشبلى اوحى الله إلى داود عليه السلام ياداود ذكرى للذاكرين وجنتى للمطيعين وزيارتى للمشتاقين وانا خاصة للمحبين ﴿ ويصير ﴾ الذاكر حينئذ ﴿ من ملوك الدين ﴾ ومن الائمة المجتهدين ومشايخ المسلمين ووحيد عصره وفريد دهره بتوفيق ربه وهو خير المعين لتحقيق علم اليقين فكمل ايمانه واسلامه واحسانه فى عين اليقين واستغرق فى بحر التوحيد ونهر التفريد وغاص فى عين العلم وغاب عن عين غيره فى زين الحلم فلنذكر بعض احوال المحبين فقد قال بعضهم لبعض العارفين انك محب فقال لست محبا انما انا محبوب والمحب متعوب فكأنه اشار الى أنه مجذوب ومطلوب وأنه بسبب لذته فى خدمة محبوبه غير متعوب، ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الانفس ونهبوا الاموال اجتمع إلى سهل اخوانه فقالوا لو اسألت الله عز وجل دفعهم فسكت ثم قال لله عباد فى هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الارض ظالم الامات فى ليلة واحدة ولكن لايفعلون قيل ولم؟ قال لانهم لايحبون مالا يحب الله وقيل لبشر باى شيء بلغت هذه المنزلة؟ فقال كنت اكاتم الله حالى يعنى أساله ان يكتم علي ويخفى أمرى، وروى أنه رأى الخضر فقال له ادع الله لى فقال يسر الله عليك طاعته قلت زدنى قال وسترها عليك فقيل معناه سترها عن الخلق حتى لايطلعوا عليها وقيل معناه سترها عنك حتى لاتلتفت أنت اليها، وفى الاخبار أن الله تعالى أوحى إلى انبيائه انما اتخذ لخلتى من لايفتر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولم يؤثر على شيئا من خلقى وأن أحرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وأن قطع بالمنشار لم يجد لمس الحديد المافمن لم يبلغ الى دارة غلبة الحب الى هذا الحد فمن اين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب ووراء كمال الايمان ولاحصر لمقامات الايمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان والله المستعان ، ومما يؤيد هذا الشان من البرهان ماروى أنه عليه السلام قال لابى بكر الصديق أن الله قد أعطاك مثل ايمان كل من آمن بى من أمتى واعطانى مثل ايمان كل من آمن بى من ولد آدم رواه الديلمى عن على ﴿ وقد انتهى الكتاب ﴾ الذى هو لب اللباب لكل فصل وباب عند ارباب الالباب ﴿ متحلى المقطع ﴾ المشير الى أن * ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴿ بالدعاء

المَأْثُورِ اللَّهُمَّ انَّا نَسأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى وَالعَفَافَ وَالغِنَى، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ عِلْمٍ لَا يَنفَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَدُعَاءٍ لَا يُسمَعُ، وَآخِرُ دَعْوَانَا

المأثور ﴾ عن سيد الابرار وسند الاخيار ﴿ اللهم انا نسألك الهدى ﴾ بالايمان ﴿ والتقى ﴾ عن العصيان ﴿ والعفاف ﴾ بالكفاف للانسان ﴿ والغنى ﴾ عن الخلق فى جميع الاحيان ، والحديث رواه مسلم والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود بلفظ «اللهم انى اسألك الحديث» فلعل ما ذكره رواية فى المبنى أو نقل بالمعنى، واختار صيغة الجمع لندخل معه ويدخل معنا كما فى قوله ﴿ ونعوذبك من علم لا ينفع ﴾ وهو يحتمل احتمالين، احدهما انه فى نفسه لم يكن من العلوم النافعة كما يشير اليه ماورد ان من العلم جهلا ، وثانيهما أنه لم يكن ينفع صاحبه بالعمل به لما ورد اشد الناس عذابا عالم لم ينفعه الله بعلمه ونعم ماقال ذو الحالة الفاخرة :

يامن تباعد عن مكارم خلقه ليس التفاخر بالعلوم الذاخرة
من لم يهذب علمه اخلاقه لم ينتفع بعلومه فى الآخرة

﴿ وقلب لايخشع ﴾ بان اسود بالغفلة ولم تؤثر فيه النصيحة والموعظة واسباب المعرفة كما قال تعالى ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ وقال عز وعلا ﴿ الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم ﴾ وقال عز وجل ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ ﴿ ونفس لا تشبع ﴾ من الدنيا فتكون حريصة عليها ومقبلة بكليتها اليها أو كناية عن كثرة أكلها وعدم قناعتها بمقدار كفايتها ﴿ ودعاء لا يسمع ﴾ أى لا يقبل فى حال دعوتها والحديث رواه ابن أبى شيبة عن ابن عمر والطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس وزاد اللهم إنى أعوذ بك من هؤلاء الأربع ورواه الحاكم وابن أبى شيبة عن ابن مسعود بلفظ «اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع» وفى رواية لابن حبان وغيره عن أنس اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل لا يرفع وقلب لا يخشع وقول لا يسمع وفى رواية لأبى داود عن أبى هريرة اللهم انى أعوذ بك من الاربع من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ودعاء لا يسمع ففى هذه الروايات دلالة واضحة على عدم منع جواز السجع الصادر عن استقامة الطبع كما حكى أنه قيل لصاحب المنازل اترك السجع فقال رجعت عما سجعت ﴿ وآخر دعوينا ﴾ بتوفيق مولانا

أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَعَلَى أَتْقِيَاءِ أُمَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ *

﴿ ان الحمد لله رب العالمين ﴾ فيما أولا نافى أولا ناو آخرا ناو فيه ايماء الى قوله سبحانه اخبارا عن أهل الجنة ان يقولوا فيها هذا الكلام وهو (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) وفيه تنبيه نبيه على أن أخر مقامات أهل الجنة فى درجات المعرفة والمحبة هو الرضاء والشكر بمزيد النعمة وازالة المحنة كما يومى اليه قوله سبحانه (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا الغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ـ أى تعب ـ ولا يمسنا فيها لغوب ـ أى كلال وكسل، وفسر الحزن بانواعه بحسب ما كان كل أحد مبتلى بفرد من أصنافه فقيل حزن الفقراء كراء البيت أو التحويل منه أو حزن الفراق وحجابه وهو لأهل الاشتياق الى مشاهدة الله ورفع نقابه وهو أعلى مراتب أرباب الكمال وأعلى مناصب أصحاب الجمال المتزايد المترقى ساعة فساعة الى أزل الآزال والله سبحانه أعلم بحقائق الاحوال ﴿ وسلام على عباده الصالحين ﴾ من الانبياء والمرسلين السابقين ﴿ والصلاة على محمد رسوله ﴾ سيد الاولين والآخرين ﴿ خاتم النبيين وعلى أتقياء أمته ﴾ من أهل بيته وصحابته وأتباعهم وأشياعهم أجمعين ﴿ الى يوم الدين ﴾ امين يارب العالمين، وكان الفراغ منه على يد مؤلفه رحم وغفر مع سلفه وخلفه أخر يوم الخميس المشرف على ليلة الجمعة المسماة بليلة الرغائب من شهر الله المعظم رجب المرجب احد الاشهر الحرم من شهور عام أربعة عشر بعد الالف من هجرة خير البشر وشافع المحشر من مكة الامنية إلى المدينة الامينة النازل فيها للمؤمنين أنواع السكينة ، حامدا ومصليا

ومسلما ومفوضا ومتوكلا ومؤمنا ومسلما ، والصلاة والسلام

على سيد المرسلين وأفضل الخلق أجمعين * وعلى اله وأصحابه

وأتباعه إلى يوم الدين. امين امين بحرمة سيد المرسلين

فهرست

﴿الجزء الثانى من شرح عين العلم وزين الحلم لمنلا على القارى﴾

﴿محتويات الجزء الثانى من شرح عين العلم وزين الحلم﴾

